مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
كامل سلمان الجبوري

حققه هذا السفر
مهدي النجم

الجزء الثالث عشر

كتاب الإنشاء المغاربة والخطباء



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذا هو السفر الثالث عشر من موسوعة ابن فضل الله العمري

(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)

وقد اختص بكتّاب الانشاء من المغاربة، معتمداً في تراجمهم وتسجيل نصوص من أدبهم على كتابين مهمين هما: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام»، وكتاب «قلائد العقيان لابن خاقان»، وذيّل عليهما بمن لم يُذكر في الكتابين، ثم ترجم لمن قَدِم من المغاربة على مصر.

ثم تحدّث على الخطابة والخطباء قبل الإسلام وخطباء المشرق ممن ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، كما ترجم من جاء بعد الجاحظ، وذكر نصوصاً كثيرة لهم.

ثم ذكر حال الخطابة في المغرب، ومن اشتهر بها، ثم عرج على خطباء مصر.

ضمَّ هذا السفر تراجم كثيرة، وامتاز بتسجيل نصوص كاملة فريدة لم نجدها عند غيره من مؤرخي الأدب، وفيه نصوص لم ينقلها من كتاب، وإنما أخذها مباشرة من معاصريه من المترسلين والكتّاب والخطباء.

اعتمدتُ في تحقيق هذا السفر على مخطوطة أياصوفيا المرقمة /٣٤٢٦/، مكتبة السليمانية باستانبول التي نشرها الدكتور فؤاد سزكين، وهي نسخة كاملة كتبت بخط واضح قريب من الثلث إلا أنها كُتبت بحروف مهملة في مواضع كثيرة، ولم تخلُ من تصحيف وخطوط مبهمة يصعب فهمها.

تتألف هذه المخطوطة من (٣٤١) صفحة، وتحتوي الصفحة على (٢٣) سطراً،

وهي خالية من البياضات والخرجات، وكتب في أعلى الصفحة الأولى وهي صفحة العنوان، اسم ناسخها أو مالكها وتاريخ النسخ أو التملك، وهو:

«محمد بن علي بن عيسى بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي عفا الله عنهم، عام ٧٤١».

عملت جاهداً على توثيق النصوص على مصادرها التي نقل عنها المؤلف أو على غيرها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، كما حاولت اصلاح ما صُحّف من كلمات، وترجمتُ من ذكر من الأعلام والمواضع.

أرجو أن أكون قد قدمت ما ينفع الناس.

والحمد لله رب العالمين.

المسيب ـ العراق
في ٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ
الموافق ١٧ حزيران ٢٠٠٤م

مهدي ع . الحسين النجم



الصفحة الأولى، عنوان نسخة أياصوفيا

بسم الله الرحمن الرحيم على الله توكلت

فأما الكتاب المغاربة وما لهم من نجوم غير غاربة فسأتي منهم على بحور
تزخر عبابا وتسحر الألبابا إلمام بابن بسام وعمر ما ابتكر ثم بالفتح ابن خاقان
راغبا نامن ذكر واذيل على ابن خاقان بما هنا للأوان وأكثر عدد ثم
بأهل مصر إذا ارتفع صوتها وقعها الحظ في سوقهم وان لم ترسم بوسمهم ولم
تدخل في مجرد اسمهم ولما أذكرهم في آخر المغاربة إذ كان للبحث في
إخراج مصر عن قسم الغرب مجال وما ضر الشرق أن ساح أهله الغرب
رجال على أن الغرب كبير ناسه ملي بأنواع الأدب وأجناسه ولهم الفضل
المعرب والبيان المغرب والبنيان المعجب ولم غوص لا يدرك له قرار
وغور هبت على نجد له نسمات أسحار جاور البحر وتلا وادي البحر
فمنهم أبو الحسن علي بن بسام مصر الذخيرة وجامعها ومعير الشم
تلك الأنوار وجلاء عهاد حربها النفايس الغوالي ونحر المنافس المغالي
وأخذها الجواهر وما ثنيت ونال بها الخواطر وما ثنيت وطالما ترى منفق
من خير نخا ومن تفوق بحير نهام كنوز ما وقعت عليها المآرب ولا وقعت عليها
أرباب المطالب لا بل تلك ربما انفدها الإنفاق وانفقها داعي الإملاق
وهي معدن يولد الذهب فكيف تلق وبحر يخرج الدر فكيف لا ينفق تقذفت
بها أمواج ذلك البحر الذي منه لمنار ومجاج ذلك النحل الذي منه يشتار
من عبق ذلك الروض وغرف ذلك الحوض وثمر ذلك الدوح ومكنون ذلك
اللوح وفضايل ذلك الفاضل الذي مارقت لولاه أصل المغرب ولا
انصب جدول النهار في روضة المعشب ولا رفعت للأندلس أعلام ولا عرفت
وقايع وأيام ولا نشرت لأهله أفلار ولا تطرقت بفضله سير وأخبار ولا حفظت
له ذخيرة خير من كل درهم ودينار فانتضيت بها لعود الدهر دون وجات
أنارا وكلها عيون ومن نثر قوله وهو على ناصر الذكر

٢

ونثرو

الصفحة الثانية لنسخة أياصوفيا

من ذل لعزته وخضع وانار في قلبه ضيا التوحيد ولمع واشكره شكرا اذا ذكر
القلب خشع ومنى باسله الطرف همع واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له شهاده ارجو بها الامن يوم الفيمه الفزع واجوبها اذا اشتد الخطب وعظم
الجزع واشهد ان محمدا عبده ورسوله الذي برز من الكفر كلما اجتمع واقتطعن
الدين بعد ما هجع واكشف هلال الشرك عند ما طلع واقام بنا الخطب
والجمع صلى الله عليه وعلى اله وصحبه المين حبل تلوتهم على الدين وطبع صلاه
دايمه ما غاض الما ونبع وخر ساجد لله وركع ايها الناس اعتدوا الى [illegible] واعتبروا
فالسفر بعيد واشدوا [illegible] الدخول في الوحله فالامر [illegible] الاجل فالموت اقرب
فالعمر في كل يوم يزيد وبادروا بالعمل وحاذروا [illegible] يوم الوعيد تذكروا رحمكم الله
من جبل الوريد واغتنموا الفرصه قبل [illegible] ولا والله لقد عفت من بعدهم الاثار ولم يبق
من خلدهم كان قبلكم في هذه الحياه الدنيا لعب ولهو وان الاخره هي دار القرار
الروايات واخبار [illegible] من العصور [illegible] وحكم عليهم العدل الذي لا يجور
فاسلوا [illegible] التلم على الامم بما حكي في الكتاب المسطور اين الامم الخاليه اين
اصحاب الهمم العاليه صاروا والله عظاما باليه تغيرت منهم المحاسن وزالت
وذهبت عنهم تلك النضاره وحالت وذوت تلك الغصون الزاهيه ومالت
فاتقوا الله واحذروا واعلموا ان بين ايديكم ما تجدون

اخر السفر الثالث عشر من كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار
ويتلوه ان شا الله في السفر الرابع عشر واما الشعرا فقد تقدم من هذا
ما فيه لناظر مستمتع ولسامع [illegible] والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد واله
وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصفحة الأخيرة لنسخة أياصوفيا

[كُتّاب الإنشاء المغاربة]

/٢/ بسم الله الرحمن الرحيم
على الله توكلت

وأما الكُتّاب المغاربة، وما لهم من نجوم غير غاربة، فسنأتي منهم على بحورٍ تزخر عباباً، وتُسحِرُ ألباباً، أبدأهم بابن بسام وغُرر ما ابتكر، ثم بالفتح بن خاقان وأعياناً ممن ذكر، وأُذيّل على ابن خاقان[1] إلى هذا الأوان، وأكثر عددهم بأهل مصر، إذا وقعها الحظ في سوقهم وإن لم توسم بوسمهم، ولم تدخل في مجرّ اسمهم، وإنما أذكرهم في آخر المغاربة. إذ كان للبحث في إخراج مصر عن قسم الغرب مجال، وما ضرّ الشرق أن سامح أخاه الغرب برجال، على أن الغرب كثير ناسُهُ مليّ بأنواع الأدب وأجناسه، ولهم الفضل المغرب والبيان المعرِب، والبنيان المعجب، ولهم غوص لا يُدرك له قرار، وغورُ هبَّتْ على نجدٍ له نسمات أسْحار، جاوروا السحب وقلدوا درة النحر.

فمنهم:

[١]
أبو الحسن، علي بن بسام[2]

ممير الذخيرة وجامعها، ومعير الشم تلك الأنوف وجادعها، ذخر فيها النفائس

---

(١) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي المعروف بابن خاقان الإشبيلي المتوفى سنة ٥٢٩هـ، صاحب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ترجم فيه لطائفة من الرؤساء والكتاب والشعراء ممن عاصرهم.
ترجمته في: مقدمة القلائد ووفيات الأعيان ٤/ ٢٣ ومعجم الأدباء ١٦/ ١٨٦ ونفح الطيب ٧/ ٢٩ والشذرات ٤/ ١٠٧ وخريدة القصر، قسم شعراء المغرب والأندلس ٣/ ٥٣٨.
وسيترجمه المؤلف فيما بعد.

(٢) علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن، من أدباء الأندلس ووزرائها وكتابها، نسبته إلى =

الغوالي، وفخر المنافس المغالي، وأخذ منها الجواهر وما فنيت، وزايلتها الخواطر وما فتئت، وطالما أثرى منفق من ذخيرتها ومرتفق نميرتها، من كنوز ما وقعت عليها المآرب، ولا وقعت عليها أرباب المطالب، لا بل تلك ربما أنفذها الإنفاق، وأنفقها داعي الإملاق، وهي معدن مولد الذهب فكيف تملق، وبحر يخرج الدر فكيف لا ينفق، قذفت بها أمواج ذلك البحر الذي يُمْتار، ومجاج النحل الذي منها يُشْتار، من عبق ذلك الروض، وغدق ذلك النوض، وثمر ذلك الدوح، ومكنون ذلك اللوح، وفضائل ذلك الفاضل الذي ما رقّت لولاه أُصُل المغرب، ولا أنْضب جدول ذلك النهار في روضهِ المعشب، ولا رفعت للأندلس أعلام، ولا عُرِفَتْ وقائِعُ وأيّام، ولا تميزت لأهله أقدار، ولا تطرقت بفضلِهِ سِيَر وأخْبار. ولا حفظت له ذخيرةٌ خير من كل درهم ودينار فاقتضيت بها لوعود الدهر ديون، وحازت آثاراً وكلها عيون.

ومن نثره قوله:

وهو على نباهة الذكر /٣/ وشرف المحلِّ من فهر، قد اقتصر على عفّةٍ في العيش يتبرّض حميمها، لا بل يتزوّد نسيمها، والشمس وإن سترها الضباب فغير خفيّة السنا ولا مجهولة العنا.

ومنه قوله:

طرائد سيوف، وجلاء حتوف، قد خلعهم لين العيش على خشنه، وأسلمتهم غفلات الزمان إلى محنهِ.

ومنه قوله[1]:

عارِضٌ إذا هَمَعَ استوشَلَتْ البحار، ونجمٌ إذا طلع تضاءلت الشموسُ والأقمار، وهو أحد من آوى بأشبيلية من الحسب إلى ثبج عظيم، ومشى في الأدب على منهجٍ قويم، سابقٌ لا يمسح وجهه إلاّ بهيادب الغيوم، وصارم لا يحلّى غمده إلا بأفراد النجوم.

ومنه قوله:

بحرٌ من بحور الكلام قذف بدرّ النظام، وطوقَهُ أعناق الأيام، أسحر من أطواق

= شنترين، له: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجم فيه أعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم، ونقل المؤلف عنه تراجم المغاربة، توفي سنة ٥٤٢هـ.
ترجمته في: المغرب في حلي المغرب ١/ ٤١٧ ومقدمة الذخيرة، وهدية العارفين ١/ ٧٠٢، وسماه علي بن محمد بن بسام «رايات المبرزين» ص٤٥.

(١) الكلمة في الذخيرة ق٢ مج١ ص٣٢٥.

الحمائم، وأبهر من النجوم العوائم، كان من شعراء الدولة العبادية، ثم خلع الشعر بعدها خَلْعَ النجاد، وتبرأ منها تبري العباسية من دعوى زياد، إلا إلمام الطيف بعين الفرق، والتفات الدليل ببنيات الطرق.

ومنه قوله في مؤرخ:

كان سهماً يصمي رميه، وبحر لا ينكس أذيه، لو ثبت الماء لما نقع، أو تعرّض لابن ذكاء ما سطع، يتناول الأحساب التي قد رست في التخوم، وأنافت على النجوم، فيضع منارها ويطمس آثارها، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غبّ الموعد، وآمن من عذر الطبيب عند العود.

ومنه قوله في ذكر ابن عمار[١]:

شاعرٌ لا يجارى، وساحرٌ لا يمارى[٢]، إن مَدَح استنزل العُصْم، وإن هجا أسْمَعَ الصمَّ، وكان قد اتخذ الشعر مدة صناعته[٣]، ثم خلع بعد هذا طاعته[٤]، رغبة بنفسه عن محلّةٍ[٥] سؤددها سؤال، وأجْوَدُها كذبٌ ومحال.

ومنه قوله[٦]:

وقد وعدتُ في صدر هذا الكتاب بأن أتخَلَّل أشعار الشعراء، ورسائل الكتاب والوزراء، بما عسى أن يتعلّق بأذيالها ويساير أفياء ظلالها[٧]، ونشير[٨] بأسماء طوائف توابعها الذين استظهروا على شهواتهم بجرّ ذيولها، وامتروا[٩] بطالاتهم من أخلاف أباطيلها. وسينخرط في ملك ما أُوشِّحُ به هذا التصنيف[١٠] من تلخيص التعريف[١١] بأخبار ملوك الجزيرة لابن حيان[١٢]. وعلى /٤/ تاريخِهِ[١٣] الكبير عوّلت، ومن خطّ

---

(١) ذو الوزارتين، أبو بكر بن عمار، والنص في الذخيرة ق٢ مج١ ص٣٦٩.

(٢) في الذخيرة: كان شاعراً.. وساحراً.

(٣) في الذخيرة: وكان قد نشأ والشعر بأفقنا أنفق...فاتخذه مدةً صناعته.

(٤) في الذخيرة: بعدُ. (٥) في الذخيرة: رغبة عن نحلةٍ سؤددها سؤال.

(٦) الذخيرة في محاسن الجزيرة ق٢ مجلد١ ص٣٤.

(٧) بعده في الذخيرة: من أبناء فتن ذلك الزمان البعيد ـ كان طلقها المفرق لشمل الأمر.... إلخ.

(٨) في الأصل: (نشيد) والتصويب عن الذخيرة. (٩) في الأصل: وأمرو.

(١٠) في الأصل: النصيب. (١١) في الأصل: التشريف.

(١٢) ابن حيان، هو حيان بن خلف بن حسن بن حيان، الأموي بالولاء، أبو مروان، مؤرخ كبير من أهل قرطبة. له «المقتبس في تاريخ الأندلس» وله «المبين» أو المتين في تاريخ الأندلس أيضاً توفي سنة ٤٦٩هـ.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/٢١٨ والأعلام ٢/٢٨٩.

(١٣) قبلها في الأصل (الجزيرة) ولا معنى لورودها، فحذفتها.

يدِهِ أكثر ما نقلْتُ[١]، على أنّه لم يخلص إليّ من غمامِهِ إلاّ قطرة، ولا حصّلَتْ إليّ من حسامِهِ إلاّ إبرة، فلذلك ما ارتشفت ثمادي، ونفختُ فيما لم أجده من كلامه رمادي[٢]. وأنفقتُ في ذلك من تافِهِ زادي.

ومنه قوله[٣]:

بنادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، نظم كما اتسق الدرُّ على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشق القلوب قبل الجلود.

ومنه قوله:

وكان أبو الوليد ـ يعني ابن زيدون ـ أحد من جرّ الأيام جرّاً، وفات الأنام طرّاً، إلى أدب ليس للبحر تدفّقه، ولا للبدر تألّقه، وشعر ليس للسحر بيانُه، ولا للنجوم الزهر قرانه، وحظٍّ من النثر غريب المعاني، شعري [الألفاظ][٤] والمعاني.

أخبرني غير واحد من شعراء[٥] أشبيلية قال: لما خَلَصَ ابن عبد البر[٦] من يد عباد، خلوص الفرزدق من يد زياد، بقيت حضرته من أهل هذا الشان، أعرى من ظهر الأفعوان، وأخْلى من صدر الجبان، فهمَّ [يوما][٧] باستخلاف أبي [عمر][٨] الباجي، فكأن أبا الوليد غصَّ بذلك، وواطأ [أبا محمد][٩] ابن الجد على الإشارة[١٠] بالاستغناء عما هنالك، فكانت[١١] الكتب تنفذ من إنشاء أبي الوليد إلى شرقيّ الأندلس، فيقال: تأتي من أشبيلية كتب هي بالنظم الخطي أشبه منها بالنثر[١٢].

ومنه قوله[١٣]:

---

(١) بعده في الذخيرة: وتحريت جهدي اقتضاب ما طوّل، وتخفيف ما ثقل... إلخ.

(٢) في الأصل: فيما لم أجده من كلام رمادي.

(٣) الذخيرة: ق١ مج١ ص٣٣٦.

(٤) كلمة (الألفاظ) ليست في الأصل. وهي من الذخيرة.

(٥) في الذخيرة: وزراء.

(٦) ابن عبد البر: هو أبو محمد عبد الله بن عبد البر النمري. ترجمه ابن بسام في ق٣ مج١ ص١٢٥.

(٧) زيادة عن الذخيرة.

(٨) في الأصل: أبو محمد، وهو يوسف بن جعفر، سيترجمه المؤلف فيما بعد، والتصويب عن الذخيرة. إلا أن المحقق أشار في الهامش. أنها وردت في الأصل (أبو محمد).

(٩) زيادة عن الذخيرة.

(١٠) في الأصل بالإشارة، والتصويب عن الذخيرة.

(١١) في الأصل: وكانت.

(١٢) في الذخيرة: كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور.

(١٣) النص في الذخيرة ق١ ج١ ص٤٢٩.

وأما ولاّدة[١] في نساء زمانها[٢] واحدة أوانها[٣]، حضور شاهد، وحرارة أوابِد، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر[٤]، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها، ويتهالك أفراد الدهر[٥] على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها[٦]، وتخلط ذلك بعلق نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب. على أنها[٧] طرحت التحصيل، وأوْجَدت إلى القول فيها السبيل، لقلّة مبالاتها، ومجاهرتها بلذّاتها.

وأما ذكاء خاطرها، وعجب[٨] نوادرها، فإنه من آيات ناظِرها، [وكانت تخالل الوزير أبا عامر بن عبدوس][٩]. وطال عمرها وعمره[١٠] حتى أربيا على الثمانين، وهو لا يدع مواصلتها، ولا يغفل مراسلتها، وتحيّف هذا الدهر المستطيل حال ولادة، فكان يحمل كلَّها، ويرقعُ ظلَّها، على جدبِ واديه، وجمود روائحه /٥/ وغواديه.

ومنه قولهُ:

وهو في وقتنا غرّة الزمان الزاهرة، وآية الإحسان الباهرة، أحد من تقدم أهل الفضل تقدُّم الاسم على الفعل، واستولى على النيل استيلاء الشمس على الظلّ، وله صدر يسع الدهر كلّه، ولسان يخلق السحر لو استحلّه.

ومنه قوله:

وافاني منك كتاب ظلَلْت أسامره وأناجيه، قلبت إليه وفيه، وخفت أن أمحو سطوره تقبيلاً، فوضعته على رأسي إكليلاً، وصرتُ به على الدهر أميراً، ولم لا، وقد ملأ عيني نُوراً، وأمدني مسكاً وكافوراً. وداخَلَتْ نفسي منه قوّةً لا أعرفها، فكيف أصِفُها؟ ولا أدْريها فكيف أحكيها؟ وهي أظنّ ما يداخل المضلّ إذا أنشد فوجدا، أو المقل إذا استعدى على الأيام فأعدى، أو المحل يئس من السقيا فسقي. وظلّ ينشد:

---

(١) بعده في الذخيرة: التي ذكرها أبو الوليد بن زيدون في شعرهِ، فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري.

(٢) في الذخيرة: أهل زمانها.

(٣) في الذخيرة: أقرانها، وأشار المحقق في الهامش أنها وردت في بعض الأصول (أوانها).

(٤) بعده في الذخيرة: وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر.

(٥) في الذخيرة: أفراد الشعراء والكتاب.

(٦) في الأصل: منتمابها.

(٧) بعده في الذخيرة: سمح الله لها، وتغمد زللها.

(٨) في الذخيرة: وحرارة.

(٩) ما بين معقوفين ليس في الذخيرة: وفيه مرّت بالوزير أبي عامر بن عبدوس، إلى آخر الخبر.

(١٠) في الذخيرة: عمر أبي عامر.

وحديثها كالغيث يسمعه داعي سنين تتابعتْ جدْبا
فأصاخ يرجو أن يكون حَياً ويصيح من فرح هيا ربّا

ومنهم:

[٢]

أبو نصر، الفتح بن محمد بن خاقان القيسي[١]

مؤلف قلائد العقيان، وممثل فرائد تلك النحور للعيان، فأحيا رمم أولئك الأعيان، ووصل ذلك البيان، وخلَّدَ للمغرب فخراً بفضلِهِ، وذخراً بما حَفَظَ لأهلِهِ، ثم طلع بين نجومهم بدراً، ونثر خلال حصبائهم درّاً، وفاض على جداولهم بحراً، وآض في أخريات أسحارهم فجراً، وكان له عليهم رفعة السماء على رقعة الماء، لفضلٍ أناف بهِ إنافة البدر على الميسم، وغطّى عليهم تغطية الشفاه على المبسم، ويقال: إنه ما ضم بنانه قلماً، ولا أمّ بيانهُ لقماً حتى حفظ عشرة آلاف رسالة جعل خاطره مكان خطها، وحافظ ذكره موضع ضبطها فمرى بها شُعب فكره وأسالَهُ، ورصَّع من درر الدراري بما نالت يداه، وطالت مذاكيه إلى مداه. وأتى /٦/ كأنّ حالية العذارى تتكسر على حصاه، وسابق الثريا قد ألقى وراءه عصاه، وآخر حاله أنه وسّد كتابه وذبح عليه بيد بعض من ذمّه فيه وعابه، وعلم بالقاتل، وإنما درأه المداراة عند المقاتل، وتلك شيمة الأيام، وسخيمة صدور الأنام، ألاّ ترعى حقّ فاضل، ولا تراع بحد مناضل. وهي الدنيا تعاقب ما بنت ولا تُعاقب بما جَنَتْ، ومن نثره قوله[٢]:

واعلم[٣] أن المعتمد قد جيّش إليها ليتركها خاوية على عروشها، طاوية الجوانح على وحوشها، فأمر الراضي[٤] بالخروج إليه، فأظهر التمارض والتشكي، وأكثر التقاعس

---

(١) الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي، أبو نصر، كاتب مترسل، مؤرخ، من أهل اشبيلية، ولد سنة ٤٨٠هـ، وكان كثير الرحلات والأسفار، ألف كتباً أشهرها (قلائد العقيان) مات ذبيحاً سنة ٥٢٨هـ، أوعز بقتله علي بن يوسف بن تاشفين. وقد مضى ذكره ومصادر ترجمته.

(٢) قلائد العقيان ص١١٤.

(٣) في القلائد: ولما وصل المعتمد لورقة، اعلم أن العدوّ قد جيّش إليها وحشد، ونهد نحوها وقصد، لتركها خاوية..

(٤) الراضي، هو يزيد بن المعتمد محمد، إن كلفاً بمطالعة الكتب، مولعاً بالشعر، ولي الجزيرة الخضراء، وفي سيرته أن أباه المعتمد كان يلومه بين الحين والحين فيعتذر ويستعتب. قتله المرابطون برندة سنة ٤٨٤هـ.
ترجمته في: نفح الطيب ٢٥٦/٤ وقلائد العقيان ص١١٠.

والتلكّي، فوجه المعتمد مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده، ولم تنصر جنوده، فعندما رأوا[1] العدو تفرّقوا في تلك الأماريت[2] وفرقوا من تخطّف تلك العفاريت[3] فآب أخْسَر من بائع السدانة، ومضيّع الأمانة، فانطبقت سماء المعتمد على أرضه، وشَغَلَهُ عن إقامة نوافله وفرضه[4]، وفرق[5] العزائم البطية بين الصوارم والرماح الخطية.

ومنه قوله[6]:

وأيامٍ كأنها من حسنها جمع وليالٍ، كأن فيها على الأنس حضور، ومجتمع راقت إشراقاً وتبلُّجاً، وسالت مكارِمُهُ أنهاراً وخُلُجاً، إلى أن عَدَتْ عليه الأيام بمعهود العدوان، ودبّت إليها دبيبها لصاحب الإيوان[7]، وانبرت إليه انبراءها [لقيس بن][8] زهير وراء عُمان، ونُقل هو وابناه[9]، لم تعطف[10] عليهم إلاّ جوانح الليل، ولم تقف لديهم إلا بوارح الويل، وباتوا لم يطلب لهم بثأر، ولا انتظم شملهم بعد الانتشار، وهي الأيام[11] أقفرت شعب ودّان[12]، وعَفَّرت ملك غمدان، وأظفرت الحمام بعبد المدان[13]، وفرقَّت عن مكنسٍ رامه[14] ظباه، ورمت بسطام بن قيس فخرّ على الإلاءة، ومزقت[15] ابني بدر بجفر الهباءة.

---

(1) في القلائد: لقوا.

(2) في الأصل: إلا ما رتب، والأماريت، جمع مروت، وهي المفازة لا نبات فيها، انظر: اللسان (مرت).

(3) في القلائد: (فرقوا من تخطف أولئك العفاريت، وتفرّقوا من تلك الأحاديث) وبعده كلام حذفهُ المؤلف.

(4) بعدها في القلائد أبيات كتبها الراضي معتذراً. ثم أخرى للمعتمد. ثم للراضي مراجعاً.

(5) في القلائد: حتى مضوا لغير طيّة، وقضوا بين الصوارم والرماح الخطية.

(6) قلائد العقيان ص١٢٠ (ترجمة المتوكل على الله).

(7) هو كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز. توطدت مملكته، وبنى الإيوان المشهور بالمدائن ولا زالت بقاياه قائمة قرب بغداد.

(8) الزيادة عن القلائد.

(9) هو المتوكل على الله أبو محمد عمر بن المظفر، وابناه الفضل والعباس. قتلهم المرابطون صبراً.

(10) في الأصل: تنعطف.

(11) بعده في القلائد: هذه شيمتها، تسيء وإن همت بالإحسان ديمتها.

(12) شعب ودّان، واد بين مكة والمدينة. أكثر نصيب ذكره في شعره (معجم البلدان ٥/ ٣٦٥).

(13) عبد المدان، اسمه حشرم بن عبد ياليل، من جرهم. ملك جاهلي، قديم من أهل اليمن كانت إقامته بمكة.

(14) في القلائد: رماه.

(15) في القلائد (رمت).

ومنه قوله[١]:

وأخبرني ابن عبدون[٢] أن الجدب توالى بحضرته حتى جفّت مذانِبُها، واغبرت جوانبها، وأبدت الخمائل عبوسها، وشكت الأرض إلى السماء بوسها[٣]، فأقلع المتوكل[٤] وأظهر الخشوع، وأكثر السجود والركوع، إلى أن غيَّم الجوّ وانسجم النوُّ، وصاب الغمام، وترنمت الحمامُ، والمتوكلٍ ما فضَّ لتوبته ختاما، ولا نفضَ (عن)[٥] قلبه منها قتاما / ٧/.

ومنه قوله[٦]:

وأخبرني أنه سايره (إلى شنترين)[٧] وهي لا يردعها صرف، ولا يقرعها طرف. قد أطلّت على خمائلها أطلال العروس[٨] على منصّتها، واقتطعت[٩] في الجوّ أكثر من حصّتها، (فمرّوا بألبش)[١٠] قُطْرٍ سالت به جداولُه، واختالت فيه خمائله، فما يجول الطرفُ منه إلاّ في حديقة، أو بقعة أنيقة، فصار إلى مجلسٍ قد ابتسمت ثغورُ نوّارِهِ، وخجلت خدوده (وردهُ من زوّاره)[١١] وأبدت صدور أباريقه أسرارها، وضمَّت عليه المجالس[١٢] أزرارها.

ومنه قوله[١٣]:

وبقي ابنه[١٤] قد نهل بالغصص، وذهل خوفاً من القنص، إلى أن ركب في البحر

---

(١) قلائد العقيان ص١٣٧.

(٢) في القلائد: الوزير أبو محمد بن عبدون.

(٣) في القلائد: وسكت للسماء الأرض.

(٤) هو المتوكل على الله أبو محمد عمر بن المظفر. وبعده في القلائد: عن الشرب واللهو ونزع ملابس الخيلاء والزهو.

(٥) التكملة عن القلائد.

(٦) قلائد العقيان ص١٣٩.

(٧) في الأصل (بشنتمرى) وصححت على القلائد.

(٨) في الأصل: العروض.

(٩) في الأصل: وانقطعت.

(١٠) في الأصل ببلش أو في هامش الصفحة ١٣٩ من القلائد: كذا ولعلها ألش، وألش اقليم من كور تدمير بينه وبين أريولة خمسة عشرة ميلاً.

(١١) في الأصل: من روّادة، والتصويب عن القلائد.

(١٢) في القلائد: المحاسن.

(١٣) قلائد العقيان ص١٤٨.

(١٤) يريد به ابن المعتصم بالله أبي يحيى محمد بن معن بن محمد بن حماد، صاحب المرية، انظر: الذخيرة ١/ ٢/ ٧٢٩ والمغرب ٢/ ١٩٥ وابن خلكان ٥/ ٣٩، وابنه عز الدولة، أبو مروان عبيد الله، أنفذه أبوه في آخر دولته رسولاً إلى يوسف بن تاشفين فاعتقله، حتى تمكن أبوه من خلاصه، وبقي بالمرية إلى أن فر أخوه معز الدولة إلى بجايه، ولجأ هو إلى أحد المرابطين.

طريقاً غير يبس[١]، وساعدته الريح بنفس، فامتطى ثبجه[٢] إلى حين شاء جنوح، فأصبح وأطراف شراعه تلوح، وأطلاله تبكي عليه وتنوح، فأرجاه إلى بجاية سكّانُهُ، وحباهُ منها موضعُهُ ومكانُهُ.

ومنه قوله[٣]:

ودَخَلْتُ بلنسية[٤] فألفيته قد انحنى. وعُوِّضَ من شطاطِهِ[٥] بالحنا[٦]، وهو يمشي بالعيش على ضجر، ويمشي على ساقٍ من الشجر، ولا تحرق المنسأة من الكبر، ولا يملك رأس البعير إن نفر[٧]، وأقمنا نتعاطى أحاديث كأنها رضاب، ونتراضى الأيام غضاب.

ومنه قوله[٨]:

وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابُهُ، وتوشّحَتْ بالأُزر المذهبة أثوابه، يخترقه جدولٌ كالحسام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيمْ في الطلول، وضفافه بالدوح[٩] محفوفة والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة[١٠] وأقمنا نتنعم بحسنه طول ذلك اليوم، ووافى الليل فذدنا عن جفوننا[١١] طروق النوم، وظللنا بليلةٍ كان الصبح منها مقدودٌ، والأغصان تميسُ كأنها قدود، والمجرّةُ تتراءى نهراً، والكواكب تخالها في الجوّ زهراً، والثريّا كأنها راحةٌ تُشير، وعُطارِدُ لنا بالطرب تشير، فلما كان من الغدِ وافيتُ أبا عبد الرحمن[١٢] فأفضينا بالحديث إلى ذكر متنزهنا بالأمس[١٣] فقال:

ما بهجة موضع قد بان قطينُهُ[١٤] وذهب، وتسلب الزمان بهجته وانتهب، عهدي به وقد استدعاني[١٥] في يوم حلّت فيه الشمس بيت شرفِها، واكتست /٨/ الأرض

---

(١) إشارة لقوله تعالى: «فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً» سورة طه: ٧٧.

(٢) بعده في القلائد: وأورد غربانه لججه...إلخ.

(٣) قلائد العقيان ص١٩٩.

(٤) بعدها في القلائد: سنة ثلاثٍ وخمس مائة.

(٥) في القلائد: نشاطه.

(٦) في القلائد: الحنا، وهو تضمين لقول الشاعر:

وبدلتني بالشطاط انحنا ... وكنت كالصعدة تحت السنان

(٧) تضمين لقول الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ... ولا أملك رأس البعير إنْ نفرا

(٨) قلائد العقيان ٢٠٢.

(٩) في القلائد: وضفاته بالأدواح.

(١٠) في القلائد: وهو يروق... وبعده أبيات لعلي بن أحمد.

(١١) في القلائد: الجفون.

(١٢) في القلائد: الرئيس أبا عبد الرحمن زائراً.

(١٣) في القلائد، في أمس.

(١٤) في الأصل، فضة، هي تحريف صحح على القلائد.

(١٥) في القلائد: عهدي به عندما فرع من تشييده، وتتوهي في تنميقه وتنضيده، وقد استدعاني إليه المنصور بن أبي عامر.

بزخرفها، وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع، ولا يحل غير الفؤاد من مربع، وهم يديرون رحيقاً خِلْتُها في كؤوسها[١] درّاً وعقيقاً.. فأقمنا والشُّهُبُ تغازِلُنا، وكأنّ الأفلاك منازِلُنا، ثم توجَّع لذلك العهد، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد وأنشد:

سقياً لمنزلة اللوى وكثيبها إذ لا (أرى)[٢] زمناً كأزماني بها

ومنه قوله[٣]:

ورِثَ الرئاسة عن ملوك عضدوا موازرهم، وشدُّوا دون النساء مآزرهم، ركبوا الصعاب فذللوها، وابتغوا سبباً إلى النجوم حتى انتعلوها، فملكوا الملك بأيْدٍ، وعقلوه من النجدة[٤] بقيدٍ، وكان ذو الرئاستين يتشطط على نُدَّامِهِ، ولا يرتبط في مجلس مدامه، فلم تتم معه سلوة، ولا فُقِدتْ في ميدانِهِ كبوة، وقليلاً ما كان يقيل[٥]، ولا يناجي المذنب عنه إلاّ الحسامُ الصقيل، ومع هذا، فإنه كان غيثاً[٦] للندى، وليثاً في العدى[٧]، وبدراً في المحفل، وصدراً في الجحفل.

ومنه قوله[٨]:

والجو سماكيُّ العوارف، لازوردي المطارف، والنور مبتلٌّ، والنسيم مُعْتَلٌّ والرذاذ يرش، والربيع[٩] على الأرض فَرْشٌ، وقد صقل الغمامُ الأزهار حتى أذهب نمشها وسقاها فأروى عطشها. ثم وَجَّه فيه إلى روضةٍ أرِجت نفحاتها، وتدبجت ساحاتها، وتجرَّدت جداولها[١٠] كالبواتر، ورمقت أزاهِرها بعيون فواتر، وركب متصيداً في يوم غيم، نضح رذاذه[١١] وجه الثرى، وتلفّعت الشمس بمطرفِهِ[١٢] فما تُرى.

ومن قوله[١٣]:

وأخبرني[١٤] أنه دخل عليه في ليلة قد ثنى السرور منامَها، وامتطى الحبورُ غاربها

---

(١) في الأصل: وكؤوسها.
(٢) التكملة عن القلائد.
(٣) قلائد العقيان ص١٥٧، في الحاجب ذي الرياستين أبي مروان عبد الملك بن رزين.
(٤) في الأصل: النجد.
(٥) في الأصل: يقيد، وصححت عن القلائد.
(٦) في الأصل: عيشاً.
(٧) في الأصل: ولساناً في العدى، وصححت على القلائد.
(٨) قلائد العقيان ص١٥٨.
(٩) في القلائد: وللرذاذ رشّ، وللربيع..
(١٠) في القلائد: ذوابلها.
(١١) في القلائد: ردأهُ.
(١٢) في القلائد: بمطارفها.
(١٣) قلائد العقيان ص٥٦.
(١٤) بعده في القلائد: ذخر الدولة بن المعتضد بالله.

وسنامَها، وراع الأنسُ فؤادها، وستر بياضُ الأماني سوادها، وغازل نسيم الروض زوّارَها وعوّادها، ونور السُّرُح قد قلّص أذيالها، ومحا من لُجين الأرض أميالها[١] والبدر قد كمل، والتحف بضوئه[٢] القصر، واشتمل[٣].

ومنه قوله[٤]:

وأخبرني[٥] أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمه رداء ندّ، وسكب من قطره ماء وردٍ، وأبدى من برقه لسان نارٍ، ومن[٦] قوس قزحِهِ حنايا آس حُفّت بنرجس وجُلَّنار.

ومنه /٩/ قوله[٧]:

ولما افترس ملوك الأندلس ذلك الليث، وطمس رسومهم ذلك الغيث. بقي ذو الرئاستين[٨] طالعاً بأفُق الملك، وقد أفلت نجومه محترساً من ذلك الليث أن يُفاجئُهُ هجومه[٩]، إلى أن حطّته المنيةُ، وتخطَّت إليه تلك الثنيّة، وبقي ابنه على رسمِهِ إلى أن دبَّت[١٠] إليه تلك الأفاعي، واشتملت عليه تلك المساعي، فخرَّ من عرشه، وأقيم من فرشه.

ومنه قوله[١١]:

ولم يزل يكشف العدو[١٢] دفينه، ويجدف والموج يعوق سفينه، إلى أن هبّت ريحُهُ، فجرى، وتسنّى تسريحُهُ[١٣]، ووافى شاطبة[١٤] فأقام مشتملاً بالخمول، سائلاً[١٥] عن المأمول، إلى أن برئت بلنسية من آلامها، فبادر إلى استلامها، وعاد إليها، ولزم مطلعه متوارياً، وأقام ثابتاً لاساريا، لم يطأ رقعة أرضْ، ولا خرج لأداء سنّة ولا فرض، حتى أدرج في كفنه، وأخرج إلى مدفنه[١٦]، فانقرض

---

(١) في القلائد: بنبالها.
(٢) في القلائد: بضوء.
(٣) في الأصل: واستملى، والتصويب عن القلائد.
(٤) قلائد العقيان ص٥٧.
(٥) بعده في القلائد: ابن إقبال الدولة بن مجاهد.
(٦) في القلائد: وأظهر من.
(٧) قلائد العقيان ص١٦٩.
(٨) الحاجب ذو الرئاستين أبو مروان عبد الملك بن رزين بن هذيل، ولي حكم السهلة بعد أبيه سنة ٤٣٦هـ، وصارت إليه بعض أعمال بلنسبة، توفي سنة ٤٩٦هـ.
ترجمته في: المغرب ٢/٤٢٨ والقلائد ص١٥٧.
(٩) في القلائد: الذي افترسهم هجومهُ.
(١٠) الأصل: أدبت.
(١١) قلائد العقيان ص١٧١.
(١٢) القلائد: للعدوّ.
(١٣) بعده في القلائد: فادلج وسرى.
(١٤) شاطبة: مدينة في شرق الأندلس. شرقي قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة (الروض المعطار ص٣٣٧).
(١٥) القلائد: متأملاً.
(١٦) الأصل: جفنه وصححت على القلائد.

الكلام بانقراضه، وبكت البلاغة على أغراضِهِ.

ومنه قوله:

وفي الساقية الكبرى دولاب بيّن كناقةٍ أثر حوار، أو كثكلى من حرّ الأوار، وكل مغرم فيه ارتياحُهُ. بكرتهُ ورواحهُ.

ومنه قوله:

تحيّل لنفسه حتى تسلك من خَيْسِهِ، ففر فرار الخائف، وسرى إلى اشبيلية سري الخيال الطايف، فوافاها غلساً قبل الإسراج والإلجام، ونجا إليها برأسٍ طمرّةٍ ولجام، فهشّت له الدولة فأحمد قراره، وأرهفت النكبة غراره، وحصل عند المعتضد كالسويداء من الفؤاد، واستخلص استخلاص المعتصم لابن أبي داود، حتى أدركه حمامه، ولقي السرار تمامه.

ومنه قوله[١]:

وأخبرني أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رواءه. وأوقد فيها أضواءه، وهو على البحيرة الكبرى، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهراً، وقابلتها المجرَّةُ فسالتْ فيها نهْراً، وقد أرِجَتْ نوافحُ النّدِّ، وماست معاطف الرند، وحسدَ النسيم الرَّوضَ، فوشى بأسرارِهِ، وأفشى أحاديث آسِهِ وعَرارِهِ، ومشى مختالاً بين لبّاتِ الزهر[٢] وأزراره، وهو وجِمٌ، ودمعه مُنْسَجِمٌ، وزفراته تترجم عن عرار[٣] وتجمجم.

ومنه قوله[٤]:

والغصونُ قد التحفت بسندسها، والأزهار تُحيي بطيب تنفسّها، والنَّسيمُ يُلمُّ بها فيضعه بين أجفانها، وتودعهُ أحاديثَ آذارها ونيسانها، وبين يديه فتى من فتيانه، يتثنّى تثني القضيب، ويُجيل[٥] الكأس في راحةٍ أبهى من الكف الخضيب، وقد توشَّح، فكأن الثريا وشاحُهُ، وأنار فكأنَّ الصُّبحَ من مُحيّاه كان اتضاحُهُ.

ومنه قوله[٦]:

والغصون / ١٠/ تختال في أدواحها، وتتثنى في كف[٧] أرواحها، وآثار الروض[٨] قد أشرقت [عليهم][٩] كثكالى تحنُّ على خرابها وانقراض أطرابها.. وقد

---

(١) قلائد العقيان ٦٢.
(٢) القلائد: النور.
(٣) القلائد: عزام.
(٤) قلائد العقيان ص٦٣.
(٥) في القلائد: ويحمل.
(٦) قلائد العقيان ص٦٦.
(٧) في القلائد: أكف.
(٨) في القلائد: الديار.
(٩) التكملة عن القلائد.

يلين الحديد، ويبلى على طيِّهِ الجديد.

ومنه قوله[١]:

وبرز الظافر منفرداً من كماته، عارياً من حماته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه. فإنه كان غلاماً لما بلله الشباب بأندائهِ، وألحفهُ الحسنُ بردائه، فدافعهم أكثر ليلهِ، وقد مُنع منه بلا حقّ رجلهِ وخيلهِ، حتى أمكنتُهم فيه غرّة[٢] وسقطت به عثرة[٣]، فمرّ بمصرعه[٤] أحد أئمة الجامع المُغلّسين، فرآه وقد ذهب ما عليه ومضى، وهو أعرى من الحسام المنتظى، فخلع رداءه عن منكبه[٥] وستره [به] ستراً أقنع المجد به وأرضاه، وأصبح لا يعرف[٦] ربُّ تلك الصنيعة، ولا يعرف فيشكر له يده الرفيعة، ولما كان من الغد، حزّ[٧] رأسه، ورفع على رمح[٨]، وهو يشرقُ كنارٍ على علم، ويرشق صدر كل ناظرٍ[٩] بألم، فلما رمقته الأبصارُ، وتحققتهُ الحماةُ والأنصار، رموا أسلحتهم، وسوَّوا للفرار أجنحتهم.

ومنه قوله[١٠]:

ولما ثوى[١١] عرش الخلافة، وخوى نجمها، ووهى ركن الإمامة وطمس رسمها، وصار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنسر البغاث[١٢] وصحت الأضغاث، واستأسد الظبيُ في كناسه، وثار كل أحدٍ في ناسهِ، وخلتِ المنابر من رقاتها، وفقدت الجمع مقيمي أوقاتها، وكان باديس[١٣] بأغرناطة قد حجب سنانُهُ لسانهُ، وسبقت إساءتهُ إحسانه، لا يرام بريثٍ ولا عجلٍ، ولا يبيتُ له جار [إلاّ] على وجل، وأمره أضيعُ من مصباح الصباح، وهمُّهُ في غبوقٍ واصطباح، وبلادهُ مرادُ لفاتك، وستره في يد الهاتك، فسقط الخبر إلى المعتضد[١٤]، ملْقح[١٥] الحرب، ومنتج الطعن /١١/ والضرب، الذي صاد الطير تحت أجنحة العقبان[١٦]، وأخذ

---

(١) قلائد العقيان ص٦٨.

(٢) في القلائد: عثرة، وبعده: لم يقل لهالعاً، ولا استقل منها ولا سعى. فترك ملتحفاً بالظلماء..

(٣) لم ترد (وسقطت به عثرة) في القلائد.

(٤) في القلائد: بمصرعه سحراً.

(٥) في القلائد: عن منكبيه ونضاه.

(٦) في القلائد: لا يعرف.

(٧) في القلائد: حيز.

(٨) في القلائد: سن رمح.

(٩) في القلائد: ويرشق كلّ.

(١٠) قلائد العقيان ص٨٠.

(١١) في القلائد: ثُلَّ.

(١٢) تضمين للمثل: إن البغاث بأرضنا يستنسر.

(١٣) في القلائد: (باديس بن حيوس) كان يدعو للعلويين بمالقة.

(١٤) في القلائد: المعتضد بالله.

(١٥) في الأصل: مقلح.

(١٦) في الأصل (العناب).

الفريسة من فم الثعبان، فسدَّد إلى مالقة سهمه وسنانه، وردّ إليها طرفه وبنانه، ووجّه إليها جيشه المتزاحم الأفواج، المتلاطم الأمواج، وعليه[١] ابنه المعتمد سمام الأعادي، وحمام الأسد العادي، وطيروا إلى باديس خبراً أصحاه من نشوتهِ، ولحاه[٢] على[٣] صبوتهِ، فأخرج[٤] كتيبة وعليها ابن النابة[٥] قائد جندِهِ، وموري زندِهِ، وكان أشار على المعتمد برابرة بالتنفيس عن الممتنعين[٦]، فعدل عن انتهاز فرصتهم، إبراء غُصَّتهم إلى الاستراحة من تعبه، والإراحة[٧] على لهوه ولعبه، فما أمسى إلاّ وقد غشيهُ ليلها، وسال عليه سيلها، فخاب سعيهُ، وفال رأيهُ، ونجا برأس طمرّةٍ[٨] ولجام، وأوى إلى أحد المعاقل أعرى من الحسام.

ومنه قوله[٩]:

وعندما سقط الخبر عليه، خرج حاسراً من مفاضته، جامحاً كالمهر قبل رياضته. وفي يده سيفه يتلمّض للطلى والهام[١٠]، ويعد بإفراج[١١] ذلك الاستبهام، ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها، وأبعد عنه الملامة ونفاها.

ومنه قوله[١٢]:

وكان[١٣] أشهر ملوك أوانه خيراً، وأيمنهم طيراً، ما اشتغل بمعاطاة مدامة، ولا توغّل[١٤] شعب ندامة.

ومنه قوله[١٥]:

---

(١) بعده في القلائد: سيفه المستل، وحتفه المحتلّ.
(٢) في الأصل (ونجاه). (٣) في الأصل (عن).
(٤) في القلائد: فاخرج من حينه كتيبته التي كانت ترمي بالزبد، ولا تنثني عن القنا القصد.
(٥) في الأصل: (ابن البانة) وصححت على القلائد.
(٦) في القلائد: بتنفيس الممتدحين. (٧) في القلائد: الإناخة.
(٨) الطمرّ الفرس الجواد أو قيل هو المستفز للوثب والعدو، والأنثى طمرّة، وفي المعنى إشارة إلى قول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام المخزومي الذي فرّ يوم بدر:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوتُ منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبّة لم يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرّةٍ ولجام

(نسب قريش ص٣٠١).
(٩) قلائد العقيان ص٨٧.
(١٠) في القلائد: وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، يتلّمظ للطلّى والهام.
(١١) القلائد: بانفراج. (١٢) قلائد العقيان ص٨٤.
(١٣) المأمون بن المعتمد على الله محمد بن عباد.
(١٤) في القلائد: ولا توغل للعصيان شعب ندامه.
(١٥) قلائد العقيان ص٨٤، وهي صلة لما سبق.

ولما أحسَّ بهم المأمون، خرج بعدٍّ قليل وجدٍّ فليل[١]، وقد رتبت له بطريقه رصائد، ونصبت له فيها مصائد، علق فيها زمامه، ورشق إليه منها حمامه، فانقضوا عليه انقضاض الجارح، وانصبوا عليه انصباب الطير إلى المسارح، فقطع رأسه وحيز، وخيض به النهر وجيز، ثم انتقلوا إلى رندة[٢] أحد معاقل الأندلس الممتنعة، وقواعدها السّامية المرتفعة، تطرد منها على بعد مرتقاها، ودُنوِّ النجم من ذراها عيون لانسيابها[٣] كالرعد القاصف، والرياح العواصف، ثم تكون [واديا][٤] يلتوي بجريانها[٥] التواء الشجاع، ويزيدها في التوعُّر والامتناع، وقد تجوَّنت[٦] نواحيها وأقطارها، وتلوّنت[٧] فيها لياناتها وأوطارها، فلا يتعذر لها مطْلب، ولا يتصور فيها عدو إلاّ أعلقهُ نابٌ أو مخلب.

ومنه قوله[٨]:

وما زالت عقارب تلك الداخلة تدبُّ / ١٢/ وريحها العاصفة تهب، حتى دخل البلد من واديه، وبدت من المكروه بواديه، وهو ملقى بين جواريه، مغترٌّ بودائع ملكه وعواريه، ولما انتشر الداخلون في البلد، وأوهنوا[٩] عرى القوى والجلد، خرج الموت يتسعَّر في ألحاظه، ويتضوّر من ألفاظه، فلقيهم برحبة[١٠] القصر، وقد ضاق بهم فضاؤها، وتضعضعت من وجيبهم[١١] أعضاؤها، فحمل فيهم حملةً[١٢] صيرتهم فرقاً، وملأتهم فرقا، ثم والى[١٣] عليهم الكرّ، حتى أوردهم النهر، وما بهم جواد، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد[١٤]، وعاد إلى قصره وقد عزم على أفضع أمر، وقال: (بيدي لا بيد عمرو)[١٥]، ثم جمع هو وأهله، وحملتهم الجواري المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم، وأول عيد عيده بأغمات[١٦]، وهو سارح، وما غيرت السجون له مسارح، دخل عليه[١٧] من يسلّم عليه

---

(١) في القلائد: بعدد قليل.
(٢) رندة: معقل حصين بالأندلس. بين أشبيلية ومالقة (معجم البلدان ٣/ ٧٣).
(٣) في القلائد: لانصبابها دويَّ الرعد.
(٤) التكملة عن القلائد.
(٥) في القلائد: بجوانبها.
(٦) في الأصل: تخوّفت.
(٧) في القلائد: وتكوّنتْ.
(٨) قلائد العقيان ص٨٨.
(٩) في القلائد: ووهى منه القوى والجلد.
(١٠) في القلائد: في رحبة.
(١١) في القلائد: رجّتها.
(١٢) في القلائد: فحمل حملة.
(١٣) في القلائد: وما زال يوالي عليهم.
(١٤) في الأصل: كأنه فؤاد.
(١٥) مثل قالته الزباء.
(١٦) أغمات: ناحية في بلاد البربر قرب مراكش نفي إليها المعتمد سنة ٤٨٤هـ.
(١٧) في القلائد: دخل عليه من بنيه.

ويهنيه، وفيهم بناته، وعليهنّ أطمار كأنها[(١)] كسوف وهنَّ أقمار، وأقدامهنّ حافية، وآثار نعمتهنّ عافية، وأقام بالعُدوة[(٢)] برهةً لا يردع له سرب وإن لم يكن آمناً، ولا يثور له كرب، وإن كان في ضلوعه كامناً، إلى أن ثار أحد بنيه بأرْكش، معقل كان مجاوراً لاشبيلية مجاورة الأنامل للراح، ظاهراً على بسائط وبطاح، لا يمكن معه عيش، ولا يتمكن من منازلتها جيش، فسار نحوه سَيْر[(٣)] بن أبي بكر، فوجه وشرُّه قد تشمَّر وضُره قد تنمر، وجمرُهُ قد تسعّر[(٤)]. وأمره متوعر، فنزل عدوته، وحلّ للحزم حبوتهُ، وتدارك داءه قبل إعضاله، ونازله وما أعدَّ آلات نضالِهِ، فبقي محصوراً لا يشدُّ له إلا سهم، ولا ينفذُ له إلا نفس أو وهم، وتماسك[(٥)] شهوراً حتى عرض[(٦)] له أحد الرماة، ورماه فأصماه، فهوي من مطلعه، وخرَّ قتيلاً في موضعه، وبقي أهله ممتنعين حتى اشتد[(٧)] الحصر، وارتدَّ عنهم النصر، وعمَّهم الجوع، وأعيت أجفانهم لعدم الهجوع[(٨)]، فنزلت[(٩)] منهم طائفة متهافتة، وولّت بأنفاسٍ خافتة، فتبعهم من بقي، ورغب في التنعيم من شقي، فوصلوا إلى الملمات، وحصلوا في غُصّةِ الممات، ولما زأر الشبلُ خيفت صولةُ الأسد، لم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد، /١٣/ فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها، وأجلَّ ساحة الخطوب فناءها، فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة عاثرة حتى قال: قلت: ثم أنشد الفتح ما قال[(١٠)].

ومنه قوله[(١١)]:

ملك[(١٢)] تفرع من دوحة سناء، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[(١٣)]، كلف بالعلم حتى صار منهج[(١٤)] لسانه، وروضة أجفانه، لا يستريحُ منه إلاّ إلى متن سائل

(١) في القلائد: كأنهنّ.
(٢) العودة: تسمية تطلق على المغرب الأقصى.
(٣) في القلائد: (الأمير سير بن أبي بكر) وهو أول من ولي إشبيلية من اللمتونيين المرابطين بعد خلع المعتمد، وتوفى على مقربة من اشبيلية سنة ٥٠٧هـ.
(٤) في القلائد: جمرهُ مستعر.
(٥) في القلائد: امتسك.
(٦) في القلائد: غرَّضهُ.
(٧) في القلائد: اشتدَّ عليهم.
(٨) في القلائد: وأغبّ أجفانهم الهجوع.
(٩) القلائد: فتدلّت.
(١٠) قصيدته التي أولها:

كذا يهلك السيف في جفنهِ ... إلى هزّ كفٍّ طويل الحنين

وهي في ديوان المعتمد ص١٧٨ والنفح ٤/ ٢٢٠.
(١١) قلائد العقيان ص١١٠.
(١٢) هو الراضي بالله، ابو خالد يزيد بن المعتمد بالله محمد.
(١٣) سورة إبراهيم: ٢٣.
(١٤) القلائد: ملهج.

الغُرَّة. ميمون الأسرَّة، يُسابق به الرياح، ويُحاسن بغرّته البدر اللّيّاح، عريق في السناء، عتيق الاقتناء[١]، سريع الوخدِ والإرقال. من آل أعوج أو لذي العقال[٢]، إلى أن ولاّه أبوه الجزيرة الخضراء[٣] وضمَّ إليها رندة، فانتقل من متن الجواد إلى ذروة الأعواد، وما زال يدبرها بجوده ونهاه، ويورد الآمل فيها مناه، حتى غدت عراقاً وامتلأت إشراقاً، إلى أن اتفق في الجزيرة ما اتفق، فانتقل إلى رندة معقل أشب، ومنزل إلى السماك[٤] منتسب، حتى رمته سهام الخطوب عن قسيها، وأمكنت منه يدي مسيِّها، فحواه رمسه، وطواه عن غده أمسه[٥].

ومنه قوله[٦]:

وقصر الشراجيب[٧] هذا، متناه في البهاء والإشراق، مباه لزوراء العراق، وكان يعتدها محيا[٨] آماله، ومنتهى أعماله، إلى التفاف خمائلها، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها.

ومنه قوله[٩]:

في يوم جادت فيه السماء بهطلها، وأتبعت وبلها بطلِّها، وأعقب رعدها برقها، وانسكب دراكاً ودقها، والأزهار قد تجلّت من كمامها، وتحلت بدرّ غمامها، والأشجار قد جلي صداها، وتوشحت بنداها، وأكؤس الراح، كأنها كوكبٌ يتوقّد، تُديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد.

ومنه قوله[١٠]:

ولما وصل بادس[١١] إلى قرمونة، أخرج إليه المعتضد جيشه يقدمه ابنه الظافر، ويقود منه أسوداً في المغافر، فلما التقى الجمعان، حمل فيهم عسكر المعتضد[١٢] حملةً خلعتهم عن مركزهم، وأزالتهم بالذُّل من تعزُّزهم، فتفرقوا في تلك البسائط

---

(١) القلائد: للاقتناء.
(٢) اعوج. اسم فرس كان لبني هلال، تنسب إليه الاعوجيات (اللسان عوج) وذو العقال، من خيول العرب، ينسب إليه (اللسان: عقل).
(٣) الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وأعمالها متصلة بأعمال شرونة (معجم البلدان ٢/ ١٣٦).
(٤) في القلائد: للسماك.
(٥) في الأصل: غده عن أمسه، وصحح على القلائد.
(٦) قلائد العقيان ص١١٢.
(٧) في الأصل: السراجيب وهذا، وصحح على القلائد.
(٨) القلائد: مجنى.
(٩) قلائد العقيان ص٢٥٧.
(١٠) قلائد العقيان ص٢٦٣.
(١١) القلائد: باديس بن حبوس.
(١٢) في القلائد: معسكر اشبيلية.

والربى، وشرقوا بسقيا الأسنة والظّبا، وأوقع بهم الظافر أحسن إيقاع، وتركهم مصرّعين[(١)] / ١٤/ في تلك البقاع، وانصرف إلى أشبيلية. وألويته تختال في أكفّ الرياح، وذوائبه تكاد تتقصف من الارتياح.

ومنه قوله[(٢)]:

في عشيَّةٍ تجودُ بدمائها، ويصوبُ عليها دمع سمائها، والبطحاء قد خلع عليها سندسها ودثرها نرجسها. والشمس تنفض على الرّبى زعفرانها. والأنوار تغمض أجفانها.

ومنه قوله[(٣)]:

قد أرهقته الرزايا وألحَّت، وهمت عليه سماؤها[(٤)] وسَحَّتْ، فأكثر التشكي من زمنه، وأظهر جوي محنِهِ، وأصبح يبدي الضجر، ويكاد يُبكي الحجر.

ومنه قوله[(٥)]:

حضر مع المأمون[(٦)] بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمنية، التي[(٧)] تطمح إليها المنى، ومرآها [هو][(٨)] المقترح والمتمنّي، والمأمون قد اجتنى [وأفاض الحبا، والمجلس يروق، كان الشمس في أفقه. والبدر في مفرقه والنور][(٩)] عبق، وعلّ ماء النهر مصطبح ومغتبق، والجوّ قد عنبرتهُ أنواؤه[(١٠)]، والروض قد رشته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها.

ومنه قوله[(١١)]:

جاءت به الدنيا كما شاءت العلياء، وقارٌ كما ثبتت الأرض. ومقدار له النافلة والجلالة[(١٢)] والفرض، وغدتْ به العلوم وقد سهل صعبها، وسلك شعبها، ثم مضى فسدَّ الدهر تطلعه، وضمَّ عليه القبر أضلعه.

---

(١) في القلائد: وضرجين.
(٢) قلائد العقيان: ٢٩٣.
(٣) قلائد العقيان ص٢٩٤.
(٤) في القلائد: وهمت سحابها عليه وسحَّت.
(٥) قلائد العقيان ص٧١٤.
(٦) المأمون يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الهواري، صاحب طليطلة، وغلب على قرطبة وبلنسية، توفي سنة ٤٦٠هـ.
ترجمته في: البيان المغرب ٣/ ٢٦٥ والنفح ١/ ٤٤٠ والذخيرة ٤/ ١/ ١٢٩.
(٧) بدلها في الأصل: إلى أن.
(٨) الزيادة عن القلائد.
(٩) التكملة عن القلائد، واحْسبُ أن سهو الناسخ أسقطها من الأصل.
(١٠) الأصل: أنواره.
(١١) قلائد العقيان ص٦٢٣.
(١٢) في الأصل: في الخلافة، وهو تصحيف.

ومنه قوله[١]:

إذا عقد حباه[٢] أطرق الدهر توقيراً، وخلته من تهيبه أسيراً[٣]، لم يستنر إلا بشمسِهِ، ولم يستشر في رأيه غير نفسه، والمهابة تخدم لحظته[٤] والإصابة تقدم لفظته[٥]، كأن الحميّا ثنيُ بشاشته وتخفيه، وكأنَّ الخلق قد جمعوا فيه.

ومنه قوله[٦]:

وقار كما رسى الهضب، وأدب كما اطرد السلسل العذب، وشيمٌ تتضاءل قطع الرياض، ويبادر الظنُّ بها إلى شريف الأغراض، أدمن التعب في السؤدد جاهداً، حتى تناول الكواكب قاعداً.

ومنه قوله[٧]:

ومررنا في إحدى نزهنا[٨] بمكان مقفر، وعن المحاسن مسفر، وفيه بكير[٩] نرجس كأنهن عيون مراض، يسيل وسطه ماء رضاض، بحيث لا حسّ إلاّ للهام ولا أنسٌ إلا ما يتعرض للأوهام.

ومنه قوله[١٠]:

شرفٌ باذخٌ تعقدُ / ١٥/ بالنجوم ذوائبه، ويخدُّ في مفرق الشمس[١١] ركائبه، استفتحت الأندلس وقومُهُ أصحاب رايات، وأرباب آمادٍ في السبق وغايات، واستوطنوها فغدوا بحور مواهبها، وبدور غياهبها، وجاء أبو الحسن[١٢] آخرهم، فجوّد فاخرهم، فبماذا أصفه وقد بهر، وبدا فضله كالصبح إذا اشتهر، ولكني أقول: تفخر به الدنيا وتزهى، وهو للعلياء سماكٌ[١٣] وسهى.

ومنه قوله[١٤]:

---

(١) قلائد العقيان ص٦٢٩.

(٢) هو ذو الوزارتين قاضي القضاة، أبو أمية إبراهيم بن عصام (المغرب ٢/ ٢٥٨).

(٣) في القلائد: عقيراً.

(٤) في القلائد: لحظه.

(٥) في القلائد: لفظه.

(٦) قلائد العقيان ص٦٥٥.

(٧) قلائد العقيان ص٦٦٠.

(٨) القلائد: نزهنا.

(٩) الأصل: تكرر.

(١٠) قلائد العقيان ص٦٤٦.

(١١) في القلائد: النسر.

(١٢) هو أبو الحسن علي بن عمر بن محمد بن مشرّف بن أضحى. ولي قضاء المريّة سنة ٥١٤هـ. لما انقضت دولة المرابطين سنة ٥٣٩هـ دعا لنفسه بغرناطة ولم يلبث أن توفي سنة ٥٤٠هـ.
ترجمته في: المغرب ٢/ ١٠٨ والنفح ١/ ٦٧٥ و٣/ ٣٣٤ و٢/ ١٦٣.

(١٣) في الأصل: شمال.

(١٤) قلائد العقيان ص٦٤٨. باختلاف يسير.

فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرية تقترب من حضرة غرناطة[١]، فرش بها على الزمرد بساطه، فحللنا قرية على ضفة نهر أحسن شاذمهر[٢]، تسقيها جداول كالصلال، ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال.

ومنه قوله[٣]:

وعلّق أحد فتيانها، وأنجد أعيانها، وكان أجمل من جال في خلد، واستطال علي جلد، وهام به هيام الأحوص[٤] بدعد، والراعي[٥] بهند بني سعد، وكان الفتى ينافر وصله، ويطرد في مباعدته أهله، إلى أن أطل شعر عارضه، ودل لمعارضه، فعاد إلى مساعدته، واستعاد بدنوّه من مباعدته.

ومنه قوله[٦]:

ولما نوى الانفصال، خاف الانتهاب والاستئصال، فأراد أن يكتم ذلك الفرار، ويطوى إعلانه في الإسرار، وخشي أن يفطن بخروجه، ويطّلع عليه من خلال فروجه، فعزم على مواعدة بعض الإخوان، ومطالعةِ ما في تلك الخوان[٧].

ومنه قوله[٨]:

وهو اليوم بدر هذه الآفاق، وموقف الاختلاف والاتفاق، جرى[٩] في ميدان الطب إلى منتهاه، وتصرف في سماكه وسهاه، وله تصانيف[١٠] في الحكم، آلف منها ما ألّف، وتقدّم بها[١١] وما تخلّف.

فهذان أديبا ذلك الصقع، وربيبا ذلك الصنع، فاقا في تدوينهما المحاسن،

---

(١) في القلائد: إحدى ضياعه بغرناطة، والفقرة التي بعدها لم ترد في القلائد.

(٢) شاذ مهر: قرية بنيسابور (معجم البلدان ٣/ ٣٠٥).

(٣) قلائد العقيان ص٧٧٤ باختلاف يسير، وقد. ذكر المحقق نصاً بنسخة أخرى من مخطوطات القلائد يطابق ما أورده العمري هنا.

(٤) الأحوص بن محمد بن عاصم، من شعراء أهل المدينة، تغزل بنساء بعض أشرافها فنفاه عمر بن عبد العزيز، وعفا عنه يزيد بن عبد الملك، وتوفي سنة ١١٠هـ.
ترجمته في: الشعر والشعراء ٥١٨ والموشح ١٤٤.

(٥) الراعي، هو حصين بن معاوية النميري. كان وصافاً للإبل فسمي بالراعي. شاعر أموي مجيد. هاجى جريراً. انظر: الشعر والشعراء ٤١٥.

(٦) قلائد العقيان ص٧٨٨.

(٧) في الأصل: ومطالعته في ذلك الجواب، وهو تصحيف.

(٨) قلائد العقيان ص٧٩١.

(٩) القلائد: مع جريٍ.

(١٠) القلائد: وتصانيف.

(١١) القلائد: فيها.

وترتيبهما الأقمار للمحاسن.

فأما من فتح الفتح بن خاقان باب ذكرهم، ومنح لباب شكرهم، فسنورد منهم ما تبلّ به تلك العظام، وتحل عقود الغمام على أولئك العظام، فتجعل لهم النشور، وتباكر سقيا الرحمة بصايب تلك القبور، وها أنا آتي بجماعة مما ذكر من الكتّاب ممن لا يجوز لهم الإخلال ولا يجول معهم سابق في كرم الخلال، /١٦/ وسأدّعي لكل واحد ما أتى عليه الفتح بشاهد ماله من جاحد.

ومنهم:

[٣]

المتوكل أبو محمد، عمر بن المظفر[١]

وهو ملك دخل في قسم الكتاب لعنايته بالآداب، بكلم ما لها قيم، تتقالل لها الزهر، وتتضاءل الشموس في وقت الظهر، هو السحر المأثور، واللؤلؤ المنثور، يمتهن به وما يخرج من أشباهه بحورها، وتتهم به الغواني. إلا ما تجنيه في المراشف ثغورها، ووصفه الفتح فقال:

ملك جنّد الكتائب[٢] والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرتْ، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت.

ثم قال:

إلى نظم يزري بالدر النظيم، ونثر تسري رقتهُ[٣] سرى النسيم.

ومن نثره قوله[٤]:

---

(١) عمر المتوكل بن محمد (المظفر) بن عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو حفص التجيبي، آخر ملوك بني الأفطس في بطليوس، توفي أبوه سنة ٤٦٠هـ وهو عامله في يابرة، فاستقلّ بها عن أخيه يحيى الذي ولي بعد أبيه، ولما مات يحيى سنة ٤٧٣هـ انفرد هو بالملك وتحول إلى بطليوس حتى زحفت إليه جيوش يوسف بن تاشفين بعد معركة الزلاقة. فأسرته وقتلته مع ولديه الأفضل والعباس سنة ٤٨٩هـ، وفي رثائهم نظم ابن عبدون قصيدته المشهورة: (الدهر يفجع بعد العين بالأثر) وكان المتوكل أديباً كاتباً مترسلاً شاعراً.

انظر: قلائد العقيان ص١٢٠ ـ ١٢٣ وخريدة القصر، قسم المغرب والأندلس ٣/ ٣٥٦. والمغرب في حلى المغرب ١/ ٣٦٤. وفوات الوفيات ٣/ ١٥٥ والذخيرة ق٢ مج٢ ص٤٦.

(٢) في الأصل: الكتاب، وصححت على القلائد.

(٣) في الأصل: رقيته وأثبت ما في القلائد.

(٤) قلائد العقيان ص١٤٢.

ولما أتاني ثناؤه عليك بالغيب[١]إرسالاً، كأنما هبَّ صباً أو شمالاً، لزمني أن أعلم[٢] بمكانه من الانقطاع إلى جانبك[٣] والتحيّز إلى فيئك[٤]، وأن أشفع له شفاعةً حسنة، أدركُ معها لديك كرم الشفيع، ويجوز بها منك شرف الصنيع[٥]، وهي منّة طوقتهُ إيّاها، وأطلعته بريّاها، ويعيذ الله مجدك أن يكون ما وهبت مرتجعاً، أو ما أوليتُ منتزعاً.

ومنه قوله في عهدٍ كتبه بولاية أشبونة، وقد أتته طاعتها:

لم يسوّغ أبناء النعم مثل الذي سوغتموه من إلزام الطاعة، والدخول في الجماعة، لذلك لا ألوكم ـ ونفسي، فيكم نُصحاً، فيمن أتخيرّه للنيابة عنيّ في تدبيركم، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم، وقد ولّيت عليكم من لم أؤثر والله فيه دواعي التقريب، إلى[٦] بواعث التجريب، وهو الوزير القائد أبو عبد الله بن خيرة، ابني دُربةً، وبعضي صحبة، وقد رسمت له من وجوه الذبّ والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما التزم الاستيفاء لجدّه، والوقوف عند حدِّه[٧]، والمسؤول في عونه لمن لا عون إلا من عنده، ولن أعرفكم من حميد خصالِهِ، وسديد فعالهِ إلاّ بما سيبدو للعيان، ويزكو مع الامتحان، ويرفع من قبلكم على كل لسان.

قلت: ومنه توقيع سنذكره، ونجل ذكره إننا نشكره:

قال الفتح[٨] أخبرني الوزير أبو بكر بن القبطرنة، /١٧/ إنه كان يساير المتوكل إذ جاءه خبر بخروج واحد[٩] من أهل يابرة فاراً عن ابنه العباس ولحاقهِ بالمعتمد على الله، فبينا هو يردّد الوعيد، ويُبدي في ذلك ويُعيد، إذ بكتاب العباس قد وافاهُ، يقسم أنه ما أخرجهُ ولا نفاهُ، ولا حملهُ على ذلك إلاّ البطر وإنه كان له في ذلك أرب ووطر، وكانت حاجةً في نفسِهِ قضاها، وإرادةً أنفذها وأمضاها، فوقع له على رقعته[١٠]:

قبولي لتنصلك من ذنوبك موجبٌ لجرأتك عليها[١١]، وعودتك إليها. واتصل لي ما كان من خروج فلان عنك، ولم تتثبت في أمره، ولا تحققت صحيح خبره، حتى[١٢]

(١) في القلائد: بالغيب عليك.
(٢) في القلائد: أعلمك.
(٣) في القلائد: جهتك.
(٤) في القلائد: فئتك.
(٥) في القلائد: له عندك.
(٦) في القلائد: على.
(٧) في القلائد: والوقوف بجدِّه عند جهده.
(٨) قلائد العقيان ص١٣١.
(٩) هو طلحة بن عبيد الله كما في الذخيرة.
(١٠) قلائد العقيان ص١٣٢ ووردت أيضاً في المغرب ١/ ٣٦٥. والذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٥١.
(١١) في القلائد: عليّ.
(١٢) في القلائد والمغرب: حين.

فرّ عن أهله ووطنه، والعجلة من النقصان، وليس يحمدُ قبل النضج بحران[١]، وهو[٢] الذي أعجبه إعجابك بأمرك، وانفرادك برأيك: ومتى لم ترجع إلى ما وعدت به من نفسك، وصدرت به كتبك فأنا والله أريحُ نفسي من شغبك، وإن لم تكن الأخرى، فهو لك الحظ الأوفى، فاختر لنفسك ما ترى[٣].

ومنهم:

[٤]

أبو عمر الباجي[٤]

بديعهُ غريب، وبعيدهُ قريب، كله جزل وجدّ، لا هزل، مع أنه للأوام ينقع، وفي القلوب يقع، أقصد من السهام، وأسرع من التصوّر للأفهام.

وقال فيه الفتح[٥]: بحرٌ لا يمتطى ثبجه، ولا تخاض لججه، يقذف[٦] لسانه اللؤلؤ المكنون، ويصرف من بديعه الأنواع والفنون.

ومن نثره قوله[٧]:

إن لله[٨] تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحاً يبسطها إذا شاء ترفيهاً وإنعاماً، وعلى آخرين فساداً وانتقاماً[٩] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١٠]، وإنه بعد ما كان من إمساك[١١] الحيا، وتوقّف السقيا الذي ريع به الآمن واستطير له الساكن، ورجفت له الأكباد فزعاً، وذُهِلت الألباب جزعاً، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها، فكادت برود الأرض تطوى، وورود نعمة[١٢] تزوى، نشر الله رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته،

---

(١) البحران: الجائع.
(٢) في القلائد: وهذا.
(٣) في القلائد: أيّ الأمرين ترى.
(٤) أبو عمر يوسف بن جعفر، يعرف بابن الباجي، من الفقهاء والأدباء والشعراء، رحل إلى المشرق، وولي قضاء حلب، ثم عاد إلى الأندلس، واتصل بملك سرقسطة المقتدر بن هود.
ترجمته في: قلائد العقيان ص٣ المغرب ١/ ٤٥ والذخيرة ق٢ مج١ ص٨٦/ ، والخريدة (المغرب والأندلس) ٣/ ٣٨٠.
(٥) القلائد ص٣٠٠.
(٦) في القلائد: يعرف.
(٧) قلائد العقيان ٣٠٢. ووردت أيضاً في الذخيرة ق٢ مج١ ص١٩٦، والخريدة ٣/ ٣٨٢.
(٨) في الأصل: الله.
(٩) في القلائد: وضيراً.
(١٠) الشورى: ٢٨.
(١١) في المصادر الأخرى: امتساك.
(١٢) القلائد: نعم.

وأزاح محنته، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح، بماءٍ دفقٍ، ورواء غدقٍ، من سماء طبق، استهلّ[١] جفنها فدمع[٢]، من نباتها أثاثاً رئيا، ونحن نستزيد الواهب نعمة /١٨/ التوفيق، ونستهديه[٣] إلى سواء الطريق، ونستعيذ به من المنّة أن تعودَ[٤] فتنة، ومن المنحة أن تعود محنة.

ومن شعره قوله[٥]:

أروحُ إلى محلّكم وأغدُو ... يسوقُ بي[٦] الهوى والشوق يحدُو
أنا الصادي وبردُ الماء أنتم ... وما لي من ورودِ الماء بُدُّ

ومنهم:

[٥]
أبو بكر، محمد بن القصيرة[٧]

ذويدٍ ليست بالقصيرة، وفهم ثاقب البصيرة أحلتهُ الدول في مفارقها، وحلته في مغاربها بأشعة مشارقها، فعلى أجلَّ الرتب، وجلا متون الشك والريب، وكان فرقد تلك السماء، وفرد تلك الأسماء، مقدماً في ذلك الجيل، مقلداً دونهم بالجميل، حالاً من أهل تلك الآراء محل السنان المتقد من اليزنيّة السمراء.

وقال فيه ابن خاقان[٨]:

غرّةٌ في جبين الملك، ودرّة لا تصلح إلاّ لذلك السلك.

ومن نثره قوله[٩]:

---

(١) القلائد: استهلّ به.
(٢) بعده في القلائد: وسحّ حزنها فهمع، وصاب وبلها فنفع، فاستوفت الأرض ريا، واستكملت من نباتها.
(٣) القلائد: ونستهديه بعد قضاء الحقوق إلى سواء الطريق.
(٤) القلائد: تصير.
(٥) قلائد العقيان ص٣٠٤.
(٦) القلائد: يقودني.
(٧) في الأصل: أبو بكر بن محمد.
وهو محمد بن سليمان، الكلاعي الاشبيلي، المعروف بابن القصيرة فقيه، أديب، كاتب مترسل، بارع الخط أرسله المعتمد بن عباد إلى الملوك غير مرّة. أدركه الخرف قبل وفاته. وكان قد استكتبه ابن تاشفين بمراكش، وبها وفاته سنة ٥٠٨هـ.
ترجمته في: الخريدة ٣/ ٣٨٣، الذخيرة ق٢، مج١ ص٢٣٩، المغرب ١/ ٣٥٠ والوافي ٢/ ١٢٨ والمحمدون ٣٥٨.
(٨) قلائد العقيان: ٣٠٥ وعنه في المغرب ١/ ٣٥٠.
(٩) القلائد ٣٠٦ وهي في الخريدة ٣/ ٣٨٣ والمغرب ١/ ٣٥١.

وافتني (لك)[١] أطال الله بقاك ـ أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس في حلل إبداعها كالغصن الأملود، وإنك لسابق هذه الحلبة، لا يدرك غبارك في مضمارها ولا يضاف بدرك إلى سرارها[٢]، وما أنت في أهل البلاغة إلاّ نكتة فلكها، ومعجزة تشرف الدول بتملكها، وما كان أخلقك بملك يدنيك، وملك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولا تقف إلاّ على من توقّف، ولو اتفقت بحسب الرتب. لما ضربت إلاّ عليك قبابها، ولا خلعت إلاّ عليك ثيابها[٣].

قلت: وقد ذكره ابن بسّام[٤] ولقّبه بذي الوزارتين وقال فيه: عذبةُ هذا اللسان العربي، وسويداء قلب هذا الإقليم الغربي، نشأ في دولة المعتضد، وشهر بالعفاف فلزمه، ويُسِّر للعلم فتعلَّمه وعلَّمه، وكانت له نفسٌ تأبى إلاّ مزاحمة الأعلام، والخروج على الأيام، وهو دائماً يغضُّ جناحها فتجنح[٥]، ويطأطيء من غلوائها فتتطاول وتطمح، وفطن له ابن زيدون فلم يزل يضرّح قذى العطلة عن مائه، ويعلو[٦] رماد تلك الهيبة عن نار ذكائه، إلى أن نبه عليه المعتضد آخر دولته، فتصرف فيها قليلاً على بقية من تلك /١٩/ البقيّة، وتقشف[٧] من ذلك التعفّف، إلى أن أفضى الأمر إلى المعتمد، فأنهضه إلى مثنّى الوزارة، وأكثر ما عوّل عليه في السفارة، ثم أتى أمير المسلمين كتاب من صاحب مصر، لم يكن بدّ من الجواب عليه والانتصاف منه. وتفقّد يومئذ أعلام المشاهير، فاستدعاه لحينه، وولاّه كتبه ودواوينه.

وأورد من نثره قوله[٨]:

فدنونا إليه بمحلاّتنا[٩]، ثم اضطر بناها بإزائه، وأظللنا عليه براياتنا، حتى كدنا نركزها بفنائهِ، فأجمع مضطراً على اللقاء، وقدَّم بعض أخبيته دهشاً في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها، فاهتبل فيما قدّر غرَّةً، وحمل[١٠] فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور وأقبلوا بحال مؤذنه بالظهور[١١]، ثم صدق أمير المسلمين[١٢] الحملة، وصدم

---

(١) ليست في القلائد.
(٢) في القلائد: ولايضاف سوارك إلى أبدارها.
(٣) في القلائد: أثوابها.
(٤) الذخيرة ق٢ مجلد١ ص٢٣٩.
(٥) في الذخيرة: فتجمع.
(٦) كذا في الأصل، وفي الذخيرة: ويُعلي.
(٧) في الأصل: تعسّف.
(٨) الذخيرة قسم٢ مج١ ص٢٤٣.
(٩) بعدها في الذخيرة: نصرها الله.
(١٠) في الذخيرة: وحمل ولم يكن ـ بحمد الله ـ ما استشعره مرة، فتنادى.
(١١) في الذخيرة: وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة.
(١٢) بعده في الذخيرة: وناصر الدين ـ أيده الله ـ الحملة.

في جمع لم يكثر عدده(١) الجملة، فلم يلبث [أعداء الله](٢) أن ولّوا الأدبار، واستصرخوا الفرار، واتبعتهم خيل المسلمين(٣) بقية اليوم والليلة، فلم يخلص منهم(٤) إلا من تراخي به عنان البعد، أو أتت على حشاشته(٥). وأما محلّتهم فانتهبت في أوّل وهلة، وشُربت بأسرها في فرد نهلة(٦)، ولم يصب من المسلمين(٧) على هول المقام، وشدّة الالتحام(٨)، كثير، ولا ماتَ من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان اذفونش ـ لعنه الله ـ لم يمُتْ تحت السيوف بدداً، فسيموت لا محالةً كمداً.

ومما أنشده له قولهُ يهنىء بمولود:

من كان عبّادٌ أباه فحسبُهُ ... لي بالدليل على النجابة هاتِفا
أعجبْ به من قبل أن يطأ الثرى ... أجرى إلى أمد المكارم واجِفا
لم يستهلّ بكاء ولكن مُنكراً ... إذْ لم تَعُد له الدروع لفائِفا
أوْ لم يكن ملك المذاكي مهده ... فذّاً ومشتجر الرماح مآلِفا
لو أن في أيدي القبائل سله ... تمضي به نحو الأعادي زاحِفا
اقرب بمنهله إلى أرض العلى ... يعري شواهق نحوها وتنائفا
وترى الاجاج الاجن عذباً صافياً ... فيها وحرّ الشمس ظلاً وارفا
/ ٢٠/ شيم الليوث يبينُ في أمثالها ... من قبل أن تلِغ الدماء مراشفا
وبدا بأفق المجد منه كوكبٌ ... لألاؤه ينفي الظلام العاكفا

ومنهم:

[٦]
أبو المطرف ابن الدباغ(٩)

بليغ أغصّه الخطب بريقه، ووقف الحدثان في طريقه، وولع ريح التبريح يجاري غصنِهِ ووريقهِ.

---

(١) في الذخيرة: عدد.
(٢) ليست في الأصل. وهي في الذخيرة.
(٣) بعدها في الذخيرة: نصرهم الله ـ بقية اليوم والليلة، تقتلهم في كل غورٍ ونجد، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالىء ونقد.
(٤) بعدها في الذخيرة: على أيدي المتتبعين ـ آجرهم الله ـ إلا من سيلتهمه البعد.
(٥) في الذخيرة: ويأتي على حشاشته الجهد.
(٦) في الذخيرة: في نهلة.
(٧) بعده في الذخيرة: وفرهم الله.
(٨) في الذخيرة: الاقتحام.
(٩) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ، كان في دولة المقتدر بن هود، وجفاه =

قال فيه الفتح[١]: أحد أعلام الوزارة المتسمين بحليتها[٢]، المرتسمين في عليتها[٣]، المشتهرين بالبلاغة، المقتصرين على حُسن التناول في كل إراغة. إلاّ أنَّ الأيام تعدَّتْ على آمالِهِ، وأغرت صرفها بكماله.

ومن نثره قوله[٤]:

كتابي وأنا كما تدْريه، غرضٌ للأيّام ترميه، ولكنّي غير شاكٍ من آلامها[٥]، لأن قلبي في أغشية من سهامها، فالنصلُ على مثله يقعُ، التألُّم بهذه الحالة قد ارتفع[٦]، كذلك التقريع إذا تتابع هان، والخطب إذا أفرط في الشدّة لان، والحوادث تنعكس إلى أضدادها[٧]، إذا تناهت في اشتدادها[٨].

ومنه قوله[٩]:

وللراح من قلبي محلٌّ لا تصل إليه سلوةٌ، ولا تعترضه جفوةٌ، إلاّ أنَّ معينها قد جفَّ، وقطينها قد خفَّ. فما توجد للسِّباء، ولو بحشاشة الحوباء، فصِلْني بما يوازي قدْري، ويقوم له شُكري، فإن قدرك أرفعُ من أن تقضّي حقه زاخرات البحار، ولو سالت بذوب النضار، لا بصافية العقار.

ومنه قوله[١٠]:

يومُنا يوم تجهّم محيّاهُ، ودمعتْ عيناهُ، وبرقعتْ شمسهُ الغيومُ، ونثرتْ صباه لؤلؤه[١١] المنظوم، وملأ الخافقين دخانُ دجْنّهِ، وطبّق بساط الأرض هملانُ جفنهِ، فاعرضنا عنه إلى مجلسٍ[١٢] حليته يشوق في ترائبه، وندُّهُ يعبق في جوانبه، وأباريقه تركع وتسجُدُ، وأوتارُهُ تنشِدُ وتُغرِّد، وبُدورُهُ تستحثُّ أنجمها محيّيةً[١٣]، وتقبل أنملها

= فاتصل بالدولة العبادية، ثم اتجه إلى بني المظفر في بطليوس. وعاد إلى سرقسطة، وبها قتل. ترجمته في: قلائد العقيان ٣١٤ والذخيرة ق٣ مج١ ص٢٥١، والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٣/ ٣٨٧ والمغرب ٢/ ٤٤٠.

(١) قلائد العقيان ص٣١.
(٢) في القلائد: بأزيائها.
(٣) القلائد: عليائها.
(٤) قلائد العقيان ٣١٤، والذخيرة ق٣ مج١ ص٢٥٦، الخريدة ٣/ ٣٨٧.
(٥) في الخريدة: لآلامها.
(٦) في القلائد: بهذه الحال قد ارتفع.
(٧) في الذخيرة والخريدة والقلائد: إلى أضداد... في الاشتداد، وبعدها: وتزايدت على الأحاد.
(٨) في الذخيرة والخريدة والقلائد: إلى أضداد... في الاشتداد، وبعدها: وتزايدت على الأحاد.
(٩) قلائد العقيان ص٣١٩.
(١٠) قلائد العقيان ص٣٧٩.
(١١) في الأصل: اللؤلؤ.
(١٢) بعده في القلائد: وجهه كالصباح المسفر، وجلبابه كالرداء المحبّر.
(١٣) في القلائد: تحية.

مفدية، وسائر نغماتها خُذْ وهاتها، وقد أمّلنا[١] أن تحث خطاك حتى يلوح سناك، وتستشفي[٢] بمرآك.

ومنه قوله[٣]:

كتابي وعندي من الدهر ما يهدُّ[٤] أيسره الرواسي، ويفتت الحجر القاسي، ومن أجلها قلب محاسني مساوياً، وجعل أوليائي[٥] أعاديا، فقس هذا على سواه، وعارض به ما عداه، ولا تعجب إلاّ لثبوتي لما لا يثبت عليه الحلق السرد، وبقائي على ما لا يبقى / ٢١/ عليه الحجر الصلد، ولا أطول عليك، فقد غير عليَّ حتى شرابي، وأوحشني ثيابي، فها أنا أتهم عياني، واستريبُ من بناني، وأجني الإساءة من غرس إحساني، وقاتل الله الحطيئة في قبرِهِ، فلشدَّ ما غرَّ بقوله:

مـن يـزرع الـخيـر لا يـعـدم جـوازيَـه   لا يـذهـب العرف بيـن الله والـنـاس[٦]

أنا والله عملتُ خيراً[٧] فعدمتُ جوازيه، وما أحمدت عوائده ولا مباديه[٨]، وزرعته فلم أحصد إلاّ شرّاً، ولا اجتنيتُ معه[٩] إلاّ ضرّاً، وهكذا جدّي، فما أصنع وحظي[١٠]، فما الذي ينفع، وقد أبى القضاء إلاّ أن أفني عمري في بؤس. ولا أنفكّ في نحوس؟ ويا ليت باقيه قد انصرم، وغائب الحمام قد قدم، فعسى أن تكون بعد الممات راحة من هذا التعب[١١]، وسلوة من هذه الخطوب والنوب[١٢]، ودع بنا هذا التشكّي، فالدهر ليس بمعتب من يجزع[١٣]، وفي[١٤] الأيام رجاء ومطمع.

---

(١) في القلائد: وأملنا.   (٢) القلائد: ونتشفى.

(٣) القلائد ص٣١٥ والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٣/ ٣٨٨. والمغرب ٢/ ٤٤٠، والذخيرة ق٢ مج١ ص٢٥٧.

(٤) في الخريدة: يهزّ.   (٥) في القلائد: وانقلاب.

(٦) بعده في الخريدة والذخيرة: من يزرع الخير يحصد ما يسرّ به وزارع الشرّ منكوس على الرأس.
وفي القلائد: من يزرع الخير يحصد ما يُسرُّ به وزارع الشر منكوس على الرأس.

(٧) في المصادر الأخرى: أنا والله ما اغتررت به، وفعلت خيراً فعدمت جوازيه. وفي القلائد: أنا والله فعلت خيراً.

(٨) في: الذخيرة: وأذممت عوائده وجوازيه.   (٩) في القلائد: منه.

(١٠) في القلائد والذخيرة والخريدة: فما أصنع وقد أبى القضاء.

(١١) في المصادر الأولى: النصب.   (١٢) الذخيرة والخريدة: الكرب.

(١٣) شطر بيت لأبي ذوئيب الهذلي:

أمـن الـمـنـون وريـبـهـا تـتـوجـع   والدهر ليس بمعتبٍ من يجزع

(١٤) في المصادر الأخرى: ولا في الأيام.

ومنهم:

[٧]

أبو القاسم بن الجدّ[١]

له كمال الجدّ، وكلام الجد، وملاك المجد، والمنزل الفرد، والمنهل العد، والمعاني التي لا تزال تستجد، والكتابة التي يودّ مسك الليل منه أن يستمد.

وقال فيه الفتح[٢]: آية الإعجاز، الذي جمع طبع العراق وصنعة الحجاز، واقطع استعارته جانبيّ الحقيقة والمجاز.

ومن نثره قوله[٣]:

كتابنا، وقد اتصل بنا أنكم من مطالبة فلان على أولكم، وفي عنفوان عملكم، وأنه لا يعدم تشغيباً ولا تأليباً من قبلكم، فإلى متى تلحون في الطلب، وتجدون في الغلب، وتقرعون النبع بالغرب[٤]، لقد آن لجمرتكم في أمره أن تطفى، وللنائرة بينكم أن تهدأ[٥]، ولذات بينكم أن تنصلح[٦]، ولوجوه المراشد قبلكم أن تتضح، فإذا وصل إليكم كتابنا[٧] هذا، فليقبل كل واحدٍ منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما لا يعنيه[٨]، ولا بدّ بكل عمل من أجل، ولكلّ ولايةٍ من غايةٍ، ولن يسبق شيء أناهُ، وإذا أراد الله أمراً سنّاه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ[٩] وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١٠].

ومنه قوله[١١]:

---

(١) أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجدّ، القهري، أصله من شلب، وسكن أشبيلية، وكان أديباً، كاتباً، شاعراً فقيهاً، محدثاً. وكان يفتي ببلدة لبلة، ووزر للراضي بن المعتمد بن عباد، توفي سنة ٥١٥هـ.

انظر: قلائد العقيان ٣٢ والذخيرة ق٢ مج١ ص٢٨٥ والمغرب ١/ ٣٤١ والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٣/ ٣٩٣ والوافي بالوفيات ٣/ ٣٣٥ وسير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧٧.

(٢) قلائد العقيان ٣٢٢.

(٣) قلائد العقيان ٣٣٣ والخريدة ٣/ ٤٠١.

(٤) في القلائد: القربة وهو تصحيف.

(٥) في القلائد: لقد آن لحركتكم في أمره أن تهدأ وللثائرة بينكم أن تطفأ.

(٦) القلائد: تصلح.

(٧) القلائد: خطابنا.

(٨) كذا في الأصل، وفي القلائد: بما ينصبه ويعنيه.

(٩) التكملة عن القلائد.

(١٠) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(١١) قلائد العقيان ص٣٣٤.

مرحباً بك أيها البرّ المفاتح، والروض النافح، فما أحسن تولُّجك، وأعطر تأرجك، لقد فتحت بالمخاطبة. / ٢٢/ طالما كنت له هياباً، ورفعت حجاباً تركت قلبي له وجَّاباً، وما زلتُ أحومُ عليها شرعةً، ولا أسيغُ منها جرعةً، وأغازلها أملاً، ولا أطيق لها عملاً، وألاحظها أبداً[١]، ما دون دونها كمداً:

وفي تعبٍ من يحسد الشمس نورها ... ويجهد أن يأتي لها بضريب

إلى أن وردني كتابك. فازددت له تهيباً ورعباً، وعاينت منه مركباً صعْباً، وقلتُ: التغافل عن الجواب أوْلى بالصواب، إذْ ليس بلبيب من يعارض البحر[٢] بالوشل، ويناهض التشمير بالفشل، ولا بأديب من يقيس الشبر بالباع، والمدَّ بالصاع، والجبان بالشجاع، فمن طلب فوق طاقته افتضح، ومن تعسّف الخرق النازح رزح، ومن سبح في البحر كم عسى أن يسبح.

ومن شعره قوله[٣]:

سلام كعرف المسك أو عبق النـدِّ ... على منْ غدا في الفضل فرداً[٤] بلا ندِّ

على من تحدّاني بمعجزِ شعرهِ ... فأعجز أدنى عفوهِ منتهى جُهدي

أبا عامرٍ لا زال ربعك عامراً ... بوفدِ الثناء الحرِّ والسؤدد الرغدِ

لقد سمتني في حومةِ القول خُطَّةً ... (لففتُ لها رأسي حياءً من المجدِ)[٥]

ومنهم:

[٨]

أبو بكر[٦] محمد بن أحمد بن رحيم

سماء شمسٍ وقمر، وكمام زهرٍ وثمر، تأخرت عن لحاقِهِ الخطا، وقصرت وقد توقّل العلياء وامتطى، وله لطائف تفدى بالنفس والذات، ذكر له فيها أيام لذّات، منها

---

(١) في القلائد: أمداً. (٢) في القلائد: السيل.

(٣) الأبيات من قصيدة له في: القلائد ٣٢٥ والخريدة ٣/ ٣٩٥ والذخيرة ق٢ مج١ ص٣١٩.

(٤) والذخيرة: فذّاً.

(٥) مضمن من شعر أبي تمام، وصدر البيت: أتاني مع الركبان ظن ظننته (ديوانه ١/ ٤٨٧).

(٦) أبو بكر، محمد بن أحمد بن رحيم، ذو الوزارتين الأندلسي، كان صاحب الديوان باشبيلية، شاعر، كاتب من كبار الكتّاب، له في الخريدة نماذج حسنة من شعره، توفي حدود ٥٢٠هـ. انظر: قلائد العقيان ٣٣٧ والخريدة (المغرب والأندلس) ٣/ ٤٠١ والمغرب ٢/ ٤١٧ والمحمدون ٧٦، والأعلام ٥/ ٣١٧.

على هذا الرويّ أبيات، ترتع حول حماها، ويرتوي بعذب لماها.

وقال عنه ابن خاقان[١]: رجل الشرق سؤدداً وعلاء، وواحدُهُ اشتمالاً على الفضل واستيلاء.

ومن نثره قوله[٢]:

وقد أرسلتها أخبط ودّك، وأطلب على الأيام عهدك، فإن جُدْت مجيباً كان بفضلك، وإن ضننت فليس بكفو لمثلك، على أنك للكرم أميل. وعلى أخذ اللباب الرجال أحيل، وها أنت إذا شئت وقد عرضت لك وكفيت.

ومن نظمه قوله[٣]:

أفديك[٤] من منزلٍ بالنفس والذات ... كم مرّ لي فيك[٥] من أيام لذّات

خير البنيات لا تنفكّ آهلةً ... بمنْ حوتهُ وهم خير البريّاتِ

/٢٣/ لله يومٌ ضربنا للمدام بهِ[٦] ... رواق لهوٍ بكاساتٍ وجامات

وللبلابل ألحانٌ مرجَّعةٌ ... يجيبهنَّ غوانينا بأصواتِ

جنّاتُ أنسٍ رعى الرحمن بهجتها ... حسبتُ نفسي منها وسط جنّاتِ

منازلُ لست أهوى غيرها سُقيتْ ... حياً يعمُّ وخُصَّت بالتحيّاتِ

وهي الأبيات التي عرّضت بها.

عدنا إليه ومنه قوله[٧]:

لما سريت إلى حمصٍ وقد ظمئت ... أسرى إليها[٨] سحاب منك مركوم

ووافت الريحُ تستسقي الغمام بها ... مهما تهبُّ فللأنواء تغييم

كأنما المحْلُ والأنواء تكْنفُهُ ... جيشان إذا هازم يُلْقى ومهزومُ

رقَّ النسيم وراقت كلُّ غاديةٍ ... فالأفق طلقٌ وبرد الأرض مرقوم

وقوله[٩]:

يا بغيتي قلبي إليك رهينةٌ ... فلتحفظيه فربّما قد ضاعا

إني لاقنع من وصالك بالمنى ... ومن الحديث بأن يكون سماعا

---

(١) قلائد العقيان ص٣٣٧.
(٢) لم يرد في القلائد.
(٣) الأبيات في قصيدة في القلائد ص٣٣٨ والخريدة ٣/ ٤٠٥.
(٤) في القلائد: نفديك.
(٥) في القلائد: كم لي بفتاك.
(٦) في الأصل: بها.
(٧) قلائد العقيان ص٣٦٢ والخريدة ٣/ ٤٠٦.
(٨) في القلائد: سرى إليها.
(٩) قلائد العقيان ٣٦٦.

وقوله[١]:

ولئن همت بالجمال فإني أبداً عفتُ موضع الارتياب
ودَّعتني عن المقابح نفسٌ خُلقت من محاسن الآداب

ومنهم:

[٩]

أبو محمد بن القاسم[٢]

أبو محمد بن القاسم، أثنى عليه ابن خاقان بجهده، ووصف له حال خمول كفنه ببرده، وكحله بسهده، إلا أنه قال: إنه أقبل على ربّه بيداء كتبه، وقال: وقد وصفه في الأدب بأعلى الرتب. وقد أتيتُ من نثره المنتخب ونظمه المستحلى المستعذب ما تعاطيه المدامة، ولا يدانيه قدامة.

قلت: وهو كما وصفه به الفتح وفوقه، وصاغ الثريا خاتمه والهلال طوقه، وسرى إلى الأفق والنجوم رواكد، وأغار على شرحها والكواكب رواصد.

قال الفتح[٣]: فمن ذلك ما راجعني به من رقعةٍ كتبتها إليه مودّعاً، ووصفت فيها النجوم:

عذيري من ساحرِ بيان، وناثر جُمان، ومظاهر إبداع وإحسان، ما كفاه أنْ اعتام الجواهر اعتياما، وجلاها في أبهى[٤] مطالعها / ٢٤/ نثراً ونظاماً، حتى حشد الكواكب والأفلاك، وجلبها نحوى كتائب من هنا وهناك، وقدماً حمل لواء النباهة، وأعجز أدوار البداهةِ، وليس الغمرْ كالنزرْ، رويدك أبا النصر[٥]، فما سُمِّيت فتحاً لتفتح علينا أبواب المعجزات، ولا مُلئت سروراً لترتقي علينا إلى الأنجم الزاهرات، فتأتي بها قبيلا، وتريد منّا أن نسومها كما سمتها[٦] قوداً وتذليلاً، وأنّى لنا أن نُساجل احتكاماً، أو نُباسِل أقداماً، مَنْ أقدم حتى على القمرين، وتحكّم حتى في انتقال الفرقدين، وقصّ قوادم النَّسرين، ثم ورَدَ المجرَّة وقد تسلسلت غُدرانها، وتفتح في حافاتها أقحوانُها،

---

(١) القلائد ص٣٥٦ والخريدة ٣/ ٤٠٩.

(٢) أبو محمد عبد الله بن يمن الدولة محمد بن عبد الله بن قاسم، من بني قاسم أمراء إقليم البونت. الذين خضعوا لملك قتشالة، ثم استولى عليها المرابطون فانتقل إلى المغرب إلى أن مات: قلائد العقيان ص٣٧٧ وانظر الخريدة ٣/ ٤٠٩.

(٣) قلائد العقيان ص٣٧٨.

(٤) القلائد: أبهج.

(٥) يريد بأبي النصر، الفتح بل خاقان.

(٦) في القلائد: كما سمت.

وهناك اعتقد النجم التنجيم[١]، وأحمد المراد الكريم، حتى إذا رفع قبابه، وقدَّ كما أحبَّ أطنابه، سئم الدهناء، وصمَّم المضاء، فاقتحم على العذراء رواقها، وفصم عن الجوزاء نطاقها، وتغلغل في تلك الأرجاء، واستباح ما شاء أن يستبيحهُ من نجوم السَّماء، ثم ما أقنعه أن بهر[٢] بإدلاله، حتى ذعرها بجياد أقواله، وغمرها باطّراد سلساله، فله ثم خيلٌ وسَيْل، لأجلها شمّر عن سوق التوأمين ذيل، وتعلّق برجل السفينة سُهيل، هنالك سلم المسالم، وأسلم العارض والمقاوم، فما الأسدُ وإن لبس الزّبرة[٣] يلباً[٤]، واتخذ الهلال مخلباً. وإنما انتهض تحت صبا أعنته، وقبض على شبا أسنّته، وما الشجاع وإن هال مقتحماً، وفغر عن الدواهي فما، وقد أطرق فما رآهُ، ولا وجد مساغاً يأباه، وما الرامي وقد أقعص عن مرامه، ووجئت لبته بسهامه، أو السِّماك وقد قطر دفيناً، وغودر بذابله طعيناً، وما الفوارس وقد جُللت سربتها عجاجة، ومُسخت حليتها زجاجةً، وكذلك[٥] قطب زحل واضطرب المريخ في نار وجدهِ واشتعل، ووجل المشتري، فامتقع لونه وضياؤه، وشعشع بالصفرة بياضه ولألاؤه، وتاهت الزُّهرة بين دلِّ الجمال وذلك الاستبسال، فلذلك ما تتقدم تارة[٦] وتتأخر، وتغيب آونة[٧] ثم تظهر، وأما عطارد، فلاذ بكناسهِ، وردَّ بضاعته في أكياسه، وتحجبت الشمسُ بالغمام، واعتصم بمغربهِ القمر التمام[٨]. هذه حال النجوم [معك][٩]، فكيف بمن يتعاطى أن يشرع في قولٍ معك[١٠]، أو يطلّع من ثنيّةٍ /٢٥/ فضلِ مطلعك[١١]؟ فخذ السانح من عفوي، وتجاوز لمقتي وصفوي، ومتعني[١٢] بفكري فقد رجع فليلاً، ودعْ لي ذهني عسى أن يتودّع قليلاً.

قلت: ولما شاع ذكر ما كتب به الفتح، وما أجابهُ ابن القاسم من هذا الجواب كتب القاضي عيّاض[١٣] إلى ابن القاسم، فكتب إليه هذا ابن القاسم رسالة منها[١٤]:

---

(١) في القلائد اعتقد التخييم. (٢) القلائد: بهرها.
(٣) الزبرة: الشعر المجتمع بين كتفي الأسد، وعلى مرفقيه، وهي أيضاً كوكبان بكاهلي الأسد.
(٤) اليلب: جلود يخرز بعضها إلى بعض، تلبس على الرؤوس خاصة. الواحدة: يلبة.
(٥) في القلائد: ولذلك ما قطب. (٦) القلائد: آونة.
(٧) القلائد: تارة. (٨) القلائد: قمر التمام.
(٩) التكملة عن القلائد. (١٠) القلائد: مشرعك.
(١١) في القلائد: من ثنية مطلعك. (١٢) القلائد: ثم متعني.
(١٣) عياض بن موسى بن عياض، اليحصبي السبتي، أبو الفضل: من علماء المغرب وأئمة الحديث. ولي قضاء سبتة، ثم غرناطة، وتوفي بمراكش مسموماً سنة ٥٤٤هـ، ترك مصنفات كثيرة نشر بعضها، جمع المقري سيرته وأخباره في كتاب سماه «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» طبع في ثلاث مجلدات.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣ وقضاة الأندلس ١٠١ وقلائد العقيان: ٦٨٣ والشذرات ٤/ ١٣٨ والأعلام ٥/ ٩٩. ورسالة القاضي عياض في الخريدة (المغرب والأندلس) ٣/ ٤١٣.
(١٤) قلائد العقيان ٣٨١ والخريدة ٣/ ٤١٤.

هببت أنت هبوب زيد الفوارس[(١)]، وقربت تقريب الألدّ المداعس، تومض في وجوم وتمتعض للنجوم، فاستخرجتها[(٢)]، ومن هناك صبحت الفتائق[(٣)]، وفتحت المغالق، فأذعن لشروطك الشرطان، وازدحمت بالبطين حلقتا البطان، وثار بالثريا ثبور، وعصفت بالدبران الدبور، وهكذا استعرضت المنازل، واستنهضت[(٤)] للخطب النازل، ثم تيامنت نحو الجنوب، فواهاً للمعاصم والجيوب[(٥)].

لم يبق غير طريد غير مُنْفَلِتٍ ومـوثـق في حبال القدِّ[(٦)] مسلوب

استخرجت السفينة من لججها، وجالت الناقة بهودجها، وغُودرت العقرب يخفق فؤادها، وذعرت النعائم فخاب طرادها[(٧)]، لما مَسَحْتَ تلك الآفاق، وأنخت فيها وشددت الوثاق، عطفت ذات[(٨)] الشمال، واتبَّعتْ أسباب الشَّمال، فلا مطلع إلا ألقى إليك اليمين، واستدارتْ حولك الفكة[(٩)] فسميت قصعة المساكين، وانتهيت إلى القطب فكأنَّ عليه المدار، وتبوّأته ففيه[(١٠)] عن جلالتك افتخار.

ومن نظمه قوله وقد كتب إليه بعض أصدقائه[(١١)]:

واحسرتا لصديقٍ ما له عِوضٌ إن قلت من هو؟ لا يلقاك معترضُ
ألقاه بالنفس لا بالجسم من حَذَرٍ لعلّةٍ ما رأيت الحرَّ ينقبضُ

فكتب إليه من قطعة:

ناشدتك الله والإنصاف مكرمة أمّا الوفاء بحسنِ الودّ[(١٢)] مفترض
هبِ المزار لمعنى الريب مُرتفعٌ ما للوداد بظهر الغيب مُنْخفضُ!

ومنهم:

---

(١) هو زيد بن حصين بن ضرار الضبي الفارس الجاهلي الشاعر.

(٢) بعدها في القلائد والخريدة: من أيدينا، وأزعجتها عن نواحينا، ثم صيّرت إليك شملها وكنت أحقّ بها من أهلها، ومن هناك أوصلت سراك.

(٣) في القلائد: الفيالق. وفيه بعدها: وتسنّمت تلك الحصون، وأقسمت لتخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة النمل: ٣٧.

(٤) القلائد: واستهضم جميعاً الخطب النازل.

(٥) في الأصل: فوفاها للمعاجم والجيوب.

(٦) القلائد: العزّ.

(٧) القلائد: فخاب إصدارها وإيرادها.

(٨) في القلائد: وعطفت الشمال.

(٩) الفكة: كواكب مستديرة خلف السماك الرامح تعرف بقصعة المساكين.

(١٠) في القلائد: فلهُ.

(١١) قلائد العقيان ص٣٨٩.

(١٢) القلائد: العهد.

[١٠]

أبو عامر بن أرقم[(١)]

بالغ الفتح في شكرِهِ، ووجدَ الفتحَ في ذكرِهِ، واجتهد ولم يوف حقّه، ولا أنصف حذقه، ولكنّه أتى بما سنح لفكره، وقرع سنّ بكره، فأتى له بكلٍّ /٢٦/ رسالة ترقم، وبسالة يبقى بها منه ابن أرقم، وقال: فريد وقته وابن فريده، وعميد الكلام وابن عميده، ووصف حسن مرباه، وأنه نشأ على ما ألفى عليه أباه.

ومن نثره قوله[(٢)]:

سيدي أطال الله بقاءك محسود[(٣)] الجناب، محمود المقام والمناب، من كرم[(٤)] أمطر قبل أن يُستبرق، وأثمر قبل أن يستورق، سجيةُ نفسٍ توّاقةٍ إلى الحسنى، نزّاعةٍ إلى الأسنى[(٥)]، وكانت[(٦)] إلى جانبي مجالس ومشاهد، ومصادر وموارد، وصلت بها جناحي، ومددت أوضاحي، ونهبت من ذكري[(٧)]، فأثقلت ظهري، وأوْجبت عليّ الشكر دهري، وما تأخرتُ عن حضرتك لامحاً لغزّتك، قاضياً حقّ مبرّتك، إلاّ عن حال لا تُعين على الترحال، فعذراً عُذراً، وغفراً غفراً، وعندي ودٌّ كماء المزنِ، وثناء كروضِ الحزن، جزاك الله ياسيدي خيراً، أنت الواصل[(٨)] وقد قطع الأنام الناصر وقد خذلت الأيام.

ومنه قوله[(٩)] في كتاب كتبه شافعاً لرجل يعرف بابن الزريزير[(١٠)]:

سيدي[(١١)]، ومن أبقاه الله والأمكنة بمساعيه فسيحة، والألسنة بمعاليه فصيحة، موصلة[(١٢)] حيوانٌ يصغر كل أوانٍ، ويُسفرِ بين الأخوان، ينظر من عينٍ كأنها عين،

---

(١) قلائد العقيان ص٣٦٧.

(٢) قلائد العقيان ص٣٧٠.

(٣) في القلائد مجودَ.

(٤) في القلائد: من كرم دام عزك ـ خيمه، وشرف حديثه وقديمه.

(٥) في القلائد: الأعلى.

(٦) في القلائد، وكانت لك ـ وصل الله إعزازك ـ في جانبي.

(٧) في القلائد: بيت شعر:

ونبهت من ذكري وما كان خاملاً   ولكنَّ بعض الذكر أنبهُ من بعضِ

(٨) في القلائد: فجزاك الله ياسيدي جزاء الواصل.

(٩) قلائد العقيان ٣٧٤ والخريدة ٣/٤١٧.

(١٠) في القلائد: يلقب: الزريزير.

(١١) في القلائد والخريدة: يا سيدي الأعلى، وعلقي الأغلى، وسراجي الأجلى.

(١٢) بعده في القلائد والخريدة: وصل الله حيلك.

ويلقط بمنقار من قار[١]، يسلّي المحزُون بالمقطّع والموزون، وينفِّسُ عن المكظوم، بالمنثور والمنظوم، مِسْكيُّ الطَّيلسان، تولَّد بين الطائر والإنسان، كما سمعت بسمع[٢] الفلاة، وعمر بن السعلاة[٣]، قطع من مطالع الزيتون[٤]، إلى مواقع السحاب الهتُون، فصادف من الجليد، ما يُذهبُ قوى الجليد، والحدائق قد غمّضتْ أحداقُها، وانحسرت أوراقُها، والبطاح قد قيدت الفُور[٥] بحبائل الكافور[٦]، فمني البائس بما لم يعهده، كما وسم بالزرزور ولم يشهدهُ، ولما قال رأيه، وأخفق[٧] سعيه، التفت إلى عطفةِ أسمط، وإلى أديمة أرقط، فناح، ثم سوّى الجناح، وقد أنكر[٨] مزاجه، ونسي على الدوح ألحانه وأهزاجه[٩]، وإذا ألقي كتابي إليك، يُفسّر هذه الجملة عليك.

ومنهم:

[١١]

أبو محمد بن سفيان[١٠]

أورد المجرّة خيله الظماء، واقتحم الفلك لا البهماء، ونزل جبهة الأسد اعتسافاً، وطرق /٢٧/ هودج العذراء، وما تجافى، ومدَّ يمينه فحلّ نطاق الجوزاء، ونزل على هام الكواكب في السماء.

وقال فيه الفتح[١١]: بلغت همّته السماء، وجَلَتْ أسِرّتُهُ الظلماء، قلت: ووصف سيادته الشماء، واستعمل التصريح لا الإيحاء. ومن نثره قوله بما كتب به إلى أبي

(١) في القلائد والخريدة: كأنه من قار، وبعده: أطبق على لسانه كأنه إغريضة، في جوف إحويضة.
(٢) الأصل: بسبع، وصححت عن القلائد، وسمع الفلاة، حيوان من الفصيلة الكلبية، يضرب به المثل في حدّة سمعه فيقال (اسمع من سمع).
(٣) هو عمرو بن يربوع: تزعم العرب أنه متولد من السعلاة والإنسان، والسعلاة عندهم أخبث الغيلان.
(٤) في القلائد والخريدة: قطع من منابت الربيع، إلى منازل الصقيع، ومن مطالع الزيتون.
(٥) الفور: الظباء.
(٦) بعده في القلائد والخريدة: وأوقعت الصرد في شباك الصرد.
(٧) في القلائد والخريدة: وأخفق أوكاد سعيهُ.
(٨) في القلائد أنكر.
(٩) في القلائد والخريدة: ونسي ألحانه وأهزاجه.
(١٠) ترجمته في قلائد العقيان ٣٩١ والخريدة (المغرب والأندلس) ٣/ ٤١٨، والذخيرة ق٣ ج٢ ص٩٠٣.
(١١) قلائد العقيان: ص٣٩١.

محمد بن القاسم[١]، وهو[٢]:

كتبت وما عندي من الودّ أصفى من الراح، وأضوأُ من سقط الزند عند الاقتداح[٣]، وبيننا ذمّة[٤] تجلّ أن تحصى بالحساب، بيض الوجوه، كريمة الأنساب[٥]، لو كانت نسيماً لكانت بليلاً، ولو كانت زماناً لم تكن إلاّ سحراً أو أصيلاً.

فأجابه أبو محمد بن القاسم بقوله[٦]:

كتبت عن ودّ لا أقول كصفو الراح، فإن فيه جناحاً، ولا كسقط الزند فربما كان شحاحاً، ولكن أصفى من ماء الغمام، وأضوأ من القمر التمام[٧]، ومن نظمه قوله[٨]:

أبا عيسى أتذكر حين كنّا ... على هام الكواكب نازلينا؟
ندوس بخيلنا زُهرْ الثُّريّا ... ونُورِدُها المجرَّة إن ظمينا[٩]
وننزل جبهة الأسد اعتسافاً ... إذا ما البدر مرَّ بها كمينا
ونطرق هودج العذراء وهناً ... فندخُلُهُ عليها آمنينا
إذا عَنّت لنا الجوزا مددنا ... لحلّ نطاقها عنها يمينا

ومنه قوله[١٠]:

ياضرَّة الشمس قلبي منك في وهج ... لو كان بالنار لم يسكُنْ ذُري حجر
أبيت أسهرُ لا أُغْفى، فإن سَنَحَتْ ... إغفاءةٌ فكمثل اللمح بالبصر
أقول ما بال بازي الصبح ليس له ... وقعٌ وما لغراب الليل لم يطر؟!

ومنهم:

[١٢]

أبو محمد بن جعفر بن إبراهيم بن الحاج[١١]

أطاعه الكلام فاقتاد عاصيه، وارتاد قاصيه، فقهر النجوم إذعاناً، وصرف الغيوم

---

(١) مضت ترجمته.
(٢) النص في قلائد العقيان ٣٩٥ والذخيرة ٣/ ٤٢١.
(٣) في القلائد والخريدة: وليس فيما أدعيه من ذلك بئس، وكيف وهو ما تجزي به نفساً نفس، ... إلخ.
(٤) في القلائد: ولم لايكون ذلك وبيننا ذمّة.
(٥) في القلائد: الإحساب.
(٦) قلائد العقيان ص٣٩٥ الخريدة ٣/ ٤٢١.
(٧) القلائد: من القمر في التمام.
(٨) قلائد العقيان ص٣٩١.
(٩) القلائد: صدينها.
(١٠) قلائد العقيان ٣٩٦ الخريدة ٣/ ٤٢٠.
(١١) قلائد العقيان ص٤١١، وقد ترجمه عقيب ترجمة أبيه أبي الحسن بن الحاج، وهو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن الحاج، ارتضاه أهل لورقة للقيام بأمرهم فلم يرض، واستخفى منهم. انظر: ابن سعيد: المغرب ٢/ ٢٧٦.

بيديه عنانا، وقال الفتح فيه بعد ذكر أبيه: عذير بيان، وعذير فضل ملء العيان، لم تزل به الفواضل تجلى، والفضائل تملى، ببديهة متسرعة، وقريحة عما للغير متورعة، ولابنه بدائع[١] مائسات الأعطاف، مستعذبات الجنى والقطاف، ترودها روضة ممطورة، وتخالها كواعب في خيام الأفهام مقصورة.

/٢٨/ ومن نثره قوله[٢]:

يا سيدي أبا النصر: وأَلْمعيّ[٣] العصر، كيف أُساجلك في الأدب، وأنت تملأ الدلو إلى عقد الكرب[٤]، وأنا أمتاح من وشلٍ، واستنجد بفشل[٥]، وأستعين بنفس قد شعب الدهر اجتماعها، وقصَّر باعها، وهي الأيام. حربها للكرام ولا أبعد، وأنت المجد الأصيد[٦]، فيما تعدّ، والدول تقول: لو حلّي عاطل أجيادنا وتولّى تصريف أنجادنا وجيادنا، لكان أشراقنا يروق كما طلعت البروقُ، فهي تعرف[٧]، والحظ لا ينصف، وعساها تلينُ، ولعل إسعادها يبينُ، فتستنجزُ الحظوة[٨] وعداً، نَرِد بنداك[٩] ماءً عِدًا، وسيأتي ذكر والده، إن شاء الله تعالى.

ومنهم:

[١٣]

أبو محمد، ابن عبدون[١٠]

النائحة الثكلى، والصادحة التي لا تتسلّى، شحن شعره بعبر الورى، وخبر ما تم من مأتم النوائب وجرى، بحلاوة كلم قصّر عنها كلّ أحدٍ دون ابن عبدون، حتى

---

(١) القلائد ص٤١١.
(٢) قلائد العقيان ص٤١١.
(٣) الأصل: الألمعيّ.
(٤) الكرب: الحبل يشدّ في وسطه خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه، وهو تضمين لقول الفضل بن العباس اللهبي (ديوانه):

من يساجلني يساجل ماجداً ... يملأ الدلو إلى عقد الكرب

(٥) في الأصل: بنفسك، وهو تحريف ووهم في النقل.
(٦) القلائد: وأنت السيد الأمجد الأصيد.
(٧) القلائد: تعترف.
(٨) القلائد: للحظوة.
(٩) القلائد: لنداك
(١٠) عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون، الفهري، اليابرتي، أبو محمد، ذو الوزارتين، أديب الأندلس وشاعرها في عصره، ولد في يابرة، واستوزره بنو الأفطس إلى انتهاء دولتهم سنة ٤٨٥هـ. وخدم بعدهم المرابطين، وكان أديباً، كاتباً مترسلاً شاعراً مقتدراً، وأشهر شعره قصيدة (البسامة) وأولها: «الدهر يفجع بعد العين بالأثر».

=

العبدان عبد الرحيم وعبد المجيد، والشهد لمن جنى النحل ومراشف الغيد.

وقال فيه ابن خاقان[١]: مُنتمى الأعيان، ومنتهى البيان، المطاول سحبان[٢]، والمعارض لصعصعة بن صوحان[٣]، نخبة العلاء، وبقية أهل الإملاء.

ومن نثره قوله[٤]:

قد رماني على فوت من بياني بيانك، وقد تولّى إحساني، وأرجحنّ إحسانك، بعينين، من الصناعتين[٥] نجلاوين، لو رمقا نور الثريا[٦] لتهلّل برقُها، واستمهل ودقها، وفصلين من دُررٍ[٧] وياقوت، بل أصلين من سحر هاروت وماروت، ولئن أشرعت إليّ من البيان رمحاً فيه نصلان، ما من طرفيهِ إلاّ عاليةٌ ركّب فيها سنان ماض[٨]، ولا من شفرتيه إلاّ باريةٌ لا يثبت لها جنان ماض، فإلى أيّ لامةٍ تسدّد رماحك، وعلى أيّ هامةٍ تجرّد صفاحك؟ هل تجد إلاّ منْ يمرُّ بين يديك في شخص ضئيل، وينظر إليك من طرفٍ كليل؟ وهل تحسّ إلا ضلوعاً من ساكنيها قفاراً أو دموعاً من التأسف على التخلّف حِراراً، لا تسعر إلاّ بالتسليم لسبقك، والتعظيم لحقك، اقتصاداً[٩] بأدنى لمحة، من نثير منك أو نظيم يردّ من الأوهام والأفهام كل لفحةٍ، ولو كانت من نار إبراهيم، وتؤكد من البصائر والخواطر كل نفحةٍ ولو كانت من الريح العقيم.

/ ٢٩/ ومن نظمه قوله[١٠]:

سقاها الحيا من مغانٍ فساح ... فكم لي بها من معان فِصاح
وحلّى أكاليلَ تلك الرُّبى ... ورشَّ معاطِفَ تلك البِطاح

= شرحها ابن بدرون، وفي المغرب والذخيرة نماذج حسنة من نثره وشعره، توفي سنة ٥٢٩هـ انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج٢ ق٢ مج٢ ص٦٦٨ ـ ٧٢٧ المغرب ١/ ٣٧٤ وقلائد العقيان ص٤١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٣٨٨.

(١) قلائد العقيان ص٤١٧.

(٢) سبحان وائل، الخطيب المشهور الذي يضرب به المثل (الميداني ١/ ٢٤٩).

(٣) صعصعة بن صوحان، العبدي، من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، له مع معاوية مواقف، واشتهر بالبلاغة وسرعة البديهة ورجاحة العقل، وأخباره كثيرة في كتب التاريخ العامة. انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ١٥٤ والإصابة (٤٠٦٩) وأخباره متفرقة في مروج الذهب.

(٤) قلائد العقيان ص٤٢٤.

(٥) في القلائد: من النظم والنثر.

(٦) في القلائد: لو رقرقهما لنوء الثريا.

(٧) القلائد: در.

(٨) القلائد: قاض.

(٩) القلائد: إنصارا.

(١٠) القلائد ص٤٢٠ والذخيرة ق٢ ج٢ ص٦٩٧، والمغرب ١/ ٣٧٥، ونفح الطيب ١/ ٦٧٤.

فما أنس لا أنس عهدي بها وجرّي عليها[١] ذيولَ المِراح
ونومي[٢] على حَبَرات الرياض يُجاذب بُرديَّ أيدي[٣] الرياح
وليلٍ كرجعةِ طَرفِ المريب لم أدْرِهِ[٤] شفقاً من صباح

ومنه قوله[٥]:

دعته[٦] ومن سجيته البِدارُ رؤوسٌ أينعت منها الثمار
ليوردها[٧] ظماءً وهي ماء ويُصدرها رواءً وهي نار
وتقرضها أياديه[٨] لجيناً وترجع وهي لو سلمت نضار

ومنه قوله[٩]:

أقول لصاحبي قم لا بأمْرِ تنبّه إنَّ شأنك غير شاني
لعلّ الصبح قد ولّى[١٠] وقامتْ على الليل النوائح بالأذان

ومنه قوله[١١]:

مررتُ على الأيام من كل جانبِ أصعّد فيه تارةً وأصوّبُ
ينير[١٢] لي الثغران صبحٌ وصارمٌ ويكتمني القلبان ليلٌ وغيهبُ
وقد لفظتْني الأرضُ إلا تنوفةَ يحدِّثني عنها العيانُ فيكْذِبُ

ومنه قوله[١٣]:

هل يذكر العهد الذي لم أنْسه ومودّتي معقودةٌ بصفاء
ومبيتنا في نهر حمصٍ والحجى[١٤] قد حُلَّ عقدُ صباه بالصهباء
ودموع طلٍّ الليل يجلو أعيناً ترنو إلينا من عيون الماء

وقد ذكره ابن بسام[١٥]: ومما قاله:

أعجوبة الليالي، وذروة المعالي، ذو لسانٍ يفري[١٦] ظبة السيف، وصدر يسع

---

(١) في المصادر: فيها.
(٢) في المصادر عدا القلائد: ونوم.
(٣) القلائد: راح الرياح.
(٤) في المصادر: لم أدر له.
(٥) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٧١٧ ولم ترد في القلائد.
(٦) في الذخيرة: دعتك ومن سجيتك.
(٧) في الذخيرة: فيوردها.
(٨) في الذخيرة: ويقرضها أعاديه.
(٩) قلائد العقيان ص٤٢٢.
(١٠) القلائد: وافى.
(١١) القلائد ص٤٢٣ الذخيرة ق٢ مج٢ ص٧١٨.
(١٢) في الذخيرة يتمُّ.
(١٣) القلائد والمغرب ١/ ٣٧٥.
(١٤) في المغرب: «والدجى».
(١٥) في الذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٦٨.
(١٦) في الأصل: يبدي، والتصحيح عن الذخيرة.

رحلة الشتاء والصيف، أفصح من صمت ونطق، وأجمحَ من صلَّى وسبق، ولما صمتَ ذكر ملوك الطوائف. / ٣٠/ طوى الشعر على غرِّهِ، إلا نفثة مصدور، أو التفاتة مذعور، وهو اليوم في بلدة يابرة، يرتشف فضل ثمادهِ، ويأكل من بقيّة زادِهِ، وقد أثبت من نظمِهِ الرقيقةِ حواشيه، الرائقة أعجازه وهواديه، ونثرِهِ الغضّةِ مجانيهِ، المبيضّة مجاليه، ما يشهد له بالفضل، شهادة البرهان بالشكل.

ومما أورد من نثرِهِ قوله[١]:

فودَدْتُ أن أعار جناحي طائر، فأكون لكعبة ذاك الجلال أوّل زائر، فأقرن هناك حجّةً بعمرة، وأفوز من أملي[٢] بنظرة، وأعشو إلى ذاك الضياء، وأرى مجلسي من تلك السماء، ولله دهر أطلعك أُفقُهُ[٣]، ما أشرف في الأوقات خِيْمةُ، وأعْبق في الآناف شميمه، وبحقّك أقسم[٤]، لقد أظهر بك شرفه وبيّن، وأخذَ منك زخرفه وأزّين، وجعلك غرّة بهيمة، وعذرة[٥] مليمة، والحجة على خصومِهِ، وأنا أخطب[٦] مودته عقيلة، وأجعل رحمي الأدب والنسب وسيلة، والله[٧] يعينني فرضَهَ علي أُؤدّيه، وحقه[٨] أقضيه.

وقوله[٩]:

ما كتبت عن قريحةٍ خَمَدَ لهيبها، ونحيزةٍ ركد هبوبُها، وذهنٍ أمّحت أضواؤه، وطبعِ أخوتْ أنواؤه، وجنانٍ فلَّ ظنَّته الكسل، ولسانٍ عقد [عذبَته][١٠] الخجل، ندبتهُ إلى الاحتفال فانقطع، وبعثته على الاسترسال فامتنع[١١]، من طمع في مجاراتك قطف، ولو ركب البرق، ومن دفع إلى مباراتك تخلّف، ولو سبق الخلق، فقبّح الله العجلة، فما أسوأ آثارها، وأكثر عثارها[١٢]، وأوحش غلطها، وأفحش سقطها، من

---

(١) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٦٧٠، من رسالة خاطب بها الوزير أبا القاسم بن الجدّ يخطب فيها ودّه.
(٢) في الذخيرة: من عمادي - وصل الله علوّه - بنظره.
(٣) بعده في الذخيرة: ووقتٌ وسعك طلقه. ما أكرم طبيعته، وأضخم دسيعته، وأشرف.
(٤) بعده في الذخيرة: والتزام من ذلك ما التزم.
(٥) في الذخيرة: وغارة.
(٦) في الذخيرة: اخطب إلى عمادي - أدام الله عزّته.
(٧) بعده في الذخيرة: جلّ وعلا.
(٨) في الذخيرة: وقرضه.
(٩) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٧٤.
(١٠) ساقطة من الأصل. ونقلتها عن الذخيرة.
(١١) بعده في الذخيرة: وقال: في كل حين تعرضني على العيون، بوجهٍ مجدور...إلخ.
(١٢) بعده في الذخيرة: وأكبر شنارها.

ركبها لم ينْجُ ـ لو أقيل[١] ـ من عثار، ومن صحبها لم يخلو ـ لو قبل ـ له اعتذار.

ومنه قوله[٢]:

سلام على من لم يستفزَّه قال ولا قيل، ولم تهزَّهُ تلك الأباطيل، وبلغني قول من قضي عليَّ بالظنّة، وحكم علي بالشبهة. لا سيما في خزية[٣] توجب حدّاً وتضرع خدّاً، وتفلُّ من فاضلٍ حَدّاً، لم يطّلع مُشيعُها منِّي على ريبة، ولا وقف مذيعُها على حقيقة، بل افتراء من مُفْتَرٍ، وادعاءَ من مدّعٍ في تلك التي لا أُسميها، فإني طلقتها قبل الدخول ثلاثاً، ونقضت حبل وصالها إنكاثاً، قبل هذا والسلطان مهاود، والشيطان مساعد[٤]، فكيف الآن وقد علت الإنسان أُبهةُ الكبر، وخطته واعظةُ القتير، وردّ ما استعاد من الشباب /٣١/ إلى المعير، وهجر كلّ الهجر من ذاقها شيما، ورفض كل الرفض[٥] من لم يكن إلا[٦] على الحديث نديماً، وأقسم وأعرف بما أقسم، لقد تركتها خوفاً للمعاد، لا رياءً للعباد فلا يظنّ تنصلي لمعذرةٍ أُريد قبولها، وأحبّ تبليغها وتوصيلها، لا والذي صيّر العقل لصاحبه خصماً، وجعل بعض الظنّ إثماً.

ومنه قوله[٧]:

كتابي عن عهدٍ طال زمانُهُ، واستطال سلطانُهُ، ووقت لا يحزِرُهُ[٨] حساب، ولا يحصرهُ كتاب، ولا يحويهُ حدٌّ ولا يجمعهُ، ولا يحصيه[٩] عدٌّ ولا يسعهُ، ومالتْ بيننا في الأكثر أقاليم، لا يقطعها الإيجاف ولا الرسيم[١٠]، لا أقول: مجاهل ومعالم، بل أقول: أقاليم وعوالم[١١]، لا يفْهم الحدّاثُ فيها إلا التراجم[١٢]، ولا تقطعها الجياد بشدِّها، ولا الركاب بوخْدِها، فهنيئاً للحضرة، وجميع أهل الملّة حضورك، وفي سبيل[١٣] المجد مقامك ومسيرك، ولولا آلام تناوبت، وأسقام تعاقبتْ لتلقّيت

---

(١) في الأصل: لو أقيه، التصويب عن الذخيرة.

(٢) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٨٠. (٣) في الذخيرة: ضربةٍ.

(٤) في الذخيرة: والزمان مساعد، والسلطان مهاود.

(٥) في الأصل: ورفثَ كل الرفث، والتصويب عن الذخيرة.

(٦) في الأصل: ومن لم يكن، الإضافة عن الذخيرة.

(٧) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٨٣. (٨) في الأصل: لايحوزه.

(٩) في الأصل: يحضره، والتصويب عن الذخيرة.

(١٠) بعدها في الذخيرة: ولا تهتدي في طرقها النجوم.

(١١) في الأصل: وعالم والتصويب عن الذخيرة.

(١٢) إشارة إلى قول المتنبي (ديوانه ط صادر ص٣٨٧):

تجمع فيه كل لسنٍ وأمّةٍ ... فما تفهم الحدّاث إلا التراجم

(١٣) في الذخيرة: مقام، وقد أشار المحقق إلا أن بعض أصول الذخيرة أثبتت كلمة (سبيل).

أوبتك[١] السعيدة بقدمي، لا بمدادي[٢] وقلمي.

ومما أنشد له قوله[٣]:

وافاك من فلق الصباح تبسُّم ... وانجاب من غسق الظلام تجهّم
ودموع طلٍّ الليل تخلق أعيناً ... يرنو بها من ماء دجلة أرقمُ
ياصاحبي بين الصراة ودجلةٍ ... ودعا العلاقة مسعدٌ ومتيَّمُ
هل في لحاظك إنما هي عطفةٌ ... زهرٌ على خضر الرّبى أو أنجم
بيضٌ كما ضحكت حواشي روضةِ ... وشّى السماك[٤] مُلاءها والمرزم
خبطت بنا ورقَ الظلام سوابحٌ ... ملءُ النواظر سيرهنَّ توهُّمُ
من كلّ هفاف العنان كأنّه ... نفسُ المشوق تعاورته اللوَّم
ومن المشاهد كالشهود سوامعٌ ... ومن الأسنّةِ ألْسُنٌ تتكلمّ

ومنه قوله[٥]:

وإن زعزعتهم روعةٌ زعزعوا الدجى ... إليها كماةً والرياح مذاكيا
ولو أنها ظلّت لكان أمامها ... سنا عمرٍ في فحمةِ الليل هاديا
/ ٣٢/ إليه أكلتُ الأرض بالعيش ثائراً ... وقد أكلتْ منه الذُّرى والحواميا
حوافي لا يُنْعلْن والبعد آذنٌ ... على نفسه إلاّ الوجى والدياجيا
فجاءتْهُ لم تبصرْ سوى البِشر هادياً ... وَسَلْهُ فلم يسمعَ سوى الشكر حادِيا
إليك ابن سيفي يعربٍ زف خاطري ... عقائل لا ترضى البروج[٦] مغانيها
إلى من إذا لم تشكني أنت والعلى ... أكون بما ألْقى من الدهر شاكيا
فردّ المنى خضراً ترفُّ غصونها ... بمبسوطةٍ تندى ندىً وعواليا
عوالٍ إذا ما الطعنُ هزّ جذوعها ... تساقَطَتِ الهيجا عليك معاليا
وعاونْ على استنجاز طبعي بهبَّةٍ ... ترقّص في ألفاظِهنّ المعانيا
يعزّ[٧] على العلياء أن يُلقيَ العصا ... مقيماً بحيث البدر ألقى المراسيا

---

(١) في الأصل: رؤيتك.
(٢) في الذخيرة: إلا بمداد، وما في الأصل أصحّ.
(٣) من قصيدة طويلة في الذخيرة مج٢ ق٢ ص٦٨٤، وبعضها في فوات الوفيات ٢/ ٣٩١.
(٤) في الأصل: الشمال، والتصويب عن الذخيرة.
(٥) من قصيدة في الذخيرة: مج٢ ق٢ ص٦٨٩، والفوات ٢/ ٣٩١.
(٦) في الأصل: الروح، ولا يستقيم المعنى والوزن، والتصويب عن الذخيرة.
(٧) في الذخيرة: أعزّ.

ومن قام رأيُ ابن المظفّر بينَهُ ... وبين الليالي نامَ عنهنَّ لاهيا

ومنه قوله[١]:

هل عمّروا الأفق بالآرام والعَفَرِ ... أم كحّلوا الشهب بالتفتير والحور
والنقْع قد مدَّ جنحَ الليل فوقهمُ ... أم عينهم لا ترى التضفير للشعر[٢]
والأرض قد لبست أدراع أبحرها ... وجرَّدت فوق أيديها ظبي القدر[٣]
ما كان في هيئة الأرض القيام لنا ... بالليل لولا مزيدٌ من سنا عمر[٤]
أنتم على مسلم يا آل مسلمةٍ ... بالجود إذ لم ينازعهُ بنو مطر[٥]
لولاكم أهْلَكَ الناس استواؤهم ... ولم يكونوا سوى دُهْمٍ بلا غُررِ

ومنه قوله[٦]:

سروا[٧] ومسك الدياجي غير منهوب ... وطرَّةُ الشرقِ غُفْلٌ دون تذهيب
والغيثُ[٨] ينشر منه راحةٌ خُضبتْ ... بالبرق فوقي درّاً غير مثقوب
هيهات لا أبتغي منهم هوى بهوى ... حسبي أكون محباً غير محبوبِ
يا دهر إن توسع الأحرار مظلمةً ... فاستلني إن غيلي غير مقروب
ولا تخل أنني ألقاك منفرداً ... إنَّ القناعة جيشٌ غير مغلوبِ
/ ٣٣/ ما كلُّ من سيمَ خسفاً عاف موردَهُ ... إن الإباء لظهر غير مركوب
أمشي البراز ولا أُعلى[٩] به أثري ... حسبُ المريب ركوب القاع ذي اللوبِ

ومنه قوله[١٠]:

وإن نبتْ حمص بي والله يعصمُها ... ركبتها عزمةً تشأى الكواكبُ بي
وللمؤيّد سدّ الله مُدَّته ... رأيٌ يغالط شُهْبَ الليل في القطب
تراهُ أن تدعُهُ يومي ندىً ووغىً ... النارَ في عرفجٍ والماء في صَبَبِ
إليك مني أعزّ الله نصركَ ما ... أبقَتْه أيدي السّرى والبيد والنّوبِ

---

(١) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٦٩٣.
(٢) الذخيرة: في الشعر.
(٣) في الذخيرة: القدر.
(٤) ورد البيت في الأصل مضطرباً، وأثبت ما في الخريدة.
(٥) يريد مسلم بن الوليد في مدحه يزيد بن مزيد الشيباني. ويشير إلى قوله (الديوان ص٧):
سلَّ الخليفةُ سيفاً من بني مطرٍ ... أقام قائمه من كان ذا ميل
(٦) الذخيرة: ق٢، مج٢ ص٦٩٨.
(٧) في الذخيرة: ساروا.
(٨) في الذخيرة: والنعيم.
(٩) في الذخيرة: أعفى.
(١٠) في الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٧٠٦.

جاءتك ترقص أردان الكلام به ... سوابحٌ تأكل الغبراء بالخببِ

ومنه قوله[١]:

سامتكم في المكرمات عزائمٌ ... جار على أحكامها التأييد
وعُليً نشأنَ مع النجوم وقبلها ... ولهنّ من بعدِ النجومِ خُلودُ
من معشرٍ أخذوا بأطراف العلا ... والأفقُ غُفْلٌ والليالي سودُ
جادوا فبانت[٢] في البسيطة أنجمٌ ... وسطوْا فثارتْ في السماء أسودُ
لا ذنب للآمال إلاّ أنها ... شهبٌ لها من أن تراك سعودُ
أكلتْ إليك الأرض وهي بحسْبِها[٣] ... إن لم تعُقها من ثناك قيودُ

ومنه قوله[٤]:

وقد زرّوا الضلوع على قلوبٍ ... لو انتُضِيتْ لقُطَّ بها الرقابُ
ولو بِسوى الرشيد جعلْتُ هديي ... لضَلَّ[٥] الركب فيها والركاب
من النفر الأولى طلعوا نجوماً ... فمن أنوائهم فينا انسكابُ
وباء فقلت في الغبراء بُوْحٌ ... وثار فقلتُ في الخضراء غابُ
لقد عُقِدت حباهُ على جلالٍ ... ظُباهُ لا تهاب كما تهابُ
كأنّ عِداهُ في الهيجا ذنوبٌ ... وصارمُهُ دُعاءٌ مستجابُ

ومنه قوله[٦]:

طمعتُ بحمصٍ إن تلين لمطلبي ... ولا عجبُ قد يرشحُ الحجر الصلدُ
/ ٣٤/ ولي، فأسأت، الذنب في ذاك لا لها ... فمنذ توجد[٧] الجعلان لم ينفق الورد

ومنه قوله[٨]:

سأطلبُ لا بألسنة اليراع ... سوى ذا الحظِّ من أيدي الزماع
وأخبط بالسرى ورق الدياجي ... ووجهُ الموت محدور القناع
وأمرقُ من أسارير المواضي ... كما مَرَقَ الهلالُ من الشعاعِ
فسلني عن ملوك الأرض تسأل ... خبيراً فاقض حقَّ الاستماع

---

(١) في الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٧٠٦.
(٢) في الأصل: فآت.
(٣) في الأصل: تحسبها.
(٤) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٧٠٨.
(٥) في الأصل: يضلّ.
(٦) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٧١١.
(٧) في الأصل: يحضر. والتصويب عن الذخيرة.
(٨) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٧١٢.

عرضت عليهم نفسي ونفسي لأوضحَ غبنهم عند البياع
فما اتبعوا دليلاً في اجتنابي ولا سلكوا سبيلاً في اصطناعي
كأعضاءٍ بها ألم فقلْبٌ على ضَمَدٍ[1]، ورأس صُداع
فما أبقوا ولا همّوا ببقيا ونقْلُ الطبع ليس بمستطاع

ومنه قوله[2]:

وما أنس ليلتنا والعناقُ قد مزجَ الكلَّ منا بكلّ
إلى أن تقوّس ظهر الظلام واشمطَّ عارضهُ واكتهلْ
ومسَّ رقيق رداء النسيم على عاتق الفجر بعض البللْ
فرحتُ[3] وديني أميرُ الذنوبِ ودولتُهُ فوقَ تلك الدوَل

ومنه قوله[4]:

رويدك أيّها الدهر الخؤون ستأكلنا وإياك المنونُ
فجعتُ بزاهرٍ من سرّ فهر كبدر التمِّ هالته عرينُ
بأروع مثل[5] عين الحسن قيداً إذا أخذت مجاريها العيونُ
وابقتني يدُ[6] الأيام فرداً كما غدرتْ بيسراها اليمين

ومنه قوله[7]:

ملكت فاسجح لا أباً لك يا دهر أفي كل عام في العلا فتكةٌ بكر
مضى لم يَرِثْ عنه السيادةَ وارثٌ ولولا[8] المساعي الزهر لانقطع الذكر
/ ٣٥/ فيا ليتني بين العوالي وبينه وقد ملكتني من أعنّتها فهر
لأطبق عنه بالعشا حدق القنا ضرابي وإن كانت لها الأعينُ الخزرُ

قلت: ولقد قال ابن بسام[9] بعد هذه الأبيات كلمات يسخر فيها بابن عبدون حيث ادّعى الغناء في الحرب، ولعمري لقد طرف، وهو قوله: فيا لأبي محمد بن عبدون في الحرب الزبون، مجنّاً ليس بحصين، لينه كلما شهد وقيعة كان لمجن ابن أبي

---

(١) الضمد: الحقد.
(٢) الذخيرة: مج٢ ق٢ ص٧١٥، وبعضها في المغرب ١/ ٣٧٥.
(٣) في الذخيرة: وأبتُ.
(٤) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٧١٩.
(٥) في الذخيرة: ملء.
(٦) في الأصل: بهِ.
(٧) الذخيرة مج٢ ق٢ ص٧٢٠.
(٨) في الأصل: ولا المساعي.
(٩) في الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٢٧٠.

ربيعة[١]، حِسب الكتب من الكتائب، وكفاه اعتناق القضب من خرط القواضب، وأرى فهراً لو ملكته يومئذٍ أعنّتها، وجعلت إليه سيوفها وأسنّتها. لماتَ منها ضحاكية[٢]، أو حيَّ حياةً فهريّة[٣]، ولخرّ البيت وعمودُهُ، وضاع الرعيلُ ومَنْ يقودُه. انتهى كلامه وبالله لقد ضحك منه في موضعه، وقطع جلده بمبضعِهِ وأنكاه بكلمته التي هي أشدّ شرخاً من الحجر، وأحرّ وخزاً من الإبر، لقد ضربه على أخْدَعِهِ، ورماه على جنبه لمصرعِهِ، وأنكاه للسكين، إلا أنها لا تذكى بها الذبائح، وغطّاه إلا أنه هتكه بالفضائح، ومن أين هذا البطل وما ادعاه، وكيف ترى جنانه الجبان لو وعاه، وماذا تراه كان يصنع والعوالي مطبقة، والأعادي محدقة، وأنّى سمت به همتُهُ حتى يتحمل عن هذا الحائن الميت حينه، فيقول يا ليتني بين العوالي وبينه، ثم إنه بهذا العقل يروم أن تملّكه فهر أعنّتها، وما حق فهر على الله أن هان، ولا أن يطير مع فرع السحاب منها أبان، لقد عرض هنا اللبيب نحره للمدى يبريه، وحبّب إلى هذا البطل الموت وهو كريه، لا بل هو بعض ما يسوّل له زور الدعوة ويريه، لشد ما طنّ الذباب، وفخر بملبسهِ الغراب، وتطاول الجندل وهو مجندل في التراب.

ثم أعود لبقيّة ما لابن عبدون فمنه قصيدته المشهورة التي ذكر فيها نكبات الأيام وكتاب الأنام قوله[٤]:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصُّورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك معذرةً[٥]	عن نومةٍ بين ناب الليث والظُّفُرِ
/٣٦/ فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمةً	والبيضُ والسمر[٦] مثل البيض والسُّمُرِ
فلا يَغُرّنْك من دنياك نومَتُها	فما سجيّة[٧] عينيها سوى السهر

---

(١) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

فبات مجنيّ دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوصٍ، كاعبان ومخصر

(٢) في الذخيرة: ميتةً ضحاكية: إشارة إلى الضحاك بن قيس الفهري، ولي دمشق أيام معاوية ويزيد. ثم انحاز إلى عبد الله بن الزبير، فقتله مروان في مرج راهط.

(٣) في الذخيرة: فهرية قطنية: أي كانت حياته كما طالت حياة عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (البيان المغرب ٢/ ٣٢.

(٤) شرحها ابن بدرون، ونشرها دوزي، ونشرت بمصر من ١٣٤٠هـ، وردت في الذخيرة مج٢ ق٢ ص٢٧٠ ونهاية الأرب ٥/ ١٩٠ وبعضها في المغرب ١/ ٣٧٦ وأوردها الفتح كاملة في ترجمة المتوكل (القلائد ص١٢٣).

(٥) في الذخيرة: موعظةً.

(٦) في الذخيرة: السود والبيض.

(٧) في القلائد: صناعة.

ما لـلـيـالـي أقـالَ الله عـثـرتـنـا[١] مـن الـلـيـالـي وخـانـتـهـا يـدُ الـغـيـرِ
تـسـرّ بـالـشـيء لاكـن كـي تـغـرَّ بـه كـالأيـم ثـار إلـى الـجـانـي مـن الـزهـر
بـنـي الـمـظـفّـر والأيـام مـا بـرحـتْ مـراحـلا[٢] والـورى منـهـا عـلـى سفـرِ
سحقاً لـيـومكـم يـومـاً ولا حـمـلـتْ بـمـثـلـهِ لـيـلـةٌ فـي سـالـف[٣] الـعُـمُـرِ
ويح السماح. وويح الباس[٤] لو سلما وحَسْرة[٥] الـديـن والـدنـيـا عـلـى عُـمَـرِ
سقت ثرى الفضلِ والعباسِ هامية تُـعْـزى إلـيـهـم سـمـاحـاً لا إلـى الـمـطـر
ثلاثةٌ ما رقى النسران[٦] حيث رقوا وكـلُّ مـا طـار مـن نـسْـرٍ ولـم يَـطِـرِ
ومـرّ مـن كـل شـيء فـيـه أطـيـبـهُ حـتـى الـتـمـتـع بـالآصـار والـبـكـر
كـانـوا رواسـي أرض الله مـنـذ نـأوا عنهـا استطارت بمن فيها ولم تقرِ
على الفضائل - إلاّ الصبر - بعدهُمُ سـلامُ مـرتـقـب لـلأجـر مـنـتـظـرِ
يـرجـو عـسـى ولـه فـي أُخـتـهـا أمَـلٌ والـدهـر ذو عُـقـبٍ شـتـى وذو غـيـر

ومنهم:

[١٤]

أبو محمد بن الحُبيِّر[٧]

لفظه الحبير، وحفظه الخبير، وحظُّه نابه، ولحظه للنجوم مشابه، وقال فيه الفتح[٨]: الذي بهر بإبداعه، وظهر على الصبح عند[٩] انصداعه، وعطّل العوالي بيراعه، وأطلع الكلام رائقاً، وجاء[١٠] متناسقاً.

ومن نثره قوله[١١]:

أيَّد الله الفقيه الأجلّ، الغيثَ الواكف المنهلّ، قاضي الجماعة وسيدها، وعاضدها ومؤيدها، إنه لما أذابتني لفحاتُ الأشواق إلى تلك الآفاق، التي تُشرقون بها أقماراً، وتفقهون فيها بحاراً، وعاينتها نفساً حيَّة، وقلباً قد حُشي محبّةً، بما رقمته

---

(١) في الأصل: عثرتها.
(٢) في القلائد: لايزلت مراحلٌ.
(٣) في الذخيرة: مقيل.
(٤) في الذخيرة: الجود.
(٥) في القلائد: واحسرة.
(٦) في القلائد: السعدان.
(٧) عبد الله بن عثمان بن عيسى بن الحبير اليحصبي، من أهل لوشة. كان أديباً شاعراً من بيت نباهة وأدب، توفي سنة ٥١٨. قلائد العقيان ٤٤٧ وانظر الخريدة ٢٩٢ و٤٢٧ والتكملة ٨١٧ - ٨١٨.
(٨) قلائد العقيان ص٤٤٧.
(٩) القلائد: على.
(١٠) القلائد: جاء بهِ.
(١١) قلائد العقيان ص٤٥٧.

لعلاك من برود كصفحات الخدود:

جادت[١] عليه كل عين برةٍ فتركن كل قرارةٍ[٢] كالدرهم

ونظمته من حُلاك كلاماً، لو شُربَ كان مُداماً، أو ضُرِبَ به لكان حساماً.

ومنهم:

[١٥]

أبو محمد بن عبد الغفور[٣]

هو ممّن ذمَّهم الفتح، وتهمه بالقدح، وأكل لحمه، ولم يخف / ٣٧/ إثمه، وقال[٤]: قد كنت نويت إلاّ أثبت له ذكراً، ولا أعمل فيه فكراً، وأودعه مطرحاً، وأقطعه الإهمال مسرحاً.

ومن نثره قوله:

يتردى من قادةٍ ذويك، وإخوتك السادة وأقربيك، بنجوم رجالٍ كالجبال، أنت بدرُها المنير، ورضوى ماثلاً بينها أو ثبير، إذْ دنا من علائِك شيطانُ فتنةٍ رجمتهُ بمشرعات الأسنّة، أو زحم ركن سنائك منكب عظيم، اختطفته بمطرقات[٥] الأعنّة، تطيع إقحامها باللجم، وتفهم عن أهلها تحت اللثم[٦]، كأنما اقتعدتْ من صهواتها بُروجاً، واعتقدت إلى حيثُ المنازلُ عروجاً[٧].

ومنه قولهُ، جواب كتاب تضمن الاعتذار عن هزيمة وهو[٨]:

ما بعثناك لتشهد، وإنما بعثناك لتجهد، فإذا لم تفعل، فلا أقلَّ من أن تتجلّد، ولا تتبلّد، وتصبر وتحمل من معك على الصبر، ولا تكن أوّل من فرّ فتُعدي بفرارك تثبُّت جارِك، ولو كتمتها من شهادةٍ، لما أثم قلبك، فلا تُواتر[٩] الكتب، بما يثير عليك

---

(١) القلائد: دارت.

(٢) القلائد: حديقةٍ.

(٣) قلائد العقيان ص٤٦٦.
انظر ترجمته في الخريدة ٣/ ٤٢٩ قال إنه كان بمراكش سنة ٥٣١هـ وهو كاتب أمير المسلمين، كما ترجمه ابن بسام في الذخيرة ق٢ مج١ ص٣٢٥ ـ ٣٦٨ والمغرب ١/ ٢٤١ وفيه، قال: ذكره الحجاوي فقال: قطع الله لسان الفتح صاحب القلائد فإنه شرع في ذمّة، بما ليس هو من أهله.

(٤) القلائد ص٤٦٦.

(٥) القلائد: بمقرطات.

(٦) في القلائد: وكفهم عن أهلةٍ لثم.

(٧) القلائد: المنازل المقدرة لأشباهها عروجاً.

(٨) قلائد العقيان ص٤٧٣ والخريدة ٣/ ٤٣٢.

(٩) القلائد: تؤثر.

العتب، ولتأنفْ في المستأنف، من إيثار الدنية على المنيّة[١]، والسلام.

ومن نظمه قوله[٢]:

أشهبٌ، كالرجع مستطيرٌ كأنه الشيبُ في المفارق
حثَّ[٣] غداة الرهان حتّى أجهدَ في إثرِهِ البوارق

ومنهم:

[١٦]

أبو بكر بن عبد العزيز[٤]

وما نقص من الأدب نصيبه، ولا أجدَب خصيبُهُ، تشفُّ كلماته نوراً، وترشف ثغوراً.

قلت: وقد ذكره ابن بسام[٥] فقال: سابق لا يمسح وجههُ إلا بهيادب الغيوم، وصارم لا يحلّى غرره إلاّ بأفراد النجوم، وكان نشأ بين يدي أبيه في دولة المعتمد بحيث تفيء ظلالها، وتشوق إليها إقبالها، وانشقت تلك السماء قبل أن ينوب مناب سلفه من درجها، ويحلّ بيت شرفه من أبرجها، فلّله هو فلى بنانه الأوان، وضاق عنه السلطان، فلقد نهض به جنان يتدفق بالغرائب، ولسان يفري شبا النوائب، وإحسان يملأ أقاصي المشارق والمغارب، وقد أخرجتُ له ما يُخجل الخدود، ويعطل سوالف الغيد.

ومما أورد من نثره قوله[٦]:

وصل كتابك فشفي عليلاً، / ٣٨/ وبرَّدَ غليلاً، ونسم من روح الظفر بالأمل نفساً بليلاً، وما كان يشرب ذلك[٧] العذب أن يصير[٨] صابا، ولا لمحلّ مجدك الموفى على الشهب، أن ينحطَّ نصاباً، ولا لوفاء منك، رسا ثبيراً، أن يذهب مع الرياح هباءً مستطيراً عقدة ودّك أحصف، وحجاب مجدك أضفى من أن يُسترق وأكثف، بقيت نعماء تجلّيها،

---

(١) بعدها في القلائد والخريدة: ولتكن لك نفس أبيّة.

(٢) القلائد ٤٦٨ والخريدة ٣/ ٤٢٩.

(٣) في القلائد: خبُّ.

(٤) قلائد العقيان ص٤٧٧، وسماه الوزير الكاتب.
وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز، المعروف بابن المرخى. من أهل قرطبة وزير لسلاطينها بقرطبة. وكان أديباً عالماً بالأدب واللغة وأنساب العرب.
انظر: معجم الصدفي رقم ١٢٠ وبغية الملتمس رقم ٢٠١.

(٥) ذكره في فاتحة الذخيرة ص٣٦.

(٦) الذخيرة ق٢ مج١ ص٣٣٧.

(٧) الذخيرة: ودادك.

(٨) الذخيرة: يستحيل.

ونعماء توليها، وعلياء تنافس فيها، وإن اتبع سيدي فرس البرِّ (بي) لجامها، وأردف[(١)] عارضُ المسَّرةِ التئامها فقد أمكن من الإحضار، ورّوى ظماء آمالي بمنهلِّ القطار.

قال: ومن نثره قوله مما كتب به إلى محمد بن القاسم:

كيف رأى مولاي في عبدٍ له مؤات، يرى الوفاء ديناً وملّة، ولا يعتقد في حفظه الإخاء ملّة، أدرع العقوق ولبئست الخلّة، أبرده بعيب ما جناه الدهر أم تسمح بشيمته، بل تسمح تصفح، ولو كان الغضب يفيض على صدره ويطفح، فله أعزّه الله الفعل الأوضح، والعقل الأرجح، والخلق الأسمح، والأناة التي يزل اليلب عن صفاتها، ولا يتعلق الغيب بصفاتها.

ومنه قوله مما كتبه إليه أيضاً[(٢)]:

الوزير الفقيه، أدام الله عزه وكفاه ما عزهُ ـ أعلم بأحكام الزمان من أن يرفع إليها طرفاً، أو يُنكر لها صرفا، أو يطلب في مشارعها زلالا[(٣)] أو صرفا، فشَهدُها مشوب بعلقم، وروضُها مكمن[(٤)] لكلّ أرقم، وما فجئته الحوادث بنكبة، ولا حطّته النائبات[(٥)] عن رتبه، ولا كانت الأيام قبل رفعته بوزارةٍ ولا كتبه[(٦)]، فهو المرء يرفعه دينه ولبّه، وينفعه لسانه وقلبهُ، ويشفع له عمله وحسبهُ، وتسمو به همته وأدبهُ، ويعنو بين يديه شانيه وحاسدهُ، وينبت في أرض الكرم حين يريد أن يجتثّه حاصده، يقر له[(٧)] بالفضل من لا يودّه، وينصره الله بإخلاصه حين لا ينصره سواعُهُ ولا ودُّه، وما هو إلا نَصْل أغمد ليجرّد، وسهم سُدَّ طريقُه ليُسدّد، وجواد ارتبط ليحل[(٨)] عنانه، وقطر تأتّى سحابُهُ، وسيسيله عيانه[(٩)]، وسينجلي هذا القيام عن سوابق[(١٠)] لا يُدرك مهلهُ، ويعتمده الملك الهمام بإكرام لا يكدر منهله.

ومنهم:

[١٧]
أبو جعفر بن أحمد[(١١)]

بيانه أسحر من الحدق، وأسخر من ضوء الصباح بالغسق، لا ينزح من الكلام

---

(١) الذخيرة: وقرع.

(٢) القلائد ص٤٨٠.

(٣) القلائد: شربا زلالاً.

(٤) الأصل ممكن، وهو تصحيف.

(٥) القلائد: النوائب.

(٦) القلائد: كتابة.

(٧) ويفديه، وهو تصحيف.

(٨) القلائد: ليُخلّى.

(٩) القلائد: وسيسلمه عنانه.

(١٠) القلائد: سابق.

(١١) قلائد العقيان ص٤٨٦ ـ ٤٩٠.
وهو أبو جعفر، أحمد بن أحمد، من أعيان كتاب بلنسية. له ترجمة في المغرب ٢/ ٣٠٧.

قليبه. ولا يبرح فيه نفس السحر أو قريبه.

وقال الفتح[(١)]: وكانت له نفس عليّة / ٣٩/ تزهي بماء الجوانح والضلوع، وسجيّة سنيّة يعبقُ بالفضل منها ويضوع.

ومن نثره قوله[(٢)]:

زارنا الورد بأنفاسك، وسقانا مدامة الأُنسِ من كأسِك، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدةً، وزفَّ إلينا من بنات[(٣)] البرّ خريدة، فاحمرَّ حتى خِلْتُهُ شفقاً، وابيضّ حتى أبصرتُهُ من النور فلقَا، وأرِجَ حتى كأنَّ المسك في ذُكائه، تضاعف حتى قلت[(٤)] الورد يقطر من حيائه. فليتصور شكري في رؤاه، وليتخيله في نفحته وريّاه.

ومنهم:

[١٨]

أبو عبد الله بن أبي الخصال[(٥)]

كاتب المَغرب مطلقاً، المُغرب بيانُهُ المنتقى، طبق ذكره مغرباً ومشرقاً، وطوّق الرّبى منجداً ومعرقاً، قطف القول منوراً، وقطع نهار الفضلِ مبصِراً، وسبق الأوائل، وما جاء إلاّ متأخراً، وبسق إلى فرع الجوزاء مشمِّراً.

قال الفتح فيه[(٦)]: تميّزَ بنفسه، وتحيّز من جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته وتعلّق بأبي يحيى بن الحاج[(٧)]، فملك قياد مأمولِهِ، وهبّ من مرقد خمولِهِ، ولم يزل عاثراً معه ومستقلاً، ومثرياً حيناً وحيناً مقلاً، إلى أن تورّطوا في تلك الفتنة التي ألقحوا حائلها، وما لمحوا مخائلها، وطمعوا أن يغتالوا[(٨)] من أمير المسلمين ملكاً معصوماً، وليبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوماً.

---

(١) القلائد ص٤٨٦.

(٢) قلائد العقيان ص٤٩٠.

(٣) القلائد: فتيات.

(٤) قلت: هلك، وفي القلائد: قلت الورد من حيائِهِ.

(٥) قلائد العقيان ٨/ ٥.

وهو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، وزر للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وله تصانيف، وكان أديباً عالماً، توفي مقتولاً سنة ٥٣٩هـ انظر: المغرب ٢/ ٦٦ والخريدة ٣/ ٤٥٣ والصلة ٢/ ٥٨٨ والذخيرة ٣/ ٢/ ٧٨٦ ونفح الطيب ٣/ ٢٦٨.

(٦) قلائد العقيان ص٥١٨.

(٧) أبو يحيى محمد بن الحاج، من أمراء المرابطين. انظر نفح الطيب ٧/ ٣٠.

(٨) القلائد: يغتالوا.

وقال: ولما نكب الوزير أبو محمد بن القاسم خاطبه كلّ وزير مسلّياً عن نكبته وانتقاله من رتبته، فكتب إليه وهو في جمل من كتب ولم يكن نازلاً عن تلك الرتب برفعة مستبدعة، وأظهر فيها محاسنه وبدعه، وهي[١]:

مثلك ثبّت الله فؤادك، وخفّف على كاهل المكارم [ما أدبك وآدك][٢]، يلقى دهره غير مكترث، وينازله بصبرٍ غير منتكث، ويبسم عن قطوبه، ويفلُّ شباةَ خطوبِهِ، فما هي إلا غمرة ثم تنجلي، وخطرةٌ يليها من الصُّنع الجميل ما يلي، والحرَّ[٣] حيث كان حرٌّ، والدرّ برغم من جهلهُ درّ، هل كنت إلا حساماً انتضاهُ، وساعداً ارتضاه[٤]، فإن أغمده فقد قضى ما عليه، وإن جرّده فذلك إليه، أما أنّه ما تثلّم[٥] حدّه، وليس جوهر الفرند إلا جدّه، لا يعدم طنيناً[٦] يشترطه، ويميناً تخترطه، هذه الصمامة، تقوم على ذكرها القيامة، ماض[٧] طبقت البلاد أخباره، وقامت مقامه في كل / ٤٠/ أفق آثاره، فأما حاملهُ فنسي منسيّ، وعدم منفي[٨]، كلا لقد فنيت الحقائق. وأنهبت تلك العلائق [فلم يصحبه][٩] غير غرار ومتنٍ عار كلاهما بالغٌ ما بلغ، ووالغ معه في الدمار ما ولغ، وما الحسن إلا المجرّد العُريان، وما الصبح إلا الطلق الإضحيان، وما النور إلا ما صارم الظلام، وما النور إلا ما فارق الكمام، وما ذهب ذاهب أجزل منه لعرض واهب. ممّن قضى أحق المساهمة في هذه الحال، أسفٌ تردد، وديون[١٠] على الأيام تُحصى وتعدد.

ومنه قوله[١١]: وقد طلب الفتح منه من الفوائد ما يثبته في القلائد:

وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم. والمعيديّ يسمع به لا أن يُرى[١٢] بشخصه مقتحم مزدرى، وفي الوقت من فرسان هذا الشأن، وأذمارِ هذا المضمار، من تحسُدُ فِقرهُ الكواكب، ويترجلُ إليه منها الراكب، فأما الأزهار[١٣]،

---

(١) قلائد العقيان ص٥٢٧.
(٢) التكملة عن القلائد، وفي الأصل بدلها كلمة غير مفهومة.
(٣) القلائد: لاجرم أن الحر.
(٤) في القلائد: قدر أمضاه، وساعدٌ ارتضاه.
(٥) القلائد: ما أسلم.
(٦) القلائد: طنينا بشرطة، وهو تصحيف، وصحح على القلائد.
(٧) لم ترد في القلائد.
(٨) القلائد: منهيّ.
(٩) التكملة عن القلائد.
(١٠) القلائد: ونوبٌ.
(١١) قلائد العقيان ص٥٢٢.
(١٢) إشارة للمثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.
(١٣) القلائد: الأزاهر.

فملغاةٌ في رباها، ولو حلّت عن المسكِ حباها، وصيغت من الشمس حلاها، فهي تنظر من الوجد بكل عين شكري لا نكري، فإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثةً، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة، فما غادرت متردَّماً، ولا استبقت لمتأخرها متقدماً، فعندها يقف الاختيار، وبها يقع المختار.

ومنهم:

[١٩]

أبو محمد بن مالك(١)

سريع البديهة، مريع المراتع النزيهة، يتدفق الأدب بين جنبيه، تدفّق الجدول على حافتيه، ويتسرّع الكلم عليه، كالقلم بين إصبعيه، كلاهما بارق يقتدح. وسابق إلى ما يقترح.

قال الفتح(٢): كتبت إليه يوماً مودِّعاً فجاوبني جواباً مُستبدعاً. وأخبرني رسولي أنه لما قرأ الكتاب، وضعه وسوى، وكتب وما فكّر ولا روّى:

يا سيدي الأعلى. جرت الأقدار بجمع افتراقك، وكان الله جارك في انطلاقك، فغيرُك من روع بالظعن، وأوقد للوداع جاحم الشجن، فإنك من أبناء هذا الزمن، خليفة الخضر، لا تستقر على وطن(٣)، كأنك والله يختار لك ما تأتيه وما تدعه موكل بفضاء الأرض تذرعه، فحسب من نوى بعشرتك الاستمتاع، أن يعيدك من العواري السريعة الارتجاع، فلا تأسف عليه لقلّة الثوى وتنشد:

/ ٤١/ «وفارقت حتى ما أُبالي من النوى» ومنهم:

[٢٠]

أبو القاسم بن السقاط(٤)

لجة آداب تستفاد، وحجّة ألباب به تستزاد، كان يتلعّب بفصيح المنثور، تلعّب

---

(١) قلائد العقيان ص٥٠٠ ـ ٥٠٤.
وهو أبو محمد عبد الرحمن بن مالك، من علماء اللغة والحديث والفقه وأهل الأدب والشعر. اتصل بيوسف بن تاشفين وبابنه علي من بعده، توفي سنة ٥١٨هـ. انظر: المغرب ٢/ ١١٧ ونفح الطيب ٣/ ٢٣٢.

(٢) القلائد: ص٥٠٣.

(٣) القلائد: وطر.

(٤) ترجمه الفتح في قلائد العقيان ٥٠٥ والعماد في الخريدة ٣/ ٤٤٣ قال: كان كاتباً لأبي محمد بن مالك. وانظر المغرب ١/ ٤٢٨.

الريح بالمنثور، يصرف فيه بيانه، ويوليه بنانه، فيجيد كتابةً وخطابة، لموقعهما في القلوب إصابة، تلطف، أعبق من ردع النهود، وأرقّ من ديباج الخدود، وأشهى إلى النفوس من إنجاز الوعود.

قال الفتح فيه[١]: مستعذب المقاطع، كأنما صوّر من نورٍ ساطع، يجتليه الدهر بساماً وينتضيه حُساماً.

وقال وقد ذكر نثره: وكتب يشفع لمدلّ بذمام شباب[٢] صوّح نوره، وبرّح به غدر[٣] الزمان وجوره:

يا سيّدي، ومن أبقاه الله لرحم أدبٍ مجفوّة ينظمها، وحُرمةٍ مقطوعةٍ يلجمها، الوفاء لمحاسن الأخلاق كالقلم المُذهَّب، والخضاب الموشّى لراحةِ الحسب، تستفيد به لهجة التكحُّل في العين، ورونق التَّشبيب في مصُوغ التبر واللّجين، فما أحقَّهُ بصدرِ النادي، وأسبقهُ إلى المرتبةِ بشرف المبادي. رعاية لأواصر الأداب، والمحافظة على الخُلّة الواشجة في أعصر الشباب، وما أسحبت الليالي في ميادينه من لبُوسٍ، نعيم وبؤس، في بساتينه وموصُلهُ أبو فلان[٤] ذكرُ مشاهدكِ الغر الحسان. ولقد فاوضني من أحاديث ائتلافكما في العصور الدارسةِ العافيةِ. وانتظامكما في زهرات الأُنس وظلال العافية. واتساقكما في حبرات العيش الرقاق الضافية، وارتشافكما سلافة النعيم المزّة الصَّافية، بأفانين النجود، وزخارف الروض المجود[٥]، ومعاطف الطُّرر بين خيلان الخدود، ولو ألقيت عذوبته على البحر، لأصبح عذب[٦] المذاق، ولو رقي بها البدر لوقي آية المحاق، وأزمع أن يسير بنوافح[٧] لواعجه في متكاثف النو[٨]، ويطير بجناحه ارتياحه إلى متقاذف ذلك الجوّ، ليُكمل بالتماحك جفونه، ويجلو بأوضاحك دجونه، ويحقق[٩] بلقائك عهداً أنهج البينُ رسمهُ، ويشاهد بمشاهدتك[١٠] سروراً مَحَتْ يدُ البعد[١١] رسمه[١٢]. فخاطبت محرضاً على التحريض[١٣]، ومتحدياً يلمح التعريض[١٤]،

---

(١) القلائد: ص٥٠٥.
(٢) في الأصل: الشباب، وصحح على القلائد.
(٣) الأصل: غدراً.
(٤) بدلها في القلائد: وصل الله سوّاك وأثل علاءك.
(٥) في القلائد: بأفانين النحور. وزخارف الروض الممطور.
(٦) القلائد: حلو.
(٧) القلائد: بنواعج.
(٨) في القلائد: لواعجه في ذلك الدوّ.
(٩) القلائد: يجدّد.
(١٠) القلائد: يشاهده علائك.
(١١) القلائد: البين.
(١٢) القلائد: وسمه.
(١٣) القلائد: معرضاً عن التحريض.
(١٤) كذا وفي القلائد: ومجتزياً بنبذ العرض ولمح التعريض.

وأتت وليٌّ / ٤٢/ ما يتلقّاه من تأنيس[(١)]، ينشر ميت رجائه، ويعمر مقفر أرجائه.

ومنه قوله يستدعي إلى مجلس أنسٍ[(٢)]:

يومنا أعزك الله يوم نُقبت شمسُهُ بقناع الغمام، وذهبت كأسُهُ بشُعاع المدام، ونحنُ من قطار الوسْميّ في رداء هديّ[(٣)]، ومن نضير النوار على نضائد النُّضار، ومن غُرِّ الندمان بين زهر[(٤)] البستان، ومن حركات الأوتار خلال نغمات الأطيار، ومن سُقاة الكؤوس وتعاطي المدام بين مُشرقات الشموس، وعواطي الآرام، فرأيك في مصافحة الأقمار، ومنافحة الأنوار، واجتلاء غرر الظِّباء الجوازي. وانتقاء درر الغناء الحجازي.

ومن نظمه قوله[(٥)]:

سقى الله أيّامنا بالعذيب ... وأزماننا الغُرَّ صوب السَّحاب
إذ الحبُّ يامِيّ[(٦)] ريحانةٌ ... تُجاذِبُها خطراتُ العِتاب
وإذ أنتِ نوّارةٌ تُجتنى ... بكفّ المنى من رياض التصابي
ليالي والعيش سهل الحجاب[(٧)] ... نضير الجوانب طلقُ الجناب
رميتُكِ طيراً بدوح الصبا ... وصِدتُك ظبياً بوادي الشباب

ومنهم:

[٢١]

أبو محمد بن عبد البر[(٨)]

كبير القدر، شهير السناء، كالبدر توقّل رتب العلاء. وتوفي بسبب البلاء، لو أنجى حذرٌ من قدر، أو ردّ وردٌ عن صدر، وكان عِداه قد أوقدوا عليه حطب الإحن، ورموا عليه شباك المحن، وقصدوه قصد السهام الغرض، وأنحلوه نحول المرض، إلا أنّه وسع بغزارة خطوة الأجل، حتى قطع الموت حبل المهل، فلما همّ به المعتضد

---

(١) في القلائد: ما تتلقاه به من تأنيس.
(٢) قلائد العقيان ص٥٢٥.
(٣) في الأصل: هند وصححت عن القلائد.
(٤) الأصل: في دهر، وهو تصحيف.
(٥) الأبيات في: قلائد العقيان ٥٠٦ والخريدة ٣/ ٤٤٣ والمغرب ١/ ٤٢٨.
(٦) في القلائد: يابثن.
(٧) في المصادر الأخرى: الجنى.
(٨) ابو محمد عبد الله بن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، المتوفى سنة ٤٥٨هـ كان من أهل الأدب والعلم والبلاغة. عمل في بلاد المعتضد بن عباد. ثم نقم عليه وعزله.
انظر ترجمته في: الذخيرة ق٣ مج١ ص١٢٥، والمغرب ٢/ ٤٠٢، والخريدة ٣/ ٤٥٩. وقلائد العقيان ٥٣٨ وبغية الملتمس ص٣٤١ وجذوة المقتبس ص٢٦٨.

عبّاد، فرّ من قبضته فرار الزئبق من النار، والخاشع الزاهد من الدينار. وعلى كلامه مسحة من السحر، ونغمةٌ من السحر.

قال الفتح[١]: وكتب إلى أحد إخوانه، وقد نال الدهر من امتهانه:

من صحب الدهر ـ أعزّك الله ـ وقع في أحكامِهِ، وتصرَّف بين أقسامِهِ: من صحّةٍ وسقم، وغنى وعدم[٢]، وعند ورودي، أُعلِمتُ بما أصابتك به صروف الأيام، من الامتهان والإيلام، وقد جمعتنا حوادث الأيام وصروفها، وإن اختلفت أنواعها / ٤٣/ وصنوفها. على أن (الذي)[٣] أصابك. أثقل عبئاً، وأعظم رزءاً، فالله يعظِّم أجرك، ويجزِك ذُخرك، ويجعل هذه الحادثة آخر حوادِثك، وأعظم كوارثك.

ومن نظمه قوله[٤]:

بحرُ سقم ماج في أعضائِهِ ... فرمى في جلدِهِ بالزبد
كان مثلَ السيف إلاّ أنّه ... حُسد الدهر عليه فصدِي

وذكره ابن بسام فقال[٥]: كان قد حلّ من كتاب الإقليم، محل القمر من النجوم، وتصرّف في التأخير والتقديم، تصرّف الشفرة في الأديم، وله ولأبيه قبله، لواء سبق، ولسانُ صدقٍ، ولما شأى أبو محمد الحلبة[٦]، وتبحبح صدر الرتبة، تهاوته الآفاق. وامتدت إليه الأعناق، ففاز به قدح عبّاد، بعد طول خصام، والتفاف زحام، فأصاخ أبو محمد لمقالِهِ، وتورّط بين حبائله وحبالِهِ، وكان قد غصَّ ابن زيدون بمقدمِهِ، وجهد ـ زعموا ـ كلَّ جهدٍ في إراقةِ دمِهِ. ولما رأى أبو محمد أنه قد باء بصفقة خسران، وأن العشاء قد سقط به على سرحان، أدار الحيلة، وابتغى إلى الخلاص الوسيلة[٧]، فألقى عصا التسيار، وأخذ في [اقتناء][٨] الضياع والديار، حتى ظنّ عباد أنه قد رضي جوارَهُ، واستوطن داره، فاستنام إليه بإرساله[٩] إلى بعض خلفائه بالجزيرة[١٠]، فجعل[١١] يتفادى

---

(١) قلائد العقيان ص٥٣٩.

(٢) في القلائد: وغناءٍ ووجودٍ وعدم.

(٣) الزيادة عن القلائد.

(٤) الأبيات في القلائد ص٥٣٩ الخريدة ٣/ ٤٥٩ والمغرب ٢/ ٤٠٢ ونفح الطيب ٢/ ٤٩٦.

(٥) الذخيرة ق٣ مج١ ص١٢٥.

(٦) في الذخيرة: بالأندلس الحلبة.

(٧) بعدها في الذخيرة: زعموا أنه مفرد خل اشبيلية يومئذ نافر النفس، منقبض الأنس، فلما استشعر الحذر، وأحسّ بالتغيير.

(٨) اقتناء، ليست في الأصل، وهي في الذخيرة.

(٩) في الذخيرة، برسالة، ولعله تصحيف.

(١٠) في الذخيرة: إلى بعض خلفائه من رؤساء الجزيرة.

(١١) بعدها في الذخيرة: أبو محمد.

منها. ويتثاقل عنها[(١)]، حتى[(٢)] انسلّ من يد عبّاد، انسلال الطيف، واسأله كيف[(٣)]؟ ثم جعل يتنقل في الدول، وقد جمع التالد إلى الطارف وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف.

ومما أورد له من نثره قوله[(٤)]:

قد انتظمنا[(٥)] انتظام السلك، وضرحنا عن مشارب الحال الجامعة لنا قذاة كلّ إفك وشك[(٦)]، وظهر الحقّ المبين من المين، وتبيّن الصبحُ لذي عينين، وانفذت الهديّة المقتضاة، محفوفة بالحرم والمحارم، مكتوفة بالكرائم، ثم بالأعلام الأكارم، وأنا أسأل الله في متوجّهِها ومنقلبِها الرعاية الموصولة بك. والكفاية المعهودة منك، حتى يفيء عليها ظلُّك، ويبوّئها مثوى الحفاية محلُّك، ويحميها حوزُك ومكانك، ويؤديها عزّك وسلطانك، ثم حسبي عليها كرمك وكنفك، وخليفتي عليها برّك ولطفك. فهي الآن ملكك وأنت الكريم المسجح، وبضاعةُ متجري فيك، وأنت / ٤٤/ المريح المنجح، فإنك ـ والله يبقيك ويعليك، ويشدّ قبضتك على رقاب أمانيك وأراجيك ـ ذخر الأبد، وعتاد الأهل والولد[(٧)]، وعندك ثمرة النفس، وفلذةُ الكبد، فارقتها عن شدّةِ ضنانة، وأسلمتها بعد طول صيانة، وما زفّت إلاّ إلى كريم يحملها محلّ الأمانة، ويقضي فيها حقّ الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملأها ومنشأها، وهو حكم الله الواجب، وقدرُهُ الغالب، وسنّتهُ المشروعة ومشيئته المتبوعة، ولنا في رسول الله[(٨)] أسوةٌ حسنةٌ، وفيما قاله في مثل هذه قدوة يُقْتَدى بها، وسنّةٌ يحتذى عليها، إذ تلا قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[(٩)] وقال عليه السلام: «إنما فاطمة بضعةٌ منّي، فمن أكرمها فقد أكرمني، ومنْ أهانها فقدْ أهانني»[(١٠)] اللهم بارك لها وبارك عليها.

---

(١) بعدها في الذخيرة: وهو يقول: لا أبا لك تمنعي أشهى لك.

(٢) في الذخيرة: ولمّا.

(٣) في الذخيرة: (ونجا واسأله كيف)، وبعدها: رجع إلى مستقرّه من الشرق، وأدار الحيلة على أبي عمر بن الحذّاء الحائن، فعوّضه بضياعه وعقاره، وزيّن له اللحاق بدار بداره، وسوء قراره، وقد عباد قبل ذلك يعده ويمنيه، ويستدرجه ويدلّيه، فلما طلع عليه لم يزد على أن أسره وقصره، وأظهر من الزهد فيه أضعاف ما كان يعده ويمنيه، وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد ذلك ينتقل في الدول.

(٤) الذخيرة: ق٣ مج١ ص١٢٧، إنه عن ابن سمادح وقد زفّ ابنته إلى ابن صمادح.

(٥) بعده في الذخيرة: أيدك الله.

(٦) في الذخيرة: شك وإفك.

(٧) في الذخيرة: الأهل والإخوان والولد.

(٨) بعدها في الذخيرة: (عليه السلام).

(٩) الفرقان: ٥٤.

(١٠) الحديث في صحيحي البخاري ومسلم، باب فضائل الصحابة.

وقوله من أخرى في ذكرها[١]:

وقد توغّلت معكَ في أسباب الألفة، وهتكت بيني وبينك أستار[٢] المراقبة والكلفة، وأنا أستريح إليك بخفيّات سرّي، وأجلو عليك بنيات صدري، خروجاً إليك عما عندي، وجرياً معك على ما يقتضيه إخلاصُ ودّي، وجلاء لشواغل بالي، واستظهاراً بك على حالي، وشفاء لمضض[٣] نفسي، واستدعاءً لما نفَرَ وشَرَدَ[٤] من أُنُسي، كما ينفث المصدور، ويتلقّى برد النسيم المحرور، وكما تفيضُ النفس عند امتلائها، وتجود العين طلباً للراحةِ بمائها، أو ذمائها[٥]، وكنت أشرت في كتابي بتوجُّه من توجّه من قبلي، ممن كان روحَ نفسي، وريحان جذلي وأنسي، إلى أن قرع ما قرع من لوعة الفراق، ولذع ما لذعَ من روعة الاشتياق، وأنا أظنّ أن ذلك عاقبة الصبر تغلبُهُ، والجلد يعقبُهُ. وإن انصرام الأيام ينسيه ويذهبه، فإذا هو قد أفرط وزاد، وغلب أو كاد[٦]، حتى نفى السلوَّ، ومنع الهدوّ، وتعدى اللذع إلى الإحراق، وتجاوز الروع إلى الأطباق، فالأفق جناح[٧] مظلم، والنهار عندي ليلٌ مستبهم، وكلٌّ من كنت آنس به، متوارٍ بالحجاب مستجير بنقاب العتاب[٨]، وإني لأستخفّ لما أجده حلمي، واستضعف[٩] عزمي، واستنهض للثبات تأييدي وعزمي /٤٥/ فينزح الإشفاق المستولي، ويترجم الزفيرُ المستعلي، ويتصوّر لي أنّ قطعة [منيّ][١٠] بانت منفصلة عنّي، وإنّ جزءاً من أجزائي ذهب بصبري ورجائي[١١]، حتى إذا تفكّرتُ في خروجها إليك، وأنت من أنت تراجعتُ وتماسكتُ، وإذا ذكرتُ تعريسها بك، وحالك حالك. تصبّرتُ وتمالكت، والله يطلعني من سلامة الوصول، وكرامة الحلول على ما يُقِرُّ العين، ويسرُّ النفس، بمنِّهِ ويُمْنهِ.

قال أبو الحسن[١٢] كناية أبي محمد عنها بالهدية كنايةُ سرِيّة، وإنما احتذى في ذلك حَذوَ بلغاء المشرق.

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص١٣٠، والمغرب ٢/ ٤٠٢.
(٢) في المغرب: أسباب، وفي الذخيرة: ستار.
(٣) في الذخيرة: غصص.
(٤) في الذخيرة: شرد وتفر.
(٥) أوذمائها: ليست في المغرب.
(٦) إلى هنا ينتهي النص في المغرب.
(٧) في الذخيرة: داج.
(٨) وكل من: إلى بنقاب العتاب ليس في الذخيرة.
(٩) بعده في الذخيرة: مما أكابده.
(١٠) (مني) ليست في الأصل، وأثبت ما في الذخيرة.
(١١) في الذخيرة: وعزائي.
(١٢) الذخيرة: ق٣ مج١ ص١٣١.

ذكر أبو منصور الثعالبي قال[١]: لما زفّ بختيار بنته إلى أبي تغلب بالموصل كتب عنه الصابي فصلاً في معناها[٢] استحسنته البلغاء وتحفظوه، وأقرّ له كل بليغ بالبراعة فيه، وهو:

قد توجّه أبو النجم بدر الحرميّ، وهو الأمين على ما يلحظه، الوفيُّ بما يحفظه، يحمل الهدية[٣]، وإنما نُقلت من وطنٍ إلى وطن[٤]، ومن معرّسٍ إلى معرّس[٥]، ومن مأوى برّ وانعطاف إلى مأموى كرم[٦] وألطاف، ومن منبتٍ درَّت له[٧] نعماؤهُ، إلى منشأ تجودُ عليه سماؤه، وهي بضعةً منّي انفصلت إليك، وثمرةً من جنى قلبي حصلت لديك، وما بان عني من وصلتُ حبلهُ بحبلك، وتخيّرت له بارع فضلك.

وإنما ألمّ الصابي في هنا أيضاً بفصل لابن ثوابة[٨] كتبه عن المعتضد لابن طولون في ذكر ابنته قطْر الندى المنقولة إليه أيضاً. يقول فيه:

وأما الوديعة[٩]، فهي بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك[١٠]، عنايةً بها وحياطة لها[١١]، ورعايةً لموالاتك[١٢] فيها[١٣].

فحكي أن الوزير عبيد الله بن خاقان، انتقد الفصل على ابن ثوابة. وقال له: ما أقبح ما تفاءلت لامرأةٍ زُفَّتْ إلى الملك بتسمية الوديعة، والوديعة مستردّة، وقولك من يمينك إلى شمالك أقْبح، لأنك جعلت أباها ابن طولون اليمين، والشمال أمير المؤمنين، ولو قلت على حال: وأما الهديّة فقد حسن موقعها منّا، وجلّ خطرها عندنا، وهي وإن بعدت عنك، بمنزلة من قرُبَ منك، لتفقد فالها وسرورها بما وردت عليه، واغتباطها بما صارت إليه، فكتب الكتاب /٤٦/ يومئذ على ذلك.

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٧١.

(٢) في الذخيرة: بمعناها.

(٣) في يتيمة الدهر: نحوك يا سيدي ومولاي، أدام الله عزّك ـ بالوديعة.

(٤) في اليتيمة: إلى سكن.

(٥) في اليتيمة: ومن مغرس إلى معرس.

(٦) في اليتيمة: مثوى كرامة.

(٧) في اليتيمة: لها.

(٨) في اليتيمة: جعفر بن محمد بن ثوابة، وهو تحريف، وهو محمد بن جعفر بن ثوابة. أبو الحسن، من بلغاء الكتاب ببغداد، ولي ديوان الرسائل أيام المقتدر العباسي توفي سنة ٣١٢هـ.
انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٩٦.

(٩) بعدها في اليتيمة: أعزك الله.

(١٠) في اليتيمة ومعجم الأدباء: من شمالك إلى يمينك.

(١١) في معجم الأدباء: حياطةً لرأيك فيها.

(١٢) في الأصل: لمواتك.

(١٣) بعدها في اليتيمة: «فلما عرضه على الوزير عبد الله بن سليمان ارتضاه جداً، واستحسنه، وقال له: تسميتك إياها بالوديعة نصف البلاغة، ووقع له بالزيادة في إقطاعه ومشاهدته» قارن ما سيذكر في رأي ابن خاقان.

وكان من[١] جملة من تحمّل قطر الندى يومئذ على إلى المعتضد أبو عبد الله بن الجصّاص[٢] وكان آيةً من آيات خالقِهِ في الجهل والغباوة، مع وفور الجاه والنعمة[٣]، ونوادره في النوك مأثورةٌ مذكورة. حدّث أبو إسحاق الماذراني، قال: خرجنا إلى الشماسية مع الوزير عبيد الله بن سليمان نستقبل ابن الجصّاص، وقد وافى بغداد بقطر الندى، وبالمعتضد يومئذ عِلَّة كبرت معها خِصيتاه، فلما سألنا عن خمارويه[٤]، وعن الحرّة قطرة الندى، قال: أما الأمير ففي عافية، وأما العروسة، فإنما جئتكم بزبدٍ على ورقة[٥]. والله ما يضع الخليفة فردة خصاه[٦] عليها إلا قتلها، فاضحك من حضر.

ومن أخباره[٧]: أنه كان عند الوزير ابن الفرات[٨] يوماً فذكروا هزاراً جارية ابن المعتز. وأنها تزوّجت بغلامه سريعاً بعده، فقال ابن الجصاص لابن الفرات: أعزّ الله الوزير لا تثقنّ بقحبة ولو كانت أُمّك، فتبسّم الوزير، وانقلب المجلس ضحكاً.

عدنا إلى الكتاب الوارد، وأجاب أبو تغلب يومئذ بختيار عن كتابه برقعة من إنشاء أبي الفرج الببغاء، يقول في فصل[٩]: وأما أبو النجم بدر[١٠]، فقد أدّى الأمانة إلى متحمّلها، وسلّم الذخيرة الجليلة إلى متقبّلها، فحلّت محلّ العزّ في وطنها وأوقت من حمى الأسود[١١] إلى مستقرّها وسكنها. منتقلة عن عطن الفضل والكمال إلى كنف السعادة والإقبال. وصادرة عن أنبل ولادة ونسب إلى أشرف اتّصال وأنبه سبب. وفي اليسير من لوازم فروضها وواجبات حقوقها. ما عاق رغبتي[١٢] عن الوصاة بها، وكيف

---

(١) في الذخيرة: في.

(٢) الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص. قدم من مصر رسولاً من خمارويه بن أحمد بن طولون إلى بغداد، انظر خبره في مروج الذهب ٢/ ٤٩٦.

(٣) في الذخيرة: وغلظ النعمة.

(٤) في الذخيرة: عن أبي الجيش خمارويه.

(٥) في الذخيرة: ورق.

(٦) في الذخيرة: والله لا يضع الأمير فرد خصيتيه.

(٧) في الذخيرة: نوكهِ.

(٨) ابن الفرات، هو علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات، من الوزراء الدهاة، الأدباء، ولد سنة ٢٤١هـ، واتصل بالمعتضد فولاّه السواد، وتولى الوزارة أيام المقتدر، ثم قبض عليه وحبسه خمس سنين، ثم أخرج من السجن إلى الوزارة، ثم نكب وسجن نحو خمس سنين وأخرج إلى الوزارة، فبطش بخصومه، ثم قبض عليه وعذب وقتل سنة ٣١٢هـ، وأخباره كثيرة في كتب الأدب والتاريخ انظر: الأعلام ٤/ ٣٢٤.

(٩) يتيمة الدهر ١/ ٢٧٢. والذخيرة ق٣ مج١ ص١٣٣.

(١٠) بعده في اليتيمة: الحرمي - أيده الله - المستوجب للارتضاء والإحماد الموفي بمناصحته على كل مراد.

(١١) في اليتيمة: السؤدد.

(١٢) في اليتيمة: ما صان رعايتي عن الوصاة بها، ونزّه وفائي عن الاستزادة لها.

يوصي الناظر بنوره. أم يحضّ القلب على حفظ سروره.

قلت: وبهذه الكتابة عن الأمراء كتبت في كتاب كتبته عن تنكز، وقد أهديت ابنته إلى ابن بكتمر الساقي، ولم تكن الكلمة شهد الله صافحت سمعي ولا بصري، بل شيء أفرغه في ذلك الوقت الخاطر، وجاء فتوحاً في الوقت الحاضر، وكنتُ في صباً لا ينظر ما أقوله بعين، فأنكرها مشايخ الكتاب في ذلك الأوان، وازدروها، وصغّروها، وما أكبروها، حتى لقيني بدر الدين أبو عبد الله /٤٧/ ابن العطار، فسألني عما كان فذكرتُ له الفصل ومنه: وقد جهّز المملوك المطلوبة، وهي وديعة كرمه، ونزيلة حرمه، ومولانا أولى من أولاها برّه، وأسبل عليها ستره، والمملوك مطمئن بإحسان مولانا الذي متى دعتهُ أجابها، واثِقٌ بصيانته التي تودّ المجرّة لو كانت حجابها.

فقال ابن العطار: مليح والله، مليح وحسن، والله حسن، وإنّما كنيت بما كنّى به المتقدّمون، فسررتُ بقوله: إن المتقدمين كنّوا بها، وقلت: من؟ فقال: الصابي: فقلت: أحبّ أن أقف عليه، فذهب فأوقفني عليه من خط أبيه العلامة كمال الدين. فأوقفتُ عليه أولئك الجهلة، فكأنما قذفتهم بالأحجار، أو ألْجَمْتَهُم بلجم من نار.

عدنا إلى صاحب الترجمة. ونثرُه، ومنه ما كتبه عن المعتضد إلى أبيه أبي عمر(١):

إن كنا لم نتعارف ترائياً، ولم نتلاق تدانياً، ففضلك في كل قطر كالمشاهِدِ، وشخصُك في كل نفسٍ غيرُ متباعِد، فأنت واحدُ عصرك، وقريعُ دهرك، علماً بيدك لواؤه، وفضلاً إليك إعزاؤه، وكنت كذلك والناس موفورون، والشيوخ أحياءً يرزقون، فكيف وقد درس الأعلام والكدى(٢)، وانتزع العلم بقبض العلماء فانقضى، والله يبارك في عمرك، ويعين كلاً على برّك، وإلى ذلك من شهور حالك، فبيننا من وكيد الذمام السالف، وشديد اتصال التالد، والطارف، ما أنت(٣) له جد ذاكر وبه حقٌّ عارف، ورعايةُ مثل هذا منك تُقتبس، ولديك تلتمس، ولم تزل نفسي إليك جانحة، وعيني نحوك طامحة. انجذاباً إلى العلم، ورغبةً فيه، ومنافسةً في قضاء حقوق حامليه، والناس عندنا إلى ما عندك ظِماء، ولدينا الداء وأنت الشفاء، فاجعل للمغرب(٤) منك نصيب الشرق، فهو أولى بك وأحَقّ، وعندي لك من الإكرام والإعظام ما يُضاهي حالك ويُسامي آمالك، وقد صار عندي جزء منك متحكماً فيه على المنصور ـ أيده الله ـ

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص١٣٤.

(٢) الأعلام: الجبال، والكدي، جمع كدية، الأرض المرتفعة.

(٣) في الذخيرة: وأنت.

(٤) في الذخيرة: للغرب.

وعليك، وإرادتي أن أجمع شملكما، وأصل حبلكما.

وله[١] عنه من أخرى إلى ابن هود:

من اعتقدك[٢] عماداً له وظهيراً، ورآك عتاداً وذخيراً، طالعك بحالِهِ /٤٨/ وأمرِهِ، وأطلعك على حُلْوِهِ ومرّهِ. وخرج إليك عن سرّهِ وجهرِهِ، وناجاك بمختلجات صدرِهِ، ومعتلجات فكره. مستريحاً إلى الشكوى. بالغاً عند[٣] نفسهِ بالنجوى، واثقاً بقضائك الفصل فيما يُورِدُهُ، عالماً بحكمك العدل فيما يُورِدُهُ، راضياً بإنصافك فيما يقرره لديك ويمهّدُهُ، والله لا يُعدمني الاستضهار برأيك أعشو إليه سراجاً، وسعيك احتذي عليه منهاجاً، وقد علمت صورة حالي مع المدبرين لقرطبة، وصبري لهم في الخطير والجليل، وانجراري معهم الزمن الطويل، مُغضياً لهم على ما يوحش ويريب، مغمضاً لهم على بوادر لا تزال تنوب وتثوب، على أنها جنايات القعدة[٤]، لا نكايات المردة[٥]، وإن وُسعهم لا يتعدّى هذا الحدّ، وطوقهم لا يتجاوز هذا الجدّ.

وفي فصل منها:

فلم تزل عقارب سعيهم إليّ تدبّ، وريح جنايات بغيهم عليّ تهُبّ، وأنا في كلّ ذلك أقابل تخشينهم بالتليين، وأتلقّى غلي مراجلهم بالتسكين، أتغاضى عمّا يردني منهم مرّةً، وأُغالط نفسي في التأويل تارةً، ولا أُقارضُهم عن شيء مما يطالبونني به[٦] مساترةً ومجاهرة، مع إمكان المقارضة سراً وعلانية، طاعةً مني لعواطف النفس، في الإبقاء على الجنس، ما وجدتُ إلى الإبقاء سبيلاً، وعليه معيناً، وكتبت أرجو مع ذلك أنْ يتوب تائب استبصار. ويخطر خاطِرُ إقلاعٍ واقصار، فلا والله ما يزدادون إلا تمادياً في الإضرار، والعجب كلّ العجب أنهم يمالئون عليّ أعداءهم المنابذين، وواتريهم المطالبين، الذين صيّروا ملأهم بدداً، وعصاهم قِدداً، واستباحوا دماءهم وأموالهم، وغيّروا آثارهم وأحوالهم، وجاهدوهم جهاد الكفار، وساموهم سوم أهل الذلّة والصّغار، فكففتُ عنهم غربهمُ، وشغلتُ بنفسي عنهم حربهم، ولو أغمضت فيهم ولنتُ لواتريهم ومطالبيهم، لما كانت صدور مجالسهم، ومجامع أنديتهم، لأفراسهم إلاّ مرابط، ولا عاد آهل دارهم وعامر أفنيتهم لخيلهم إلاّ مسارح وبسائط، فما ظنّك ببصائر تقلّب في طلب الثأر ومنابذة العدى الفجار ـ فيا لله كيف تتغلب[٧] الطبائع،

---

(١) الذخيرة: مج٣ ق١ ص١٣٥.

(٢) بعده في الذخيرة: أعزّك الله.

(٣) في الذخيرة: عذر.

(٤) في الذخيرة: قعدة.

(٥) في الذخيرة: مردة.

(٦) في الذخيرة: فيهم.

(٧) في الذخيرة: العدى الفجار ـ الطبائع، وتغلّب ـ في مهاجرة...

وتغلّب في مهاجرة الخوارج المراق /٤٩/ الروافض الفسّاق ـ الشرائع. فاعجب لهذا الاعتزاء[١] بالمخالفة، والانتهاء[٢] بالمكاشفة.

ومنه قوله[٣]:

وما ظنكم ـ معشر المسلمين ـ وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوةِ القرآن، وحلاوةِ الآذان، مطبقة بالشرك والبهتان، مشحونةً بالنواقيس والصُّلبان[٤]، قد علت فيها كلمة الكفر بعد التوحيد والذكر، واقتعدت المنابر شيعة الشيطان بعد شيعة الرحمن، والقَوَمة المؤذنون تجرّهم الأعلاج كما تُجر[٥] الذبائح إلى المذابح، يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين، ثم أُضرمت عليهم ناراً حتى صاروا رماداً. والكفر يضحك وينكي، والدين ينوح ويبكي، فيا ويلاه، ويا ذلاّه، ويا كرباه، ويا قرآناه ويا محمداه، ألا ترى ما حلَّ بحملة القرآن وحفظةِ الإيمان، وصوّام شهر رمضان وحجاج[٦] بيت الله الحرام والعاكفين على الصلاة والصيام، والعاملين بالحلال الحرام. فلو شهدتم معشر المسلمين ذلك لطارت[٧] أكبادكم جزعاً، وتقطّعت قلوبكم قطعاً، ولاستعذبتم طعم المنايا لموضع تلك الدنايا[٨]، ولهجرت أسيافُكم أغمادها وجفت أجفانكم رُقادها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعفة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان وحملة الصلبان.

ومنهم:

[٢٢]

أبو بكر بن قزمان[٩]

أديب مبرز، ولبيبٍ متحرّز، له تفنّن في القريض، وركوب لسائر بحور الأعاريض. ولم يكتف بالمستعملات، حتى ذلل صعاب المهملات، واخترع أوزاناً أخرى، وابتدع

---

(١) في الذخيرة: في المخالفة... في المكاثفة. (٢) في الذخيرة: في المخالفة... في المكاثفة.

(٣) في الذخيرة: مج٣ ق١ ص١٧٧، وهي فصل من رسالة طويلة كتبها على السنة أهل بربشتر، بعدها.

(٤) في الذخيرة: عوضاً من شيعة الرحمن، والأئمة المتدينون. والقومة المؤذنون..

(٥) كما تجر، مكررة في الأصل. (٦) في الأصل: وحجّ.

(٧) كذا في الأصل وفي الذخيرة، ولعلّها تفطّرت.

(٨) في الخريدة: الرزايا.

(٩) محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان، القرطبي، الأندلسي، أبو بكر، ويسمى الأكبر تفريقاً له عن ابن أخيه محمد بن عيسى بن عبد الملك. الأصغر، الزجّال: ولي الكتابة للمتوكل صاحب بطليوس، وتقدم حتى سمي وزيراً، إلا أنه تكدّر عيشه في أواخر عمره وأساء إليه القاضي أبو عبد الله بن حمدين، توفي سنة ٥٠٨هـ.

=

ما لا يُعدّ نظماً ولا نثراً، إلاّ أنه موزون ظفر منه بدر مخزون، ورَدَ عن صدرٍ مخزون. وإذا وقع على التلحين. ومسح منها زمانه في كل حين، يظهر مزحوفه وموزونه، وسالمه ومجنونه، إلا أن كتابنا لا مجال فيه لإيراده، ولا تركض فيه لجنب جواده.

ولم يذكر الفتح له نثراً، على أنه طالما اعتنى به وأثرى. وقال فيه[١]:

وأخلاقه هي التي فلّت من غربهِ، وكانت سبباً لطول كربهِ، فإنها كانت تحتدم في جوانحه احتدام القيظ، وتكاد تميّز من الغيظ[٢]، وكان طاهر الأثواب / ٥٠/ من كل دنس، ظاهر الصواب حتى نبس.

وقد ذكره ابن بسام، فقال فيه[٣]:

وأبو بكر من كتاب الوقت والأوان، ومن أهل البلاغة والبيان، والمتوكل أول من اتخذه كاتباً، واقتدح زنده فأورى شهاباً ثاقباً، ومما أورد له قوله[٤]:

واتصل بي دخولك بعقيلة أترابها وبيضة خدرها وربَّة محرابها[٥]، ورابني التواؤك[٦] ومدح في نشاطي إبطاؤك[٧]، وساءني أن يستمطر من الأمل جهاماً، وتسترهف[٨] لدى ذلك العمل كهاماً، ويجد صاحبك معرّداً عن المناجزة، لائذاً بالمحاجزة.

تـــريـــدُ جـــوّاً ويـــريـــدُ بـــرّاً كـــأنـــمـــا أســـعـــط شـــيـــئـــاً مـــرّا

قلت: لعله قد حظي بما جُني له، فافتتح الحصن الذي نازله قسراً[٩]، وأفضى به الصدع إلى التئام والشعب إلى التمام[١٠]، فإن لم يكن ذاك فهناك، وظفرت يداك، وإن

= انظر: الخريدة ٣/ ٤٦٥، والمغرب ١/ ٩٩، وقلائد العقيان ٥٥٥ والصلة لابن بشكوال ص٥١٢. والذخيرة ق٢ مج٢ ص٧٧٤، وقد خلط المقري في نفح الطيب ٤/ ٢٤ بينه وبين ابن أخيه محمد بن عيسى.

(١) قلائد العقيان ص٥٥٥.
(٢) سورة الملك: الآية ٨.
(٣) الذخيرة، مج٢ ق٢ ص٧٧٤.
(٤) الذخيرة مج٢ ق٢ ص٧٨١، قال، وكلّف مخاطبة عروس، فكتب رقعة قال فيها:...
(٥) بعدها في الذخيرة تشاطرك نسلك، كما شاطرتك أصلك، التي لم تكن تصلح إلاّ لها، ولم تكن تصلح إلاّ لك، فخدمتك بالنيّة، وحضرتك على بعد المشقّة وتقاذف الطيبة، وسألت الله أن يبارك لك ويبارك عليك، ويجمع بينكما في خير وعافية، على أسعد الجد وأيمن الطير إلى آخر القافية، ثم ترقبت كتابك مُودعاً من وصف حالك ما ينبىء فحواه على اجتماع شملك ونعمة بالك..
(٦) في الذخيرة: (التواؤه) يشير إلى الكتاب يقوله: ثم ترقبت كتابك.
(٧) في الذخيرة: إبطاؤه.
(٨) في الذخيرة: واستنصر.
(٩) بعده في الذخيرة: وتخلّله كيف شاء مجالاً ومكراً.
(١٠) عبارة الذخيرة: وأفضى به انصداع ما صدعه إلى التئام، وانشعاب ما شعبه إلى انتظام والتحام. =

يكنْ ما عداه، ويكفي الله، فمع اليوم غدٌ، وفي اللمم خلال ذلك متعلّل[١].

وكذلك قوله أيضاً كالجواب عنها ومنه[٢]:

وردني كتابك، وقد وقفت على مقطعه، وعجبت من التفرغ لمودعِهِ، وإن[٣] كنت منذراً فليخفّ وقعك، أو حذراً فليفرخ روعك، فالحدّ بحمد الله ماضي، وكلا الفريقين راضٍ، على بطش الماضي[٤] وعنف التقاضي، ثم لا بأس ولا إبلاس ولو عرت نبوة، وعدت[٥] دون المراد[٦] كبوة[٧].

وسيف بني عبس وإن كان صارماً ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد[٨]

ولله أخوك الذي لا فرق عندكما بين ما يعروه ويعروك، ولو لقيت أعداءك. بمثل صاحبه مضاءاً وإقداماً، وتسرّعاً واستقداماً:

طعنتهم سلكى ومخلوجة ... كفتك لامين على نابل[٩]

وقال الفتح:

وقد أثبتّ له ما يعلم حقيقة قدره، ويعرف كيف أساء الزمان إليه بغدره. فمن ذلك قوله[١٠]:

ركبوا السيول من الخيول وركّبوا ... فوق العوالي الزرق سمر نطافِ

وتجلّلوا الغدران من ماذيّهم ... مُرتجةً إلا على الأكتافِ

ومنه قوله[١١]:

وشمس كسوناها ببدرٍ صيانةً ... وقد عاد وجهُ الأرض أسود حالِكا

/٥١/ أطرنا بها طير الدُّجى عن بلادِهِ ... إلى أن رأت عيناي فيه[١٢] المسالكا

= وبعده: ولهي بتوابع هذه الحال التي هي أخت الأمرة، وجامعة أفانين المسرّة. عن صديق يصله بكتاب إليه يعلمه.

(١) بعده في الذخيرة: ثم لايشغل عن الكتاب جدل، ولايحول دون خجل.

(٢) الذخيرة: مج٩ ق٢ ص٧٨٣. (٣) في الذخيرة: ولئن.

(٤) على بطش الماضي، ليست في الذخيرة. (٥) في الذخيرة: عرضت.

(٦) في الذخيرة: المرام.

(٧) بعدها في الذخيرة: فربما خان الثقات، في بعض الأوقات.

(٨) البيت للفرزدق. قاله معتذراً عن نبوة سيفه عن الأسير الذي أمره سليمان بن عبد الملك بقتله، وورقاء بن زهير العيسي، ضرب خالد بن جعفر، فلم يصنع سيف ورقاء شيئاً (ثمار القلوب ٢٢٠).

(٩) البيت لامرء القيس (ديوانه: ١٢٠) وقد ورد في الأصل مضطرباً.

(١٠) البيتان في: القلائد ٥٥٦ والخريدة ٣/ ٤٦٦، والمغرب ١/ ١٠٠ والذخيرة ق٢ مج٢ ص٧٨٥.

(١١) قلائد العقيان ص٥٥٧. (١٢) القلائد: فيها.

حجحنا بها بيتاً من اللهو لم تزل عكوفاً بها حتى قضينا المناسكا

وقد ذكر صاحب اللمعة له من رقعة يصف فيها مرتع روضة أسرع إليها باكر الغمام نوضهُ، وأنزع منها حوضه، وهمّ يحذو لها النسيم وما استطاع خوضه، وهي:

ونزلنا بروضةٍ باكرها الوابل، وأودعها ما عنده إلى قابل، فغادر غديرها يفهق امتلاءً، وزهرها يسر الناظر اجتلاءً، وقد تقابلت أنوارها صفوفاً، ولبست أقطارها الربيع شفوفاً، فضاحك أقحوانها خزاماها، وحدت صباها نعاماها، وحفّ بها جدول ريّان بكتم القذاة قراره، ولا ينسخ بليل الطل نهاره، فذكرنا في كريم معاهده وقديم مشاهده أيام صبوةٍ خلعنا عن مناكبنا رداءها، وأرقنا عن نواظرنا إغفاءها، زماناً كانت فيه لممنا أمثال صحائفنا، وأيامنا أشباه مفارقنا، لم يعد من ذلك عيد إلاّ إلمامه ذكرى، وهيمان خاطر لا يكرى.

ومنهم:

[٢٣]

أبو بكر بن الملح[١]

هو للكلام كأبيه، الملح في الطعام، لا يصلح طعمه إلاّ بمذاقهِ، ولا يخرج شيء عن وفاقه، وكان باقعة باس ورابعة طهر بعد إدناس، قال فيه الفتح: إنه أقام مدّةً لم يتأنّس إلاّ بنشوة، ولم يتنفّس فيها إلاّ عن صبوة، والدين يلحظه بطرفٍ كلف، وقلب عليه مؤتلف، إلى أن اقتصر باطله. واستبصر مسوّفه وماطِلهُ.

ومما أورد له قوله[٢]:

والروضُ يبعثُ بالنسيم كأنّما أهداهُ يضربُ لاصطباحك موعدا

سكرانُ من ماء النعيم فكلَّما غنّاة طائره[٣] وأطربَ رَدّدا

يأوي إلى زهرٍ كأنَّ عُيُونَهُ رُقباء تقعدُ للأحبّةِ مَرْصَدا

قد حفَّ موقعه عليه ورُبَّما مسحَ[٤] النسيم[٥] بعطفِهِ فتأوّدا

---

(١) أبو بكر محمد بن إسحاق اللخمي المعروف بابن الملح وابن الملاح، من أهل شلب.
ترجمته في: الذخيرة ق٢ مج١ ص٤٥٢، والخريدة (الأندلس والمغرب) ٣/ ٤٦٦ وقلائد العقيان ص٥٥٨ والتكملة ص١٤٩ ونفح الطيب ٢/ ٤٦٨، والمغرب ١/ ٣٨٣.

(٢) الأبيات من قصيدة في مدح المعتمد في: قلائد العقيان ص٥٥٩. الذخيرة ق٢ مج١ ص٤٥٤. والخريدة ٣/ ٤٦٦ والمغرب ١/ ٣٨٣.

(٣) في الأصل: طائر.

(٤) في الذخيرة: سمح.

(٥) في الخريدة: والقلائد: النعيم.

ومنها قوله:

قد ظلَّ أنف الدهر أخْنَس راعفاً[١] وطرف النجم أخزرَ أرْمَدا

وأحمَّ يثأر للغدير كأنما[٢] سال النجيع خلالهُ وتولَّدا

ومن نثره قوله، مما لم يضع في القلائد عقيانه، ولا اتصلت بعيون الفوائد / ٥٢/ أعيانه، قوله:

إن خفّ عليك ـ أطال الله بقاءك ـ الانتظام معنا، والالتئام بنا على شاطىء النهر وقد طرّز كمّيه طراز الزهر والنسيم في ذلك الميدان، فخلى العنان يركض في ذلك الصفيح، ويجيء بريا بنفسج وشيح، من حفي البر والحضر، وسقيا النهر والمطر. وما فينا من يثقل عليك مرتعه، ولا يضيق بك موضعه، وما بيننا تكليف حتى ولا في زيادة رغيف، غير ما يكفي من خبزٍ نضيج، ولحم طير من كل زوج بهيج، وشراب أصفر لا يجحد حقّه ولا يكفر، له شعاع ممتد، كأنّه خيوط مسّدت باليد، يترك السقيم صحيحاً، ويبعث في الميت روحاً، فما هي بأول يدٍ لك تعتدّها، ولا بآخر عارفةٍ ما دمت ـ أطال الله بقاءك ـ نستمدّها.

* * *

وهذا آخر ما ذكرته من رجال القلائد، مما هو أزهى من أمثالها في أعناق الولائد، وأثبتُّ في أثناء ما قلت في كل ترجمة ببعض مقال مؤلفه فيما ترجمه. وصرّحتُ في كل مكان باسمه لأبين كلامه من كلامي، وإن كان لا تخفى إلا على الأعمى أو المتعامي، وأين أنا من ذاك، وهل استفدت إلا من هناك، وأين مجاري السمك من السماك، وذكرت قول غيره في بعضهم تذييلاً، وسقتُ فيه بالقمر والنجوم قبيلاً.

ومن كُتّاب المغاربة المجيدين:

[٢٤]

الوهراني[٣]

أديب اخترع طريقاً، وافترع عذراء لم تكنُ رحيقاً، طلعت شمسه من المغرب،

---

(١) في الأصل: أرعفا.

(٢) في الأصل: واحمر (كلمة غير مفهومة) الغدير، وصحح على القلائد.

(٣) أبو عبد الله، محمد بن محرز بن محمد، الوهراني، أصله من وهران، وقدم مصر أيام صلاح الدين الأيوبي، واجتمع بالقاضي الفاضل والعماد الأصبهاني، فلم ير نفسه في طبقتهم فعدل إلى الهزل فأقبل الناس على أقواله ورسائله، وتنقل في بلاد الشام، وتولى الخطابة بداريا، وبها توفي

=

ولم يغلق للرحمة باب، ولا كانت من مقدمات النذر للألباب، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت، ويد تصرفها على البلاد قد استولت. المجلس الناصري معمور بالأجلاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريح الأدب قد هبت، ووفود الخواطر إلى تلك المشاعر قد لبّتْ، والحظ الفاضلي قد أخذ معه حظ كل فاضل، وأخذ للكل ولم يترك إلاّ الفاضل، وكان يغار على كل بيت فكر، ويرى أن لا ينصب لغيره على مخبّأةٍ خِدْر. وكان الوهراني لوذعياً، تحميه لألاؤه، وألمعيّاً تُريه البصيرة آراؤه، فخاف نفثات ذلك الصلّ، وعبثات ذلك السيف، الذي لا / ٥٣/ يكلّ، فمال إلى السخف، إذ كان لا يُحسد على تلببه، ولا يُنافس في ترديه وتجلببه، وجعل هذا سبباً لإظهار ما عنده من الإحسان، وتكلّم ولم يخف عثرة القلم، ولا زلة اللسان، فرفرف عليه جانب من الحنوّ الفاضلي، ورقّ عليه كما يرقّ عتيق البابلي، وهنيت له نغبةٌ من العيش قدر عليه رزقها، وقرر له رفقها، وولي خطابة المسجد الجامع بداريا، وقيل له الآن (أنت وحيّ ليلى ودار ريّا) وكان إلى هذا ليس له من خاطر الدين ما يزعَهُ، ولا من حاظر العقل ما ينزعه، فردّاه سوء التجري فرداه من شاهقه، وألقاه عدم التحري لقًى لبوائقه، وأطلق لسانه فعثر في طلقه، وكبّه في طبقه، وتخرص في المنام الذي أتى فيه بالأكاذيب، وحسّن باطله بحسن الترتيب، وذكر فيه الملائكة الكرام، وانتهك عرض السلف الحرام، وغير ذلك من كباره التي لا تطاق، ومنكراته التي لا يُصبر عليها، وقد ذكرت بعضها هنا، وإنما ذكرته لئلا أُخلي الكتاب منه، وهو من المسموع بهم والمسؤول عنهم وأنا أستغفر الله مما ذكرت من دده، وأوردت من أباطيله، وعقدتُ اللسان على القلم حين تسطير أضاليله، وإن كنت لم أوردها إلاّ كالصدأ الحالي. وأنا فيه ناقل لا قائل، ومن الله العصمة، وبه السلامة.

ومن نثره الرقعة التي عن جامع دمشق[(١)]:

لما حكمت يد الصناع[(٢)] في مساجد الضياع، وارتجّ باب العدل وغُلِق، ونُبِذ كتاب الله وحلق، فزعتْ المساجد إلى جلّق[(٣)] وهو يومئذٍ أميرها، وعليه مدادُ أمورها،

= سنة ٥٧٥هـ، له (رسائل) مخطوطة. ومصنفات طبع منها «رقعة عن مساجد دمشق» و«المنامات» انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٥ وشذرات الذهب ٤/ ٢٥٢ والوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٦ وعبر الذهبي ٤/ ٢٢٥ والأعلام ٧/ ١٩.

(١) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ص٦١.

(٢) في المنامات: الضياع، وهو تصحيف.

(٣) في المنامات: جامع جلّق.

فلما دخلوا عليه من بابه، واجتمعوا تحت قبتهِ ومحرابه، كتب لهم جامع النيرب[(١)] قصة إليه، وتوصّلوا إلى من عرضها عليه[(٢)]، فكانت الرقعة مسطورة على هذه الصورة: المماليك مساجد الكورة، يقبلون الأرض بين يدي الملك المعظّم الرفيع المكرّم، كهف الدين، جمال الإسلام والمسلمين، بيت الأتقياء[(٣)] والصالحين، مدفن الأنبياء والمرسلين، معبد الملبين[(٤)]، صاحب الدولتين، بنية أمير المؤمنين أعلى الله مناره، وأيّد أنصاره، وعمّر بالتوحيد أقطاره، وينهون إليه ما يقاسونه من جور العمال، وتضييع الأعمال / ٥٤/ ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد ألفهم الظلمة والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام، فلا تسمع فيهم إلاّ اذان البوم وتسبيح [الغيوم][(٥)]، قد ركعت أركانها وسجدت سقوفها وحيطانها، تبكي عليها النواقيس، وترثي البيعُ والكنائس[(٦)].

[يرثي له الشامت مما به][(٧)] يا ويح من يرثي له الشامت

وقد فزعنا أيها الملك إلى بابك، وأوينا تحت جنابك، فافعل بنا ما هو الأهل بك، والسلام. فلما وقف على هذه الحكاية، وفهم مقتضى هذه الشكاية، استوى جالساً في مقعده، وضرب بيده على يده، وقال: وكيف [وأنّى][(٨)] أم للإنسان ما تمنى، ثم رفع رأسه وتغنّى:

وما شرب العشّاق إلا بقيتي ولا وردوا في الحبّ إلا على وردي

ثم أشرف عليهم من إيوانه بين حفدته[(٩)] وأعوانه، وأقبل يقلّب طرفه في الجموع، ويكفكف أسراب الدموع، لما يرى من اختلالهم، وفساد حالهم، فابتدر جامع المزّة للمقال، فتقدم بين يدي الملك وقال: الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب، وصيّر أموالنا كالسراب، وجعلنا مأوى للبوم والغُراب، أحمده حمدَ منْ كان فقيراً فاستغنى، وأدرك بمال الوقفِ ما تمنّى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة عالم عامل، متحملٍ لثقل الأمانة حامل، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُهُ، الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الطيبين، الأكرمين، أمّا بعد، أيها الملك السعيد، ثَبَّت الله قواعد أركانك، وشيَّد ما وهى من بنيانك، فإن الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلتْ

---

(١) جامع النيرب: عند قصر شمس الملوك بقرب السمانين، بناه نصر الفراش في النيرب.
(٢) في المنامات: سألوا عرضها عليها.
(٣) في المنامات: الأنبياء.
(٤) في الأصل: الملتين، والتصويب عن المنامات.
(٥) الزيادة عن المنامات.
(٦) في المنامات: النواويس، وهي أصوب.
(٧) الصدر عن المنامات، لم يرد في الأصل.
(٨) الزيادة عن المنامات.
(٩) في المنامات: جنده.

من الراكع والساجد، فأصبحت جوامع الغوطة غيطان، لا سقوف لها ولا حيطان، ومشاهد البقاع صفصفاً[١] كالقاع، ومساجد حوران مخازنٌ وأفران، فكم من بنيةٍ لعب الجور بأربابها، ونسج العنكبوت [على بابها][٢]، وكم من بيوت لله أغلقت دون أصحابها، فعشعش الحمام في محرابها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾[٣] وقد دخل العمال أيها الملك على الوقوف بحجّة العمارة والسقوف. فاتفقت علينا الأهواء، واختلفت فينا الأمطار والأنواء، فلا يزال المسجد ينهار، وتأخذه السيول والأمطار[٤] / ٥٥/ حتى ينمحي رسمهُ، ولا يبقى فيه إلاّ اسمه، وأنت أيها الملك عمادنا. وإليك بعد الله معادنا، فالتفِتْ أيها الملك إلى مالنا. وانظر في مصالح أحوالنا، يصلح الله أحوالك، ويسدّد أقوالك وأفعالك، والسلام.

ثم جلس فقال الملك: هؤلاء المساجد[٥]، فما بال المشاهد، فبرز مشهد برزة، متوكئاً على شهد الأرزة، وهو يصلصل ويصول، ويلطم وجهه ويقول:

كلما حاوَلْتُ أشكو قصّتي   لا ألاقي غير ذي قلبٍ جريح
يتشكّى مثل شكواي له   يا لقومي ما عليها مستريح

أما بعد أيها الملك السعيد، أدام الله جمالك، وبلّغك في العدوّ آمالك، فإن مقام إبراهيم أصبح في كل وادٍ يهيم، ومغارة الدم[٦] لا تستفيق من الذّم، ومسجد الكهف لا يفتر من اللهف[٧]، وقبر شيث قد استأصله الخبيث، وقبر نوح يبكي وينوح وقبر جيله ما لنا في عمارته حيله، وقبر إلياس قد تعوّضنا عنه باليأس، فأمست المشاهد كأربابها، وأصبحت رميماً كأصحابها، قد محتها الغوادي، وحدا بها الحادي:

جَرَت الرياح على رسوم ديارهم   فكأنما كانوا على ميعادِ

فقال الملك: ربّ طارق على غير وعد، وفي كل وادٍ بنو سعد، ثم استفتح المقال بأن قال: الحمد لله الذي لا يُحْمَد على المكروه سواه، نَصَبَ الصراط العدلَ وسوّاه، وأمدَّ بعونه وقواه، فمن أضلّ ممن اتبع هواه، وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه، أحمده على ما رزقني من الإجمال، وأشكره على ذهاب العِرض والجاه

(١) في المنامات: صعصعاً.
(٢) الزيادة عن المنامات.
(٣) البقرة: ١١٣.
(٤) في المنامات: والتيار والأنهار.
(٥) كذا في المنامات: قد سمعنا كلام المساجد.
(٦) مغارة الدم، فيها مسجد كبير، كان للنصارى والرهبان، فجعل مسجداً.
(٧) بعده في المنامات: ومشهد هابيل قد ربي بطيرٍ أبابيل.

والمال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً سيد الأولين والآخرين، رسول الله، أما بعد، يا معشر المتكلمين، وطائفة المساجد المتظلمين، فإنه والله ما يصل إليكم من الجور إلا ما يفضل عني، ولا ينتهي إليكم إلاّ ما يستعار منّي، ولولا أن أركاني سليمة، وبنيتي قديمة، لأصبح جامع بني أمية يغنى عليه «يا دار ميّة» وقد والله شرقت بغصتكم، وحرتُ في قصتكم، إن رفعت أمركم إلى الملك العادل ردّكم إلى الشيخ العاذل، فلا يرعى /٥٦/ لكم حرمة، ولا يراقب إلاّ ولا ذمّة، «شكوى الجريح إلى الغربان والرخم» والرأي عندي تكتبوا للشيخ قصة، ولا تتركوا في صدوركم غصّة، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب، فإن التأم رأيه برأيكم، وإلا فالسلطان ورائكم، أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

فبادر الغلام بالدواة والأقلام[١]، فقال: استعذ بالله من الشيطان الرجيم، واكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. من ملك الجوامع بجيرون، إلى أبي سعيد بن أبي عصرون:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

أما بعد، يا غدار، فقد هيجت الألم، وأبهمت الظلم، ومن استرعى ظالماً[٢] فقد ظلم، كم تغاضينا على خياناتك، وتغافلنا عن جناياتك، حتى اكتنزت الأموال وادخرتها، وجمعت الذخائر واختزلتها، لكن من أجْل هذا كانت سياحتك، بسببه طالت نياحتك، ولأجلهِ كنت تسيح وتصيح، حتى غبطك المسيح، لقد عجبت أيها الشيخ من حالك في ابتداء حالك، ومن فساد أمْرك في آخر عمرك، صليت بالمسوح والقيد، حتى ظفرت بأنواع الصيد، وقلدت الأمور العظام حتى تقلدت الذنوب العظام، إن كنت في العمل إلاّ كما قيل في المثل:

صلّى وصام لأمرٍ[٣] كان يأمله حتى حواه فما صلّى ولا صاما

عرّفني أيها الشيخ المفتون، والبائع المغبون، لم بعت الباقية بالفانية والقاصية بالدانية، إن فعلت ذلك لا لعلّة أو لتحقيق ملّة، أما أن تكون قد استطبت السكباج[٤] واستلينت الديباج، وأما أن تصدق أهل الأحقاد في أنك نصيري[٥] الاعتقاد، لا تقول

(١) في المنامات: فنادوا بالغلام فأتى بالدواة والأقلام.
(٢) في المنامات: الذئب. (٣) في الأصل: لامن.
(٤) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل، معرب مسكبا.
(٥) نسبة إلى النصيرية، من الفرق الغالية.

بالنجعة ولا تصدق بالرجعة، وكلاهما أنت فيه ملوم ومعاقب ومذموم، وحسبك أنه قد بلغني ما أنت عليه من قلّة الوفاء مع هؤلاء الضعفاء، فاحسم عنهم أذاهم، ولا تمكن منهم أعداهم والسلام.

فلما وصلت الرقعة إليه، وقرأ ما انطوت عليه، فكّر وقدَّر، فقتل كيف قدّر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، وشتم المساجد وبانيها ولعن المشاهد وقاطنيها، وقلب الرقعة، وكتب فيها:

/ ٥٧/ وصلت رقعتك ـ أصلحك الله ـ كأنها ضربة موتور، ونفثة مصدور، تخلط فيها الهزل بالجدّ، وتبدي غيظ الأسير على القد، وأيم الله لقد قَذَفْتَ سرّيا، ﴿جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾[١]، فاشدد من عقالك، وتأيّد في مقالك، فما كلّ شخص يذم شكله ولا كلّ طائر يجوز[٢] أكله[٣]، لو كان لك عقل يهديك أو رأي يهديك، لواريت إوارك، وسترت عوارك، أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي، بأنك قطب المعاصي حتى لقبوك بسوق الفسوق، وميدان المردان[٤]، ورحاب القحاب، حتى قال فيك الشاعر:

تجنّب دمشق ولا تأتها وإن راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق به قائم وفجر الفجور به طالع

لا جرم إن الله قطعك بالطريق، وعاقبك بالحريق، وجعل المضيء على أبوابك، والزط في قبلة محرابك، فلو أنك البيت المعمور لهجِرْتَ، أو بيت مكّة لما حجُجت، فتوقف عند مقدارك، وانظر في إيرادك وإصدارك، والسلام.

فلما وقف الجامع على رقعته، ورأى ما فيها من رقاعته قام وقعد، وأبرق وأرعد وقال: اكتب يا غلام، بسم الملك العلام. من العاتب الواجد إلى الملك الزاهد، قال الحائط للوتد: لم تشقُّني؟ قال: سلْ منْ يدُقّني، لم يتركني الحجر الذي من ورائي، أما بعد أيها الملك العادل ـ أدام الله أيامك، ونشر في الخافقين أعلامك ـ فإن الله شرّف بنيتي وحرمها، وطهّر بقعتي وكرّمها، طالما زُوحِمت بالمناكب، لما كنت هيكلاً للكواكب، وكم أصبحتُ مشكاة الأنوار، وبيتا لأسطرٍ من النار، ثم انتقلت إلى اليهود بعد انقراض ملّة هود، فأنستُ بالزبور والأنبياء في القبور، ثم جاءت دولة الصلبان فقويت بالقربان ومعاشرة الرهبان، ثم جاء الإسلام، فتشرفت بدين محمد عليه السلام،

---

(١) سورة مريم: ٢٧.
(٢) في المنامات: يحلّ.
(٣) بعده في المنامات: وما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء فحمة.
(٤) في المنامات: المروق.

فأنا المعظّم في كل زمان، المقدم في كل قران، وكيف يسعُك ـ أيّدك الله ـ التغافل عن حالي، أو التحيّن لنهب أموالي، ويدك مبذولة في البلاد، ومتحكمة في رقاب العباد، وأيّ شيء يكون جوابك يوم النشور / ٥٨/ إذا بعثر ما في القبور، وقد وقفت موقف الذليل، بين يدي الملك الجليل، وأقول: يا رب، سل هذا لم أهملني وسلّمني لمن أكلني؟ فلا تردّ يومئذ جواباً ولا تُحير خطاباً، ولا آخذ منه جميلاً ولا كفيلاً، ولا أقبل عنك شفيعاً ولا وكيلاً فتقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلّني عن الذكر بعد إذْ جاءني، وكان الشيطانُ للإنسان خذولا، فقدّم أيها الملك لنفسك، ما تجده غداً في رمسك، وخذ هذا المذكور بالحساب قبل يوم الحساب، تبرأ من التباعة، وتدخل في أهل الشفاعة، والسلام على من عمّر مساجد الإسلام، ورحمة الله وبركاته.

فلما وقف نور الدين[١] على كتابه، وتجرّع كأس عتابِهِ، التفت إلى المساجد فرثى لهم، وسدد أحوالهم[٢]، وأسرّها يوسف في نفسه، ولم يبدها لهم، ثم نظر إلى ابن عصرون، فأنزله واعتزله وحجبهُ عن بابه، واختزله، وألقاه في سجن الصدود، وخلّده فيه إلى يوم الخلود، وقرأ عليه، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود، والسلام، المملوكة ريحانة بغلة الوهراني تقبّل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين ـ نجّاه الله من حرّ السعير، وعظم بذكره قوافل العِير ورزقهُ من التبن والحب والقرط الشعير وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه صالح أدعية الجمّ الغفير من أهل الخيل والبغال والحمير ـ وتنهى إلى ما تقاسيه من مواصلة الصيام، وسوء القيام، والتعب في الليل، والدواب تنام، قد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يقول بالعلف، ولا يوقن بالخلف، لأنه في بيته مثل المسك والعبير، والأطر يفل الكبير، أقل من الأمانة في الأقباط، والعقل في رأس قاضي سنباط، فشعيره أبعد من الشعرى العبور، ولا وصول إليه ولا عبور، أعز من قرط مارية، لا تحرجه صدقة ولا هبة ولا عارية، والتبن أحبّ إليه من الابن، والجلبان أعزّ عليه من دهن البان، والقضيم بمنزلة العقد النظيم، والفضة، أكمل من سبائك الفضّة، والقول من دونه ألف بابٍ مقفول فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلاّ بعيون الآداب والفقه اللباب، والسؤال والجواب وما عند الله من حسن الثواب، ومعلوم / ٥٩/ أن البهائم لا

(١) في المنامات: الملك العادل.

(٢) بعده في المنامات: ولما علم فحوى شكيتهم، وعرف كنه قضيتهم أزال عنهم ظلمهم.

توصف بالحلوم، ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تطرب إلى شعر أبي تمام، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال، مسكة من القصيل أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفة من الدريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس، لو أكل البغل كتاب المقامات مات، ولو قيل له أنت هالك إن لم تأكل موطّأ مالك، ما قبل ذلك، وكذلك الجمل، لا يتغدى بشرح أبيات الجمل، وحزنة من الكلأ أحبُّ إليه من شعر أبي العلاء، وليس عنده طيب شعر أبي الطيب، وأما الخيل فلا تطرب إلا إلى سماع الكيل، ولو أكلت كتاب الذيل ماتت بالنهار قبل الليل، ولا تستغني الأكاديش عن الحشيش بكلّ ما في الحماسة من شعر أبي الحريش، وإذا أطعمت الحمار شعر أبي عمار، حلّ به الدمار، وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الإصطبل، ومع هذا كلّه، فقد راح صاحبها إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب من تبنه خمس قفاف، فقام إليه بالخفاف، فخاطبه بالتقعير، وطلب منه ديبة شعير، فحمل عياله على ألف بعير، فانصرف الشيخ مكسور القلب مغتاظاً من السبّ والثلب، فالتفت إليّ وقد حنق عليّ. وقال: إن شئت أن تكدي فلا ذقت شعيراً ما دمت عندي. فبقيت المملوكة حائرة، لا واقفة ولا سائرة، فقال لي العلاّف: لا تجزعي من خباله، ولا تلتفتي إلى سباله. ولا تنظري إلى نفقته. ولا يكون عندك أحسن من عنفقته. هذا الأمير عز الدين سيف المجاهدين، أنْدى من الغمام، وأمضى من الحسام، وأبْهى من البدر ليلة التمام، يرثي للمحروب، ويفرّج عن المكروب، وهو من بني أيّوب، لا يردُّ قائلاً، ولا يخيّب سائلاً، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبتْ الزمام، ورفضتْ الغلام، وقطعتْ اللّجام، وشقّت الزحام، حتى طرحت خدّها على الأقدام. ورأيه العالي، والسلام.

عبد مولاي القاضي الأجلّ الفاضل ـ أدام الله جدّه. وأهلك ضدّه، من السرور بقربه /٦٠/ والدخول في سربه، كما سرّ مهجور بوصل الحبائب، ومن الارتياح إلى جلاله، والورود على زلالِه، كما ارتاح ظمآن لعذبِ المشارب، ومن الاهتداء لمعانيه، والاعتكاف على حفظه، كما نظم الدرّ المفصّل ناثر. ولولا أن عبدها أخْفش البصيرة والبصر، تغلبه لكنةُ الحصر، ويضعف عن مقابلة الشمس والقمر للازمه السعد لبابه والتوفيق لأحبابه، لكنّه الخفاش يعشو عن الأنوار، والجعل يتأذّى برائحة النوار، ولا يغترّ المولى بزخارِفِهِ، وتنميق مخارِفِهِ، فالعود أطيب من ثراه والكلام أحسن ممن انتزاه، ولأن تسمع بالعيدي خير من أن تراه، ولولا نسب خادمه أقبح من المشيب، وخروجه إلى المدح أوْحَشْ من الخروج، وقريضه أوجع من القريض، ونقده أشدّ من الفقر، وقرائنه كالقرين السوء، لأرسلها كالأفراس وأسكت بها صياح الأجراس، والسلام.

إلى الأثير بن بنان:

لولا أن بعض الفضلاء المتقدمين، والفصحاء المتكلمين، خاضَ أوْدية الأوهام على بنات الأفهام، وغاص في بحار الأفكار على المعاني الأبكار، ليمدح به السبعة الدراري ويجعل النجوم الجواري لها كالجواري، ويصفها بما يشرفها في أفلاكها ويجملها في عيون ملاّكها، لما وجدَ لها أجمل من صفات سيدنا القاضي الأجلّ، الأثير ـ أدام الله علوّه وكبت عدوّه ـ وعلم علماً يقيناً أن الفلك الأثير لا يحتوي على مثل القاضي الأثير، حتى لو أن شاعر الفلك وهو الشعري العبور، قصدها وحلّها ممتدحاً لها فوجد رجل ثبات سيدنا وأناته ونسب المشتري إلى ديانته وأمانته، واستعار للمريخ حزمه وعزمه، وأثنى على الشمس بسياسته ورئاسته، ومدح الزهرة ببشرِهِ ونشره، وذكر عطاء ببراعته ويراعته، وأثنى على القمر بإنجازه ونجازه، لجعلوا عليه غلائل المجرة، وكلّلوه بنجوم الأكليل، وأنزلوه في مراقد، وأنعشوا له جماعة بنات نعش، وأوقدوا على رأسه نجوم الثريا، ونثروا عليه كواكب النثرة، وأنعموا عليه بمنزلة النعائم، وأقطعوه بلاد البلدة، وأمروا سعد الذابح أن يذبح له الجدي، ويملأ له الدلو، ويقلي له الحوت ويشوي له الحمل، وأن يطبخ /٦١/ له الثور كلّه سكباجاً، وأن يحمل له من خبر السنبلة، ومن ثمرة الجوزاء ما يضعف ميزان الفلك عن حمله، وكلوا السماك الرامح أن يرعاه برمحه من دبيب السرطان ومن شوكة العقرب، ومن ذراع الأسد ومن سهام القوس، حتى يعود إلى فلكه، وهو أسعد النجوم، وحقيقٌ بمن هذه خلاله أن يمدح جلاله، ومن هذه صفاته أن تتفجّر صفاته، ومن هذه أوصافه أن يحمد وصّافه، لا سيما ابن سبيل طالت به في الشام الغيبة، وعوّقته عن الإسراع الهيبة، حتى اكتال من اكتال وانكسرت الريبة، والمرء يسعى ورزق الله مقسوم، هذا بعدما ركب الليل جملاً، واحْتذى أديم النهار نعلاً، وخرج من باب الجابية إلى باب الطابية متلذذاً بالعنا، طامعاً في اليسار والغنى، وإنما يقطع أعناق الرجال المطامع، فوصل إلى القاهرة كالعاشر من خيول الحلْبة، والتاسع من أولاد الكلبة، ليس له طي يخصه ولا بز يمصّه، فوجد الأمور قد تغيرّتْ عن كيانها، والقصور تبكي على سكانها:

ومن ذا الذي يا عز لا يتغيّر فلولا الأخوان لما ردته أسوان، ولولا الأصحاب لضاقت به الرحاب، إن المعارف في أهل النهي ذمم، واجتمع يوماً ببعض المعارف الراسخين في المعارف، فسأله عن أسعار الأشعار، فأخبره عنها بالكساد والفساد، وعن أهلها بالحراف والانحراف وقال: كلّ كلام مسجوع لا يُسمِن ولا يُغني من جوع، وصاحب القصيد كالباسط ذراعيه بالوصيد، وما عند الأمراء أحسن من ذقون الشعراء،

فلو بشّر أحدهم بشّار، وهناه ابن هاني وقصده أبو العلاء، ونزل به صريع الدلاء، ومدح الدؤلي بداليته والطائي بطائيته والوأواء بواويّته. لما أجازه على ذلك بجوزة ولا أثابه على ذلك بثوبٍ خليع، وردّ أمس الذاهب أهْون عليه من أخذ ذهبه، وخلع الأكتاف أهون من خلعه، وحنوط الغاسل أقرب من حنطته، والشعري العبور أقرب من شعيره، وقرط ماريّة أقرب من قرطه، والتبن عنده مثل التبر، يعلم عليه بالمداد والحبْر، ويقاس بالشبر، فليس لابن سبيل على ماله سبيل، فلما سمع الخادم حديثه، وفهم قديمه / ٦٢/ وحديثه، رمى بأقلامه ودواته، وكمّ جميع أدواته.

إلى[١] الأمير نجم الدين بن مصال:

كتب هذه الأحرف عبد مولاي المفضّل الأمير نجم الدين، علم الوحدين ـ أطال الله بقاءه، وجعله من كل سوءٍ وقاءه ـ ومن مربط صدره من خيول الشوق جواد لو ركبه ضحوةً من باب النصر قاتل معه الحلبيين قبل صلاة العصر، فلا والله ما شوق رجلٍ من أبناء الملوك طلعته كالشمس عند الدلوك[٢] له نضرةٌ ونعيم، وهو بالرياسة زعيم، لبس الخزّ والأجروان، وربي في حارة برجوان[٣]، بحيث يناله من القصر بهجة أنواره، ومن الكافوري نسيم نوّاره، فيضيق مربطه بالهماليج، ويزهو مطبخه بالأباليج[٤]، لا يعرف طعم البوس، ولا يدري ما خشونة الملبوس، يرتاض في طرفي النهار على شطوط الأنهار، وينام في الليل مع الحور بين الترائب والنحور، وينصرف عند المقيل إلى العارض الهطيل، في ظلٍّ ممدود، وطلحٍ منضود، وفاكهة[٥]، وماء مسكوب، فعبّر بهذه الأحوال مدّة من الأحوال، إلى أن صرفَ الدهر إليه عنانه، وصوّب إلى صدره سنانه، فحذفَهُ بيدهِ الشمال، وألقاه إلى العدو إلى بلد الشمال، بحيث لا يعرف قراراً، ولا يذوق النوم إلاّ غراراً، ولا ينزع له ساق عن قدم، ولا يشرب الماء إلا بدم:

يـقـارع أتـراك ابـن خـاقـان لـيـلَـهُ إلـى أن يـرى الأصـبـاح لا يـتـلـعـثَـمُ
فـيـصـبـح مـن طـول الـجـلاد مـخـبّـلاً وكـان قـديـمـاً دائـمـاً يـتـنـعـمُ

فعوّضَهُ الله عن لباس المعتق الجديد بلباس الحديد[٦]، وعن عمائم اللاذ

---

(١) منامات الوهراني ص٧٥.
(٢) الدلوك: وقت العصر.
(٣) حارة برجوان، منسوبة إلى برجوان أحد خدام القصر أيام العزيز بالله الفاطمي، ثم صار مدير مملكة الحاكم بالله (النجوم الزاهرة ٤/ ٤٨).
(٤) الأباليج: نوع من الأطعمة.
(٥) في المنامات: فاكهة دكوب.
(٦) في المنامات: ثوب الحديد.

بطراطير الفولاذ، وعن أكل الفراريج بلحوم الجرادين والبراذين، وعن شمّ الرياحين الطريّة إذا وافتْ، بروائح المنزلة إذا جافتْ، وعن سماع الطيور الأنيقات بفقع أصوات المنجنبيقات، وعن تقليب متاع البزاز بالتقلّب تحت قلعة إعزاز، وعن مقابلة تجار الدكاكين بمفاركة السكاكين، يظلّ نهاره عرضاً للهام وللجيش اللهام:

وإذا غفا سلّت عليه سيوفها الأحلام / ٦٣/ فضج من عمل البيكار[١]، وانقطع إلى الوسواس والأفكار[٢]، فذكر يوماً منزله وداره، وهو في أعمال مدينة دارة، [ومن][٣] إلى تلك الصفف والمجالس، وهو قريب من مدينة بالس[٤] وتصور الطبقة والروشن، وهو على سطح جبل جوشن[٥]، وتخيّل مرتعه وحماه وهو في الشرق من مدينة حماة، فتمنى أن يطير إلى تلك الأوطان من تل السلطان[٦] وأن يثبْ من باب الجابية إلى رأس الطابية، ثم تصور المسافة الطويلة دون باب زويلة، وأنشد:

أحنّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم   وأين من المشتاق عنقاءُ مغربِ

فتصعَّدت حينئذٍ زفراتُه، وتضاعفت حسراتهُ، فأكبَّ على تغصيص يديه، وبكى حتى خرّ مغشِيّاً عليه، بأشدّ من شوق الخادم إلى لقائه، وتطلعه إلى ما يردّ من تلقائه، فيسأل الربّ الذي هو بالإجابة جدير، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير، أن يمتعه بنظره عن قريب، إنه سميع مجيب[٧]، ولا يعتقد المولى أدام الله عزّه، إن الخادم أساء في صدر هذا الكتاب إليه، ولا وصفه بالحال الذي هو عليه، لعلمه بأنه عنده من المحبّة لسلطانه، ما يسليه عن أوطانِهِ، ومن الغرام بأميره ما يلهيه عن سميره، وأن حديثه أحبّ إليه من الخدم السنيّة، وملازمته أشهى إلى قلبه من العيشة المرضيّة، ولا شك أن أسعد الناس رجلاً يتصبح بوجه الملك الناصر، ويقبّل يديه التي هي كالعناصر، ويخدم ركابه الذي تتشرف بخدمته الأملاك، وتمتثل أوامره التي تنفذها الأفلاك، فيسأل الذي جلّت قدرته أن يمتعه بأطول الأعمار، ويبسط له خدّ كلّ معاند جبّار بمنّه وكرمه. كان عبد مولاي الأمير أدام الله عزّه قد أخذ نفسه فيما مَرَّ من قرائن هذه الرقعة بلزوم ما لا يلزم. فمرّ في ذلك الهذيان مثل الفرس الجواد، إلى أن عنَّ له أن يضيف إلى ذلك فصلاً آخراً منسوقاً على ذلك المنوال، يشرح فيه قصته مع ابن ظفير، وما دهي به في ذلك العام،

---

(١) البيكار: الفرجار، كلمة فارسية.
(٢) بعدها في المنامات بيتان من الشعر.
(٣) الزيادة عن المنامات.
(٤) بالس: مدينة بالشام بين الرقة وحلب.
(٥) جبل جوشن، يطل على حلب في غربها.
(٦) تل السلطان: موضع بيته وبين حلب رحلة نحو دمشق.
(٧) بعده في المنامات بيت شعر.

فوالله ما لحق أن يمرّ بخاطرهِ مروراً حتى يبست الأنامل ونشف اللسان، وجمد الخاطر وتبلّد الحسّ وانقلب الكيموس[1]، وصعدت / ٦٤/ الصفراء إلى دماغه، فاستحكم الفساد، وبقي بعد ذلك ثلاثة أيام يتكلّم بكلام، مخبط غير مفهوم، وهو إلى الآن في عقابيل ذلك، ألا ترى أنه قال البارحة لجماعةٍ من جلسائهِ الذين يبيتون معه: منكم من يحفظ قول النابغة الذبياني في سيف الدولة [بن] حمدان لما شتمه المعتصم بمحضر أبي هريرة رضي الله عنه:

جزاك الله يا بن ظفير عنّي ... وأطعمك الهريسة بالقرينِ
قعدت على المطارف والحشايا ... فلا غثّ لديك ولا سمين
وجئت إليّ بالأسحار تسعى ... فلا ذهب تركت ولا قماشا
نصبت عليَّ يا خواف بظراً ... بصحن حلاوةٍ من سمّ موتِ
فأشمتَّ الأعادي بي قسراً ... ولا سيما أبو اليمن الكنيدي
يعيّرني ويضحك من بكائي ... كأن الدهر أعطاه الأمانا
فأصبحت كما كنتُ نحساً ... أكدّي الناس بالشعر الركيك
أكدّيهم بشعرٍ مثل هذا ... فيعطوني الخرا وسط الذقونِ
وأرجع للنساخةِ من جديدٍ ... وهذا بعد ما ضعفت جفوني
فيا لهفي ويا حزمي على ذهيبٍ ... أصولُ به على الدهر الخؤونِ
لقد شادوا بني شادي بنائي ... بعشرات المواهب والمئين
وقد ملأوا من النعمى جرابي ... فقطّعه الحراف على جبيني
برامكة الزمان، بحارُ جودٍ ... بدور التمِّ آساد العرين
لقد منّوا عليّ وخلّصوني ... من الأيام والرزق الحرونِ
ولكن الحراف صديق بختي ... يطالبني مطالبة الديونِ
لو أن الناصر الملك المرجّى ... حليف الجود فتّاح الحصونِ
يخلّصني من ابن ظفير يوماً ... سجدتُ له على مرّ السنين

ثم مال إلى الكيس الذي فرّغه ابن ظفير في كمّه، وفيه الدنانير، وتركه فارغاً، فملأه الخادم بفلوس النحاس ومثاقيل الرصاص، ورؤوس المسامير، حتى صار مزبطرّاً مثل ما كان، ثم أضْجعهُ معه في الفراش، وضمَّهُ إلى صدره، وقال: لا إن / ٦٥/ شاء الله ما ضاع لي شيء، وهذا رحلي مع الشيطان، أحياه الله أعقل من أن يوسوس إلى

(١) الكيموس: لفظ سرياني يراد به الخلط.

بإتلاف مالي، وعندما ضعفت القوة وكثرت العائلة، ولا يزال يتلهّى بلحيته حتى يثور إليه عقله، وهو يعلم أن هذا هو المحال، فيخرج الكيس من الفراش، فيمدّه بين يديه، ويقعد عند رأسه مثل القتيل وينشد:

سراة الليل ما فعلوا أحبتنا الذي رحلوا
تُراهم ذاكرين لنا وإلاّ غيرنا وصلوا
لقد شطّ المزار بهم فلا كتبٌ ولا رُسُل
وقد شفّ الجوى كبدي وقد ضاقت بي الحِيَلُ

يكرر هذه الأبيات ويبكي ويلطم ساعة، ثم يفرغ الكيس بين يديه، فيقع الخرا في جوف لحيته، فيضرط بفمه ضرطة صافية، ويقول لنفسهِ في أول شارب لقيت، ثم يشيل الكيس فارغاً بيده ويقول مثلما تقول النائحة:

هذه العمائم عندي أين الرجال أوّاه[1]

ويكرر هذا ساعة ثم يبكي ويقول:

دياري غاب سكانك وهدَّ الدهر أركانك

ثم يكرر هذا ساعة، ويقول: دنانير كلموني، دنانير كلموني، دنانير كلموني، يكرر هذا ألف مرّة، فمرّت به عينهُ، فرأى فيما يرى النائم، كان المولى صلاح الدين ثبت الله سعده، واقف على باب سعاده، مستند إلى الباشورة[2]، وأبو الفتح ابن القابض عن يمينه، وأبو سعيد البدليسي وأبو نصر التكريتي[3] عن يساره، فجئت حتى وقفت بين يده، قرأت عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ إلى آخرها، فقال حفظه الله أيش حاجة الوهراني الزنديق؟ فقلت: من يصلّي[4]، ويصوم الخميس والاثنين، ويقرأ كل يوم السبع، ولم يتجاوز إلى مكروه ما يكون زنديقاً. فقال سلمه الله: لو رأيتك تمشي على الماء، ما رأيتك إلاّ في صورة زنديق، فقلت له: المستعان بالله، ومالي في القضاء حيلة، وأردت الانصراف فقال: ارجع /٦٦/ وأنت برصيص العابد، أيش حاجتك؟ فقلت: يا مولاي، جميع ما أنعمت به عليَّ أنت وقرابتك. أخذهُ منّي أين ظفير في ساعةٍ

(١) بعده في المنامات: ثم يكرر هذا، ثم يبكي ويقول: (حزينة ما نرى أبداً. تسلّى أو فمت كمدا).
(٢) الباشورة: العتبة.
(٣) أبو نصر التكريتي، يحيى بن جرير، طبيب، له اشتغال بالفلك. من أهل تكريت، وسكن بغداد، وصنف كتباً في الملك والرياضيات، توفي سنة ٤٧٢هـ.
(٤) في المنامات: يصلي الخمس.

واحدة، فقال أيّده الله: أطعمك شيئاً من حلاوته؟ فقلت له: الكثير الطيب، فليته كان أخّر رزقي، فقال: صدقت، هي شبكته التي يصطاد بها أموال المدابير، ثم التفت إلى ابن القابض فقال: رح معه إلى ابن الأصبهاني يدفع له مائتي رمانة ملّيسي، وندفع له نحن من سنجار مائتي رمانة أخرى حتى يتخلّص، فرحنا إلى ابن الأصبهاني، فدفع لي مائتي رمانة مقيرّة، فقلت له: ما هذا الذي عليها يا أبا الحسن؟ فقال: هذه أوساخ الناس وما أظنّك تأخذها وهي على هذه القضيّة، فقلت: آخذها، ولو كان فيها خراهم، ثم قبضتها منه وانتبهتُ، ففسَّرتُ المنام على خلاصي من ابن ظفير على يد الملك الناصر ـ خلَّد الله ملكهُ ـ واستخفّني الطمع على أن أكتب هذا الكتاب وهو:

ـ أدام الله علوّه ـ يعلم أن العرب قالت في أمثالها: لا عطر بعد عروس، وما حسن يدُ هندٍ في السوار بعد السبعين، وإذا صر الغش، فما تصنع دعد بالشنوف[1]، وأما أمثال العامة إنما تخبا [الدموع][2] للشدائد، وما خدمك الوهراني طول هذه المدّة إلا أن يستعين بك في وقت الشدة، اللهم إلا أن تكون حقدت عليه كونه يغلبك في الشطرنج كل وقت، فهو يتوب إلى الله تعالى من ذلك، وما يرجع يغلبك أبداً، وربّما أخذ منك الحظ ويتغلّب لك في الدسوت القائمة، ويندسّ في رحم عياله، كان عند ابن ظفير خمسمائة دينار، أخذ منها مائة تبقى عنده أربعمائة، وهو يقنع منها بمائتي دينار، ويجعله في حلّ من البقيّة، إن رأيت أن تتفضّل بحسن توصلك، وفاضل عنايتك وسعادتك وتشفع له عند الملك الناصر ـ أدام الله أيّامه ـ بأن يوقع له بمائتي دينار على ديوان الزكاة بالقاهرة إنعاماً عليه وإحساناً إليه، فهو المقصود، ونهاية المأمول، وتكن من المولى ـ أدام الله عزّه ـ كمن نجاه من الموت واصطنعه من القتل، وخلّصه من الشَّنق، وأنزله من الصلب، واستوهبهُ من ضرب الرقبة، وافتكّه من الأسر وأعتقه من العبودية /٦٧/ واستنقذه من ماضغي الأسد. وانتزعهُ من التمساح، وقلعهُ من شدق التنين، ونجّاه من الحريق، وخلَّصه من الغرق، وأطلقه من الهاوية، وأدخلهُ الجنّة [ونجاه][3] من النار، ويكون الوهراني بعد هذا العبد القنّ الملازم لباب دارهِ حتّى يموت، وكان الخادم قد عزم على مخاطبة القاضي الفاضل، فذكر قول المتنبي:

أتــيــتُ فــؤادهــا أشــكــو إلــيــه   فــلــم أخــلــص إلــيــه مــن الــزحــام

فتوقف عن ذلك، ثم حمله الحرص والطمع على المكاتبة، فلما تناول القلم،

---

(١) في المنامات: وما تصنع وعدد بالشنوف إذا حر النعش.

(٢) الزيادة عن المنامات. (٣) الزيادة عن المنامات.

وكسر الورقة، أحسَّ في عظامِهِ بالفتور، وأصابه الزمعُ والهيبة، مثلما يصيب الحمار الصغير إذا واجهَ الأسد الكبير، أو الرجل الجبان إذا لاقى البطل الشجاع، فتطلس ذهنه، ونفر عنه ما كان يأتيه من المعاني الرقيعة في الألفاظ السخيفة، ثم ثاب إليه عقله بعد ذلك فقال يخاطب نفسه:

أيّها الرجل الرقيع، بأيّ شيء تريد تخاطب هذا الرجل الرئيس؟ ما أنت من النظراء ولا من الأكفاء، فتكتب إليه تسأله عن حاله، وتستطلع أخباره، فلو فعلت ذلك لكنت من الأغبياء المجانين، ولا أنت من خاصته وجلسائه فتكتب إليه تصف الشوق المبرّح والحنين، فلو فعلت هذا لقال: هذا الكلام غير صحيح، قد كان معي في بلد واحد، ما كنت أراه في خدمة الباب إلا مرّةً واحدة في الزمن الطويل، ولا أنت من حاشيته وخدامه، فتكتب إليه تعرّفه بأخبار البلد، وما جرى فيه من العجائب من الخواص والمقدمين، فلو فعلت ذلك [قال: ايش][1] هذا الانبساط البارد؟، ومن سأله عن هذا الحديث؟ [هذا][2] والله فضول عظيم، ومن سأله عن هذا الحديث فتكتب إليه تسأله أن يصطنعك بعنايته، وتدبير أمرك من ابن ظفير، فيكون ذلك تتمة السعادة، أو فعل يقارنُهُ التوفيق، ألا تراك سلّمت عليه في القاهرة فزوى وجههُ عنك، كأن الشمس طلعت من جبينك، أو كأنك شاركت الكندي في قتل ابن صورة، وبني عثمان في مجاهدتها ومجاهرتها بأسباب العداوة، وعلى رؤوس الأشهاد.

وصل[3] كتاب المولى الأمير الأجل الصاحب تقي الدين مصطفى أمير المؤمنين أطال /٦٨/ الله بقاءه، حتى يتوب المخلص من القيادة، وينقطع المعتدي إلى العبادة[4]، وأدام عزه ونعماءه، حتى يستقر[5] المولى في موضع واحد، ولا يبقى مصيات باطني ولا لأحد بألفاظ أحسن من فتور الألحاظ، ومعاني أحسن من ترجيع الأغاني، وكان ذلك أجمل في عينه من الروض غبّ السحاب، وألذّ من الصفع بخفاف القحاب، ولا والله إلا أعذب من محادثة السمّار، وألذّ من مماكسة الخمار، لا والله إلا أحلى من مطابقة الزامر للعوّاد، وأشهى إلى النفس من مواعيد القوّاد، فطرب فلان[6] على كتابه، ولا طرب فلان الفلاني[7] لما اجتمع بفلانة في دعوة فلان ليلة السبت

---

(١) الزيادة عن المنامات.
(٢) الزيادة عن المنامات.
(٣) قبله في المنامات ص١٠٣: وكتب إلى تقي الدين.
(٤) في المنامات: الزهد والعبادة.
(٥) في المنامات: يقر قرار.
(٦) في المنامات: المملوك.
(٧) في المنامات: هلال الدولة.

العشرين من محرّم هذه السنة وغنّت له بالدفّ:

ما غيّر البعد ودّاً كنتُ أعْرِفُه ولا تبدّلْتُ بعد الذكر نسيانا
ولا ذكرتُ صديقاً كنت آلفهُ إلاّ جعلتُك فوق الكلّ عنوانا

فإنه لما سمع ذلك قام وقعد، وصاح ولطم، وفتل شعر عنفقته، وأدار شربوشه[١] على رأسه، وخرق غلالته طرح خمشتني قطيطتي كانت عليه ـ وجرى إلى الشمعة ليحرق لحيته فيها، فلم يترك لذلك، فحلف بحياة الجماعة ليسكبن قدحهُ في سرتها، ويتلقّاه بفمه من [بين] أشفارها، بحيث تكون لحيته ستارة على باب ثقبها، فلم يتركه عشيقُها في هذه الأيام لذلك، فحلف برأس الملك المعظم ليشربن بخفها ثلاث دركانات، فقالت: هذا هيّن، ولو أردتُ أن أسقيك بالخفّ ثلاثمائة في ساعة واحدة فعلت، وأحن من هذا كلّه، لو كان لهذا الطرب ثمرة معجر دبيقي أو وثوب حريري، فتغافل وتساكر. ولا زال يعبّ في الخف إلى أن وقع إلاّ طرب ابن ريس فلان ابن فلان في دعوة فلان ليلة الثلاثاء، العاشر من صفر لما غنت له فارس الشام:

أرى بيت لُبنى أصبح اليوم يُهجَرُ ومن أجلِ لبنى ذلك البيت يُشكَرُ
لقد كان فيها للأمانةِ موضعٌ وللسرّ كتمانٌ وللعين منظرُ
فإن تكن الدنيا بلبنى تقلَّبتْ عليَّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ

/ ٦٩/ فإنه لما سمع بذلك طرب طرباً عظيماً، وضرب بعمامته وجه المغني، وخلع ثيابه، وبقي عرياناً بالفقس. وأقبَل عرياناً يمشي على أربعةٍ، وفي ثقبهِ جزرة ريحان. وهو ينبح ألواناً من النباح، ويقول: أنا كلب بن كلب، اصفعوني بالنعال لا والله، إلا طرب التاج بن المقلع لما شرب في دعوة فلان في الجزيرة ليلة الأحد النصف من صفر وغنّت الحنونيّة[٢] صوتها المشهور الذي أتْلفتْ عليه الأموال، وخربتْ به البيوت العامرة:

أنا البازُ المطلّ على نميرٍ أتيح له من الجوّ انصبابا
فغضّ الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فلم يبق في المجلس من المصريين أحد إلا خرَّ ساجداً على وجههِ، وأما فلان ابن فلان فإنه لما سمع ذلك طار عقله، وزهق لبّه، وأقبل يصيح صياح الديوك والغربان، وينهق نهيق الحمير والبغال، وأقسم برأس فلان ليقبلنّ جحرها، وليمصنّ بضرها، وأمسكتْ له حتى فعل بها ذلك بعد أن حشى في كسّها عشرين ديناراً، وفي ثقبها عشرة

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة معربة عن سربوس، أي غطاء الرأس.
(٢) اسم مغنية.

دنانير، لا والله، إلا طرب الصوفية في دعوة ابن زين التجار[١] في ليلة عيد الأضحى من هذه السنة، وقد حضر عندهم مرتضى المغني معشوق العماد الكاتب[٢]، وقد أسبلوا شعره على أكتافه، وأمسك أبو شعيب الشمعة بين يديه، وهو يغني لابن رشيق القيرواني:

فتورُ عينيك ينهاني ويأمرني ... وورِدُ خدّيك يُغري بي ويغريني
أما لئن بعت ديني واشتريت به ... دنيا فما بعتُ فيك الدين بالدونِ
سبحان من خلقَ الأشياء قاطبة ... تراه صوّر ذاك الجسم من طين
أستغفر الله لا والله ما نفعتْ ... من سحر مقلتِهِ آيات ياسينِ

فإنهم لما سمعوا ذلك هاجوا وماجوا[٣]، وزعقوا ونعقوا، وقفزوا إلى السماء، ونزلوا إلى الأرض، وضربوا بأرجلهم حتى انخسف ببعضهم الموضع الذي كانوا فيه، فنبشوا تحت الرّدم أمواتاً فغسلوا وكفنوا ودفنوا، وبعضهم يرقص لا يعلم مما جرى حرفاً /٧٠/ واحداً. لا والله إلاّ طرب فلان[٤] لما حضر دعوة ابن العميد وغنى له الكيكي:

نسيمه يتلقاني بزورته ... مبشّراً لي به من قبل يلقاني
سألته قبلةً تحيي النفوس بها ... فضمّني ضمَّ مشتاقٍ فأحياني
يا معشر الناس ما أحلى شمائله ... لو كان ينصفني لو كان[٥] يرعاني

فإنّه لما سمع ذلك طرب طرباً شديداً، ونتفَ جانب لحيته الأيسر، وقام إلى باب المجلس فلطم رأسه باللوالك إلى أن تقطعت اللوالك، وقفاه، ثم حَلَفَ ليركبنّ الكيكي على قفاه، ثم لا يبرح حتى يشرب قدحاً ويغنيه صوتاً ففعل به ذلك وما فرغ حتى كاد يموت.

فصل[٦]: وبعد ذلك كلّه فالذي فعل المولى تقي الدين أدام الله ظلّه من لقاء الجمع الكبير بالعدد القليل عين الخطأ، وضد الصواب، لأن المغرّر ليس بمحمود، وإن سلم فالله، الله، الحذر ثم الحذر، لا يكون لها مثنوية أبدا، ولا يرجع المولى يلقى ألف وستمائة فارس، إلا أن يكون في خمسة وثلاثين ألف فارس من خيار أصحابه بشرط أن يكون خيّالة العدوّ مثل حمزة الزامر، وعثمان الجنكي، وأبي علي العوّاد، وعزيز البربطي، ومثل هؤلاء الفرسان، ويكون أصحابك أنت مثل فلان ابن فلان

---

(١) ابن زين التجار: أبو العباس بن المظفر بن الحسن الدمشقي، من علماء الشافعية، درس بالمدرسة الناصرية، توفي سنة ٥٩١هـ. (النجوم الزاهرة ٦/ ٥٥).
(٢) بعده في المنامات: الأصفهاني.
(٣) بعده في المنامات: وصاحوا وباحوا.
(٤) في المنامات: الرضى بن سلام.
(٥) في الأصل: لكان.
(٦) المنامات ص١٠٨.

وفلان ابن فلان الذي ما اجتمع المملوك بواحدٍ منهم قط إلا تجشأ[(١)] في وجهه سكاكين وسيوف، ويزعم أنه يقرقش الحديد، والرأي عند المملوك الوهراني غير هذا كله، وهو أن يستقيل من الخدمة وينقطع في القابون، وينكث التوبة، ويترك الصلاة، ويجمع علوق دمشق، وقحاب الموصل، وقوادي حلب، ومغاني العراق، وتلذّذ حواسّك الخمس، ولا تبصر إلا الوجه المليح، ولا تسمع إلا المعنى المطرب، ولا تشم إلا الذكيّ الرائحة، ولا تذوق إلا الطعام الطيّب، ولا تلبس إلا الثوب اللين، وتقطع بقيّة عمرك على هذه الحالة، ويتشكل في جميع ذلك على عفو الغفور الرحيم، وتعلم أن يوماً واحداً من أيّامك في دمياط، أو ساعة من وقوفك يوم الرملة يكفر عنك ما أشار عليك به المملوك، والسلام، هذا الذي أشار به عليك / ٧١/ المملوك هو المحك والمعيار، وهو الفرق بين الصحة والمرض، إن قبله المولى وعمل به، علم المملوك أن المولى صحيح المزاج، سالم العقل، نقيّ البدن من الأخلاط السوداوية، وإن ردّ هذا الرأي، ولم يقبل هذه المشورة، ولعن وهران وكلّ من جاء منها، علم المملوك أن المولى منحرف المزاج، قد غلبت عليه الأخلاط السوداوية، فيأخذ على بركة الله وعونه اهليلج كابلي وأسود من كل واحد درهمين افتيمون اقريطي عشرين درهماً بسبايح وسنامكي من كل واحد عشرة دراهم غاريقون وخريق أبيض، وملح هندي من كل واحد خمسة دراهم أيارج فيقرأ خمسة عشرة درهماً، يشرب الجميع آخر الليل، ويقطعه بعد العصر، الغداء مرقة فروج بأسفيدياج نافع إن شاء الله تعالى، وإن فعل المولى هذا، ونقّى بدنه من السوداء، علم أن نصيحة الوهراني هي الصواب والسلام.

إلى مجد الدين بن المطلب وهو بالشام المولى تقي الدين[(٢)]:

عبد مولاي الوزير الأجل السيد الأوحد، مجد الدين شرف الإسلام شمس الخلافة، بهاء الملّة، أوحد الرؤساء، سيد العراقين، أطال الله بقاءه، وأدام عزّه ونعماءه، وكبت حسدته وأعداءه، كتب هذه الأحرف على حال عجلة شديدة، وعنده من الأشواق والحنين مثل ما عند أهل الفيوم[(٣)]، وإنما علم المملوك حقيقة ذلك لأنّه صعد إليها في هذه الأيام ليتفرج على ضيعة يوسف بن يعقوب، ويبصر آثار ابن أخي يوسف بن أيّوب، فشاهد من محبّة أهل البلد للمولى الصاحب المخدوم، ما يجوز

---

(١) في المنامات: تنخّع.
(٢) منامات الوهراني ص١٥٢، وفيه: وكتب إلى مجد الدين بن عبد المطلب وزير تقي الدين.
(٣) بعده في المنامات: إلى المولى تقي الدين.

الحدّ والصفة، فلو أن امرءاً عُبد من دون الله لعبدوه، ولما قرب الخادم من مدينة الفيوم، وأبصر المركب الذي طلع عليه لا يسير إلاّ في ظلّ النخيل، وبين أغصان الأشجار والكروم، طرب الخادم على حنين الدواليب وتغريد الأطيار، فافتتن وفضّلها على كل موضع مليح أبصره في الزمان، ثم لما نزل في المدرسة، وحط رحله في الروشن العالي الذي على النهر الكبير، عاشت نفسه باستنشاق ذلك النسيم، ثم إنه دخل الدار الكبيرة، والدار الصغيرة، وتفرّج على علوّ الهمّة، وحسن / ٧٢/ الترتيب، ثم إنه مشى وحده إلى الحمام الصغير الذي في زاوية الدار فاستطاب الموضع لخلوته، وشدّة بردِهِ في قائلة نصف النهار، فجلس فيه مفكراً ومعتبراً بما كان فيه من الأنس وما صار إليه من الوحشة، فخنقته العبرة شوقاً إلى صاحب المكان، فلم يشعر إلا والحائط الشمالي قد انشقّ، وخرج منه شخص عجيب الصورة، وليس له رأس ولا رقبة البتة، وإنما وجهه في صدره ولحيته في بطنه، مثل بطنه الناس. في يده اليمنى زربول[1]، وفي يده اليسرى شمشك عتيق، فقمت إليه هيبة له، وخوفاً منه، وقلتُ له من أنت يرحمك الله. قال: أنا أبو خطرش من بني الدردبيس، الساكن في هرم ميدوم، جاوبني على كل بيت ألقيه عليك، وإلا قطعت قفاك بهذا الزربول، فقلت له: لست بشاعر والله يا سيدي، ولا أجوز في هذا الباب، فقال: تكذب في جوف لحيتك أنا أعرفك تكدّي الناس بالشعر منذ ثلاثين سنة في هذه الديار، فقلت له أنا أسيرك افعل ما تريد، قال: أجِزْ وأوْجز:

لمن الديار بساحة الفيّوم؟
فقلت: ضحك الصدى فيها لنوح البوم

فقال: وتبدلت من بعد عيدٍ كالمها
فقلت: وولائدٍ كاللؤلؤ المنظوم

فقال: وبسيّدٍ من آل شادي أروعٍ
فقلت: مثل الحسام الصارم المثلوم

فقال: بنواعب الغربان تضحك دائماً
فقلت: وحمائمٍ تبكي لفقد حميم

فقال: بكت السماء لبعدهم من بعدهم
فقلت: بسحابةٍ منهلّةٍ وغيوم

---

(١) الزربول: نوع من الأحذية، معرب.

فقال: طلبوا دمشق فَعُوّضوا عن أرضنا
فقلت: بـالـنـيـريـن وقـصـر أمّ حـكـيـم
/ ٧٣/ فقال: وبعنبشا ودموشةٍ وصنوفرٍ
فقلت: بـصـري وصـرخـد فـي جـوار الـروم
فقال: وسألتُ رسم الدار لما جئتها
فقلت: وجـمـيـعـهـا كـالـمـعـجـز الـمـرقـوم
فقال: أي الملوك سَمَتْ بهم همم العلى
فقلت: حـتـى كـسـاك بـأطـلـسٍ وطـمـيـم
فقال: قالت تقي الدين أعني ذا الندى
فقلت: عـمـر بـن شـاهـنـشـاه ردّ رسـومـي
فـقـال: وإلـيـه أكـبـادي تـطـير تـشـوّقـاً
فقلت: وعـلـيـه أجـفـانـي ذوات كـلـومِ

فقال الشيخ أبو خطرش: أحسنت والله، أنت إذا كان هذا شعرك على البديهة فكيف يكون على الروية؟ مالك ما تتعانى الشعر؟ فقلت: ما أريد أن أتعب، أنا أعمد إلى أحسن قصيد للشعراء المتقدمين آخذها، وأمدح بها، وأقضي حاجتي، وإن كذبني واحد حملت حملت الكلاب على عياله، فقال: دعني من هذا، ما فعلت في غنيماتك التي أمر لك بها المولى تقي الدين؟ فقلت له: يا شيخ أبا خطرش طلبتها من الخولي ثعلب، أن يعطيني إياها سِمان الظهور كبار اللوايا مثل علوق الإسكندرية، وقحاب القاهرة، فأعطاني إياها مثل القحاب[1] المهجورين وعباد الله الصالحين، الذين يصومون النهار ويقومون الليل، فقال: وما السبب في ذلك؟ فقلت له: كان الفقيه البهاء أراد أن يشتريهم مني بالدون الطفيف حتى يأخذهم هو من غنم المولى بشمورية[2] كبار، فلم أجِبْهُ إلى البيع فانحسني كما ترى، فقال: سعادة المولى غلبت عليه، والله لو اشتراهم منك لأخذ كل فحلٍ في غنم الأمير فقلت له: صدقت يا أبا خطرش ما تقول في الفقيه عبد الله، فقال: إلى الساعة ما أبدلت له خبراً كلفته كبيرة / ٧٤/ ودخله قليل، قد حصل بين حاذف وقاذف، فأما الحاذف فالقاضي العجمي، قد تخيّل منه فهو يرميه في كل يوم

---

(١) في المنامات: من العشاق.
(٢) بشمورية: نسبة إلى بشمور، كورة بمصر قرب دمياط، وفيها قرى وريف وكباش ليس في الدنيا مثلها عظماً وحسناً. (معجم البلدان).

بداهية، وأما القاذف فالفقيه بهاء الدين قد ثقل عليه مكاناً من يوم تسلّم هذه المواضع لو قدر عليه لقطعه أرباً وأرباً. ألا ترى أنه يستعير منه الآلات التي للوقف فلايردّها عليه، ويأخذ منه للفقهاء الذين طلعوا منه ديناراً لكل واحد في رأس كل هلال ولا ينطق بكلمة واحدة، فقلت له: لقد سلم وقف الفيوم ألا يرجع الأمر فيه فيلحقه بوقف منازل العز الذي دخله في كلّ سنة تسعمائة دينار والنفقة عليه في جميع أحواله ثلاثين ديناراً ويأكل الفقيه البقية خضماً وقضماً، لا يخاف من الله، ولا من الناس.

فقال الشيخ أبو خطرش: سمعت الناس يقولون: إنه يدفع للصاحب في كل سنة خمسمائة دينار يسكنه بها عنه، وإلا فهو أذكى الناس، وقد بلغهُ أن المدرسة ليس لها مؤذن ولا إمام.

فقلت له: حاشَ لله، وأعوذُ بالله، لا والله ولكن غلط غلْطَةً عظيمة، وردّ النظر إليه وأشْهَدَ عليه الشهود بذلك، وأخذ الفقيه على ذلك خط خليفة بغداد في هذه الأيام، فما بقي يلتفت إلى المولى ولا إلى غيره.

فقال الشيخ أبو خطرش: أنا أقول لك [السرّ](١) في هذا الأمر.

فقلت له: وما هو؟

فقال: اعلم أن الله تعالى ما خلق موضع منازل العزّ والروضة إلاّ للفسق والفساق فما يقدر المولى تقي الدين يعاند الله في قضائه ويجعلها للعلم والعلماء، قد اجتهد جهده، وما قدر يخرجها عن قضاء الله وقدره، ثم إن الشيخ أبا خطرش تحوّل للرواح.

فقلت له: تعاهدني يا أبا خطرش في منازل العزّ.

فقال: السمع والطاعة وغاب عني، فما رأيته إلى الآن قد انقطعت عن الخادم، كتب المولى مجد الدين وأرجو أن يكون ذلك لخيره وقد استشعر المملوك من ذلك هذا مع اتصال كتبه إليه مع كل نجاب(٢)، وكان قد سمع أنكم ترجعون إلى ديار مصر، فنذر لله تعالى صيام شهر تموز ثلاثين سنة إن صحّ هذا الكلام، فأما غير ذلك، فإن الموضع /٧٥/ الذي يسكن فيه المملوك لحسن سفارتك وبركة توسطك وسعادتك، قد تداعى جميعه بحيث أن يكون الساكن فيه مرتكباً خطراً عظيماً، وقد سألتُ الفقيه أن يساعدني في العمارة فلم يفعل، وتنفس أنفاساً ميشومة دغله، وأنا فما يمكنني أن أعمره بجملة كبيرة، وإذا فرغت منه يقول: قم أخرج، وما أقدر أقول له كلمة، وقد سألته أن يحكرني إيّاه، وقصدته بالناس وتشفعت إليه بكل أحد فلم يفعل وقد تزايد حرصَهُ وكلبُه على

---

(١) الزيادة عن المنامات.

(٢) نجاب: ناقل بريد.

الدنيا أضعاف ما تعرف، وقد اشتهيت على الله أن يحتال لي حيلة يحكرني بها الموضع الذي في يدي والسلام.

قد حفر في هذه السنة خليجاً [وساقه][١] إلى ضيعته. فبلغ ارتفاعها ألف دينار لأجل ذلك، ولكنّه قد كان مرّ بخليجه في أرض لأيتام ابن اللهيب، فسأله وكيلهم أن يعمل لها قنطرة بفلقتين نخل كل يساوي خمسة دراهم يعبروا عليها إلى أرضهم، فلم يفعل، فشكوه إلى السلطان فأمر بسدّه عن أرضهم فجرى عليه من الفزع على الضيعة مثل ما تعرف وأشدّ، وأما حقيقة أخبار المولى فما نريد نسأل لأنا نعرف ذلك بأفعال دون الأقوال، والذي في القدر المغرفة تخرجه، وإذا استقرت القاعدة على شيء سمعنا به.

لولا العجلة لكتبت إليه من العجائب والغرائب ما يرقصه طرباً والخوف من آفات الكتب أشد إن رأيت أن يظهر المولى الصاحب من هذا الكتاب على شيء من أخبار أبي خطرش، غير الشعر فافعل، فإنه يحب البهاء محبّة مفرطة، ولا يقال لمن يحب فمن يحب إلا ما يجب، فالله تعالى يكشف له ما هو عليه من الخيانة ورقّة الدين، ويكشف هذه الغمّة على يديك والسلام الأتم عليك ورحمة الله وبركاته.

أيا[٢] نفحةً أهدَتْ إليَّ تحيّة ... ينم عليها العرف من أم سالم
مشت في أراك الواديين فنبّهتْ ... به كل نشوان المعاطف ناعم
ألا إنما أحكي بدمعي ولوعتي ... بكاء الغوادي وانتحاب الحمائم

/ ٧٦/ وصل كتاب مولاي الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين أطال الله بقاءه، وجعل خادمهُ من كل سوءٍ وقاءه، فكان أحسن من النار في عين المقرور، وأعذب من الماء البارد في صدر المحرور، وتناوله فكان في قلبه أحلى من الدراهم وأنفع لجراح البصر من المراهم، فلما فضّ ختامه وحط لثامه أبصر به خطاً أجمل من غياض الميطور[٣]، ولفظاً أرَقّ من نسيم الروض الممطور، قد استفتحه سيدنا بكل لفظ مذهب، وذهب فيه من التعاظم إلى كل مذهب، وأرجو له ذلك من الله بحسن العون، فإنه يقال إن الفأل مقدمة الكون، على أنه وجد بين جوانح الخادم من نار الشوق أجيجاً، لو أنّ النار التي كلست الكلاسة، واشتملت على الحائط الشمالي، وعرست في العروس وأذَنت بهلاك المؤذنين، وأهلّت لغير الله بدار ابن هلال يكون مثلها، لما

---

(١) الزيادة عن المنامات.

(٢) منامات الوهراني ص١٧، وفيه: وكتب كتاباً وفيه المنام.

(٣) الميطور: قرية من قرى دمشق.

اقتصرت على المقصورة ولا بردتها البرادة، حتى تصحن الصحن، وتنسر النسر وتجرّد القبّة من رصاصها، وتكبها من عراصِها، وترميكم بالخطب الفادح في الخطيب، ويحرمكم إياه في المحراب، فلا ينبري إلى المنبر أبداً، ولو أحفظ ذلك الحافظ ثقة الدين وأغراه بمراثيه إلى يوم الدين، فأين ذات الطوق عن التغريد على هذا الشوق، وأين حمامة النيرين عن النياحة على طول البين، وأين شحرور منين[١] عن المساعدة بالحنين؟ لا والله ما رجل من سادات بني سرايا شرّده عن وطنه الغارات والسرايا، كان قد ربي في السروج، ونشأ بين المروج يتردّد من حصن اللبوة إلى بساتين الربوة، ويرتاض من عين سردا إلى وادي بردى، ويصطبح في سوق آبل، ويغتبق في كروم المزابل، ويقيل في عين جور، ويبيت في الساجور، وهذه المواطن كما علمت رائعة الجنان، ورائحة الجنان فرماه الحظّ بالدهر المنقوص، وطوّحه إلى أرباض مدينة قوص، يتقلّى في حرّ السعير، ويتمنّى خبز الشعير، إدامُهُ البصل والصبر، وفراشُه الأرض والحصير، فأنْحَت عليه الهواجر، في آخر شهر ناجر / ٧٧/ فتمنى على الله ريح صباً تهبّ من نحو بلاده، فهبّت عليه من صحراء عيذاب بكل نقمة وعذاب، فطلعت روحه إلى التراق، وقيل: هل من راق، فمدّ يدهُ إلى الماء ليبرّد كبده مما يكابده، فوجدهُ أحرَّ من ماء الحمام، وزبل الحمام، فتذكّر حينئذ ما خلفه من الربوع، وحنّ إلى تسلسل الماء في النابوع، وإشتاق إلى الجداول الساقية من عيون عرق[٢]، فعظم حينئذ مصابه، وتزايدت أوْصابهُ، وعلم أن سفره عن السفيرة[٣] والكبرى هي الطامة الكبرى، وعدم الصبر والسلوان عن دير سلوان.

وقال في نفسه: أنزى الذي خلقني وبراني، يعيدني إلى جنة الزبداني؟ أتراه يجمع شملي في كفر عامر، بالسادات من بني عامر، أتراني أحرق الشيح والحوذان، عند حورتي ودّان[٤]، تمنيت أن أكون كالقن والقين، وأعبر تحت أبيات بقين، ثم إنَّ أنّة مهجور، وتنفّس عن صدرٍ مسجور، وأنشد:

ألا ليت شعري هل أرى ساعةً[٥] أجرّ ذيلي في ذيول سنير[٦]

---

(١) منين: قرية في جبل سنير من أعمال الشام.
(٢) في المنامات: عرق الساقية.
(٣) السفيرة: ناحية في بلاد طيّىء، وكبرى اسم موضع لم أجد له تعريفاً.
(٤) في المنامات: الذي عند عيون حور بلودان.
(٥) في الأصل: سلعة.
(٦) سنير: جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأس قلعة سنير.

وهـل أرد الـمـاء الـذي عـنـد ديـرِهِ[(١)] أصـيـلاً وحـولـي نـاصـر مـن مـنـيـر

ثم أقبل على لطم خديه، وتعضيض يديه، وبكى حتى وقع مغشياً عليه، بأشد من شوق الخادم إلى لقائه، وتطلعه إلى ما يرد من تلقائه:

والله يطوي بساط الشمل عن كثبٍ حتـى تـرى الـشـمـل وهـو مـلـتـئـم[(٢)]

وإلى هذا الموضع انتهى فشر الكتاب، وهذيان الشعراء، ويريد الخادم أن يطلق يده وقلمه، ويسابق لسانه وفمه، فإنه قد لحقه من الضجر والكلل ما يلحق الجحش الصغير إذا حمل أحمال البغال القرّح، وانضاف إلى ذلك استعجال حامله وتوثبه للرواح فتناول حينئذ كتابه الوارد، وكرر نظره في أنبائه ليجاوب عن الفصول المضمّنة فيه فوجده صفراً من الأنباء خالياً من غرائب أخبار البلد، عارياً من طرائف أحوال الإخوان، قد استفتحه بطلب الثأر من مزاح الخادم معه في كتابه المتقدم إليه من ثلاث سنين في أوّل هذا الكتاب قام الدليل على بطلان قوله إنه نفذ إليه عدّة مكاتبات، لأنه لو كان ما /٧٨/ ادعاه من ذلك حقاً، لما قدم على هذا الفصل شيئاً في أول كتاب نفذه غليانه في قلبه، ثم ينهاهُ أدبه وفضله بعد هذا عن تكرار ذلك المعنى بعينه في أول كتاب آخر. فصحّ بطلان قوله بالدليل والبرهان، وعجب الخادم من يكن ذلك الحقد من قلبه واستيلائه عليه، وثباته له بين الحشا والترائب، لم يخرجه من صدره ضجر القعود في دمشق والبطالة فيها مع الزمان، ولا طول المشقّة وبعد الشقّة إلى العراق. ولا مكابدة الجمالين والحمالين في الطريق، ولا قذارة المساكن والمسالك ببغداد، ولا كرب دخانها وحانها في طرفي النهار، ولا وخم غبارها وآبارها في الأصائل، ولا عيون الماء وسوالف الآرام في سوق الجوهر، ولا دخمسة[(٣)] التجار ومطل الحاكة بالمتاع، ولا تعذّر السفر والرفقة والرجوع إلى الشام، ولا قطع المسافة من الجزيرة والمعشوق[(٤)]، ولا الخوف من غارة خفاجة وسرايا غزيّة، ولا الحذر من عيّاري السواد، وحراميّة الأفرنج، ولا تغيّر الملك والإمارة بالشام، ولا انقلاب الدولة وانتقالها من قوم إلى آخرين، كأنما لصق صدر كتابي في صدره بأشراس، أو كأنما سمّر فيه بمسمار وثيق، وأظنّه لو مات والعياذ بالله قبل أخذه لثأره، لمزّق الأكفان ونبش المقابر، ورجم أهل الآخرة بالحجارة. ولقد فكّر الخادم ليلة وصول كتابه في سوء رأيه

---

(١) في المنامات: دمر. (٢) في المنامات: مأهول.

(٣) الدخمسة، دخمس عليه، لم يبق له ما يريد.

(٤) المعشوق، اسم لكورة بالجانب الغربي من دجلة.

فيه، وشدّة حقدِهِ عليه، وبقي مُتفجّعاً من مطالبته له بالآثار الهزلية، بعد الزمان الطويل وامتنع عليه النوم لأجل هذا إلى هزيع من الليل. ثم غلبته عينه فرأى فيما يرى النائم كان القيامة قد قامت، والمنادي ينادي: هلمّوا إلى العرض على الله، فخرجتُ من قبري أيُمم الداعي إلى أن بلغت إلى أرض المحشر، وقد ألجمني العرق، وبلغ مني التعب والفرق، وأنا من الخوف على شرّ الأحوال، وقد أنساني جميع ما قاسيته عظيم ما أعانيه من شدّة الأهوال، فقلت في نفسي هذا اليوم العبوس القمطرير، وأنا رجل ضعيف النفس، خوّار الطبع، ولا صبر لي على معاينة هذه الدواهي، كنت أشتهي /٧٩/ على الله الكريم في هذه الساعة رغيفاً عقيبياً[١] وزبدية[٢] طباهجة[٣] ناشفة وجبن سناري، ونعارة نبيذ حلبوني[٤]، والحافظ العليمي ينادمني عليها بأخبار خوارزم، وفخر الدين ابن هلال يغني لي:

يا أهل نعمان إلى وجناتكم تُعْزى الشقائق لا إلى النعمان

وأبو العز بن الذهبي بعينيه، ويسقيني الصرف من النعارة حتى يعرق جسمي، وأغيب عن الوجود فتنقضي عنّي الشدائد في غير معقول، فما انقضت أمنيتي حتى طلع عبد الواحد بن بدر من جانبي وقال لي: الساعة رأيت عدّة جوار يطلبونك مع بعضهم أولاد يزعمون أنهم منك قد نفيتهم عنك وبعضهم يدعي أنك بعتهم لغيرك وهم حبالى منك، فقلت له: هوّن عليك، ولا يكن عندك أحسن منهم:

قد باعت الأسباط قبلي يوسفاً وهم هُمُ ووجمتُ من كلامه ساعة، وقلت: لو أني مثل الحافظ العليمي الذي لا يقتني إلا الغلمان الذكور، وكلّما التحى واحد باعه واشترى آخر، ما حلّت بي هذه المصيبة، فقال لي ابن بدر: ورأيت الحافظ العليمي يقلب عليك الأرض، فقلت: وأين أجده؟ فقال: هو هذا واقف مع النبيه الموصلي يمسح أفخاذه من البول، فقلت له: وأيّ شيء أصابه المسكين؟ فقال: إنه سمع انشقاق سماء الدنيا فجرى إلى أفخاذه من شدّة الزَّمع، فقلت له: هو معذور، وسرت إلى نحوك وناديتك، فأقبلت إليّ تجري، وما كلمتني كلمةً دون أن لكمتني لكمة موجعة وشتمتني، وقلت لي: يا عدوّ الله، ما كفى أنك تخاطبني بنون الجمع وكاف المخاطب دون أن ذكرت اسمي بغير كنية ولا لقب، والله لاتوصلنّ إلى أذِيتك بكل طريق، فقلت له: يا

---

(١) عقيبياً: مصنوع من اللوز الأخضر. (٢) زبدية: وعاء من الخزف.
(٣) طباهجة: طعام من بيض وبصل ولحم، فارسية.
(٤) في المنامات: صيدناني.

كافر القلب، أما ترتدع، أما ترعوي، أما ترى السماء تنفطر مثل فطائر المزة في الكوانين. أما ترى الملائكة منحدرة من السماء زرافات ووحدانا، أما ترى الميزان يرتعد بما فيه مثل المحموم إذا أخذه النافض يوم البحران، أما ترى السواط يرقص بما عليه؟

رقص القلوص / ٨٠/ براكب مستعجل أما ترى مالكاً خازن النار قد خرج منها محملق العينين في يده اليمنى مسطيحة، وفي يده اليسرى السلسلة المذكورة في القرآن، وهو يدور في الموقف على اللاطة والقوّادين من أمة محمد ﷺ. ونحن متهمون بذلك، بالله أترك دبارة القفا[1]، وهوّن عليك هذا الأمر واتركنا لما نحن فيه، فقلت له: والله ما هو شيء هيّن عليّ فأهونه ولا أُسامحك به، ولا أُفارقك حتى أرفعك إلى كمال الدين بن الشهرزوري ينكل بك تنكيلاً، يردعك عن الاستخفاف بي في كل مكان، فقلت: وأيّ شيء بيني وبينك، وأنت بينك وبين كمال الدين من المودّة. وأنا أعرفك أبغض الناس فيه، فقلت لي: يا جاهل بأحكام السفر إنّي لما سافرتُ معه إلى العراق، واجتمعت به في الطريق، وحدثته بأيشم حديث خوارزم، وأنشدته طرفاً من شعر ابن بابك[2]، فتأكد ما بيني وبينه، وصرتُ عنده من المقربين، فقلت له: وأي شيء لكمال الدين في الأمر اليوم اتبعتنا أحكامه إلى هذا المكان؟ فتقول: نعم عرضوا اليوم صحائف أعماله بين يدي الحقّ سبحانه وتعالى، وهي شيء عظيم مثل جبلي ثبير وأبان، فقالت الملائكة: أي ربّ اشغالنا في هذا اليوم كثيرة وجاء هذا الرجل بأمرٍ عظيم، وقد سبقه أُمم من الناس وهو يريد يوم قيامة وحده، لايحاسب فيه سواه، وموازين لايشركه فيها غيره، فقال الباري عزّ وجل: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، سلّموه إلى الروح الأمين، فيقول جبريل عليه السلام: هذا شيخ من شيوخ الإسلام، ومن عظماء أمّة محمد ﷺ، وله من أعمال البرّ ما يوفي عنه مظالم العباد، أوقفوا أمْره، وأحيلوه عليّ بالمطالبات، فدخل في زمرة الروح الأمين فما لأحدٍ عليه من سبيل، وهو يحضر المقام المشهود في كل يوم يعمل فيه دهليزات يتم فيها ما يريد، وقد قدم مقدمات لابن عصرون رديئة، ما أظنّه من عقدها بناج، وبينا نحن في المحاورة، وإذا نحنُ بمالك خازن النار، وقد هجم علينا وقبض عليّ وسحبنا خلفه[3]، فارتعنا لذلك ارتياعاً عظيماً

---

(١) كذا في الأصل، وفي المنامات: الرقاعة عنك.

(٢) ابن بابك: عبد الصمد بن منصور بن الحسن بن بابك، شاعر مجيد، توفي ببغداد سنة ٤١٠هـ. (وفيات الأعيان ٣/ ١٩٦).

(٣) في المنامات: وسحبنا إلى النار.

فقلت له: هذا الذي كنت أخوفك منه / ٨١/ وقد وقعنا فيه، فقلت: أنت يا سيدي يا مال، اسمع مني كلمتين لوجه الله تعالى فقال: كيف أسمع منك وقد حذفت ربع اسمي في النداء، فقلت: والله ما حذفته للترخيم الجائز عند النحاة، وإني لفي شغل عن ذلك، ما حذفته إلاّ لشدّة الهلع وانقطاع مادة الكلام، فيقول لك: هات كلمتيك، فتقول: يا سيدي هذا رجل مغربي من أهل القرآن، وأنا رجل محدّث عن رسول الله ﷺ، فبأي جرمٍ تأخذنا قبل العرض على الله تعالى، واستعلام ما يعاملنا به الكريم. فقال له: يا خبيث، أنت كنت من المقدمين في اللياطة، ومن المتبصرين، فقلت له: أنا، وكيف ذلك يا سيدي فقال: هذا كان يفسق بأولاد المسلمين، ويثبت أسماءهم في جريدة على حروف المعجم حتى لم يبق عليه إلا القليل، وسمعت أنه أدخل أمرداً إلى خزانة مظلمة ونيمه تحت ضوء الروزنة، فلما لم يطابق الضوء جحره قال له: تعطّف يا سيدي وقدمها إليّ بفضلك. يا خنزير، وأي فضلٍ لأمرد منكوح، وسمعتُ أنه أخذ يحيى المطرز، وما قام عليه فتركه وراح، فلما كان بعد ذلك بمدة اجتمع به فطالبه بالتمام، ولو عددت عليه ما قيل في لطال الزمان، وأما أنت[1] فرجل قوّاد لايشك فيه، فاستشطت عند ذلك غيظاً وأظهرت القلق العظيم، وقلت: ألمثلي يقال هذا الكلام؟ فقال لي مالك: لعل مولاي يريد أن يهجوني بشعر مثلما رأيت في صحائفه اليوم، أو يعمله في مقامة مثل فعله في بني آدم. والله لألطمنك بالقلع حتى يبول القندلاوي على ساقيه، واشتهيت أن أعلم ما سبب ذلك، وغيظك عليّ تقدر أن تقول إنك ما كنت تقود إلى رفيقك، هذا في دار القوادة بجيرون في شهور سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، فلما سمعنا ذلك خرسنا وأبلسنا، وعلمنا أن الناقد البصير لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، فرجعنا حينئذٍ إلى الملاطفة، وقلنا له سألناك بالله لاتعجل علينا، فنحن صائرون إليك بعد قليل، وما لنا عنك من محيص، فتركنا بعد الجهد، فدخلنا في غمار الناس، فقلت له: يا أخي قد طيّر هذا الجبّار عقولنا / ٨٢/ ومرّت لنا ساعة صعبة بسبب الولدان. اطلع بنا إلى جبل الأعراف نشرف منه على الموقف، ونتفرج منه على بساتين الجنان، فنستريح وترجع إلينا أرواحنا في ذلك المكان، فقلت لي: ولم قلت لأن يأسنا من الجنة أكثر من رجائنا فيها، ومتى رأينا أشجارها وأنهارها وفاتنا دخولها تضاعفت علينا الحسرات والأحزان، وعدم ذلك في التخيل خير من وجوده في العيان، وأنه يقال في المثل: عين لا ترى[2] قلت: لا يرجع، فتحوّل منّي التفاتة فأرى أبا المجد بن عبد الحكيم عابراً

---

(١) في المنامات: هذا المغربي.

(٢) بعده في المنامات: قلبٌ لا يحزن.

وفي يدهِ رقعة حمراء مذهبة، وهو رائح بها يهرول فسلمنا عليه، وسألناه عن حاله، فقال: لولا ملازمة الصلاة كنت من الهالكين، فقال له: أين تريد، فقال: أردّ هذه الرقعة على صاحبها، فقلنا له، وأيّ شيء في الرقعة؟ ومن صاحبها؟ فقال: هذه الرقعة للمؤيد بن العميد بعثها معي إلى رضوان يطلب منه كمثرى سابوري ورمان ديبقي لايوجد إلا في الجنة. ولقد لقيني أبو الحسن بن المنير[١] فخطف الرقعة من يدي، وقرأها وقال: هذه رقعة رجل دهّان عارف بالأصباغ وإنزال الذهب، ولكنه جاهل بصناعة الكتابة ظاهر التكلف فيها يريد أن يتمم بعض الصناعة ويستر عوارها بالألوان المشرقة والأوراق المصبّغة، والتذهيب الرائق، ومع هذا لا يجوز أن يكاتب بمثل هذه الرقاع إلا القحاب المتعاشقات والظراف والمتساحقات، فكن عاقلاً وردّها على صاحبها قبل أن تلطم على باب الجنّة عشرة آلاف زربول، مثل هذا الملك الكريم على الله يخاطب في مثل هذه الرقاع، هذا طلائع بن رزيك[٢] مع سخافة عقله وسكرهِ من خمرة الولاية فقال يوماً في مجلسه لما عرض عليه الشيرزي قصائد الشعراء والمكدين من أهل الشام وفي جملتها رقعة ابن العميد فيها سطر مكتوب بالأخضر اليانع وسطر بالأصفر الفاقع، وسطر بالأبيض الناصع في الورق الأحمر القاني، مطرز الجوانب بالذهب الإبريز، من صاحب هذه الرقعة يا زكي؟ فقال رجل من رؤساء دمشق ومقدميها أحذق الناس بالتزويق في الأوراق والتصحيف للألفاظ ومعرفة أصناف /٨٣/ الفواكه والثمار، فقال له ابن رُزيك: ما أدري ما تقول، غير أنك سلبته فضل الفضلاء ونسبته إلى الفلاحة والرعونة والجنون، ومع هذا فهي تدلّ على جهل قائلها ومهانته ألا ترى أن الناس يتوصلون إلى برّنا بالفضل والبراعة، وتوصل هذا الرجل بلعب البنات وزخارف الصبيان، لو كتب هذا الكلام الذي في رقعته على فخذ خروف سمين وألقي في الطريق لأنفت الكلاب من أكله، ثم ناولها لبعض الفراشين وقال: ادفعها لجارك الفقاعي يلْصقها على عتبة دكانه يستجلب بها الزبون، ثم التفت إلى الناس وقال: هؤلاء أهل الشام ورؤساء الدمشقيين. قال أبو المجد: أنا والله ما استجري أوصلها إلى رضوان بعد أن سمعت هذا الكلام، وأنا رائح أردّها عليه، قلت له: ادفعها إلى أقربها بأخوتها، فإني قد حصلت من رقاعه إلى ملوك المصريين خمس رقاع، وبينا نحن في المحادثة

---

(١) أحمد بن منير، أبو الحسن، الطرابلسي، شاعر الشام أيام نور الدين، توفي بحلب سنة ٥٤٨هـ، نشر ديوانه بتحقيق عبد السلام تدمري، انظر المقدمة.

(٢) أبو الغارات، طلائع بن رزيك، الملك الصالح، وزير مصر، من الفضلاء الشجعان، الأدباء الشعراء، أكثر شعره في مدح أهل البيت، توفي سنة ٥٥٦هـ. ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٥٦٦.

عليها، وإذا بضجّة عظيمة من جنبي المحشر والناس يهرعون نحوها مستبشرين فملنا جميعاً إليها، وإذا بحلقة بعيدة الأقطار، فيها من الأمم ما لا يحصى، كلّهم يصفقون ويلعبون وثلاثة في وسطهم يرقصون، إلى أن سمعوا ووقعوا إلى الأرض، فسألنا بعض أولئك الحاضرين عن الفرح وعن الثلاثة الذين يرقصون، فقال: أما الثلاثة فعبد الرحمن بن ملجم المرادي، والشمرين ذي الجوشن والحجاج بن يوسف الثقفي[١] مجرمو هذه الأمة، وأما الفرح الذي ألهاهم عن توقع العقاب حتى رقصهم الطرب مع ما كانوا عليه من رجاحة العقل ونزاهة النفس فهو الطمع في رحمة الله بعد اليأس منها، والسبب في ذلك كون الباري عزّ وجل غفر للفقيه المجير والمهذب بن النقاش فخذوا رحمكم الله بحظكم من الفرح والسرور، فقلت له: وأيّ شيء ينالنا نحن من نجاة هذين الرجلين، ومن فوزهما بالرضوان، ونحن إلى الحزن أقرب منا للسرور، فقال: قد أجمع الناس أنه لم يولد في الإسلام مولود قط أرق من دين هذين الرجلين، ولا أقل خيراً منهما، فإذا غُفر لهما فما عسى أن تكون ذنوب الحجاج /٨٤/ وأصحابه في ذنوب هؤلاء، إن يكن ذلك إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، فقال: أبو المجد بن أبي الحكم: فالشعرة دنانير التي لك عند ابن النقاش، إلى متى تتركها له الحقها قبل أن يدخل الجنّة، فما ترجع تراه أبداً، وأقوم وأعدو ملء فروجي وأنتم خلفي إلى أن انتهيت إلى جماعة كبيرة من الملائكة والناس وهم ينظرون إليّ ويقولون هذا هو قد جاء، وأخالط ذلك الجمع وأتخلَّلهم إلى صدر ذلك الملأ، وإذا بملك عظيم تقشعر من نظره الجلود، وتشمئز من طلعته النفوس، والمهذب ابن النقاش قائم بين يديه يكلّمه بالعجمية وهو مقبل عليه بجملته، فلما أحسّ بي الملك قال: اذكر سعيداً تراه. والتفت ابن النقاش وقال: اذكر الكلب واستعدّ له بهذا، أيش تعمل معي في ايشم الذهب الذي لك في ذمتي، قد عوّقوني عن دخول الجنّة لأجله، فقلت له: طيب والله طيب، وتبدو لهم إن شاء الله ويردوك إلى الجحيم، أريد الساعة آخذ من حسناتك بعشرة دنانير ما يساوي خمسة عشر ديناراً، ورح أنت إلى حيث شئت، فما أشعر إلا بضرطةٍ عظيمة هائلة جاءت من خلفي طنت لها أكناف المحشر. فالتفتّ عن يساري، فإذا بجماعة من أصحابنا قيام يضحكون، فاتهمت بها الصفيّ بن كريم الملك، واغتظت عليه وتوعدته، فحلف أن ما صفّها لي إلاّ التاج بن أبي الصقر، فحردتُ واغتظت وقلت لكم: يا قوم هذا وقت المجون؟ فقال ابن أبي الصقر: نعم إذا رأينا واحداً منحوساً يطلب من ابن

---

(١) بعده في المنامات: والشيخ الكبير أبو مرّة، فجار الخلائق وهم.

النقاش بعشرة دنانير حسنات ما نضرط في ذقنه. إي والله ونخرأ في لحيته وإنك يا أبله يعطيك من أوراده بالليل من تهجّده بالقرآن في السحر. أو يعطيك من صيام الاثنين والخميس، أو من مواصلة الثلاثة أشهر أو يعطيك حجةً مبرورة مقبولة من حجّاته، ما تستحي تتكلم بهذا الكلام، قلت: يا قوم فما أثبتوا له شيء من غزواته مع نور الدين؟ فقال: ما كان الرجل يخرج من بيته بنيّة الجهاد والأعمال بالنيّات، قلتُ: فما فعلت صدقاته، فقال: جميع ما وُجد له خمس قراطيس على يدك لابن الجيش الجيروني / ٨٥/ وهم فيها على قولين، فإن كانت الشمال قال: روائحها نتنة وأظنّها تشرنح وقال ملك اليمين: اسم الصدقة عليها مكتوب، وهي موقوفة إلى الآن، قلت: فصلاته أيش فعل الله بها، قد كان يصلّي المغرب في بعض الليالي إذا قامت بغتة وهو في وسط الجامع فقال: وجدوا له ثمانين صلاةً في ستين سنة، فيها ثمانية وعشرين بغير وضوء والاثنين وخمسين مبتوتة لك بارك الله لك فيها باثنين وخمسين قرطيساً، كل صلاة بست فلوس، قلت له: فلم يبق إلا أن أحطّ من سيئاتي بقيمة عشرة دنانير على سيئاته، فيقول ذلك الملك المهيب بحَميّة وتعصّب: هذا رجل مغفور له، لا تناط به السيئات، فقلت له: يا سيدي فادفعوا له بالعشرة دنانير موضعاً في الجنة صغيراً مثل إقطاع العزّ المكي في البحيرة، فقال الملك: ما هذا إلينا هذا إلى الحقّ سبحانه، وهو الجواد الكريم وأنت أما أن تحالله من دينك بطيبة قلبك، وإلا أضرب برأسك الحيطان، فاهجّ على رأسي وأعدو ملء فروجي، وأصيح بجميع حلقي، دعوة مظلوم يا كريم فلحقتموني أنتم فأمسكتموني، وقلتم أنت مجنون، تعرف لمن تخاطب؟ فقلت: لا، فقلتم: هذا عزرائيل ملك الموت، وهو يعنى بالمهذب عناية عظيمة، وهو الذي شفع فيه وخلّصه من العذاب الأليم، فقلت لكم: ومن أين هذه المعرفة بين المهذب وعزرائيل؟ فقال لي أبو المجد بن الحكم: من جهة الطبّ، أما علمت أن المهذب كان من أعيان ملك الموت في دار الدنيا، ما دخل على عليل إلا وأنجزه في الحال وأراح ملك الموت من التردد إليه وشمّ الروائح الكريهة والنظر إلى شخصه المزعج، وخلّصه من الانتظار الطويل، فهو يرعاه لأجل ذلك ويحبّه من ذلك الزمان، وأما أنا فما أقدر أقع في عينه[1]، ولا يبصر لي رقعة وجه أبداً لأني كنت أُضار به على العليل مضاربة حتى أخرجه من فكّه وأخلّصه بعد اليأس، فلاجرم أنه ما أمهلني أتم الأرغن الذي ابتدأته ولا / ٨٦/ تركني أتملّى بأم الحكم[2] ساعةً من الزمان، فقلت

---

(١) في المنامات: أوقع عيني في عينه.

(٢) في المنامات: بأم أبي الحكيم.

لي: قم وارجع إلى الملك قبّل يده وقل له قد تركت هذا المقدار لأجلك، فافعل ما تريد، فقالت الجماعة كلّهم: هذا هو الصواب، انهض على بركة الله، فقمت معكم إلى الملك وحاللتُ الرجل من الذي عليه، ففرح بذلك عزرائيل، وقال: ما أقدر لك على مكافأة إلا أني أُبشرك تعيش بعد المهذب عشر سنين بكل دينار سنة، فسررتُ بذلك ورضيت به وقمت وأنا له من الشاكرين، فقلت لي أنت بعد انفصالنا عنه: قد تعبنا يا فلان من المحاورة والوقوف واشتدّ بنا العطش والظمأ، هل لك في الحوض فمتّ عنده بالعلم والقرآن لعلهم يسقونا منه شربةً لا نظمأ بعدها أبداً، فقلت لك: سِر بنا فتوجهنا نحوه، وابن بدر معنا، حتى إذا قربنا منه رأينا أبا القاسم الأعور وحوله جماعة من الأشراف، يندفون شعر رأسه بالدلاء والتواسيم[١] ويقولون: يا خنزير رُح إلى يزيد بن معاوية يسقيك الماء، فوقفنا ساعة وأحجمنا عن الإقدام خوفاً من سوء الأدب، فوافانا تاج الدين الكندي[٢]، فجاء إلينا وسلّم علينا. فسألناه عن حالهِ فقال: لو اتبعت مذهب أئمة الحنابلة في التشبيه هلكت معهم، ولكني كنت أسرّ الأشعرية وأضمر التترية وقد وعدني الإمام الشهيد سيبويه بأن ينفعني إذا رآني عند الميزان، وأنتم ما لكم ما تتقدموا وتسلّموا على أمير المؤمنين وتأخذوا إذنه في الورود، قد أذن اليوم لجماعة من الأدباء أنحس منكم بكثير، ولعلّكم خفتم مما وقع فيه قسيم الأعور[٣] من اللطام، فقلنا له: نعم، فقال: حاشاكم أنتم من هذا، كان قسيم رجلاً فضولياً يكاشف الأشراف ويؤذيهم في كل مكان، فتقدمنا إلى أمير المؤمنين فوجدناه على شفير الحوض، وحوله جماعة من الهاشميين، كأن الشمس تطلع من وجوههم، والمقداد بن الأسود الكندي قائم على رأسه، في يده لواء أخضر من سندس الجنة منشور، ومنير الدولة يخاطبه في بني سرايا ويقول له: يا أمير المؤمنين ما كان ظننا بك هذا، فقال: ما أوبقكم وأوثق أمركم إلا معزّ بن حسن بكثرة ما رفع عليكم /٨٧/ من العظائم، وإلا كنت قد خلصتكم من أول النهار.

فيقول له: حاتم [هو][٤] أخي يا أمير المؤمنين شتّت شملنا في الدنيا، وأوْبقنا في الآخرة، فهو الميشوم الطلعة في كل حين، فقال له[٥]: والله يا أمير المؤمنين لتسمعنّ في صحيفة أعماله من الفضائح ما لم يسمع بمثله لمخلوق سواه، أقل ما فيها أنه أخذ

---

(١) في المنامات: بالمزادان والدلاء.
(٢) في المنامات: الشيرازي.
(٣) في المنامات: أبو القاسم الأعور.
(٤) الزيادة عن المنامات.
(٥) كذا في الأصل وفي المنامات: فيقول له جحا.

طفلاً من الفلاحين اسمه يوسف ففسق به حتى التحى وفرغ من الصبيان، فعقد على أختهم عقداً مفسوداً وفسق بها حتى ملَّها، وعبرت يوماً أمها فكشفت الريح عن ساقيها وقطعت عجيزتها فأمسكها وغصبها على نفسها فلم يسلم من أهل البيت إلا شيخهم الكبير بمصيره إلى التراب، فتنكر أمير المؤمنين من سماع هذا الحديث، وثقل ذلك عليه حتى ظهر ذلك في وجهه، والتفت إلينا وقال: أنتم ما تريدون؟ فقلت أنا: يا أمير المؤمنين نحن قوم من أهل العلم والقرآن، وقد بلغ بنا الجهد من شدّة العطش ونسألك أن تنعم علينا وتطلق لنا الورود، فقال لي صلوات الله (عليه) مسترسلاً إليّ يهزأ بي، ويمجن معي: أي آية في كتاب الله بها مائة وأربعون عيناً؟ فقلت: أعرفها يا أمير المؤمنين، قال: صدقت، فقيل يا أمير المؤمنين من أين عرفت صدقه ولم تسأله فقال: بشاشة المعرفة بها ظهرت في عينيه، ثم قال صلوات الله عليه: هذا الحوض بين أيديكم ردوا كيف شئتم، فصاح قسيم الأعور من بعيد: الله الله يا أمير المؤمنين، لا يتم على أمير المؤمنين محالهم، هؤلاء والله أشدّ الناس كفراً ونفاقاً، وأشدّهم نصباً وانحرافاً، وهم عبيد يزيد، فقلنا له: يكذب والله يا أمير المؤمنين علينا، ولقد رمانا بالإفك والبهتان، فقال: هل لكم من يعرفكم بغير الذي يقول؟ قلنا، نعم يا أمير المؤمنين، الشريف الدويدة الرواس، والشريف العصيدة، رسول القاضي. والشريف زقازق الذي يبيع اللحم في القبّة، والشريف نقيقا[1] الذي كان ضامن الحمر والقيان في دمشق، هؤلاء أولادك وذريتك صلوات الله عليك، يشهدوا ببراءتنا من هذا /٨٨/ الملعون، واغتاظ الحسين صلوات الله عليه من ذكر هؤلاء، وصفق بيديه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اليوم يشمت بنا بنو أمية، فالتفت أمير المؤمنين إلينا وقال: لا شك أنكم من عبيد يزيد، قد شرعتم تسبونا بطريق لطيف هؤلاء الذين ذكرتم من ذرية إبليس اللعين، ومن أولاد الشيطان الرجيم، إذ كان لكم ثقة يشهد ببراءتكم، وإلاّ فلا تقربوا هذا المكان، فيقول محمد ابن الحنفية، اغتنموا أنفسكم قبل البادرة في الإحراق، فننصرف من بين يديه ونحن لا ندري كيف الطريق، فقلت لكم: هلّم بنا نطلب الشريف أبا العباس النقيب فمالنا ولا لهم مثله، فخرجنا في طلبه فلقينا زين الدين بن الحليم، ومعه أمم من النساء لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يسحبونه إلى عرصة القيامة والقصاص وملك النحاة رائح خلفه يحرّضهم عليه، ويغريهم به. ويقول له: ما يخلّصكم اليوم من هؤلاء لا شعرك الركيك ولا رسائلك الباردة، ولا بدّ لك من

(١) في المنامات: قيفيفات.

الاجتماع بأبيك الرابض في أمك الهاوية، وهو يقول لك: خرب الله بيتك، أي شيء بيني وبينك، هجوتك وهجوتني، وشتمتك وشتمتني، وقد راح هذا بهذا، ونحن من أهل العلم، ولا يليق بنا إلا المحاللة والاستغفار، لأنك في موقف صعب وأنا رائح إلى رب كريم، رجائي به حسن، وظني به جميل، فانكسر أبو نزار ورجع عنه خجلان، ثم ترتفع الضوضاء، وإذا بموكب عظيم مقبل من المقام المحمود، كأنهم الشموس والأقمار، ركبان على نجائب من نور يؤمون المشرعة العظمى من الحوض، فسألنا عنهم، فقيل: هذا سيّد البشر ﷺ في أصحابه وأهل بيته، فنجري خلفه، ونجهد أنفسنا في طلبه، فلم نصل إليه من شدّة الزحام، فصعدنا على تلٍّ مشرف من جبل الأعراف حتى عبر علينا وعن يمينه ويساره أبو بكر وعمر، وبين يديه أولاده الصغار مع الحسن والحسين، ومن روائه حمزة والعباس وجعفر وعقيل وبقية أصحابه بمشرف مع المهاجرين والأنصار، وهو يصغي تارة إلى حديث علي وتارة إلى حديث عثمان، وهما بين أولاده الصغار وبينه والناس /٨٩/ يضجون بالبكاء، ويشيرون عليه بالأيدي ويستغيثون عليه من كل مكان، فلما انتهى إلى شاطىء المشرعة، وقف عندها، فانجاب إليه الصوفية من جميع الأقطار يقدمون إليه أخلّة الأسنان والشيشات فسأل عنهم فقيل له: هؤلاء قوم غلب عليهم العجز والكسل على طباعهم في الدنيا فهربوا من كدّ الصنائع والأعمال إلى زوايا المساجد والمشاهد بحجة العبادة والانقطاع، فلا يزال أحدهم يأكل وينام إلى أن يموت، قال: فبأي شيء كانوا ينفعون الناس، ويعينون بني آدم؟ فقيل: والله ولا شيء البتة، ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان. يشربون الماء، ويضيقون المكان، وليس لهم ثمرة، فيكاسر عنهم فيأخذون شيشاتهم وينصرفون، ثم يأتي أسد الدين ونجم الدين راكبين على فرسين كالعروسين، وعلى كل واحد منهما خلعتان، خلعة الحج وخلعة الجهاد، وكل خلعة تساوي ملك الأرض سبعين مرة، وأسد الدين، رائح يطلب من النبي ﷺ خلعة فتوح مصر، ونجم الدين يقول له: لا تذكره بمصر، فهو موغر الصدر لأجلها، فيقول له أسد الدين: قد ذكر العلماء بالنسيان ما بين ملوكها وبين قرابة وكتبوا بذلك خطوطهم في المشاريح، وبعد هذا فما أذكرها له، وانتهى إليهما صلاح الدين، فأخذاه وأوصلاه إلى النبي ﷺ، وأمراه بتقبيل يديه ورجليه، ففعل ذلك ومسح على رأسه ودعا له بالنصر والتأييد وأوصاه بالضعفاء والمظلومين، ونزلوا على المشرعة العظمى، وأقاموا عليها ساعة زمانية، ثم انصرفوا إلى المقام المحمود، وأقبلنا نحن نطلب الشريف النقيب إلى أن وجدناه واقفاً مع جماعة من البوابين[1] يسألهم عن بطليموس الحكيم، هل يصح عنده أن الكواكب

---

(١) في المنامات: جماعة من علماء اليونان.

السبعة[1] طبائع أم لا؟ وهل قام الدليل والبرهان على أن للكواكب أطوال وعروض أم لا؟ فلما رآنا قطع الكلام والتفت إلينا فسلمنا عليه وقلنا له نظام الدين عسى تتفضل علينا وتمشي معنا ساعة تشهد لنا عند أمير المؤمنين بالبراءة مما قذفنا به من النصب والانحراف من أولاد فاطمة عليها / ٩٠/ السلام. فقال لنا: والله في هذا الوقت بنفسي، وعلى أن شهادتي ما تنفعكم عنده لأني رميت في مجلسهِ بالفلسفة والعمل بأحكام النجوم، وقد أضرّني ذلك عنده وزوى وجهه عنّي، وأنا من ذلك في خطر كبير، فبينا نحن كذلك وإذا بالأعور البغدادي قد جاء إلينا وقال: كيف رأيتم فعلي بكم، انحسكم أم لا، أنتم تحتقروني وتطرحوني وأنا منحوس كبير، ثم أخذ يعتذر إلينا ويتنصّل مما جرى علينا، ويقول: والله ما أردت بذلك القول إلا أن تصفعوا بالدلاء والتواسيم كما صفعت أنا، لأني علمت أنكم قد شمتم بي وكنتم بذلك مسرورين، وأما إذا قد سلمتم من ذلك فأنا أدلّكم على من يسقيكم الماء من هذا الحوض، ولا يحوجكم إلى شيء من هذا الصداع الطويل، اتبعوني أهدكم إلى الرشاد، فتمتنع أنت من ذلك وتقول:

إذا كان الغراب دليل قوم ... فلا يعدو بهم طرق الخراب

الموت بالعطش، ولا اتباع هذا الأعور الملعون، فقلت لك: بالله أتركنا من خنفستك، فليس هذا وقت الصلف، ولا الأنفة، أما سمعت قول الشاعر:

لا تعجبنّ لخيرٍ إن أتاك به ... فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

ومشينا معه مقدار أربع فراسخ، وإذا بجمع عظيم يحتوي على شيوخ وشباب وكهول قد حفّ مجلسهم بالسكينة والوقار، وجلالة الملك والرئاسة، تلوح على وجوههم، فسألنا عنهم فقيل لنا: هؤلاء السادة والقادة من بني عبد شمس، فدخل قسيم الأعور، حتى دخل بين يدي عظيمهم. فقال له: يا خال المؤمنين، يا كاتب وحي ربّ العالمين، نحن قوم من محبيكم. قد طردنا عن الحوض لأجلكم. ونحن هالكون لشدّة العطش بسببكم. فقال: لك بينة تشهد بما تقول؟ فقال: نعم جماعة من شيعتكم ومحبيكم الأكراد، فقال: أحضرهم، فقال: ابعث معي رجلاً من أجلاّء وزرائك يساعدني عليهم، فبعث معه رجلاً شامياً فتخلّل الناس ونادى بأعلى صوته: يا عبد الملك بن درباس، قاضي قضاة مصر في أيام الملك / ٩١/ الناصر صلاح الدين، فلم

---

(١) في المنامات: المتحيرة.

يجبه أحد، فوقع ابن بدر إلى الأرض مغشياً عليه من شدّة الأوام، فقعدنا عند رأسه، وسألنا هل عندكم من قطرة ماء نبلّ بها حلْقه فقال: لا والله، لو تقدمتم قليلاً لما احتجتم إلى هذا كلّه، فقلنا له وكيف ذلك؟ قال: لأن أم حبيبة زوج النبي ﷺ، تبعثُ إلى أخيها معاوية كل يوم خمس ثلجيات مزملات، كل ثلجية مثل جبل الثلج عشرين كرّة، فيها الماء الخاص من عين التنسيم، يدفع واحدة منها إلى عمرو بن العاص، والأخرى إلى زياد بن أبي سفيان وذويه، والأخرى إلى سعيد بن العاص وذويه، ويقسم الواحد في آل أبي سفيان، وما كان بأسرع من أن حضر القاضي في جماعة من الأكراد، فتقدموا إلى معاوية فسلّموا عليه، ثم التفتوا إلى ابنه يزيد فقالوا: السلام عليك يا إمام العدل، السلام عليك يا خليفة الله في الأرض، السلام عليك يا بن عم رسول الله يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، نفعنا الله بطاعتك وأدخلنا في شفاعتك، ورفع درجتك في الجنّة، كما رفعها في الدنيا، فردّ عليهم ردّاً حسناً، وقال للقاضي صدر الدين: الحمد لله الذي جعل في شيعتي وأصحابي من يصلح أن يكون قاضي قضاة المسلمين، فقال له القاضي: كل ذلك ببركة الفقيه عيسى ضياء الدين[١]، فقال له: أوصيك بأصحابك الأكراد خيراً، فإنهم أولى بحسن تدبيرك من سائر الناس، فقال: نعم يا أمير المؤمنين ما أحتاج فيهم وصيّة، هذا أنا قد وليت القضاء لجماعة منهم، وأنا أعرفهم في بلادنا لا يعيشون إلاّ من لصوصيّة البقر في الليل، وسرقة الحمير بالنهار، ولم أفعل ذلك إلا إني ألزمتُ باستقضاء قوم أنحس منهم بكثير، فلما رأيت ذلك رجعتُ إلى قولهم في المثل. إذا كان حولاً تحولاً ربة البيت أولى، وأنا أستغفر الله من ذلك وأتوب إليه، فقال: تعرف هذا؟ وأشار إلى أبي القاسم الأعور، فقال: نعم يا أمير المؤمنين أعرفه حوساً، فقال: وما الحوس؟ فقال: الذي يعمل منه المناحيس، قال: فإنه /٩٢/ قال: إنه كان يدعو لنا ويترضى عنا، فقال: هو يفعل ذلك مكسباً ومعيشة، فلو أن اليهود جعلوا له جعلاً على سبّ النبي ﷺ لبادر إليه، وما يصدّه عنه تقى ولا دين، فأمر به فتشرد عن تلك الرحاب. ثم قال يزيد للقاضي: من هؤلاء فقال: أما هذا فإنه رجل عليمي وهو فخذ من كلب بن وبرة أخوال أمير المؤمنين. وأما هذا، فهو مغربي حضرت معه دعوة فيها جماعة من الأعيان، وجرى حديثك، فترضى عنك، وسأل الله أن يحشره معك، فقال: وجبت، ثم استدعى عبيد الله بن زياد وقال: خُذ معك ألف رجل من السكاسك والسكون واقصد المشرعة التي عليها سهل بن حنيف[٢]

(١) بعده في المنامات كلام كثير حذفه المؤلف هنا.
(٢) في المنامات: الأشتر النخعي.

في جماعة طي وهمدان، فاضربهم بالسيف حتى تزيلهم عنها وأوْرد هؤلاء الرجال حتى ينالوا بغيتهم من الماء، وينصرفوا ريّانين، وإذا أتاك الأشتر النخعي في نخعهِ مدداً للطالبيين، فانزل على المشرعة وأثبت له حتى تتصل بك الجيوش، فقال له معاوية: لا تبعث ابن زياد، فإنه مما يهيج القوم ولكن قدّم ذا الكلاع الحميري، فربما انتفعوا هنالك باليمانية، وكسرت عادية الشر وحدّة القتال، فما استتم القول حتى استلأم القوم، وتقدموا بين أيدينا يرفلون بالحديد، ولا يلوون على شيء، فقلت لك: كانت وقعة صفين في الدينا على دم عثمان، ووقعة صفين في الآخرة حتى نشوب نحن سم الموت، ويسمع النبي ﷺ بذلك فيخرجنا من الشفاعة، فتقول: النبي ﷺ أجلّ من هذا، وبعد أن نروى من الماء ما نبالي، ورآنا أبو القسم فعدى إلينا وقال: خذوني معكم، وإلاّ أنحَسْتكم، وهيّجْتُ عليكم قبائل العراق، فقلتُ لك: بالله خُذْهُ معنا، أيّ شيء علينا منه؟ فقلت لي: والله لا صحبته أبداً في طريقهم، ولا تركته يذوق منه قطرةً أبداً فصاح علينا: إلى أين يا بقر الشام يا شيعة الطاغوت، يا عبيد الطلقاء، هذا الأنزع البطين بين أيديكم إلى أين تذهبون، وغاب عنّا، وصمدنا صمد اليمانيين، فلم يشعر بنا إلا ونحن في وسط الماء سابحون، وطاروا إلى عددهم وجاءا إلينا مرعوبين /٩٣/ فلما أبصروا بني أبيهم في كتيبة لا ترام أمسكوا وتراطنوا بالحميرية ساعة، ثم اختلطوا فلم يقع بينهم فقال، وأقبلنا نحن نشرب ونستريح، وتقول لي: أين أنت من عين ماء الديباج، كنت أشتهي الساعة قطعة صابون رقي، وقليل تراب مراغي أغسل بها لحيتي، فإنها قد اتّسختْ من الغبار والعرق، فقلت لك: ما تحتاج إلى شيء من هذا، الساعة تستريح منها، فقلت لي: وكيف ذلك؟ فقلتُ: لا شك إن كنت من أهل السعادة فما يدخل الجنة إلا أجرد أمرد، وإن كنت من أهل النار فالزبانية يعملون منها الفتائل توقد ليلة الميلاد فتيلة على باب جهنّم، فبينا نحن في أطيب عيش وأهناه، وإذا بصيحة عظيمة قد أقبلتْ وأصحابنا يتطايرون لا يلوي أَحَد على أحد، فطارت عقولُنا، وبقينا حائرين لا ندري إلى أين نروح، وقلنا: يا قوم، ما هذا؟ فقالوا: هذا عليّ عليه السلام قد أخذ الطرقات على الشاميين وجاءتنا سرعان الخيل، فيها محمد ابن الحنفية يزأر في أوائلها مثل الأسد الهصُور، فلما انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة وصمّم إلي بالسنان ليطعنني فوثبت بين يديه، فوقعت من سرير النوم، فانتبهت خائفاً مذعوراً، ولذة ذلك الماء في فمي، وطنين الصيحة في أُذني، ورعب الوقعة في قلبي، إلى يوم ينفخ في الصور، ولي حينئذٍ عذاب شديد، وأصلى سعيراً، وأدعو ثبوراً، وصلى الله على سيدنا

محمد نبيّه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وله تقليد لأبي الثناء محمود بن يحيى بن أفلح اللخمي المعروف بأنكوا من قاضي الفاسقين[١]:

الحمد لله الذي تجاوز عن كل غيّ، ووعد بالمغفرة لكل حيّ، فقال: تعالى ورحمتي وسعت كلّ شيء، أحمده حمد الثرى للمطر، والمحب على بلوغ الوطر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توصل إلى الولدان وتجمعني في الجنة مع المردان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الوفيّ بذمّته، والشفيع للمذنبين من أُمته صلى الله عليه وعلى الأئمة الطاهرين من عترته، هذا ما عهد قاضي قضاة / ٩٤/ الفاسقين، وناصر دين العاشقين، وإمام العصاة والمنافقين، جمال البدود[٢] والدساكر ورئيس الحانات والمواخر فخر العلوق والمساخر، ذو القرنين الحاضر، مسخرة غلام نفاط أمير المؤمنين أبقاه الله للقيادة يتلو صحفها ويصفي تحفها، وللياطة يفضح علوقها، ويفتح مغلوقها، وللبدود يعدي قحابها ويحمي رحابها، وهو يومئذ متولي قضاء الفسق في الإسلام نافذ القول في الأغشام ماضي الحكم في المغرب والعراق والشام، إليك أيّها القاضي الأجمّ، فخر القيادة وتاجها، قطب المعاصي وسراجها، عزّ العلوق وعمادها، ركن اللياطة وزنادها، جمال الفسقة وعينها. شرف الدناءة وزينها، أبو الثناء محمود بن أفلح اللخمي أدام الله لك السرور، ومتعك بالغفلة والغرور، لا زالت همتك مصروفة إلى المحاب، وكتافك مصطبة لخفاف القحاب، ومنزلك معموراً بالعلوق، وعارضك مصفراً بالخلوق، تقضي بالحقوق، وتنهى عن العقوق، أبداً إلى يوم ينفخ في البوق، ولما انتهى إلينا أيها القاضي الأجم، أطال الله قرونك، وأدام في الخمر رهونك. ما أنت عليه من سوء الخلائق. وذميم الطرائق، وانهماكك في المعاصي، وضربك بالمخاصي، وفسقك بالأداني والأقاصي، وأنك أكذب الناس لهجةً، وأخبث العالم مهجة، وأبعدهم في المعرفة حساً. وأبخلهم على المال نفساً، تتلو صحف الأكاذيب، وتسعى في المعاصي مثل الذيب، استخرتُ الله تعالى، وقدّمتك على القضايا السريّة بثغر الإسكندرية، فاحذر من الاضطهاد، وتشمر عن ساق الاجتهاد، ولا تترك شيئاً من أمور الفسق مطلقاً ولا باباً من أبواب المعاصي مغلقاً، فأول ما أذكر لك أيها الأذل تقوى الله التي إن دخلت فيها بلا شيء استعجلت العذاب

---

(١) منامات الوهراني ص١٧٦.

(٢) البد: الصنم أو بيته، الجميع أبداد وبدده وبدود.

في الحياة الدنيا، وحطمك وأهرمك وقطع لذّاتك وحرمك، فجانبه مجانبة الأسد الكاسر، واجعله بمنزلة العدو الباشر، لا تلمّ به إلاّ من بعيد، ولا تذكره إلا في يوم عيدٍ، وحسن ظنّك بالله العظيم، وثق بعفو الغفور الرحيم، فإنه لا تتوصّل إلى جنته إلا بمنّته، ولا تتخلّص من عذابه إلاّ برحمته، فإذا أراد الله أمراً /٩٥/ يسَّرَهُ، وإذا كره شيئاً عسّره، فَصِل من المعاصي ما قطعت، وحمّل على شفاعة نبيك ما استطعت، فإنك لا تقوى على حمل التقوى، وأخّر التوبة إلى وقت النوبة:

وكثّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدومُ على كريم

وآمرك في أول الأمر أن تنظر في أبواب الخمر، فمن صرَّفها فصرفه في أعمالك ومن قتلها، فاقتله بنعالك، ومن داس جرياله أو نقص من مكياله، فاجعل حذاك في سباله، وحمّل الكلب على عياله، واحكم في مجالس الشراب بهواك، ولا تتكل فيه على سواك، ولا تنادم المعربدين والأثقال، ولا تسامح في نقل من الأنقال وتلقّ علاج السكران بكمك وأفدهِ بأبيك وأمِّك، ولا تؤاخذ نديمك بتجافيه ولا تعوّل في السكر على تصافيه، واْطوِ بساط الخمر بما فيه، وآمرك أن تنظر في أمر الولدان والصغار من المردان، فمن بلغتك أنه مقصّر أو أعمى لا يُبصر فخذه بالملاطفة، واحذر عليه من المخاطفة، وصبعه بالخنصر، ودرجه إلى البنصر، فإذا ارتقى إلى الترويس، وانتهى إلى درجة التنكيس، فالصقه بالحصا، وادخل عليه إلى الخصا. وآمرك أن تجمع بين الصغار والكواسر، وأن تطرقهم إلى دخول القياسر. وازجرهم عن الجدال. واضربهم على البدال، وعرّفهم أنّهم يرتقوا من الوجارة إلى التجارة، وأن في البغاية نيل الغاية، لأنها داء الملوك، وعلّة الكتاب، وآمرك أن تنظر في الأجاريش والعلوق النكاريش[1]، فمن نتف شعره أو رفع على العشاق سعره، أو تجاوز حدّه، أو حلق بالزجاجة خدّه. فحذِّر منه العاشقين، واسحقهُ في ملأ من الفاسقين، واكتبه في ديوان المنافقين، وآمرك أن تنظر في أعداء الدين من فقهاء القوادين، فمن بلغك أن شرّخ درهماً من عاشق، أو تلهّى برجل فاسق، أو شهد له بالزور أو دلاّه بالغرور، فاصفع قفاه، واعطه من التنكيل أوفاه، وآمرك أن تنظر في باب الصفاع، وتذكر ما فيه [من] الانتفاع، وأنه يحلل الإخلاط، ويسهل الضراط، فتقدم إلى أصحابك باستعماله، ومر أتباعك باحتماله، وانظر في مشكلات نوازله، وترتيب منازله، واحكم في التخيير بالتحبير، والتخمين /٩٦/ بالتعمير. ولا تفتي في اللحمية بالمبطنة، ولا في المكشوفة بالمقطنة، ولا تأمر باستبعاد الفقراوية إلا في مكانها. ولا في النعامية إلا في أعكافها،

---

(١) النكاريش، مفردها نكريش، بمعنى الملتحي، معرب نيك، ريش أي جيد اللحية.

وبعد هذا فإن من الجهلة بفقه هذه المسألة، وأنت من ذوي الألباب بفقه هذا الباب. فاكشفه بحكمك وفهمك. وانظر فيه بفاضل عملك. وآمرك أن تنظر في أمر المساحقات القحاب المتعاشقات. فإنهنّ إذا تركن لذلك اشتغل البعض بالبعض. واستغني بالنافلة عن الفرض، فيكون ذلك سبب الفساد، وداعية الكساد، فاردعهم بالتنكيل واحذر من التواني والتشكيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

نسخة خط القاضي بين سطور التقليد:

قلدتك أيها القاضي البليد، جميع ما تضمنه هذا التقليد، استجلاباً لأنسك وتشريفاً لك على أبناء جنسك، عندما بلغنا أن الملك الناصر أيّده الله صفعك ودفعك، ولم يلتفت إلى الخطوط التي معك، فضاقت لذلك صدورنا، وأظلمت له بدورنا، إذْ كنت من ثقاتنا، ومن كبار طبقاتنا، فجبرنا ما انكسر من قلبك وأمنّا ما ارتاع من سربك، فتلقّ هذه الموهبة بالقبول، وقابلها بالشكر الضافي الذيول، وأشرف بها على قومك وولدك، وافخر بها على أبناء بلدك. وطالع الديوان الفاسقي بما يشكل عليك، ويشتبه من النوازل بين يديك. والسلام التام عليك.

وله كتاب كتبه على لسان قاضي الفاسقين بدمشق، حين رحل عنها قاضي الفاسقين إلى ديار مصر يخبره بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه.

المملوك النائب عن مجلس الفسق الوضيع بالشام أوّله[1]:

كلٌّ من في الوجود نحس إلا واحد ـ أطال الله بقاء قرون مولاي القاضي الأجم قاضي الفاسقين، المعرفاني الطرب إمام اللاطة وأدام له العزّ والسرور. ومتّعه بالغفلة والغرور، ولا زالت يمينهُ مُصلِية لفصوص القراح، وفلكاً لشموس الأقداح، ومنزله مأهولاً بالولدان، معموراً بالقحاب والمردان، ونغانغُهُ بمجون القحاب محمرّة، وأحداقه بلكماتهم مخضرّة، وخيول اللهو إلى فنائه مسرعة، وصحائف النفع / ٩٧/ عن ربوع أكتافه مقلعة، ولا جعل لسلطان الدرة على قفاه سبيلا، ولطوارق القلع إلى رأسه دليلا.

كتبت إليه يسَّرَ الله معاصيه، وبارك في مخاصيه، أشكو إليه ما عندي من الارتياح إلى طلعته وصلْعته، والحنين إلى قامته وهامته، والتطلّع إلى قاعته ورقاعته، وشوقي إليه شوق اللائط إلى المباعر، والمنقطع إلى لحوق الأباعر، وحنيني إليه كارتياح رأسه إلى

(١) منامات الوهراني ص١٤٤ وفيه: وكتب إلى قاضي الفاسقين وهو بمصر عن نائبه بدمشق، يخبره بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى الديار المصرية.

النعال، والأرملة إلى لذّة البعال، وأقسم بالغصن إذا استوى. والحقف[١] وما احتوى، والصدغ إذا التوى، لو حطَّ بعض شوقي إليه على وجوه الحسان لكسفها. وعلى ربى الأكفال لنسفها، فأسأل الذي قضى بالبين أن يؤلفنا بالنيربين، والذي قضى بالصدود أن يجمعنا في البدود، بمنِّه وكرمه، وأما غير ذلك، فلا تسأل عما أقاسيه، من جور العلوق، واهتضام المشوق، وبعدما بين القهوة والحلوق، وما قد ابتلينا بهِ من القضاة المخالفين، والأئمة المسخفين[٢] من إقامة الحدود، وتعطيل البدود، وتحريم الزمر، وتعطيل أبواب الخمر، وجلدهم السكران، ولو أنه الحكيم بن مطران، وأخذهم العهود على النصارى واليهود، حتى صارت الخمرة أقلّ من أخلاط الحسد، وأعزّ من جبهة الأسد. لا تبصر في الليالي، إلاّ كطيف الخيال، وفي النهار إلاّ عند إراقتها في الأنهار، ونحن وسط الشدّة إلى (أن) تنقضي هذه المدّة، وعند التناهي يكون الفرج. وكلّما تزايد إنكارهم، وتفرغت للتعذير أفكارهم، ذكرت أعزّك الله تعصّبك ووفاءك، وما كنت تردّ عنا بقفاك، وقيامك على السلطان، وتعصبك لحزب الشيطان، فأنشدُ متمثّلاً في ذلك:

أنبيتُ أن النار بعدك أوقدت ... واستبَّ بعدك يا كليب المجلسُ[٣]

وتبرزوا فيها بكلّ عظيمةٍ ... لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وأما العلوق، ردّ الله كيدهم في نحورهم، ومكّن رماحنا من ظهورهم، فإنهم لما علموا سفرك، وآمنوا من بوادر ظفرك، استبدّوا بنفوسهم، وركبوا في الجور على رؤوسهم /٩٨/ يعذّبون العشاق، ويهجرون المشتاق، ويهلكونهم بالتشريح، ويصقلون أقفيتهم بالتمريخ، ويتعامون على العاشق عند الإدخال ويجيزون أيوراً كالأفحال[٤]، ويناكون مع الغير بالفلوس، وينحلون على الهائم بالجلوس، وأقسم يا سيدي بمداسك ورأسك، وحق النعل إذا طن والدن إذا رنّ، لو كنت كالأمير لأشهرتهم على الحمير، وحرّمتُ عليهم نتف الذقون وكذلك[٥] الساقات والبطون، حتى يريحنا الشعر من الصداع، ويبقى أحدهم على أكلة الوداع، وأعجب من هذا يا سيدي[٦] ما حدثني به بعض من ينتمي إلى هوى أبي بكر اللخمي أن شعره اليوم وقرعته محلوقة كخدّه لما

---

(١) الحقف: ما استطال واعوجّ من الرمل، والجمع أحقاف وحقوف.

(٢) في الأصل، المحسنين، والتصويب عن المنامات.

(٣) لم يرد هذا البيت في المنامات.

(٤) في المنامات: كالأذقال.

(٥) في المنامات: ودلك.

(٦) بعده في المنامات كلام تركه المؤلف.

كانت له دبوقة، وهذا من النعم التي يجب أن تكفر، ومن الذنوب التي لا يجوز أن تغفر، فلو نتفت أصلحك الله سبالك، ومزّقت من الغيظ سربالك، لما وصلتَ إلى بغيتك، ولو علمت الخرا في لحيتك، وأشدّ من ذلك يا سيدي كون النساء يتعاشق، والقحاب يتساحقن، وقد شقّوا عليّ العصا، فتركوني أمصّ الحصا، وأنا بينهم مثل الخصا، فلا جرم أن الله ابتلانا بالخسوف ورمانا بالكسوف، وروعنا بالزلازل، وأخرجنا من المنازل، فإن كنت راعنا في ولايتك، فاطلع علينا برايتك من قبل أن يسلو العاشقون، ويتوب إلى الله الفاسقون، فينفسد[1] الهندام، وتكسد أسواق المعاصي بالشام، ومتى عزفت على الإياب، فأكثر من النفقة والثياب، لئلا تندم على الرجوع، وتموت بالبرد والجوع، ولا تطمع في التكسب بالشعر، فقد راح ذلك السعر، ولو قلت اليوم الحماسة، ما حصل لك بها كناسة، ولو أنك امرء القيس، صفعوك بجلد التيس، ولو أنك ابن منير لحملوا على عيالك الحمير، لأن الجود قد استقلّ، والندا قد انتقل، وقد وصل إلى قليوب، طالباً لبني أيوب، ونحن اليوم كما قال الوهراني:

أنست بنو شادي بمصر وأهلها ... فبكت دمشق عليهم والشام
رحلَ الندى والجود يوم رحيلهم ... وتخلّف الحرمان والإعدام
كانوا لنا كالوالدين تعطفاً ... فاليوم نحن لبعدهم أيتامُ

* * *

/ ٩٩/ وأما ما نُذيّل به ممّن ساهم ابن بسام الفتح بن خاقان في ذكرهِ، وقاسم يمين الفتح في شكره، مع من تفرّد به ممن وقع في قسمه، وقرعَ المسامع باسمه، ممن أكثر في الذخيرة الإعلان من جواهرِهِ، وصرّ الأوراق على أزاهرِهِ، مقتصرين على المشاهير والمختار لهم.

فمنهم:

[٢٥]

الوزير الكاتب، أبو حفص بن برد[2]

شيخُ كهولٍ ومُرْد، وناسجُ كلَّ حبرةٍ تنسب إلى برد، لم يزل بأجراء أفكاره رائض

---

(١) كذا في الأصل، وفي المنامات: فيتغيّر.

(٢) أحمد بن برد، أبو حفص، وزير من الكتاب الأدباء الشعراء، كان مقدماً في دولة بني عامر والأخبار عنه قليلة، توفي سنة ٤١٨هـ، انظر:

=

مسومة جرد، وخائض معارك كمت وجرد، فجاءت جيادُهُ سابقة تمسح وجوهها وأعطافها، وتتبارى بحورها ونطافها، فورد جماماً، وسقى الثريا كأساً والبدر جاما، وكان ذا اقتدارٍ على البيان، وسحر فيه يخيّل للعيان بلطائف تستلين الحديد، وتتبين قدر عبد الحميد، وآداب لو غامزت لكانت لحاظاً مراضا، أو بارزت لانبرت سهاماً وأغراضاً.

قال ابن بسام[١]: كان[٢] في ذلك الأوان واسطة السلك، وقطب رحى الملك[٣] وقلّد ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري[٤]، ثم عن المستعين[٥] وغيره من أمراء الفتنة فأسمع الصمّ بياناً، فاستنزل العُصْم إبداعاً وإحساناً، وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثمان عشرة وأربعمائة، وقد نيّف على الثمانين.

ومن نثره قوله[٦]:

ولا أحْسَبُ الذي غرَّهم بنا، وجرّأهم علينا، إلاّ ما وهب الله لنا من الحلم مع المقدرة، والكظم عند الحفيظة، وكم من غصصٍ في شهي الغذاء ومن شرقٍ في غير الماء[٧].

ومنه قوله[٨]:

إن الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أمية، من السلطان الموصول (لهم)[٩] بخلافة النبوة ما حازهُ لهم من بين[١٠] سائر قريش، وسراة رجالها وافرة، وبيوت شرفها عامرة، وكان أول من أجمع عليه خيار صحابته[١١] منهم بالشورى والاختبار عثمان بن عفان

= الذخيرة ق١ مج١ ص١٠٣، وجذوة المقتبس ١١١، والبغية رقم: ٣٠٨٧، والصلة ٢٤، الأعلام ١/ ١٠٣.

(١) الذخيرة ق١ مج١ ص١٠٣.

(٢) في الذخيرة: كان أبو حفص.

(٣) بعده في الذخيرة: استقل ببهائه وجلاله، ورفل في بكره وآصاله، وبرّز على نظرائه وأشكاله، وبنو برد ينتمون لبني شهيد بالولاء.

(٤) هو عبد الملك بن إدريس الجزيري، أبو مروان، وزير أندلسي، من أهل قرطبة، ولي ديوان الإنشاء أيام أبي عامر، وبقي حتى أيام ابنه المظفر، فعز له واعتقله في طرطوشه إلى أن مات سنة ٣٩٤هـ وكان شاعراً أديباً كاتباً مترسلاً، انظر: البغية رقم: ١٠٥٨ والصلة: ٣٥٠ والمغرب ١/ ٢٠٤.

(٥) في الذخيرة: سليمان المستعين.

(٦) الذخيرة ق١ مج١ ص١٠٥ قال: فصل من رقعة كتبها عن المظفر بن أبي عامر.

(٧) في الذخيرة: فربّ شنع تحت مخيل النعماء، وغصصٍ في شهيّ الغذاء، وشرقٍ في غير الماء.

(٨) الذخيرة ق١ مج١ ص١٠٩، قال: له من أجزى عن سليمان إلى جماعة العبيد.

(٩) ليست في الأصل، وهي عن الذخيرة.

(١٠) في الذخيرة: دون سائر.

(١١) في الذخيرة: الصحابة بالشورى.

أمير المؤمنين[١]، وصهر نبيه مرتين[٢]، فلم ينكر فضله هاشميّ، ولا دافع إمامتهُ قرُشي، ولا نازعه الخلافة عربيٌ ولا عجميّ، ثم غلب الشقاءُ على أقوام فنالوا منه ما انفتح عليه باب الفتنة إلى يوم القيامة، فيا لها مصيبة صدعت شمل المسلمين، وأوهت قوى[٣] الدين، وافترق أهل الإسلام، بعدهُ فرقتين، ثم لم تجتمعا إلاّ على رجلٍ منا / ١٠٠/ ولم يجدوا غنىً عنّا[٤]، وقد آن أن تثوب الحلوم فتعود السيوف إلى أغمادها، والنبال في كنائنها، ونحن نعاهد الله ألاّ نؤاخذ أحداً بذنب[٥]، ولا ننطوي له على إمنةٍ بل نزيدكم في العطاء[٦]، ونترككم بمواضعكم التي ارتضيتموها، ندرُّ عليكم جباياتُها، وندفع عنكم جناياتُها[٧].

ومنه قوله[٨]:

ومتى بلغكم[٩] عن عبدٍ ثرَّبَ[١٠] على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجُندٍ شَغبَ على مُدَبِّره فأنجح؟ والحقُّ لا يضره قلّة أهله، والباطل لا ينفعهُ كثرةُ جمعهِ، فإن العاقبة للمتقين، وحزبُ الله هم الغالبون[١١]، وقد رأيتم[١٢] نتيجة آراء السفهاء، و(سوء عاقبة من تعرّضَ للبلاء)[١٣] والله تعالى ودينه وخلافته في غنىً عمّن عمد إليه[١٤]، وحادَّه، وألْحَدَ في الإسلام وشاقّه[١٥]، وشقَّ عصا الأمة، واستخفّ بحقوق الأئمة[١٦]، ولولا أن أمير المؤمنين يعلم[١٧] أنَّ ملأكم لم يجتمعْ على هذا الكتاب، ويوقن[١٨] أن أهل

(١) بعده في الذخيرة: ذو النورين.
(٢) في الذخيرة: وصهره عليه السلام مرتين.
(٣) في الذخيرة: أركان.
(٤) ولم يجدوا غنى عنا، ليست في الذخيرة.وبعدها فصلين عن الرسالة تركهما المؤلف.
(٥) بعده في الذخيرة: ولا نناله بعقوقٍ له ولابأذى.
(٦) في الذخيرة: بل نغفر ونصفح ونزيد في العطاء.
(٧) في الذخيرة: وتخصكم منافعها، ولا ننسىء في أموركم إذا سمعتم وأطعتم.
(٨) في الذخيرة: ق١ مج١ ص١٣٣. وهي فصل من الرسالة السابقة.
(٩) في الذخيرة: بلغكم قط.
(١٠) ثرَّب: ثرَّب عليه تثريباً، أي قبح عليه فعله.
(١١) بعده في الذخيرة: مع أن سفهاء كل طبقة أكثر من حلمائها.
(١٢) بعده في الذخيرة: قديماً.
(١٣) ما بين قوسين ليس في الذخيرة، وإنما ورد كلام كثير إلى قوله والله تعالى ودينه تركه المؤلف.
(١٤) في الذخيرة: عتَدَ عليه.
(١٥) في الذخيرة: عنه وشاقه، وبعده: وخرج عن الجماعة.
(١٦) بعده في الذخيرة: ونازع الأمر أهله. واعترض من الرأي فيما ليس من شأنه على من صيّره الله إليه، وأسلمه في يديه. واجتباه واصطفاه على علم منه.
(١٧) في الذخيرة: عرف.
(١٨) في الذخيرة: وتيقن.

الرأي[١] منكم لم يرضوا بهذا الخطاب، كان له[٢] في ذلك نظر يقيم الأودَ ويعرف الجَوَد[٣]، ومع أن الكظم[٤] من أخلاقه، والحلم مما ضرب في كريم أَعراقِهِ[٥]، ولو كشف لكم الغطاء، واجتلى لكم الغيب[٦]، لعلمتم صفاء سريرة أمير المؤمنين بلا ريب[٧].

ومنه قوله[٨]:

إن العاقبة للتقوى، وإنَّ كلمة الله هي العليا، ولا تبتئس فإنّ الحق يدمغ[٩] الباطل وإنْ لاحتْ للكذب[١٠] بارقة، وهبت له نافحة، فإنما ذلك استِدراج لأهلِهِ، وإملاء لحزبه، ثم يأخذهم بما اجترحوا، ويوبقهم[١١] بما اكتسبوا.

ومنه قوله[١٢]:

وإن كنتُ بحمد الله ومنّهِ كامل الأدوات، كثير الحسنات، ولكن الزيادة من فضل الله محبوبة من النجباء، مطلوبة من النبلاء، وأنت صدرهم السابق، وسهمهم الراشق[١٣]، وهاديهم المبرّز، وعاديهم المحرّز[١٤]، وقد نبذنا إليك مع فلان نبذةً في كتابنا، ولم يقنعنا دون غاية البيان[١٥]، ونهاية الإحسان، ولم يشفنا إلاّ إيضاح الدليل، وإقامة السبيل، وقد توالت المحن وطالت الفتن، ونجم النفاق، وشاع الخلاف، وطمع فينا من لا فضل فيه عن نفسه ولا قرار له دون رمسهِ. وأكثر الآفات شتات آرائنا، وأقوى دواعي أطماع عدوّنا إخلاف أوليائنا. وقد[١٦] علمت الكافّة ما أولاه أمير المؤمنين فلاناً من إحسانه وأفاضه عليه /١٠١/ من معروفة، فرفعهُ من الحضيض، وانتعشه[١٧] عند

---

(١) في الذخيرة: السواد.
(٢) في الأصل: لكم، وأثبت ما في الذخيرة.
(٣) في الذخيرة: ويعدل الميل.
(٤) في الذخيرة: الحلم والكظم.
(٥) بدلها في الذخيرة: والرفق والأناة من شيمه، وبعدها: فاقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته.
(٦) في الذخيرة: اجتُلي عليكم العتب.
(٧) بدلها في الذخيرة: لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم، ولا يني في منافعكم.
(٨) في الذخيرة: ق١ مج١ ص١١٤.
(٩) في الذخيرة: دافع.
(١٠) في الأصل: فإن لاحت الكذب، وأثبت ما في الخريدة.
(١١) في الأصل: وهو يفهم.
(١٢) الذخيرة ق١ مج١ ص١١٦، عن سليمان.
(١٣) سهمهم الراشق: لم ترد في الذخيرة.
(١٤) عاديهم المحرّز: لم ترد في الذخيرة.
(١٥) في الذخيرة: وقد نبذنا إليك في كتابنا مع فلان نبذة لم تضعها دون غاية البيان، ولم يسعنا إلاّ إيضاح الدليل وإقامة البرهان، وما بعده إلى قوله: وقد علمت الكافة. لم يرد في الذخيرة.
(١٦) من هنا سجله ابن بسام (الذخيرة ق١ مج١ ص١١٦) من رسالة أخرى، قال: إنه كتبها إلى ابن صُمادح.
(١٧) في الأصل: (من) وأثبت ما في الذخيرة.

الجريض، ونوّه به بعد الخمول، وكثّرهُ وهو قليل، فلم يشكر لله نعمة، ولا وفى له بذمّة، وظلّ يبني الغدرة[١] على غير أسّ. فخرَّ بنيانه[٢]، ورمى[٣] الرميّات في غير هدف، فأخطأت[٤] سهامهُ[٥] حتى اتّسع عليه الخرق، وأعضله[٦] الفتق، وأسفر[٧] له وجه الخذلان، وأسلمه غروره إلى الشيطان[٨]، وقرّب المواعيد الزور[٩]، ولبّس الأمور[١٠] وليس أمير المؤمنين[١١] بأوّل من أحسن فضاع إحسانُهُ، وسدّد فنكّب سنانه[١٢]، وفي الله[١٣] عوضٌ من كلّ فائت وخلف من ضائع[١٤]، وللأيام أعقاب تُديل المكروه[١٥] بالرضى، والشدّة بالرَّخا[١٦]، وقد علم من عرفنا، وأيقن من أنصفنا، أننا كنّا في عيشٍ هنيّ، ولبب[١٧] رخيّ، وعملٍ واسع، ومالٍ متتابع[١٨]، وجندٍ مطيع، وحصنٍ منيعٍ، وفي دون (ذلك)[١٩] مقنع، وأيسره ممتع.

ومنه قوله[٢٠]:

---

(١) في الأصل: الغدران، وأثبت ما في الذخيرة.
(٢) في الذخيرة: بناؤه.
(٣) في الذخيرة: وانتضل في.
(٤) في الذخيرة: فصافت، وصاف السهم حاد عن هدفه.
(٥) بعدها في الخريدة: وأصحابه يتساقطون علينا من كل حين أفواجاً، ويتتابعون إلينا نزّاعاً ارسالاً، لما يبدو من ضعف آرائه، وخبث مذاهبه، وقبح غدره، وتناكب مره.
(٦) أعضل الأمر: اشتد واستغلق.
(٧) في الذخيرة: استنفر.
(٨) في الذخيرة: وأسلمه غرور الشيطان، وما بعده، ذكره ابن بسام في فصل من أخرى (الذخيرة ق١ مج١ ص١١٧).
(٩) في الذخيرة: وقرّب المواعيد، ونمّق الزور.
(١٠) بعدها في الذخيرة: وأمير المسلمين يوجسُ الخيفة، ويخشى الخديعة، ويرى أعلام الريبة حتى وضح الفجر، وصرَّح عن زبدته المحض.
(١١) في الذخيرة: (هو) بدل أمير المؤمنين.
(١٢) بدلها في الذخيرة: واصطنع فسقطت صنائعه.
(١٣) في الذخيرة: وفي فضل الله.
(١٤) في الذخيرة: وفي جزائه خلف من كل ضائع، وبعدها: وفي إقبال رحمته غنى عن كل مدبر.
(١٥) في الذخيرة: وللأيام عقب تديل الكرة بالرضا.
(١٦) في الذخيرة: وتتسخ الشدة بالرخا وأورد ابن بسام ما بعده، من أخرى عن يحيى بن حمود إلى منذر بن يحيى:
(١٧) اللبب: المكان الرضي.
(١٨) في الذخيرة: وافر.
(١٩) ذلك، لم ترد في الأصل، واقتضاها سياق الكلام، وفي الذخيرة: وفي دون ذلك ما أقنع من عرف الدنيا بحقيقتها.
(٢٠) في الذخيرة: ق١ مج١ ص١١٩.

وقد قيل: إن الشكر[١]، وإنْ قلّ، ثمنٌ لكل نوالٍ وإن جلّ[٢]، ولو نظرت في أخبار الماضين، وكشفت عن سير الأوّلين. لوجدت ملوك الأمم على قديم الزمان قد تعاملت بالتعاون، وتواصت بالترافد، هذا وإن تنادت أوطانها، وتخالفت أديانها[٣]، والدهر أطوار، والأيام دول، ومع اليوم غدْ[٤].

ومنه قوله[٥]:

وليعلم أنا أخذناه من الحضيض الأوهد، وانتشلناه[٦] من العيش الأنكد، فرفعنا خسيستهُ، وأتممنا نقيصتهُ، وخوّلناهُ صنوف الأموال، وصيَّرنا حالهُ فوق الأحوال[٧]، وبَوّأناه منَ النعيم عليه ما أحوجَ الخاصّة والعامّة إليه، فلم يقم لله بحقّ[٨]، ولا قابل إحسانه بصدق، ولا عامل وديعته الرعيّة برفق[٩]، ولا تناول فريضة الله[١٠] عليه خدمتنا بحذْق، حتى إذا ملكهُ الأشر، وتناهى به البطر، وعلت به الأمور، وغرَّه بالله الغرور، واحتجن[١١] حرام الأموال، واستمال طغام الرجال، فصرعه بغيُه وأسلمهُ غدرُهُ، وأخذهُ الله بما اجترح[١٢]، وأوبقهُ[١٣] بما اكتسب، فأعجلناه عن تدبيره، وصار إلى سقر وسعيره[١٤].

ومنهم:

[٢٦]

أبو جعفر بن اللمائي[١٥]

دوحة علم مثمرة، وشرارة فهم مضمرة، سحَّ سحابة فأغدق، وساح بحرهُ

---

(١) في الأصل: الشكم.
(٢) بعدها في الذخيرة: كما قيل: إن المنّة تفسد الصنيعة.
(٣) في الذخيرة: وإن شحطت ديارها، واختلفت أديانها، وبعدها: وجعلت ذلك بينها حقوقاً تقضى، وفروضاً تؤدّى.
(٤) ومع اليوم غد، لم ترد في الذخيرة.
(٥) الذخيرة: ق١ مج١ ص١٢١.
(٦) في الأصل: وانبشناه، وهو تصحيف.
(٧) بعده في الذخيرة: فدلّله بذلك المنصور مولاي رضي الله عنه، فاعتمدته، ومهدت له فراش الكرامة، وبوّأته دار الفخامة، وأسبغتُ من نعمي عليه، ما أحوج..
(٨) في الذخيرة: لله تعالى.
(٩) في الذخيرة: ولاعامل رعيتنا برفق.
(١٠) في الذخيرة: ولا تناول خدمتنا بحذق، وبعدها: بل أعلن المعاصي...إلخ.
(١١) في الأصل: قد حتجن، وفي الذخيرة: حاول شقّ عصا الأمة، وهد ركن الخلافة والأمانة بما احتجن من حرام المال.
(١٢) في الذخيرة: اجترم.
(١٣) في الأصل: أوثقه.
(١٤) في الذخيرة: وصار إلى نار الله وسعيره.
(١٥) أحمد بن أيوب، أبو جعفر بن اللمائي، كان كاتباً لدى الناصر لدين الله علي بن حمود، ووزر له =

فأغرق، وجاء وأيام الأدب في رأد ضُحاها / ١٠٢/ وأغصان الأدباء في رداء لِحاها، والناس على الفضائل متوافرون، وعلى الفواضل متضافرون، وعصر المغرب عصر لتحليته بأصائله، وترديته بكرم خصائله، فجرى في آفاق ذلك المغرب مجرى الأصيل، وسرى مسرى البرء من العليل، فكان شهاب سمائها، وشباب مشابها، فطلع طلوع هلالها العلى، وأنار إنارة نجومها في العشي، وكانت المسامع تختطف حليةُ اختطاف البروق للأبصار، وتقطِفُ جنيَهُ اقتطاف الأيدي جنى الشّهد الأبكار.

قال ابن بسام[١]: أحد الأئمة الكتاب، وشهُب الآداب، ممن سُخِّرت له فنون البيان، تسخير[٢] الجنّ لسليمان، وتصرّف بمحاسن الكلام، تصرّف الرياح بالغمام، طلع من ثناياه، واقتعد مطاياه، وله إنشاءات شريفة[٣]، في الدولة الحمّودية، إذْ كان علم أدبائها، والمضطَلع بأعبائها[٤]، وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل من صناعته. على[٥] أكثر جماعته.

فمن نثرِهِ قولهُ[٦]:

ريح ودّي[٧] لك صباً، وزمن إقبالي[٨] فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماء إخائك، مُتفيّيء ظل[٩] وفائك، جانٍ منك ثمرة فرع طاب أكلهُ، وأجناني البرَّ قديماً أصْلُه، وسقاني برقه[١٠]، وروّاني ودقُه[١١]، وأنت الطالعُ في فجاجه، السالك لمنهاجه، سهم في الكنانة[١٢] صائب، وكوكب في السماء[١٣] ثاقب، وعلى الحقيقة فلساني يقصر عن جميل أسرّهُ، ووصف ودٍّ أضمرهُ.

= وتولّى تدبير مملكة، فعلا صيته، واشتهر، وعرضت له علّة، وعادت به حتى وفاته سنة ٤٦٥هـ، بمالقة، ودفن بحصن الورد بعهدٍ منه.
الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦١٧، والإحاطة ١/ ٢٤٠، ونفح الطيب ٣/ ٥٤٧، والجذوة: ٣٧٠. والمغرب ١/ ٤٤٦.

(١) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦١٧.
(٢) الأصل: فسحر.
(٣) في الذخيرة: سريّة.
(٤) بعده في الذخيرة: إلاّ أني لم أجد عند تحريري هذه النسخة من كلامه إلا بعض فصول له من منثور، وهي ثمادٌ من بحور.
(٥) في الذخيرة: والتقدم على...
(٦) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦١٨، والمطمح ٢٥.
(٧) في الذخيرة: إخلاصي.
(٨) في الذخيرة: آمالي.
(٩) في الذخيرة: ظلال.
(١٠) في الذخيرة: إكراماً برقه.
(١١) في الذخيرة: إفضالاً ودقة.
(١٢) في الذخيرة: كنانة الفضل.
(١٣) في الذخيرة: سماء المجد.

وموصّل كتابي هذا اختل ما أعهده[(١)] من أمره، وطمى[(٢)] عليه بحر دهرِهِ، فإن سبح غرق، وإن شرب شرق، وله أصل يوصله إلى استقلاله[(٣)] بك، واعتلاقه بسببك[(٤)].

ومنه قوله[(٥)]:

روضُ العلم في فنائك مونق، وغصنُ الأدب بمائك مورق، وقد لفظ بحرُ العلم درره، وأطلع روض الحزم[(٦)] زهره، فأهدى هذا مع فلان[(٧)] نفيس أجناسه، وبعث هذا بنسيم[(٨)] أنفاسه، فهو لؤلؤ أدَب، ونوّار طرب، يسقيك حنانه عقار اعتقاده. في كأس وداده، إلى ثمر[(٩)] معانٍ من بدائعه لا تُجنَى، فوق سحر بيان من غرائبه لا تُرتقى، فإذا لاحظها الفكر أنس، وإذا رامها يئس[(١٠)]، ولم يناد مجدك[(١١)] إلا لتجيبه، ولم يرم[(١٢)] بك إلاّ ليُصيبه، فأمطِر رجاءَه بعض طلِّك، ووسِّد جوازئه أبردي ظلِّك، فما /١٠٣/ ماؤك بوشل، ولا وردك بنهل، وفيها[(١٣)] أجر، ولدي[(١٤)] شكر.

ومن شعره قوله[(١٥)]:

قد قلتُ إذْ سار السفينُ بهم ... والبين ينهبُ مهجتي نَهْبا
لو أنّ لي ملكاً أصولُ به ... لأخذت كلّ سفينةٍ غضبا

ودخل عليه بعض أصحابه في علته التي مات فيها، فجعل يروِّح عليه، فقال[(١٦)]:

روَّحني عائدي فقلتُ له ... مَهْ، لا تردْني على الذي أجِدُ
أما ترى النارَ وهي خامِدَةٌ ... عِنْدَ هبوب الرياح تتَّقِدُ؟

---

(١) في الذخيرة: عهده.
(٢) في الذخيرة: وطغى.
(٣) في الذخيرة: استقلالٍ.
(٤) واعتلاقه بسببك: لم ترد في الذخيرة ولا في المطمح.
(٥) الذخيرة: ق١ مج١، وفيه: أنها إلى القاضي ابن عبّاد.
(٦) في الذخيرة: المجد.
(٧) في الذخيرة: فأهدى ذلك مع المنشد أبي محمد.
(٨) في الذخيرة: نسيم.
(٩) في الذخيرة: مشيراً إلى ثمر.
(١٠) في الذخيرة: أيس، وبعدها: ولم يسر إلا ليحمد سراه، ولا قصد إلا ليبلغ مناه.
(١١) في الذخيرة: بحمدك.
(١٢) في الذخيرة: يوم بك دهره.
(١٣) في الذخيرة: وفيه.
(١٤) في الذخيرة: ولديه.
(١٥) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٢١، والمغرب ١/٤٤٧، وقال ابن بسام بعدها: أنشد أبو منصور هذين البيتين للخباز البلدي في اليتيمة، وهما للخباز في الوافي ٢/٥٨.
(١٦) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٢١، النفح ٣/٥٩٦، والإحاطة ١/٢٤٣.

وله قصيدة قال منها[١]:

يا سيّدي وأخي الوفيّ وما أخي ... منه إلى قلبِ الإخاءِ بأقرَبِ
وإذا غدا العلم المشرّف أهلهُ ... نسباً يؤلِّفنا فنحن[٢] بنو أب
أخفتني الأيام في لهواتها ... وسجني فيها فكيف شعرت بي
وكتبت عن ودٍّ وقد كتب الإخا ... بين النفوس صحائفا لم تكتبِ
بأرقّ من دمع المشوق فؤادهُ ... وأرقِّ من ريق الحبيب وأعذبِ
صُبحٌ تدرَّع من سواد مداده ... ليلاً كفعلِ الزائر المترقبِ
خفيت معانيه على أفهامنا[٣] ... فالفكر بين مصدّق ومكذّبِ
أذكى من المسك الفتيق نسيمُهُ ... أرجاً وأصفى من لعاب الجُندبِ

ومنهم:

[٢٧]

أبو عبد الله البزلياني[٤]

محقق نقول، وملقح عقول، لم يزل مورد عذب صاف، ومعهد عدلٍ وإنصاف، منوع أفنان، ومنوّر جنان، تقلدته تلك الدول عقداً لجيدها، وردته تلك الليالي والأيام بجديدها. وكانت الملوك تودّ لو شدَّت به في أفنيتها، والدول لو شادت به دعائم أبنيتها. وتتنفس منه شذى المسك الأذفر، وتتنافس فيه منافسةِ الهادي والرشيد في زبيدة بنت جعفر، فلا يزال يتنسّم ريحه، ويتنسّم لمقدمه حتى حلَّ ضريحهُ.

قال ابن بسام:

من أدار الممالك[٥]، ودبّرها، وطوى المسالك[٦] ونشرها، وقال ابن حيان: ولما قبض ابن عبّاد[٧] على البكريين[٨] جعل مكانهم / ١٠٤/ ابنه محمداً، واستكتب ابن الزلياني، فصارت إليه مصائره، ودارت إليه دوائره.

---

(١) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٣٣.
(٢) في الأصل: فنحو.
(٣) في الذخيرة: أوهامنا.
(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني، أصله من مالقة، خدم حبّوس أولاً، ثم انتقل إلى بني عبّاد، وكان له دور في نورة إسماعيل بن المعتضد على أبيه. انظر: الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٢٤.
(٥) في الذخيرة: الملوك.
(٦) في الذخيرة: الممالك.
(٧) في الذخيرة: عباد.
(٨) بعده في الذخيرة: بأونبه وشلطيش، وتملّكها منهم سنة ثلاث وأربعين.

ومن نثره قوله[١]:

من النصح تقريع، ومن الحفاظ تضييع، ولكل مقام مقال، إذا عدِّي به عنه استحال، ووصل منك إلي[٢] كتاب[٣]، أومأت فيه إلى النصح، وذلك[٤] على سبيل النجح[٥]، وكان بالجملة أوله سِباب، وآخره إعجاب، والسِّباب لا ينطق به كريم، والإعجاب لا يرضى به حكيم[٦]. وما أحسن قول القائل[٧]:

وتجهلُ أيدينا ويحلُم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلُّمِ

فإن أردت أن تستصلح مني بسبّك فاسداً، وتقرب مني متباعداً، فما هذه شيم يقضي بها الفضل، ولا سياسة يحكم بها العدل، وإن كنت أردت التخويف والإيعاد، والإبراق والإرعاد، فقد كفاني قول الكميت:

أرْعِدْ وأبْرِقْ يا يزدُ فما وعيدك لي بضائر

وما ذكرته من الذي وقع بين الطائفتين من بني عمّنا بالعدوة، فكلّ امرىء بقدر، ولكلّ نبأ مستقر، والدنيا أحوال، والحرب سِجال[٨] وأكثر الوبال واقِعٌ على الظالم، ونازلٌ بالجارم[٩].

ومنه قوله[١٠]:

من رغب عن الفضل بنفسه ندم، ومن فرَّ من الليل أدركهُ حيث خيَّم، ومن لكلّ ظمآنٍ بعذْبِ زلال، ولكلّ آملٍ بنيل الآمال؟ وما كلّ مُسْتَسْقٍ يُمْطر، ولا كل طالبٍ يظفر، وما ضاق عُذْر وسِعَهُ حلمُك، ولا خذل[١١] من نَصَرَهُ عزمُك[١٢]، وما أحسن

---

(١) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٢٥ وفيه أنه فصل من رقعة عن حبّوس إلى ابن عبد الله أمير قرومنة.

(٢) في الذخيرة: إليّ تلك.

(٣) بعده في الذخيرة: طمست منحاه، وعميّت معناه.

(٤) في الذخيرة: ودللت.

(٥) بعده في الذخيرة: فوقفت على فصوله ومعانيه، وأحطت علماً بجميع ما فيه...

(٦) بعده في الذخيرة: وقد نزّهني الله عن المعارضة بهذا ومثله.

(٧) هو معبد بن علقمة المازني.

(٨) بعده في الذخيرة: وخيرهم وشرهم عنا بعيد، وكل من نصرك وأيدك فهو القريب الودود، وإن تفرقت الآباء والجدود، ومن شذّ عن الجماعة وفارقها، ونابذها وشاقها، فهو الجاني على نفسه وعليها، والجار سوء العاقبة إليه وإليها.

(٩) في الأصل: الحازم.

(١٠) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٢٨.

(١١) في الذخيرة: خذل دهر.

(١٢) بعده في الذخيرة: وما شعت يا سيدي عمراً لم أقطعه في دراك، ولا ثلث حظاً لم يكن بمسعاك، ولا حسّ لي عمل خالك هواك...إلخ.

العافية، ولا كحُسنِها بعد البلاء، وما ألذّ السعادة، ولا كلذّتها بعد الشقاء، وما أنفع الورد لغلّة الخوامس[١]، وأطيب الظِّل للضّاحي الشامس! ومن عدم الشُّفعاء شفعت له[٢] فضائلك، ومن قسا عليه الزمان[٣] لانت له شمائلك.

ومنه قوله[٤]:

والشمس بعد السحاب أبهى، والإمكان بعد التعذُّر أشهى[٥]، وأنا أحسد قرطاسي على ملاقاتك، وأغبطُ أنفاسي[٦] على مناجاتك، فإن مُنِعتْ منك عيني فقد رأتك في كلّ حسنٍ تراه، وإن حزنتُ للبعد عنك، فقد سُرِرتُ بما من لقائك أتمنّاه.

ومنه قوله[٧]:

ولمثلك تنفع التذكرة[٨]، وقد يهزُّ الصارم فيقد الدروع، ويهاج الضراغم فتفضُّ[٩] /١٠٥/ الجموع، وحماك الإسلام فكيف يباح؟ وركنك الإيمان فكيف يزاح؟ وجارك الأدب فكيف يهتضم؟ أو تغير عليه عين الوقاح[١٠]؟

ومنه قوله[١١]:

هذا الوقت الذي كنت أتأياه[١٢]، والحين الذي ما زلت أتمنّاه، والزمان الذي قاسيتُ فيه تعب الانتظار، وقطعت إلى بلوغه مسافة الليل والنهار[١٣]، فلا يجتمع رجاؤك واليأس في قلب، ولا تحلّ محبتك والحرمان في خلب.

ومنه قوله[١٤]:

والكبرياء رداء الله الذي من جاذبهُ إيّاه قصمهُ، والتقى الذي من تعلّق به عصمه، وما تكبر متكبِّر إلا من جهله، وعجبُ المرء أحد حسّاد عقلِهِ[١٥]، وجئتك زائراً، فكأني

(١) الخوامس: الورود بعد خمس.
(٢) في الذخيرة: قامت أمامه.
(٣) في الذخيرة: الزمن.
(٤) الذخيرة: ق١ مج١ ص٦٢٩ وهي صلة لما قبلها.
(٥) بعده في الذخيرة: ومن يحسد مناوئاً، ويغيظ مضاهياً، فأنا أحسد..
(٦) في الذخيرة: نفسي.
(٧) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٢٩.
(٨) بعده في الذخيرة: فكيف أنبذها؟
(٩) في الأصل: فتنفض.
(١٠) ليست في الذخيرة، وبدلها: وحزبك القرآن فكيف يغلب ويذم.
(١١) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٣١.
(١٢) كتبت في الأصل بأحرف مهملة، ولعلها: أتأتاه.
(١٣) بعدها في الذخيرة: وإلى مثلك يتقرب بإخلاص الوداد، ومن فضلك تجتنى ثمرة حسن الاعتقاد.
(١٤) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٣٣ وفيه: وله من أخرى إلى أبي جعفر بن عباس، وقد زاره فلم يوفّه حقهُ.
(١٥) بعده في الذخيرة: والمتكبّر في النفوس صغير، والمتواضع في الصدور كبير، والرفيع من ترفّع عن الدناءات، والوضيع من ادّعى لنفسه واجباً وضيّع الواجبات.

جئتك آملاً، وأردت مصافحتك فما مددت يداً، وطلبت معانقتك فخلتك مقعداً، وبعد أن هممت بالنهوض أقعدك الكسل، كأنك غادة[١] أثقلها الكفل، وجعلت تشير بالحاجب وتلوي بالشّفة، وتدَّعي بالجهل في كلّ شيء معرفة، فما كان ضرَّك حين أخللت لو كنت أجللت[٢]، وما كان يسؤوك حين ناظرت لو أجملت، وما كان ينقصك إذ[٣] حكمت لو عدلت[٤]؟

وما أبرأ نفسي من زلةٍ ولا أعصِمُها من خلّة[٥]، فالأديب يجعل للأديب مخرجاً، ولا يجعل باب العذر له مُرْتجاً[٦]، هيهات، غلبك على الحق أهلُه، وقفاك عنه جهلهُ[٧]، وستحصد ما زرعت[٨]، وتعلم ما صنعت[٩].

ومنه قوله[١٠]:

كتبتُ[١١]، ومشارب الآمال قد تكدَّرت، ووجوهُ المحاسن قد تغيّرت[١٢]، إلاّ أن يتلافى الله الخلل بسديد[١٣] نظركما، فيرقع المتخرّق، ويجمع المتفرِّق[١٤]، فتعود الأيدي متساندة، والنفوس متعاضدة[١٥]، والأنحاء واحدة، والدماء محقونة، والعاقبة مأمونة[١٦]، واتصل بي ما وقع بينكما وبين فلان[١٧] من التنازع الذي أخافُ أن يفضي

(١) في الذخيرة: خمصانة.
(٢) في الذخيرة: لو أجللت.
(٣) في الذخيرة: حين.
(٤) بعده في الذخيرة: زعمت أين اخطأت في كتب (سحن الوجه) بالسين، وطمست طرق المخارج لي وهي تستبين...إلخ.
(٥) في الذخيرة: ظهور خلّة.
(٦) بعدها في الذخيرة: وفي فصل منها: ومن العجب أن تنسبني إلى الشعوذة.. إلى قوله: هيهات هيهات.
(٧) بعده في الذخيرة: وكفاك ما طار لك من حسن الذكر، وطلب النشر، ومثله فاعل. وعلى ما كسبت منه فتوكلّ.
(٨) في الذخيرة: الذي زرعت.
(٩) في الذخيرة: عاقبة ما صنعت.
(١٠) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٣٧ وفيه: وله (عنه) إلى صاحبي شاطبة.
(١١) بعده في الذخيرة: ياسيدي.
(١٢) بعده في الذخيرة: وأيدي التوازر قد قصرت، وسبيل التناصر قد توعّرت.
(١٣) في الذخيرة: بتسديد نظركما، وبعده: وينعش الأمل بحميد أثركما، فينظم الشمل، ويصل الحبل ويسدّ الثلم، ويشدّ الحزام.
(١٤) بعده في الذخيرة: ويضع الإصر، ويرفع الوزر، ويعيد الكلمة متفقة، والأمة متسقة. والأيدي متأيّدة.
(١٥) في الذخيرة: والنفوس متوددة، والأهواء متعاضدة.
(١٦) بعدها في الذخيرة: والله تعالى يعين كلاً على الصلاح، ويفضي بنا إلى النجاح. بعزّته.
(١٧) في الذخيرة: المظفر أبي محمد.

بكما إلى التقاطع، وورد عليّ كتابكما[١] في ذلك بما ترقبتُ انصرام أجله، وانصرام علله[٢]، حيث خشيت أن يتمادى بكم اللجاج ويتعاصى في أموركم [العلاج][٣] فلم أر نفسي في سعة من إهمال التذكرة وإغفال التّبصرة، والله يعيذ الكلَّ من الشتات والشّمات، ويعيدكم إلى المواساة والمواتاة، وقد علمتم[٤] ما في صلاح ذات البين[٥] من دعة الأجسام، والرّعة عن الآثام[٦]، والحرب مشتقة[٧] من الحرب، مع ضنك المنقلب[٨]، تؤتم الأطفال، وتلتهم /١٠٦/ الرجال[٩]، ورجالها[١٠] نادم، وباقيهم واجم، مع الذي يحملون من أوزارهم[١١]، ويحتقبون من آصارهم بالاستنصار[١٢] بالنصارى على المسلمين، يقتلون ويأسرون[١٣]، فالأموالُ مستهلكة، والحرمات منتهكة، والدماء مهراقة، والنساء مستاقة، وعقد الدين مفسوخ وعهد الإسلام منسوخ[١٤]، وإن نفذ هذا ـ وأعوذ بالله ـ فهي حال مؤذنة بالذّهاب، وجريرة صائرة[١٥] إلى الخراب، ولم نأمَنْ أن يظهر لهم من الخلل في بلادنا، والقلّة من[١٦] أعدادنا، ما يجرّ لهم علينا، ويجرّبهم[١٧] إلينا[١٨]، وتلك الواقعة التي لا ينتعش عثورها، والقارعة التي لا ينجبر كسيرها.

ومنه قوله[١٩]:

---

(١) بعدها في الذخيرة: الكريم.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّها تحريف، وفي الذخيرة: وتنظرت انحسام علله.

(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها عن الذخيرة، وبعدها فيه: وأشفقت من إذلال الشيطان بمخاتله وإطلال الخذلان بحبائله...إلخ.

(٤) في الذخيرة: ولم يخف عليكما.

(٥) بعدها في الذخيرة: من الفوز بخير الدارين، وأمن العباد، وخصب البلاد، وإعزاز الدين، وإذلال القاسطين، وتوهين المشركين، وقوّة العضد، ووفور العدد.

(٦) بعدها في الذخيرة: وستر العورات، وحفظ الحرمات.. إلى كلام كثير.

(٧) في الذخيرة: مشتقة المعنى.

(٨) في الذخيرة: المتغلّب.

(٩) بعدها في الذخيرة: سوق لا ينفق حاضروها غير النفوس والأرواح، وشربٌ يتعاطون المنايا بظبا السيوف وأطراف الرماح، مصروعهم داثر، وصارعهم خاسر.

(١٠) في الذخيرة: وماضيهم.

(١١) وبعدها في الذخيرة: وأوزار مع أوزارهم.

(١٢) في الذخيرة: تسليط النصارى.

(١٣) في الذخيرة: وعيثهم في بلادهم يقتلون.

(١٤) بعدها في الذخيرة: والكفر عالٍ على افيمان، والسوء غالب على الإحسان...إلخ.

(١٥) في الذخيرة: تؤذن.

(١٦) في الذخيرة: في.

(١٧) في الذخيرة: ويجرّهم.

(١٨) بعدها في الذخيرة: بما لا نقدر على مكاثرتهم فيه، ولا نقوى على مصابرتهم به.

(١٩) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٤١.

الحسب[١] في مواطنه[٢]، كالذهب في معادِنِهِ، والشرف في الأشراف، كالدّرر في الأصلاف، والمجدُ في أهله، كالفرع في أصله، ومن أضاءت به آفاق تجيب[٣] وورث السيادة نجيباً عن نجيب، وكان الكرم فيه كالفرند في القواضب، والضياء في الكواكب، والصفاء في الماء، والروح في الهواء[٤]، وإن لم يحظ بك العيان، ولا أسعد بقربك الزمان، فالرؤية بالقلب لا بالعين، والقرب بالنفس لانقلاب البين[٥]، ومن كان مثالك نورُ ناظِرِهِ، وخيالك سميرُ خاطِرِهِ، فقد قاربك مقاربة الارتياح[٦]، ومازجك[٧] ممازجة الماء للراح[٨]، وأنا أحمد [يوماً][٩] وصلني بمعرفتك، وذمّ دهراً قطعني عن صلتك.

ومنهم:

[٢٨]
أبو حفص، عمر بن شهيد[١٠]

طابع زبر بقوّة وأيد، وجاني شهد من شهيد، كان ساحب مطارف، وصاحب معارف، يدنو ثمره لقاطف، ويجلو غرراً ومعاطف، وكان في الأفق الغربي شرخ صباه، ومهب قبول أدبه وصباه، يتيه به والأندية عامرة، والأبنية لمقل النجوم مسامره، وتلك المعاهد معاهد جياد تستبق، ومعالم أجواد تصطبح الكرم وتغتبق، حتى نَعَق فيها غراب البين بالشتات، وطلّق الأمن عروشها الطلاق البتات.

قال ابن بسّام[١١]: وهو وإن لم يزِر لملك. ولا دارت[١٢] عليه رحى فلك[١٣]،

---

(١) بعدها في الذخيرة: أعزك الله.
(٢) في الأصل: مواطنها.
(٣) في الذخيرة: ومن حازت له آفاق المعالي تجيب.
(٤) كذا في الأصل، وفي الذخيرة: الأحياء.
(٥) في الذخيرة: والقرب بالنفس على الدنو والبين.
(٦) بعدها في الذخيرة: للأرواح.
(٧) في الذخيرة: بل مازجك.
(٨) بعده في الذخيرة: وإذا كان المتقد من الإخوان أوفاهم ذمّة، والمعتمد عليه في الحوثان أعلام همّة..إلخ.
(٩) الزيادة عن الذخيرة.
(١٠) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٧٠، وترجم له الحميدي في الجذوة ص٨٣، قال: لا أحفظ اسم أبيه، وهذه صفة نسب إليها فغلبت عليه، وهو شاعر رئيس شاعر مشهور بالأدب كثير الشعر، متصرف في القول، مقدم عند أمراء بلده، وقد شاهدته في حدود الأربعين وأربعمائة بالمرية وكتبت عنه من أشعاره طرفا. وانظر: المغرب ٢/ ٢٠٩. والبغية رقم: ١١٦٥ ونفح الطيب ٣/ ٤١٣.
(١١) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٧٠.
(١٢) في الذخيرة: ولم تردْ.
(١٣) في الذخيرة: ملك.

ليس بمتأخر عن طبقات المحسنين، ولا بسكيت حلبات المجيدين، وقد خرّجتْ[١] له ما يشهد برسوخ إعلامه وشهرة أيامه.

ومن نثره قوله[٢]:

أتيتك[٣] بأحدوثة عجب تُضْحِكُ /١٠٧/ سنّك[٤]، فما زالت النوادر مستغربةً، سيَّما نوادر زغلة الكتاب[٥]، وجهتُ فلاناً إليَّ بكتاب[٦] وكنت ـ علم الله ـ حين موافاتي[٧] بمنزلي حليف ألم، أطلتُ عليه التململ وأسهرني ليلي[٨] الأطول، وقد انفضَّ عني من كان عندي[٩] رجاء غفاءة[١٠] أستشفي بها، وأستردُّ بعض مُنّتي في أطراف هدبها[١١]، فقرع الباب قرعاً مُنكراً، تمثل الحرج فيه[١٢] ويبدو[١٣] الضجر في تواليه، فتداخل الخادم رعبُ، وقالت: وهو خطب، ثم خرجتْ على تحاملُ بروعة جنان، ولجلجة لسان[١٤]، تنقل قدمها إليه على وجل:

كما يمسُّ بظَهْرِ الحيّة الفَرِقُ ثم قالت: من الرجل؟ فانغض رأسه نحوها، وقبض على لحيته بيمينه، وأحدَّ النظر إليها وتنهَّدَ وقال: أوه على طموس رسم الأدب، وتمثّل:

إنّي لأفتح عيني ثم أُغلقها   على كثير ولكن لا أرى أحدا[١٥]

ثم التفت[١٦] إلى الخادم، وقال: يا لكعاء أنت في نزيه العيش[١٧]، وفي ذلك لم تحفظي بيتاً[١٨] من الشعر يحسن به أدبكِ، ويحجُركِ أن تقولي مَنْ الرجل؟ أين أنت يا لكعاء من قول أبي تمام[١٩]:

يحميه لألاؤهُ ولوذعيّتُه   من أنْ يُذال بمن أو ممّن الرجَلُ

---

(١) في الذخيرة: أخرجت.
(٢) في الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٧١.
(٣) في الذخيرة: أبثك.
(٤) بعدها في الذخيرة: وتطبق بالطيب وقتك.
(٥) في الذخيرة: لا سيما نوادر علية الكتبة.
(٦) بعدها في الذخيرة: يخصك ما تضمنه.
(٧) في الذخيرة: موافاته منزلي.
(٨) في الذخيرة: ليلة.
(٩) في الذخيرة: معي.
(١٠) في الذخيرة: غفوةٍ.
(١١) في الذخيرة: منتي بها.
(١٢) في الأصل: الجرح، وفي الذخيرة: يتبيّن.
(١٣) في الذخيرة: ويظهر.
(١٤) بعده في الذخيرة: ومنطق جبان.
(١٥) البيت لدعبل بن علي الخزاعي (ديوانه ص١٤٢) والعقد الفريد ١/ ٢١٦ و٢/ ١٣٤ وروايته فيها: لأفتح عيني حين أفتحها.
(١٦) في الذخيرة: أقبل.
(١٧) في الذخيرة: ترفّه العين معرفة الحلو والمر. والخشن من اللين، وفي كل ذلك لم تحفظي.
(١٨) بعدها في الذخيرة: واحدا.
(١٩) ديوانه: ٢/ ١٨٤، وفيه: أو لوذعيتهُ.

وأقسمُ لو أنك امرأة من الأزد، أسدُ الباس، ومقاديم الناس، لرأيت لألأة الأزدية في أسِرّةِ وجهي، ولولا تحفّزي للأمر الذي أردت[١] له، لكان لي ولك خطبٌ، ولأعطيتك قانوناً في الفراسة والزجر، ونبذت إليك علماً[٢] من علوم الدهر، لا يلتبِسُ عليكِ معه الشريف أيام عمرك، يا هذه قولي لربّ هذا[٣] المنزل يترمرم لإنفاذ هذا الكتاب، فقالت له الخادم: عافاك الله. إنه عليل، ومن وصله ثقيل، وقد برَّح به السهر، ولان لغفوته السَّحر، ولا بدَّ من التخفيف عنه، فجرجر جرجرة العودِ الدَّبر، وتزيَّد من الحرج والحصر[٤]، وقال: بَسْلٌ علينا معشر الأزد أن نغري ولا نخلق، أو نتوجّه في أمرٍ فلا نحقق، يا هذه، ليس هذا إيوان كسرى، فيتزوّد لاستنجاح[٥] الحاجة به: المالَ والصبر والعقل، ومن العجب وقوفي معك منذ اليوم أضرب لك الأمثال وأحرف المقال، وأنتِ /١٠٨/ لاهية[٦]، لا يعنيك أمري، أترين صاحبك شرب من الخمر أقداحاً، وسمع نوبات[٧]، فلما اعتدل مزاجُه، وتوارت وجوه النوب[٨] عنه، قال للدهر: أدِرْ دوائرك، فإني لا أعلم[٩] بك، قد علمتُ علتهُ، أقسم لو أنَّ به ألف علَّة، تكون حياته من جميعها مُختلة، لينفذنَّ هذا الكتاب، (قالت له الخادم)[١٠]: ويحك ما أجفاك من وافد الأزد أين منك رقّة الحجاز وفصاحة نجد؟ ما أقبح هذا العقوق، بمن شرب ماء العقيق، وأسوأ هذا الأدب ممن ينتمي إلى ذؤابة العرب! فقال: يا لكعاء، إنك تجادلينني عن نسبي؟ وحياة ما نقلته من الخبر[١١]، وتجشمته من الخطر[١٢]، لينفذنَّ هذا الكتاب أو لأشهدنَّ عليه بالعصيان والتكاسل، والتواني والتثاقل، فمثلي لا يرد[١٣] إلا بحزم، ولا يصدُرُ إلا عن فضل، قالت له الخادم: ما أسوأ تقديرك للأمور! لئن كان مخموراً خُمار وصب، فهؤلاء الشهود معهم شرب، وعندهم طرب، وصاحب المدينة منه بنسب، وعلى صلة سبب، فأين نذهب؟ فشمخ بأنفه وكسر من طرفهِ، وتمدّد[١٤] في الزفرة، وتردّد في التلهف[١٥] والحسرة، ثم قال: أفٍّ للدنيا، فما تزال

---

(١) في الذخيرة: وردت.
(٢) في الذخيرة: بعلم.
(٣) هذا. ليست في الذخيرة.
(٤) في الذخيرة: الضجر.
(٥) في الذخيرة: فتتزود لاستخراج.
(٦) في الذخيرة: لاهية عنّي.
(٧) النوبات، جمع نوبة، وهي الدورة الغنائية.
(٨) في الذخيرة: النوائب.
(٩) في الذخيرة: أعبأ.
(١٠) سقطت من الأصل. وأثبتها في الذخيرة.
(١١) في الذخيرة: الخطى.
(١٢) في الذخيرة: البيداء.
(١٣) في الأصل: يحرد، والتصويب عن الذخيرة.
(١٤) في الذخيرة: ومدّد الزفرة.
(١٥) الذخيرة: وردّد التلهّف.

تعنّينا بمثل هذه الهنات، فلما شدَّ على شسعهِ للانصراف أقبل على الخادم فقال:

قفي قبل التفرق يا ضُباعا ولا يكُ موقفٌ منك الوداعا[١]

أما إنك لو لم تكوني بأهليّة الضئضيء أحرقتك[٢]، ولكن سأودع عندك[٣] أرجاً يدلّ على موقفي في هذه البحبوحة، أنا العتكيّ الحسب والنسب، وذو الهمّة والأدب، فقولي[٤] بما شهدت، وحدّثي عما عانيتِ، وما أراك تجدين ظاهراً تقيمين به فرض الثناء عليّ، اذهبي لا محفوظة ولا مكلوءة، ثم انحدر فما علمنا ما كان منه.

ومنه قوله[٥]:

ولم تزل الجياد تمعج[٦] بكماتها، والشمس تنتقل في درجاتها، حتى أشرفنا على عينٍ كالدينار، كأنما هُندِستْ بالبركار، ذات ماء ريّان من الشّنب والخصر، وحصباء كالأسنان ذوات الأشر[٧]، وقد حفّ بها النبات احتفاف[٨] الشارب بفم الأمرد، وتزينت بخضرةٍ كالمرآة الصقيلة طُوِّقت بالزّبرجد.

وقوله[٩]:

فأصغيتُ فإذا بضرب ناقوس، في دير قسّيس، وقرية آنة كلّها حانة[١٠]، دار البطاريق /١٠٩/ وملعب الكأس والإبريق، سائمتها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياهها الأنبذة والخمور، وشكلها مثلث مسطوح، هندسته حواريّ المسيح، بناتها غصونٌ من قدود، تهتز في أوراقٍ من برود، وتثمر رماناً من نهود، وتفاحاً من خدود، وعقارب من أصداغ، وأفاعي من أسورةٍ وعقود، فيها مدامٌ من رِضاب، وشفاه من كواعب أتراب[١١]، وارتجاج بكثيبٍ في مِرْط، وجولانٌ لنطاق، وغصصٌ لخلخالٍ[١٢] وحَبَبٌ في ألفاظ، ومواعيدُ بألحاظ، وقلوب تكلف وتُشْغف، ونفوس تنشا وأخرى تتلف، فلما أكثر محدثنا بحضرة الفقيه، من هذا التشبيه، ومن هذه المحاسن، (المحركات)[١٣] لكثير من السواكن، قطّبنا له وجوه الاستكراه، وعضضنا له على الشفاه، فبينا نحن كذلك نكثر لغطاً، ونرى الحلول بالمسيحيين غلطاً، إذْ نظرنا إلى

---

(١) البيت للقطامي، ديوانه: ٣١.

(٢) في الذخيرة: لعرفتك.

(٣) في الأصل: سأدعُ منك.

(٤) الذخيرة: فمن سألك فقولي ما شهدتِ.

(٥) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨١.

(٦) في الأصل: بنا تنعج.

(٧) في الأصل: الأنسر.

(٨) في الذخيرة: حفيف.

(٩) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨١.

(١٠) في الأصل: وقرية كلها حانة.

(١١) بعدها في الذخيرة: وغيدُ لمهوى قرط.

(١٢) بعدها في الذخيرة: في ساق.

(١٣) ليست في الأصل: وأثبتها عن الذخيرة.

اطّراد[١] صفوف، من أعطافٍ خنثةٍ وخصورٍ هيف، وشموسٍ وأقمار، على أفلاك جيوب وأزرار، لا سيوفَ إلاّ من مُقَل، ولا دروق إلاّ من خجل، ولا عارض إلا من خلوق، ولا صناعة غير تخليق، ولا اسم غير عاشق ومعشوق، فتشفّع (القسيس)[٢] بحسن خدودهم، وأقسم بنعمة قدودهم، إلا أجزلتم المنّة، وثنيتُم الأعنّة، تعريجاً إلينا، وتحكماً في المال والولد علينا، وكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة، وجُلنا جولان الزنانير، على هيف الخصور، نغصُّ بما بقي من الطريق، غصص الدمالج[٣]، بخدال السوق[٤]، حتى وافينا الباب، وأنخنا بالركاب، وتولّى تولي الحرّ، ضروباً من البرّ، غير أنّه قنع بالدنّ وجهَ مدامة، تقنّع الوردِ بأكمامه، وقضانا من الإكرام نافلةً وفرضاً، وشددنا الجياد عنه ركضاً، وسرنا حتى رفع إلينا في طريقنا الجدُر[٥]، فإذا كنيسة عالية الأطلال من الجمال، إلاّ تعلّة المتوسّم، بالتخيّل والتوهّم، كوجه[٦] الكريم أخلقهُ ابتذالهُ، أو كخدّ الأمرد تغشّاه سِبالُه، فهيّج ذكراً، وأوجد ذكراً، فأنشدت:

وكنيسةٍ أخذ البلى منها كما ... أبصرتُ فيئاً في مُغارٍ يُنهَبُ
نمّتْ علينا في السفارة نفحةٌ ... من ماء كرمةٍ كان فيها يُسكبُ
/ ١١٠/ أهوى إليها بالمطيّ تخيُّلٌ ... منّا يُريني[٧] والأماني تكذبُ
فتوافت[٨] الركبانُ في عرصاتها ... كلٌّ بها متحيّرٌ مُتَعجّبُ
أنّى تأتّت لابن آدم قُدْرَةٌ ... حتى استقام وتمَّ ذاك المنصبُ
ومن أيّ أرضٍ كان رائع مَرْمرٍ ... كسواعِد الغزلان فيها يجلَبُ
كم صاد إبليسُ بها من سائبٍ[٩] ... بحبائلِ ألقَى بِهنَّ ترهُّبُ
وكم[١٠] ابتنى القسّيس فيها منبراً ... من جؤذرٍ وبدا عليه يخطبُ
سقياً لها من دار غيٍّ لم يزَلْ ... فيها كريم بالملاح يعذّبُ[١١]
كلا ولا زالت[١٢] نجومُ مُدامةٍ ... فيها بأفواه الندامى تغرُبُ
بئس المصلّى إن أردت تعبُّداً ... فيه ولكن كان نعم المشرب

ثم أغذذنا سيراً، وكأننا نُنَفِّر طيراً، حتى نظرنا من السائمة تسوح في مروجها.

---

(١) في الأصل: طراد.
(٢) ليست في الأصل، وأثبتها عن الذخيرة.
(٣) في الذخيرة: غصّ الدماليج.
(٤) في الأصل: السيوف، وأثبتّ ما في الذخيرة.
(٥) في الذخيرة: لنا في طريقنا جدر.
(٦) في الذخيرة: كالثوب.
(٧) في الذخيرة: بريء.
(٨) الذخيرة: فتواقف.
(٩) الذخيرة: تائب.
(١٠) في الأصل: ولم.
(١١) الذخيرة: معذّب.
(١٢) الذخيرة: وما.

كالعذارى تميسُ في دبابيجها، كلأٌ نظير، وماءٌ نمير، وما زِلْتُ أَرَوي هنالك بالرائبِ والميسِ[١]، حتى كاد كياني[٢] ينقلب إلى كيان التيس، ثم رحلنا وتذكّرنا الطراد، فمشت الجياد، وتواثبت الآساد، حذرت[٣] تنظر من أمثال الدنانير، وتتخطّف بأشباه المرهفة الذكور، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق، إلى قلوب العشاق، فلم نرَ إلاّ ريشاً محلوجاً، ومنسراً يُحسن توديجاً[٤]، ووردنا ماءً في رقّة النسيم، ولذاذة بنت الكروم، فشربنا وطعمنا، وقربنا سباع الفلاة، بما فضل عن الكماة ونقشتُ على قرقرة بيضاء ساعة وردنا ذلك الماء:

يـــاربِّ مـــاء عـــازبٍ مَـــجُّـــه — مَـزْنُ هـزيـم الـوِدْق فـي سبْـسَـبِ
زبــرجــدٌ جــلَّـــلَـــهُ مــكـــثُـــه — غــشــاهُ ديــبــاج مــن الــطّــحْــلُــبِ
إن كــان فــيــمــا قــد مــضــى مــورداً — فــلــلــعــطــاشِ الأســدِ والأذؤبِ
بــاكــرتــه مــع كــلِّ ذي هــمّــةٍ — لا يــرتــضــي الأفــلاك عــن مــركــبِ
ولــغــطَ الــطــيــر بــأرجــائــهِ — كــلــغــط الــصــبــيــان[٥] فــي الــمــكــتــب
/١١١/ فانقضّ من أيماننا كوكبٌ — ذو نــاظــرٍ أنــور مــن كــوكــبِ
مــكــحّــل الآمــاق ذو مــنــســرٍ — يــســتــرزق الــرحــمــن مــن مــخــلــبِ
فــاســتــشــعــر الــطــيــر هــروبــاً وهــلْ — عــن نــازلِ الــمــقــدور مــن مــهــربِ
فــصــادَ مــا أوســع صــحــبــي قــرًى — وفــاض فــي الأبــعــد والأقــربِ
صــيــدٌ لــعــمــري لــم يُــعــبْــه ســوى — إن لــم يــكــن نــقــلاً عــلــى مــشْــربِ

ثم لم نزل نسري سري النجوم في الدياجي، إذْ تلقانا شاب، كما ذُهِّب عقيق خدّيه، ونم شاربه بالتذكير عليه، مُتقلِّدٌ حسام[٦] كأنما طبع من لحظه لا من لفظه، على جوادٍ ظمآن الأسافل كخصريه، ريّان المعاليّ[٧] كردِفيه، تستعيذ عيونُ البررة من النظر إليه، وتزدحم أطماع الفجرة حواليه:

ذو مــقــلــةٍ شــهــلاء رومــيّــةٍ — وذو لــســانٍ عــربــيّ مــبــيــن
قــلــت وقــد عــيــب بــتــثــلــيــثــهــا — مــقــال ذي رأيٍ وعــقــل رصــيــن

(١) الميس، مصالة اللبن.
(٢) في الأصل: كتابي، وهو تصحيف.
(٣) كذا في الأصل، وقبلها في الذخيرة: واستعدّ ببازٍ وكلاب، فإذا بحرٌ من برك، يخرقُهُ سفين من برك. وفي السيّور صقور إذا نظرت، وليوثٌ إذا جردت، تنظر من...
(٤) التوديج، الفصد.
(٥) في الذخيرة: الصبية.
(٦) في الأصل: حساماً.
(٧) الذخيرة: العوالي.

طلعته الدنيا، وقل[١] قلّما يُجْمَعُ للإنسان دنيا ودين

فلما بلغنا قبّل عرف جواده، وعبراتُه تنسكب على نجادِهِ، قلنا، ما لك لا أبا لك؟ قال: منقلبٌ[٢] من السجن، وآبقٌ من أهل الحصن، وعائدٌ من ظلمات الغواية، بنور[٣] الهداية، ومن ذلّ عبادة الأوثان، إلى عزّ عبادة الرحمن، ولي خَبَرٌ أريد أن أقصّه، ويمتنّ الفقيه[٤] أن يسمع نصّه. فخرج إليه الاذن. وقيل له اذْن، فقضى فرض التحيَّة ونافِلتِها، ثمَّ قال: أيها الفقيه، للأشياء غايات تنتهي إليها، ومقادير تجري عليها، وأما[٥] والذي أسعد قوماً بالهداية، وأثابهم عليها، وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم عليها، لقد أنْحلتني عبادة الطواغيت، فعبدتُ الصليب، وقرعتُ الناقوس، وفعلتُ كلّما قرّت به عينُ إبليس، قدرٌ لم يكن ليخطئني ولا يتخطّاني، إلى أن استنقذني ربّي وهداني. وأنا أشْهدُ[٦] أن لا إله إلا الله واحد[٧]، ليس له ولد ولا والد، كان ولم تكن الأكوان[٨]، مخترع الكل، ومنشِئُهُ، ومُعيدُهُ، ومبدئه[٩].

ومن شعره قوله[١٠]:

أبدى عليٌّ فرحةً بمحمدٍ	أبدتْ مسالك في الصفاء جلائلا
/١١٢/ سبط اليدين كأن كل غمامةٍ[١١]	قد ركبت في راحتيه أناملا
لا عيش إلا حيث أنت وإنّما	تمضي ليالي العمر بعدك باطِلا
لا عُطِّلت منك الحياة فإنّها	لولاك ما سرَّت لبيباً عاقِلا

وقولهُ[١٢]:

جوادٌ كأنّ الأرض جمعاء راحةٌ	له وبحورُ الأرض خمس أنامُلِ
ليهْنِ تُجيباً أنها عندما اغتدتْ	قليلا له سادت جميع القبائل

وقوله[١٣]:

---

(١) الذخيرة: ويا.
(٢) الذخيرة: منفلتٌ.
(٣) في الأصل: بنار.
(٤) بعدها في الذخيرة: وفّقه الله.
(٥) بعدها في الذخيرة: أما والخلاق العظيم، والفاطر الحكيم، الذي أسعد...
(٦) بعده في الذخيرة: أيها الأشهاد.
(٧) في الذخيرة: أن الله إله واحد.
(٨) بعدها في الذخيرة: لا أرض ولا ماء ولا دُخان.
(٩) بعده في الذخيرة: له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى.
(١٠) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨٦، والمغرب ٢/ ٢٠٩.
(١١) في الأصل: مدامة، والتصويب عن الذخيرة والمغرب.
(١٢) الذخيرة ق١ مج٢ ص٦٨٧.
(١٣) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨٨.

دون الظباء ظباً جَدَّ الصليل بها ... والرعدُ والبرق بين الشمس والقمرِ
وفي الهوادجِ أبشارٌ كأنّ لها ... وجوه جدوى أبي يحيى على البشرِ
ملك له سيرٌ في الملكِ فاضلةٌ ... أعيَتْ على كُتُبِ الأخبار والسِّيرِ
إذا أنامِلُهُ ضُمَّتْ على قَلَمٍ ... يَوَدُّ مُهرَقُهُ لو قُدَّ من بَصَرِ

وقوله[١]:

انْظُرْ وبارك على حاسٍ ومعتصرٍ ... ماذا تولَّد بين القار والخزفِ
كأنما كأسُها نجمٌ على فَلَقٍ ... وريحُها نفسٌ في روضةٍ أنفِ
ألقيتُ في دنّها الدنيا بأجمعها ... فليس عن صرفها قلبي بمنصرفِ
ولا الأمير أبو يحيى بمنتقلٍ ... عن عادةِ البرّ والإجمالِ واللّطف
كمنتَ في الكون حتى لحتَ منه لنا ... فردَ الجمال كمونَ الدرِّ في الصّدفِ
مكارم لم تزل تجري لغايتها ... كالسهم سدّده الرامي إلى الهدفِ

وقوله[٢]:

بشرّ بها[٣] كلفَ الفؤاد عميدا ... راحاً وكانت مرّةً عنقودا
وتنوسيت فكأن صفّ دنانها ... في الحانِ أصحابُ الرَّقيم رُقودا
صهباءُ ألبسها التورُّدُ مجسداً ... عجباً وقلَّدها الحبابُ عقودا
فإذا شممت فمسْكَةً مفتوقةً ... وإذا لحظت فبارقاً معقودا

وقوله[٤]:

في صحبة الناس في ذا الدهر مُعْتَبَرُ ... لا عينَ يؤثر منها لا ولا أثَرُ
/١١٣/ فلا يغُرّنك من قولٍ طلاوتهُ[٥] ... فإنّما هي نوّارٌ ولا ثَمَرُ
لو ينفق الناس مما في قلوبهم ... في سوق دعواهم للصدقِ ما تجروا

ومنهم:

[٢٩]

الوزير أبو مروان، عبد الملك بن محمد بن شماخ[٦]

قَمرُ سدف، وآخر سلف، مُطلقُ جيادٍ تتبارى، ومطلعُ نجومٍ تتجارى، لو أن أباه

(١) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨٨. (٢) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٨٩.
(٣) الذخيرة: فشربتها، وأشار المحقق في الهامش أنها قرئت في بعض الأصول: بشر بها.
(٤) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٦٩٠. (٥) الذخيرة: طراوتهُ.
(٦) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٢٧ وورد ذكره في الذيل والتكملة ٥/ ٣٣. قال: عبد الملك بن محمد بن =

الشماخ المعروف، لعذر إذا شمخ وعرف أنه في جمرة البروق قد نفخ، تعلم أنه علم[١] ما رسا حتى رسخ، ولا أسمع أهل الآفاق، إلاّ وهو في آذانهم قد صرخ، إلاّ أنّه مع إكثاره قليل الغوص على الدرّ، لا يكاد يُخرجهُ، ويقنع بالبردِ يطيل ذيله وينسجه، وكان جوده يتطفّل عليه كل عالم، ومجدُهُ لا يتوقل إليه بالسلالم، بذهنٍ أبطل من البرق كلّ نابضٍ، وأطلّ على السماء والسرطان والأسد، فزاحم البدر في منازله، وحام المرزم حول المجرّة على مناهله، فأحلتهُ ذات الأخبية حجبها، وحنت إليه قلائص الكوكب نجبها، ومرّ بخمائل الليل فداس على حوذانها، وأتاها آتي السيل فصاغ شنف الثريّا لآذانها.

قال ابن بسام[٢]:

كان باهر الضوء، صادق النوء[٣]، يوفي على أنواع البديع، إيفاء ينساق[٤] على محاسن فصل الربيع، إلى علم أعذب من الماء، وأكثر من حصى الدهناء، وقد أجريتُ له[٥] ما يشيد باسمه، ويدل على سعة علمه.

ومن نثره قوله[٦]: من رقعة كتب بها إلى قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن حمدين[٧]:

أمثال أضربها لك ما لها أمثال، وسلسال أمزجه[٨] يحيا بها الصلصال، يا أيها الفرعُ الذي ثبت فرعه فوق السماء، وشمخ سنخه بناصية الجوزاء.

إذا نبتت فوق السماء أصولُهُ فأين أعاليه وأين الذوائبُ

لو اقتصرت على ما بني لك أو لك لسبق جهد السابقين مهلك، فلو فضّت[٩] خواتم الطين عن آبائك الأكرمين، لبصرت بعظامهم تهتزّ وهي رميم، إعجاباً لما أهداه إليها سعيُك الكريم:

وقد يضحك الحيّ سنَّ الفقيد فتهتز أعظمة بالعراء

/ ١١٤/ خطبتُ ودّك، فإن ترني كفواً، بلغتُ المبالغ الواسعة[١٠] عفواً، سألمحُ

= شماخ الغافقي، أبو مروان أخو أبي جعفر وأنه روى عن أبي جعفر البطروجي، ولم يزد على ذلك.

(١) في الأصل: لعلم علم أنه مارسا.
(٢) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٢٧.
(٣) بعده في الذخيرة: ينفث بالسحر، في عقد النظم والنثر.
(٤) الذخيرة: إيفاء نيسان.
(٥) في الذخيرة: أجريت من نظمه ونثره.
(٦) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٢٧.
(٧) في الذخيرة: خاطب بها أبا عبد الله بن حمدين.
(٨) في الذخيرة: أمزجه لديك.
(٩) في الأصل: قضيت.
(١٠) في الذخيرة: التاسعة، وبعدها: ظمئت إلى شمول تلك الشمائل، فإن سقيتني منها نخبة سرت في الأريحية حقبة، ما أرى الفقيه يعلمُ من أمري أكثر من معرفته بضئضئي ونجري.

لك في شأني لمحة[١]، واختصر فقد يؤوي ـ وإن قلّ ـ الزلال الخصر، فأجابه القاضي برقعةٍ منها قوله[٢]:

تدعو نزال، وتتنجز ردّ السؤال.

بيانٌ لم تَرِثه تُراث دعوى ولم تنبطه من حِسي بكيّ[٣]

أهلاً به طائر ودادٍ وقع، وبلبل وادٍ سجّع فرجّع[٤]، وهيّج داء دفينا، وذكّر بعض ما كنا نسينا.

فضضت ختامه فتبلّجت لي غرائبه عن الخبر الجليّ[٥]

إن هو إلاّ سحرٌ يؤثر، ودرٌّ يُنثر، وأغراض[٦] كقطع الرياض، والمعاني[٧] كأبكار الغواني، أدرن قدوداً[٨]، وكسين مجاسداً وبروداً[٩]، سميرُ الآذان وحديث الركبان، نادى شخص طللٍ عابس، وكلّم ربع رسمٍ دارِس، صدى حتى بكى، ودُهي حتى فني، بمثله وقف جميل، فاستصبر يقول[١٠]:

ألم تسأل الربع[١١] القواء فينطق وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

فكان حياً جلجل رعدهُ، وأسبل ودقه، بأكنافِ جوٍّ[١٢] أمحل واديه، وأجدبت بواديه، فلأياً لان مدره[١٣]، وانبجس حجره، وطلع نجمه[١٤]، شتان بين الغمر المعين، ووشلٍ ينضج بمثل رشح الجبين، في كلّ شجر نار، واستعجبه المرخ والعقار، ما هي إلاّ حلى فضائلك، خلعتها عليّ، وخمائل شمائلك أضفتها إليّ. والشفق والغسق، ولوامع الفلق. إنك لصاحب الراية ومحرز الغاية.

وإذا الرجالُ رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار[١٥]

---

(١) في الذخيرة: سألمع.. بلمعه.

(٢) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٣٠. وهي منه طويلة اختاراً منها ابن فضل شيئاً يسيراً.

(٣) البيت لأبي تمام. ديوانه ٣/ ٦٤.

(٤) فرجع، سقطت من الأصل، واثبت ما في الذخيرة.

(٥) البيت لأبي تمام ديوانه ٣/ ٦٢.

(٦) في الذخيرة: إلى أغراض.

(٧) الذخيرة: معانٍ.

(٨) الذخيرة: لوين قدوراً.

(٩) الذخيرة: وكسين من وشي الكلام مجاسداً وبروداً.

(١٠) ديوان جميل.

(١١) في الأصل: الركب، وهو تحريف.

(١٢) في الذخيرة: جوىً.

(١٣) الذخيرة: مالا.

(١٤) بعدها في الذخيرة: وأشرق زهرة:

وما كلّ ماءٍ كصدّاءٍ لشابه كلاّ ولا كلّ نبتٍ فهو سعدان

(١٥) البيت للفرزدق، ديوانه.

قال ابن بسام[١]:

وهذا الفقيه القاضي ابن حمدين[٢]، له صدر يسع الدهر كلّه، ولسان يخلق السحر لو استحلّه، وهو وإن كان اليوم بالحضرة العظمى قرطبة، يعسوب الإسلام، ومدار الأنام، تصدَّيت لإقامة أوده بهذا الديوان، وقد رفعت له على علمهِ نار. وضُربت عليه في حرمهِ أستار. وسارت على ألسنة الركبان، من كلمة (رسائل وأشعار)[٣] أجزل من ذكر أبان[٤]، وأحسن من الحديث عن جنان[٥]، وأوضح من عذر قريش في حبّ عثمان[٦]، ولم أظفر عند الفراغ[٧] من هذا الكتاب، / ١١٥/ إلا بهذا الجواب. وفيه دلالة في الأدب كافية[٨]، وعلامة من الفضل غير خافية. عُدنا إلى ابن شماخ: ومن شعره مما أنشد له[٩]:

بعثتُ بها يعنو لها كل ناثرٍ ... ويعيا بما ضمّنتها كل قارض
جعلت حياتي أجر من قال مثلها ... فمن شاء عمراً طائلاً فليقارض

وقوله[١٠]:

أطال شغلي فراغي مُذ حللتُ بهِ ... إنَّ الفراغَ من الأشغالِ أشغالُ
إن أبق في حمص تبق النارُ في حجري[١١] ... وإن أسر سار في الآفاقِ سلسال

ومنهم:

[٣٠]

الوزير أبو حفص، عمر بن الحسن الهوزني[١٢]

وهوزن الذي نسب إليه وغلب اسمه عليه. بطن من ذي الكلاع الأصفر.

---

(١) الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٣٩.
(٢) في الذخيرة: والفقيه قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين.
(٣) ليست في الأصل، وأثبتت ما في الذخيرة. (٤) في الأصل: ركني أبان.
(٥) في الأصل: جبان.
(٦) في الأصل: حسان، ولا معنى له، وإنما أخذ ابسام بسام معناه في قول القرشية:
أحبك والرحمن ... حب قريش عثمان
(٧) في الذخيرة: ولم أظفر عند تحرير هذه النسخة من هذا الكتاب.
(٨) في الذخيرة: وفيه متعةٌ جدّ كافية. (٩) البيتان في الذخيرة: ق١ مج٢ ص٨٤١.
(١٠) البيتان من قصيدة في الذخيرة ق١ مج٢ ص٨٤٧.
(١١) في الذخيرة: حجرِ.
(١٢) أبو حفص عمر بن حسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله أبي سعيد، من رجال السياسة، =

قنّة[١] طودٍ رسى شامخها، وغرَّة أيام سال في وجه الظلماء شارِخُها، وباني مجدٍ قديم لم تغيّرهُ الحوادث، وباني جدّ كريم له تُحصر في غيرهِ الحوارث، وخبطتْ ليلة الفرقة الليلاء، وماجتْ بخيل الفرقة الخيلاء، وهو جيش تلك الدولة وعديدها. ورأس تلك المملكة وعميدها، فلما علِم آخر الأمر من أولهِ، وعُرف ما بعد كسر الباب وفتح مقفله، توارى تحت ظلّ الخمول، وجعل طلب التقى قصارى المأمول. فظل ينقلب بين زعزع ورجاء، ويتعلّل بين شدّةٍ ورخاء، متوقياً من المعتضد مساورة الأرقم، ومتوقعاً مساواة العلقم، إلى أن استراح أيْنُهُ، وأراح من حينه.

قال ابن بسام فيه[٢]:

أفضى أمر اشبيلية إلى المعتضد عباد، وأبو حفص ذات نفسها، وآية[٣] شمسها، وناجذها الذي عنه تبتسم. وواحدها الذي به ينقض ويبرم، وكان بينه وبين عباد قبل إفضاء الأمر (إليه)[٤] ائتلاف[٥] الفرقدين، وتظاهر اليدين، واتصال الأذن بالعين، فلما ثبتت قدم المعتضد[٦]، أوجس منه ذعراً، وضاق بمكانه صدراً، وأحس[٧] بها أبو حفص، وكان ألمعياً وذكياً لوذعيّاً، لو أخطأ الحازم أجلُه، ونفعت المحتال حيلُه، فاستأذن المعتضد في الرحلة[٨]، فصادف غرَّته، وكفي إلى حين معرَّته، واحتلَّ صقلية، تضيقُ عن فخره الآفاق، وتتهادى عجائب ذكره، /١١٦/ إلى الشام والعراق[٩] ثم حجّ وروى في طريقه كتاب البخاري. وعنه أخذه أهل المغرب. ثم رجع إلى الأندلس، ثم

=

شاعر، عالم بالحديث، من أهل أشبيلية، كان رتب لها، وصاحب صلاة الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن بن معاوية وابنه هشام، ولما قوي أمر المعتضد (عباد) توجّس الهوزني منه خيفة وكان من قبل صديقاً له، فاستأذنه بالحج، فترك اشبيلية إلى مكة سنة ٤٤٤هـ، وعاد فسكن مرسية. واستولى الافرنج على بريشتر فكتب إلى المعتضد يحضّه على الجهاد، فدعاه المعتضد إلى اشبيلية، فجاءها سنة ٤٥٨، فأظهر المعتضد التعويل عليه، فلما تمكن منه قتله بيده سنة ٤٦٠هـ.

انظر: الذخيرة ق٢ مج١ ص٨١ ـ ٩٤. والمغرب ١/ ٢٣٩ ونفح الطيب ١/ ٣٧٢. والأعلام ٥/ ٤٤.

(١) قنّة الشيء: أعلاه.

(٢) الذخيرة ق٢ مج١ ص٨٢.

(٣) كذلك في المغرب، وفي الذخيرة: وإياه.

(٤) إليه ليست في الأصل، وهي في الذخيرة والمغرب، وبعدها: ومدار الرئاسة عليه.

(٥) في الأصل: الائتلاف.

(٦) بعدها في الذخيرة المغرب: في الرئاسة، ودفع إلى التدبير والرئاسة.

(٧) في الأصل: وأوجس.

(٨) بعدها في الذخيرة والمغرب: سنة أربعين وأربعمائة.

(٩) بعده في الذخيرة: ثم رحل إلى مصر، وله هناك صوت بعيد، ومقام محمود، ووصل إلى مكة وروى في طريقه.

سكن مرسية[١]، ثم لما غلب الروم بريشتر[٢]، استأذن المعتضد أين يسكن. فأشار عليه بالرجوع إلى بلده، لا بل استدرجه إلى ملحدِهِ، فأذهله عما كان استشعر، وأنساه ما كان[٣] حذر، أتى اشبيلية[٤]، فلقيه المعتضد بأعلى[٥] المحلّ، وعوّل عليه في العقد والحلّ، ثم أحضره[٦] القصر، وقد غلب عليه ـ زعموا ـ السكر، وأمر خادمين من فتيانه بقتله، فكلاهما أشفق من سوء فعله، وفرّ لا يبالي سيىء عبّاد أو سرّ، فقام هو إليه بنفسه، وباشر قتله بيده، فلم ينل بعده سولا، ولا مُتِّع بدنياه إلاّ قليلا.

ومنهم:

[٣١]

الوزير (أبو)[٧] القاسم بن مرزقان

لسان مناظرةٍ لا يعيا، وإنسان محاضرة، لا يموت جليسه ولا يحيا، بنوادر حاضرة، ردّت الشوارد، ووردت الموارد، صوّت بها الحادي والملاح، وصوّب الناجم والفلاح، وجالت في الخافقين، وجابت ما بين الساقين، فثمر من المقاصد ما يُجْنى، وعمّر بيوتاً عليها القصائد تُبنى، إلى أدب رقّ سلسالا، واندفق فجرى استرسالا، فلم يتكدّر ماؤه، ولم يتأثّر وثواب الحاسد داؤه.

قال ابن بسام[٨]: هو أكثر القوم قوة وإصابة، فإنه تدفّق[٩] في إصابة الأغراض، وكلامه سهلٌ قريب، فمما أخرجتُ من شعره في أوصافٍ شتى، قوله في وصف شمعة

---

(١) الذخيرة: واستأذن المعتضد سكنى مرسية، وبعده: رأيا رآه، وبلداً اختاره وتوخّاه، وأميرها يومئذ ابنُ طاهر.

(٢) بعدها في الذخيرة، والمغرب: سنة ست وخمسين، وقرف الندب، وتفاقم الخطب، وضاق عن ساكنه الشرق والغرب، خاطب المعتضد برقعة يحضه فيها على الجهاد ويستشيره إلى أين ينتقل من البلاد، فراجعه برسالة من إنشاء الوزير الكاتب إلى الوليد بن المعلّم يشير عليه بالرجوع.

(٣) انساه ما كان، مكررة في الأصل.

(٤) في الذخيرة: فاستقرّ بأشبيلية سنة ثمان وخمسين.

(٥) كذلك في المغرب وفي الذخيرة: فأعلى.

(٦) في الذخيرة: فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة لربيع الأول سنة ستين أحضره..

(٧) (أبو) سقطت من الأصل، وأثبت ما في مصادر ترجمته: انظر: الذخيرة ق٢ مج١ ص٥٢٠، وفي ص٤٧٦ منه أنه قتل يوم دخول الملثمين اشبيلية على المعتمد. والمغرب ١/ ٢٦٦، ونفح الطيب ٣/ ٢٦٤، ٦١٤ و٤/ ١٢٤ وبدائع البدائة: ١١٤.

(٨) الذخيرة: ق٢ مج١ ص٥٢٠. (٩) في الذخيرة: فإنه يوفق.

محكمة الصنعة على صورة مدينة أهديت إلى المعتمد[١]:

مـديـنـةٌ فـي شـمـعـةٍ صـوِّرتْ   قـامـت حـمـاةٌ فـوق أسـوارهـا
ومـا رأيـنـا قـبـلـهـا روضـةً   تـتّـقـدُ الـنـارُ بـنـوّارهـا
تُـصـيّـر الـلـيـل نـهـاراً إذا   مـا أقـبـلـتْ تـرفـلُ فـي نـارِهـا
كـأنـهـا بـعـضُ الأيـادي الـتـي   تـحـت الـدجـى تـسـري بـأنـوارهـا
مـن مـلـكٍ مـعـتـمـدٍ مـاجـدٍ   بـلادُهُ أوطـان زوّارهـا
أكـفّ ذات الـشـعـر تـغـنـى بـه   وشـعـرهُ حـلـيٌ لأشـعـارهـا

وأصبح المعتمد على الله على حال راحته في القصر المبارك، ودخل إليه الرشيد /١١٧/ ابنه فتبادل[٢] الأنس معه، ثم أمر بإحضار من جرت عادته بمشاهدة المجلس الكريم من الأصحاب، فحضروا، فقال المعتمد بعد كلام[٣]: قلت بيت شعر، وهو:

بـعـثـنـا بـالـغـزالِ إلـى الـغـزالِ   وبـالـشـمـس الـمـنـيـرةِ لـلـهـلال[٤]

وذلك أن المعتمد كان قد أمر بصناعة غزالين من ذهب، فصنعا معاً من سبعمائة مثقال خالصة، فأهدى أحدهما إلى الرشيد ابنه، والآخر إلى السيدة العروس بنت ابن مجاهد، فقال في ذلك البيت المذكور، وأحبَّ أن يُذيَّل، فذيّل هذا[٥] البيت جماعة ممن حضره[٦]، منهم أبو القاسم بن مرزقان، وأصاب الغرض فقال:

بـعـثـنـا بـالـغـزال إلـى الـغـزال   وبـالـشـمـس الـمـنـيـرةِ لـلـهـلال
فـذا سـكـنـي أسـكِّـنـهُ فـؤادي   وذا نـجـلـي أقـلِّـدهُ الـمـعـالـي
شـغـلـتُ بـذا وذا خـلـدي ونـفـسـي   ولـكـنّـي بـذاك رخـيّ بـالِ
رفـعـتُ إلـى يـديـه زمـام مـلـكـي   مـحـلّاً بـالـصـوارم والـعـوالـي
فـقـام يُـقـرُّ عـيـنـي فـي مـضـاءٍ   ويـسـلـك مـسـلـكـي فـي كـلّ حـال
فـدمـنـا لـلـعـلاء ودام فـيـنـا   فـإنّـا لـلـكـفـاح ولـلـنـزال

ورفع أبو القاسم بن مرزقان قطعة شعر في ذلك أيضاً، وهي:

عـاطـنـي الـقـهـوة مـثـل الـجـلّـنـار   حـمـلـتـهـا أكـؤسٌ مـثـل الـبـهـار

(١) الأبيات في الذخيرة وهي عدا الأخير في المغرب ١/ ٢٦٦ والنفح ٤/ ١٢٤.
(٢) في الأصل: فتناول، وأثبت ما في الذخيرة.
(٣) بعده في الذخيرة: حذفنا للاختصار طلباً للمعنى.
(٤) في النفح والبدائع: وللشمس... بالهلال.
(٥) في الأصل: بهذا.
(٦) في الذخيرة: ممن حضر هذا المجلس ذلك اليوم، وممن لم يحضره.

وأدرهــا بــيــن زهــرٍ عــبــقٍ ... واسـقـنـي ودَّ كـبـيـرٍ بـكـبـار
مـلـك إن قـلـتُ (من)[1] رب الـعـلـى ... فـإلـيـه كـلُّ مـخـلـوقٍ أشـار
لـخـمـي مـاجـدٌ مـعـتـمـدٌ ... كـلَّ عـسـرٍ حـيـن تـلـقـاهُ يـسـار
مـا دجـا لـيـلٌ عـلـى آمـلـهِ ... كـلّ لـيـلٍ بـأيـاديـه نـهـار
بـيـن كـفـيـه وفـي نـاديّـه[2] ... ظـبـيـة ريـقـتـهـا صـرف الـعـقـار
عـجـبـي مـنـهـا وهـذا أسـدٌ ... كـيـف لا تـبـعـد عـنـه بـنـفـار
آنـسـت مـن أنـهـا مـرسـلـةٌ ... بـاتـصـال الـوصـل فـي أشـرفِ دار
/١١٨/ ولـهـا (عـد)[3] إلـى غـرّتـهـا ... أنـهـم قـد صـوروهـا مـن نـضـار
فـي خـدودٍ[4] تـتـهـاوى وبـهـا ... سـتـرى فـي حـرمٍ ذات الـفـقـار
لا عـدت مـوضـع لـهـو ودٍ[5] ... فـلـقـد تـنـهـض فـي خـيـر سـفـار

ومنهم:

[٣٢]

الوزير الكاتب، أبو عبد الله محمد بن أيمن[6]

سحبهُ سواكب، وأدبهُ لا تدافعه النجوم بالمناكب، كان قبس زناد، وقيس رأي لا يُقابل بالعناد، وفارس أدب ينكل عنه من انتدب، فيرجع كلّ مقاوم، وصعدتُه مكسورة وأسرتهُ مأسورة، وهمتهُ قد ظهر فتورها، وعزمته قد عمّم صباحه ديجورها، وطريقه سهل، وغريبه ليتيم الدر أهلُ.

قال ابن بسام:

وكان بأفقنا أعجوبة الدهر، فرد[7] العصر، اشتهر في حملةِ الأقلام اشتهار البدر في السماء، وتلاعب بغرائب الكلام، تلاعب الأفعال بالأسماء، ولما صرف المتوكل ذا الوزارتين أبا الوليد بن الحضرمي عن خدمته، وقبض يدهُ عما كان يتصرف فيه من تدبير دولته، لم يفوّض بعده إلى وزير، ولا ألقى إلى أحدٍ بأزمّةِ ذلك التدبير، غير أن

---

(١) (من) ساقطة عن الأصل، والتصويب عن الذخيرة.
(٢) في الأصل: بين ناديه، والتصويب عن الذخيرة.
(٣) ساقطة من الأصل، واثبتها عن الذخيرة.
(٤) في الذخيرة: قدود، وهي أفصح.
(٥) الدد: اللهو واللعب.
(٦) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٦٥٢، والمغرب ٣٦٦/١.
(٧) في الذخيرة: فريد.

ابن أيمن كان بمنزلة الرقيب من الحبيب[١]، لا يحظى بشرٌ بنوالهِ ولا يطمع أحدٌ معه في وصاله، ولما احتلّ الوزير أبو المطرف بن الدباغ حضرة بطليوس، خاف ابن أيمن أن يمحو سناه، ويستولي على مداه، فاشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بعنانِ السماء ارتفاعها.

ومن نثره قوله:

لما وضحت في الصَّلاح معالمك، ووقفتْ على الجهاد عزائمك، وجب أن تُستدعى لما أعضل الداء، وتُستغاثُ فيما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت الأعداء تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرجه بها عن كلّ ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، حتى استصفى الطريف والتّلاد، وأتى على الظاهر والباطن (النفاد)[٢] وأيقنوا الآن بضعف المِنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلّ ناحيةٍ نارُهم، ورويت من دماء المسلمين أسنَّتُهم وشِفارُهُم، ومن أخطأه القتلُ منهم، فإنما هم بأيديهم أسرى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد همّوا بما أردوه من التوثّب وأشرفوا / ١١٩/ على ما أقلّوه من التغلُّب، فيالله وياللمسلمين!! أيسطو هكذا بالحق الأفك، ويغلبُ التوحيد الشركُ، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملّة النصرُ؟! ألا ناصرٌ لهذا الدين المهتضم[٣]، ولا حامي لما استُبيح من حمى الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرشه من ثلّ، وعزّ من ذلّ، فإنها الرزيّة التي ليس فيها عزاء، والبليّة التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ـ أيدك الله ـ بالنازلة في مدينة قورية[٤] ـ أعادها الله ـ وإنها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومنْ فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلَّصت القضيّة، وتعجلت البليّة، وحصلت في يد العدوّ ـ قصمه الله ـ مدينة سرته[٥]، وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع، في الحصانة

---

(١) الذخيرة: غير أن أبا عبد الله بن أيمن كان من وزرائه، وصحبته بمنزلة الرقيب.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: المعتصم، والتصويب عن الذخيرة.

(٤) قورية: قورية، مدينة بالأندلس، قريبة من ماردة، لها سور، من أحسن المعاقل، وأحسن المنازل، ولها بواد خصيبة، وأصناف من الفواكه كثيرة.
معجم البلدان ٤/ ٤١٢ والروض المعطار ٤٨٥.

(٥) سرته: مدينة بالأندلس، بينها وبين طليطلة عشرون فرسخاً، قال الإدريسي، مدينة متوسطة القدر، حسنة البقعة، كثيرة الخصب.
معجم البلدان ٣/ ٢٠٧، نزهة المشتاق، قسم الأندلس المغرب ١٧٥، ١٩٦.

والامتناع، وهي من الجزيرة[١] كنقطة الدائرة وواسطة القلادة، يُدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الإضرار[٢] قاصيها ودانيها، وما هو إلاّ نفسٌ خافت، ورمق زاهق، إن لم تُبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركوها[٣] ركبانا[٤] ورجالا، وتنفروا خفافاً وثقالاً، وما أحظكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى، فإنكم له أتْلى، ولا أحرّضكم[٥] على التسرّع إليه بما في حديث رسول الله ﷺ[٦]، فإنكم إلى معرفته أهدى وكتابي هذا جملةٌ، الشيخ الفقيه الواعظ يُفصِّلُها، ومشتملٌ على نكتةٍ هو يوضّحُها ويبيّنها، فإنه لما توجّه نحوك احتساباً، وتكلّف المشقّة إليك طالباً ثواباً، عوَّلتُ على بيانه، ووثقتُ في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه، وأنت بفضلك تستوعب ما يؤديه استيعاب المستوفي، وتصغي إلى ما ينهيه إصغاء الواعي، وتجد منه مضض المرتمض، وتتحرّك له تحرّك الممتعض.

ثم لم (يزل)[٧] يستشري الداء، ويعمّ أقطار الجزيرة البلاء، وأمير المسلمين وناصر الدين[٨] يومئذ مشغول ببقية حرب طوائف البرابرة المتغلبين ـ كانوا ـ على أقطار العدوة، فلم يزل يميط أذاها، ويضرحُ قذاها، حتى سلكتْ سبيلها[٩] وطاب مستقرّها ومقيلها، وكان من أشدّ تلك الطوائف أيداً، وأمتنها كيداً العزّ بن مسكات[١٠]، المتغلّب ـ كان ـ على مدينة سبتة وما والاها، فإنه جاهر بالخلاف سماعاً وعياناً، وشغل أمير المسلمين[١١] عن تلافي هذه الجزيرة / ١٢٠/ زماناً، إلى أن بلغ الكتاب أجله ووقته، وفتحت على يديه سبته.

ومنهم:

---

(١) في الذخيرة: المدينة.
(٢) الذخيرة: الاستضرار بها.
(٣) في الأصل: تداركوها.
(٤) في الأصل: ركبا، وأثبتت ما في الذخيرة.
(٥) في الأصل: أحضّكم.
(٦) في الذخيرة: رسوله عليه السلام.
(٧) ساقطة من الأصل.
(٨) بعدها في الذخيرة: رحمه الله.
(٩) الذخيرة: سُلك.
(١٠) ويقرأ سكوت، وسواجات وسقوت وقد كان الحموديون استخلفوا على سبتة رجلاً اسمه رزق الله، فقتله هذا سنة ٤٥٣ وحكم سبتة وتسمى (المنصور) وفي أيام ابنه (الحاجب العز) دخل المرابطون سبته. انظر: ابن خلدون ٦/ ١٨٤.
(١١) بعده في الذخيرة: رحمه الله.

[٣٣]

صالح بن صالح الشنتمري(١)

سحاب هطل سافحاً، وسما طل زهره فتوقّد نافحاً، بصوب أدب كان نؤه الغمام دالحا، وكان أبوه الإمام صالحا، فأثمر غصنه وأورق، وتوقّد ذهنه وأحرق، فشبّ دون السوالف حريقاً، وشاب برضاب الغيد سلافاً رحيقاً، وتهادت الشّرب كؤوسه، وأطلعَ في غرر الأيام شموسه، فسطع نهاراً، وجمع ماءً وناراً.

قال ابن بسام:

شنتمري الأفق، شاعر ناثر، وله من المعرفة بلسان العرب حظٌّ وافر، وكلامه في المماثلة والسّجع، جارٍ على الطبع، من رجل شديد الحياء، كثير الانقباض والانزواء، يرى الكتابة عليه من أشدّ الأشياء، لا لنبوّ طبع وقلّة أدب، بل لضعف عصب، وفيما أثبتُّ من قسمي كلامه في نثره ونظامه، شاهد على ما وصفته به، ومنبّه على فهمه وأدبه.

ومما أورد له من نثره قوله من رقعة عتاب:

إنا لله، لقد غرقتُ من غشّك في بحرٍ عميق. وامُتحِنت منك بعدوّ في ثياب صديق(٢).

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى ... عدوّاً لهُ ما من صداقتهِ بُدُّ(٣)

وقد كنت خاطبتك ـ لا مسك خطب ولا فُلَّ لك غرب ـ جارياً ـ علم الله ـ إلى التحقيق آخذاً بما يلتزمه الصديق للصديق، غير ملتفتٍ إلى تلك البوادر التي كانت الدعابةُ تجريها، وإدْلال الوداد السبب فيها، وما كان في كتابي شيء يتهمه من أخلصَ نيّة، وأدى إلى حُسن طويّة. اللهم إلا إن كان ما ضمّنتهُ من التبجيل، قد حرَّفتهُ عن الوجه الجميل، وتأوّلته أقبح التأويل.

قال ابن بسام: ومما لوّح في العتاب، وزخرف بالتصنّع ظاهر الخطاب، رقعة خاطب بها من أحوجته الأيام إلى مصانعتهِ، وقد بدت منه بدوات صوّب فيها وصعَّد وقام وقعد. وقال فيها:

معلوم ـ أعزّك الله ـ أن لكلّ مقام مقالاً، ولكل حالٍ تناولا وجدالاً(٤)، وكما لا يصلح الإكثار في كل خطاب، فكذلك الاختصار. لا يسوغ في كل كتاب، وفي النفس

---

(١) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٥٧٤، وله ترجمة في المغرب ١/ ٣٩٧ قال: إنه من شعراء المائة الخامسة. رايات المبرزين ٣٥.

(٢) حل لقول ابن نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

(٣) للمتنبي: ديوانه ١٩٨.

(٤) في الذخيرة: وحوالا.

كوامنٌ لا يمكن تبنيها عليك، وتقديرها لديك، إلا بالتطويل، وإن / ١٢١/ أصار إلى التثقيل، وأنت بعلاك تصرفُ إليها بالك، بما وهبت لنا[١] أيها العماد من عرفانك ما وهب، وسبّب من التعلّق بك ما سبّب، رأيتني قد رقيتُ إلى جوار الأفلاك، وجعلتُ الأخمص على ذروة السماك. لما رجوت من الاعتزاز بجانبك العزيز.

وفي فصل منها:

وإني بحمد الله لممّن إذا علم أكرم، وإذا جُرّب قرّب، وإذا اختبر ادّخر[٢]، أما الإكرام فما أحمِلُه من الأدب، الذي به يرتقى إلى عليّات الرتب. وأما الادخار فلاعتدالي في أحوالي، وثقة جعلها الله من خلالي، وعندي من الآلات التي تبعث على اتخاذي واستعمالي، أني أقول من الشعر أبدعُهُ، ومن النثر أرفعه، وأنقد النقد الذي قلّ من يجاريني فيه، ويُباريني في التكلّم على معانيه، وإن كان خطّي لا يلحق بالخطوط[٣] القويّة الكتابية، فإن ضعفه لتميمة على جيد لفظي، وغيمة على ذكاء فهمي، واتساع حفظي، فمن المعلوم المعروف، أن العلماء مخصوصون بضؤلة الخطوط، ولطافة الحروف، وكل يشهد أني أنهض إلى المطولات، واقتد على المخاطبات السلطانيات، وما أنا ممن يفتخر بخدمة الزمام، ويجعلها ذريعة إلى الإكرام:

معاذ إلهي إنني وعشيرتي ونفسي[٤] عن ذاك المقام لراغب

ولكني أفتخر عند الاضطرار إلى الافتخار - إني حامل روايات، وحافظ لغات وذو شمائل تُنسب إلى مكرمات، وما تطارحت قط على زاهد[٥] فيّ، ولا أظهرت حرصاً على غير حريص عليّ. بل كنتُ أُقابل الإباء بنظيره، وأظهر الاستغناء بظهيره، وأنشد:

ولست بساقطٍ في قدرِ قوم وإن كرموا كما يقع الذبابُ
ورائي مذهب (عن)[٦] كل ناءٍ بجانبه إذا عزّ الذهابُ

ولست أضرب المثل في سقوطي عليك، وانجذابي إليك، ولكني[٧] أسقط سقوط الظلّ على الرياض، وأتزيّن بخدمتك تزيّن الجمال بالبياض.

وقوله في صفة القلم:

بخط البراعة، ينالك حظ البراعة، وأفضل أقلام الكتاب المنتخبة للكتاب / ١٢٢/ ما لم يكن في طوله تعوّج، ولا في صلابته ترجّح، وكانت خصوصية العنصر الذي نماه،

---

(١) في الأصل: لك، والتصويب عن الذخيرة.
(٢) الذخيرة: وإذا خبر ادخر.
(٣) الذخيرة: حظي... الحظوظ.
(٤) الذخيرة: بنفسي، وهي أفصح.
(٥) في الأصل: زهد.
(٦) (عن) ساقطة من الأصل.
(٧) الذخيرة: ولكني أقول: أني أسقط...

وسجيّة المنبتِ الذي إليه منتماه، قد أخذت به ما بين الدقّة المتناهية التي لا يستحسنُ، والغلظ المفرطِ الذي يُستخشن، وأقرَّته على المقدار الذي لا يقع اختيار الكاتب على سواه، ولا يتعدّاه اقتراحه ولا يتخطاه، ثم انتحى بريهُ ذو يمين رفيقه، وسكّين رقيقه، فأجاد الشقّ، وأحكم القطّ، وجاء به غير شاقّ ولا عاق، سلس الجريان إذا أرسل، موافقاً[1] للبنان إذا أعمل، معطياً لقيادهِ غير بخيل بمدادهِ، تتبنّاه الأنامل، فترأمه، وتواصل العمل به فلا تسأمُه.

قال ابن بسام[2]: ومن البديع في وصف القلم ما حكاه العتّابي عن نفسه، قال: سألني الأحمصي قال: أيّ الأنابيب أصلح للكتابة وعليها أصبر؟ قلت: ما نشف بالهجير ماؤه، وستر عن تلويحه غشاؤه، ومن التبريّة القشور، الدريّة الظهور، الفضيّة، الكسور، قال: فأيُّ نوعٍ من البري أكتبُ وأصوبُ؟ قلت: البرية المستوية القط، عن يمين سنّها برية تأمنُ معها المجّة عند المطّ، الهواء في مشعِّها فتيق، والريحُ في جوفها حزيق، والمداد في خرطومها رقيق، قال: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً، لا يُحير مسألةً ولا جواباً.

ومن شعره الطيار المليح، المتناهي في خفّة الروح، قوله[3]:

أسنى ليالي الدهر عندي ليلةٌ لم أخلِ[4] فيها الكأس من إعمال
فرَّقتُ فيها بين جفني والكرى وجمعتُ بين القُرط والخلخال

وقوله[5]:

لله ما صنع الحياء بصفحةٍ لم تُبقِ عندك للتجلّد مذهبا
كان البياض بها لجيناً خالصاً فأحالهُ فغدا لجينا مذهبا

وقوله مما أبهم[6] فيه، وإنما يكنّى عن قدح فخّارٍ مُزفّت قد اتخذها للمشروب:

وخلٍّ إذا قلَّ المجيبون لم يزلْ إلى كل ما أدعو[7] إليه مجيبي
غدوت أخا التوفيق لما اتخذتهُ أديب السجايا وفق كلّ أديبِ

---

(١) الأصل: موافق.
(٢) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨١، والخبر أيضاً في زهر الآداب: ٦١٩.
(٣) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨٣، والمغرب ١/ ٣٩٧.
(٤) في المغرب: يخل.
(٥) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨٣.
(٦) في الأصل: أتهم، والتصويب عن الذخيرة.
(٧) في الأصل: يدعو.

/١٢٣/ تخيرتُه من نَجْرِ آدم خالصاً ... فكان أخي في نجرهِ[١] ونسيبي

وقوله أيضاً[٢]:

أقلي من الدنيا تيسُّرُ[٣] خلوةٍ ... أبكي بها وأبثُّ سر هواكِ
حولي وحولكِ أعينٌ ومسامِعٌ ... أخفي الهوى عنهنَّ عند لقاكِ
لولا الحياءُ وأن يشيع سريرتي ... لنثرتُ شمل الدمع حين أراكِ

وقوله يصف شرط المروءة ومكارم الأخلاق[٤]:

أحبُّ من الأقوام كلَّ نجيبِ ... شريفٍ زكيّ الوالدين حسيبِ
وإني لذو علم صحيح يقينُهُ ... بأنَّ صديق الصدق غيرُ غريبِ
ومن خُلُقي إنّي إذا ما وجدتُهُ ... شددتُ عليه من كفّ رغيبِ
وإن نصيب الجار[٥] عند احتياجهِ ... إلى العونِ في مالي كمثلُ نصيبي
وأن بعيد القوم ينزل ساحتي ... ويأوي إلى ركني لمثل رقيبِ

منها:

لحا الله وهّاباً بطيئاً حباؤهُ ... يجيء الذي يُعطيه بعد لغوبِ
ولكنّ وهّاباً يهبُّ إلى الندى ... كما هبَّ عضبٌ في يمين ضروبِ
يحاذر أحْداث الليالي وقلَّما ... خلا من توقيهنّ قلب لبيبِ
ويرتاب بالأيام عند سكونها ... وما ارتابَ بالأيام غيرُ أريبِ
وما الدهرُ في حال السكون بساكنٍ ... ولكنّه مستجمعٌ لوثوبِ

وقولهُ في مثل ذلك[٦]:

حبيبٌ إليّ الدهر إعطاء سائلي ... وإكرام قُصّادي وعونُ خليلي
أهزُّ طباعي بل طباعي تهزّني ... إلى الجود لا أرضى طباع بخيل
وراحٍ كما افترَّ الصباح سبأتها ... لطارقِ ليلٍ ما عليّ جليلِ
نضوتُ بها عنه جلابيب ليلهِ ... فعوّض من تعريسه بمقيل
وما زلْتُ أسقيه وأشرب فضلهُ ... وكأس الكريم الخيم[٧] ذات فضولِ
/١٢٤/ إلى أن تناهى طيبهُ ونعيمهُ ... ومالتْ به الصهباء كلَّ مميلِ

(١) في الأصل: فخرهُ، والتصويب عن الذخيرة.
(٢) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨٢ والمغرب ١/٣٩٧.
(٣) في المغرب: تستّر.
(٤) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٥٨٦.
(٥) في الأصل: الجماز.
(٦) الذخيرة ق٢ مج٢ ص٥٨٧.
(٧) في الذخيرة: الفضل.

فوطأت منه[١] جنبه وكننتهُ ... بضافٍ لصرّ[٢] الشتاءِ قتول
وقلتُ له لما تعاظم عندهُ ... صنيعي به هذا أقلَّ قليلِ
حللت بنا ليلاً وقد قُسّم القرى ... فلم يبق منه مقنعاً لأكيلِ
أقم عندنا تستوفي ما أنت أهلهُ ... فأنت لدينا أهلُ كلّ جميلِ
وأني لممّن تعتريه كآبةٌ ... إذا آذنتْ أضيافهُ برحيلِ

وقوله[٣]:

أبدى الحبيبُ تعجّباً من طول مكـ ... ـث الوردِ عندي عندما أهداه
لم يدرِ أن دوامه في منزلي ... من أجلِ أنَّ مدامعي سقياهُ

وقوله[٤]:

وصافيةٍ كمعتقد الصديق ... لها في الكأس إيماضُ البروقِ
كأن بكأسها ما تشتكيه[٥] ... قلوب العاشقين من الحريق
إذا قبضت يدُ الساقي عليها ... رأيت لها أنامل من عقيق
شربتُ وصاحبي عذْبُ الثنايا ... يعلّلني لماهُ على الرحيق

ومنهم:

[٣٤]

الوزير، أبو أصبغ بن أرقم[٦]

مجرع شهدٍ وعلقم، ومجرب درياقٍ وسم، لا ينكر أن لابن أرقم طالما مدّ ظلهُ وأسبغْ، وحال لون الدهر وأبو أصبغ أبو أصْبغ، وكان معهدهُ مثوى جناب، ومأوى جناةٍ لقطوف الفضائل وجناة لفواضل، جرى طلقاً في عنانها، وسرى برقاً في عنانها.

---

(١) الذخيرة: مثوى.
(٢) في الأصل: لصنبر.
(٣) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨٣.
(٤) الذخيرة: ق٢ مج٢ ص٥٨٣.
(٥) في الأصل: تشتهيه، والتصويب عن الذخيرة.
(٦) عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميري، الوادآشي، أبو الأصبغ، أديب أندلسي، من أهل وادي آش. من الرؤساء، السفراء، سكن المريّة، وتأدب في غرناطة وقرطبة، واتصل بالمعتصم محمد بن حماد وتوجه رسولاً منه إلى المعتمد بن عباد بعد سنة ٤٦٠هـ، وتوفي أيام المعتمد، له مصنفات منها: «عقاب المنشور» و«الأنوار في ضروب من الأشعار» ثم اختصره وسماه (الحدائق). انظر الذخيرة ق٣ مج١ ص٣٦٠ ونفح الطيب ٣/ ٤٩٨ وقلائد العقيان: ٨ والتكملة رقم: ١٧٣٥. والأعلام ٤/ ٢٥.

قال ابن بسام: أحد كتاب الجزيرة المهرة، والنقدة الشّعرة، ممن نهض في الصناعة بالباع الأمدّ[١]، وأخذ فيها بالساعد الأشدّ، ارتاض في طرقها معيداً ومبدياً، ورمى إلى أغراضها مُصيباً ومُخطياً، حتى تدرّج في مدارجها، وخرج على جميع مناهجها، واطلع على ثناياها، وأشرف على جناياها.

وأورد له من نثرهِ، قوله من رقعةٍ عن عليّ بن مجاهد[٢] إلى المعز بن / ١٢٥/ باديس[٣] صاحب إفريقيا[٤]:

أطال الله بقاء الملك الأجلّ ناظر عين الزمان، وروح جسم الإيمان، وحسام عاتق الإسلام، وحلي جيد الأنام، ومهدي ضوال الآمال، ومأوى شارد الأنعام والأفضال، مخلّدةً في الأنام دولتهُ، مؤيّدةً مع الأيام مدّتهُ.

أنا ـ أيده الله ـ أمتُّ إلى دولته ـ خلّدها الله وأيّدها كما وطّدها ومهّدها ـ بما أنأى به على الأقران، وأكافح كلّ زمان، وأفادح كلّ بستان، وأحرز كل ميدان، أن ارتقيت إلى سمائها، وصعدتُ في سوائها، مستسهلاً وعر المرتقى لسهل الملتقى، ومستعذباً مرّ المجتلى لحلو المجتنى، فشافهتُ[٥] بدرها، وتبوأتُ حجرها، وارتضعتُ درّها، على حين أجفان الفضل كليلة، وأقدام المجد معقولة، وأيدي النصر مغلولة، وإن قعدتُ عن مناسك فرضها، فإني معيرها ضميراً كما انبلج النهار، وشكراً كما أرج النوار، وهل أنا إلا أحد أبنائها، وشهب سمائها، وشيعة علائها، وحماةُ أرجائها، وإن جذم نأي الدار كفَّ الخيار، ففي البعد اعتذار وفي الجهد إعذار، وإن مع التجاوز ليعمّ[٦] العيان، ومع التجاوز ليطمئنّ البرهان. ومع التزاور لترود الأحوال، ومع التقارب ليقع الإخلال، والقوى المخلوقات قريبة الانحلال، سريعة الانفعال، والنيرات على وفور ضيائها، وظهور سناها

---

(١) الذخيرة: الأسدّ.

(٢) علي بن مجاهد بن يوسف العامري، ولي دانية بعد أبيه سنة ٤٣٦هـ وغلبه ابن هود عليها سنة ٤٦٨هـ فأقام بسرقسطة حتى توفي سنة ٤٧٤هـ، البيان المغرب ٣/ ١٥٧.

(٣) المعزّ بن باديس بن المنصور الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بأفريقيا، ولد بالمنصورية سنة ٣٩٨هـ ولي بعد أبيه سنة ٤٠٦هـ، وكان خطبته للفاطميين، ثم قطعها وجعلها للعباسيين، فحاربه الخليفة الفاطمي وتغلب عليه، فتقهقر إلى المهدية حتى وفاته سنة ٤٥٤هـ.
انظر: وفيات الأعيان وابن خلدون ٦/ ١٥٨ والبيان المغرب ١/ ٢٦٧.

(٤) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٣٦١.

(٥) في الأصل: فشابهت، والتصويب عن الذخيرة.

(٦) في الأصل: ليغمر العيان.

(وسنائها)[١] فيما لا يقابل جليله[٢]، وعندما لا يسامتُ عليله، وفيما لا ينال ظليله.

وفي فصل منها:

وقد علم مبتلي السرائر، وحافظ البواطن والظواهر، أنها بصيرتي التي أستشعر، وسريرتي التي أضمر، وحقيقتي التي أخفي وأُظهر، وشرعتي[٣] التي بها أُسرُّ وأُجهِر، وأن مقالي كفيلُ فعالي في موالاة سيدنا ـ خلّد الله ملكه ـ على طول المدى، وشطّ المنتأى، وبعد المرمى، ولما وقف الأمر على الحدّ الذي قدّمتهُ، والنصر الذي ذكرته، والرسم الذي أثبتهُ، لم أستبدَّ من أعلامه واستثماره، ولم أقعد عن استئذانه وإشعاره، ولم أنفذ إلا بعد استخباره.

وقوله[٤]:

والحضرة العلية معنى هو شرحها، وشمس هو صبحها، وأذنٌ هو قرطُها، وجيدٌ وهو عقدها، ومِعصمٌ وهو سِوارها، وعين وهو نورها، ورأس وهو عينها، /١٢٦/ ومبسم وهو ثغرها، وكفٌّ وهو بنانها، ورمح وهو سنانُها، وحسامٌ وهو غرارها، وسماءٌ وهو بدرها، وروض وهو زهرها، وساق وهو قدمها، ذلّل لها المستصعبات، وفتح لها المبهمات، وأوضح لها المشكِلات، وأضاءَ لها الظّلمات. وأن انتظامها به، وكمال بهجتها بخدمته، وتمام سعادتها بولايته، وأرجُ نشرها بمظاهرتهِ، وبرود سبقها بمؤازرته. وكان للموفق أبي نهجٌ بمداخلتها، ومفتتح بمراسلتها، ولم تفارقه ـ روض الله مثواه ـ إلى أن فارق دنياه، فكنت أبا عذرتها، وفاتق أكمتها، وفاتح مرتتجها، وسالك منهجها، فبرزت بين أبناء مغربها في مداخلتها، وعرض صياغتي وخدمتي عليها، وتوفير مكاتبتي ورسالتي إليها، في مركبي الذي أعلمته خالاً في صفحة البحر، وسويداء في مقلة العصر، ووصلْتُ بمكاتبتي من هولها كفؤ، ولي ظهير ونشأ من أبناء أهل الخطر، وذوي الشرف والقدر، ومن له الشيمُ الهادية، والريح الساكنة، والمناصحة البالغة، فلان، إلا أن أهل مغربنا مرتضعون العجمة، مدَّرعون الحشمة، بمصاقبة الثغور الخشنة، ومجاذبة الألسن الثقيلة، وممازحة الأمزجة الكليلة، فمن دُفع منهم بعد إلى خدمة الخلافة العليّة، وحاور الألسنة العضبة وشافه النفوس الرطبة، وداخل الأمزجة العذبة، وارتقى إلى سماء تلك العزّة، فعذرُهُ مقبول، وأمرُهُ على الاجتهاد الأصيل، والاعتقاد النبيل محمول، وما الأقلام إن مدحت. ولا الأقوال وإن جمحت

---

(١) سنائها، ساقطة من الأصل، وأثبتّ ما في الذخيرة.

(٢) الذخيرة: كليلةُ.

(٣) الذخيرة: شريعتي.

(٤) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٠٠.

(ولا الأوصاف) وإن سمحت. بمعبّرات عمّا عنده من حُسن الصاغية، وخلوص الناحية، والممالأة الصافية، والمناصحة الزاكية، والخدمة الوافية، وإن بعُد مثواه فلم يبعد من كانت الضمائر وسائلُه، والرياح وسائله، ولا تكتتم النيّرات عن حدقهِ، ولا تنحرف أفلاكها عن أفقهِ، ولا تتجافى مسالكها عن طرقه.

وقوله:

حضرة سيدنا ـ أيّده الله ـ قلائدُ يروقُ على نحر الخلافة نظامها، وتخفقُ على عاتق الثريّا أعلامها، تبري الأسماع من صممها، وتشفي الصدور من وحرها، وتصحّ الجسوم من قصبها، وتريحُ النفوس من وصبها، كما تصكّ أسماع العدا، وتخلع قلوب من ناوا، وتقضّ[1] جسم من عصى، ويقطع وريد من اعتدى (فهي)[2] حياة وردى، وشهبٌ وقضُب، /١٢٧/ ونجوم ورجوم، لا برحتْ تُمطِر الوليَّ ربيعا، والأبيّ[3] نجيعا، ولا يزال سيدنا حسام عاتق الملك، وواسطة ذلك السلك، وخالصة ذلك السبك، فإنه سرى إليّ من آثر حضرته ما أخْجَل المسك ريّاهُ، وكسف الشمس محيّاه.

ومنهم:

[٣٥]

أبو عبد الله، محمد بن مسلم[4]

مزنهُ أنواءٍ غزارْ، ومزيّة أنوارٍ لا يلمُّ بجفنها غرار، فرط عقائل المعاني وقرطقها، وتوّج معاقل المعالي ومنطقها، بأدب كم أبدع غديرا، وأكرع غزيرا، وجرى ذهنه مندفقا، وجوري فبلغ الغاية مرتفقا، إلى محاسن كم وهبت الكحل أجفانا، وأنهبت قرى الخواطر أحواضاً دوافق وجفانا.

قال ابن بسام فيه: آيةُ الزمن، ونهايةُ الفطنة واللّسن، نفث بالسحر واغترف من البحر، ونظم الدراري بدلاً من الدرر، لم أظفر عند وضعي هذا الديوان بشيء مما له من الإحسان، إلا بفصول من رسائل سمّاها (طيّ المراحل) سبق في ديوانها عفواً،

---

(١) في الأصل: وتعضّ.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتها عن الذخيرة. (٣) الذخيرة: العدوّ.

(٤) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٢٧ وعنه المغرب ٢/ ٤٠٥ وفي الفصول التي اختيرت من رسائله ما يشير إلى أنه كان رسولاً إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر على أحد الحصون.

وتصرّف بين حسنها وإحسانها تصرّفاً حلواً، وحذفتُ سائرها لطولها، ودللتُ على فضل منشيها، دلالة الشمس على ما يليها.

وأورد من نثره قوله[١]:

حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار، مستوقدة[٢] الأنوار[٣]، هواؤها جلاءٌ للغمّ، وزيادةٌ في العمر، وضياؤها شفاءٌ من الكظم[٤]، وانشراحُ الصدر[٥]، وكأن مياهها تنبعثُ من بنان سيِّدها، فصارت عيناً سلسلاً، ولو كان مزاجها زنجبيلا. وكأنها[٦] مسَّت عيناً حيواناً، فأنبتت الزبرجد[٧] ريحاناً، ومن الزمرّد شجراً فينانا، وجعلت من النارنج عقيانا، ومن زهر الآس لؤلؤاً ومرجانا، وميل بنا إلى «التاج» وهو موضوع[٨] على مفرق القصر من جانب البحر، ممرد[٩] من قوارير، وألبس الصبح المستنير، وقلّد قلادة الطاووس، فنقّط نقط العروس، فمن يقول هو قبّة الفلك، ومن يقول: هو السماء ذات الحُبُك، وإنهم ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾[١٠] ونظرنا في صدره من الملك الهمام إلى الشمس تحت[١١] الغمام، فقضينا فرض السلام، وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يُطافُ علينا بصحاف من ذهب[١٢]، وجفانٍ كالجوابِ /١٢٨/ أنزِعتْ من كل أرب، فلما أتينا على الريّ قمنا إلى الوضوء، فجيء بِطاس من التبر، وأباريق رصعت بالدرّ، وبِضئنا بماءٍ قوامهُ بلّور، ومزاجُهُ كافور، ثم قُمنا إلى المصنع (الزاهر). وهو نظيرُ (التاج) من الجانب الآخر، لما أعدَّ فيه من الشراب، ما بَهر[١٣] الألباب، فألفينا مورداً عذباً، ومجلساً[١٤] عذباً كأنّ أطباقهُ مقل الجفون، ملئت من قرّة العيون، وأكواسه مراشف الحور، تُعل بنطف الثغور، طلعت منها شجرة مباركة النوى، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٣١.
(٢) الذخيرة: مستوفزة.
(٣) بعدها في الذخيرة: متدفقة الأنهار.
(٤) الذخيرة: شفاء للكظم.
(٥) الذخيرة: للصدر.
(٦) الذخيرة: أو كأنها.
(٧) الذخيرة: من الزبرجد.
(٨) الذخيرة: مصنع.
(٩) الذخيرة: مردَ.
(١٠) سورة الذاريات: ٨ و٩.
(١١) الذخيرة: تجلّت من الغمام.
(١٢) الذخيرة: من فضة وذهب.
(١٣) في الأصل: من نهر.
(١٤) الذخيرة: محلاً.

﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[١]، صيغ عودها من الحلي المنيل[٢]، وقام عمودها كأنبوب السقي المذلّل[٣]، والتفت أغصانها[٤] التفاف الذوائب الجعدة، والتقت أفنانها التقاء الصعدة بالصعدة، فبينا نحن نعجب من شانها، ونستغرب مناظر زهرها وأفنانها، إذ سطع من جرثومها دخانُ المجمر، وارتفع من خلال لبسها غبار العرفِ المعطّر، من دون أن تبدو إلى العيانِ نارُها، ويعلم أين يوقد هنديُّها وغارها، فقلنا: تبارك الله كيف تحرق نار تخالها هامدة، وتورق أشجار تحسبها خامدة، إن الذي أنطق الجزع والحصى، وخلق الحيّة والعصا، وأطفأ[٥] النار بعد أن كانت ضراما، وقال: كوني على إبراهيم برداً وسلاما[٦]، لقادرٌ على أن يورق الصلاد، كما أنطق الجماد، وعلى أن تعمل النار في الخمود، كما أبطلها عند الوقود، وقام بالجريال على ساق[٧]، وجعل المنديل مكان حمائل السيف الطويل. وأدار نجوماً بروجها أيدينا، وشموساً تطلع[٨] وتغرب فينا، ولما كنت لا أشرب إلاّ مشتبه الشراب. كالمزر والدوشاب[٩] قُدِّم إليَّ قعبٌ من نبيذ الآزاذ[١٠]، ومصريّ الداذ[١١]، فرفع (نديمي) شهابا، وأبْرزت أنا غراباً[١٢].

وقوله[١٣]:

وأوحى إلى المزمار أن ينطق، وإلى الأوتار أن تخفق، وإلى الغناء أن يذيب القلوب، ويشقَّ الجيوب، ويحثَّ الشمول، ويكفي الساقي أن يقول، وقد أسبلت على لهو بهو السماع، وقبّة الغناء، قطعة من الخسروان، اللازوردية الحرير، قد أُلهب بالذهب نحورها (وحواشيها) وقبب بالعسجد أسافلها وأعاليها، وكحّلت بأسلاك الجوهر خطوطها ورسومها، ووصلت بالياقوت الأحمر دوائرها ورقومها /١٢٩/ فجاءت كطرّة الصباح نقّطت، ولبّة الفجر رُصعتْ بغير كواكب الرجوم، فاندفعت منها بلابل الدراري تغرّد، وحمام الأيك[١٤] تصوّب وتُصعّد، وأطيار المعازف تتجاوب،

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٢) المنيل: أي المرصّع أو المزخرف.

(٣) إشارة إلى قول امرىء القيس:

وكشح لطيفٍ كالجديل مخصّرٍ   وساق كأنبوب السقيّ المذلّل

(ديوانه: ١٧).

(٤) الذخيرة: بأغصانها.

(٥) أطفأ: لم ترد في الذخيرة.

(٦) سورة الأنبياء ٦٩١، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

(٧) الذخيرة: وقام بالجريال ساق جعل المنديل، وهي قراءة مضطربة.

(٨) الذخيرة: تطلع منه.

(٩) المزر: نبيذ الذرة، الدوشاب نبيذ التمر (انظر: شفاء الغليل: ٨٧).

(١٠) الازاذ: نوع من التمر.

(١١) الداذ: نبت يعمل منه شراب مسكر.

(١٢) لو تراني وفي يدي قدحُ الدوشاب أبصرت بازيار غراب.

(١٣) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٣٤.

(١٤) الذخيرة: حمائم الأوتار.

وأصناف الملاهي تتناوب، وأقبلت نجوم الطاس تنكدرُ في الصدور، وقلوب الناس تنتثر في الحجور، وما بقي عقلٌ لم يقع في شرك، ولا جيبٌ كان في شعة من درك.

وقوله[١]:

وإني فضلت عن تلك الحضرة بعد أيّام كأيام الشباب، وليل كذوائب الكعاب، سكنّا منها في السواد من القلوب، وسلكنا بين المخانق والجيوب، أنقل من يدٍ إلى يد، وأحمل بين جفنٍ وجلد[٢]، سقيتُ برد السرور على الأكباد، أو طربتُ أطعمت حلاوة الوداد في الأخلاد[٣]، ولله يوم (التاج) و(الزاهر) عند الملك الماجد الباهر، فيا له من أنس وطيب بين الخورنق والكثيب، في مجلسٍ كأنما أُلّفت قواريره من خدود وثغور، وثمارُهُ من نهودٍ ونحور[٤]، ونحيي الجسوم بالأرواح، فبقينا[٥] فاكهين فرحين، نزمر بالكؤوس، ونرقص بالرؤوس، وتتثاقف الأخوان، ونواقف الندمان، مواقفة الكرام، بشرب المدام، لا بحدّ[٦] الحسام، نسقي ودّ الصديق للصديق، ونطلب الصبوح بثأر الغبوق، حتى أخجلنا الشمس بضياء الراح، وقمنا نقدّ السراح من ضوء الصباح، وقلنا: دين المسيح، يعبُدُه كل مليح، فطفنا حول الدنان، بمصابيح الرهبان وما زلنا نسمع باقتراح، ونشرب على ارتياح، ونصل اغتباقاً باصطباح، حتى شبّت مصابيحنا لقُفّال[٧]، وحان أوان ظعنٍ وارتحال، فخرجتُ كالمقلة استلّت من الأشفار، والنفس انتزعت عن فلوذ أعشار[٨]، ثم ارتحلتُ من غدٍ[٩] عن مقامٍ كريم إلى عذابٍ أليم، لا أملك فيه أدمعي، ولا أجدُ نفسي (معي)[١٠] وسرنا بين جبالٍ وحشةٍ، ومياهٍ دهشة، فصادرتنا من ريح عاد، ذاتُ صرٍّ وأبراد، أضرمت نار البرحاء، وكظمتْ أنفاس الصُّعداء، ومن أخذ بكظمهِ كيف يرجو الحياة؟! ومن أطبق بغمّهِ أين يجد النجاة؟! وما

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٣٥.

(٢) الذخيرة: خلد.

(٣) الأصل: الوجاد في الأجلاد.

(٤) بعده في الذخيرة: صعدنا فيه إلى العلياء، وصرنا كأننا من أهل السماء، نشرب التجوم بالأقداح.

(٥) الذخيرة: فبتنا.

(٦) في الأصل: لا تجوب.

(٧) إشارة إلى قول امرىء القيس:

نظرتُ إليها والنجوم كأنها … مصابيح رهبانٍ تشبّ بقفال

(ديوانه: ٣١)

(٨) الأصل: أسفار.

(٩) الذخيرة: الغد.

(١٠) سقطت من الأصل، وهي في الذخيرة.

شكَّ / ١٣٠/ غمامُ الثلج المنثور، أني من أصحاب القبور، فجعل يهدي إليَّ حنوطاً وذروراً، وينذفُ عليَّ قُطناً وينثر كافوراً، فلما تمت الأكفان، وصحَّ الأندفان، وطلعت إليّ غرة الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح، فقمتُ وقد انجلتْ عنّي المِحنْ، وانتفضتُ فطار القبر والكفن[١]، ومدّ إليّ يد الرضوان، وغمسني في نهر الحيوان، فجعلتُ أطرف كما يطرف الفجر في سدف[٢] الليل، وأنبت كما تنبت الحبة في حميل السيل، ورأيت ملكاً تقرأ النفاسة بين عينيه، وتبصر الرئاسة طوع يديه، حلّي السيف باسمه فرقّت مضاربهُ، وتوّج الملك في مفرقهِ فعزت جوانبه، جواد يندى في كفّه الجماد، ويقدح بنبله الزناد، ويقتبس من وجهه الكوكب الوقاد، وعلى أعراقها تجري الجياد، كيف يعجب للسيف أن يقطع، ومن حديد الهند طبع، وللبدر أن يشرق، ومن نور الشمس استرق، وللبحر أن يزخر، وعن الريح المرسلة أخبر.

وقوله[٣]:

ومرّت لنا الأيام لا نستطيع براحا، ولا نلذُّ غدواً ولا براحا، فلما انقضت ليالٍ خمسٍ التفتتنا التفات[٤] البكر من خلال الستر، وصمت الماء من خريره، والهواء من صريرِهِ، فقلنا: قد يكون الرضى صماتاً، والإذن التفافاً، وأخذنا في التفويض، وأسرعنا في النهوض، وما زلنا في مسلكنا[٥] نموت ونحيا، ونتقلّبُ بين الآخرة والأولى، حتى اصطلينا بنار الحاجب[٦] سيف الدولة أبي الفتوح، فقابل بوجهٍ طلق، وخلقٍ سمح، فلما صِرنا في ذُراه، وكنفتنا نعماه[٧].

وقوله[٨]:

ثم توجهت تلقاء مدين الأسعد[٩]، وموطن السؤدد، حضرة المعتضد بالله، وإن كانت على هرم، فأتمنى وقفة بها فيها ولو على قدم، وأرغبُ في زيارتها ولو لُماما، وأودُّ رؤيتها ولو مناما، لألمح دار الخلافة، وأرى بيت الرسالة[١٠]، فخرج إليّ الأمير

---

(١) إشارة إلى قول المتنبي:

كم قد قتلت وكم قدمت عندكم ... ثم انتفضتُ فزال القبر والكفن

(ديوانه، ٤٧)

(٢) الذخيرة: سدفة.

(٣) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٣٩.

(٤) الأصل: التقتا التقاء.

(٥) الأصل: في نسك كنا.

(٦) الذخيرة: الحباحب.

(٧) بعده في الذخيرة: انشدنا:

فقلْ للسماء ارعدي وابرقي ... فإنا رجعنا إلى المنزل

(٨) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٤٤٠.

(٩) الذخيرة: الأصعد.

(١٠) الذخيرة: الرياسة.

أبو الحسن بن يحيى الوزير الجوهري[١]، فأراني بحسنِ صمتهِ[٢] كلامه، ورجاحة عقله وتمامه. مراتب الوزراء المتقدّمين، ومناصب العقلاء[٣] السابقين، فلمّا أدّيتُ الرسالة، جعلتُ أسلك في منازه المدينة، وأنظر تلك المشابه /١٣١/ المبينة، فإذا برسومها فاتحة الأعلام، ورموزها مفهومة الكلام، ونصبها مائلة الشكل والقيام، إلاّ أنها كرواحٍ مسَّتها زمانة[٤]، وربْحلةً أدركتها من السنّ مهانة، ولم يبق فيها إلاّ رسوم من الحسن، كانتشاء الطرف، وإن مالت[٥] أجفانٌ وخطوط من الجمال كاعتدال الأنف، وإن سقطت أسنان، لكنها لم تفارق عطرها، وإن كانت بعد عروس[٦]، وتركت زيّها ولم تطمع بمسيس[٧]، ولا دنست ثيابها وإن كانت أسمالا، ولا عقَّت شبابها و إن تجاوزت اكتهالا، فوقع بين قلبي ورونقها سفاح، لم يصدّقه نكاح، وامتنع[٨] شمس بعبقها[٩] لصوق، لم يلحقه رفثٌ ولا فسوق، ووقفتُ بالقصر المرواني، وطفتُ على المصنع القحطاني، وانتبذتُ إلى المنزه العبدي الرحماني، فإذا الثلاث الأثافي، والديار البلاقع، فأخذتُ بالسنّة في ديار ثمود، أسكب الدموع وأمجّد المعبود، فقال قريبنا: هنا كانت قصورهم، وههنا[١٠] قبورهم، قد صارت مفاصلهم ترابا، ومساكنهم تباباً[١١]، وقد عادوا يسكنون القبور، وكانون ينهجون[١٢] بالقصور، وظلّوا يعتنقون[١٣] الجلمود، وكانوا يسترهقون النهود، وصاروا يلزمون الطين، وكانوا يملّون حشايا اللين، فقلتُ: أين من كان هنا من القيول الأبية، والملوك الأمويّة، ذو[١٤] التيجان المنظومة بالمرجان، والملابس المرقومة بالعقيان، والفروش المرفوعة إلى السكاك، والعروش الموضوعة على السماك، وقد نضدت بالنمارق، ومهدت بالأرائك، وحُفّت بالجنود، عند القعود للسلام والأحكام، وأين أسراب تلك الجواري الكُنّس، في مروط السندس، كأنها ما استعارتْ من الكثبان أكفالا، ولا من الأغصان اعتدالا، ولا من الروض أرْدانا، ولا من الظباءِ أجفانا، ولا رنتْ إحداهن عن جفن همَّ بالتهويم، فنبّههُ[١٥] النديم، ونظر نظرةً في النجوم فقالت: إني سقيم. والآن: قد كحلت تلك

(١) الأصل: الجهوري، والتصويب عن الذخيرة.
(٢) الذخيرة: سمته.
(٣) الذخيرة: الفضلاء.
(٤) الزمانة: آفة في الحيوانات.
(٥) الأصل: قالت.
(٦) إشارة إلى المثل: لا عطر بعد عروس.
(٧) الذخيرة: ولا تركت بزّها وإن لم تطمع بمسيس.
(٨) الأصل: وامتنع.
(٩) الذخيرة: بمعتقها.
(١٠) الذخيرة: هناك.
(١١) الذخيرة: يبابا.
(١٢) الذخيرة: يستهجنون.
(١٣) الأصل: يعشقون.
(١٤) الأصل: ذي.
(١٥) الأصل: فنبّه.

العيون بالتراب، وكان كحلها كحلاً، ولصقت تلك الخدود بالكثبان، وكان تقبيلها أملاً، وانهالتْ تلك الأدعاص على[١] الصعيد، فكان التفاتها جذلاً، فوقفت معتبراً. وما أبقيتُ عبرةً إلاّ أرسلتها، ولا دمعة إلا أسبلتُها، بكاءً على المآل لا على الأطلال، وعلى المصار / ١٣٢/ لا على الديار، وعلى فقد الأحباب. لا على ذلك الخراب.

ثم[٢] جئنا إلى المسجد الجامع، ونظرتُ من تلك المصانع، فرأيت بنياناً بديعاً، وإيواناً رفيعاً، شادهُ ذو عزم وتأييد، وبناه أُولو قوّةٍ وأولي بأسٍ شديد، فكأنما أرسته عاد، أو بنتهُ ملائكة غلاظٌ شداد، ومشينا من رتبةٍ إلى رتبة، ومن قُبّةٍ إلى قُبّة، حتى انتهينا إلى المقصورة، فألفينا سقفاً من فضّة، ومعارج عليها يظهرون[٣] وقد قرّط سمكها بالذهب الأحمر، والفلزّ الأخضر، وبلط سطحها بماء الجوهر، وكافور المرمر، وكأن قبابها عقدت بالجفون الدعج والحواجب البلج، وكأن درجات منبرها تكاسير الشعور، مالت على متون الحور الحسان[٤]، ومناطق الأعكان، ضُمَّت على الخصور اللدان، ألّف من عاجٍ كالمباسم، نُقِش نقش الدراهم، وأبنوس كالغدائر، طُبعَ طَبْعَ الدنانير، وصندلٍ كأطراف البنان، كتبتُ بهدبِ الأجفان، ثم اعتمدنا إلى المحراب، (فكلٌّ) خرَّ راكعاً وأناب، وجيء بمصحف عثمان ذي النورين يُحمل على المفرق واليدين، فلما خُلِعت مطارفُهُ، وفتحت صحائفه إذا بنموذج[٥] من فردوس الجنان، أنبت إنباتاً أخضر، وطراز كخدود الولدان كما اطلعت الشعر، وكأنما خطت بمجارس النحل، ونُضدت من روادف النمل، فاستمدّ مدادها من قلوب الكافرين، وخُلِق خلوقها من عيون الشهداء والصديقين، فلذلك لم يحتجْ بيانه إلى ضبط ونقط، ولا افتقرَ قرآنهُ إلى أكثر من ورق وخط، جرى فيه كاتبُه على سجيّة لسانه فأمِنَ اللحن، وأخذَ بسنّة أهل زمانِهِ، فترك العجم والشكل، وآمن[٦] بقول رب العالمين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٧] فألصقتهُ بكبدي ليبردَ ذلك الأوار، وأمرَغْتُ فيه خدّي عسى ألاّ تمسّه النار، ولمحتُ أثر دم الشهيد، فجئتُ من دمعي بأربعةِ شهود، وقلتُ: ألا فُضّ فمُ الحسام كيف فصم لحمه[٨]، وأرغِم أنف السنان كيف استرعف دمه، وتبّاً لعبيد الدار كيف أغمدوا أشفارهم، وعجباً من بقيّة الأنصار كيف ضيّعوا انتصارهم،

---

(١) الذخيرة: في.
(٢) قبلها في الذخيرة: وفي فصل منها.
(٣) الذخيرة: ومعارج إلى الجنّة قد قرّط...
(٤) الحسان، لم ترد في الذخيرة.
(٥) الذخيرة: بمدرج.
(٦) الذخيرة: وأمر.
(٧) سورة الحجر: ٩.
(٨) الذخيرة: قصف لحمه.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[١] لو شاهدت ذلك البرج[٢]، لصار القلم في يدي كصدر الرمح، وأضحى المقطّ في كفيّ أبيض مثل السيف. /١٣٣/ ولكانت سكيني هناك حساماً، ويميني عمراً أو صمصاماً، وقلبي على لينه جماداً، وسعى على ضعف حويله جهاداً، حتى أرْمي من رمي في المقتل، فأقتل دونه قتلة المكبّ المقبل.

ثم خرجنا وقد صدئت نفوسنا، ووجلت قلوبنا، وخلت من الدموع عيوننا، ولم يتسع يوم الإقامة[٣] لأكثر من هذه المقامة، باكرت[٤] الرحيل، ويَمَّمْتُ في الغد الملك الجليل، الذي ضاءت[٥] به المشرق والمغرب، وسادت لخم سائر العرب، فلما فصلتُ عنها رأيتُ من حُسنها وجمالها، واتصال مساكنها وظلالها، ما حُبِس عليه ناظري، وجُذِبَ إليه خاطري، فقلت:

سقى جديداً من الأيام قرطبةً ... ماءُ الشباب وريقُ البارِدِ الخصرِ
وقفاً يمدّ الندى في روضهِ شرفاً ... من الغمام مع الآصال والبُكر
لأنّه فيه والإمساءُ يُبْسُطُهُ ... رداءُ إلفين قد صارا إلى وطر
حتى إذا شيب كافور الصباح به ... أضحت تصعدهُ نارٌ من الزهر
وبين هذين من لينٍ ومن لُطفٍ ... روحٌ يُقيم سجود النجم للشجرِ[٦]
لليل فيه سوادٌ يستهام به ... كأنّه في سواد العين والشَّعرِ
وللنهار سنا يحكي تبلّجهُ ... نور البصيرةِ مقروناً مع البصرِ
كأنما شمسها تحت الغمام سنا ... وجهٍ تنفَّس في مرآتهِ نضِرِ
والطلّ فيه غداة القطر تحسبهُ ... حلياً سقى زهر اللبّات بالدرر
وصفحة النهر الفضيّ باسمة[٧] ... في روضها مثل خيط الفجر في السَّحر

ثم نفذت لطيّتي، وأخذت في وجهتي[٨]، وكان لا عهد لي بلقاء المعتضد بالله

---

(١) الواقعة: ٧٥ - ٧٦.
(٢) الذخيرة: يوم ذلك.
(٣) في الأصل: القيامة، والتصويب عن الذخيرة. وقد أشار المحقق إلى أن كلمة القيامة وردت في بعض أصول الذخيرة.
(٤) الذخيرة: ثم باكرتُ.
(٥) الذخيرة: ضارع به المغرب المشرقُ.
(٦) الذخيرة: والشجرِ.
(٧) الذخيرة: مبسمة.
(٨) الأصل: وجهي.

خوّل[١] الله الدين والدنيا ببقاه[٢]، وأدام به على الزمان بهاه ـ وله (من)[٣] بعد الصيت ورفعة البنيان[٤]. وفخامة (الذكر)[٥] وعزّة السلطان، ما تهابُ النفوسُ سماعه، كما تألف الجفونُ اطلاعه، وتجلّ القلوب مكانه، كما تستلذّ العيون عيانه، فأدركني من توهّم لقياه، وتخيّل (سناه)[٦] ما يدرك راكب البحر قبل نشر الرياح، وشارب الخمر قبل امتزاج الراح بالراح، ثم لقيته[٧] من الغد، فقابلتُ من وجهه بدراً تأخذ منه البدور، وقبلتُ من كفّه بحراً / ١٣٤/ تغترف منه البحور، ولا (غرو)[٨] أن تغرف من بحر بحار، ويستمدُّ من نورٍ أنوار، فإن مادة البحور من البحر المسجور، وعلّة الأنوار شمس النهار، وشاهدت منه منظراً استمال عيني حتى عقد به أطرافها، ومخبراً استهوى نفسي حتى كرّه إليَّ انصرافها، وظلّ ينفثُ من نُبلِهِ سحراً، اضبِطُهُ بذهني، وينثر من لفظه درّاً ألقطهُ بأذني، حتى صارت لي الثريّا قرطا، والمجرّة مرطا، وأخذتُ في الرسالة، فلما سامح الأدب، وساعد المذهب، قلتُ: إن من أرسل رسولاً في مهمّ تطلّع، ومن رجا صديقاً لدفعِ ملمٍّ توقعّ، لا سيّما إنّ رجاه شفاءً من الخطب، واستهداه هناءً لموضع النقب، فقد تعلمَ كيف ينظر[٩] القيم إلى العائد، وناهيك إن كان طبيباً، والتفاتُ القيم إلى الوارد، ويكفيك أن أورد محبوباً، وإن رئيسي ـ معظمك ـ أرسلني إليك وانتظر، وأوفدني ثم استمطر، وقد رأى إن إسعادك مُراده، وإنجادك مَراده، فلوى عنك ما بطأ السياق، وعاق[١٠] دونك ما أخّر العناق، حتى تطاول الزمان[١١]، وفي ذلك من تعذيب نفسه، وإرجاءِ أنسهِ، ما يدعو إلى إشفاقك من شغل باله، وارتماضك في نكد حالهِ، إذ لا يلذّ بحال حتى يدري ماله عندك، من[١٢] حلوهِ ومرّه، ولا ينعم ببال حتى يجتلي ما تنهيه إليه من جدّك، في يُسرهِ وعُسرهِ، فلك الفضل في انتشال إيابي، وإراحة ما بي، حتى بسرّائه، وأقطع بما يزيد في مضائه، فخاطبت بما اقتضيت من إيجابي، وألفيته من سريع إطلابي، وكتبت إلى الوزير أبي الوليد بن ريان[١٣] برقعة أقول فيها: لم أزل منذ فارقت الشرق، وخلّفت ذلك الأفق، اتقلّبُ في[١٤] ثلجٍ يكفّن، ووحلٍ يدفِن، وريحٍ تبعثُ من في القبور، ورعدٍ ينفخ في الصور[١٥]، وبرقٍ يرمق أصحاب الجحيم، ويريهم صورة العذاب الأليم، إلى أن وصلت

---

(١) الذخيرة: تخوّل.
(٢) الأصل: بقاه.
(٣) من، ليست في الأصل، واثبت ما في الذخيرة.
(٤) الذخيرة: الشان.
(٥) ليست في الأصل.
(٦) سناه، ساقطة من الأصل، واثبت ما في الذخيرة.
(٧) قبلها في الذخيرة: وفي فصل:
(٨) ساقطة من الأصل، واثبت ما في الذخيرة.
(٩) الذخيرة: نظر.
(١٠) الأصل: عانق.
(١١) بعده في الذخيرة: وحالت الأحيان.
(١٢) الذخيرة: في.
(١٣) الذخيرة: زيدون، وقد أشار المحقق في الهامش أن (ريان) وردت في بعض أصول الذخيرة.
(١٤) الذخيرة: بين.
(١٥) الذخيرة: صور النشور.

محلّ العليا، ومنتهى سدرة الدنيا، حضرة المعتمد بالله، وقلت (فنعم عقبى الدار)[١] ما ينكر لأهل الجنّة السُّلوك على متن النار، وكنت أسمع أنباءه فأستغرب، وأنزع تلقاءه فأستدني وأستقرب، حتى رأيتُ عياناً، واستوضحتُ بياناً، فإذا الخبرُ أزرى بالخبر، والعيان / ١٣٥/ قد أربى على الأثر، وقلت: بحق سأل الكليم رؤية الربّ، وقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[٢] وأني رأيت ملكاً لا يصعد الطرفُ إليه إجلالاً، ولا تطيق النفس[٣] عنه انفصالاً، قد جمع مهابة العدل إلى ودادةِ الفضل، وجلالة المنصب، إلى لطافة الأدب، وركانة القُعْدُد، إلى بشاشة التودّد، وبرق الحسام، إلى وذْقِ الأيادي الجسام، إن رمق الأعداء، فأجفان نصالهِ طارفة الشفار، أو وصل الاودّاء[٤]، فأنداءُ بنانه آلفة الأوطار، ضالته[٥] الحكمة، وشريعته[٦] الحجّة، وإن رأى حقيقةً أنصف. وإن رمى بحجةٍ أهدف، يُصيبُ بذهنه حدق الغيوب، ويعلم بظنّه خائنة الأعين والقلوب:

الألمعيُّ الذي يظنّ لك الظنَّ ... كأن قد رأى وقد سمعا[٧]

والمعتضد بالله، لا يدع في ذلك تأنيسي بكلّ تُحفة يُهديها مع الأحيان، وطرفةٍ يوليها مع كل دقيقةٍ من الزمان، ولقد تاحفني يوماً عندما طرأت الأشابيل[٨] بالنهر[٩]، وانسربت من البحر، بعدّة أسماكٍ منثنية الذوائب، متمكّنة (الحياة)[١٠] لدنة النقل والحركات، فلظَّت في مائها تطير ساعة، وتسبح طائرة، وأقبلت تأخذه مرة جاثية ومرة سائرة، وقد تختمت بالعقيان في جفونها، وتتوجتْ بالجمان في عرانينها، وتطوقت بالمرجان في عثانينها، وعُذّرت بالريحان فوق متونها[١١]، وأربت على النشوان في اضطرابها ولينها، فأعملتُ فكري في شذوذ هذه الصفات، وغرابة هذه الآيات، حتى عرفتُ تعليلها، وفككت تأويها، فإذا بها قد شربت ماء نداه فلم يُعدم حيوانها، ورأت محيّاه فخصَّت بالحليةِ أجفانها، وقبلتْ بساط مثواه فطوّقت بالدرّ مراشفها.

أما ما نذيّلُه عليه، ونمليه إليه، ليأخذ بعضه ببعض، ولا يفوت آخره ما تقدّم بين يديه. وذلك مما حدّثني به الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد العقيلي اليبري وسأذكرهُ بأسمائه، وأترجم لها كما فعلتُ فيما تقدم، وأؤلف درره الفرائد والتوائم.

/ ١٣٦/ فمنهم:

---

(١) سورة الرعد: ٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.
(٣) الذخيرة: النفوس.
(٤) الأصل: الأود.
(٥) الأصل: ضاله.
(٦) الأصل: شريعه.
(٧) البيت لأوس بن حجر: ديوانه ص٥٣.
(٨) الأشابيل على ما حققه د.إحسان عباس: صيغة منتهى الجموع للمفرد (أشبول) وهو نوع من السمك.
(٩) الذخيرة: في النهر.
(١٠) الحياة، ساقطة من الأصل، وأثبتها عن الذخيرة.
(١١) بعده في الذخيرة: وشابت قبل الإسنان من بطونها.

[٣٦]

أبو جعفر بن عطية الطرطوشي

تصدّر في دولة بني عبد المؤمن، وبلغ فيها نهاية المحسن، جاؤوه بالإحسان إحساناً، وأعلّوه في النواظر إنسانا، وأولوه برّاً لا ينزف، وأحلوه وقاراً لا ينسف، ولأدبه نشأة الروض المجود، لا بل نشأة المدامة بنت العنقود.

ومن نثره قوله:

أما بعد، فإن الأيدي قد امتدّت، ودواعي التعدّي قد اشتدت، وأموال الناس تنهب، وزواجر كتاب الله لا تُرهب. وأنت تنام عن كفّ هذا الانتهاب، وتلين عند السطوة والإرهاب، وتعكف على الراح وراحاتها، وتقف بين بكرتها وروحاتها، وقديماً أفسدتِ الراح الأحوال، وجرَّت إلى أهلها الأهوال، فلينُب عن سوطك سيفك حتى يرهب خيالُك وطيفك، والسلام.

ومنهم أخوه:

[٣٧]

عقيل بن عطية

أغضّ من أخيه فناً، وأغنى أدباً، أدباً لا يفنى، وثيق البنا، عريق السنا، جرت مذاكيه علا، وجلّت معاليه علا، وأشبه أخاه إلا أنّه ما واخاه، لمكانة أخيه في الدولة المؤمنيّة، التي عدمت القرناء، ووجدت به الغناء.

ومن نثره الذي أخذ في أطراف البديع. وأوصاف الدرّ الصنيع. قوله:

ورد كتاب ملك الروم مهدداً متوعداً. ذاكراً أن أبا زكريا أذعن ومال إلى المسالمة وركن، ولسنا مثله، وعندنا من حماة المسلمين المشاهير المعلمين، من يقاوم جمعك الذي يعجب بأسوارِهِ ويهدّ منبر دعواك الذي تعتصم بأعواده. ودين الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه. وإذا اتفق أهله فلا تطرق إليه، وقد اعتدنا لك ولقومك، أولا توبة الله الذي ينصر أولياؤها، وتحيى بماء السعادة شهداؤها، ويسعد في الدارين أحياؤها. وهو بطوله يُفرغ على قلوبنا صبراً، يثبت الأقدام، ويوهن كيد المعتدين، وينصر هذا الدين، و﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[١]، و﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢]. ولا تحسبن كل

(١) سورة آل عمران: ١٤١.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٩.

بيضاء شحمة، ولا كل حمراء لحمة، بل أن /١٣٧/ بياضنا في عمائم الحروب برقها، وفي لمح الأسنّة زرقها، وقد أعددنا لك وقعها وخطبها. وأدرنا بساحتك فيها سلف قطبها، ونعمنا في ثرى بلادك، وأكلنا يابسها ورطبها، ولطالما أثرنا فيها النقع، وخرقنا ما لا يقبل الرقع، أتظنّ أننا نتساقط (من) التهديد ومقدمات الوعيد، لنفر من قعاقع سنانك. كلا ولا نحفل من تخييل شنآنك، ولانتركك وإطلاق عنانك. وكأنكم وقد زففنا إليكم بنت الأقدام، وسقيناكم مسكر تلك المدام، ومن حقّ مثلك الاعتراف، وترك هذا الإسراف. حدثني، متى اتفقت المسلمون فبرقت بكم ببلادهم بارقة، أو كانت لكم معهم سوق نافقة، ها نحن ننكح حريمكم، ونستخدم أبناءكم، ونسكن مع مرّ الأزمنة بناءكم، ولولا ما في كتابك من الادّعاء، وإراقة ما في الوعاء، لم نذكّرك بما نسيت حتى تتجرّد مما به اكتسيت.

ومنهم:

[٣٨]

أبو الفضل بن محشوّة

وله كلم بالفضل محشوّة، كأنها عرائس مجلوّة، ومدارس آيات متلوّة، بين خفرات مجلوّة، وعطرات تتضرع بالألوه، ومن نثر زهر لا يعتريها الأُفول، وزهر لا يعتدي عليه الذبول.

ومنه قوله:

وأن يعلموا أن الرعية عيال الله كما جاء في الأثر المأثور، وأن الذود عنها من آكد الأشياء عندنا وأهم الأمور، وأن لا توجد طالما إليها سبيلا، ولا نترك عليها والياً جائراً مستطيلاً، فقد قال عليٌّ رضي الله عنه: والٍ عادل، خيرٌ من مطرٍ وابل، وأسدٌ حطوم خيرٌ من والٍ ظلوم، فامشوا فيها على غرضنا، واسلكوا في حفظها سنتنا، وأخروا كلّ من لم تُشكر طريقته، ولم تُحمد خليقته، وطهروا جانبكم من الظلم، فإنّ مرتعه وخيم، وماله ذميم، وقد أنهي إلينا أن الولاة يريقون الدماء، ويتبعون الأهواء وقد بعثنا إليكم فلاناً لحسم هذه الأهواء، أو تفريج هذه الأدواء. فأعينوه على ذلك أكمل الإعانة، ووالوه بما يوجب لكم عنده الحظوة والمكانة.

ومنهم:

[٣٩]

أبو القاسم القالمي

متوسط الكلام، متبسط المجال في مدارج الأقلام متسلّط القريحة عى بدائع

الفكر الصحيحة، لكنّه لا يلجّج في الغوص /١٣٨/ لمجاني الدرّ الفائق، ولايخرج في تحصيل المعاني الدقائق.

ومنه قوله:

وقد أنهى إلينا من سداد أحوالكم، وصلاح أعمالكم، وإيثاركم الواجب. وسلوككم السّنن اللاحب، وما وقع منّا موقع الاستحسان، وعدوناكم في الرعيل الأوّل من الأعوان، وقد وفد رسولكم إلى بابنا، وأنهى ما أنتم بصدده من التمسك بأسبابنا، والانخراط بالنيّة الصحيحة، والعقيدة الصريحة في حَلَبَة جموعنا وأحزابنا، وقد شاهد رسولكم البشائر التي حلّت جيد الزمان، وانثيال رؤوس الملحدين على حضرة الموحدين من كل مكان، وإجماع الأمة على هذه البيعة التي هي بيعة الرضوان.

ومنهم:

[٤٠]

أبو الحسين، عبد الملك بن عياش

ذو زيّ ورياش، وريّ للعطاش، لا يفارق حضرة ملك، ولامسرّة منهمك، بل لا يزعه عن دينهِ وازع، ولا تنزعه إلى غير يقينه نوازع، ولاينازعه في تمكينه في الصناعة منازع.

ومن حرّ كلامه، ودرّ نظامه قوله من نثره:

وقد كانت أقوام خاضت أفكارهم في بحور الأوهام، وأزلّتهم عن الحق الأفهام، فخلّدوا في العالم صحائف مالها من خلاق، مظلمة المعاني، مسودّة الأوراق، وهم يتشعبون في القضيّة الواحدةِ فرقاً، ويصيرون فيها الشواكل فرقاً، ذلك بأن خلقهم للنار، وهم بعملنا يعملون، ليحملوا أوزارهم يوم القيامة، ألا ساء ما يزرون، ونشأ منهم في هذه الملّة شياطين أنس ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾[١] ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾[٢] ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾[٣]، وكانوا أضرّ علينا من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعى إلى الله، لأن الكتابي يجهد في ضلال، ويكدّ في كلال، وهؤلاء مقصودهم

---

(١) سورة البقرة: ٩.

(٢) سورة الأنعام: ١١٢.

(٣) سورة الأنعام: ١٣٧.

التعطيل، وشأنهم التخريب والتحليل، دبّت عقاربهم في الإيمان برهةً من الزمان، إلى أن أطلعنا الله على رجالٍ كان الدهر قد سالمهم على حروبهم، وعفا عنهم على كثرة ذنوبهم، وما أملى لهم إلاّ ليزدادوا إثماً. وما أمهلوا إلاّ ليأخذهم الله الذي لا إله إلاّ هو، /١٣٩/ وسع كلّ شيء رحمة وعلماً، فليتقدّم بحرق كتبهم، وتفليل عصبهم من عرف بديانة، وصحّة أمانة، وبعد عن معاملة الله في دينه بالخيانة.

ومن شعره قوله:

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضيّة ليتني خُلقت كبيراً ثم عدت إلى الصّغر

وكان ابنه أبو عبد الله ممن له يدٌ في الصناعتين، إلا أنه في النظم أمهر بداراً وأظهر اقتداراً، وأدقّ حيلة، وأرقّ من بكاء الطلّ على الخميلة. وماء الفرند في ستر الحميلة، ولما سمع بيتي أبيه المقدّمي الذكر، المعلمي الطرفين من حلل الألفاظ الرافل فيها ذلك المعنى البكر، استعذب جناهما، وعقب ببيتين في معناهما وهما:

إني أقول قولاً سار في البدو والحضر وخلّه في الصالحين وما غَبَر
هنيئاً له إذ لم يكن كاتبه الذي أطاع الهوى في الحالتين وما اعتذر

ومنهم:

[٤١]

أبو القاسم المرخي

فكره حسن التوخي. وبحره بالدر يسخي. كان سهل الطريقة، كهل التصرف في المجاز والحقيقة. وله في النثر منازع دقيقة، ومقاطع ما للرياض فيها شقيقة.

ومنه قوله:

يا سيدي ما آن لعصى النوى أن تنصدع، ولطوارق هذا التفريق أن ترتدع، وللأيام أن تنشيء سوى ما هي عليه وتبتدع، لشدّ ما لعبتْ بنا من حالٍ إلى حال. وأرتنا الحقيقة في مسلاخ المحال، وكان يكفيها نثرت ذلك الشمل الذي كنتم واسطة عقده. والرسم الرائق في برده، فدعاني الاقتصار إلى أن أرسلتُ عناني في ميادين الاختصار، وسلكت شعاب القول على غير استبصار.

ومنه قوله:

وأما الشوق إلى لقائكم فلا أصفه، ولو قلت ماء عيني لا أنصفه، ولعل لقيا يقع بها التشفي، وتمحو آثار البعاد وتعفي، وما ذلك بعيد، من لطف المبدي المعيد.

ومنهم:

[٤٢]

أبو عبد الله القباحي

لا يهمل كثيره ولا قليله، ولا يقلّ حقيره ولا جليلهُ، كأنما يكاتب بربر، أو يخاطب /١٤٠/ الناس عمّا في نفوسهم بخبر، كل كلامه نكت هي النجوم، أولها حَكَتْ.

ومن نثره قوله:

وأن تعلموا أن تلك البلاد لدينا أثيرة الشان، خطيرة المكان، وأن الاعتناء بها لا يفارق البال، والنظر في مصالحها مقدم على كل أمرٍ ذي بال، ولكم مدّة لم تعلمونا بأمورها، ولا خاطبتمونا بأحوال خاصتها وجمهورها، فلتحتاطوا عليها، ولتصرفوا عنان الشهامة والحرامة إليها، ولتعوّلوا على الأنباء بالإبناء. والأخبار بالإخبار، ولتحرصوا على ما يزيدكم لدينا خطوة. ويرقيكم ذرى الوجاهة ذروة.

ومنهم:

[٤٣]

أبو بكر بن معاود

عذير بيان، وغدير حصباؤه جمان، وصاف لا يخطىء مراده. ولا يعطي شيئاً من حقه من الوصف فيقال إنه نقصه ولا زاده، يقعُ على المقاصد، ويضع على الطرق المراصد، ما شبّه شيء إلا كان كأنه هو، ولاحذا طريقة قوم إلا كان كأنه مما نطقوا به وتفوَّهوا. ومن نثره قوله، رسالة يصف فيها الكلاب وهي:

أطال الله بقاء سيدي، تحتمى ذمارُهُ وجنابه، ولا تهرُّ دون طارقٍ الاضايف كلابه، ولا زالت سائمته راتعةً في مرابض للأساود والأسود، آمنة في الدادي[١] والليالي السود، يمنعها أهرت الشدقين، متنمّر الإهاب، سريع الجيئة والذهاب، معرق عند انتساب الكلاب، مفرخ للنياح، مانع للحريم المباح، إن ربض حمى الربض. وإن سُرّح قتل أو جرح، خفيف الوثبة ثقيل الوطأة. يفتر عن مدية، وينظر عن جمرة، يميّز بأنفه في الليل البهيم بين العدو والصديق الحميم، إن شعر بالضيف بصبص وهمس، أو باللص أطرق وعبس، ووثب افترس، إذا نام الرعيان سهر وتطوّف وأنذر بنباحِهِ وخوّف، وإن أغفلوا السخلة حرسها، وقام عليها ولحسها، وربما انتزح عن صاحبه غير

(١) كذا في الأصل، ولم أفهم لها معنى.

بعيد، أو بسط ذراعيه بالوصيد، ثم اجتمع وانقبض، وتلمض وانتفض، وتمطّر اختيالاً من الكسل، وكشف عن مثل أطراف الأسل، ثم تمشى الهوينا قليلاً قليلاً، ويطأ الثرى برفقٍ كأنّه آسٍ يجسُّ عليلا، وتارةً يتنصّبُ مقعياً على ذنبه، متزحزحاً عن قرى المقتاد، ولهيه بأذن مؤلّلة إلى ما يوحى إليه، ويؤمر به، يجود /١٤١/ نحو الأكل نظرهُ، ويذكي إليه بصره، ويلتقف ما ألقى إليه، التقاف ثعبان موسى صلوات الله وسلامه عليه، بفم كالغار الأجوف، أو كالخرق في البرد[١] المفوف، يزدرد الطعام ازدراداً، وينزل بها وقد استحالت من حر النار رماداً، إلى فطنةٍ بالرمز والإشارة، يُميِّزُ بين النعي والبشارة، لا يفارق بين دخان نار الشيء، ودخان نار الكيّ، ويكاد يعرف الرشد من الغيّ، يصيد السرحان ويقتل الثعبان، ويقهر الظليم وإن بعد عنه وبان، فإن عرض له الصيد، فذو خفةٍ وأيْد، وهو له أجلٌ وقيد، لو كان مع خراش يجمع ما تفرق من الظباء عليه[٢]، أو مع واشق ما أقعص صاحبه لديه، ثم لا تراه كائناً إلاّ قدّام الغنم طليعةً أو من ورائها كامناً، وكأنما كان لأصحاب الكهف والرقيم ثامناً[٣]، ففي كلّ حالاته عجبٌ وعبر، إذا التوى وانعطف فبارقٌ تعب به المطر، وإذا وقف واعتدل، فقوس أعوزه الوتر، أو جرى ووثب، فسهم أرسله القدر، وقد تخيّرتُ لسيدي من هذا النسل جرواً، زاكي الأصل مرهفاً كالنصل، إذا جرّ به حمد منابه، وشكر عند مكافحته الذئاب ظفره ونابه، وإنه لسريع الإجابة عند الصفير، وجدّ بصير، يعض الخنازير بأسنان كالأشفية، أو كالخناجير إذا أقبلت عليه خادعها، وأخلد إلى الأرض، وإذا أدبرت عنه ركب أعجازها للقبض، فمن مجدّلٍ هناك هالك، ومن هاربٍ ضاقت عليه المسارح والمسالك، أعجزهُ لاشتغاله بغيره طاقه، فأقام يغطُّ غطيط البكر شُدَّ خناقه، فاقتنه ـ أدام الله عزّك ـ للزرع والضرع. فاقتناء مثلهِ حلال مباحٌ في الشرع. فالله تعالى يقرّ لك بهِ أذناً وعيناً، ما كان هذا الحديث كلّهُ زوراً وميناً.

وذكرت بهذه الرسالة رسالةً كنت كتبتها في هذا المعنى وهي:

هل لك ـ أعزّك الله ـ في جروٍ يكفيك مؤونة الغزو، بما يُراوغ من الصيود، ويُراوِد على الجلود، مما يحوش من الوحوش، أحفظ للصاحب من صاحبه، وأخْفى

---

(١) في الأصل: البر.

(٢) إشارة لقول خراش:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيد

(٣) إشارة لقوله تعالى: ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ سورة الكهف ٢٢.

منه بحراسةِ جانبه، يتيمّن به صاحبُه بما يتطيّر به اللص /١٤٢/ من شؤمهِ. لا يطال ظلم غشومه، إن تُرِكَ تَرك، وإلاّ كفّ ذنبه على خيشومِهِ، من كرائم مخبورة، قتلاها في البطون مقبورة، تملأ القدور لحماً عبيطاً، والأفنيةَ فرساً ربيطاً، من جنس الكلاب أوثق من الكلاّب، يعتد بوثبتِهِ لمثل يوم الكلاب، ويفتخر بنسبته بنو كلب وبنو كلاب، ذوات شياتٍ معلمات، وليست بأعوجيات مطهمات، أحدُّ أنياباً من الحيتان، وأجدُّ جلباباً من الشباب، ذو ساعدٍ مفتول، وعينٍ كأنّها سراج مشعول، وآذان كأنها خوصة، وعرعرة كأنها عقيصة معقوصة، وذنبٌ كأنّه ذنبُ الأسد، وبطن خال وظهر أشدّ. زوره عريض، ودوره في حديثِهِ يستفيض، خصرُه محصّر، كأنّه مرمر، أما اسودّ كأنه قطع ليل، أو قطع يُصبُّ به على الوحش ويل. أو احمرّ من كثرة (من) شدخَ من الظباء، وتلطّخ بالدماء، أو اصفرّ، صنيعه لا يكفر، شرارَهُ نار، وبهارهُ نوّار، أو أثمرَ قد جمع إهابه وشمّر، عليه من النقع المثار بقايا الغُبار، أو أرقط لم تر عينٌ مثلهُ قط، لبس حلّة الأرقم، ما تدثر ولا تدرهم، أو أخرش وما هو في بني كلب الأبرش، ما أنا ولا أعطش. مسكيّ الجلد أغبش كأنه تسحر، أو أنّه تميّر فيه وقت المغرب. ولم يجر كأنّه ماء كدر، أو لابس مرقات جلده النمر، أو أبيض تجسّد من نورٍ أو لبس مجسّداً من كافور، من بني وبره، طويل الذوبرة، لا تهدأ له غبرة. من جنس في الكلاب كريم، كم طار مذعوراً منه هائمٌ كريم، لا يعرف إذا جلس إلاّ آية الحرس، ولايدع إن جرى سهلاً ولا محجراً، ولايخلّى في الثرى لصيدٍ أثراً. إن خلّيته حول البيت أقعى، وإن طلبته جاءك يسعى، في النهار كانس، وفي الليل حارس، يطرد أيّ الوحش قفّيته به وما هو فارس ولا فرس، لأيّ جهةٍ كفّل كفاها، وبأيّ عظيمةٍ كلّف كفاها، يبصبِصُ للضيفان بِذَنَبِهِ، ويؤنس اليقظان في غيهبه، إذا تخيّل المريب يهرُّ ويعبس، ويكفهرّ وينتفخ، وهكذا الكلب إذا رأى الهرّ لا ينبح الضيف إلا مرّة، ولا يُصبح إلاّ سكران وما شرب خمرة، يسهر لينام، ويتيقظ للئام، يدافع طوارق الليل، إلا طارقاً يطرق بخير /١٤٣/ لا خيل، ترتد من غوى إذا عوى، يعلم إذا نبح، إن حماه لم يبح، لا يداخله إلا هواء. ولا يُراسله في السماء العواء. لا يقطع النباح حتى الصباح. وإن خُلّي مع الغنم لم ينم، أو ترك في السائمة تركها وادعةً نائمة، يحمى سرحها ويكشف ساق من يقصد صرحها. أحرص على مؤبر السخلة من المؤبر على النخلة، لا يطرق مع الذيب. ولا يطرأ على نظره التكذيب، أما كلب غنمٍ أو زرع، لا يغض به خزانة نبات أو ضرع، يتحاماه الغريب، تحامي المريب، ويغورُ به اللصّ الخارب كالنجم الغارب، لا يتصوّر له شيطان، ولايتسوّر معه حيطان، وأما كلب صيد، له إذا كُلب عليها كيد، أما من السلاق طوع

الشباق، تحمل الأوق، شب عمرُهُ عن الطوق، أخجل في الطرد من الكميت الورد. وأضبط للقنص من القفص، وأمسك للصيد من القيد، وأقدر على اللوابد من الأوابد، وأعجل في المهام من السهام، تتشكّاه الأرض من الركض ويتظلّم منه إن جدَّ، قوّة الشدّ، يثير لوابد الأرض إثاره المحراث، ويطير وماله أجنحة مثنى ولا ثلاث، أرقط وما هو رهلول، ذو مسنونةٍ زرقٍ، وما هنّ أنياب غول، عينهُ على الصيد حمراء، يسطو بتريبة سمراء، يفتدي منه الثعلب بجلدته، والأرنب بجملته. فأما الظبي فيبيتُ منه على مثل روقه، ويلتفت إليه لا من شوقه، بل خوفاً في العجل من الآجل، كأنما وجأ عنقه الوجل، طالما لحقه. وأراق على الأرض من دمهِ حمرة الخجل، كم غزا من غزال، وأطرح حرمته عند العشاق وأزال، وما قدرت إبر روقيه أن تخيط له سرداً لا تصل المنونُ إليه، سلوقيّ يتلظّى، يتفرّد به الأديم ويتشظّى، لو تمحل علم بقراط علمه فعاود الأكحل، لم يبق من مكنس إلا كنس، ولا نجم طريدةٍ إلاّ خُنس، يرسل مرسلهُ منه بطلاً يروع أم كل خشف بطلا، إذا وقفت على الماء فرّ السِّرب من الشرب، لا يكسر الصيد إلاّ لمرسله، ولا يؤثر النشاط إلاّ لكسلهِ، هذا من جنس السلوقيّة، وأما أخواتها الشقائق الداخلة فيما لا يقدر عليه أخوانها من المضايق، من حداد الزغاريّة التي لا يمتنع عليها في باطن الأرض / ١٤٤/ خبيّة. وهي التي من نسلها انتخبت، ومن فصلها وهبت. فإنها تزيد على أخواتها في النفع وإن قلّ، وترسل ولاتدلّ، وتجالس بالنهار ولا تضجر، وتمسك بالليل الشمع ولا تحلّ، تعرف بالشمّ ما اشتمل عليه الوكر وضمّ، أدلُّ على الأوكار من الدائرة على البركار، وأعْرف فيها بالمطالب من كلّ طالب، صغير الجرم كبير النفع في المهمّ، كأنّه ضاحكٌ فتح فاه وفغر، زغاري لا ينسب إليه زغر، ذو عزّةٍ بنسبته إلى غزة، تستعين به الصقور على إخراج ما في الوكور، ويرتفق به البازي مما يتفق له من المغازي، ولا يقتصد على ما عبر، ولا يقتصر على ذوات الوبر، حتى تخرج كوامن ذوات الجناح، ويسلّط عليها كواسر الطير. ولايخاف الجناح لما لم يصل بأيده إليها، توصّل بكيدهِ ودلّ عليها، كأنّه يرتاح إذا سبب لها الأجل المتاح، وقد بعثتُ إليك منها بزغاري عظيم الجزارة، ربي في مطبخ الوزارة، ما يضرّ مقتنيه إن لا ينكر عليه راعيه بالحلاب، ولايغضّ طرفه وإن كان من نميرٍ وحوله كعبٌ وكلاب[1]، شعرور ذو شعرٍ وسعرٍ وشعور، كأنما جرو جرول، أو ابن الكلبي الأوّل، فكم نبش ذلك الزغاري

---

(١) إشارة إلى قول جرير:

فغضّ الطرف إنك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

الكاسي العاري من ذات وبرٍ وريش، وكم استنشق روائح صيدٍ اختفى في نفق، واختبأ في حشيش، من حجلٍ وقبج، وقطاةٍ ودرج، وقنبرٍ وبط، وما في البرّ والشطّ. فإن جدْت لك أعزّك الله بجروين من الزغاري والسلوق ضمخ الأرض بالخلوق، وبينهما في النسب قدر ما يكتسب. وفي النسب قدر ما أظهره جوهر الحسب، فإن الزغارية وإن نحفت جسماً، وخفّت السلوقية حجماً، فإنها معها محسوبة، وإليها في عنصر الكلاب منسوبة، وهي مخلوقة من طينتها، ومخلوطة بها في رتبتها. فهي من فواضل ما طبع في تلك السيوف سكاكين، ومن بقايا ما وضع في تلك الأسنّة نصال سهام حنين، وها أنا مدّ الله في بقائك، وظفرك مثل ظفر هذه في الصيود بأعدائك، مرتقبٌ لأمرك في تجهيز بعض هذه الجراء، مُرتصداً لما ترى، مُتيقّن بما تضمّنه فواها إن كل صيد في جوف الفرا.

ومن قوله، مما كتبه من السجن، يعرّف /١٤٥/ بحالهِ المبهم، ويصف قيده ويورّي عنه بالأدهم، ولهذا ضمّنها ذكر الخيل وشياتها، وأوصافها وهيآتها، وهو لا يعدّها لا لحربهِ ولا لصيدهِ، ولايريدها إلاّ أدهم قيده، وقد أبدع فيها كل الإبداع، وأبدى فيها دقائق الابتداع، وهي:

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجةٌ كحلّ العقال

ما زلت أيدّ الله الأمير. أتنسّم في رضاه البرى وأريقها، وأتخيّر الكلم وأريقها، فأحكم بمقتضى الشيات والألوان، بالسابق في الميدان، فأقول:

الأبلق، لا يركبه إلاّ الشجاع الأخرق. وأما الأشبه فإني عنه لا أرغب، ودونه مذهب، لا يصبر على القيظ جلده، ولايبلغ الغاية شدّه وجدّه، وأما الأشقر فمجتهدٌ لا ينكر، إذا قصر الأمد سبق وظهر، وإذا طال ونى وقصّر، وأما الورد، فلهُ الشكر والحمد، لا أذم النمرة ولا أهجره إلاّ لتحريم الخمرة، وأما الأصدا، فلا أتعرّض له ولا أتصدّى، وقديماً كرهت الصدأ والصدا، أو ما ذهب هدراً وتُرك سُدى، ولكن قرّب كُميتا وإن كان ميتا، فهناك الصبر والاحتمال، والصدم في المجال، وإن كان أغرّ محجلاً، فذاك الجمال، فبينا أنا أيد الله الأمير، أرتمي وأرتاد، وأركب يميناً وأقتاد. إذ قرب لي من مربط العين، أهرت الشدقين أدهم بهيم، لا يغرى به صَيِّتٌ ولا بهيم، حرون بطيء، لا ذلول ولا وطيء، يتطامن الكاهل والتليل، غني عن الصهيل بالصليل. لا ينضبه النقر ولايهز له، ولا يقلقه الهمز ولا يعجله، إذا حرك أنّ، وإذا نزل اضطجع واطمأنّ، صعب لا يقبل الرياضة والتدريب، ولا يعرف الخبب والتقريب.

قرطه العين في دجى العشق ذا حلق يستدير في حلقْ
كأنه الصلّ حين أقصرهُ الطل فخلاّه خافقُ الرّمق

فهبته - أيّد الله الأمير - مركباً وعراً، واستهجنته ظهرا، ثم مددتُ يد الاستسلام ومسحتُ جفني من شبا الأقلام، فإذا المركب حيّةً تسعى، ليست بأفعى، صمّاء لا تسمع الرقى، التفتّ على ساقي التفافا، وأجمعت أوساطاً وأطرافا /١٤٦/ وعضّت على عقبي عضّا، ورضّت ما هنالك رضّا، فلا أستطيع شدّاً ولا ركضا. فلو لم يقل حبلا لسميته كبلاً، الله أكبر، هذا الخبر، لكني أتسلّى وأتصبّر، وأسميته بغير اسمهِ، وأضيفه إلى غير قسمِهِ، وأنسبه إلى غير جنسِهِ وهو يعرب عن نفسهِ، بلمسهِ ومسِّهِ، وهل هو إلا حمار يركب لا يجنب، وحديد يقرع لا شجاع أقرع.

ومن عجبٍ أني إذا قمتُ قانتاً ... لربيّ أنادي في الصلاة وأُعلنُ
يقعقع في رحلي الحديد كأنّه ... يعارض صوتي في الآذان فيلْحِنُ
فقلتُ اعتباراً بين قيدي ومقولي ... أذلك ناقوسٌ وهذا مؤذّنُ

فشلّت يمين القين، لقد أبعدت البازي بحمل الشباقين، بل تربت يداه فهل غير عبدٍ حُسِدَ على مولاه وحصن، وصنع فأتقن، علم - أيّد الله الأمير - إني عبده الناشز إباقاً، فأحكمه وثاقاً، وها أنا إذاً أشير لا أسير، وساعة لا أراه فيها كثير.

ومنه قوله مما كتبه إلى بعض الأعيان. يرغبه في أن يخدمه رجلاً كان يلقب بالوطواط وهو الخفاش.

ائتمرت لك يا سيدي الطير طوعاً، وأسفت حولك جنساً ونوعاً، وأتيتك سعياً، وبذلت لها سقياً ورعياً، لما أردت إلى وطنها الأسفار، وألقيت في عطنها عصا التسيار، رغب في خدمتك من الطير، صنو الجرد وأخو الغير، يصفّ مع الطوير الصواف بجناح صاف، ليس له قوادم ولا خواف، ويدر رسله مع ذوات الأخلاف. وليس بذي أخفاف ولا أظلاف، يكسر مع السباع غير ناب، ويحلّق مع الطير في اليباب، لا يلقط مع العصافير حبّاً، ولايرعى مع السوائم أبّاً، لا يبيض وإن أفرخ، ولايصدح وربما نفخ، يمسّه الصباح المسفر، وتكحله الدياجي فيبصر، فله في الظلام هجمات في ذوات الأبر الداعيات إلى الشهر فتكات، وكأنما يتطلبهن بذحول وترات. فإن رضيته خادماً وقبلته قادماً فك دونك جيوشها، ووقاك تحميشها، فيطيب يومك، وتتطابق في الدعة ليلتك ويومك، ثم لا يسألك[1] أجراً، ولايسأمك شكراً، والله يسخّر لك أصناف الأمم، وجنود الضياء والظلم.

/١٤٧/ ومنهم:

---

(١) الأصل: يسلك.

[٤٤]

أبو القاسم بن أزرق

لا هو بالمكثر ولابالمقلّ، ولابالمطوّل ولابالمخلّ، هو في الرتبة الوسطى، لا يزداد ولاينتقص قسطاً، وغايته إن كلامه مقبول، ولمامه حلو غير مملول، لأنّه رقيق الديباجة في الرجاحة. ومن نثره قوله:

قد كان المستعين خاطب أباك يرغّبه في الهدوّ، والاستعانة على العدوّ، فأقام وأقمنا معه، مر يحين من تعب النفاق، فرحين بإشراف الهدنة في الآفاق، ثم دهمنا من جهتكم داهم، أبدى صفحته، ونسيم أهبَّ صفحته لا نفحته، ولايمكننا تسليم أيدينا إليكم، يستحكم فينا الإذلال، ويتحلّم علينا الإخلال، وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أسوةٌ حسنة، وأيامٌ كانت بيننا وبينكم محسنة، وسيعلم مبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبته، وعظيم ما أخذ للفساد من أهبتهِ، وأيقظ له بأرق هبّته، والله حسيب من بغى، وأوقد لنا الفتنة وابتغى.

ومنهم:

[٤٥]

أبو الحكم بن عبد العزيز

كاتب تطلّع إلى رواية الأخبار، وتلقى المعرفة بما بين الأندلس والأنبار، ولم يعبأ بالوفيات، ولادقّق في استطلاع الخفيات، وعبّر عنها بعبارات جلتها، وإخبارات بثياب العصب جللتها. أبعد فيها التقفية والتصريع. وأبدع التوشية والتوشيع. فردّت مجلوّة في أحسن الصور مقلوة. لا كالسور، مكلوه بما يعرض من الملل لإعادة السحر.

ومن نثره قوله:

فجاءتا من الثغور من أعلم أنهم تجهّزوا نحوها، فتأهبنا للقائهم، وتواثبت لتلقائهم، فواقفونا في البلاد التي يريدون غنائمها، وفي ظنهم أنهم يستفيدون من مغانمها، ويبيدون قاعدها وقائمها، ويعيدون تحت قبضة السيوف متيقضها ونائمها. ولما تراءى الجمعان، وترامى الصدعان نكست شياطين وعولهم على أعقابها، وارتقبت الموت من أنقابها، وانهزم القوم وسيوفنا تجذم أعناقهم وتكذب أخلاقهم، حتى ألجأهم الذعر إلى قلعة تحصنوا بأوعارها، وتحصّلوا في ذروة السماء بالاعتصام غبارها.

ومنه قوله:

ووافاه الكتاب، وقد أدخلته الرعية مدينة فلانة، وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصمّوا، وجاءهم /١٤٨/ الفساد حين قربوا من عرضهم وحمّوا، وأقام العدوّ يطوي البلاد طيّ السجل للكتاب، والعتب يستعمل حيث لا ينفع العتاب، ولاحديث إلا للرمح المشرفيّ والمهند القرضاب.

ومنهم:

[٤٦]

أبو الحسن علي بن محمد الرعيني(١)

لطيف المنزع، مطيف العناية في المفزع، أشدّ اقتطافاً للرؤوس من البيض، وأسرع اختطافاً للأبصار من الوميض، فإذا وبّخَ أو قرّع خلت البلاد بالبلاد ترمي والنبع بالنبع يقرع، وأدبُه مما يستبدع ولايستلحق في طريقه ولايستتبع، هو فيه أمّة فرد، ماسك بإعجاز بعضه بعضاً، كأنه حلق السّرْد. لا يقابل بالعكس ولابالطرد.

ومن نثره قوله:

سمعتم بالعدوّ، فقلقتم كلّ القلق، وأشفقتم على تلك الخلق، وظننتم أنه قد أحيط بكم من كل الجوانب، وتخيلتم أن القضاء قد غصّ باصطفاف المواكب. فخارتِ الطباع، وضاق الاتّساع، وملأ أفئدتكم الجزع والارتياع، أبمثلكم تُسدّ الثغور، وبآرائكم تشدّ الأمور، أم بكم وأنتم على هذه النيات المدخولة يبتغي الظهور، أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم المسلمين لفقتم الأعذار المكذوبة، وجررتم الأقوال وهي بالباطل منسوبة، قد ألفتم من الدعة ما عجزكم عن جلب السعة وطلب المنفعة، ثم

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن هيصم، الرعيني، الاشبيلي، ويعرف بابن الفخّار، من بني الحاج، ولد في اشبيلية سنة ٥٩٢هـ، وتعلم بها، وأخذ عن شيوخ عصره فأجازوه، وقدموه للتدريس، وتولى القضاء على مذهب مالك، واشتهر بالكتابة في صدر شبابه، وتنقل في الأعمال الديوانية بين غرناطة واشبيلية ومرسية، وتوفي بمراكش سنة ٦٦٦هـ، وكتب كتباً منها: برنامج شيوخه «الإيراد، لنبذة المستفاد، من الرواية والإسناد، بلقاء حملة العلم في البلاد. على طريق الاقتصار والاقتصاد». حققه إبراهيم شبّوح ونشره بدمشق سنة ١٩٦٢م وأشار فيه إلى كتاب آخر له سماه «جنا الأزاهر النضيرة، وسنا الزواهر المنيرة، في صلة المطمح والذخيرة، بما ولدته القرايح من المحاسن في هذه المدة الأخيرة» و«اقتفاء السنن في انتقاء أربعين من السنن. و«شرح الكافي لابن شريح».
انظر: صلة الصلة ١٤٠ والقدح المعلى ١٧٣. ومقدمة برنامج شيوخ الرعيني، والأعلام ٤/ ٣٣٣.

تزعمون أن لكم في الأرض مجالاً وساعاً، وأقساماً تتفرقون عليها أوزاعاً، أتبتغون نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، أين المفرّ وأمر الله يدرككم، وطلبه الحثيث لا يترككم، فامحوا نزعة هذا النفاق من خواطركم قبل أن يمحو السيف مقالكم، وتُستبدلوا ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

ومنهم:

[٤٧]

أبو الحسن بن أبي الحسن الرعيني

بلغ من البلاغة أفضلها، وسلك طريقة أبيه وربما فضلها، وحذر فناب خبره عن العيان، وأنذر فكأنما كان النذير العريان، بقول يجري ماء الحديد، ويوري سماء العديد، ونثر له نظم الغمام ونضح السهام.

ومنه قوله:

وأهل هذه البلاد لا يبلغوا من الأعداء أقل أعدادهم، ولايفي بجموعهم بأهل بلدٍ واحد من بلادهم، وما هو إلاّ أن تستنفر الجماهير، وتستحث الجمّ الغفير والذي يتعيّن الآن العمل به /١٤٩/ في كل مكان أن يؤخذ أهله بالتأهب والاستعداد، وارتباط الجياد، والاستكثار من آلات الجهاد، ونحن قد أمرنا بهذا أهل السواحل وما اتصل بها، وأريناهم كيف قد أقبلت الحرب العوان في يلبها، وجاءت تهر وتلف خيشومها بذنبها، وأنتم قد عرفتمونا بما عندكم من الحزم العتيد، والعزم الشديد والرأي السديد، والاستنصار في الجهاد الذي يُعلي الله به كلمة الإسلام، وإيثار العدم للنصارى الكفرة فإنهم وإن كانوا من أهل الكتاب، هم بتصاوير كنائسهم من عبدة الأصنام، وقد حمدنا لكم بهذا أفضل أعمالكم لعقد صفقة البيع من الله تعالى بأنفسكم وأموالكم، وهذا شيء يجب أن تُشيعوه في جهاتكم، وتصدقوه بعزماتكم، ليرتد عدوّكم بالله ولجهادكم صاغراً، وينقلبُ حاسرا وكونوا على نفير من استجاشتنا[2] لعساكر الإسلام، وفي بوادر من تقدم لنصرة الإمام، وانصروا الله مرةً ينصركم على الدوام.

ومنهم:

---

(١) سورة محمد: ٣٨.

(٢) الأصل: استجلشتنا.

[٤٨]

أبو إسحاق بن حاتم العبسي

ورث من كفى نسبه عنترة العبسي أن يتقدم، ومن سمّى إليه حاتم الطائي أن يتكرّم، فلهذا شق بكتبه الكتائب، وما خاف وأنفق ذهبهُ جُزافاً وما خشي الإسراف، جنى الكلام غضّاً، وجلّى وجهه مبيضّاً، وله نثرٌ لا تضمُّ على مثله المقلُ أجفانها، ولا تربّي لشبيه سره الكروم جفانها.

ومنه قوله:

وأن تعلموا أن فلاناً معضود جانبه، مكتوب معاديه ومجانبه، ميسَّرةً من الله لباناته ومآربُه، مصبرة في البرِّ والبحر مذاهبه، مدّ الله على صفيحتهما مراكبه، وقد توجَّه في أمورٍ مهمّة، وأحوال يعود بها عائد نعمهِ، فبادروا حين وصوله إليكم بالنظر في زورق، حيث أراد به حلّق، وبأيّ حبل أراد من الماء تعلّق، وأعدّوا قطعتين اثنتين جيدتين متخيرتين، فإذا آب أصحبوهما له إلى المرسى الذي يحاول منه الطلوع أوان الرجوع، وقد أعلمناكم وفي الوقت مهلة فعجّلوا فيهما الشروع.

ومنهم:

[٤٩]

أبو بكر بن البنا

حصل له المراد وتهنّى، ووصل الغاية لا يتعنّى، قريحتُه للمعاني العقيمة ولود، ألين له الكلام كما أُلين الحديد لداود، كأن / ١٥٠/ يتسرَّع به من الإحسان ابطاؤه، ويتسدَّد من البيان أخطاؤه، كأنّ فكره يمتاح من قليب لا يغور، ويلتاح في حلّته شموس وبدور، حكّم صناعته وأتقنها، وأحكم صياغتهُ وأحسنها، فراقت شرباً، وترقرقت ماءً عذباً.

ومن نثره قوله:

إن مثل سيدي ـ أبقاه الله ـ والآمال في شارع فضلهِ تكرع، ولمواقع وبله تتبع. لجديرٌ في شرف نصابهِ، وكرم انتسابه، ورعاية ذمام كلّ ماثلٍ ببابه، متقرّب إليه بوسائل من انتمى إلى جنابه، أن يتلقى الأمل بقبولهِ، ويرحّب ضيف الرجاء عند حلوله ونزوله، وأبو فلان ـ أحد من أمّل غشيان بابكم الفسيح، وأثر قصدكم اللجج الزواخر والمهامِهِ الفيح، واستقبلكم برجاء ملء يقينه، وأمنيّة قدر أن تأتيه بكلّ مراد في حينه، وهو بما تسدون إليه حقيق وبما تصنعون لديه خليق، فإن له طلباً مبيناً، وأدباً معيناً، وطريقة لا يسلكها إلا من سلم ديناً، واتخذ الخير خزينا، وقد أزعجه عن وطنه مزعج المقدار، وواقع الخطوب الكبار، وأملكم بشيء تمنحون لقيام أوده، وإحسان تفسحون له في

أمدهِ، وتفتحون له قصدَ جددهِ، فصنيعكم فيه يصيب طريق المصنع، ويصادف أجدر الجدراء بارتياد جنابكم الأمرع، والله يبقي مجدكم يصطنع الأحرار، ويهدي كلّ من تاه في ليلة القصد وحار.

ومنهم:

[٥٠]

أبو المطرّف بن عميرة

أوضح من سهيل، وأزهد من الفضيل، وأشعر من عامر بن الطفيل، وأجمع من شمل جمع ابن شميل، وأوسع رواية من ابن قريب، بأبانين. أو بذات الأثيل، قلّدته الملوك أمورها، والسلوك شذورها، فوجدت بابن عميرة أنفع ميرة، وبأبي المطرّف أبدع مطرف، سمعته تحرّك عوداً للطيب، وعوداً لخطيب، وآخر ثالثهما للطرب، وباعثهما على اجتلاء عروس عليها عقد من الحبب. ونثره البعيد البديع، المطبوع الصنيع.

ومنه قوله:

وجاءت مخاطبتكم معربةً عما استبطأتموه من الصفاء، وأظهرتموه من الوفاء، وبذلتموه من النصائح التي صدعت بالحقّ. وأخذت بالأوجب الأحق. وقد قوبلت بالاستحسان، وتحقّق منكم ما تساوى فيه /١٥١/ السرُّ والإعلان، ومهَّد لكم سبل الإحسان، ولكم المحافظة على ما أحرزهُ قديمكم من الرتب التي ورثتموها عن السلف. وآثرتموها في الحال والمؤتنف، واعلموا أنّ مكانتكم لدينا بالشفوف مخصوصة، وآثاركم عندنا بلسان الشكر منصوصة، وشأنكم لا يُلحقُ، وجانبكم الجانب الذي لا يزال يُلحظ بعين البرّ ويرمق، فطيبوا نفساً واستجدّوا أنساً، ومدّوا خطوة آمالكم. وأيقنوا بالجزاء الذي لا يلتكم شيئاً من أعمالكم.

ومن نظمه ما أنشد شيخنا أبو حيان له. وهو:

وقالوا أتلْهو والشباب قد انقضى ... وعمرك قد ولّى ولم يبق طائلُ
فقلتُ أصيلٌ العمر ما قد بلغته ... وأطيبُ أوقات الزمان الأصائل

ومنهم:

[٥١]

أبو عبد الله العمراني

أفقُ بهاءٍ لم يجفّ جماله، ولم يخف كمالهُ، ولم يصفُ إلاّ موردهُ. ولم يطف من

الدر إلاّ ما كتبت يدُه، موفي بصنيعهِ للنذور، ومخفٍ ببديعه للشذور.

ومن نثره قوله:

جاءت كتبكم تعتذورن في ضعف الحال بالمحال، وفي ضيق المجال بقلّة الرجال، مما يلحقكم بربات الحجال، ولا يطرقكم إلاّ بالنوب السّجال، فطاشت ألبابكم خوراً، وعاد صفوكم كدرا، وتنسّمتم ريح الموت ورداً وصدراً، لقد آن لكم أن تنبذوا ذبل الخرصان لمغازل النسوان، وتستعيضوا سوار المعصم من غرار المخذم، فمالكم ولصهوات الخيول، وإنما على الغانيات جرّ الذيول، ولا والله بمثلكم تُسدّ الثغور المهمّة. ولا تتجلّى الخطوب الدلهمة.

ومنهم:

[٥٢]

ابن عبد الحميد

من ولد عبد الحميد بن يحيى، وله الذكر الحميد به يحيى، نجح بوسائله، وبجح برسائله، ورجح بما جرى له من مسائله، على أنه لو عاصره لضايقه في مجال العربية الوسيعة وحاصره، وشح بالقرآن الكريم أعطاف كلامه، وأدنى قطاف البيان من كمامه، غلب قلمه السيوف بكهامه، وانتمى في دوافق السيول إلى كرامه.

ومن نثره الذي أطلع كوكبه، كتاب كتبه إلى رجل كان في طاعة الموحدين ثم نزع منها يده، وخلع من يمين البيعة ما تقلده، وهو:

إلى أبي بكر أيقظ الله بصيرته من نوم / ١٥٢/ ضلاله، وأفائه إلى كنف التوحيد وظلاله، من المبتهل إلى الله في صلاح حاله، وسلامة مآلِهِ ابن عبد الحميد، أما بعد، فيا ليتك لم تخلق بشراً سوياً، وقد صرت للشياط وليّاً، تركت ما كان عليه المرحوم من الاغتباط بهذا الأمر الذي لم تزل به حفيّا، وقد مهّد فيه لعقبه سراطاً سويّاً، فخلّف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً، نقضت بيعةً ونكثت عهداً، وصرت لأهل اللئام بعد فيئة التوحيد عبدا، واستبدلت من علوّ الهمّة تحتا، فازددت من الله بعداً ومقتاً، تبرّأت منك تسكورة، وأعزز بها عشيرة وقبيلا، يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا، أيسرك أن أورثك ضلالك عن الرشاد وسنا، وثنى بك إلى وهلِك عنانا ورسنا، أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا، هبك بنعمة الله ثم من نعم هذا الأمير إلا في بحار الأفضال غريقا، وبوّأك التوفيق في المناصحة له طريقا، يطأ عقبك الأحرار، ويلحظ بعين الاغتباط الأبرار، تحلُّ لمكانك الحُبى، ويطيعك

أهل الجبال الشامخات والربى، قد نظمتك عناية هذا الأمير، مع أولاد أهل الجماعة، ليوث البسالة والشجاعة، الوارثين عن آبائهم مناهج البرّ المستبينة، المتمسكين بعروة الحق المتينة، فخلعت عن عنقك ربقة الإسلام، ولما دعاك الشيطان أظهرت له الاستسلام، ومحوت بسيّئاتك ما كتب في صحفك من إخلاصٍ ونصيحةٍ وخدمةٍ مشكورة صحيحة، فأتت لأخبار رسول الله ﷺ مع الشيطان تركض، ولعرى الدين ومعالمه تنقض، كفرت أيادي الموحدي وآلاءهم، وبسطت يدك في المسلمين تقتلهم وتمزّق أشلاءهم، وتجرّعهم من غصص اعتذارك ما يقطع أمعاءهم، أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زين له سوء عمله، واتبعوا هواهم، يا عجبا، كيف، كنت لأهل اللئام الجفاة الطغام، أهل البغي والفجور، واستبدلت الفيافي عوضاً من مشيدات القصور، واقترفت كبار الكبائر، ورفضت ادخار الأجور، وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور ولا الظلّ ولا الحرور، فاعلم أنّ الله بالمرصاد، واقرأ /١٥٣/ أول النحل، وآخر صاد، وبادر مبادرة منيب، وثب من قريب، وسارع مسارعة مخلص بمثابهِ، وأت الأمر من بابهِ، قبل أن تلمع لك السيوف بوارقها، وسعت لك الحتوف بواشقها، فقد نهض الموحدون بنفوس عليك وعلى أوليائك حنقة، وقلوبهم للمنايا معتنقة، وكأن بك وقد ضاق بك البراح، ونقض عزيمتك الكفاح، ورفضتك الروابي والبطاح، فاتخذ الرجوع إلى الله، ثم إلى أهل الأمر سبيلا، واحذر أن تكون ممن قال الله فيهم: إن هؤلاء لا يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كيف أشمتّ بنفسك وأهلك العدى، وعرّضت للمحنة أهلاً وولدا، وقطعت بمباينة هذا الأمير ساعداً شديداً وعضداً، وركبت هوى نفسك فكنت أضعف ناصراً وأقلّ عدداً.

فـداوِ داءك والأدواء ممـكـنـةٌ   وإذْ ظننتك قد ألقى إليك يدا

ولايقنطك من العفو ما وقعت فيه من الجرم، وجنيته على نفسك من الظلم، فإن بادرت الإنابة[1]، ألفيت عند أمير المؤمنين كريم العفو وجميل الإجابة، وكنت ممن لم تغلب على حسناته سيئاته، ولا ممن غرست لديه الصنائع فحنظَلَتْ نخلاته، وقد سبقت لك خدمة مشكورة، فاتبعها الآن بتوبةٍ مبرورة، تكن الهفوة التي بينهما بمشيئة الله مغفورة، فالسعيد من بادر بالمتاب قبل التلف، وأقصد طلب العفو، فإن (وقته)[2]

(١) في الأصل: إلا ابه.
(٢) في الأصل: دمته.

ازدلف، واغسل بالتوبة ما على وجهك من الكلف[1]، قال الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[2].

ومنهم:

[٥٣]

أبو علي بن القطان

شأنه مقارب، وبيانه ما يوارب، مع أنه أزكى من غيره منبتاً، وأذكى مسكاً على القرطاس مفتتاً، ربما اتصفت له رياض أثابت، واتصلت به حبال وثابث، ومن نثره البهج، ونشره الأرج، قوله:

والثقة بأن الله تعالى في محاولات هذا الأمر أسراراً، يسلم بها المسلمون وينتهج مناهجها المسلمون، ثقة من فضل الله، يوضّح مشكلها لأوليائه المسدّدين، ويفتح مغلقها لعباده المشدّدين، بحيث لا يمسّهم فزعٌ ولا نصب، ولا ينالهم ألمٌ ولا يعنتهم بالله بصر، ولا ينالهم سوء ولا ختر، /١٥٤/ ولا بدّ مع التسليم إلى الله في أمره من جد يبلى فيه أهل الجهاد عذرا، ويضحى الصعاد سكرى، وتتكفّل للسيوف بأنها إذْ تعرّى لا تجوع ولا تعرى، وللنبال بأن الأدواء تُبرأ حيث تُبرى.

ومنهم:

[٥٤]

أبو جعفر الطبري

يضرب في مجر المجرة بأعطان، ويأوي في مجرى النجوم لأوطان. نزع عن الأسد وفرته، وقلع عن إهاب الحمل فروته، فاختفى سهيل كأنه يترقّب، ورمى سويداه قلب العقرب، ونثره أرفع من النثرة، وأدفع من النثرة، ومنه قوله:

وكثرت الخوارج وشج ما السيوف على المناهج، إلا من فاء إلى تلك الطائفة وآمن بانضوائهِ إلى تلك العصبة الخائفة، ثم كان معهم تحت يد الامتهان، وكنت والله أحمد على مذهب صحيح، ومتجر ربيح، فأبيتُ المقام على الذلّة، والانحياز إلى من خالف جمهور الملّة، ولله فتح وختر، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقويٌّ عزيز، وما ترد من السيارة مشرقين، ولا تدنو القافلة متفرقين، فأنا الباحث عن أحوالك، والسائل عن خلالك، فما أعيا خير، ولا أعوز دفع ضير، فأما كنت أذكر من الخوارج، وضر

---

(١) الكلف: الكلف شيء يعلو الوجه كالسمسم. وهو أيضاً لون بين السواد والحمرة، وهي حمرة كدرة تعلو الوجه.

(٢) الأنفال، الآية: ٣٨.

من قعد لهم على المدارج فمما قبحت به الأحدوثة، وساءت الاشنوعة الموروثة، لطول عمر لياليها الذادي، وغصص نواحيها بخيول الأعادي، فلا يسمع إلا من بزّ أو أبرق عليه برق الصارم الذكر، أو هزّ فأخصمت المنية الجنان، وفصمت المخافة زر البراعة مما ضمّت عليه عروة البنان.

ومنهم:

[٥٥]

أبو حفص، عمر بن صاحب الصلاة

كان رضيع مدامة، ومطيع هوىً لا ملامة، فلما توفي أبوه تعطّلت أعواد منبرهِ، وسلب مجلس قضائهِ فريد جوهرهِ، فلما وضع في لحدهِ، ومنع من أن يتقدم أحد من بعده، نهضوا أجمعهم إليه. فوجدوه صريع عقاره، وضجيع عواره، فأقبلوا على عذله لافتقاد المنصب إلى مثله، والتوبة ترنو إليه بعين معاذلهِ، ويقطعوا إليه بجيد مجدهِ لا هازله، فسألهم أن يدعو عنانه، ويتركوه ليلته، فبات والإنابةُ تسامره. والمراجعة تشاوره. فبات يغالبها وتغالبه، ويجاذبها طرف ردائها وتجاذبه، إلى أن حيت الغزالة لمحياها السافر، وألقتْ / ١٥٥/ ذكاء يمينها في كافر، عمد إلى قوس صبابته فنزعها، وإلى أثواب نشوته فخلعها، وإلى أباريقه فأزاحها، وإلى دنانه فأسال أرواحها، بتوبة نصوح لم يشنها ارتياب، وإقلاع فجاءهُ كالسحاب المنجاب، ثم طفقت مجامر القرائح تعبق وقودها، وأذهان الآداب تتيقّض رقودها، يسري بها ذميلا ووخدا، ويرمي بها طرفاً ساحراً وخدّا.

ومنه قوله يوصي بكتب أودعها لبعض أصحابه، لا يقرضها الفار، ويذكر الهر وهي[١]:

في علمك[٢] ما استودعتُه ديانتك، واستحفظته صيانتك[٣] من كتبي التي هي أنفس أعلاقي وأغلاها[٤]، وأحقّها بالصيانةِ وأولاها[٥]، ولا شك أنها منك ببال،

---

(١) الرسالة في نهاية الأرب ٩/ ٢٨٥، وفيه: ونسيت هذه الرسالة لأبي نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان. ومباهج الفكر للوطواط. (تحقيق عبد الرزاق أحمد الحربي، ص٢٣٨).

(٢) بعده في النهاية: أعزّك الله.

(٣) في النهاية: أمانتك.

(٤) في نهاية الأرب: ذخائري وأسرها.

(٥) في النهاية: أحراها، وفيه بعدها: وما كنت أرتضي فيها بالتقريب، لولا الترجّي لمعاودة الطلب عن قريب.

وبمكان منك تهمّم وإقبال[١]، ولكن ربما طرقها من مردة الفار[٢] طارق، وعاث فيها كما يعبث الفاسق المارق، فيتحيف مالها قرضاً[٣]، ويجول فيها[٤] طولاً وعرضاً، إلاّ أن يطوف عليها هرٌّ نبيل، ينتمي من القطاط إلى أنجب قبيل، له رأسٌ كجمع[٥] الكفّ وأذنان قد قامتا في[٦] صف، ذواتا لطافةٍ ودِقة، وسباطٍ ورقة، يقيمها عند التشوف ويضجعهما عند التخوف، وعينان كأنهما مقتطفان من الزجاج المجزّع[٧]، وكأن نواظرها من عيون (البابلية)[٨] تنزع، قد استطال الشعر فوق أحداقه وحول أشداقه[٩] كأبرٍ مغروزةٍ على العيون، كما تبرد[١٠] أطرافها القيون، ونيبان[١١] كحدّ المطرد[١٢]، ولسان كظهر المبرد، أنف أخنس[١٣]، وعنق أوقص[١٤]، وخلق سويٌّ غير منتقص، أهرتُ الشدقين[١٥]، موشى الذراعين[١٦] والساقين، مُلملم اليدين والرجلين، رجلَ[١٧] بهما وبره ترجيل ذوي الهمم، ولما تشعَّث[١٨] من اللمم، وينفض ما لصق به من الغبار، أو علق من الأوبار، حتى يجلو جسمهُ[١٩] جلاء الصيقل للحسام، والحمّام للأجسام فينتفي قذاه، ويوارى أذاه، ويقعي إقعاء الأسد إذا جلس، ويثبُ وثبة النِّمر إذا افترس[٢٠]، ظهر[٢١] شديد، وذنبٌ مديد، يهزّه هزّ السمهريّ المثقف، ويلويه ليّ الصولجان[٢٢] المعقّف[٢٣]، يكبُّ على الماء حين يلغهُ، ويدني منه فاه ولا يبلغهُ،

(١) في النهاية: وبمكان تهمم واهتبال: والتهمم: التطلب والتحسس، والاهتبال: الاغتنام.

(٢) في النهاية: الفئرة.

(٣) في النهاية: فينزل بها قرضا.

(٤) النهاية: فيفسرها.

(٥) جمع الكف: الكف حين تقبضها.

(٦) في النهاية: على.

(٧) في النهاية: ومقلة مقتطعة من الزجاج المجزّع: والمجزّع المختلف الألوان.

(٨) في الأصل: كلمة لم أتبينها ورسمها مغاير، وأثبت ما في نهاية الأرب.

(٩) في النهاية: حول أشداقه، وفوق آماقه.

(١٠) في النهاية: كما أحكمت برد أطرافها القيون.

(١١) في النهاية: له ناب.

(١٢) المطرد: رمح قصير تطعن به حمر الوحش.

(١٣) في الأصل: وأكفُّ خنس، ولا معنى لها، وأثبت ما في نهاية الأرب. والأخنس، من الخنس بالتحريك، وهو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.

(١٤) الأوقص: من الوقص بالتحريك، وهو قصر العنق.

(١٥) أهرت الشدقين: واسعهما.

(١٦) نهاية الرب: الساعدين.

(١٧) النهاية: يرجّل.

(١٨) النهاية: ثم يجلو بلسانه.

(١٩) النهاية: شعث.

(٢٠) النهاية: اختلس.

(٢١) النهاية: له ظهر.

(٢٢) النهاية: وتارةً يلويه ليّ الصولج.

(٢٣) بعده في النهاية: تجول يداه في الخشب والأرائك، كما تجول في السكا يد حائك، ولم ترد في المباهج.

ويمدّ[١] من لسانه رشاءً ودلواً، يعلم به الماء إن مراً أو حلواً[٢]، فتسمع للماء خضخضة من قرعه، ويرى اللسان نضنضة من جرعِهِ، يحمي داره حماية النقيب، ويحرسه[٣] حراسة الرقيب، فإن رأى /١٥٦/ فيها كلباً هرّ[٤] عليه البأ، وإن رأى فيها هراً زحف[٥] إليه مكفهرّاً، أنفةً على خبائهِ أن يطرق، وغيرةً على حجابه أن يخرق، فيدافعه[٦] بالساعد الأشدّ، وينازعه[٧] منازعة الخصم الألدّ، فأما إذا أطال مفاوضته، وأدام مراوضته، أبرز بُرثنه لمبادرته، وجوشنه[٨] لمصادرته، فشدّ شدّة[٩]، وضمّه من غير مودّة، وأطار وبره نسالا[١٠] وأرسل دمه إرسالا، بأنياب عصل[١١]، أمضى من النصل، ومخلبٍ كمنقار الصقر[١٢]، درب بالاقتناص والعقر، ففرّ قرنه ممزق[١٣] الإهاب مستنصراً بالذهاب، قد أفلت من بين أظفارٍ وأنياب، ورضي من الغنيمة بالإياب، هذا وهو يخاتله دون جنَّة، ويقاتله بلا سيوف ولا أسنّة، وإنما جنته منته[١٤] وسنانه أسنانه، وشفاره أظفاره، إذا سمعت الفأرة منه مغاء[١٥] لم تستطع له إصغاءً، وتصدعت قلوبها من الحذر، وتمزّقت[١٦] شذر مذر، تهجع العيون وهو ساهر، وتستتر الشخوص وهو ظاهر، يسحر[١٧] من عينيه بنيرين وضاحين، تخالهما في الظلام مصباحين، يُسوّف الأركان، ويطوّف بكل مكان[١٨]، ثم يغطّ إذا نام ويتخطّا[١٩] إذا قام، ولا يكون للنار مستدفئاً، ولا للقدر مكفياً، ولا للرماد[٢٠] مضطجعاً، ولا للجار منتجعاً، بل يقنع

---

(١) في النهاية: ويتخذ.
(٢) النهاية: ويعلم به إن كان الماء ملحاً أو حلواً.
(٣) النهاية: ويحرسها.
(٤) النهاية: المباهج: صار عليه إلباً، وبعده: وصعر خدَّه، وعظّم قدّه، حتى يصير نده، أنفةً من جنابه (في المباهج ـ حماة) أن يطرق، وغيرةً على حجابه أن يخرق.
(٥) النهاية: وجف.
(٦) النهاية: فدافعه.
(٧) النهاية: ونازعه.
(٨) الجوشن: الصدر.
(٩) النهاية والمباهج: وشدَّ عليه شدَّه.
(١٠) في النهاية: فأنسل وبره إسنالا.
(١١) العصل: جمع أعصل: المعوجّ في صلابة.
(١٢) كذلك في مباهج الفكر، وفي النهاية: الصحن. وهي حديدة كالفأس ينقر بها الصخر.
(١٣) في الأصل: مشرق، ولا معنى لها، وأثبت ما في النهاية والمباهج، والعبارة فيهما: فيصيِّر قرنه ممزّق الإهاب.
(١٤) في مباهج الفكر: متنه، وهو تحريف، والمنَّة: القوّة.
(١٥) المغاء: صباح الهر.
(١٦) النهاية والمباهج: وتفرّقت جموعها.
(١٧) كذا في الأصل: وفي النهاية والمباهج: يسري.
(١٨) بعده في النهاية: ويحكي في ضجعته السوار تحنّياً، وقضيب الخيزران تثنياً.
(١٩) في النهاية: ويتمطى.
(٢٠) النهاية: ولا في الرماد.

بكيده، ويقتصر[١] على صيده، قد تمرّن بقتل[٢] والخشاش وافتراس الطير في المسارح والأعشاش[٣] ثم يكمن للفأرة[٤] ويلتصق بالأرض، وينطوي بعضه على بعض، حتى يستوي منه الطول والعرض، فإذا تشوفت الفأرةُ بإبراز نحرها، وأشرفت بإقلاع صدرها[٥]، دبَّ إليها دبيب الصل، وامتدّ إليها امتداد الظلّ، ثم وثب في الحين إليها، وجلب الحين إليها، فأثخنها جراحاً، ولم يعطها براحاً، فضاقت[٦] من شدة أسرهِ، وقوّة كسرهِ، وكلما كانت صيحتها أحدّ[٧]. كانت قبضته عليها أشدّ، حتى يستأصل أوداجها فرياً. وعظامها برياً، ثم يدعها مجرّحة الذِّماء[٨]، مضرجةً بالدماء، فإن كان جرذاً مسنّاً لم يضع عليها سنّاً، وإن كان صغير فغر عليه فاه، وقبض مترفقاً على قفاه، وتلاعب به تلاعب الفرسان بالأعنّة، والأبطال بالأسنّة، ليزداد منه تشهّياً وبه تلهياً، فإذا أوجعه عض، أو رفعهُ رضّ[٩]، أجهزَ في الفور عليه، وعمد بالأكل إليه، وأظهر[١٠] بالالتعاق شكره. وأعمل في غيره / ١٥٧/ فكره، ورجع إلى حيث أثاره، وتتبع فيه آثاره إلى أن[١١] يجد في رباعه ثانياً من أتباعه، فيلحقهُ بصاحبه في الروى، حتى يفني جميع العدى، وربما رجع[١٢] عن هذه العوائد، والتقط الفتات حول الموائد[١٣]، إبلاغاً في الاحتماء، وبراً بالنعماء، فماله على فعاله[١٤] ثمن، ولا جاء بمثاله الزمن، وقد أوردتُ ـ أدام الله عزّك من وصفه فصلاً مغرباً، وهزلاً مطرباً[١٥]، على أني لو استعرت في وصفه لسان أبي عُبيد[١٦]، وأظهرت في وصفه بيان أبي زبيد[١٧]، ما انتهيت في النطق إلى شاكلة

---

(١) النهاية والمباهج: وينتصر.

(٢) بعدها كلمة لم أتبينها، ليس في النهاية والمباهج ما يماثلها، والعبارة في النهاية: قد تمرن على قتل الخشاش. والخشاش: الهوام والحشرات.

(٣) بعدها في النهاية والمباهج: يستقبل الريح بشمّه، ويجعل الاستدلال أكبر همّه.

(٤) بعدها في النهاية: حيث يسمع لها خبيباً، أو يلمح من شيطانها دبيباً.

(٥) في النهاية: فإذا تشوّفت الفأرة من خجرها، وأشرفت بصدرها ونحرها.

(٦) في النهاية: فصاحت.

(٧) النهاية: أمدّ.

(٨) الذماء: بقية الروح.

(٩) في النهاية والمباهج: فإذا أوجعه عضّاً، وأوعبه رضّا.

(١٠) في الأصل: وظهّر ولامعنى لها، في النهاية والمباهج: ثم أظهر باللاتفاق شكره.

(١١) في النهاية: راجياً أن.

(١٢) النهاية: انحرف.

(١٣) في النهاية والمباهج: فتات الموائد.

(١٤) النهاية: خصالِهِ.

(١٥) بعده في النهاية: إخلاصاً في الطوية واسترسالاً، وتسريحاً للسجيّة وإرسالا.

(١٦) لعله أراد أبا عبيد القاسم بن سلام صاحب «الغريب المصنف» و«الأمثال» و«معان الشعر» وغيرها.

(١٧) في الأصل: أبو زيد، والتصويب عن النهاية، ويريد به أبا زبيد الطائي، حرملة بن المنذر، الشاعر الحجازي الأموي، المشهور بوصف الأسد. انظر الأغاني ١٤/ ٧٦.

فعله[1]، ولا احتويت في السبق قطّ إلى وصفٍ قطٍّ مثله.

ورأيت بخط القاضي الفاضل رحمه الله تعالى، نسخة كتاب كتبه ابن صاحب الصلاة أيضاً إلى بعض إخوانه، يعلمه بجوازه البحر، ويصف ما لقي من حوادث الدهر، وقد أوردته ها هنا بكماله لغرابة أسلوبه في أمثاله، وذلك حين أجرى سفينته واللجّة هادية، وسريرةُ البحر على صفحته بادية، فهبَّت ريح زعزعت جوانبه، وأرسلت من أفواج الماء مقانبه، فشوهت منظره، وطمست في دارة الموج قمره، وفتحت أفواهها أوديته الفواغر، ونكست أعناق الصواري صواغر، ثم من بيده ناصيته يصرفها، وطرقه ينكرها ويعرفها، وجلا تلك الغمّاء وسجر في مستقرّه ذلك الماء، وأخذ بعنان ريحه الجامح، ورد طرف موجها الطامح، حتى عادت سحباً تنشرها الرياح، ومتن البحر هادئاً كصفحة الراح، ثم إذا صافحته يد الهواء، رأيت به مثل نطاح الظباء، وتجلّت ذكاء، والضوء قد أشرق، وبدت في سمائها كوجه المليحة في الخمار الأزرق، وأشرقت بازغةً تدنو وترتفع، وتبدو كسبيكة الزجاج الحمراء ذائبة ينفخها فتتسع. وهو:

لا يبعد الله أقواماً صحبتهم لم أدرِ بعد غداة البين ما صنعوا

فصنع الله لك أيها الصاحب الوفي، والخليل الصفيّ، أحسن الصنع وأجمله وأتم البرّ وأكمله، وأبقاك في أوفر نعمة، وأنظر نعمة، وأنزه حال، وأنبه بال، لمّا كنّا أعزّك الله مرتضعين بلبان الصفاء، ومستبقين في ميدان الوفاء، وفارقتك بمدينة سبتة ـ حرسها الله تعالى ـ حين أخذت للسفر عدّة الحزم وشددت له عقدة العزم، وأنا أجدُ من وداعك أشد باس، وأجرع من /١٥٨/ فراقك أمرّ كاس، والليل مستور، ولواء الشمس منشور، وقد أنار وجْه الأرض من رونق الضحى، ودار خطّ الظلّ دور الرحى، فانتظمت مع السفر في سلك، وركبنا على اسم الله ظهر الفلك، في شأن عظيم الشأن، أنشى من أطول القضب وأقومها، وأصلب الخشب وأدومها، وأصدقت به النطق أحداق الحيازيم، وأمسكته إمساك الأبازيم، ثم يتبع خلله جدداً على ألواحه من الانخلاع، فاتصلت بقرابيسه اتصال الجلود بالأضلاع، ثم جلل سربالاً من القار، وضمخ بالشحم في الندى والفقار، فامتاز بأعزب ميسم، وعاد كالغراب الأعصم، وحسن في منظرٍ ومخبرٍ، كان الكافور قد قرن بالعنبر، له من التماسيح أجنابها، ومن الخطاطيف أذنابها، قد استقلّت أرجلهُ بفراشها. كاستقلال السهام برياشها، وقام فيه قضيب الخيزرانة كعمود الأسطوانة، ثم رأيت قلاعه تعلا كعروس على المنصّة تجلى، وقد مدَّ ذراعيه ملتقياً لوفود الرياح بالمصافحة، مستهدياً من أنفاسها منافحة، واهتزّ منها

---

(١) النهاية والمباهج: في النطق إلى خطابك.

لنفس كليل، ومس قليل، متوسداً على دفتهِ، في حال ثقله وخفته، ليفاءل أهله بالأمان، ويحسنوا الظنّ بالرحمن، ولا يجد لطول السير ملالا، ولا يشكو منه كلالا، بل يصل التصعيد بالتصويب، ويجمع بين الآساد والتأديب، دون همزٍ لمراكله، ولا ضرب لشواكله، تقلد الحكم عليه رائس، ماهر في البحر سائس، ذو تيقّظٍ واستبصار، واستدلال على الأعماق والأقصار، يقدر الأوقات بحزره، ويكيل البحر في مده وجزره، مع معرفته بدليل الهواء ومخايل الأنواء، ونكوب الرياح عن مهبّها، ووقوع الأنهار في مصبِّها، يهتدي بالنجوم إذا سرى، ويستدلّ بالمياه إذا جرى، قد جعل الماء مرآة ينظر فيها، وتحدّر من دخن نوافيها، فإذا أصداها الظلام بحنادسِه، صقلها الصباح بمداوسه، يسبّح الله في مصبحه وممساه، ويبتهل في مجراه ومرساه، ويذكر رباً يحفظه ولا ينساه، قد اتخذ فتية مواتية من حذاق النواتية. يفهمون عن رائسهم بالإيماء، ويتصرّفون له تصرّف الأفعال بالأسماء، بأشخاص لطاف سريعة التلفت والانعطاف، ينزفون الماء حتى ينصب، ويصلون الحبال /١٥٩/ عند التقضّب، ويتعلقون بها تعلّق الحرباء بالتنصّب، ويترنحون عند الجذب والدفع، والحطّ والرفع، بهيئة تبعثهم على الحمام، وتؤذنهم في علمهم بالتمام، فجرينا ونفح الريح نسيم، ووجه البحر وسيم، وراحة الريح تصافح عبابه مصافحة الخلّ، وتطوي جنابه طيّ السجلّ، وتحوك من لججِهِ أبراد، وتصوغ من حبكِهِ أزراد، كأنما رسم في الأديم رقشا، أو يفتح في الفصوص نقشاً، فتراه كمثل الفرند على سيوف الهند، فمن صارخ بتلاوة القرآن، يطيب له ما لايطيب الماء البارد للظمآن، ومن مخبر بما سمع ورأى من فوائد العجائب، ورواية الغرائب، والعيش رخاء، ولما توسّطنا ثبجَ البحر، وضربنا بين السحر والنحر، صحت الريح من سكرها، وطارت من وكرها، سمعنا من دويّ البحر زفيراً. ومن حبال الشاني صفيراً، ورأينا البحر يزبد ويضطرب، كأنه بكأس الجنون قد شرب، فعلّقت عليه تمائم من غرّ الغمائم، واستقبلنا منه وجه باسر، وطارت من أمواجِهِ عقبان كواسر، تنتظم وتصطفق، وتختلف ولا تتفق، كأن الجوّ يأخذ بنواصيها، ويجدّ بها من أقاصيها، حتى تكاد وجه الأرض تنكشف من خلالها، وتختطف عنان السحاب في استقلالها، والثاني يلعب به أكف الموج، ويفحص منها بكلكله فوجاً بعد فوج، كأنما يتسلخ من دثار ويستقيل من عثار، ويجول منها بين أنجادٍ وأغوار، وخنادق وأسوار، وطاقات وأعراف، وحافات وأجراف، كأنها سوامق جبال تنقدّ، أو شواهق جبال تنهدّ، ونحن قعود كدود على عودٍ، قد نبت من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألسنتنا، والرش يكنفنا من كل جانب، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب، ونحن لا نطيق نقضه ولا

نستطيع رفضه، كأنما غشينا من الرعب سدر، ومسَّ أعضاءنا خدر، والمعد تهيج بمرّتها وتموج بدرّتها، فشممنا ريح الموت، وأيقنا بالتلف والفوت، وانتظرنا فراق الصحب، وقضاء النحب، وبقينا في همٍّ ناصب، وعذابٍ واصب، حتى انتهينا إلى جنف الجون، وصرنا في كنّ وصون، وهذا من البحر ما استشرى، وتنادينا بالبشرى، ثم توافينا الجزيرة الخضراء / ١٦٠/ واقتضينا من السلامة النعمة الغضراء، يقلّ لها عتق الرقاب، وصيام الأحقاب، وكان القلاع إذا حطّ سحابة سارت، أو بركة غارت، وأيقظنا من كان منا نائماً، فاستوى على نفسه قائماً، وحططنا في الزوارق رحلنا، ووضعنا فيها أرحلنا، فلم تلبث إلاّ نبضة عرق، أو كومضة برق، ووطئنا الأرض جددا، ولَبسنا أثواب الحياة جددا، ولكنني بقيت سائر يومي نضوا، لا أكاد أقل عضوا، من جهة المشقة، لا من بعد الشقة، فياله من يوم عصيب، لم آخذ فيه عن الحياة بنصيب، ولعل من لا يدري ما أصف يقضي بظنّه ولا ينصف، فحسب ذلك قصراً في باعي وخوراً في طباعي، فأقول له إن الله تعالى جعل البحر إحدى الكبر، والعظمى من العبر، فذكره في آياتٍ جمّة، وأهلك فيه كثيراً من الأمة يستوي فيه الرفيع والأنزل، والشاكي والأعزل، إذْ لا كميٌّ يصارعه، ولا قوي يضارعه، جعلنا الله بآياته معتبرين، وعلى طاعاته مصطبرين، وقد كان لسان الوصف أفصح، ومكان القول أفسح، قال عليه السلام: حدّث عن البحر ولا حرج، ولكنّي رميت الغرض القريب وأدّيت البناء الغريب. ويكفي من السيف ذبابه، ويغني عن القشر لبابه، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وكتبتُ أحرفي هذه بين سفرٍ تعجّل، وتقصير مخجل، فإن مددت لقولها راحتك، ومهدت لقبولها ساحتك، كانت زاد الماشي والراكب، وحملت على الرؤوس والمناكب.

ومنه قوله يصف جامع قرطبة:

إني شخصت لجامع قرطبة منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والمسجد الجامع قد سرّ الله بقعته ومكانه، وثبّت أساسه وأركانه، قد كسى برده الازدهاء، وجلى في معرض البهاء، كأن شرافاته فتول في سنان، أو أشرٌ في أسنان، وكأنما ضرب على سمائه كلل، وخلعت على أرجائه حلل، وكأن الشمس قد خلّفت فيها ضياءها، ونسجت على قطاره أفياءها، ترى نهاراً قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوةٍ سيل، ليلٌ دامس، ونهار شامس، قد أترعت من السليط كؤوسها، ووصلت لمحاجن الحديد رؤوسها، ونصبت بسلاسل /١٦١/ كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عصبت

بتفاح الصفر كاللقاح الصفر، بولغ في صقلها وجلائها، حتى بهرت بحسنها ولألائها، كأنما حلّيت باللهب أو أشربت ماء الذهب، إن سمتها طولا رأيت رياض شقيق أو معادن عقيق، أو جئتها عرضاً رأيت منها أفلاكاً، ولكنّها غير دائرة، ونجوماً ولكن ليست بسائرة، تتعلق تعلّق القرطم الفرفري[(١)]، ويبسط شعاعها بسط الأديم حين يفري، والشمس قد رفعت على المنابر رفع البنود، أو عرضت عليها عرض الجنود، لتجتلي طلاقة دواتها القريب والبعيد، ويستوي في هداية أضوائها الشقي والسعيد، وقد قوبل منها مبيضّ بمحمرّ، وعورض مخضّر بمصفر، تضحك ببكائها وتبكي بضحكها، وتهلك بحياتها، وتحيى بهلكها، والطيب يفعم أفواحه، وتتنسّم أرواحه، قد قتر من اليلنجوج، والند ما يسترجع من روح الحياة ما استرد، وند في صفوف مجامر ككفوف مقامر، وظهور القباب مؤلّله، وبطونها مهلّلة، كأنها تيجان ربيع، فيها لؤلؤ ومرجان، قوس محرابها أحكم تقويس، وسم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرّة مقرطق وبقوس قزح ممنطق، وكأنّ اللازورد حول رسومهِ وبين وسومه نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام، وعلى توابيت علومه، ومظان مكتومه أبناء صيد، وأقمار غيد، تشرق أنوار وجوههم تحت أبراج التاج كتقويس الابنوس على دمى العاج، كأنهم نجوم في الأفلاك، أو ظباء في شباك، والناس ما بين ركعٍ وسُجَّد، وأيقاظٍ وهُجَّد، ومُزدحم على الرقاب يتخطّاها، ومقتحم على الظهور يتمطّاها، كأنهم برد خلال قطر، أوْ حروف في عرض سطر، تسمع تكبيرهم كدويّ النحل في عجاجه، أو اليم في ارتجاجه، حتى إذا قرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا بالتكليم، وكأن الأرض قد حرّكها زلزال، أو الجوّ قد مسَّهُ خبال، يتجاذبون بالأثواب، ويتساقون بالأكواب، كأنهم حضور طال بهم غياب، وأحباب نالوا من زمن التهاجر أعتاب، وجميل من إخوان صدق تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق، متهادين / ١٦٢/ لرياحين الملاطفة، متباينين عن معاريض المصادفة، في مكان كوكرِ العصفور أو ككنّاس اليعفور، كأنّ إقليدس قسم بيننا مساحته.

ومن شعره قوله:

أتلهو وقد ناداك بالبين هاتفُ	وسيرك من بعد المناداة آزِفُ
يُسافِرُ عنّا كل حينٍ إلى الرّبى	طوائف تمشي إثرهنَّ طوائف
فيا أيها الموت الذي جلّ خطبُهُ	وأعيت على الألباب منه اللطائفُ

(١) كذا في الأصل، ولم أفهم لها معنى.

تبيد بني الدنيا، وتفنى جميعهم　　ولست بمستبقٍ كأنّك خائف

ومنهم:

[٥٦]

أبو الحسن، علي بن موسى بن سعيد، العماري[١]

مكمّل كتاب (المغرب في حلى المغرب) من ولد عمار بن ياسر رضي الله عنه، أديب مبدع، ولبيب ممتع، من بني سعيد، وكانوا من بيت ملك لا ينهنه بالوعيد، كان لهم قصر (مشيد)[٢] بالأندلس وهو حصن خيّم على الغيوم، وتختّم بالنجوم، ونافح الرياح، وصافح بكفّه الثريا راحاً براح، وعلا فما طلع إلاّ في ذيل أفقه الصباح، ولا اشتعل المرّيح في شرفاته إلاّ دون أدنى مصباح، وقدم أيام الناصر بن العزيز الشام، واختص به خصوصية الكلبي بهتنام، وهام بأدبه هيام الكلف بذات الوسام، وهو صاحبي الذي أوافقه في هذا الكتاب تارة، وتارةً أؤاخذه، ومرّةً أعاهده، ومرةً أنابِذُهُ، وكان أجمّ من البحر إمداداً، وأسجم من القطر عهاداً، وله الكلام الصافي الورود، الغافي البرود، و(ماء) تسير شوارده، وتنير مثل الكواكب فرائده.

ومن نثره في خطبة كتاب المغرب، قوله:

الحمد لله الذي جعل العباد من البلاد، بمنزلة الأرواح من الأجساد، والأسياف من الأغماد، وحلّى بحلية الأدب منهم من رقّت حاشيته، ولطفت ناشيته، بحلية الأغصان بأزهارها وأوراقها، والحمائم بألحانها وأطواقها، فاهتزّت بمحاسنهم أعطاف الوجود اهتزاز الطّروب برنّة العود، والكريم بنغمة الجود، جاعل المغرب في الحلى الأدبية من المشرق بمثابة شمس الأصيل من النهار المُشرِق، الذي نطق كتابه العزيز بالسير في الأرض، والمشي في مناكبها، وأعلن بالصلاة على مصطفاه الذي أفاض أنوار دعوته على ما زوى له من مشارقها ومغاربها /١٦٣/ محمد الذي اختاره على خير أمّة، وبعثه رحمة. القائل إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة، المثيب حتى بالجنّة لمن ارتضى نظمه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، الذين خلّدوا من

---

(١) ولد بغرناطة سنة ٦١٠هـ، وجال مع أبيه في برّ الأندلس وإفريقيا إلى الاسكندرية ثم رحل إلى القاهرة، ثم حلب، ثم ذهب إلى الحجاز سنة ٦٤٧هـ. وألف كتباً كثيرة منها: بسط الأرض والجغرافيا والغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة. واختلف في مكان وتاريخ وفاته. قيل إنه مات بدمشق أو تونس سنة ٦٨٥ أو ٦٧٣هـ. ترجمته في المغرب ٢/ ١٧٢ وفي مقدمة رايات المبرزين ومقدمة القدح المعلى والوافي ٢٢/ ٢٥٣ ونفح الطيب ٢/ ٢٦٢.

(٢) الأصل: سعيد.

مآثرهم على صفحات الأيام، كالغرر في وجوه الجياد، والأعياد في الأعوام.

ومنه قوله:

لا يستطعم ثمرة غرسٍ ما لم تكن جنّى هذه الخمائل، ولا يرغب في زهرة حياةٍ ما لم تكن من حُلى الفضائل، إذ هذا الفن الأدبي متطفل على سواه، متوشّح بغيره من الفنون توشيح اللبلابة بالدوح، من أسفله إلى أعلاه، ولذلك احتجنا مع الاستطلاع من صميم فنّه إلى مطالعة غيره من الفنون التي من جنانها مزج الصهباء بالماء، وعلقناها به تعلق الحروف بالأفعال وبالأسماء، ولم يزل جميعنا يدأب في جميع العرض من هذا الشأن، لا يعتري أحداً منا كسل ولا سآمة، كلما احتضر الموروث أوصى الوارث في ذلك بعهد الإمامة، إلى أن أوقرنا ركائب الطلب حتى امتلأ الحوض وقال قطني، ونادى بلسان الضجر والانتهاء كفاني منكم وكفاكم مني، وهممنا فيما اجتمع مصرفه إلى الوصية الحكمية في تقييد العلم بالكتاب مجتهدةً في إقامة صورة تفنى صورنا وهو باقٍ في الأعقاب، مقيّد في ساعةٍ ما جمعته متفرقات الأحقاب، لا سيما إذا تأنّق في عرسه حتى ينتهي إلى إطعامه، وفي تغذيته ليشرف على فطامه، وآن له أن يخرج خروج البدر من ظلامه، ويبرز إبراز الدرّ من أصدافه والزهر من كمامه، رافلاً مع عتقه في حلية الشباب، مشبهاً المدام التي تجلّت وهي عجوز بحلية الحباب، جنت له بالموارثة ثمرات الكتب ومحضت فيه بالمطاولة زبد الحقب، فلم تقصر يده عن عصر من الأعصار، ولا قصّرت خطاه عن قطر من الأقطار، فجاء كتاب راحةٍ قد تعبت فيه الأسماع والأبصار والأيدي والأفكار، وأفنيت على إظهاره إلى الوجود وظائف الإعمار، ولم يزل يقرن بسوادِهِ وبياضه سواد الليل وبياض النهار، جمعه بالموارثة في مائة وخمس عشرة سنة، ستة من أهل الاعتناء بالأدب، وتناسقوا في نظامه تناسق /١٦٤/ أنجم الثريا، وتنادموا على ريحانهِ بكؤوس الحمية لا بكؤوس الحميّا، وما برحت نار القرائح تحمي لتخليصه، وصوائد الأذهان تذكى لتخليصه، حتى أبرزت حلاه الذهبية. كالذهب الأبريز، ووقفت في موقف التبريز، وطبقته العلية أنه لم يورد فيه الأماكن بمنزلة الوسائط من العقود، والأعلام من البرود، والخيلان من الخدود، مما تحاكى شعشعة الشمس على صفحات الأنهار، ورقرقة الطل في لحظات الأزهار، قدود معان فصّلت عليها ثياب ألفاظ، ومحاضرات تجري كالدهان على ألسنِ الحفاظ، بجدّ يتنزّل منزلة الكرام والعفاف، وهزلٍ يحلّ منها محل الغنج من الظراف، ولما اكتمل شباب هذه الحسناء، وبرزت في حلل السناء، دعاها كمالها إلى أن تزفّ لمن يفترع منها بكراً لم تعرض على خاطب، ولا عرّضت حيثما سلكت لأيدي

المطالب، فمن يكون في الملوك بمنزلة الواسطة من السلوك المليك الناصر بن العزيز عمّر الله بالدعاء له جميع المعمور، ونظم في سلك طاعته قلوب الجمهور، ولما وصلت الرسالة الصاحبية إلى الديار المصرية، ثم آبت لحقني منها اعتناء لم تمن به الأمنية ولا خاب، فنهضت بي نهوض الغنى بالأماني، وفاءت علي بوارف الظلال داني القطوف، حلو المجاني، فلم أزل في طريقي في صلاح حال تحسدها الرياض التي أضحكتها عيون السحائب عن ثغور الأزهار، وتغيظها الأقمار في سراها، آمنةً من الخسوف والسرار، والأماني تسايرني، والبشائر تصاحبني وتسامرني، إلى أن خيمت ذرى الشهباء حيث تحسدني شهب السماء.

ومنه قوله:

ونظرت إلى الإمداح لا تنفق إلاّ لديه، وبضائعها لا تجهّز من آفاق المشارق والمغارب إلاّ إليه، خيمت بظلّه الظليل، وقلت للمطايا حللت موطن يحرم منه الرحيل، وجعلتُ أمدح ويمنح، وأجيد ويجود، إلى أن توالت الأعوام، وزاد العشق في دولة الغرام. ومن نظمه، ما اختاره لنفسه قوله[1]:

كأنما الدهر صفحة كتبت ... أسطرها والنسيم منشؤها[2]
/١٦٥/ لما أبانت عن حسن منظرِهِ ... مالت عليها الغصون تقرؤها

ومنه قوله:

وبلِّغه ما ألقاه من ألم الجفا ... وطارحه أشهاب الهوى ولك الأجر
وسائله عمّا أوجب الهجر بيننا ... وإن لم تجد عذراً فعندي له عُذْرُ

ومنه قوله:

وعلام يلحاني العذول وقد رأى ... أنّي لشدّة عذلِهِ لا أفتر
وأبيك ما خطر السلوّ بخاطري ... فعلام تعتبني وكم ذا تهجر

ومنه قوله:

طلبُ الوصال منك عينُ المحال ... فإلى كم أغرُّ بالآمال
ما أبالي إذا وعدت بوعدٍ ... وخدعت المنى بطول المطال
يا بخيلاً بوصله كيف بالغت ... فما جُدْتَ لي بوصل الخيال

---

(١) البيتان في المغرب ٢/ ١٧٣ واختصار القدح المعلى ص٢ ورايات المبرزين ٩٨ ونفح الطيب ١/ ٦٤٠ والوافي ٢٢/ ٢٥٥.

(٢) في رايات المبرزين والمغرب والنفح، كأنما النهر مهرق، وفي النفح والمغرب: صفحة بدل مهرق.

لم تجد بالكرى وجُدْتُ بروحي إن هذا لغايةٌ في الضلال

ومنه قوله:

أنا إن بكيت فقد علمت صبابتي يا ليت شعري لم تحنّ الأنيقُ
وفي كلّ ذي شجوٍ يبوحُ بشجوِهِ فلربَّ حالٍ من لسانٍ أنطقُ
ويح الشجيّ من الخليّ فضائع سلوى أخي عشقٍ لمن لا يعشقُ
يشكو ولكن أين من يصغى له ويقول لكن ما أراه يصدّقُ

ومنه قوله مما كتبه عند تصوير المُعرب في كتاب المغرب:

هذي بلاد الغرب قد بسطَتْ لديك المعذره
لما نأت أقطارها جاءت إليك مصوّره

ومنه قوله وقد هبّت صباً لها من جيوب الغيد أذيال على غدير أرق من الجريال فثنى الغصون وميَّلَها وأومى إلى الغدر وقبلها، وهو[1]:

الريح أقودُ ما يكون لأنّها تبدي خفايا الجسم والأعكانِ[2]
/١٦٦/ وتميِّل الأغصان حتى أنها في الدوح تلثم أوْجه الغدرانِ[3]
ولذلك العشاق يتخذونها رسُلاً إلى الأحباب والأوطانِ[4]

ومنه قوله[5]:

ولاتصغين إلى عاذلٍ فما آفة الحبّ إلاّ العَذَل
وجازِ بما شئت غير الجفا وعذّب بما شئت إلاّ الملل

ومنه قوله[6]:

إذا الغصون بدتْ خفّاقة العذب فاسجد هُديت إلى الكاسات واقترب
وطارح الورق في أدْواحِها طرباً ومِلْ إذا مالت الأغصان من طربِ
وانهض إلى أمّ أنْسٍ بنت دسكرةٍ تحكي[7] عليكَ بالحليلِ من الذهبِ
وانظر إلى زينة الدنيا وزخرفها في روضةٍ رقّمتها أنملُ السُّحب

---

(١) الأبيات في رايات المبرزين ص٩٨.
(٢) في الرايات: لأنها تبدي خفايا الردف.
(٣) في الرايات:
وتميّل الرايات بعد إبائها حتى تقبل أوجه الغدران
(٤) في الرايات: والاخوان.
(٥) الوافي ٢٢/٢٥٨.
(٦) الوافي ٢٢/٢٥٨.
(٧) في الوافي: تجلي.

وللأزهار أحْداقٌ محدّقةٌ قد كحّلتها يمين الشمس بالذهبِ
وللأصيل إشاراتٌ بذى سحلى المراد فهو ( )(١) الكاس وانتهب

ومنه قوله:

من فصل النرجس وهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا جالساً وقام في خدمتهِ النرجس

ومنه قوله(٢):

وعسجدي اللون أعْدَدْته لساعة تظلم أنوارها
كأنه في رَهَجٍ شمعةٌ مصفرةٌ عدته نارها

ومنه قوله:

وقد اغتدى والليل قد سلّ صبحه بليل بجلباب الصباح ملثما
وأحسبه خال الثريّا لجامه فصيّر هاديه إلى الأفق سلّما

ومنه قوله:

تقلّبت في النعمى كطيرٍ بدوحةٍ على أيّ غصنٍ لاح يشدو ويطربُ
/١٦٧/ ستبقى على مرّ الزمان بمدحِهِ مذهبةً في الخافقين وأذْهَبُ

ومنه قوله(٣):

جُدْ لي بما ألقى الخيالَ من الكرى لا بُدَّ للضيف المُلمّ من القرى
واخجْلَتَى منه ومنك متى أنمْ عَيَّرتني ومتى سهرتُ تنكّرا
أسَفي على يومٍ يُمرُّ وليلةٍ لا أنت تلقاني ولا طيف الكرى

ومنه قوله:

يا من يروم قرى له قد أضْرمت نار الخدودِ أنخ على وادي القُرى

ومنه قوله:

ذو صورةٍ تأخذ الأيام زينتها منها وتغرق في لألائها الصورُ
إن هزّه المدح فالأموال في بَدَدٍ والغصنُ ما هُزَّ إلاّ بُدّدَ الثمر(٤)

ومنه قوله:

وأم يوسف والدنيا له تبعٌ ولم يقُم عند رسمٍ للوفاء عفا

---

(١) كذا ورد البيت مضطرباً، وفيه بياض بمقدار كلمة، ولم يرد في الوافي.

(٢) الوافي ٢٢/٢٥٨.

(٣) عدا الثالث من قصيدة في المغرب ٢/ ١٧٥ والوافي ٢٢/٢٥٨.

(٤) البيت في الرايات ص٩٩.

ودّت ثغور العذارى أن تكون على ... أسوارِهِ أبداً لو أشرقت شُرَفا

ومنه قوله:

هذا الذي هدنا لمرسل ... سعره لما أتى في فترة السلوان
يا حسن سورة يوسفٍ ... في صورةٍ تتلو عليك بدائع الرحمن

ومنه قوله:

مليك كلّما حدَّثْتَ عنه ... ملأت به الوجود ندىً وندّا
يعزُّ مثاله إن شئت وصفاً ... ويعوز عدّه إن رُمْتَ عدّا
تقدّم في الوغى أسداً هصوراً ... بثعلبِ رمحه يصطاد أسدا
إذا اطّردت به الغدران بيضا ... أبت إلّا يصير البيت وردا

ومنه قوله:

تقاسمه الورّاد من كل وجْهٍ ... ولا أثرٌ يبدو به للتقسّم
فلولاه ما جاء الغمام بعبرةٍ ... ولاالروض أضحى مظهراً للتبسّمِ

ومنه قوله:

بدرٌ نقصت به وتمّا ... أشكو له فيزيد ظلما
يا عاذلي في حبِّه ... أنّي أصمّ وأنت أعمى
أنا لا أطيق سوى الذي ... أبصرته وكفاك علما
وإذا بدا لي من أحبُّ ... أسرُّ به لثما وضمّا
/١٦٨/ يوم يمرّ ولا أرى ... فيه حبيبي لا يسمّى
يا عاذلي أنا قد شقيت ... بحبّه وأراه نُعمى

ومنه قوله:

لا أنس ليلة وافينا لموعدنا ... والكأس دائرةٌ والغصن معتنقي
فقلت إذْ بت أسقي الشمس في قدحي ... من ذا الذي صاغها قرطا على الأفق

ومنهم:

[٥٧]

أبو العباس، أحمد بن عبد النور

وصل في زمن الظاهر بيبرس من إفريقيا رسولاً، ووصل بالمبارّ سُولا، ثم عاد إلى جهة مرسلهِ، وقد ازداد على إكرام رسله، وألان القول، وأبان مقدار ما وجده من الطول، فأنس ما كان بينهما توحّش، وحَسُن ما كان على لسان من قبله بينهما قد تفحّش، فانتسج بينهما بُرد الودّ، ورأى ما دعى من المحافظة على مدى البعد، ثم كتب

إلى الصاحب فخر الدين بن لقمان. رئيس ديوان الإنشاء في ذلك الزمان، رسالةً بديعة تتعلّق النفوس بلباناتها، وتفتق كمائمها عن باناتها.

ومنه قوله:

سيدنا ـ أبقاه الله منوطة به أسباب الرغائب، محوطة عليه سنيّات المراتب، ملقى نواشيء الإسعاد من كلّ جانب، مفتاح حضرته التي هي حظيرة المكارم، وحاضر بحور العلوم الخضارم، يتزين لخطابها، ويعرض عقائل المجد على خُطّابها، ثم معرفتها ذمّة، والخلق منها مذمّة، والتحلّي بمواصلتها همّة، ولا شك أن هذي الوسيلة قد بلغ لديها محلّة، وأن السؤدد الفخري يتمّ فيها الحج والعمرة لله، ولما ورد هذا الصقع متحلّياً بهذه الصناعة، ومستبضعاً إليها عروض هذه البضاعة، عوّلت على أن أخاطب بلسانها، وأن توالي المطالب بإنسانها، فوجدتني أغتدي بها عن جناح مهيض وأتابع النظر بجفنٍ غضيض. وكأنني أستنبط عنصرها في الأنباط، وأعرب بها بين الأسباط، إلى أن نمى إليَّ أن سيدنا سيّد عِصابتها، والرامي عن قوس إصابتها، وأن القلم الفخري له الفخر فيها والسيادة، ولإحسانه الحسنى وزيادة، فتنوره الأدب من أذرعاته، وعزم على أن يفيض من عرفاته، فهو أكرم من أن يسدّ عليَّ باب الحظوةِ بمعرفتهِ وعرفانه، أو يُظمِيني مع ما طاف بين الورى من طوفانه، فخاطبته /١٦٩/ مخاطبة من يهتدى بهديه، ويستنجح لسعيهِ، وأبى الاختيار إلاّ أن أقصده، وعَزَم عليَّ الأدب إلاّ أن أنشده:

إنّـي بـحـبـلـك واصـلٌ حـبـلـي   وبـريـش مـثـلـك واصـلٌ نـبـلـي

لأتخذُهُ ذريعةً إلى النجح، ونوراً أهتدي به إلى سورة الفتح، إذ كلّ من يستنصح لأيام النصح تجيب، وإن احتيج إليه فالحاجات عند أبي خبيب[1]. وأما الآمال، فقد أطرتها بحراك، وأرسلتها فيه العراك. ليُعْمل فيها أيدي العون. ويكرّ فيها على الفساد بالكون، فتصرخ هي أيضاً بالثناء صراخ رافعي العقائر، وتعتدّ عليك ما يتضمن حمل المحامد من الضمائر. وإنما هي حظوةِ مجدٍ دعوت لها ساق حرّ، واستسعيت قدمها الأسمى لدفع ضرّ، فتنفصل بقدرٍ لا غض، وتعمل مقولاً لا فض، ليثني عليه الشاكر أطراف المحامد كما أثنى، ويأثر عنه أنه فعل وأفعل في اتفاق المعنى، وأنهى إلى علم سيدنا أنه فرطت في هذه السفارة فوارط لم تطل إليها يدُ استدراك، ولم يكن في عواقبها النظر الحرم كبير إدراك، لم توقعها خيانتي، ولم تنسب إلى تصريحي ولا كنايتي. فلما اصطليت بنارٍ لم أشبها، ورميتُ بعلّة لم أسطع أن أطبها.

(١) أبو خبيب، هو عبد الله بن الزبير بن العوام، وكان يوصف بالبخل.

ظـلّـلـت ردائـي فـوق رأسـي قـاعـداً أعـدّ الـحـصـى مـا تـنـقـضـي عـبـراتـي

يا له خطباً ولج القلب ولجّ، وشجى وشج في الحشا وشج، ووقفني على روق الظبى واستعاني وأين موضع السعي، ففرقت من وقتي هذا من خلائقه العوج، وأرقتُ لأخلاقه الهوج. وندمت على حركتي إلى هذه الجهة، ندماً أورى بالأنامل المعمور، وتركتُ ورائي رأياً وددتُ لو جعلْتَه من عزم الأمور، ولو قصصت على الحضرة الفخرية خبري وبثثتها عجري وبُجري، للفحت مجلسه الأعلى بوهجِ ذاكٍ سمومه. زاك مع كل لحظةٍ خصوصهُ وعمومهُ، وأرسل من العبرات صوب أفق ماطِر. وكلّما فطرتِ اللوعة قلبي، تصَعَّدت الصعداء بالحمد لله فاطر، وقد أعوز الآن من يستنجد اعتناؤه. أو يستجدي غناؤه في المآرب أو عناؤه، خلا سيدي وخلاه ذَمّ، وهو إن قلّ الفُضلاء فالعَدَدُ بِهِ جمّ، وقد ذُكر لي أن الجدّ من عادة /١٧٠/ وفحصتُ عن الصدق فإذا هو أتى في ميعاده. وما برح كلّ طام يستمطر قطره. وحيثما كان فيما يولي وجه أمله إلاّ شطره، لا سيما أن انسد إليه تفريج الهمّ. وعوّل عليها في الحادث المدلهم، فإنه يقرع في كل مستندٍ إليه ظنبوب الاعتزام، ويدلّ عليه منجحه بالتضمن والمطابقة والالتزام، ويجود باهتمامه فيحيد، ويبدي في إبداعه ويُعيد، ويمدّ إلى الغرض الأقصى يده الطولى، ويعمل على النظر فيه تلو صلاته الأولى، وهو ـ أسعد الله جدّه ـ أيقظ من أن يكتحل بسنّة الغفلة، أو يقيّد عزمه بقيد المهلة، فلنأخذ قضاء المارته[1] على الفور، ونحير محاولتها بالتسلسل والدور، وإذا جرى جدّه على وتيرته الحسنى، وأعمل فيها متقصّده الأسنى، لم ينفق ذخائر الجدّ إلاّ على المجد، ولكن يتعوض منها مثاني سورة الحمد، شُكِرَ الحسن بن سهل، فاستوقف الشاكر ثم قال: يا هذا، الجاه زكاة الشرف، وإنما نعدّ شفاعتنا زكاة مروءتنا، فسوى سؤدد سيدنا يعرض عن تعرض محاويج إخوانه إلى زكاته، ويصدّ عن تصدّيهم، ومثله يذكي لهم من رأيه الأصوب الأسمى سراجاً يسعى نورُهُ، بين أيديهم ومن وجدوا وجاهته تبذل إن شاء الله ثمن البضاعة في خصائص شرفه شرف الصناعة، ومبيضه النجح لا تصح إلا بإنشائه والامتياح من ركيته. لا تكون إلا بدلوه ورشائه. أبقاه الله مستنجحاً في مهمات المطالب، ومستمنحاً كريماً للرغائب. ولا زال موفر الدواعي على الإجابة للداعي. وموقوف المحامد على شرف المساعي.

---

(١) كذا في الأصل، ولم أعرف لها وجهاً.

ومنهم:

[٥٨]

أبو الحسن بن فضيلة(١)

قاضٍ أقطع من السيف قضاؤه، وأنفذ من السهم مضاؤه، وخطيب يرفع الطرف إغضاؤه، وتحرق رياح الوعيد رمضاؤه. وكاتب يرضى ارتضاؤه، ويُغني عن النوء اقتضاؤه. كلامه أسهل من الدهان. وأسلم من التصوّر في الأذهان، وأسبق من الجياد يوم الرهان.

وله رسالة كتبها إلى بعض أصدقائه، وقد عُزل عن القضاء، واريح مرهف من طول الانتضاء، وخفف عن فسيح رجائه وقفات الركائب الانضاء، ما خلا فيها من إبداع، لا تنهض في خلافها حجّة نزاع. /١٧١/ وهي:

أخي وسيدي أبقاه الله، وشمسُهُ طالعة لم يعقها غروب، ونفسُهُ واسعة لم تضقها خُطوب، وبعد فإني كتبتهُ إليكم، كتب الله لكم عزّةً باقية، وعصمةً واقية، عن الودّ الذي يفهم، والخلوص الذي لا يمرض بحول الله ـ ولا يسقم، والاعتقاد الذي يجب لذلك الإخاء ويلزم، والشوق الذي يهيج بالبعاد والفراق ويضرم، والله تعالى يصون لنا من الوِداد ما عُقد، ويحفظ لي ولسيدي ما اعتقدت من ذلك وما اعتقد، ويطفي من نار الشوق ما أضرم وما اتقد. وإني وافاني خطابكم الأثير، معرّفاً بالانفصال عن تلكم الخطة التي كرهتها في سالف الأيام القدوة الأعلام، وفرّ منها صالح الأنام، من لنا بهم الاقتداء والائتمام، فسرَّني ذلك لكم وساءني للخلق، وشكرتُ الله على انفصالكم منها، عزيز النفس، واقفاً مع الحق، وإن تقلدتها يا أخي عزيزاً كريماً لأنت الآن أكرم وأعزّ. ولئن حُزت منها سبق رتبة، لأنك اليوم أحرز للفضل وأحوز. فالحمد لله الذي جعل النهاية خيراً من البداية، وصيّر هذا العزل أفضل من الولاية، فما بفضل الله هان إلاّ من ضعف في الحق ولان، ولا اتضع إلا من إنقاذ للباطل وخضع، ولا عزل إلاّ من حط عن الشرف الذاتي وأنزل، فأما من وقف مع الحق حيث وقف، وتصرّف معه حيث انصرف، واتصف، من العلم والمعرفة، وحميد كلّ صفة، بمثل ما تحلّى به سيدي واتصف فهو أمين وحاكم على كلّ حاكم، ووالٍ آمن في كريم رتبته، وعظيم خطّته من العزل والزوال، فأما المراتب العرضية التي تُنال بالحق والباطل، ويتقلّدها الحالي والعاطل، ويتصرف فيها الجائر والعادل، مما يعنى به الكريم الفاضل، ولا يرتفع بوجدانها ولا يتضع بفقدانها العاقل الكامل، أما أنّ الله ما صرفها عنكم إلاّ لأنها شيبت

---

(١) أبو الحسن، فضل بن محمد بن علي بن إبراهيم بن فضيلة المعافري، الاغرانطي، المتوفى سنة ٦٦٤هـ. برنامج الواد آشي ص١٦٦. درة الحجال ٣/ ٢٦٣، الذيل والتكملة ٥/ ٥٤١.

وذُمّت بلسان الشرع وعِيبت، فحرّك يا سيدي السلسلة وانظر لمن تستند، واعلم أن من وجد في غير الإسلام فقد فُقد، ومن حيل بينه وبين تلك الخطة في هذه الأيام فقد سعد، وهل فصلوك يا أخي إلا عن فصل خصام، بين رعاع وطغام / ١٧٢/ ومعالجة أحكام بين عوام وسفهاء أحلام، أو عباد صليب وأصنام، والصون من هذا عند كل عاقلٍ مبرّة وإعظام، فما انتزع النازع ولكن أفاد وما أساء، ولكن أحسن وجاد وأجاد، فاحمدوا الله على ما وهبكم من هذا الصون. واعرفوا ما بين الخطر والسلامة من البون ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[١]، واعلموا أن الذي شرفتم بإتيانه، وعلوتم مرتبة سنائه، لا تمتدّ إليه بالعزل أيدي الولاة، ولا بالنزع أيدي العداة، ولا سبيل إليه لمغتصب، ولا طمع فيه لمنتهب، ولا حيلة فيه لمستلب، وهذا أوحد ما أوتيت من شرف الرتبة العليّة. والخطة العلميّة، فعضّ عليها بالنواجذ ضنانةً، وخُذ بأحسنِهِ كما تقتضيه الفضيلة والديانة. وتعزّز بعزّه ما يلحقك بحول الله هضمٌ ولا إهانه ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[٢] زهرة الحياة الدنيا، وأقنع بما أوتيت فقد فزت بالقدح المعلّى في الدرجة العلياء، واعرف مقدار النعمة، وعش عزيز النفس عظيم الهمّة، واشكر الله على ما حطّ من أعباء، وأماط من كلفٍ وعناء، ومعاناة روم الجمع بين النار والماء.

ومنهم:

[٥٩]

الدجانـي

من بيتٍ ما منهم إلا كاتب مطيق، دائب فيه، لا يحمله طود ولا يطيق، وهو عين أعيانهم، وزين عيانهم، فصيحٌ منطيق، فسيح بأدبه لا يضيق مضيق.

وكتب عن وزير إفريقيا إلى الصاحب الوزير فخر الدين أبي حفص عمر بن الخليلي الداري رحمه الله، كتاباً ضمنه وصف مصر، وكان قد ورد إليها حاجّاً وعاد عنها، وأحلام الأماني تحمل له إليها معاجاً، لما وجده في كنف سلطانها من إحسان. أوقر ركائبه فوق ظاقتها، وألزم أجياد مطيّه في المقام بها طوق عاقها. وذكر من رأى فيها من فتية الترك، وفئة الملك، وهيئة الأقمار، وهالاتهم السروج، وبروجهم القلاع ذوات البُروج، أجاب به عن كتاب كان كتبه ابن الخليلي إليه متودّداً. وجاب الأرض إليه لا يهاب فدفداً، ويعرض لروضة حتى فغمه طيبُه الهاب، ولمزنِهِ حتى لحقه مطره

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٢) سورة الحجر: ٨٨.

الصابّ فأتى الجواب المغربي بما لا يغرب نجمُه، ولا يغير العقد إلاّ نظمه، وهو مما تناقلت الأيدي نسخه، ونفضت على زعفران الأصيل / ١٧٣/ أردانه المضمّخة، وهي:

حفظ الله مجد المقر، ولا زالت محامده متدارسة عند جميع الأنام مدى الأيام، وملائحه كنائحة متعرفة من بطون الكتب وأفواه المحابر وألسنة الأقلام، سلام كودّه صفاء، ووعدِهِ الصميم احتفالاً واحتفاء، يخص جلاله. ويعمّ خلاله. ويتسلم أركانه المحترمة وخلاله. (...)[1] تحيته للقائه، يشرف محيّاه وسجيّته من تلقائه، يعبق ريّاه من ماحِضٍ لودادِهِ، فارض لاعتقاده، لا يبرح مبيّناً ببيانه عمّا في جنانِهِ، ومنيباً عن قدمِهِ وكيليٍ قلمه ولسانه، فلان، وقد وصل الكتاب الكريم، والجواب الذي من حقّه التعظيم والتكريم، فكان وصول البرء للعليل، وحصوله حصول الريّ للغليل، كتابٌ نظم ألفاظه فريد، وحسن معانيه عن سواه شريد، بل يجد لدرره الإسماع ملتقطه، وروض بزهره الأجفان مغتبطة، فللّه درّ ناثرِهِ، أيّ درّ نثر بيانه، وكاتبه أي زهرٍ أظهر بنانهُ، ينظر الفصحاء إلى مذهبه فيه بهتون فيخرسون، ويذهب البلغاء مذهب مهديه فيحفظون ويحرسون، فنحنُ كلّما قرأناه رجعنا عوداً على بدء، فابتدأناه، وكلّما وضعناه عدنا إلى إعادته فرفعناه، ولو أنا وصفنا في جمال براعته أكمل وصف، ورصفنا في جمال صناعته أجمل رصف. ورأينا أنا بلغنا الغاية. وانتهينا لنهانا حسنُ مراجعته فرجعنا وانتهينا، ولما تحققنا رتبته وتيقنّا منزلته الرفيعة ونسبته سميناه معجز الكتاب إعجاباً بنسخة الصنيع. واستعذاباً لما فيه من البيان والبديع، وقد صدر منكم من الاحتفال بقضاء المآرب والاهتبال بما لوجهِ الكتب فيه من المطالب، ما ألسنة الثناء عنه عاجزة، وعظائم مننه على استيفاء شكره حاجزه، وأي أملٍ لا يسبقه ذلكم الفضل، وأي رجاء لا يعرفه لكم الوبل، فلساني باعتماد شكركم قائم، وجناني لاعتقاد فخركم لازم، ومن أكرم الآمال عليّ، وأعظم الأماني لديّ ما يسدونه من النعم، بما تشرفون به من الخدم، فما أعلى شرفها، وما أحكي كلفها، لقد تقع مني موقع الزلال البارد من الظامي إلى الموارد، ويؤنس إيناسي الأمل / ١٧٤/ الحاصل بعد الشرود، ويتلقى تلقي الحبيب الواصل بعد الصدود، ولي في تلك الجملة المحروسة تشيع قديم، وعندي في إيثار المآثر النفيسة تخصيص وتقديم، مغان لها عندي مغان، فأماكن لسكانها النفوس سواكن. والتركُ أنجدهم الله أمة شريفة القدر، شريفة البدر، جميلة الذكر، جليلة الشكر، عظيمة الملك، نظيمة السلك، فاضلة السيرة، خالصة السريرة، رائضة الأخلاق، فائضة الأرزاق، جمهورية السياسة، أوّلية الإيالة والرئاسة، عريقة المجد، ماجدة الأعراق، خليقة بالحمد، حميدة الأخلاق، شرفوا ناساً، وألقوا كرباً وبأساً،

(١) كلمة لم أتبينها.

فهم في الجدْب غيوث ساجمة، وفي الحرب ليوث هاجمة، فإن كفت أكفهم تبسّطها للضيوف قبض العفاة وكفت بعد ما وكفت بقبضها على السيوف، بسط العداة، أحكمت حكم القسط في حالتي القبض والبسط، وترفع في الأولى دعوى عفاتها، وتدفع في الأخرى عدوى عداتها، فتارة تفوق لسقياها، وتفيق برقياها، وتارة تمرّ على الهام مرّ الجهام، وخير الحلى ما جمعت بين اليأس والندى، ووقعت سبباً للحياة والردى، يومامهم: يومُ تقدم للسماح، ويوم إقدام على الرماح، فإن تقدّموا للعطاء، مثلوا لك تمثل الأنعام، وإن أقدموا على الأعداء أجفلوا إجفال النعام، وليس يفضي إلى نجاة من فرّ منهم فضاء، ولسيوفهم مضاء، يفضي لحتوفهم له قضاء، ولنبلهم حفيف. يسمع من عل. ويرمي بالعجز كلّ رامٍ من بني ثُعل، وإن كان ملتجا كفيه في وتره، ومزعجاً صفّيه في أثره، وإن طعنوا فطعنٌ ابن حجر، أوصلت سيوفهم حرب حياةٍ من عجز تعدّ أنهم بعدتهم هلكى، وطعناتهم بين مخلوجةٍ وسُلكى، لبيضهم وسمرهم شغفٌ بالمهج، وكلف إذا حمى الوطيس بذلك الوهج، ولذلك أعادها الضنى الذي عاودها أهله، ونحلها الهوى الذي أنحلها حله، وحالت أحوالها فجرت دموعها دماً، وكادت تتأجّج ناراً، أو تتموّج ماء، ولكسفها عن الغيوب، وبحثها عن غامضات القلوب، تراوح الأرواح وتغاديها، وتخترق الأجساد وتعاديها، ثم تهيج لها قصد الكرم قصد الهيجاء، ويبصر الجوارح جوانح / ١٧٥/ فلا تقابل رجاها بالأرجاء، بل تستقري هي أرواحها، وتفري أشائب النسور، وعصائب الطيور أشلاءها وأشباحها، فيجتمع الصنفين سماحةً وبأساً، وتتحلّى بحليتيهما الشريفتين لباسا، فحماها الله من أمة شرفت في الأمم أوصافُها، وصفت بالهمم أشرافها، وحلّا في الأفواه ذكر حلاها. وعلا عن الأشياء شكر علاها، وابتزّت معجز الدول دولها. واعتزت عن الآخر مع الأول خوّلها لملوكها في الملوك، ما للفرائد في السلوك، فهم من أعزّ ملوك الإسلام المختصين بسماحة الأكف، ورجاحة الأحلام، فمن سَبَر أحوالهم، وخبر أقوالهم وأفعالهم، فقد رأى وشاهد وأحمد تلكم[١] المشاهد، وقد اجتليت شموسهم طالعة من شرقها، وأنوارهم السنيّة ساطعة من أفقها، زمان رحلتُ لإداء الفريضة، وجلتُ في تلك الأرض الأريضة، وعاقتني عن أدائها شدّة مرض، لم[٢] أتوصّل معها إلى إتمام غرض، فلقيتُ من المولى السلطان الملك المنصور، سيف الدين، قامع أعدائه، الحاسم بحسامه ما كان أزمن من دائه، معزّ الإسلام وأهله، ومجتث الكفر من أصله، من مصرفات النعم التي ألقت في

(١) في الأصل: ذلكم.

(٢) في الأصل: ثم.

المبادىء والخواتم، ومصنفات الكرم التي ألقت زاد المسافر وتحفة القادم، ما أوجب عليَّ أن أذكره شاكراً لهممه، وأشكره ذاكراً لذممه، وكذلك لقيت من أكابر دولته المتكرمين بكرمه المتصولين بصولته. ما هو فرع من أصله وبحثٌ من فضلهِ، فللترك شكرهم بذلكم الطّول على اليد الطولى، وتلكم المنن التي أسدوها إليَّ مشكورة في الآخرة والأولى. وكنت أسمع من ملفوظة حامدهم ومحفوظة محامدهم، ما هو بغية للسامع، وحلية للمسامع، فلما رويتُ من مكارمهم الذي رويت، استصغرتُ ما سمعت، لعظيم ما رأيت، وعلمتُ إنها إحدى الكبر لمجيء العيان رائداً على الخبر، وأين ما سمعتهُ أذناي مما عاينته عيناي، فيالله، ما رأيت أكمل من ذواتهم، ولا أحصل من أدواتهم، ولا أزين من لقائهم، ولا أحسن من إلقائهم، ولا أفضل من معاملتهم، ولا أجمل من مجاملتهم، ولا أحلا من محادثتهم، ولا أحلا من مناقشتهم ولا أجمع من /١٧٦/ شجاعتهم، ولا أشجع من جماعتهم، ولا أندى من أكفهم، ولا أكفى من نداهم، ولا أجدى من وفائهم ولا أوفى من جداهم، قومٌ خيرتهم المحاسن في أنفسها فاختصّوا بأرفعها وأنفسها، وحكّمتهم السيادة في معاليها، فحلّوا من الأوامر والأمور أعاليها، إلى تظرف يواجهك بالوجه الوسيم، وتلّطف يجاذبك مجاذبة النسيم، فأنا بعدما حجب البعد مغانيهم، وإن لم يحجب الودّ معانيهم، لم أُذكّر بأوصافهم، وأُفكّر في حمد يقوم بأنصافهم، فأوصافهم شركٌ للعقول، وشرف القائل المقول، ولكم قمت بها خطيباً، وأزجيت من ثنائها طيباً، وكثيراً ما تشوقني إلى الكثرة، وتشوقني إليها المرّة بعد المرّة، وقد تُنْجز الأيام في تقريب المزار وعدها، وتفعل فعل العزم والحركة الناشئة بالحرم، على تلكم الديار بعدها، فيدرك المحبّ من القرب إليكم ما كان يهواه، ويقيم الجسم للقلب لديكم حجةً على دعواه. إن شاء الله لا ربّ سواه، وإنّ مما زان الأيام وكساها عزّة، وزاد عندي في التشوق والتشوّف هزّة، ما أعظمتهم به البشر والبشرى، وأعلمتم بالإعلام به خلع ذلك المجد الأسرى، المولى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين[1]، أبقاه الله كنزاً للراجين، وحرزاً للاّجين، ولا زالت

(١) لاجين، حسام الدين بن عبد الله، المنصوري، الملك المنصور، من ملوك دولة المماليك بمصر والشام كان مملوكاً للمنصور قلاوون، وتقدم إلى أن ولي نيابة السلطنة أيام العادل كتبغا، ثم خلع العادل، وولي السلطنة سنة ٦٩٥هـ، وتلقب بالملك المنصور، وكان فارساً عاقلاً يحب العدل ومجالسة العلماء، إلا أنه ولى مملوكه منكوتمر نيابة السلطنة فأساء السيرة، فكره الناس لاجين، وقام بعض مماليك الأشرف خليل فقتلوه في قصره سنة ٦٩٨هـ انظر: النجوم الزاهرة ٨/ ٨٥. والسلوك ١/ ٨٢٠. شذرات الذهب ٥/ ٤٤٠.

الدنيا تتعرف بجنده لزمامها، والعلياء تتشرف بأخذه في أحكامها. وأشرتم بأن المملوك والممالك مقرَّة بمولويته، ومجمعة على أوليته في الفضل وأولويته، فهو سامي الصدور حامي الثغور، ومالك أزمّة الأمور، ومطبق أرجاء المعمور. عقد النفاسة والتكبير، وعقد السياسة والتدبير، تهزُّ باسمه المنابر، وتعزُّ بوسمه الأكابر، وتدور بأدوار سعادته الأفلاك، وتنير بأنوار سيادته الأحلام في جلوته وصفوه، ورد العطاش، وفي محو حلمه وعفوه رد العقل المطاش، ولسببه أحجال الغيث السكوب بمدراره، ولسيفهِ أعجال الليث عن الوثوب إلى قراره، صفات أعجزت الواصفين بلاغتها عن بلوغ شأنها، وحجزت الراصفين صياغتها عن مصوغ بيانها، فالمجيل خيل بنانه فيها مغبّر لا معتّر، والمطيل فضل لسانهِ / ١٧٧/ كي يسبق فيها مقصّر ومقصر، فهنأ الله المسلمين من حواه من إيالتهِ، ومنحهمُ من سماحته وبسالته، فهم قد نالوا الأماني من كرمه، والأمان في حماه وحرمه، وقد عمَّ الهناءُ به شرقاً وغرباً، وشمل السرور بمملكته عجماً وعرباً، وأقبل المسافرون على محبته مجمعين، وقد اختصصت من ذلك بما عمَّهم أجمعين، فالملك قطب يدار الرعيّة عليه، وأصل من جمع تفاريع الأحوال إليه، ومنزلته الملك في زمنه منزله القلب من بدنه، فصلاحه يصلح الوقت ويقتبل، وبعدلِهِ يقوّم وزن الزمان ويعتدل، وقد صلحتْ بحمد الله الأحوال مشرقاً ومغرباً، وأصبح الدهر عن مدح ملك الجهتين المحروستين معرباً، واتصل من الفتح والنصر والمنهج الشامل لأهل العصر ما وقع ماله مثالاً لمثالكم، والهناء عام به هنا وهنالكم، إن شاء الله تعالى، وهو المسؤول أن يحرك من نعمه ما يترادف ويتوالى، ويطوّل عزّتكم، ويحوط بكلاءته حوزتكم، ويشكر ارتياحكم للمآثر المشكورة وهزتكم، والسلام الأزكى عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب شيخنا حجة الأدباء شهاب الدين أبو الثناء محمود[1]، رحمه الله جوابه بما صغّر قدر هذا الكتاب، وتوارى به هذا البيان في التراب، فأبطل سحره المؤتفك، وألصق بحره بقرار مجرى الفلك، وجاوز الفلك، وهو:

حرسَ الله مجد الجناب، ولا زالت وفود السعود تأوي إلى حرمه وتروى أخبار الندى عن كرمه، وتحلّي المسامع بما منحتهُ من لآلي كلمه، وتنقل إلى رياض الآمال

---

(١) شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد، أحد كبار الكتّاب المترسلين والشعراء المجودين، أقام بمصر وولي ديوان الإنشاء بدمشق، توفي سنة ٧٢٥هـ، وترك مؤلفات منها حسن التوسل إلى صناعة الترسل. انظر ترجمته في مقدمته، والوافي بالوفيات ٢٥/ ٣٠١ وأعيان العصر ٣/ ٢٤٩ وفوات الوفيات ٤/ ٨٢ والبداية والنهاية ١٤/ ١٢٠.

الظامئة ما شاهدته من دوام ديمه، وتحدّث ولا حرج عما وردته من بحر نعمه، ويصفُ كيف تتصرف الآجال والأرزاق بين الماضيين من سيفه وقلمه، ولا برحت مكارم الأخلاق وأخلاف الأكارم تُشام من برق شيمه، وأحرار المحامد ومحامد الأحرار يُعدّ من إمائه وخدمه، حتى يبلغ زينته في العلاء مرام أوليائها، ويزحزح عن دورة المجد من وقف في طرق أعتابها، بالكرم واعتلائها، ويردّ شاني شأنها العالي ردّ أعدائها، ويمسي في الهدى والندى كالنجوم التي ترى بأنوارها، وترتوي بأنوائها /١٧٨/ المملوك يهدي تحيةً ما الروض تولاه الولي، ووسمه الوسميّ، وجشمته نسمات الرياح، وأطلبه رايات الصباح، وغازلت كواكب الفجر عيون نرجسه الوقاح، وبادرت الصبا تقبيل ثنايا نوره من قبل أن يرشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأقاح. بألطف من نشرها المطويّ، وأطرف من خبرِها المرويّ، وأعطر من أرجها النديّ، وأذكى من نسيم عرفها الندي في الندى. وأعرف منها بآداب آدابها. وأدرى بمواقع البلاغ عمّن خدم بأهدابها، وشذى بما أعبق من نشر اللطائم، وأعذب في المسامع الظامية مرجب الغمائم، وأطرف من غيث أنامل النسيم يحلّ أزرار الكمائم، وأحسن من أنساق اللآلي في سحابها، وأشرف من ابتسام ثغور البروق لبكاء سحابها، غير أنه وإن لم يفض ختومه إلا لديه محلول النطق، مبثوث في الأفق، مقصور على مجده الذي إذا حلى بدرره قبل ما كان يصلح هذا الطوق إلاّ لهذا العنق، وينهي ورود مشرفته الكريمة بل ديمته التي أربت بدوام الندى على كلّ ديمة، بل جوهرة الشرف التي لو قرنت بها درة التاج لم تسمّ بديمه، ولم تُسم بقيمة، بل صحيفة الكرم التي ما انطوت إلا على آيات فضله إلا لتغدو في جيد المفاخر يتيمة، وتلقّاها المملوك تلقي وفد السعد، والحبيب الزائر على غير وعد، أو تلقّى طلوع اليمن في أيمن طالع، والغمام المقبل بعد الصدود على وجه الثرى الخاشع، وفضّها المملوك على رياض هُدى، وحياض ندى، وعقود برّ ووفود كرم، صدرت عن بحر نوال فلم يدر أبرد أم برود؟ أم نفذ بطرفه على مجالس جود أو مجالس سجود، أم هي درر فيصيّرها عقودا، أو دراري فيسيّرها في فلك العلى سعودا، أو لوامع فتجتلى أنوارها أو نوابغ زهر فيجتنى نوارها، ثم لم نرتب في أنها إذا كانت نوراً فقد تركب من نور، أو نجوماً فقد تألّفت من شموس وبدور، أو درراً فإنها أجل ما تهدي البحور إلى نحور الحور، لكن عاد المملوك عن هذا التشبيه، وعاده بالأغضاء عن التقصير فيه، وقال: أين رقّة هذه البلاغة من الدرر وهو جماد، ومن الماء وكلّها عذب ومنه /١٧٩/ الملح والثماد، ومن النجوم وهي تطلع أبداً وتلك تغُور، ومن النيرين وهي آمنةٌ من الكسوف الذي يعتري الشموس، والسرار الذي يغتال البدور،

وأين يقع الروض من هذه المغاني التي كلّ زمنها ربيع، وأين للعقود حسن ما اشتملت عليه هذه الفقرة، من صحة السبك وجودة الترصيع، وحينئذ شرع في اجتلاء غرر الكلام واجتناء ثمر الأقلام، واقتناء درر المعاني التي تسبق إلى القلوب ألفاظها، وادخار لآلي تلك السطور التي إذا تأمّلتها العيون قيّدت ألحاظها، فعلم أن الله تعالى أتى سيدنا مقاليد هذا الشان، وملك بيان فضله أعنّة المعاني وأزمّة البيان، وأقام من البراعة على منابر أناملِهِ إظهاراً لمعجز البراعة خطيباً مشقوق اللسان، وأكرمه بأخصّ ما فضل به البشر من التعليم بالقلم، ووهبه شرف الخلال بما جمع فيه من خلال الشرف، وجعل شرفه في الخبر حجة على من قال لا خير في الشرف، وانتهى إلى ما أشار إليه المولى من ذكر الديار المصرية، وإنه كان زارها فشرّف مزارها، وحلّ دارها فرفع مقدارها، وأقام بأوطانها مختصاً بإحسان سلطانها، وأنه إذ ذاك نظرها بعين الرضا، وشكر لأهلها ودّاً أراه تبرعاً ورأوه مفترضاً، فشكر الله لبحر حلّ مرابعها موقعُ نداه، ولبدرٍ حلى مطالعها لوامع هداه، فلقد فارقها تمامه وكلّ أفق منها منير، وأقلع عنها غمامة، وبكل أرض منها روضة وغدير، وما أجدر فضله بآثار لها[1] لمحياه، وأقدر كرمه على أنهالتها[2] أنفاساً ما لم تزل تتشوق إليه من التعطّر برياه، ليرد أهلها من فضيلة بحر علم انفجر وما انسجر، وتورد من راي سعادة معالمها بحلوله أن السعادة لتلحظ الحجر، وأما ما أطلق فيه عنان البلاغة من وصف طائفة الترك، أعزّهم الله تعالى، فلقد وصف طائفة أدال الإيمان دولتها. وأذلّ الطغيان صولتها، ليس لمولودهم مهد إلا لبدة جواد، ولا لسهامهم هدف إلاّ لبّة نحرٍ أو حبّة فؤاد، قد ألفوا الخيول حتى كأنهم سبحوا على صهواتها، واجتروا على المنون حتى انتزعوا أشلاء الأمة من لهواتها، إذا صدموا جيشاً لم تبق إلا جماجمه، وإن حضروا حصناً لم تلق إلا آثاره ومعالمه / ١٨٠/ وإن حموا ثغراً لم يُشم برقُه، وإن رموا قطراً لم ينشق عن فجر ظفر شرقه، لا يطربون لغير وقع البيض في القمم، ولا يخضبون سبب أسنتهم بغير الدماء المنفجرة على منابت اللمم، ولا يفهمون في الوغى لغير[3] ألسنة الأسنة كلاماً، ولا يشربون إلاّ على نغم الظبي من طلى الطلي مداماً، ولا يهوون الحرب إلاّ إذا شاب وليدها، ويقلد بمواقع الأسنة وريدها، ولا يرضون الروض إلا إذا كان له من ثني الرماح شمائل، ومن تلوّي البنود خمائل، ومن إشراق السيوف من الغمود وغروبها في القمم، غدوات وأصائل، قد

---

(١) كذا قرأتها وبعدها كلمة لم أتبينها.

(٢) كذا في الأصل، ولم أجد لها وجهاً.

(٣) في الأصل: الغير.

مرّستهم على الوقائع ملوكهم، وسلكتهم طرق المقامع سلاطينهم. فحسن فيها سلوكهم، وخصوصاً مولانا السلطان حسام الدين، فإنه ليث غابهم، وغيث سحابهم وبحر فلكهم، وآية ملكهم، ومادة شجاعتهم، وجادة خشوعهم لربهم وطاعتهم، قد فتحوا الممالك الممتنعة باسمه، وأذلّوا جباه الكفر المرتفعة بوشمه، فمواكبه خالية بهم بزهو الكواكب، ومراكبه خالية فيهم بليوث تزاحم الأجل على اقتناص المهج بالمناكب، ولقد وجد المولى من مناقبهم درراً فنظمها، ومن مفاخرهم غرراً فوسم بها جياد فضله وسوَّمها، ومن محاسنهم بدوراً فأطلعها في أفق طرسه، ومن مكارمهم بحوراً فأعدها بما غرس من الثناء لسقيا غرسه، ولكن ما كل من أطرى أطرب، ولا كل من أغرى القلوب بحبّ طائفة أعرب، ولا كل من وجد درراً صيّرها عقوداً، ولا كل من رأى رتب المعالي أطاق إليها صعوداً، لا والله بل هي البلاغة التي تدنو كالشمس وتبعد عن اللمس وتقرب كاليوم، وتنأى كالأمس، فمتعه الله منها بما أعطاه، وملأهُ بكنز البيان الذي طلبه فأصابه، وطلبهُ غيره فأخطاه، فلقد تصرّف في البلاغة تصرف مالكها، وأوضح طرق أفانين البراعة فأنارت لسالكها، وأخذ من الصفاء طريقاً، كلما لاقاه صغا، المملوك فيها قال له: وجئت على قدرٍ سالمةً من تكلف الشواهد. دالّة من الجانبين على ما في ضمير الغائب بالشاهد، وقد علم الله تعالى أن المملوك يدينُ بحبّه، ويستروح بواردات أنسه على قلبهِ، ويرتاح إلى لقائهِ / ١٨١/ ويلتاح لبارقةِ قرب تومض من تلقائه، وإذا كان التناجي بالقلوب فإن رسائل الأشواق لا تنقطع، ورسائل الودّ لا ترتفع، ورسل الصفاء لا تحتجب عن القلوب، ولا تمتنع، ومظاهر الأحوال الظاهرة لا تعوق، ولوامع الأنس الباطنة أسرى في القلوب وأسرع من لمحات البروق، فليكتف عن شرح الشوق بألسنة الأقلام إلى ما تمليه الضمائر، وتبلى فيه السرائر، وإذا لم يكن بين القلوب حجب، فالأنس على الأبد حاضر، والقلبُ مع الدوام إلى روض الأنس الناضر ناظر، والودّ مسكّن في الجوانح، وحُسْن اللقاء دان في المعنى وإن غدا وهو في العيان، بأرج ويسيل عن حسن المناب في بلاغ سيّدهِ وسندهِ وذخيرته التي يرجو بركتها ليومه وغده الشيخ أبي محمد المرجاني أعاد الله من بركته سلام المملوك وارتياحه إلى وفاء نذره بتقبيل قدمِهِ، واطلاع علمه الكريم على أن كل نسيم خاصه أرج رسول شوق من المملوك إليه، ويتمنى كل وقت أن الله يلهمه المسير، ويتلو إذا طال عليه أمد اللقاء: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[1].

وأما من هو منهم حيٌّ مما ذوي له غرسٌ منبت، ولا محي له طرسٌ مثبت، ولا

(١) سورة الشورى: ٢٩.

أكل المحاق هلاله، ولا غال الخسوف كالبدر كماله، فسآتي بمن شقَّ سمعي خبره، أو متع طرفي نظرهُ، ممّن قدم مصر فرأيته، ودنا لي اقتطافه فجنيته، وهم إلى آخر ما علمته حين صنّفت هذا الكتاب وعلمته، أحياءٌ يرزقون، وأغنياء لا ينفدُ من كنوز البلاغة ما ينفقون. قول من حقّق أخبارهم وصححها، وبيّن آثارهم وأوضحها. على ما يأتي شرحُهُ، ويوافي بمكنون الحقائب نفحهُ، وبمضمون الحقائق ما يجلوه صبحُهُ.

* * *

[من قـــدم منهـــم مصـــر]

فمنهم:

[٦٠]

عبد المهيمن بن الحضرمي[1]

رجل على الحظ رُمي، أصله من سبتة، ثم استوطن مدينة فاس. واستوطن عقبه العقيم والراس، وصاب غماماً هامياً في أوطانها، وأصاب مقاماً عالياً في حضرة سلطانها، وصرف ببيانه القلم الأعلى وببنانه الكرم الذي شيد بناءه وعلّى، حفظ كتاب سيبويه، ولفظ الدُّرر البحر الذي بين جنبيه. وهو اليوم كاتب الدولة المرينية غير مزاحم في تصريفها، ولا مُزاح /١٨٢/ عن عطفه حلّة تشريفها، يمسح عن جبينها الرحضاء، ويرهف بيمينها المضاء، وينطق بلسان ناطق، بالإحسان صادق، بما يحدث عن مقاتل الفرسان، تردُ إلى باب سلطاننا شرّفه تعالى الكتب من إنشاءاته وقر ظهور ركائبه ومنشآته، وجاء منه في فتوح تلمسان ما قرط آذان الحسان، وهو متسلّم باب ملكه، ومُتسنّم هضاب فلكه. وفي النثر لسانه أقول، وبيانُهُ أطول، على أنه في النظم ذو مقول لا يُقاومُهُ ابن أبي خالد الأحول، ولا يقاربهُ الفرزدق ولا جرول. وقد وجد بحسن ترسُّله، ويمن توسّله، ما وجده عند ابن زنكي الكاتب الأصفهاني، حظي به عند ابن أيّوب الفاضل البيساني، ورآه الطغرائي من ذوي ملكشاه، والنسويّ من خوارزم شاه.

ومن نثره قوله:

---

(١) عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، يرجع نسبه إلى الصحابي العلاء بن الحضرمي، عيّن بنو العز في أصحاب سبتة أباه قاضياً بها، سنة ٦١٣، وعندما أخذها النصريون سنة ٧٠٥هـ فارتحل مع ابنه وأسرته إلى غرناطة. ثم عادوا إلى سبته، واتصل عبد المهيمن بالدولة المرينية، فكتب للأمير عثمان بن يعقوب، ولابنه أبي الحسن علي الذي اصطحبه في أسفاره وتنقلاته.

توفي بتونس سنة ٧٤٩هـ عام الطاعون الجارف. وكانت ولادته سنة ٦٧٦هـ.

ترجمته في: أعلام المغرب والأندلس (وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان) للأمير أبي الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر، ص٣٢٣ والإحاطة، حيث اعتبره لسان الدين من شيوخه ونفح الطيب ٥/ ٢٤٠ و٤٦٤ وفيه جملة من أخباره وأشعاره، وجذوة الاقتباس: ٢٧٩ والتعريف بابن خلدون: ٢٠.

الذي يسلب الحميّا نشوتها، ويحلّ مع الثريا نجوتها، فأما تشوّق ذلكم الإخاء لمواصلة الكتب بسار الأنباء، فإن من أقربها وأغربها، حديثاً تهادى وتهدي ما كان من أمر العاق، قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان وما إليها بالمحل النبيه، وذلك أن أسلافه بني زيان، كانوا قد استولوا على هذه المدينة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافنا المحتوين على ملك المغرب الأقصى مواقع توردهم الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون المنازعة، ويعودون للموادعة، ثم لم يلبثوا الذين سكنوا، ولم يصبروا أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمّنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته أتاهم فأكثر موتهم وكدّر محيّاهم، وتمادى بهم الحصار تسع سنين، وما كانوا غير شرذمةٍ قليلين، وهنالك اتصلت بينكما المراسلة، وحصلت الصداقة المواصلة، ثم ختم موته، وتم فوته، رحمة الله تؤمه، ورضوانُه يشمله ويعمُّه، تنفس خناقهم، وعاد إلى الأبدار محاقُهم، وصرف إليهم القائم للحسن ما كان هو رحمة الله تعالى قد طوّعه من بلاد مغداوه وبحس فاتسعت عليهم المسالك، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم من الممالك، لكن إنما هذا الحائن وعمه كانا من أسأرته الفتن، وعمرته بها عوام المحن، وملكا ملك أسفلاهما في إذاعة المهادنة، والروغان عن الإعلان والمعاينة. ولما سوّل الشيطان لهذا العاق قتل /١٨٣/ والدهِ، والاستيلاء على طارفه وتالده، لم يقدم عمه على أشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس المرحوم أبي سعيد قدس الله مثواه، وجعل الجنّة مأواه، في السلم راغباً، وللحكم بموادعته طالباً، فاقتضى النظر المصلحي حينئذٍ موافقة عرضه، وإن كان باطنه مطويّاً على مرضه، فقوض أمره وضرى ضرّه، وسرى شرّه، (.....)[1] الزمان جمرهُ، وسرى إلى بلاد جيرانه الموحد[2] رداؤه. وطال عليهم تضييقُهُ واعتداؤه، واستتبعه ضعفهم عن مدافعته، ووهنهم عن مقاومته ومنازعته، فبغى وطغى، ولم يدر أنّ فوقه سحب السماء إنما باطن جماعة من عرب إفريقيا المعدين وبعض من يحدث نفسه بالانتزاء على ما بين المعتدين فجروه عليها وجروه بمثل الأطماع إليها، وأقام عشرين سنة نشر على بجاية الحصار ويشنّ على أحرار تونس المغار، حتى كان من تغريمه جيشه لصاحبها ما كان.

ومنهم:

(١) كلمة غير مفهومة.

(٢) كذا في الأصل.. ولم أجد لها وجهاً.

[٦١]

أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد العقيلي اليبري

من ولد عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، كان قد بلغني صيته، ثم سوّغني الدهر أني لقيته، فرأيتُه عذبَ الجنى، حلو المنى، إلاّ أنه ذو مخاريق يخلب بها العقول، ويسلب بها صرة الدرهم المعقول، أمور أعلمها الأغراب، وتعلّمها من مكر الغراب، وراوغ بها مراوغة الثعلب، وغاور في طلبها مغاورة السلوقيّ للأرنب، قدم مصر بوفرٍ من البلاغة عميم، ووقرٍ من الأفك ما منه ومن أولادهِ بهِ إلاّ عليم، وسحر سحروا به أعين الناس، واسترهبوهم وخلّوهم في وسط بيوتهم، وسلبوهم وأتوا من ذهب الأدب ما يثرى به كلّ عديم، وخلطوا بيانهم بالمخاريق فجاؤوا بسحرٍ عظيم.

حدثني أنه كتب لأبي علي عمر بن السلطان أبي سعيد، وأنه غمره بإحسانٍ ما عليه مزيد، وبقي معه حتى ظفر به أخوه السلطان أبو الحسن علي، وأسكنه قيد ثلاثة أذرعٍ من البيد، وأمسك العقيلي هذا واعتقله، وثقفته بالحديد، ثم أمر بتسريحهِ وأطلقه من معتقل ظنّه باطن ضريحه، وأطبقه في التراب تحت صفيحه، ثم استكتبه في إنشائه، واستصحبه لقرب قليبه وطول رشائه، لأنه رجل خلق من أدب لا / ١٨٤/ يتكلّفه، ولا يعده موعد فيخلفُه، وحضر معه فتح تلمسان، وكتب في بشائرها، وأتى بغرائب في عجائب بلادها وعشائرها، ثم خرج حاجاً، وركب ثبج البحر، فغرق ما معه ونجى ببدنهِ. وأتى ولا شيء معه سوى فنون أفنه، وأول ما دخل القاهرة. وأتى إليّ، ونزل في دار كان فيها جاري، وتردّد إلي لسماع ما بلغه في المغرب من أشعاري، وكان جمّ الاستحضار، إذا حضر جلَّ عن الحضّار، وإذا سابق جدّ في الإحضار، مع أدبٍ طريّ كأنه برود عبقري.

وكتب إليّ مع قصيدة:

أبديتها ـ أعلى الله قدرك ـ خجلاً، وأهديتها عجلاً، وفضلك يشرفها بالقبول، والاعتناء المبذول، فقبولك لها يشنف آذانها، ويلحق بزهر النجوم حوذانها، على أنني في وصف حلاك، ونشر عُلاك، كمن كاثر البحر بصبابة، وكابر الليث بذبابة، ولكن فضلك يصفح ويغضي ويسمح، أبقاك الله سنناً للمتقين، وسنداً للمحتفين، وأدام علوّك، ووصل ارتقاءك وسموّك، والسلام البهج النشر الأرج النشر، يختصّ كمالك، ويعتمد جلالك، من معظّم قدرك، ومنظّم قلائد فخرك، فلان، ما أعريت من لين الغصن حركاته، ورحمة الله وبركاته.

فكتبت جواب قصيدته، وكتبت معها:

أتحفتني ـ أعزك الله ـ بعقيلةٍ عذراءِ، وخميلة غرّاء، ما اكتحل طرف ناظرٍ بمثلها، ولا تخيل طالب بأغزر من فضلها، وشي سحابٍ منهمر، ودرّ سحاب مقتدر، حباها نوض، وجناها روض، السحر حشو فعلها، والكحل فاضل كحلها، جاءت من المغرب بالفضل المُغرِب، فقلتُ: أهلاً بأسدٍ غضنفر، جاء من خيسه، وقمتُ آخذ من الغرب ما أودعه الشرق من درر الكواكب في كيسه، وطفقت أعترف للغرب بفضله، لما رأيتُ من أهله، ولما بعثت تلك العقيلة تتهادى في تربها، عفّر الهلال جبينه في تربها، فرأيت أكبر آياتها، ولا ضير، وطلعتُ الشمس من مغربها، وما تم إلاّ الخير.

قلت: ولقد أضربتُ عن أبيات القصيدتين، إذْ كانت قصيدته تتضمن فيّ من المدح ما لو أثبتُّه لم آمن في من القدح، فما تركتهما هي وجوابها لقصور فيهما، ولا شيء بسببه أخفيهما، إلا لما قال /١٨٥/ في قصيدته فيّ من المديح، وأنني لا أقنع من الزمر بريح، فهذه حال قصيدته. فأما قصيدتي، فإنها جواب، وإيرادها (.....)[1] من أختها ما لا يقتضيه الصواب، على أنه غير بدع إذا سترتُ عواري، وكنت له أواري، ثم نعود إلى ذكر البري. فنقول، ومن نثره قوله:

وكتابنا هذا إليكم، وجانب هذا الأمر قد اتسع مجاله، ونصرت أنصاره ورجاله. والعدوّ قد بدت أوجالهُ، ودنت بعون الله آجاله، والفتح المبين قد خفقت أعلامُهُ، وسيف الله قد راع الأعداء ابتسامه، والمنح قد لذّ ابتسامه، والدولة قد تولّى الله تعالى رفع منارها، وارتفاع نارها، وإشراق أنوارها، وقد علمتم أنا كنّا نحو بلاد ذرعة حرس الله ساحتها. وعمّر بالعافية مساحتها، وتمتع منهم نواظر طرفها الشوق، وتخير منهم قلوباً أدنفها التوق، وقصدنا تدويخ البلاد السوسية إلى [أن][2] يقر أمرها في نصابه، وننتزع حقنا فيها من أيدي غصّابة، وأخذنا نستجلبهم بأتم وجوه الاستجلاب، ونحضّهم على الجماعة التي هي رحمة، ونحذرهم من الفرقة التي هي عذاب، إلى أن انقاد والحمد لله إلى الطاعة عصِيُّهم، وأُلقيت دون القتال حبالُهم وعصيُّهُم، وقرب دانيهم وقصيُّهم، صنعاً من الله كريماً، وفضلاً من لدنه عظيماً، ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً. ثم عُدنا بالجيش الموفّر والجمع المنصور المظفّر، بما يروق دواءً ويحسن في نصرة الله غناءً.

ومنه قوله:

وعرّسنا بواديه، وختمنا بناديه، فألجأناه إلى حصنه الذي، يعتصم بذروته،

---

(١) كلمة لم أتبينها.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

ويمتنع بصهوته، فألفيناه قد فتح من الكبر الذي أتى عليه من أكبر باب، ووشج بينه وبين الشقوةِ انتساب، وهيهات هيهات. ممن لم ترعه أوعار الجبال، ولا اقتحام البحار، ولا اعتساف اليباب، فساعة وصولنا ناصبناه القتال، وزحفنا إلى جلاده بالخيل والرجال، وأسقيناه ذُعاف القراع والنصال، فنفقت يومئذ سوق الآجال، وازدحمت فيه الرجال على الرجال، والنصال على النصال، وكثر القذف بالحجارة، والرمي /١٨٦/ بالنبال، وفي كل ذلك لم يمسّ أولياءنا قرحُ، ولا تخطى صفقتهم ربح، بل كان النصر من أول صدمة صدموها، والظفر لأوليائنا على أعدائنا على العادة التي ألفوها وعلموها، وناجزنا الشقي غير البعيد، وأريناه العذاب من غير وعيد، وأذقناه ومن معه حرّ الحديد، وأنزلنا بهم بأسه الشديد، فلما رأى من أمر الله ما راعه وأهاله وضاعف حزنه وأوجاله، لم يجد في التماسك مطمعاً، ولا قال قائلٌ له من عثرته لعاً، فقال بلسان حاله لنفسه الخبيثة: أيتها النفس اجملي جزعاً[1]، فغصّت لهواته بالحمام، وقرعت ظنابيبه جنبك الحسام، ووطيء بلده الجيش العرمرم، وشفى أوامه منهم حتفه اللهذم، وحصلنا الذخائر والأموال والعدد والأثقال، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة، والأنعام بما يضيق على رحب المكان أرضه، وفي أسرع من كسر الطرف، لا بل أقرب من لمح الطرف، ملأ الله الأيدي من طارفهم وتلادهم، وأعاد إلى القلّة والذلّة وافر أعدادهم، فاقرؤوا هذه البشرى في نواديكم، وابعثوا بها نسخاً إلى بواديكم. واشكروا الله على هذا الفتح الذي نظم شمل البشر، ونثر سلك المكر والشر فالشكر مفتاح المزيد، وعنوان الخير العتيد، وتيقنوا أن حبل الله هو الأقوى، وأن العاقبة للتقوى.

ومنه قوله:

وأمرنا أن تأخذوا في محو هذا الحصن من ديوان الوجود، وأن تنزل به أم المنايا السود، ثم إذا أتممنا بمنّ الله هذا العمل المفضي بقوة الله إلى بلوغ الأمل، نأخذ في الإياب، ونسرع في الانقلاب.

ومنهم:

[٦٢]

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي البركات السلابحي

قدم مصر، وأوى إليّ، وثوى حواليّ. وبقي برهةً أنيس وحدتي، وجليس مودّتي،

---

(١) شطر بيت لأوس بن حجر. وعجزه: إنَّ الذي تحذرين قد وقعا.

وكان ظريفاً، في هيئته، لطيفاً بخلاف فئتهِ، وكان الموسيقى جلّ ما يعرفه، وقل أن لا يألفه، قال لي: إنه من أهل بيت توارثه بنوه، وتدبرّه بعد جدّه أبوه، وأنهم أهل انقطاع ما منهم من خدم السلطان في منصب، ولا زاد منه جنى مجدب ولا مُخصب، /١٨٧/ أتى حاجاً، وقضى نسكه، ومضى على أثره، فما استطاع أن يسلكه، فأقام بالقاهرة، ثم تعرّف بي، ثم تحول إلى قربي، وتأكدت بيننا المعرفة، حتى صارت صحبة، ثم سارت به قدمُه إلى حيث قضى نحبه، بلغني أنه مات بقابس، وحبسه بها للمنيّة حابس، وكان له في الأدب مشاركة، ما قصّر فيها ولا طال، ولا وصف فيها سحابة بجهام ولا هطّال، وكتب إليّ:

رضي الله عن السيادة السنيّة، والمجادة السريّة، المطيرة السحابية، الخطيرة الشهابية، العليّة العمرية، نسبٌ يجرّ على المجرة ذيله، ويجري في ميدان الافتخار نجبه وخيله، جازَ مجلّياً خصال سبقه، وجاز مواليّاً أكارم غربه وشرقه، ومن ادعى الجمع، ففاروقه يثني على تحقيق فرقه، روضة علم وآداب، يربي بطرفها على علم الزّهري[1] وابن داب، وتبين فتاويها الحق، ويطري أياديها الكرم الذي بينه وبين البحر فرق، وما بينه وبينه فرق، وصلى الله في العزّ الممدود بنموّ قدره، وأجلّ في سماء السعود نموّ بدره، وبعد، فلما تنسم عندكم نسمات هذه الخمائل، ويعرف من شمائلها ما اشتملت عليه من لطافة تلك الشمائل، أراد الله أن نتقرب بمدحة مسكية نسماتُها، شمسية قسماتها، أعطافها أغصان وأردافها كثبان ووجناتها تجني القطوف بستان، يمدح بها فتى قريش، وابن كهلها، وواحد الدنيا وابن واحدها، هكذا جداً بعد جد. بين أهلها، وأكملها جوداً وأسعدها جدوداً، وما أنا يا سيّدي - أدام الله نصرك وأعلى قدرك - في الهذر والضجر إلاّ جالب التمر إلى هجر، ولكنني رددت البضاعة لمبضعها، والأمانة لموضعها، إن أحسنتُ، فارتضاؤكم يظهره ويبديه، وإن أسأت فإغضاؤكم يستره ويخفيه.

وكتب معها إليّ قصيدة، من غزلها مما افتتحها به من أوّلها:

بادر إلى الروض الأنيق الزاهر ... واسرح بلحظك في رياض أزاهر
فالطلّ من فوق الغصون كأنّه ... درّ ينظم في عقودِ جآذِرِ
/١٨٨/ وبنفسج الروض النضير كأنه ... زرق العيون بدت لعين الناظر
مع سوسنٍ راق النهى كأناملٍ ... قبضت على تبرٍ بها متناثر

---

(١) الزهري: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري أحد فقهاء المدينة وحفاظ الحديث فيها، توفي سنة ١٢٤هـ. ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ١٧٧ وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦.

فأيقظْ نديمك من كراهُ وعاطِهِ كأس الحميّا كالصباح السافرِ
من كفّ أحور بابليّ لحظهُ يسبي العقول بطرفٍ ساحرِ
إن كان يجحدُ سفك سيف جفونه فبخدِّه أثر يبين لناظري

ومنهم:

[٦٣]

أبو محمد عبد الصمد بن محمد التوزري

شاب نشب معه ذكاؤهُ. ويهبّ خاطرهُ بما يتوقّد به ذكاؤهُ، يُتوسّم كالزرع زكاؤه، ويبتسم أثر يراعه إذا جدَّ بكاؤه، جليسٌ ممتع المذاكرة، مُمرِع المحاضرة، وإلى أن رأيته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ما بقل وجهه بنباته، ولا بقي للنجوم إلاّ ما لفظ من أبياته، أوقفني على قطع ممّا جمعهُ للناس. ومنعه بما يحمى به ظبي الكناس، ضنّاً تعزّ به الأبكار، وظناً أن يحصل بأدبهِ المشعشع الابتكار. أتى في الركب المغربي لحج البيت الحرام، وزيارة النبي، ثم كر راجعاً، وغرب كوكبه الذي أشرف لما شرق طالعاً، وكتب إليّ مستجيزاً كلاماً وجيزاً، وهو:

وعد سيدي الدهر وأبنائه، ومعلّي صرح الفخار ومشيّد أزر بنائه، فزنت[1] النبوة المحمدية، وربيب الولادة العمرية، وهبهُ الله عمراً طويلاً، وذكراً جميلاً، لا يبغي عنه تحويلاً، ونصره نصراً عزيزاً معجّلاً، ومثله مؤلاً، بإجازة خديمه المتطاول إلى خطة تقديمه، وقد قيل أنجز حرٌّ ما وعد، فالنجاز ما بعثه معد.

ففي الوقت أجزته، وعجلتُ له الوعد، وأنجزته، فكتب إليّ:

وصلني أعزّ الله سيدي من إجازته ما تهتُ به عجباً وفرحاً، ومشيت به مختالاً مرحاً، إذْ أمطاني كاهل الشعرى العبور، وأراني وجواري الأفلاك دوني تدور، وأبان لي قصور شكري وأنا جد الشكور، وقام بي فنهضت على رغم الجد العثور، وقد يجد هذا المصطنع من يُربّه، ويغالي هذا المصطنع ولا يقدر على أزيد من أنه يحبّه، ولولا أنه من حركة الأوبة على أوفاز، وأنه لم يأن له إلا وقف مجتاز، لقرن هذه / ١٨٩/ البرية، إلى ذلكم الجناب بمدحةٍ تطولها ولا تبلغ قصاراه. يتعرض بها إلا لمن رآه، وسيأتي ذكره من ثغر الإسكندرية المحروس، إن أقام بها الركب يومين، بما يخلو من زورٍ ومين. والسلام الأزكى، المفترّ كالزهر ضحكا، الناصع طيبه، الفائح بالعطر ما سحبت به جلابيبه، على

---

(١) كذا في الأصل، ولم أعرف لها وجهاً.

ذلك المجد الأشرف والجناب الأرحم والأرأف، ورحمة الله وبركاته.

وكتب إليَّ من الإسكندرية كتاباً مع قصيدته التي جهّزها، وعقيلته التي مثل العروس أبرزها، كتاباً طوّله وتطوّل به، وأرسله، ومنه:

وهي قصيدةٌ بنى أمره على إطالتها فقصّرها، وعلى أنه يقتدر به حق تلكم الجلالة فما قدّرها، وظنّ أنه يعذر بها من قريحته أمله، فما أعذر منها ولا أعذرها، وتوهم أنه مقدم بها وسائله فأخّره لما رأى تأخرها، على أن تلكم السيادة أشرف من كلّ ما يقال، وتلكم المجادة أعظم من جميع ما يجليه فكراً ويدور على بال، وما المادح لها وإن أطنب، والواصف لها وإن خيّم على السهى والفرقد وطنّب، إلاّ مقصّراً غير معذور، وشاكراً مبالغاً غير مشكور، لأنها لا تعطى حقاً ولا توفّى، والساكب في مقام جلالتها أبلغ من المتكلّم، فإن نور الشمس لأكفى.

وهذا وإن ذكر من كان بمصر لوقوعها في قسم المغرب وطلوعها به لما فاتها أن تكون نجم الصباح نجم المغرب، وهذا وإن سلم فيه إلى الحقّ، فهو مما تشرق لمصيبتها صدور الشرق، لأنه جارها الأدنى، وهي قطعةٌ منه في حقيقة المعنى. ولكن كيف الحيلة. مما أوقع الله عليه قسمة بلاده. وسهّم ما سطح عليه كرة الأرض لعباده، وها أنا إذا ذكرتُ من أنار منْ أقمار الكتاب في غربها، أغضَّ عيون الشرق بفيض غربها، مما أنأى الشرق عن قربها، وسلّ من خلجها سيوفاً لا ترضى الجوزاء لحمائلها، ولا الغمائم لقربها. سقوا بماء النيل فبانت حلاوته في منطقهم وجاور أملاق مقطعاته فجاؤوا بمثلها في ملقهم، ورأوا الهرمين فأتوا قواعده في بنيانهم، وولدوا في أرض السحرة، فتعلموا منهم السحر واستعلموه في بيانهم.

ومنهم:

[٦٤]

ابن عبدكان، كاتب / ١٩٠/ ابن طولون

كان على طريق الأوائل. إلا أنه يجرع ريق الغصص سحبان وائل، شاعرٌ مدره، وكاتب له على قطع المنازع قدره، وفصيح كل كلمة يقولها ببدرة، بل بدره، ومن نثره قوله:

أو مثلك يظنّ بمثلي هذا، وأنا ـ أطال الله بقاءك ـ أربُّ الصنيع لا أكفره، وأرعى الذمام ولا أخفره، وأحمل الكلّ وإن هاضني، وانبسط للصاحب وإن رابني، وأبذل عن صديقي الوفي نفسي فداء إن قبلت، ووفاءً إن رضيت. أضنّ بحديث سميري، ولا أطلع

على ما أستأمن عليه أذني ضميري. وشهد الله ما خرجتُ عن خلقي أعاني الغبيّ، وأخبّي الجني. أجاملُ الأصدقاء والوقى بعضهم لبعض، وأكتم السرّ فيه ضربة العُنُقِ.

ومنهم:

[٦٥]

ابن خيران[١]

كتب عن الحاكم غير حيران، بخاطرٍ وقّاد، قذف الهرمان الأحمر فهو منه شرارة نيران، والياقوت الأصفر كأنه منه غيران، معانيه مسهبة، وألفاظُه موخرة مذهبة، له في نفس التعبير نفس عبير، ولم يورد له ابن سعيد على كثره ما له من المحاسن، وأثارُهُ فكرة من الجواهر التي لا تكوّنها المعادن. إلا قوله[٢]:

وقد خرج أمر الإمامة، بهدم كنيسة القمامة[٣]، حتى يصير سقفها أرضاً. وطولها عرضاً.

ومنهم:

[٦٦]

الموفق بن الصيرفي[٤]

ناقد كلام، وناقل مضاء سيوفٍ وأقلام، وحديث نصرٍ عن أعلام، كان صاحب ديوان المكاتبات في أواخر الدولة العبيدية، يعمّ الناس بالإحسان الجمّ، والإحسان

(١) أبو محمد أحمد بن علي بن أحمد بن خيران، ولي الدولة، كتب عن الخلفاء الفاطميين، الحاكم والظاهر والمستنصر، وكان أديباً شاعراً، توفي سنة ٤٣٢هـ. انظر: النجوم الزاهرة لابن سعيد ص٢٤٨، ومعجم الأدباء ٤/ ٥ وصبح الأعشى.

(٢) الكلمة في النجوم الزاهرة لابن سعيد ص٢٤٩ منسوبة إلى ابن سورين.

(٣) كنيسة بالقدس.

(٤) علي بن منجب بن سليمان، أبو القاسم، ابن الصيرفي، من كبار الأدباء المصريين، مؤرخ منشيء، ولد سنة ٤٦٣هـ، وولى ديوان الإنشاء بمصر أيام الآمر الفاطمي سنة ٤٩٥هـ وتوفي سنة ٥٤٢هـ وصنف كتباً منها: «الإشارة إلى من نال الوزارة» نشره عبد الله مخلص في مجلة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٢٤. و«قانون ديوان الرسائل» نشره علي بك بهجت بالقاهرة سنة ١٩٠٥. وله أيضاً، كتاب المختار من شعر شعراء الأندلس المعاصرين، قال الزركلي: رأيت قطعة منه في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب، بتونس، و«عمدة المحادثة» و«عقائل الفضائل» و«منائح القرائح» و«رد المظالم» انظر: وفيات الأعيان (انظر الفهرس)، معجم الأدباء ٢٥/ ٧٩ =

بالرعاية التي خلاها الذمّ، فإليه أرسل القاضي الفاضل أبوه ليدرب، وعرض عليه سيفه ليجرّب. فوجده جوهراً، ورده وهو يتلظّى نهراً، ويعرف هذا الصيرفي بابن الخلال، وكان آيةً في كرم الخلال، لولا كبرياء كانت تتخازر بطرفه، وتتحاذر على من دخل بثاقل عطفه. وكان الفاضل يصرف فضله التذاذا، وفعله كلّه إلا هذا، وقد زعم ابن سعيد أن منه المادة الفاضلية، وأن من يتحرّ في كلامهما يظهر له طرق المآخذ الجلية، ولعمري أنه ما أنصف. ولا الأمر كما أن وصف. بل والله بينهما /١٩١/ ما بين شهرتيهما، والتفاوت في تعريفهما تفاوت ما بين صفتيهما، على أن هذا الرجل لا يغمط أمام التمام سابقته، ولا ينكر قبل الغمام في رقته.

ومن نثره قوله:

وجاءت غربان الماء، تحكي قطع السحاب في أديم السماء، يحسب الناظر أنها ركائب قد طفت في بحر السراب، أوجفونا محدقة والمجاذيف أحداق.

ومنه قوله:

وجاءت هذه الخيمة توفي على إيوان كسرى، وظلّت الأبصار في أرجائها خاسئة حسرى، وقد اجتمع فيها متضاد الحيوان، ولا أذى ولا ضيْر، وكأنها فيها سليمان، وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والوحش والطير.

ومنه قوله:

حاش لله أن ننسى مِننْ المولى وبردها على كبدِهِ، وأياديه التي تعجز عن سعة شكرها ذات يدِهِ، وقد قرت هذه الخدمة بهدية مثله، وهي مدحةً وكتاب، وقول عسى أن يفك به أزرار ذلك العتاب، هيهات، زال بكرم الله الأعراض، وردّت سهام الأعداء في نحورهم قبل أن تصل إلى الأعراض.

ومنهم:

[٦٧]

الأثير بن بنان(١)

عديم النظير، عديل الكوكب المنير، ولم يكن في وقته مثله، ولا في سمته من

= وفيه أنه مات بعد ٥٥٠هـ وصبح الأعشى ١/ ٩٦ والنجوم الزاهرة (من كتاب المغرب) ص٢٥٢، بغية الوعاة تاريخ الأدب العربي بروكلمان ٥/ ١٥٦ والأعلام ٥/ ٢٤ .

(١) محمد بن محمد بن محمد بن بنان، أبو طاهر، الأنباري، المصري، ولد بمصر سنة ٥٠٧هـ وبها =

الكواكب شكله، ناهيك به من رجل تُروى بماء البشر ظماؤه، لا سحت (.....)[١] ولا تعتصب ماؤه. إلاّ أن سعادة الفاضل أخملته، وأبقت عليه حليّه وعطلته، وقد ذكره الشيخ الحافظ أوحد الفضلاء صلاح الدين أبو الصفاء، خليل الصفدي، وقال[٢]: من أهل مصر، وأصله من الأنبار، قرأ الأدب، وسمع الحديث، وقال ما ملخّصه: أنه قدم بغداد رسولاً مع قافلة الحاج، وأكرم مثواه، بعثه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. وقال: وكتب الكثير بخطّه المليح، وتولى ديوان النظر في الدولة المصرية، وتقلّب في الخدم في الأيام الصلاحية بتنيس والإسكندرية، وكان القاضي الفاضل ممن يغشى بابه ويمدحه، ويفتخر بالوصول إليه، وقال: وكان الصالح بن رزيك[٣] قد ألزم الأثير بمال رفع عليه لكونه كان يتولى أموالاً له، واعتقله فأرسل إليه يمتُّ بقديم الخدمة والتشيع الموافق في المذهب، فقال الصالح[٤]:

أتى أين بنانٍ ببهتانه يُحصّن /١٩٢/ بالدين ما في يديه
برئتُ من الرّفض إلاّ له وتبتُ من النصب إلاّ عليه

قلت: وقد بدر ابن رزّيك. وأتاك يا ابن بنان بما يخزيك.

ثم نعود إلى تتمة ذكر ابن بنان، فأقول: إنه كان يمتّ إلى البيت العمري حيثُ كانوا نزلاء تلك الدولة بمجيئه. يبرئه من الرفض وبعضه قولي في هذا: طلبه للحديث على إخمال أهل تلك البدع لأهله، ولعله تقرّب إلى ابن رزيك بقول لسان لا معتقد، وكان صديق المجلّي جدّ أبي، وبينهما انتساب أدبي، ومما كتبه إليه قوله:

كتبت كتب الله على نفسه الرحمة، وفي سابق علمه النعمة، للمجلس العالي، الأمير الأجلّ. الأسفهسلار عز الدين، وكبت أعداءه، وودّ أوداءه، وأمطر أنداءه، وأدام برسله السحاب اقتداءه، عزّ الدين وكبت أعداءه، ويحلل صفات نزيله البحر

= نشأ وتعلم، وتولى ديوان النظر، واعتقله ابن رزيك ثم أطلقه، وكان أديباً وكاتباً ومترسلاً له شعر. وصنف كتباً منها: «تفسير القرآن المجيد» و«المنظوم والمنثور» توفي سنة ٥٩٦هـ.
انظر: فوات الوفيات ٢/ ١٥٥ والوافي بالوفيات ١/ ٢٨١، والمختصر المحتاج إليه ١٢٢ والنجوم الزاهرة لابن سعيد ص٢٥٩ والأعلام ٧/ ٢٦.

(١) كلمة غير مفهومة.
(٢) الوافي بالوفيات ١/ ٢٨١.
(٣) الصالح بن زريك، طلائع بن رزّيك، الملك الصالح أصله من العراق، وقدم مصر وتقدم في الخدم حتى تولى الوزارة للفائز الفاطمي سنة ٥٤٩هـ. وللعاضد بعده، وفي أيامه اغتيل سنة ٥٥٦هـ، وكان فارساً شجاعاً أديباً شاعراً ولشعراء عصره مدائح ومراث فيه، وأخباره كثيرة في كتب التاريخ والأدب، وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٦ ومرآة الزمان ٨/ ٥٣٧.
(٤) البيتان في الوافي ١/ ٢٨٢.

ارتداءه، ولا زال فناؤه بالوفود مهر الرحاب، وسمعه مملوء الإصغاء بالمحابّ، وقد مضت عنده ليال ما أنار فيها من كتبه هلال ولا قمر، ولا ورد من خاطره سائل جدول ولا نهر، وكنت شهد الله أظن أنه لا يخلى المملوك رجع نفس من مروره على ذكر خاطره ولسان قلمه، وعيان ناظره لموالاة المولى أولى بها وأحق برعاية قديم أنسابها، وقويم أحسابها، وشكر ما برح عليه ولا يبرح، واعتقاد لو قطع به ما قطع، لا يميل به ولا يجنح. والمملوك لا يسعه أن يقول إلا أن المولى معذور، ولينذروا على سيدنا ضمان الوفاء بالنذور.

ومنهم:

[٦٨]

ابن ظافر العسقلاني(١)

أصله من عسقلان، وإنما بمصر مرباه، ومنشاؤه، وبها كان كلفه ورشاؤه، ألّف كتاب «بدائع البدائه» وأتى فيه بمتشابه وغير متشابه، وحلاّه بما اتفق عليه توارد الخواطر، أو قارب هذا مما يعدّ في بوادر النوادر، ورصع ذهب كلامه بفرائد الجواهر، وفوائد في ليل المداد كالنجوم الزواهر، تبع في مواضع منه طريق قلائد العقيان، إلا أنّه ما لزمها في كلّ كتابه، ولا رقمها وقد أورد ابن سعيد قطعة من كلامه في بدائع البدائه، وقال: هي لابن أبي المنصور الدمياطي، وزير الملك الأشرف(٢)، وما علمت، هل التبس عليه، لا بل هو أعرف.

ومن نثره /١٩٣/ قوله:

في وقتٍ مطرٍ أجرى كلَّ وهدةٍ نهرا، وحلّى جيد كل غصنِ الزهر جوهرا، وبين

---

(١) علي بن ظافر بن حسين الأزدي، الخزرجي، أبو الحسن، جمال الدين، وزير مصري، من الأدباء الشعراء المؤرخين. ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧هـ وولي الوزارة للملك الأشرف مدة ثم وكالة بيت المال، ثم اعتزل وألّف كتباً منها «بدائع البدائه» نشره محمد أبو الفضل إبراهيم و«الدول المنقطعة» أربعة أجزاء و«ذيل المناقب النورية» و«أساس السياسة» و«أخبار ملوك الدولة السلجوقية» و«أخبار الشجعان» وكان إلى ذلك شاعراً رقيق الشعر. توفي بالقاهرة سنة ٦١٣هـ أو ٦٢٣هـ.
انظر: فوات الوفيات ٢/ ٥١، ومعجم الأدباء ١٣/ ٢٦٤. والوافي بالوفيات ٢١/ ١٥٨ والأعلام ٤/ ٢٩٦.

(٢) الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وبالقاهرة سنة ٥٧٨هـ وملك الرها وحران والموصل ودمشق وغيرها، توفي سنة ٦٣٥هـ (شفاء القلوب ص٢٩٠ ووفيات الأعيان ٥/ ٣٣٠ ومرآة الزمان ٨/ ٧١١).

يديه جارية تسقيه، وهي تقابل بدر وجهها بنجم الكأس في راحةٍ كالثريا، تخجل الزهر بطيب العرف والريا، فاتفق أن لعب البرق بحسامه، وأجال سوطه المذهب بسوق ركاب ركامه، فارتاعت لخطفته، وذعرت من خيفته. فقال المعتمد بديها (.....)[١] أطربه معناهما وهزَّه. وحركه استحسانها واستفزّه.

ومنه قوله:

جلسنا ليلة على مقياس الجزيرة، عند مبالغة النيل في احتراقه، وانفراجه عما لم يزل مستوراً من أرضه وانفراقه، والمراكب قد انتظمت وركدت بالإرساء فوق لجّته، وأحاطت به إحاطة المحيط بنقطته. وسقها الريح تعبث بها حتى كادت تذهب بوقارها، وأجسادها قد لبست لفقد الماء حداد قارها، وهي في أوكارها من المراسي مزمومة، وأجنحة قلوعها لعارض الليل مضمومة.

ومنه قوله:

ذكر ابن رشيق في كتاب «الأنموذج» ما هذا معناه: خرج أبو العباس بن حديدة في جماعة من رفقائه طلباً للتنزه، فحلّوا بروضةٍ قد سفرت عن وجنات الشقيق، وبين زبرجد النبات نجوم من عقيق، والجو قد أفرط في تعبيسه، ونثر لغيظه جميع ما كان من لؤلؤ القطر في كيسه.

ومنه قوله:

قالا جلسنا في بعض الأيام لاجتناء زهر المحادثة، واقتناء درر المنافثة، فسمعنا صوت شبابة تذكر الشايب الهرم زمان الشبيبة، وتحرك من الخرف الهم غزله وتشبيبه، وصوتها أشجى من أنين المشتاق لفرط الأشواق، وأرق من نوح العشاق عن عزم الفريق على الفراق.

ومنه قوله:

في يوم جلا ذهب برقه، وأذاب ورق ودقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزت وربت عند برق الماء.

ومنه قوله:

في يوم جلا ذهب برقه، وأذاب ورق ودقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزّت وربت عند برق الماء.

---

(١) كلمة غير مفهومة.

ومنه قوله:

جلسنا على بركة في منظرة الصاحب بالجزيرة، وقد ألقي عليها ورد أحمر ملأ بكثرة نجومه فسحة سمائها، ولعت بحمرة شعاعها صفحة مائها، وأهدى رمده إلى مقلتها الزرقاء، فأفصح سرورنا بدائها.

ومنه /١٩٤/ قوله:

في منزلٍ قد انعطفت قدود أشجاره، وابتسمت ثغور أزهارِه، وذات كافور مائه على عنبر طينه، وامتدّت بكاسات الجلّنار أنامل غصونه، والنسيم قد خفت واعتلّ وسقط رداؤه الخفّاق في الماء فابتلّ، ووهت قواهُ حتى ضعف عن السير، واشتدَّ مرضه حتى ناحت عليه نوائح الطير.

ومنه قوله:

مررت بدولاب يئن أنين الثكالى فقدت أطفالها، والنواعج أظلت أفالها وهو يبكي بكاء الصبّ آلمه هواه، وصارمهُ من يهواه، وفرّق البين بينه وبين محبوبه فراقاً لا يُرجى انقطاعه، ولا يمكن استرداد ما يُسلمه منه ولا استرجاعهُ، فقلبُهُ قد ملأته أوْجاعهُ، وجفنهُ قد ضاق مجراه عن دمعه، ففتحت به أضلاعهُ، وبصرنا بساقية تتلوّى تلوّي الافعوان، وتخفق خفقان قلب الجبان، والزهر قد نظم عقوداً فوق أثوابها الممسّكة، والنسيم يكسوها ويسلبها غلائل معركة.

ومنه قوله:

في ليلة وفود عمّ السرور فيها الأرض بسحابةٍ، وعمرّها بفائض انسكابه، فانبثت نواحيها جلّنار النار في غصون كل جدار، وكشف بها النور سجف الظلماء، ونقل طرف الليل إلى ألسنة الشقراء من ألسنة الدهماء. وأرزت الأرض بشهب النيران على جوّ السماء.

ومنه قوله يصف غلاماً ذا خيلان:

وذوائب كأن الشمس من أزرارِه أشرقت، وكأن النار في وجناته أنارت وما أحرقت، ذو خيلان، قد ثبت دهم خيلها في محيّاه، وتفرقت لاقتناص فرسان القلوب التي كسرها هواه، وقد حققت وصف وجناتِه بالشقيق، ولففت فصوص السبح في العقيق، وهو مائل العطف، ذابل الطرف، قد عانق أفعوان شعره غصن قدّهِ، وطابق به مبيضّ وجهه ومسودّه.

ولما عرّس ابرايباز المصري ببنت يازكوج مقدم الأسدية تردّ من ضروب آلات الحروب ما يفوق الوصف، ويروق الطرف، وظهرت من المدد بدور في سماء الغيار،

وغصون من زغفهم بين غدران / ١٩٥/ ومن سيوفهم بين أنهار، يسبون النواظر بالقدود النواضر، فخرجنا لننظر تلك الأجساد، وتأمّل تلك الظباء الظاهرة بزيّ الآساد.

ومنه قوله:

في روضٍ قد تناسبتْ قدودُه، واخضرّت برودُهُ، وخجل وردُهُ من عيون نرجسهِ، فاحمرّت خدودُهُ، والروض يهدي إلى الآناف عطر عرفهِ، والنسيم يركض في ميادين الأزهار بطرفه.

ومنه قوله:

فلما غابت الشمس وفاتت، ودفنت في المغرب حين ماتت، وتطرّز حداد الظلام بعلم هلاله، وتجلّى زنجيّ الليل بخلخاله، اقترح الجماعة على فلان وفلان أن يعملا في صفحة الحال، فأطرق كلٌّ منهما مفكراً، وميّزَ ما قدّمه إليه بحر خاطره من جواهر المعاني متجراً.

ومنه قوله:

فحللنا روضاً تثنّت قامات أشجاره، وتغنّت قيان أطياره، وبين أيدينا بركة ماء، كجوّ سماء، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا، زان سماءها بزواهرٍ منيرة، وأهدى إلى لجّتها جواهر نثيرة.

ومنه قوله:

في ليلة فطرٍ ظهر بها الهلال للعيون، وبرز صفحة نحر الليل كالنون، والشمس فوق بحر الليل غاربه، وإلى مستقرّها جارية ذاهبة، قد شمّرت للمغيب الذيل، واصفرَّت خوفاً من هجمة الليل، والهلال في حمرة الشفق، كحاجب الشايب أو زورق الورق.

ومنه قوله:

وبالمجلسِ ساقٍ وسيم، كأنه خشفُ ريم، قد مسك عذاره ورد خدّيه، وعجزت الراح أن تفعل في الندامى فعل عينيه.

ومنه قوله:

سيف قد نظم الفرند في صفحته جوهره، وأذكى الدهر ناره، وخمد جوهره وألبسه من سلخ الأفاعي رداءً لا يمنع من برقه بدر مجنّ، ولا ثريّا مغفر، ولا يسلم لحدّه من يثبت، ولا ينجو لطوله من فرّ.

ومنه قوله:

مرّت بهم امرأة كالشمس تحت سحاب النقاب، والغصن في أوراق الشباب،

فحدّقوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب، والمريض إلى الطبيب، فجعلت تتلفّت تلفّت الظبي المذعور لفرقة القابض فهرب، وتثنّى تثنّي الغصن الممطور /١٩٦/ عانقه النسيم فاضطرب.

ومنه قوله:

بركة رقّ ماؤها، وصحّت سماؤها، وقد رُصف تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحضّار، فكأنما رفعت صفائح من فضة على أكرٍ من النّضار.

ومنه قوله:

في منزلٍ ابيضَّت حيطانه، وطاب استبطانُه، والبدر قد محا خضاب الظلماء، وحلّا محيّاه في زرْقةِ قناع السماء، وقد كسا الجدران نباتاً من فضة، ونثر كافوراً على مسك الثرى بعد أن سحقهُ وأرضّه، والنسيم قد استولى على الأغصان فميَّلها، وغصبها مباسم زهرها فقبّلها، وعندنا مغنّ إن بدا فذكاء طالعة، أو شدا فالورقاء ساجعة، تغازلهُ مقلةُ سراج، قد قصر على وجهه بحديقة، وقابله فقلنا البدر قابل عُيّوقه. فكتبتُ إلى الأعزّ بن المؤيّد في وصف تلك الليلة التي ارتفعت على أيام الأعياد، ارتفاع الأرواح على الأجساد:

غـبـت عـنّـي يـا ابـن الـمـؤيّـد	في وقتِ شهيّ يلقى المحبُّ المشوقا
بـتُّ فـيـهـا مـنـادمـاً لـصـديـقٍ	ظـلَّ بـيـن الأنـام خِـلاًّ صـدوقـا
إن تـغـنَّـى سـمـعـت داود أو	لاح تـأمَّـلـتُ يـوسـفَ الـصـدِّيـقـا
وإذا قـابـل الـصـبـاح رأيـنـا	مـنـه بـدراً يـقـابـل الـعـيّـوقـا
مـا بـدا نـرجـسُ الـكـواكـب إلاّ	قـام مـن خـدِّهِ يـريـنـا شـقـيـقـا
فـجـعـلـنـا ريـحـانـنـا طـيـب ذكـراك	فـخِـلـنـاهُ عَـنْـبـراً مـفـتـوقـا

وهذه الأبيات له، وهي كما تراها رقةً كأنها من أهواء القلوب مشتقة، شائقة مشوقة، منظورة بالإحسان مرموقة، أشهى من المنى وأبهى من القمر في السنا، وأدخل على القلوب من الرضى، وأخطف للأبصار من البرق على ذات الاضا، كأنها من النفوس مخلوقة، أو بالعبير كما قال قائلها مفتوقة.

ومن نثره قوله:

مررنا في بعض العشايا على بعض البساتين من المجاورة لبحر النيل، فرأينا بئراً عليها دولابان متحاذيان، قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ولعبت بقلوب /١٩٧/ ناظريهما لعب الأماني بالمفاليس، وهما يئنان أنين أهل الأشواق، ويفيضان دمعاً أغزر من دموع العشاق، والروض قد جلا للأعين وزبرجده، والأصيل قد راقه حسنهُ فنثر

عليه عسجده، والزهر قد نظم جواهره في أجياد الغصون، والسوافي قد أذالت من سلاسل قصتها كلّ مصون، والنبتُ قد اخضرَّ شاربُه وعارضه، وطرف النسيم قد ركضهُ في ميادين الزهر راكضه، ورضاب الماء قد علا من الطلّ لما، وجنات المحارى حائرة (.....)[1] ومن زمرد النبات أن يدركها العمى، والبحر قد صقل صيقل النسيم درعه، وزعفران العشيّ قد ألفى في ذيل الجو درعه، فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذاً، وملأ أبصارنا حسناً وقلوبنا التذاذا، وملنا إلى الدولابين شاكين ازمراً حتى شجت قيان الطير بألحانها وشدت على عيدانها، أم ذكرا أيام نعما وطابا، وكأن أغصاناً رطاباً، فنفينا عنهما لذيذ الهجوع، ورجّعنا النوح وأفاضا الدموع طلباً للرجوع.

ومنهم:

[٦٩]
النجم القوصي

وزير صاحب حماة، طلع في سماء ملكهِ نجماً كمشكاة، وليس بالسابق ولا بالمقصّر، على أنه بالفائق كالمبصر، لأنه مثير معان لا يقدر عليها لفظه، ولا يقدر على مناسبتها حفظه.

وقال ابن سعيد:

وقفت له على رسائل لها في التفضيل أعظم وسائل، ومن فصوله القصار اللفظ، الطوال في الاستحسان قوله:

ولما نزلنا ساحة الرياض نثرت علينا أغصانها درر الأزاهر عن فرى (....)[2] ومدّت لنا مقاطعاتها سبائك فضّة تنشر كف النسيم فيها جوهراً، والأطيار تتخاصم في إكرامنا بكل فنٍ، ويهزّ من كل قدّ سيفاً نتذكر به سيف بن ذي يزن، والأكؤس تدور كأنها شموس وبدور، والخدود على غروبها شاهده، إن أمست الألسنة بها جامدة.

ومنهم:

[٧٠]
محيي الدين، أبو الفضل، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان السعدي[3]

آخر سابق، أخذ بكل باسق، سلك الطريقة الفاضلية، /١٩٨/ وعهدها بالسالك

---

(١) كلمة غير مفهومة. (٢) كذا في الأصل.

(٣) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة، الجذامي، السعدي، محيي الدين، أبو الفضل، مصري، من القضاة، الأدباء، الكتاب المترسلين، والشعراء ولد بمصر سنة =

منذ زمان، والماسك عليها لا يظفر بأخذ جمان، فأحيا مواتها، وحيّا في لحود الدفاتر أمواتها، فأعاد فواتها، وأعاد من الضلال غواتها، بكلام هو السحر، إلاّ أنه غير المحرّم، والبحر إلاّ أن عنبره أعزُّ وجودا من الحجر المكرم، كان مطبوع الكلام، حلو اللمام، كالأحلام، لا يتكلّف له الأسماع، ولا يتخلّف عن تفضيله الإجماع، أسْرع إلى غراس الطباع من قبول المرآة للانطباع، وأوصل إلى القلوب من رضى المحبوب، وأذكى في الهبوب من العود المشبوب، أحلى من العسل المسور طعماً، وأحلى من حديث النسيم المشهور عن نُعمى، كتب عن ملوك مصر ومن حلّ فيها من خلفاء بني العباس بما أنشأ عهودا، وما أنسى عهودا، وله عن المستنصر والحاكم ما هو ألذّ من الإغفاء في جفنِ الحالم، وأسير في الأرض [من] قلب الهائم، والطير الحائم، كتب عن الأئمة من قريش، فكفّ ملمّة كل جيش، برز به عهد الخلافة نبوياً، كما كان لا يقال لا عهد بمثله من فصاحة المقال، فكان كاتب الديوان العزيز، والمنصوب لرفع قدره على رفقته بالتمييز، مع اطراح نفس، ولباس ظرفي لا يدنس ثوبه بلبس، هذا إلى ما له من لطائف توليد وطائف تخيّل ما جاءت القرائح بعده بوليد، مع رسم خط، كأنّه من سوالف الغيد مختط، صدف أن يكون له الدر كالصدف، وتسامى، أن يكون له الزهر أكماماً. ولقد صدق من قال إنه من حب القلوب والحدق، وما كذّب فما وشى من قال إنه من كحل مقلةِ الرشا، وما أعرف إلا أن لكلامه بالقلب لوْطة، كالأنشوطة، لا يلحق بدخلها حتى يغلق عليه مدخلها، ولا تخيّلها إلا وتعلق به حبلها، وما حالي وإياه إلا كما قال الأول، وكأنما عناه، وما أصيب بسحرهِ، ولا شمّ ريّاه.

فإن كان سحراً فاعذريني على الهوى وإن كـان داء غـيـره فـلـك الـعـذرُ

خلا إن نظمه كان إذا طوّل انحط، وتحوّل حتى يقع على غير محطّ، وما ذاك إلاّ أنه كان لكثرة ما يتلطّف يتهلهل نسجُ قصائدهِ، وينبتُ سلك فرائدهِ، والحور إذا زاد في العيون صار معيباً، وأهنأ الوصل ما كان لماماً أو راقب رقيباً.

= ٦٢٠هـ، وتولى كتابة الإنشاء، وألف كتباً منها «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، نقل عنه المقريزي في الخطط، ولا تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، نشره مراد كامل بمصر سنة ١٩٦٠، ولد شعر جمع في «ديوان مخطوط» في الأزهرية. توفي بمصر سنة ٦٩٢هـ. انظر: عيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٩هـ) ص١٤٠ وأورد له مقطوعات في الغزل، وعبر الذهبي ٢/ ٣٧٦ وفوات الوفيات ١/ ٤٥٠ وأورد له مختارات جيدة من شعره وبغية الوعاة ٢٨٥، حسن المحاضرة ١/ ٥٧٠، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٣٤ وفيه: محيي الدين بن عبد الله وفي ج١٠ و١١ من صبح الأعشى كثير من ترسله.

/ ١٩٩/ ومن نثره قوله:

يعلم الأمير أنَّ المنكرات التي أبطلنا فواحِشها، وكففنا نواهِشها، وأمرنا أن تملأُ الصحائف بأجرها، وتفرغ الصحاف. وأن لا يخلق بيت من بيوتها من كسرٍ أو زحاف، قبلنا الحوالة فيها على الكرم المجازي، واعتقدنا أن بتبطيلها تنحسم مواد المخازي، وقد بلغنا أنها اختصرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نُصِرتْ، وأن أم الخبائث ما عقمت والجماعة التي كانت ترتضع ثدي الكأس قد أربعت بعدما فُطِمت، وأنها في النشأة ما خيّب إبليس مسعاها، وأنها لما أُخرج المنع ماءها من الخمر أخرجَ لها من الحشيش مرعاها، وابتيعت عما تشتريه منها بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار، واستراحت من الخمار، وأسْلاها عن مخامرةِ الخمر ومعاقرة العقار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، حتى عُرِف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكاس، وصاروا كأنّهم خشبٌ مسنَّدة سكرا، وإذا مشوا يقدّمون من فساد أذهانهم رجلاً ويؤخرون أخرى، ونحنُ نأمر أن تجتثَّ من أُصولها، وتُقتلع، ويؤدّب غارسها حتى يحصد الندامة، لما منها زرع، ويُزال ما بطن منها وما ظهر. ويُزجرُ من لها اشتهى ومن بها اشتهر، وأن تُخلى من مغروسها ومعمولها البساتين والديار، وتُعفى آثارها حتى تصبح وهي الشجرةُ التي اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار. وليُرْدعْ من لها تعاطى، وعلى إخفائها تواطى، وتُطهَّر منها المساجد والجوامع، ويُشهر مستعملها في المحافل والمجامع. حتى لا يشتهى بعدها خضراء ولا خضراء للدمن، ولا يُنفى بها ما يُنْفى بأختها من الهم والحزن.

ومن قوله:

وسيّر من الخيول الرهاوين كلما هو على الحسن مشتمل، ومع سرعته يمشي الهوينا كمشي الشاربِ الثمل، من كلّ أشقر كأنّه النجم السريع السير لا البطيء. وكل أحمر كأنه الشفق وغرّته ما يتخلَّل الشفق من النور المضيء. وكلّ أشهب كالنهار، وما في هذا من سواد ما بذاك من أواخر الليل وأوائل العشيّ، وكل أصفر حبشي، يحسن أن يكون لركاب المقل خادما، وكيف لا وهو الخصيّ الحبشي، وسيّر من البغال / ٢٠٠/ كل فارهة الوثبة، كارهة أن لا تكون دون رتبة الجياد في حلبة، قاست بذراعها شقة أرضٍ فعلمت طولها من عرضها، وكم لحقت بمشيتها ما يلحقه الجياد بركضها، كم حسب راكبها من وطي ظهرها أنه منه على فرس مرفوعة، وكم بويع لها بالخلافة عن الجرد المطهّمة، على أنه مخلوعة، يشهد بتمام حسنها العقل، ويصدّقه على ذلك منه صحّة النقل، ما ضرتها هجنة أمها مع أصالة أبيها، وأمها

هجينة، ولا شانها ذلك، والله ساوى بينهما بقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾(١) تسبق الطرف والطرف وعمّها خالها وما هي حرف.

ومن الجواشن، حسنة التسامي والتسامت، لا يرى في خلق سماتها من تفاوت، قد رُفع بعضها فوق بعض درجات، وبنيت أسواراً لحفظ المُهجات، قد زُيّنت سماؤها بزينة الكواكب، وفاق غمامها المتراكم، وراق موجُهاً المتراكب، كما أحسنت دفاع البؤس عن النفوس عدة دفوع، وكم حنت حين حنّت أضالِعُها على الضلوع، كم دخلت جنت جنتها بسلام، وكم بدت كأنها طلع نضيدٌ ولا عجب فإنها ذات الأكمام. إلى غير ذلك من لباس سلم يختلف ولأمات حرب ما يأتلف بألفات القنا، ولا يكون منها من اجتماع اللام والألف، ومن سنافر وبزاة كم أحسنت الطلب وأحلّت المكتسب، وحصلت المسلوب من الطير والسلب، وأجملت في الهواء المنقلب، كلّها أصغر عين ولكنّه خير من العين الأصفر من الذهب، كأنما إهابُها ببياض العيون وسوادها نقش، أو كأنها مهرق أبيض وقش من كاتب مرتعش، تتزين السماء بسماتها في مطارها، وكم حكى العنّاب والخشف البالي قلوب الطير رطبا ويابساً لدى أوكارها(٢)، وقد حسُنت لباساً وريشاً في العيون وبدت وأجنحتها أحسن من هدب الجفون، كم بها جوّ قد اقفر، وجؤجؤ قد صفر وأصْفر (.....)(٣) من الطير عاقد عليه بكفّه كل أصفر عين، وناهيك لمعاقده ذي العين الأصفر، كم ادن طائر حربها وكم أوده عنت عن أمورها، فاتخذتها هزواً وذلك قلبها.

/ ٢٠١/ ومنه قوله:

وكم أصيد من الملوك جعل الصيد بالبنادق له نزهة، وكم قلب في السماء لذلك وجههُ، وكم برز برزةً ودّت النجوم لو أنها ببنادقها المرسلة، وتمنّت الجوزاء لو أنها من جملة أطيارها المحصّلة، وودّ نهرُ المجرّة لو أنه من بعض الإملاق، وتحسّرت قوس قُزح لكونها ما رُميت عنها بشبيهتها من ذوي الأطواق، لا سيما من حمي البلاد والأقطار، وكفى الأمة الإسلامية عادية التتار، وأخذ كل منتسب إلى بلادهم حتى الطائر في السماء إذا طار.

ومنه قوله لمن عاد من غزو النوبة(٤):

---

(١) سورة النحل: ٨.

(٢) من قول امرىء القيس (ديوانه: ١٤٦):

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

(٣) كلمتان غير مفهومتين.

(٤) الخبر في تاريخ الخلفاء ص٤٨١ وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٤٠، وفيهما أنها من أحداث سنة ٦٧٤هـ.

وينهى عنه أن أعين الدويّ بإثمد المداد قد اكتحلتْ، ووجوه الصحف قد برقت أساريرها من آثار المساطر وتهلّلت، وألسنةُ الأقلام قد تهيّأت لما تستنطق به وتبتلت، وكلها تنتظر ما يمليه مولانا على الملوك يطرز به حلل السيرة الشريفة، ويرقّمها، وينضّده في جيدها من عقود نصرها التي تنظّمها، وسيملأ بها الهوامش والسطور، ويزيدها تبياناً فتكون نوراً على نور، وحينئذ يكون المراد من جملة أعوان مولانا وأمداده ومن بعض نجده على العدوّ الذي أشبهه بسواده ويغدو أبيض الورق على نقيضه في السخومة، مستطيلاً كبعض أجنادهِ، والله تعالى لا يعدم الإسلام صنعه الجميل ولا غزواته التي هي تارة في أول الفرات وآخر النيل.

ومنه قولهُ، من كتاب وصف فيه دخول سيس[١]:

حتى انتهت إلى أوائل بلاد سيس، وهي البلاد التي جُعلت أسوارها من الجبال الراسية، وخنادقها من الأودية الهاوية، تكاد الطيور المهوّمة تعثر بأوعارِها، والرياح اللواقح تعتقل ذيولها بأحجارها، فما ارتاح المسلمون من قللها الراسخة، ولا لواقح سموم أوعارها النافخة، ولا أصدامها وتهافيها الصارخة، ولا تضايق دربنداتها الملاطخة، وطاروا بأجنحة النصر إلى أوكار تلك الهضاب، وأهووا إلى بلاد الطاغية الكفور، وإليه هويّ الأجادل، وهبّوا إليه هبوب الرياح، وانصبّوا انصباب السيول من الجنادل، فما تركوا /٢٠٢/ سائحةً إلا ساموها مرخصين ومرخصين، ولا ماشية إلا مشوا إليها متربصين لا متلصصين وأخذوا في تسوية وجوه تلك البقاع، وتغيّر معالم تلك الأوضاع، فما ضلّت منزلة بهم من نازلة، ولا ضيعة من ضياع، ولما كان يوم الفلاني، عبّأ التكفور خذله الله جنده، واستنفذ من الاستكثار ما عنده ومن عنده، وأتى في جموع كان في جملتهم اثنا عشر ملكاً، ومن الرجالة ما لايحصى لهم عدد، ولا يحوط بكثرتهم أمد. فتنازعت إليهم الأبطال، وتسابقت إليهم الرجال، فاندفع اللعين منهزماً حقيراً، وانقلب مذموماً مدحوراً، وأخذ صاحب سيس خذله الله أسيراً، وقتل أخوه وجماعة من ملوك بيته بسيف الهوان، وأثر فيهم قران النصر الذي صاحبه بحمد الله ملك الزمان، وامتلأت الأرض بأشلاء أجسادهم الخبيثة، وأهلكت عساكرهم بهذه الحركات الحثيثة، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها، وأرواحهم محمولة من أجسادهم على نعوشها، وأولادهم في قبضة الاسترقاق أسارى، وحريمهم في يد الاستحياء حيارى، وأموالهم

---

(١) كان الظاهر قد دخل سيس سنة ٦٧٣هـ وغنم من الماشية الشيء الكثير. انظر: البداية والنهاية ١٣/٢٦٨ وتاريخ ابن سباط ١/ ٤١٤.

تقتسمها الأيدي الزاهية، وتغتنمها العزائم العالية، وأخذ الله حقوق المملكة الحلبية ممن أساءَ لها الجوار، ودلّ على عوراتها التتار، وفرّ فلن ينفعه الفرار.

ومنه قوله:

وكانت المملكة الحمصية عروس الممالك التي تتحامى منعها الأيام، ودرّةً في عقد الممالك الإسلامية، وغرّةً في وجه الشام، وحصناً كم فاضت نعماه، وكم حمى ساكنوه بساكن أرضه رضي الله عنه حتى وساكنو حماة.

ومنه قوله من تقليد نائب:

وكانت دمشق عين الممالك اليمين، وجهة البلاد الواضحة الجبين. وقد شرّفها الله بأن جعلها ذات قرار ومعين، وقد أصْبَحَتْ شامةً في وجه الشام، وأخضرت مراتع مرابعها فبدتْ كما يبدو العارض في سالف الأيام، وعدت في هذا الوقت منهض الجهاد، ومربض الآساد ومركض الجياد، ومطلع شمس الظفر ومهرع الفتح المبتدأ، ومكرع النجم المبتدر، وقد أمست باسمه باسمة الثغور / ٢٠٣/ ولحكمه واضحة السفور، وببيانه ما من أحدٍ يسأل عنها وعنه إلا تلا: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[١].

ومنه قوله في فتح شقيف أرنون:

وحين وصلناه، وتراءى لنا وجهه سافراً، وملأ لناظرهِ من مرآة ناضراً. رأينا منه حصناً يُعدّ في إعداد النجوم، ويجرّ ذيل ارتفاعه في هام الغيوم، فهو يسكن من السماء في مناكبها، وينصرف بتصرفاته قلوب كواكبها، فيتدرّع ويطعن في السماك الرامح، وينظر بعين الطرف ويبطش بيد الذابح، ولا يزال يشير من دم معاديه بالكف الخضيب، ويرشق مراميه من قوس الرامي بسهمٍ مصيب، إلا أنه كان يمتنع من صفد بجارٍ يُجير على الأيام، وصاحبٍ يعتصم بحبله عند تواريه أيَّ اعتصام، فكان العدوّ المخذول يصول منهما بيمين وشمال، ويبث منهما على مركبين يدينان له من مكائده كل بعيد المنال. فلما قطعت عن معاضدهِ بأخذ صفد تلك اليمين، وفارقه قرينهُ، وأشدُّ الآلام مفارقة القرين، ظهر عليه من وحشة الوحدة من صدع شمله كلّ الانصداع، وبقي شمالاً لا يمين، وإنما تبطش اليدان بالاجتماع، وأقام بعدها بتماسك العليل على ما به من الداء، ويقوم على ضلعه قيام الضعيف على الرجل العرجاء، إلا أن فيه من عدو الله يشدُّ من متنه ويعزّه باعتصامه ومنعته، فأثبت في مستنقع الموت قدمه، مجاذباً، ولبس جلد النمر مراشقاً ومطاعناً

---

(١) سورة سبأ: ١٥.

ومضارباً، وأعطى حصنه عهداً لا يزول إلاّ بزواله، ولا ينزل إلا مع أحجاره وإن طالت مدّة نزاله، فلما رأينا أن معضل دائهم لا يُحسم إلاّ بالكيّ، وأن مريد شيطانهم لا يردّه الإرشاد عن الغيّ، وكلنا بها من المجانيق ما ينقض العهود، ويفسخ العقود، ويقطع بأسباب اتصاله بين كل ودودٍ وموْدود، فزاحمت بمناكبها مرتفع مناكبه. ودبّت إليه عقارب من جميع جوانبه، وساورته من حبالها بأفاعٍ لا تقبل الرّقا، ولا يُطمع من نفثها في البقا، وحتى لاقت حصناً وإن تمنّع مرتفعاً غادرته لُقا، فلم يزل به حتى تركت سليم بنانه فلسعها عن السليم ـ وقضت عليه أن يدخل لتسليمه كرهاً بغير تسليم.

/ ٢٠٤/ ومنه قوله[١] من تقليد الأشرف[٢] بن المنصور قلاوون:

الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة، فيما أمر، والشكر والرضا[٣] فيما هدم من الأعمار وما عمّر، والتفويض في التعويض إذ غابت الشمس وبقي القمر، نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، نابت الأغصان[٤]، كل روضةٍ[٥] من رياضهِ ذات أفنان، لا تزعزعه ريحٌ عقيم، ولا يخرجه رزء عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يُعتبط من رحمةٍ كريم، إلاّ ويغتبط من أسرته بكريم، ونشهد أن لا إله إلا الله. وحده لا شريك له، شهادة تزيد قائلها تفويضاً، وتجزل له تعويضاً، وتحسّ له على الصبر في كل خطب[٦] تحريضاً. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أنزل في التسلية به[٧]: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»[٨] والنبي الذي أوضح الله به[٩] المناهج وبيّن[١٠] السبل، صلّى الله عليه وعلى آله[١١] ما تجاوبت المحابر والمنابر، وتناوبت البكر[١٢] والأصل، وما بدت[١٣] عقود ونظمت، ونُسخت آياتٌ وأحكمت، ونُقضت

---

(١) صبح الأعشى ١/١٦٦.
(٢) خليل بن قلاوون الصالحي، الملك الأشرف صلاح الدين بن السلطان الملك المنصور، ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩هـ، فقصد بلاد الشام واستعاد من الإفرنج عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع الساحل، قتله بمصر بعض المماليك سنة ٦٩٣هـ. انظر: فوات الوفيات ١/ ١٥١ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣ والاعلام ٢/ ٣٢١.
(٣) في صبح الأعشى: الرضا والشكر.
(٤) نابت الأغصان: ليست في صبح الأعشى.
(٥) روضة: مكررة في الأصل.
(٦) صبح الأعشى: صبر جميل في كل خطبٍ جليل.
(٧) في صبح الأعشى: التسليم.
(٨) آل عمران: ١٤٤.
(٩) صبح الأعشى: أوضح به.
(١٠) صبح الأعشى: بين به.
(١١) صبح الأعشى: آله وأصحابه.
(١٢) صبح الأعشى: في البكر والأصل.
(١٣) صبح الأعشى: نثرت.

أمورٌ وأُبرمت، وما عزمت آراءٌ وتوكلت، وتوكلت فعزمت، ورضى الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة، ومنهم من لم يدرك أحد في تسويد النفس الحصيفة، ولا في تبييض الصحيفة مده ولا نصيفه، ومنهم من يسره الله لتجهيز جيش العسرة، فعرف الله ورسوله معروفة، ومنهم من عمل صالحاً أرضى ربه فأصلح ذريّته الشريفة. وبعد، فإن من ألطاف الله[1] بعباده واكتناف عواطفهِ ببلاده، أن جعلنا كلّما وهى للملك ركن شديد شيّدنا ركناً عوضه، وكلّما اعترضت للمقادير جملة بدّلنا آيةً مكان آية، وتناسينا تجلّدا ـ تلك الجملة المعترضة فلم يُحوج اليوم لأمسه[2] ولو كان حميداً، ولا الفارس غرسه وإن كان ثمره يانعاً وضلُّه مديداً، فأطلعنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحسن الاستحقاق مُعدّاً، ومن التسلي للمسلمين خيراً ثواباً وخيراً مردّاً[3]، ومن يُبشِّر الله به من الأولياء المتقين وينذر به من الأعداء قوماً لدّاً، ومن لم يبق به أنسنا بعد الذين تحسبهم[4] كالسيف فردا، والذي ما أمضى[5] حدُّه ضريبةً إلاّ قدَّ البيض والأبدان قدّا / ٢٠٥/ ولا جهّز كتيبة[6] إلا أغنى غناء[7] الذاهبين، وعدّ للأعداء عدّا، ولا بعثهُ جزعٌ فقال (كم من أخ لي صالح) إلاّ لقيه ورع، فقال: (وخلقتُ يوم خلقتُ جلدا)، وهو الذي بقواعد السلطنة الأدرى[8]، وبقوانينها الأعرف، وعلى الأولياء[9] الأعطف، وبالرعايا الأرأف، والذي[10] ما قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى، إلاّ وقيل: هذا بناءٌ مثله منه أسمى ملك وأشرف، والذي ما برح النصر يتنسم من سهاب تأميله الفلاح[11]. ويتبسّم ثغرهُ فتتوسّم الثغورُ من مبسمةِ النجاح، وينقسم[12] نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلاّ وهو يشرئبّ إلى ملاحظة جبينهِ[13] الوضاح[14]، والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقُّله[15] وتنقله أتمّ جنين، وكأنما

---

(١) صبح الأعشى: الله تعالى.
(٢) صبح الأعشى: وإن.
(٣) صبح الأعشى: ومن قبيل المسلمين خيرٌ ثواباً وخيرٌ مردّا.
(٤) في الأصل: نحبّهم، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٥) في الأصل: أضى، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٦) في صبح الأعشى: جهز راية كتيبة.
(٧) الأصل: غنى، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٨) صبح الأعشى: أدرى.
(٩) صبح الأعشى: الرعايا.
(١٠) صبح الأعشى: وهو الذي.
(١١) في الأصل: تأهيله للفلاح، واخترت ما في صبح الأعشى.
(١٢) صبح الأعشى: ويتسم.
(١٣) صبح الأعشى: جبين عهده.
(١٤) بعده في صبح الأعشى: ويتفتّق اشتقاق النعوت فيقول التسلّي للتملّي: سواء الصالح والصلاح.
(١٥) توقل: صعّد.

كُوشفت الإمامة العباسيَّة بشرف مُسمّاه فيما تقدم من زمنٍ وسلف من حين[١]، فسمت ووسمت باسمه أكابر الملوك، وأخاير السلاطين، فخوطب كل منهم مجازاً إلاّ لهذه الحقيقة (بخليل) أمير المؤمنين، والذي كم جلا بهيّ جبينه من بهيم، وكم غدا للملك بحسنِ روائهِ ويُمنِ آرائه يهيم، وكم أبرأ موردهُ العذبُ هيم عطاشٍ، ولا ينكر للخليل إذا قيل عنه إنه[٢] إبراهيم، ومن تشخص الأبصار لكماله يوم ركوبه حسيرة، وتلقى البنان سلاحها ذهلاً وهي لا تدري لكثرة الإيماء إلى جلالهِ إذا يبدو مسيرة، والذي ألهم الله الأمّة بجوده[٣] ووجودهِ صبراً جميلاً، وآتاهم من نفاسة كرمِهِ وحراسةِ سيفِهِ وقلمه تأميناً وتأميلاً، وعظةً[٤] في العيون والقلوب[٥] بما من برِّهِ سيكون، فسمته الأبوة[٦] ولداً وسمّاه الله خليلاً، ولمّا تحتم من تفويض أمر الملك[٧] ما كان لوقته المعلوم قد تأخّر وتحدّر[٨] حينه فكملت بزيادة[٩] كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور والمراقبة لمصالح الأمور، والمصاقبة لمناجح البلاد والثغور، والمقاربة، من فوائد[١٠] كل أمرٍ ميسور، أن تُفوّض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظَّمة المكرمة المفخّمة المنظمة، وأن يبسُط يده المُنيفة لمصافحتها بالعهود، وتحكيمها[١١] في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور في التَّهائم / ٢٠٦/ والنجود، وأن يُعرق بسيفها[١٢] وقلمها كل قطعٍ ووصل، وكل فرع وأصل، وكل نصر ونصل. وكل ما يحمى سرحاً ويهمي منحاً. وفي المثيرات على الأعداء نقعاً، وفي المغيرات صبحاً، وفي المنع والإطلاق، وفي الإرفاد والإرفاق، وفي الخميس إذا ساق، وفي الخمس إذا استاق[١٣]. وفي السيوف إذا بلغت[١٤] التراق، وقيل من راق، وفي الرماح إذا التفّت الساقُ بالسّاق، وفي المعاهدات والهدن، وفي الفداء بما عرض من عرض وبالبدن بالبدن وفيما ظهر من أمور الملك وما بطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثُه في السر والعلن، وتسترعيه نوافثه من كيت وكتب متفرقين أو في قرن، عهداً مباركة عوذه وتمائمه وفواتحه وخواتمه ومناسمه ومياسمه وشروطه ولوازمه، وعلى

(١) صبح الأعشى: زمن سلف ومن حين.
(٢) صبح الأعشى: عنه إبراهيم.
(٣) صبح الأعشى: لجوده.
(٤) صبح الأعشى: وعظم.
(٥) صبح الأعشى: القلوب والعيون.
(٦) صبح الأعشى: الأبوّة الشريفة.
(٧) صبح الأعشى: الملك إليه.
(٨) صبح الأعشى: وتحيّن.
(٩) صبح الأعشى: فكمل زيادةً.
(١٠) صبح الأعشى: فواتح.
(١١) صبح الأعشى: وتحكّمها.
(١٢) صبح الأعشى: يبسطها.
(١٣) هذه الجملة لم ترد في صبح الأعشى.
(١٤) في الأصل: بَلَغَ.

عاتق الملك الأعزّ نجاده، وفي يد جبّار السماوات قائمه، لا راد لحكمهِ ولا ناقض لبرمه ولا داحض، لما أثبتته الأقلام من مكتون علمه:

ويزيده مرُّ الليالي جدّةً وتقادُمُ الأيام حسن شباب

وتلزم السنون والأحقاب استيداعه حتى للذراري والأعقاب، فلا سلطانٌ ذو قدرٍ وقُدرة ولاذو أمرٍ وإمرة، ولا نائب في مملكه قربت أو بعدت، ولا مقدم جيوش اتهمت أو أنجدت، ولا راع ولا رعيّة، ولاذو حكم في الأمور الشرعيّة، ولا قلم إنشاءٍ، ولا قلم حساب[١]، ولا ذو أنساب ولا ذوو أسباب، إلاّ وكلٌّ داخل في قبول عقد هذا العهد الميمون[٢]، ومتمسك بمحكم[٣] آيات كتابه المكنون، والتسليم لنصّه الذي شهد به الملائكة الكرام الكاتبون، وأمست بيعتهُ بالرِّضوان محفوفة، والأعداء يدعونها تضرعاً وخيفة، وليشكروا أمرها الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملك قد سار سلطان البسيطة يبايع من مولاه العهود خليفة عن ملكه بعد خليفة[٤]. وأما الوصايا، فأنت يا ولدنا الملك الأشرف ـ أعزك الله ـ[٥] بها الدَّرب، ولسماع شدوها وحدودها[٦] الطرب الذي للغو لا يضطرب، فعليك بتقوى الله[٧]، فإنها ملاك سدادك وهلاك أضدادك، وبها يُراش جناح نجاحك، ويحسن اقتداء اقتداحك، فاجعلها دفين جوانح تأملك ووعيك ونصب عيني أمرك ونهيك، والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ومأمون الأمر المستمع. وعليه مدار إيعاء كل إيعاز. وبه يتمسك من يمتار ويمتاز، وهو جنة والباطل نار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه، ولا تنكب عن معلقه ومنوطه، والعدل فهو مثمر غروس الأموال، ومعمر بيوت الرجاء والرجال. [فاجعله جامع أطراف مراسمك] وأفضل أيام مواسمك، وسم به فعلك، وسم به فرضك ونفلك، ولا تفرد به فلاناً دون فلان ولا مكاناً دون مكان، وأقرنه بالفضل، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وأحسن التحويل، وأجمل التنويل، وكثر لمن حولك التأمين والتأميل والتموين والتمويل، وضاعف الخير لكل مضاف لمقامك، ومستضيف بأنعامك، حتى لا يعوم في كل مكان وكل زمان من

---

(١) في الأصل: سحاب.
(٢) صبح الأعشى: قبول هذا العقد الميمون.
(٣) صبح الأعشى: بحكم.
(٤) في صبح الأعشى: وليشكروا الصنيع الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك، وقد صار سلطانهم يقيم من ولاة العهد خليفةً بعد خليفة.
(٥) الأصل: أعزّ.
(٦) في الأصل: حدودها.
(٧) صبح الأعشى: الله عز وجل.

النعماء ضيافة الخليل، والثغور، فهو للمالك مياسمها وللمسالك مناسمها، فاجعل نواجذها تفتر عن أحسن ثنايا الصون، ومراشفها شنبة الشفاه بحسن العون، ومنها بما يحمي السرح منها وأعنها بما يدفع المكاره عنها. فإنها للنصر مقاعد، وبها حفظ البلاد من كل ما رد، وأمراء الجيوش، فهم السور الواقي بين يدي كل سور، وما منهم إلاّ بطل بالنصر مشهور، كما سيفُهُ مشهور، وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، وأخاير الأكابر، الذين خلصوا من الشكوك، وما منهم إلاّ من له حرُمات[١] سلفت، وحقوق عُرفت وموات على استلزامه[٢] الرعاية للعهود وقفت، فكن لجنودهم متحبباً، ولمرابعهم مُخصباً، ولمصالحهم مرتباً، ولآرائهم مُستصوباً، وللاعتضاد بهم[٣] مستصحباً، وفي حمدهم مُطنباً، وفي شكرهم مُسهباً، والأولياء المنصوريون الذين هم كالأولاد، ولهم سوابق أمت من سوابق الأمجاد[٤]، وهم من علمت استكانةً من قربنا، ومكانة من قبلنا[٥]، وهم المساهمون[٦] فيها ناب وما برحوا للدولة الظفر والناب، فأسهم لكلٍّ منهم من احترامك نصيباً، واجعل صدرك لهم رحيباً[٧]، وأدم لهم ارتياحك، وألن جناحك، وقوِّ بهم سلاحك[٨] / ٢٠٨/ تجد منهم ضروباً، لا ينفكّ كل منهم في الأعداء[٩] ضروباً. وكما نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآت[١٠] في البحر كالأعلام، فهو جيش الأمواج[١١]، المضاف إلى الأفواج من جيش الفجاج، وهو أخو الجيش السليماني في أسرع السير[١٢]، وما سمِّيت مراكبه غربانا إلاّ ليجتمع بها لنا ما جُمع[١٣] لسليمان ﷺ من تسخير الريح والطير، وهي في الديار المصرية[١٤] في ثبج البحر الأسوار، فإن قذفت قذفت الرعب في قلوب الأعداء، وإن أقلعت قلعت منهم الآثار، فلا تخله من تجهيز جيشه[١٥]، وسكن طيش البحر بطيشه ليصبح لك فهما جيشان كل منهما ذو كر وفر، هذا في بر وبحر، وهذا في بحر وبر.

---

(١) صبح الأعشى: خدمات.
(٢) صبح الأعشى: استلزام.
(٣) صبح الأعشى: ولاعتضادهم.
(٤) صبح الأعشى: الإيجاد.
(٥) صبح الأعشى: قلبنا.
(٦) الأصل: الساهون، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٧) هذه الجملة لم ترد في صبح الأعشى.
(٨) صبح الأعشى: وقوّهم بسلاحك.
(٩) صبح الأعشى: وترى كلاّ منهم في أعدائك.
(١٠) صبح الأعشى: الجوار المنشآت.
(١١) صبح الأعشى: الأمواه والأمواج.
(١٢) صبح الأعشى: وهو الجيش السليماني في إسراح السير.
(١٣) صبح الأعشى: اجتمع.
(١٤) صبح الأعشى: على.
(١٥) الأصل: جيش.

وبيوت العبادات فهي التي إلى مصلّى سميّك خليل الله ينتهي محاريبها، وبها لنا ولك وللمسلمين سري الدعوات وتأويبها، فوفِّها نصيبها المفروض، غير منقوص، ومر برفعها واذكر اسم الله بها حسب الأمر[١] المنصوص، وأخواتها من بيوت الأموال الواجبات الواجدات[٢] من حيث إنها كلّها بيوت لله[٣]، هذه للصلاة وهذه للصِّلات، وهذه كهذه في رفع المنار، وجمع المبار، وإذا كانت تلك مما أذن الله أن يذكر ويرفع فيها[٤] اسمه، وفهذه يرفع ويذكر فيها اسمه[٥] على الدرهم والدينار، اصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير، كما يعود على تلك بالتنوير. وعلى هذه بإشحانها[٦] بأنواع الصروف كأشحان[٧] تلك باستواء الصفوف، فإنها إذا أصبحت مصونة، أجملت بحمد الله المعونة، وكفلت بالمؤونة، وإن كثرت[٨] وبالزيادة على المؤونة، فتكمل هذه لكل ولي دنياه، كما كملت تلك لكل وليّ دينه.

وحدود الله فلا يتعدّاها أحدٌ، ولا يرأفُ بها ولدٌ بوالد ولا والد بولد، فأقمها وقم في أمرها حتى تنضبط أتم الضبط، ولا تجعل يد العامل[٩] مغلولة إلى عنقها، ولا تبسطها كل البسط، فلكلٍّ من الجنايات والقصاص شرط، شرطه الله وحده[١٠] فلا يتجاوز واحد[١١] ذلك الحد، ولا يخرج (عن)[١٢] ذلك الشرط.

والجهاد فهو الدين المألوف من حيث نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور الخيل، فميل على الأعداء كل الميل، وصبّحهم من فتكتك /٢٠٩/ بالويل بعد الويل، وأرمهم بكل شمّري[١٣] قد شمَّر من يده عن الساعد، ومن رمحه عن الساق، ومن جواده عن[١٤] الذيل، وأذهب بهم في ذلك كل مذهب. وأنر بنجوم الخرصان[١٥] كل غيّ وغيهب، وتكثّر في غزوهم من الليل بكل أدهم، ومن الشفق بكل أحمر وأشقر، ومن الأصيل بكلّ أصفر، ومن الصبح بكل أشهب، واستنهب أعمارهم، واجعلها آخر ما يُسلب. وأول ما ينهب، ونرجو أن يكون الله قد خبّأ لك من الفتوحات

---

(١) صبح الأعشى: للأمر.
(٢) صبح الأعشى: الواجدات الواجبات.
(٣) بعدها في صبح الأعشى: عز وجل.
(٤) صبح الأعشى: أن ترفع ويذكر فيها اسمه.
(٥) صبح الأعشى: حتى على.
(٦) لعله أراد بشحنها، من شحن يشحنه: أي ملأه.
(٧) لعله أراد بشحنها، من شحن يشحنه: أي ملأه.
(٨) وإن كثرت: ليست في صبح الأعشى.
(٩) صبح الأعشى: الفتك.
(١٠) صبح الأعشى: وحدُّ حدَّهُ.
(١١) صبح الأعشى: أحد.
(١٢) سقطت من الأصل.
(١٣) الشمري: الماضي في الأمور، المجرب.
(١٤) عن: ليست في صبح الأعشى.
(١٥) الخرصان: واحدهما خرص: السنان.

ما يستنجزها لك صادق وعده، وإن ينصر بك جيوش الإسلام في كل إنجاد واتهام، وما النصر إلاّ من عنده.

وبيت الله المحجوح من كل فج، المقصود من كل نهج، يسِّر[١] سبيله، ووسع (له)[٢] الخير، وأحسن تسبيله، وأوصل من برك لكل من الحرمين مأهوله، لتصبح ربوعه بذلك مأهولة، وأحمه ممن يريد[٣] فيه بإلحادٍ بظلم، وطهره من كل مكسٍ[٤] وغرم ليعود نفعك على البادي والعاكف، وليصبح واديه وناديه مستغنين[٥] بذلك عن السحاب الواكف.

والرعايا، فهم للعدل زروع، وللاستثمار فروع، ولاستهام[٦] العمارة شروع، فمتى جاءهم غيث أعجب الزراع نباتهم، وتمت بالصلاح أقواتهم، وصلحت بالنماء أوقاتهم، وكثرت الجند[٧] مستغلاتهم، وتوفرت زكاتهم، وتنوّرت مشكاتهم، والله يضاعف لمن يشاء.

هذا عهدنا للسيد الأجلّ الولد[٨] الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين فخر الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين أعزّنا الله ببقائه فليكن بعروته متمسكاً وبنفحته ممتسكاً، وليتقلد سيف هذا التقليد، ويفتح مغلق كل فتح منه بخير إقليد، وها نحن قد كثرنا لديه جواهره، فدونه ما يشاء من تتويج مفرق، وتختم أنامل، وتسوير زند وتطويق جيد في كل[٩] تبجيل وتمجيد. والله[١٠] يجعل استخلافه هذا للمتقين إماما[١١]. وللمعتدين انفصاما، ويطفي بمياه سيوفه نار كل خطب حتى يصبح كما أصبحت نار سميه ﷺ برداً وسلاماً.

ومنه قوله: منشور الملك الناصر في حياة والده المنصور. ولم يكتب به[١٢].

الحمد لله الذي زيّن سماء الملك بأنور كوكب بزغ، وأعز ملك نبغ، وأشرف سلطان /٢١٠/ بلغ إلى ما بلغه ذوو الاكتهال من اختيار شرف الخلال وما بلغ، نحمده

---

(١) صبح الأعشى: سيّر.
(٢) ليست في الأصل.
(٣) في الأصل: يرد.
(٤) صبح الأعشى: من مكسٍ.
(٥) الأصل: مستغنياً، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٦) صبح الأعشى: ولاستلزام.
(٧) صبح الأعشى: للجنود.
(٨) الولد: ليست في صبح الأعشى.
(٩) صبح الأعشى: كل ذلك.
(١٠) صبح الأعشى: الله تعالى.
(١١) بعده في صبح الأعشى: وللدين قواماً، وللمجاهدين اعتصاماً.
(١٢) صبح الأعشى ١٣/١٦٧.

حمداً به [تزيد][١] النعماء وتنمى وتهمل الآلاء وتهمى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة من كل ريب. واقصه كل عيب. شاخصةً بها الأبصار إلى عالم كل شهادة وكلّ غيب[٢]. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله بمكارم الأخلاق، ومكاره ذوي النفاق، وساوى به بين الكبير والصغير من أولي الاستحقاق في الإرفاد والإرفاق، صلّى الله عليه وعلى آله ما رقّ نسيم وراق، وما نطقت ورق وما خصفت أوراق، وبعد، فإن الهواتف أبين ما تشدوا إذا حفّت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب الثواقب، والسعادة أجمل ما تحدو إذا خصصت بمن إليه، وإلا ما تشدّ الركائب، وعليه، وإلا ما تثنى الحقائق والحقائب، ومن هو للملك فلذة كبده، ونور مقلته، وساعد يده ومن ينتمي للسلطنة بملاحظة جبينه الوضي، ويستنير بلآلئ نوره المضيء، ومن تغضب الدنيا لغضبه، وترضى إذا رضي، ومن نشأ في روض الملك من خير أصلٍ زكي، وفاحت أزاهره بأعطر نفحٍ أرج، وأطيب نشرٍ ذكي. وطلع في سماء السلطنة نجماً للنيرين ما له من الإضاءة، ويزيد عليهما بحسن الوضاءة، ومن تشوق النصر له من مهده، وتشوّق إلى أن يكون من جنده، واستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فرع باسق، وعقد متناسق، وزند وار وجناح وارف، وفخار تليد ومجد طارف ومطرفان معلمان تتزين بنشرهما المطارف، ولهذه الدواعي المجتمعة وهذه المحاسن التي تشرأب إلى قصدها آمال الخلائق المنتجعة، اقتضى حسن البر الوصول، وشرف الإقبال والقبول، إن خرج الأمر الشريف لا برحت مراسمه متزينة بزينة السماء بكواكبها، ومزاحمة سمك السماك بمناكبها أن يجري في ديوان الجناب العالي الولدي الملكي الناصري.

منشور موسى بن الملك الصالح:

الحمد لله الذي أبلى وسلى. وأخذ /٢١١/ وخلا، وهدم وعلاّ، وحرر وجلاّ، وعطل وحلاّ، نحمده على نعماه، بإملائها نتحلّى، ونشكره شكراً يورد المحامد منه نهلا وعلاّ، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة لا تستثنى بإلاّ، ولا تزال ترقب بها ذمة وإلاّ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي زاد الله به من الهدى محلاّ، ورفع محلاّ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تتوالى ولا يتولّى وتحمل الموازين لكلّها كلاّ، لا يقال معه كلاّ، وبعد، فإن من حكمة الله تعالى أنها إذا نسخت آية أحكمت أخرى، وإذا أرادت ذخراً زدت ذخراً، وإذا نسف الحزن كثبان التسّلي،

---

(١) الزيادة عن صبح الأعشى.

(٢) الجملة ليست في صبح الأعشى.

وهالها وأفرغ أحلام العقول وهالها، وغيّب شمساً أبقى بدرا، فله الحكم في الأمرين وفي الشكرين، وفي اليسرين ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾[1] ولما تم بقضاء الله، ونفذ أحسن ببقاء بقيّة صالحة صالحية إذ أخذ، وذلك ينمو هلال يبهت بحسن مرآه عيون الأهلّة، وتعوذه الخلائق من شر كل طارق، بالله ويقول الملأ عند نفوس أشبه الصفات من والده المرحوم فيه أصدق. ومنه ما كتب إلى تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير التنوخي[2]، من حلب رحمهما الله تعالى:

يقبل اليد التاجية، لا زالت تؤنس القريب بجود كرمها، والبعيد بإجادة قلمها ولا عدمت الأولياء إدامة جودها، ولا جود ديمها، وينهي تأسفه على وقت طالما مر[3] في استجلاء كريم المؤانسة، واستجلاء عرائس المشاهدة الآنسة، وأنه لا يقف بحلب المحروسة على ربع إلاّ ويقول هذا كان ربع الحبيب، وبه كانت الأوقات تعذب، والتنزه يطيب، وهذا ما كنا نلتذ بسماع أخباره، قد كثر التذاذنا منه بالنظر، وهذه العراض التي كانت السعادة بلحظها، وإن السعادة لتلحظ الحجر:

دمن تكاثرت الهموم عليَّ في عرصاتها كتكاثر اللوَّام
وكأن كل سحابة عرضت بها تبكي بعيني عروة بن حزام

ورأى من توشيع الربيع خلال تأثير أرجك المعاول ما أوجب إنصاته لحديث /٢١٢/ الربوع، ولا شيء أشجن من حديث المنازل:

أسائلها عن المتديريها فلا تدري ولا تذري دموعا[4]

وشاهد ديار علوه، وقيل هذه حلب التي أخنى عليها الزمان فما أبقى إلاّ الرغوة.

أثاف بها ما في الفؤاد من الصَّلى وربع كجسمي ناحلٍ متهدّم[5]

وتأسف على الشهباء كونها قطعتها عن مداها الجنائب، واستوقفها حتى لم يرض صهوتها راكب:

هي المنازِلُ لي فيها علامات من بعد سكانها أهل العلى ماتوا

---

(١) سورة الشرح: ٥ ـ ٦.

(٢) أحمد بن سعيد بن محمد، تاج الدين بن شرف الدين بن الأثير، وهم غير بيت ابن الأثير الموصلي، كتب للناصر بن العزيز بالشام، وتوفي بغزة ذاهباً إلى القاهرة سنة ٦٩١هـ.
انظر: الوافي بالوفيات ٦/ ٣٩٢، والمنهل الصافي ١/ ٢٨٢ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٤ وعيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٩) ١٢٩٥.

(٣) في الأصل: مامر.

(٤) البيت للمتنبي: ديوانه ص٨٩.

(٥) البيت للمتنبي وفيه: ورسم كجسمي. ديوانه ص١١٣.

وبالله لقد استراح مولانا من سؤال ما لا يردّ جواباً من تلك الطلول، وأراح قلبه من الأسف وجفنه من الهمول، ووفر عليّ لحظة تلك المعافر والمعاجر من الذبول:

لـنـا ولأهـلـهـا أبـداً قـلـوبٌ تـلاقـي فـي جـسـوم مـا تـلاقـى[١]

ولا أحزنه فيها ما أحزن الأوّل من وقوفه على ربوع شتاتٍ ولقال ترى منازلة الدهر لهذه المنازل المنازه من جملة الأضغاث، ولأنشد في ذلك بما به نستشهد:

فـديـنـاك مـن ربـعٍ وإن زدتـنـا كـربـا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا[٢]

وبالله أقسم أنَّ مولانا لمعذور في مقالاته بوصفها، وأنها مما توصف به لأكثر وأشهر وأبهى وأبهر، وأنوى وأنور، وأزهى وأزهر، وأبدى وأبدر، وأندى وأندر، وأي هي وبناؤها بأبياتها تزهر، وأفنيتها نفساً بها تلهو، وأين هي الآن. وقول المنازي[٣] فيها:

وقـانـا لـفـحـة الـرمـضـاء وادٍ وقـاهُ مـضـاعـفُ الـنـبـت الـعـمـيـم

حـلـلـنـا دوحـهُ فـحـنـا عـلـيـنـا حُـنُـو الـمـرضـعـات عـلـى الـفـطـيـم

وأرشـفـنـا عـلـى ظـمـأ زلالاً أرقـم الـمـدامـةِ لـلـنـديـم

يـبـاري الـشـمـس أنّـى وجـهـتـنـا فـيـحـجـبـهـا ويـأذنُ لـلـنـسـيـم

/٢١٣/ يـروع حـصـاهُ حـالـيـة الـعـذارى فـتـلـمـس جـانـب الـعـقـد الـنـظـيـم

ذهبٌ حيث ذهبنا، ودرّ حيث درنا، وفضة في الفضاء لا سيما حين تبجست أنواء الفضائل العلائية، وتنفست أنوار صبح المعارف الفتوحية، وكل أرض بها أرضى للمجتلى والمجتنى بتلك البطاح، وأي شفاه يشفي الغلة مشافهة شفاه تلك الأودية المفترة عن ثغور الأقاح التي شبنها الصراح الماء القراح، حيث تأتي الأفنان بأحسن الفنون، ويتم التفكه بما قسم الله به في المخلوقات من التين والزيتون، ثم يعود إلى إدمان النوح في الدمن. وعلى تلك المنازه التي كانت شامة في وجه الشام، فأصبحت زمناً في أغضاء الزمن، ويندب أعظم من دمنة أم أوفى التي ما تكلمت وإن تكلمت[٤]، ولا ترد الجواب، بل دمنتين ما مرت (.....)[٥] لزينب والرباب:

---

(١) للمتنبي، ديوانه ص٢٨٩، وفيه: لنا ولأهله. (٢) للمتنبي: ديوانه ص٣٢٥.

(٣) المنازي، هو أحمد بن يوسف المنازي، أبو نصر، أصله من منازجرد من بلاد أرمينية، وكان شاعراً أديباً وزيراً، استوزره أحمد بن مروان صاحب ميافارقين، وبها توفي سنة ٤٣٧هـ والأبيات تنسب أيضاً لحمدونة بنت زياد.
انظر: وفيات الأعيان، والوافي بالوفيات ٨/ ٢٨٥ والعبر ٣/ ١٨٧ وشذرات الذهب ٣/ ٢٥٩.

(٤) إشارة لقول زهير بن أبي سلمى:
أمـن أم أوفـى دمـنـة لـم تـكـلـم بـحـومـانـة الـدراج فـالـمـتـلـثـم

(٥) كلمة لم أتبينها.

بللت بها ردني والغيم مسعدي وعبرته صرفٌ وفي عبرتي دمُ

بل بكاء من وقف واستوقف، وبكا واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل، ونادى بواديها بعد مسديها نادبا أكثر ما نادى نوح ابنه وكان في معزل. فما الموت على سواله، ولا أنهت لوقوفه عليها باصيلا له فآها لها منازه منازل كانت أنزه من شعب بوان. لا بل أحضر من حضر غمدان، وحمداً لها من مجاري سيول، ابقى لها حسن المرابع جود بني حمدان. وشكراً لها من مواطن مواطر آل مرداس، ومرابع أشد حالها المحاكي، ألا هكذا فليضع الناس مع الناس، ولقد وقف المملوك بها وقوف من سمح بدمعه بتلك الرحاب، لا وقوف شحيح ضاع خاتمه في التراب، وكيف يوصف بالشح العقد، ومن جاد بنفسه وأذهبها عليها حسرات، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، ثم يأخذ المملوك غير هذا المذهب ويختصر جملاً من تفاصيل حاله. وكان من الواجب أن يسهب ويقتصر على ما يشرحه من تطوافه بكل دار بها فوجدها خاوية على عروشها، وسوقه بكل سوق سال عنها فإذا حارها قد تمر به الليالي لسوشها[1]، ولا يسأل سيدنا عن ثلوجٍ شابت بها مفارق الجبال، وابيضّت أعينها من الحزن على من شركها لمصابه /٢١٤/ بنبال الوبل المفضي به إلى الوبال، حتى قيل إن هذه أزباد البحار صعدت، ثم تخطّت بل هذه الأرض قد استحيت من مواقعه الحيا، فلفت وجهها حياءً وتغطت، كم أضحت الطرق ببياضها سودا، وكم أجرت عيون الدموع، واحمرت عيون الجواري من الماء حتى أعوزت الأقوات مسامها، وأعجزت الأوقات مقدامها، وعذر كلٌّ أبا الطيب في هجائه الثلوج لكونها منعت الرعي مهره، وحبست عن المرتع والمربع حجره[2] إلى غير ذلك من أمطار لم تحم منها الخزائن والمجالس، فما ظنّك بالبرانسِ والطيالس والقلانس، قد عدمت الأرضُ بها ما كانت توصف به من الجلد، وعادت إلى ما كانت عليه من ماء جمد، حتى لقد يبست من الاستكنان النفس، وعادت وجوه الرجال كوجوه ربات الحجال، لا تبصرها الشمس. والخيام وإن كانت بغير ذي طلوع قد سُقيت، ولكن بأفواه القُرب، وحُسبت كل خيمة منها أنها قنطرة بين أهلها وبين بحار السحائب، جسر لكنه من خشب، أضحت لها من متجمد البرد المتواصل أطناباً ممتدة، وكاد كل من أجزائها هربا من بين يدي الرياح كما يقال: انقطع من كوشها العدة. كم جمع كل منها

---

(١) كذا وردت في الأصل، ولم أعرف لها وجهاً.

(٢) يشير إلى قصيدة أبي الطيب المتنبي التي أولها:

ما للمروج الخضر والحدائق يشكو خلاها كثرة العوائق

أشتاتاً، فقال: ما أكثر ما حشت وكم أقعد العاصف منها قائماً، كان قد وقف وما وقف له بشت، قد فتحت سماؤها فكانت أبواباً، وسيّرت جبالها فكانت سرابا. عشنا بها عند قعاقع الرعود بالتسبيح. وكم وثقنا بثباتها كحملات الهوج ووثباتها فجبنت ولم يلتق الريح، وكم وكم، فحدث عن البحر ولا حرج، وأنت لكثرة أهوال الهواء إن يصلح الكتابة فكم درج من عيبتها درج، وصار السكن تحت جناحها من دلف الأمطار، لا فرق عنده إن دخل فيها أو خرج، وضعفت قواها عن امتساك، وكيف لا وقد أضحت محلولة السرج، وجرت تحتها الأنهار وإن كنا في غير جنات، وقطع الريح توازيرنا، ومن أمثال العوام: من قطعت توازيره مات. وأنا بحمد الله في كل مدينة برد ملبس بردة، منضّد في أعناقنا من البرد عقده، نتمتع به في عنفوان شبابه ويستقبله في أوله / ٢١٥/ ونودعه عند ذهابه، وكلما تمادى المسير ساء المصير، وقيل لنا إذ يسرق بعض دفء من الشمس: أيتها العير، والحبل على الجرارة، وما كل جُبّ فيه يوسف ويلتقطه السيّارة.

فأجاب تاج الدين ابن الأثير[1]:

يقبل اليد المحيويّة المجنوبة، إلى كل قبلة، المحتوية على الكرم الذي هو للكرام قبلة. لا زالت مخصوصة بفضيلة الإعجاز، والبلاغة التي كل حقيقة لديها مجاز، والإحسان في[2] إحسان الذي يظن الإطناب والإسهاب في شكره وذكره من الإيجاز، وينهي ورود مشرفته التي أخذت البلاغة فيها زخرفها، وأشبهت الروض الأنف منها أحرفها، وأبانت عن معجزات البراعة ومثلت له السحر كيف نفث[3] في تلك البراعة، وأبانت مجاري على مثل الجمر، وأفردتهُ بالرتبة التي لا يدّعيها[4] زيد ولا عمرو. وعلمته كيف يكون الإنشاء، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فوقف المملوك عليها وقوف من أفحمه الحصر، وتطاول لمباراته فيها، ولم يطل من بباعه قصر، واستقدم قلمه لجوابها فأحجم، واستنطق لسانه ليعرب عن وصفها فأعجم، وقال لحسنها الذي استقرق القلوب: ملكت فأسجح، وبلغ الغاية في عذر نفسه المقصّرة[5]. ومبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح، ومن أين لأحدٍ مثل تلك البديهة المتسرّعة، والروية التي هي عن كلٍ ما يتجنب متورعة، والمعاني التي يتولد[6] منها أبكار[7]، والغرائب التي لا يقبل الدر من بحارها إلا كبار، أو الخاطر الذي يستجدي الفضلاء[8] من سماحته، واللسان الذي

---

(١) الرسالة في الوافي بالوفيات ٦/ ٣٩٢.
(٢) الوافي: لا إحسان.
(٣) الوافي: ومثلت كيف ينفثُ السحر.
(٤) الوافي: لا يصل إليها.
(٥) المقصرة: ليست في الوافي.
(٦) الوافي: يولد.
(٧) الأصل: أبكارا.
(٨) الوافي: يستجدي الفضل.

يخرس الفصحاء عند فصاحته، والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم، والطريق الذي من دل فيه ضلّ ولو أنه عبد الحميد[١] أو ابن العميد[٢] أو عبد الرحيم[٣]، والألفاظ التي تشوق بها أنوار المعاني فكأنها الليلة المقمرة، واليد التي إن لم (تكن)[٤] الأقلام بها مورقة فإنها مثمرة، ومولانا حرس الله مجده قد أوتي ملك البيان، واجتمع له طاعة القلم واللسان، فخطب الأقلام، بحمده على منابر الأعلام[٥]، وقد أخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل، ولو كان الفاضل[٦] /٢١٦/ وأصبح محلّه منها الأسنى، وأسماؤه فيها (.....)[٧] الحسنى، وجاء من المحاسن بكل ما تزهى به الدول، وأضحت[٨] طريقته في الفنون كملّة الإسلام في الملل، وعرف الإشارة في حلب وما صنعت فيها الأيام، وما أشجاه من ربعها الذي لم يبق فيه بشاشة تُستام[٩]، ووقوف مولانا في أطلالها، وملاحظته الآثار التي أعرضت السعادة عنها بعد إقبالها، وتفجّعه في دمنها، وتوجعه لتلك المحاسن التي أخذت من مأمنها، وأنه وجدها وقد خلت من عراصها، وزمت للنوى قلاصها، وغربانها في رسومها ناعبة، وأيدي الرزايا بها لاعبة.

فلم يدر رسمُ الدار كيف يجيبنا ولانحنُ من فرط الأسى كيف نسألُ

نشكر الله موقفه في تلك[١٠] الدّمن، ورقّته التي قابل بها جفوة الزمن، ورأى له هذا العهد الذي تمسكت الآن منه بحسب، ورعى له حقّ الدمع[١١] الذي جرى فقضى في الرّبع[١٢] ما وجب. وشاق المملوك توقفه في رسومها، واسترواحه بنسيمها، وسقياها بدمعه، وتجديد العهد بمغناها الذي كان يراه بطرفه فأصبح يراه بسمعه، ولقد يعلم الله عزّ وجل[١٣] أن الأحلام ما مثلها لعينه[١٤] إلاّ تأرقت، ولا ذكرتها النفس إلاّ تمزقت، ولا تخيلتها فكرته إلا استقرّت على حالٍ من القلق، ولا تمثلتها أمانيه إلاّ وأمست مطايا أمانيه في السبق.

---

(١) يريد به عبد الحميد الكاتب بن يحيى بن سعد، أحد أئمة الكتاب المتوفى سنة ١٣٢هـ.

(٢) يريد به أبا الفضل بن العميد وزير البويهيين بالري، وكان من الكتاب الشعراء الأذكياء، توفي سنة ٣٦٦هـ.

(٣) يريد به القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني من أئمة الكتاب ووزراء صلاح الدين الأيوبي، توفى سنة ٥٩٦هـ.

(٤) (تكن) ساقطة من الأصل.

(٥) الأصل: الأمل، والتصويب عن الوافي.

(٦) يريد به القاضي الفاضل.

(٧) كلمة لم أتبينها، ولم ترد في الوافي.

(٨) الوافي: أصبحت.

(٩) الوافي: بشام، وهو تحريف.

(١٠) في الوافي: فنشكر الله بوقفه على.

(١١) الوافي: حق الذي جرى.

(١٢) الوافي: للربع.

(١٣) عز وجل: ليست في الوافي.

(١٤) الوافي: ما مثّلتها العين.

ما قلت إيهٍ بعدها لمسامرٍ من الناس إلا قال قلبي آها

على أنه قد أصبح من ظل مولانا في وطن، وأنساه أنسه من ظعن ومن قطن، وشرف بخدمته التي تعلي لمن خدمها مناراً، واستعار(١) من الأيام التي أخذت منه درهماً وأعاضته عنه ديناراً، وأصبح لي عن كل شغل به شغل، وأما الأشواق:

فسل فؤادك عني يخبرك ما كان مني

فما ذكرت حبيباً إلاّ وإياك(٢) أعني

وإن نظرت عيني سواك، تلّفعت حياء بأردان الدمع(٣)، ولو أني استطعت غمضتُ طرفي(٤) ووصفت ما عسى أن أصف من الشوق كان الأمر فوق وصفي:

وأني في داري وأهلي كأنني لبعدك لا دارٌ لديّ ولا أهلُ

وعرف المملوك الإشارة إلى هذه السفرة ومتاعبها، والطرق ومصاعبها، والثلوج /٢١٧/ التي شابت منها مفارق الجبال، والمفاوز التي تهيب المسرى بها طيف الخيال، والمرجوّ من الله تعالى أن تكون العقبى منها مأمونة، والسلامة فيها مضمونة، وكأن مولانا بالديار وقد دنت، وبالراحة وقد أذنت(٥)، والتهاني وقد شرفت بوفودها(٦) هاتيك الرحاب، والرياض وقد أبدت من محاسنها وحسناتها(٧) ما يكفر به ذنب السحاب، والأنس قد أمسى وهو مجتمع القوى، والرحلة قد ألقت عصاها واستقرّ بها النوى. إن شاء الله تعالى.

ومنه ما كتبه إلى كمال الدين بن العطار:

كتبتُ هذه الخدمة في يوم غابت سماؤه، واستهلّت أنواؤه.

دانٍ مسفّ فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح(٨)

قد كاثر البحر بقطره، وروى بره كل بقعة من بره، فالبلاد قد فاضت غدرانها، وكادت تسقط لوقوعه جدرانها، حتى عمّ الوهاد والربى، وبلغ السيل الزّبى، وما أظنّه إلا اقتدى بكرم مولانا الذي علّم المغيث الندى، وفعل بالجدب ما تفعله أقلامه بالعدى، فأجابه:

---

(١) الأصل: واستعاذَ.

(٢) الوافي: وذاك.

(٣) هذه الجملة لم ترد في الوافي.

(٤) الوافي: غمضةُ طرفي.

(٥) الوافي: أنت.

(٦) الوافي: بورودها.

(٧) الوافي: محاسن حسناتها.

(٨) البيت لعبيد بن الأبرص، ديوانه رقم ٧٥ ـ ٧١ وهو لأوس بن حجر في الشعر والشعراء ص٢٠٢ ونسبهُ الجاحظ في الحيوان ٦/ ١٣٢ لكليهما.

أدام الله نعمته، وأقدمه على البلاد إقدام المزن، وأعاد به على ناظر الإسلام سواده، فقد ابيضت عيناه من الحزن، ولا زال نشر ذكره ينمي، وروض فضله يُمنى:

وسقاه حماه غير مفسدةٍ صوب الربيع وديمة تهمي

ورد كتابه الشريف يصف الغيث الذي صاب وبله، وأصاب بنحر المحل نبله. فوقف منه على كتاب الأنواء وشاهده، وقد انحلّ فيه عقد كل سماء، وغير بدع لكل مكاتبة منه أن تعود روضة وقلمها منشي سحابها ولا غرو لكل مكان ينزله أن يجود الغمام حزونه. وقد شرفتها بركاتها.

وما طاب نشر الروض إلاّ لأنّه إذا مرَّ فيه ناله فضل بردِهِ

وما سقط الغيث إلاّ لكي يقبل بين يديه الثرى، وإلا فلم (.....) منزله وجه سمائه المسفرة وعين شمسه وقاح، وكبدها حرى مما رشفت ريق الغوادي من ثغور الأقاح. أو لأن المملوك ما زال يردد لسانه /٢١٨/ بالأدعية الصالحة، وركابه الكريم منطلق بقوله:

لاقتهم حيثما كانت تحيتنا وجاءهم حيث كانوا الوابل الغدقُ

فاستجاب الله دعاءه الذي ما زال يرفعه، وبلغه سلامه الذي ما زال بالثناء يشفعه، ومتى حلَّ بدمشق فبجودها ما جاء سواها، ويستعين بسقيا يده الكريمة فلا تأسى إذا شحَّت الغمائم لسقياها.

فوجود البلاد تنتظر الغيث انتظار المحبّ رجع الرسولِ

ومنه قوله:

يقبل اليد الكريمة، لا زال نوءها مغدقاً، ومطلعها مشرقا، وروضها مونقاً، وقلمها لا يرى إلاّ مورقاً، وبلاغة إبلاغها لا يعدم الأولياء عنها التمائم والعوذ والرقا، وينهي أنه فارق خدمته التي أرضته عن الأيام وأسخطته على الغمام، وأغنته عن الناس، فما تركته يتذمم الأقوام وهو يلتفت إلى تلك النعم تلفت الناغب إلى نقع غلته لا الناعب على فراق إلفته، وتملك تملك التسليم المستملح هو كل شبيه بأحبته، يلاحظه بطرفه، ويعتب على زمن أخرجه من تلك الجنات، واواه إلى حطه حشره بهامع أصناف الحشرات، لا يرى بها إلا رحوماً أو رحيماً، ولا يشاهد إلا أراقم (.....)[1] من كل صلد تزاحمت به معارج السيول، وعضت حلوف الرحول وغراسحاً في صدور السهول، قد خمشت الأمطار وجه صفاته. وقبحت الليالي والأيام ما لعله كان من حسن صفاته. فأصبح معافر بين أرجل الزروع، كم لها منه من أذى، ومحاجر أغصت عيوف

---

(١) كلمة غير مفهومة.

الأرض منه على قذى، كان أسوده على وجه الأرض كلف ويؤذي الأبصار، وكم خدّ استدار عليه منه أقبح عذار. كم تجمعت فلد فكانت كظلمات بعضها فوق بعض. ونبتت سامقة فأحسن بها من نهود فوق صدر الأرض، تروع المراعي والمراعي، وتسمع منها لسهام المنيّة معامع بتراكيش الأفاعي، من كل صلّ يفترس افتراس الضيغم، وينملس انملاس الجدول المفعم، وينقضّ انقضاض الشيهم، ويروع راءيها في المنام، /٢١٩/ ومن حمها لحم الحمام، وإذا انقبضت كانت للمنية عروة، وإذا انبسطت فهي للرزيّة حزام، ما نابها بنوائبه ناب، ولا لعابها في جدّهِ بالإتيان على الأنفس بلعاب، ذات الألوان كالدنيا تروق وتروع، وذات معاطف كالليالي والأيام منذرة كالفخ للوقوع، قد غدت للخيام أطنابا عرض الأطناب، ونابت عن العمد فيها شرّ مناب، فلو شاهدها أبقراط لم ير أن غيرها للموت من العلل الخبائث ولا الأسباب، كم نضمت الأعين منها بأسود سالخ، وكم غدا مهري لسمها مهريا من الحريق فهو في كورة على لغة الأعوام نافخ، ومن عجب أنها تمشي على بطنها، ولا تأكل من نهشته بنابها النائب عن سنّها، نخترس مفترس، وترى بعينها في الظلام مما لا يجد عليها هدى طرف المقتبس. كم غدت لتعير عقالاً، وكم اعتقل الموت منها للمطاعنة رماحاً طوالا، وأرسل نبالا، هذا والشتاء ما قوضّ خيامه، ولا ارفضّ ركامه، ولا أقلع سحاح سحابه ولا جهامه، والجو لم يبحث عنه غمامه المنجاب، وشمسه لم تبرز من بردها إلا بفرو سنجاب، والحشرات إلى الآن محشورة في عطش وبغش ما ظهر دفينها من قره بعد ولا انتبش، فما ظنك بها عندما يلفح الهجير بوجهه، ويقبل القيظ برهجه وهرجه وسرجه، وأخرجت الأرض أثقالها. وأبرزت ضلالها، وأينعت الأذى بوابلها الوبيل بوباها ووبالها، هنالك يتمنطق بهذه الدواهي الأشجار، وتتسور الأغصان، وتتختم القضبان، وذلك يوم كما وصفه البحتري بقوله:

ويوم من الشعرى يذوب لعابه أفاعيه في رمضائها تتململ

فالإنسان من هذه المنزلة في حبالة صيد، وعجالة كيد، وهي دون المنزلة التي ما رضيها لنفسه ابن دريد، شتان هذا والعناق والنوم، والمرقد البارد في ظل الدوم، وبردا قد برد كؤسه، والدوح وقد نوع ملبوسه، ويريد وما يتجاوز مادحه على ما فيه من المحاسن الفاضلة، ولا يريد وقوده وقد أثار دواعي الأشواق إليه، وبعث بعوث التلهف عليه، والغوطة وقد فاخرت بساتينها كلّ بستان /٢٢٠/ وقالت لمن يجاريها: دونك الشقراء والميدان والمزة وقد جلت برزة برزت بمحاسن خصبها الدائم وما أمحلت، والأغصان وقد اخضرّ نبات عارضها، ودنانير النوار ودراهم الأزهار قد هيئت لقابضها،

والمنثور وقد نظمت قلائده، وصفقت بكفوفه ولائده، والحور وقد حاور السها بالتباشير، والسرو وقد كشفت عن سوقها فلم يقل لها عن تلك الأنهار أنها صرحٌ ممرد من قوارير، والسوسبان وقد لاحظ بجفنه الوسنان، والورد وقد ورد، والبان وقد بان.

كم وردة يحكي سبق الورد حاشية أسرعت من جندِ
قد ضمّها للغصن قرص البدر ضمّ فم لقبلةٍ من بعدِ

ولا ورد على المملوك أوائل الورد في أواخر شعبان، ولاً قول ابن الحجاج:

بليال لو أنها دفعتني وسط ظهري وقعتُ في رمضان

على أن مولانا ليله في العفاف نهاره، وأنوار الجامع المعمور بذكر الله تعالى وأذكاره، حيث لا تلمح العين إلا مصباحاً، وتودّ أن لا ترى لتلك الليالي الغر فيه صباحاً، عندما تتمنطق أركانه من اللهب بمناطق الذهب، وبدت قناديله المعتدلة بصفاتها ومائها كما يبدو على الكاس الحبب. لا سيما ليلة النصف من شعبان التي يرفرف عليها النعيم ويخدمها الأمن المنيم.

فكم للعين فيها لاح بدر يروق الطرف منظره الوسيم
بدا وبدا الوقود فقيل بدرٌ لخدمته ترجلت النجوم

كم أضاء بوجهه نحور، وكم انعكست تلك الأنوار على وجهه الوضاح فكانت نوراً على نور:

في خدّه للورى ربيعٌ ونصف شعبان في فؤادي

يبدو فيعثر بالعيون أمامه، فإذا استدار تعثّرت من خلفه (.....)[1] كأنه شعبان. كلّ حلاوة في نصفه، ووقيده في مهجتي لمطال من أغرى بنقض الوعد منه وخُلفه، وبعد فهذه خطرة خاطر خطرت، نستغفر الله منها، ونسأله التجاوز عنها، ونقول: لا برحت أوقات سيدنا بالذكر معمورة، وأقسامه من / ٢٢١/ الأجور موفورة، ولیالي تهجدهِ تفاخر الأيام، وأوقات تعبده توافقه رفاقه من الملائكة المقربين فيها، وكيف لا، وهو من الكاتبين الكرام إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله:

وينهي مكاتبيه التي ملأت الدنيا عرفاً أرجا، والعيون منظراً بهجا، والأسماع كلما أصبح الود به منتسجا، فشكرا لله، سطورها التي وصلت إلى الجناب، وأوصلت

(١) ثلاث كلمات غير مفهومة.

ما ملأ العيون والأيدي والخزائن والمدائن والمرابط من الهبات، وجعلت تحف الدنيا بين يدينا سماطا، وأزاهر ذخائر الوجود لدى سريرنا بساطا، وأمطا سروجنا صهوات الفراقد من الجياد التي جاد منها بكل نفيس، وأهدى إلينا من بلاد سبأ منها ما تتوقل منه ما توقله سليمان من عرش بلقيس، وسخّر لنا منها رياحاً تحملنا إلى الأعداء، وكيف لا وبنات الريح هي الخيل، ويلجم لنا منها كلما تعدو به آيةُ الصباح مبصرة، ويمحي آية الليل، وله المنّة على أنه جاد من الرماح بكل سمهريّ، تجري دماء الأعداء في أنابيبه، ولا يدري عدو كافر إلاّ وهو في تلابيبه، كم يلهجه مشرك تدثر، وكم تيمن به مؤمن وتشاءم كافر، بكعبه المهور كم سمت القدود لما عذب به مشبههُ وكم قالت أقلام الخط عن مختصرات رماح الخط، وإنما تلك ليوم أكبر من أيامنا مرفهة وغير ذلك من وحوش مدينة، ودرر لما رأيناها قلنا لكل منها هذه الدرة الثمينة.

ومنه قوله من مرسوم بتحويل السنة الشمسية:

خرجت الأوامر المطاعة متضمنة ما وصل إليه رائد الاجتهاد، ودلّ عليه جميل الإرساء وحميد الارتياد، وأنتجت مقدماته مصالح البلاد وسداد العباد، لكذا نظرا، أجمل حسن التدبير أثره، وبيّن وجوه الأيام غرره، وإنصافاً ألزم الأعوام ردّ ما في ذمتها من القرض، وعدلاً قضى بأخذ الحق فيه لبعض الأيام من بعض، وصنعاً جهد في أن لا يعدو كل من الأيام في غير ملبسه مختالاً، وأن تردّ إليه ما كان التحويل يأتي عليه اغتيالا، وفكراً جميلاً أحصى ذلك عدداً، وميز أمور / ٢٢٢/ الأعوام، فلم يكمل كما قيل إن مع اليوم غدا، وجوراً أغنى أيامنا عن أنها تستلف من غيرها، وأن لا تعدو منفقةً إلاّ من خيرها، واقتداء بالملوك الشهباء في الأمر بما يعم الأمير والمأمور نفعه، ويعظم في المستغلات وقعه، وتضيع الأقساط به لا يعدى ولا يسطا، والمعاملات، لا يتعدى الاحتياط أحداً ولا يخالف شرطاً، والسنون لا تمتار سنة من أخرى، والشهور منزهة عن زيادة الكبيس إذ شهد التنزيل أن عدتها عند الله اثنا عشر شهراً، وحفظاً لنظام السنة الهلالية أن تتعلق السنة الشمسية لها بأثر، وحراسةً من أن يدركها تداخل فإن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر. ورسمنا أن تكون سنة كذا مسمّاة هلالية خراجية. وتلغى سنة كذا بحكم أن التحويل آخر ما كان في الأيام الفلانية كذا، فلما كان الآن حصل تفاوت كثير من تزايد مدلول الأيام، وتداخل شهور الأعوام، وخرج أمرنا بذلك، نسخاً للشك والارتياب، وضبطاً لقانون الحساب. وأمناً من السهوان، نظراً في المحاسبات أو يدخل في المعاملات، أو يؤدي إلى الإبهام، أو يؤول إلى الإبهام. ليكون الأمر يقيناً والمجاز حقيقة. وأمور الدين بالصحة جديرة. وبالضبط خليقة، فلتسترفع الحسابات على هذا الأمر

المقر. ولا يُعدل عما يحرر. ولتطرز به جرائد الإحسان وينطق به وعنه قلم الديوان.

ومنه قوله:

ونهى ورود مشرف كريم تلا مشرفاً كريماً، وإحسان حديث أعقب إحساناً قديماً، تناوبا الأفضال، واكتنفا الآمال، فشكر الله انعاماً أصبح لهما خير باعث، وتفقداً أرسل سجاياه رسولين مصدقين، ثم عزّزهما بثالث، فلقد بهرت كرامات كرمه، وظهرت في كل مهجة آثار نعمه، وأتت هداياه بكل معجز معجب. ووافت تحاياه بكل موجز منجب فلا عُدمت منها شارقة بعد شارقة، ولا بارقة بعد بارقة، ولو وصف كل فرد منها الوصف الذي يجب لضاقت الأيام، وخفيت البراعة، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام.

ومنه قوله:

وتوافى الناس إلى المقياس، فسألوا عن يقين الوفاء أخبر من جهينة، وشاهدوا /٢٢٣/ منه أجمل من جميل، ومن بنانه المخلق أحسن من بنان بثينة، ورأوا من وفائه صادقاً لا يخون في عهوده ولا يمين، وبطلت القاعدة من بنانه المخلق حين، وفي من أنه ليس لمخضوب يمين.

ومنه قوله في مثله:

هذه المكاتبة تبشره بنعمى تقبل مختالة، فتجرر على الثرى والوهاد ذيولا، وتجرد في وجه المحل سيفاً مسلولاً، وهو النيل الذي أتى ووجه الأرض قد اغبرّ وثغر يراعه قد بشر. والخصب قد افتر. وبره قد أقفر منه كل برّ، فحسن في مسرى مسراه، وجعل على اسم الله مجراه، وجاء يركض في مضماره ولا يلحق، ويجري في تياره فلا يُسبق، فكم مسني قحط ومرّ عليه من تلك الفجاج في مسيل، وكم ميّت جدب عليه التراب في تلك الجسور قد هيل، وكم عروس قربة تبنى في مسرى فكان كما قيل، مسرى عرس النيل، وكان هذا الموسم من أشرف المواسم بما يشتمل عليه من بشائر تملأ الوجود، ونعمه على الخلائق تعود، ومنّةٍ جرى بها من اليبس الماء في العود، وكيف لا، ويومها بيوم سعد السعود، فيشيع هذا الخبر إشاعةً تبدى وتعيد، ويوجد بردائها برداً على كبده ويزبد مزيد لا برح مخصوصاً بالاستبشار تارة بكسر الأعداء، وتارة بكسر البحار، وآونةً بإحياء الموات بالنيل، وحيناً بإماتة الأحياء بالفرات من الكفار.

ومنه قوله:

ويأخذ في شكر مقدم المشرفة الكريمة التي خفقت خوافيها وقوادمها باليمن من اليمن، ونعم طيبها حتى قيل إن زبدة الدنيا زبيد أم جنة عدن عدن، وتأملها فإذا هي قد جمعت أجناساً للطرف وأنواعاً. ورأت كلّما كان المتطرف لا يصدق وجود مثله

سماعاً، وأتحفت بما يملأ بصر المعاين، وضيق صدور الخزائن، وأرضى الأعنة كل ضامر، ولم ير قبلها تحفةً غريبةً لها في الجمال أشباه ونظائر. ولا حسنا أن يصف وجهها بالدمامة الضرائر.

ومنه قوله في منشور طلبه صاحب اليمن لولديه:

لا سيما اعتزاز الدولة القاهرة منه بحدّين ماضيين، وبجناحين اثنين يرفرف بهما / ٢٢٤/ ويجول، وإذا أتت دولة غيرها بآيةٍ، افتخرت هي بالإتيان باثنين لرسول، ولما سنح ما فتح هذا الباب. اقتضى الإجابة إلى ذلك الاقتضاب. تنافس على تسطير ذلك الملتمس سواد العيون وبياض الغرر، وقال القلم قد خص بتسطير الأوان هذا خير مما خصّ الغصن به من يانع الثمر.

ومنه قوله:

قدر الله أننا وجهنا إليه وجه العزائم، وجعلنا لمخبوله مرانين المجانيق الرقى ومن حجارتها التمائم، وأخذنا النقوب في ضميره، وزحفنا إليه الزحف الذي لطم باسورته وشقق جيوب سوره.

ومنه قوله، في فتح القرن:

وهو فتوح القرن الذي غدا في جبهة عكا عدة للقراع ومتعداً للقتال، ومتكأ للامتناع، ومطلعاً للإغارات التي كم أصارت الضياع إلى الضباع، قدّر الله أننا عرجنا عليه تعريج السيل العرم، ونازلناه منازلة المنتقم، ولوّنا له الآلات الحاصرة، ونوّعنا له أسباب العقوبة المتناصرة، فمن من مجانيق تسلّ من خناصر البروج فصوص تلك الخواتم، ومن أخرى تخطف من الشرفات العمائم، ومن نقوب تسري في تلك الأبدان سريان النوم في المفاصل، وتتوصل من خشاشات الأسوار إلى ما لا تصل إليه المناصل ومن زحفٍ إلى أبوابها هو الأصل في باب هذا الظفر، ومن قتال أضجر الحديد وما داخل رجالنا الضجر، ولما آن وقت النصر المرتقب، وانقضى الأجل الذي كتبه الله لمن حقق له الغلب، افتتحناه، وفجعنا عكا منه بقرن كان يحميها، وأصبحت جماء لا يمنعها شيء ولا يقيها، وكان قد وصل إلى عكا ملك اسمه ورد اعتقد أن قد حمى عكا ومرجها، وحمى طريقها ونهجها، وتوهّم أن جماعة من الفرنج قد أحصنت فرجها، وما درى أن لنا عزماً يغزو الكفار في عقر الدار، وأن عساكرنا كم وطئت منها موطئاً يغيظ الكفار، لما شاهد المذكور هذه العزائم سكت وما تكلّم، وحصر نفسه مع محصوريها إلى جهنم.

ومنه قوله في معناه:

وكم أسكنت افرنجة الكمانية قلوب الإسلام خوفاً، وأقرض الممالك من

الإغارات ديوناً لم تكن من غير يدنا / ٢٢٥/ ويد عساكرنا توفي، واعتقد أن أجفان سيوفهم تهجر الاصطباح على هذا الورد لذيذ وسنها، وأن شوكتهم إذا حبت بوردها لم تحبها رماح الإسلام، ولا أسنّتهم بسوسنها، نصرنا إليه والسيوف مربوبة الأكباد، وغبار الجهاد قد أصبح جساداً على الأجساد. وأنابيب القناة تقطر دماً ينسجم، وكل من الكماة يعتقد غداة البين أن قد سلم، فالمجلس يبتهج بهذا الفتح الحلو الجنى، وهذا النصر القريب من يدى المنى، ويسلك من الجذل بهذه البشارة في أبين الطرق، ولا تقل جاء هذا الفتح أخذاً، فأحسن ما يبدو البدر إذا لاح في ذيل الأفق.

ومنه قوله في معناه:

هذه المكاتبة إليه، أسمعه الله من البشائر كل محققة بجميل الظن، مطربة من بالتاريخ أو إلى التاريخ عانى وعن، مسرورة بكل تهنئة يبقى فخرها، وكيف لا وهو الذي كم أفنى للكفر من قرن، نعلمه أنه كان المسمى بالملك ورد ملك الانكتار وأعظم طواغي الكفار في البحار قد سيّر كتابه إلى أهل عكّا يفهمهم أنه الأسد الورد المشبل، ويطمعهم حتى تخيل كل منهم أنه مبشراً أو جاء كتاب الورد أني مقبل، وأنفذ قبل شهر رمضان بليال خزانداره وجماعة من أولي البسالة وذوي القتال إلى عكا يزعمون أنهم نجد متواصلة، وبعوث معاجلة، وليوث مخاتلة، وغبوث هائلة، فتسالمت لتقاطرهم زمراً أهل الطغيان، وتصرمت لتفرقهم الأخوة والخيالة والفرسان، وتقدّمت لتأخرهم ندامى الشرك قائلة أوائل ورد في أواخر شعبان، ووصل هو بنفسه يوم السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم، وصحبه جماعة من نيران الكفر الموصدة. وجمرات الحتوف المتوقدة، يعتقدون بأنهم يجتمعون للإسلام بضرام تلك الشعل، ويتخيلون أن مهابة وردهم يحصل لكل منها داء الجعل، وما علموا أن أنوف أهل الإيمان لا تبالي بتنسم تلك الحدّة، وأنهم يتحققون أن الورد والمنّة لله قصر المدّة، وأن رياحين الرماح طويلة الأعمار، وأزاهر الأسنّة لا تماثلها بقيّة الأزهار، وأن تفكه نصرنا طالما جنى ورق الحديد الأخضر يانع الثمار، وكانت طوائح العزائم الماضية /٢٢٦/ قد طوحت بنا في جهة طرابلس بطلب منها حقاً أوجبه عليها الظفر المستصحب وخفقت في جبهتها النصر المرتّب، فلما سمعنا خبر هذه الطاغية وردّ آخرنا أمرها إلى أجل معدود وسأل صاحبها في هدنةٍ قبلناها منه كما شئنا لا كما شاء طرفه المردود، وعجلنا الحضور إلى جهة عكا، نفهمه إن كان حضوره لنضال، فإن العزائم مرصدة، أو لاستحضار فما هذه همم الملوك المنجدة. أو لمسالمة فالإحسان لا يردّ رغبات الأمل المسترفدة، وجعلنا القرن أقرب منزلة إلى عكا ترمي العدو منها من كثب، وأدنى مقاعد

للقتال يستسهلها من طاوح، ويستقرّ منها من وثب. فنصبنا عليها مناجيق تعودت اقتلاع القلاع وتملك الممالك. وألفت تلين معاركهاحتى صارت لا تجد كلفة في ذلك، فلما رأها الحصن المذكور، تشوّف استفتاحها وحنّ، وتحقق هلال أهلّة، وكم أهلكنا قبلهم من قرن. فلما رأى من فيه تشديد عزمنا المبيد، سألوا وهم الألمان تخفيف هذا التشديد، فلم يبق إلاّ من أسلم نفسه وسلم، وسكت لما رأى أن غيره هلك لما تكلّم، واشتدّت بفتوحه دواعي الأعداء على الأعداء، وامتدّت به إلى عكا وأهلها موادّ الأوداء، وفجعت منه نجم قرنها فلو أنها لا يؤخذ لها بحق إذ أخذ للجماء من القرناء. وكتابنا هذا يبشره بما وهب الله الأمّة من هذا الظفر الذي أصبحت الفرنج اللمانية لا تنجد الساحلية ولا تكاثرها ولا تميرها ولا تؤامرها ولا تقيم معها في هذه البلاد، ولا تسايرها. وإذا عوتبت قالت: راح الذي هو أول المحنة من هذه البلاد وآخرها، فيأخذ حظّهُ من هذه البشرى الحسنة للارتحال، وهذه التهنئة الفسيحة المجال.

ومنه قوله:

ونصبنا ثلاث مناجيق كباراً، ساءت ظنونهم بالتثليث، وعدّة مجانيق صغاراً أعجلتهم بسوقها الحثيث، وما استتم قصها حتى أدبرت سعادتهم وتولت، وألقت مجانيقهم ما فيها من الأخشاب وتخلّت، وما أطلقت حجرا من حبالها بل طليعة من حبالها، وصارت سهامها أذنابا، على رؤوسها شائلة، وصناديقها المقفلة قافلة، وأصابعها تشير إلى حجارة / ٢٢٧/ مجانيقها قائلة: هلمّ إلينا، ولكم من العمائر والأعمار ما خلفنا وما بين أيدينا، ما زلنا نحاصر أهل هذا الحصن المذكور، حتى زال مكرهُم، ونصابرهم حتى عدم صبرهم، ونزحف إليهم زحفاً لا يتخلله فرجة لطانس ولا فجوة لقرن مهارس حتى طلع علمنا الأصغر وكبر في أعين المسلمين فقال بمكين الله، الله أكبر الله أكبر، وأخذت الباشورة بقتال تلك المضارب. وأبلى التجارب، وأظهر الساري في الليالي النقوب وأبدى السارب، وصارت لنا هذه الباشورة حصناً قبالة حصنهم. تعبوا فيه لراحتنا، واعتقدوا أنها تحمي ساحتهم فكانت حاميةً لساحتنا، ثم استأنفنا نقوباً غير تلك النقوب في تلك الأسوار، وكوّرنا من سدد الحجارة في نصف الحجارة الليل على النهار. وأسأنا مجاورة الحصن بتملك هذه الباشورة وما من عادتنا إلاّ حسن الجوار.

ومنه قوله:

وبعد، فإن الله قد منَّ علينا بالنصر المعجّل والفتح القريب، وهيأنا لإخراس لسان الناقوس، وشل يدي الصليب، جعلنا لا نقدم مهماً على رفع مرتبة شرع ونصب

منبر خطيب. إذْ كان ذلك هو المهمّ المقدم على كل مهم، والنور الساطع الذي كم أراد الأعداء إطفاؤه، ويأبى الله إلا أن يتمّ، ولما هيّأ الله فتوح حصن الأكراد الذي كان حق الإسلام المغصوب، ومتاعه المنهوب، ومفقوده المندوب، وفريده المنسوب، وقد اقتلعناها من يد الكفر وعيونهم باكية، وقلوبهم متحسّرة، وألسنتهم شاكية، وسيوفهم لا تجيب صداها إذا جاوبت الأصداء المحاكية، رأينا أن نجعل مشرع الشرع الشريف بها رويّا، ووعد الحق بها وفيّا، وأن يبدل الكفر بالإيمان، فنختار للصلاة بها ما اختاروه لصلواتهم، من بقعة، وأن نجعل بها عوض موسم الأحد موسم الجمعة، وأن تكون كنيستهم جامعاً بشمل الهدى بعد الضلال، وبيتاً من بيوت الله التي آذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال.

ومنه قوله في التعزية بأخوين:

إنهما لمصرعان قد صرعا الأمل، ورزآن ما للفؤاد بواحدٍ منهما قبل، ومصيبتان ما انقضت واحدة منهما /٢٢٨/ حتى أعقبتهما الأخرى، وثكلان ما منهما إلاّ الطامة الكبرى، فما عسى أن يقول المعزي بهذين الفقيدين، وماذا يقول المسلّي عن هذين الوحيدين؟ بم تبطش السيادة إذا فقدت اليدين، وبم تقطع السيوف إذا عدمت الحدّين، أما يكفي كسوف الشمس حتى تلا بخسوف القمر، ولا ذهاب السمع حتى يشفع بذهاب البصر. ولا نضوب البحر حتى عقب بنضوب النهر، هيهات، لقد تنوعت المصائب وتناوبت النوائب، وقاربت الرزايا ما بين الأجلين، وقارنت ما بين الخجلين، وجمعت ما بين الوجلين، لقد تجانست الحبلات حتى في الممات، وتراخت الأمنيات حتى في المنيات، وإنها لحسرة محكمة الأسباب، وموعظة تسفر الألباب، ومسألة ما أقرب منها الجواب.

ومن نظمه، مما أجاد فيه من قوله المبدع وأخذ بكلّ ثنية ومطلع، قوله في مليح حلق حاجبه وأزاله، وكشط من سمائه هلاله، كأنما خاف أن يمتدّ منه على ديباجة خدّه وشي العذار المرقوم، أو يرق العاشق ويقدم قصة مظلوم، وهو:

وقاتل الألحاظ كم من مهجةٍ ... جريحةٍ من سيفها القاضب
أماط عن مقلتِهِ حاجباً ... وقال للعائبِ والعاتبِ
لحظي بتكليم قلوب الورى ... أصبح يستغني عن الحاجب

فسمع بها زين الدين بن عبيد الله وكان رفيقه من حاذى في النظم لا يلبث أن يفوقه، فأما النثر فإنه كان لا يعرف طريقه، فقال:

بدا لي في حلق الحواجب فتنةً ... فقلت بعقل ذاهبٍ فيه ذاهب
حبيبي بحق الله قلْ لي ما الذي ... دعاك إلى هذا فقال مجاوبي

وعدت بوصلي العاشقين تعطفاً   فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبي

وسافر مرةً حتى إذا كان بعيون القصب، وهو مكان يغسل المسافر به قشف النصب، ويجلو صدأ الوصب، لأنه دون حمص حتى لا يشط عن جيرتها، ولا يبعد عن شط بحيرتها، في صحراء من الأرض، بين جبال انفرجت عنها أذيالها وأرجت في ميدانها صباها /٢٢٩/ وشمالها، سجن القصب الأخضر ما فيها، وجرت على ذهب ترابها الأحمر فضة سواقيها، فهيج له مرآها أسىً وتذكاراً، وذكره ريّاها أوطاناً وأوطارا. فأطر به في عين القصب التشبيب، وعاوده ما عاود امرأ القيس من ذكرى منزلٍ وحبيب، فأغضت أماقيه دموعه الحرّى، وأغرت ضلوعه بأن تتوقد جمراً، فجذب القلم والدواة وكتب ما لا ألمَّ به سواه، وهو:

كتبتُ لكم من أعين القصب التي   لها من معانيكم من نفسها طرب
فإن لذّ لي التشبيب فيها بذكركم   فكم أطرب التشبيب من أعين القصب

وسافروا سفرةً طالت، وغليت عليه عوادي مدتها واستطالت، فما طول بفراقه سهده، وأخذ منه قلبه وما ردّه، تململ بعده تململ العليل، وسقم سقام صبٍّ لا يشفيه في صباح صبا ولا بليلٍ بليل. فلما أوهن جلده النحول، واتفق أنه توجّه إلى جهته رسول، كتب إليه يقول:

إن شئت تنظرني وتنظر حالتي   قابل إذا هبّ النسيم قبولا[١]
لتراهُ[٢] مثلي رقَّةً ولطافةً   ولأجل قلبك لا أقول عليلا
فهو الرسول إليك منّي ليتني   كنت اتخذت مع الرسول سبيلا[٣]

ومنه قوله:

لا نقل الروض أحاديثُهُ   عن كل نمّامٍ غدَت خافيه
إنه ينقل أخباره   إلى عينٍ عنده خافيه

ومنه قوله في شملة[٤]:

ومشمولةٌ رقّت وراقت فأصبحتْ   على الشرب تزهي حين تهدي إلى الكاس
معتّقةٌ[٥] ما شُمِّستْ بعد عصرها لآثم   وكم فيها منافع للناس

ومنه قوله يهنىء الظاهر بفتح عكار ويغالط بادبها عكا في الهجاء يزيد عليها في

(١) الأبيات في عيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٩هـ) ص١٤٥ وفوات الوفيات ٢/ ١٨٨.
(٢) في عيون التواريخ: تلقاه.
(٣) في الفوات: النسيم رسولا.
(٤) البيتان في عيون التواريخ: ص١٤٦.
(٥) في عيون التواريخ: معتقة فأشمست.

المقدار لنسبة ما بينهما لمن رأى نسبة ما بين الثريا والثرى والذي قال:

يا مليك الأرض بشرى هي عنوان السعاده
/٢٣٠/ إن عكار يقيناً هي عكا وزياده

ومنه قوله، وقد نزل الملك الأشرف بالساحل، وفتح بلاده المعاقل، فنظف من وسخهم ثوب الشام، ونزل فرسانهم عن حصن الحصون إلى الرغام، ما خاطب به بني الأصفر وندّر والأمر كما قال وأكثر، وهو:

يا بني الأصفر حلّت بكم نِقَمُ الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم فابشروا فيه بصكّ متصل

وله في نوبة دنقله، وقد جلا بياض الترك سوادها، وفك عنها من لباس الحزن حدادها، وكان القتل قد استحر في عبيدها، ومد حررهم يدها ومأوى الجيش المنصور يدق قفا السودان، ويعيد رؤوسهم للهوان، والذي قاله:

يا يوم دنقلة وقتل عبيدها في كل ناحية وكل مكان
إذ كلّ نوبيّ يقول لأمّهِ نوحي فقد دقّوا قفا السودان

ومنه قوله[1]:

نسب الناس للحمامة شجواً وأراها في الحزن ليست هنالك
خضبت كفّها وطوّقت الجيد وغنّت، وما الحزين كذلك

ومنه قوله[2]:

يا قاتلي بلحاظٍ قتيلُها ليس يُقبر
إن صبّروا عليك قلبي فهو القتيل المصبّر

وكان في الصحبة الظاهرية، فلما كان بمنزلة القطيفة أصبح ذات يوم فرأى الأرض قد قلد الطلّ رباها، وحلّ ذائب اللجين ثراها، واشتدّ يومئذ الزمهرير. وكشّر أنيابه مرعداً بالهرير، فلم يبق إلا من كره لأجله القطيفة، وولاها وذاق طعمها المرّ فما استحلاها فقال:

هذي القطيفة التي لا تشتهى عقلاً ونقلا
حشيت ببردٍ يابسٍ فلأجل ذاك الحشو تَقلا

/٢٣١/ فسمع بذلك رفيقه تاج الدين ابن الأثير فقال فيه، وإنما نحا غير هذا المعنى في التشبيه فإنه تخيّل أن القطيفة قد رشّت عليها الزميتا سكراً وسقاها السحاب

---

(١) وردت في فوات الوفيات ٢/ ٨٥ وعيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٩) ص١٤١ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٨.
(٢) وردت في فوات الوفيات ٢/ ٨٦ وعيون التواريخ ص١٤٠ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٨.

المردد المقطر مكرراً فقال:

علـى دم الـقـطـيـفـة اجـتـمـعـنـا وإن سـقـيـت بـقـطـر قـد تـكـرر
وقـد أضـحـى عـلـيـهـا لـلـزمـيـتـا رشـاش مـثـلـمـا قـد رُشَّ سـكَّـر

على أن ناصر الدين بن النقيب الكتاني نازع كلاً منهما في بيتيه، وادعى أنهما له. وأخذا من حرز ديوانه وعدى فيهما عليه، وهما أصدق وبهما منه أليق.

وهذا آخر أعيان المصريين من الموتى الذين فرغ منهم شغل الوجود وأطبق على دُرّهم صنف اللحود، وكانوا عينا تسرّ العيون نظراً. فصاروا أثراً يصرّ في المسامع دررا.

* * *

فأما من هو الآن حيٌّ موجود، وأن لكلامهم ما تحلّت به العقود. فلاأعرف منهم إلا من أتمم بتوسعه هذا الطراز، وأكمل ببديعه من حديث هؤلاء الجماعة ما عاز، وهما فرقدا سماء أنارا، ويدا بطش تمد كلتاهما يميناً لا يساراً، وهما ممن جافى عقيب أولئك. وعدا مع الكاتبين الكرام إلا أنهم من الملائك، وها نحن لا نعدهم عنهم، ونحسبهم وإن لم يكونوا إلا بعدهم منهم فنقول:

ومنهم:

[٧١]

السيد الشريف شهاب الدين أبو عبد الله الحسين[١] بن الحسيني[٢] الموسوي المعروف بابن قاضي العسكر

رجل بأقلّ ما فيه يشكر، وما من المحاسن إلا ما هو أقلّ أنه به يُذكر، وجدّه

(١) الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن زيد بن الحسين بن مظفر بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن موسى الكاظم، الحسيني، الشريف، شهاب الدين أبو عبد الله المعروف بابن قاضي العسكر ولد سنة ٦٩٨هـ وخدم في ديوان الإنشاء أيام الملك الناصر بالقاهرة، وحج إلى بيت الله، وذهب إلى الكرك وغيرها. وأنشأ مدرسة بحارة بهاء الدين وأوقف عليها وقفاً جديداً وكتباً كثيرة، وكان من أصدقاء خليل بن أيبك الصفدي. الذي ترجم له في الوافي وألحان السواجع وله معه مراسلات، جمع خطبهُ في ديوان سماه (المقام المحير في مقام المنبر) توفي سنة ٧٦٢هـ.
انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ١٥٣ والوافي بالوفيات ١٣/ ٥١ والبدر الطالع ١/ ٢٢٨ ودائرة معارف البستاني ٣/ ٤٤٧، وألحان السواجع.

(٢) في الأصل: بن الحسني.

الشريف الأرموي سيّدٌ تقدم بسؤدده من كل جهة، بعضها شرف محتدهِ. لم يزل لبيته سياسة الدول، ورئاسة العلم والعمل، وأبرّ آخرهم على أوّلهم، ورموا فوق غاية الأرموي طول تطولهم، حتى رفعوا على السماء قبابا، وأرموا الثوابت أوتارا مدّوا بها المجرّة أطنابا، وأتى هذا الشريف شهاب الدين شهاباً في أفقهم وسحابا، يحبس سيله في طرقهم، فهو الآن واحد كتاب السلطان، واصحاب الإنشاء التي تغدو البرد بها كالطير خماصاً وتروح وهي بطان، خطيب منبر تورق بخطبه أعواده، وكاتب كأن أهواء النفوس / ٢٣٢/ مداده. وفقيه كأن أفواج السحاب أمداده، مع وفاء يصغر به صنع الشمول، وصفاء سريرةٍ ما انطوت عليها الأحناء لصدر الأول، وودّ يستسقي عهده مذ لبس رداءه وما تحوّل، وجدُّ أمّه محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر السعدي. المقدم في الكتاب وإن تأخر إلى قبل ابنه هذا المذكور في هذا الكتاب، فلم يكن شيء أفصح منه بعد، بيد أنه من قريش وأرضع في بني سعد، وهذه التقاليد اليوم لا تبرز إلاّ من إنشائه، ولا يترقبها في اليمن إلا ما هو من صنعه وشانه، وله ديوان خطب[١] أخمل ابن نباته[٢]، وترسُّل فضل الفاضل[٣] وفاته، ونظم ترك بديهة ابن عمه الرضي[٤] لا يرضي آياته.

ومن غرر نثره، ودرر قوله على دثره قوله[٥]:

أيها السيد وما خلّت البقاع، والإمام الذي انعقد على فضله الإجماع، والماجد الذي محاسنه[٦] ومحامده ملء الأبصار والأفواه والأسماع، صفحاً عن قريحةٍ ما أومضتْ حتى خبت، ولا مضت حتى كبت، ولا مضت حتى نبت. ولا امتدَّ لها ظل العيش حتى تقلّص، ولا ساغ لها ورده حتى غصص وتنغص، ولا أطل سحابه حتى أقلع، ولا أظلّ حتى تقشّع ولا سلَّم بيانه[٧] حتى ودَّع، كثرت[٨] عليها الكروب، وتخطب إليها الخطوب، وتوالت عليها الهموم، فلم تدع لها همة. ورمتها الحوادث بكل ملمّة، تسوّد القلب، وتبيض اللمّة، فلا غرو أن أضحت كليلة من الأتراح[٩]،

---

(١) ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة وقال: سماه «المقال المحبر في مقام المنبر» عارض بن خطب ابن نباتة.

(٢) ابن نباتة: سيترجمه المؤلف فيما بعد.

(٣) يريد به القاضي الفاضل.

(٤) يريد به الشريف الرضي.

(٥) الوافي بالوفيات ١٣/ ٥٤. من رسالة كتبها إلى أبي الثناء محمود الحلبي.

(٦) ليست في الوافي.

(٧) في الوافي بنان بيانها.

(٨) في الوافي كرّت.

(٩) في الوافي: الأفراح.

وأمست دمنة من الأفراح[١]. تدعي ولا تجيب، وما ذاك بعجيب. إن شاء المملوك منها إنشاء أبت إلا إباءً وقالت النجاة[٢] فبضاعتك مزجاة، عد عن هذا السبيل، لست[٣] من هذا القبيل، فقلتُ لما أعطت منعها، وأكثرت درها وردعها، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ومنه قوله:

يقبل ترباً شرف أن يكون المسك تربا. وحسب المسك في الذم أنه دم، ومن ثم خلق الكرم الجم. قوله:

وللمملوك مذهب في الزيارة رأى اختياره يؤثر أن لا يكثر. ويحب أن لا يغب.

ومنه:

وها أنا قد انقطعت عن الناس، وقنعت باليأس، وأقمتُ في بيتي، وعلمت أن ما كان لي سيأتي، وأرحتُ من الأطماع روحي، وقلتُ للنفس مكانك تحمدي أو تستربحي.

ومنه قوله، رسالة في لعب الكرة:

ولا /٢٣٣/ خلا مقرّ أنسٍ من أنس مقرّه، ولا موطن سرور من بشر محياه، ومحيا يسّره، ولا مجال وغى من محجلاته وغرِّه، ولا ميدان حربٍ من إقدامه وكره، ولا عدو من نصله، ولا ولي من نصره. المملوك يقبل اليد التي لا تزال بين منةٍ يسلفها، وأسنّة ترعفها، وأعنّةٍ تصرفها كيف شاءت ويصرفها، وصهوات جياد يمطيها، وهبات جودٍ يعطيها، ومسالك يوطّدها، وممالك يوطيها، وغمرات يكشفها وعوراتٍ يغطّيها، وتتنسَّم من قسماتها الشمس وضحاها، ومن لألائها بالقمر إذا تلاها، ومن آرائها المبيضّة في الخطوب المسودّة بالنهار إذا جلاها. ومن دهم جيادها التي تدهم العدى بالليل إذا يغشاها، لقد أوحشنا مولانا من مصر ولذاتها، ولطف معناه وذاتها، وأشواق ناديها وشط نيلها، وشاطىء واديها خصوصاً من لعب الكرة التي هي عقلة المستوفز وفرصة المستوفز، وأنموذج الحرب، ومجال يمرن على إجادة الطعن والضرب، ومن ذلك الميدان الذي هو كصدره في الرحب والسعة وحرمه في الأمن والدعة، بل نادي مولانا أندى وأخصب، وصدره أوسع وأرحب، وكراته تفعل بالكرات كفعل عليّ برأس

---

(١) في الوافي: الأتراح.
(٢) في الأصل: للنحاة، وفي الوافي: النجاة النجاة.
(٣) الأصل: ليست.

مرحب، حيث الظلال السلطانية قد بسطها الله على البسيطة، ومدّها والعزائم الناصرية قد أيّدها الله بنصره وأمدّها، ونحن من وجود ملكنا نصطبح ونغتبق، وعلى الجياد بين يديه نطّرد ونستبق، وننفرد ونتسق، ونتحد في ولائه لا نفترق، وإن كنا في طلب الكرة تارة نفترق. يركض من جيادنا ما يسبق البرق لو راكضها، ويفوق العارض الهتان لو عارضها، من كلّ حمراء كأنما جُدِلت من الشقق، ودهماء كسويداء القلوب وسواد الحدق، أو كالليل وما وسق، وشهباء ذات إهابٍ من يقق، كشهابٍ ائتلق، أو كالقمر إذا اتسق، وشقراء كما امتزج السلاف، يوقن من يتخذه بالتلاقي، ومن يقصده بالتلاف، أرشق من السهم في المسير، وأسبق إلى المدى من الوهم إلى الضمير، وبأيدينا صوالج كأنها سمهرية، تباهى بها الطعان إلى أن تناها، أو غصون هبت عليها عواصف الريح فأزالت خباها، أو أعناق المطيّ مالت / ٢٣٤/ أن مناها ومتاها، والكرة بيننا تضرب وليست مثلاً، ومكر وليست حنانا، وبكر وليست بطلاً، صفراء فاقعٌ لونها، لها من الدراري أشوافها ومن الدرر كونها تضرب ببعضها. وتضرب في الأرض فتجوب وتجول في طولها وعرضها، كأنما صنعت من لهب أو صيغت من ذهب. أو كأنها شموس كورت، أو من البرق اليماني كوّنت، ومن خلوق الصبح كوّنت وصوّرت، والسلطان أيّده الله يمدُّ إلينا ولها باعهُ، ويحرّض عليها أتباعه، ويضربها فتنفر من بين يديه، والفرار من بين يدي الملك طاعة، ويسير إليها في مواكبه كأنه البدر بين كواكبه، يحفّ به من الله تأييده ومن اليسر جنوده، ويحدقون به كما تحدق الأهداب بالمقل، والعطاش بالمنهل، والله يحرسه في رجوعه واتجاهه بعونه وجاهه، وبالجملة فمولانا مشغول عن الكرات اللعبية بالكرات الحربية، وعن الصولجان بالصول على كل جان، وعن التبكير إلى الكرة والتغليس بانتزاع نفس كل نفيس. واقتلاع رأس كلّ رئيس، وعن الطراد في السبت بالطراد في الخميس، والله تعالى لا يخلي مجال النصر من حلول ركابه، ولا موطن الابتهاج ومواقف الهيجاء من جانبه وجنابهِ بمنّهِ وكرمه. ومن شعره:

لا تقترح شيئاً على الأقدار[1]	واصبر لأحكام القضاء الجاري
ودع اختيار النفس في أفعالها	وكل الأمور لفاعلٍ مختارِ
واصفح عن الأيام في هفواتها	واشكر على الإعدام والإقتار
واطرح هموم النفس لا تحفل بها	كلٌّ بتقدير العزيز الباري
واقصر عن الآمال في الدنيا التي	كم أهلكت بسرابها الغدّار

(١) في الأصل: الاقتدار.

واسرح بعين الفكر هل أبقى الغنى ... أحداً يُرى بفناء هذي الدار
لا تغبطن أحداً على الإيراد ... إلا بعد أمنِ عواقب الإصدار

وله أيضاً(١):

تلقّ الأمور بصبرٍ جميل ... وصدرٍ رحيبٍ وخلّ الحرج
/ ٢٣٥/ وسلّم لربك في حكمه ... فأما الممات وأما الفرج

وله أيضاً:

حباني من الدنيا الدنيّة خالقي ... ولي خبّأ الأخرى له الحمدُ المنُّ
وما كان لي في علمه فهو كائنٌ ... ولو جَدّ في حرماني الأنس والجنُّ

وله:

أنا ابنُ فاطمةٍ وحيدر ... ما بمنعي مقتضى
لم يجر أجر الله إلا ... في صحيفةِ من رضى

ومنهم:

[٧٢]

تاج الدين، أبو سعد، محمد بن محمد بن عبد المنعم السعدي(٢)

ابن البارنباري، وهو المؤخر المقدم، بفضله المعلم شبا النوائب بنبله المعظم بمحله، المنظم بقلمه، ما فاق السيف في جوهر نصله، يا له قلماً لا يخطىء سهمه القرطاس، ولا يخلى نخبه من شرب كاس وطاس، من بنان ينشي الصاحي، وينسى مقالته اللاحي، بما تفتر له ثغور الأقاحي، وبغير رائد زهره الممطور في اليوم

---

(١) البيتان في: الدرر الكامنة ٢/ ١٥٥ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٠.

(٢) محمد بن محمد بن عبد المنعم. تاج الدين، أبو سعد السعدي، البارنباري، وقد ضبطه الصفدي بباء موحده وألف بعدها راء ونون بعدها باء موحدة، وبعد الألف راء أخرى، ثم ياء النسب، ولقّبه ابن حجر في الدرر بالزّفتاوي. قاض من الكتاب المترسلين الشعراء، ولد سنة ٦٩٦هـ وطلب الفقه والعربية وكتب خطاً حسناً، وكتب في الإنشاء بالقاهرة سنة ٧١٣، ثم نقل إلى طرابلس وفي سنة ٧٤٥هـ داهم بيته سيل، فخرج ليعرف ما حدث، وعاد فلم يجد البيت بما فيه، وفي الجملة ولداه الشابان، فاختلط عقله وعاد إلى القاهرة، وعاش بقية عمره حزيناً حتى وفاته فجأة في القدس سنة ٧٥٦هـ.

وله شعر وسط، جمع في ديوان سماه «الفتح الرفيع في مدح الشفيع» الثالث والخامس منه في دار الكتب. انظر: الدرر الكامنة ٤/ ٣١٥ الوافي بالوفيات ١/ ٢٤٩ وأعيان العصر وله مع الصفدي مراسلات ذكر بعضها في كتابيه المذكورين. والنجوم الزاهرة ١٠/ ٣٢٠ والأعلام ٧/ ٣٧.

الصاحي، فلا يدرى أرياضاً بواقع تيقّظ راقِدُها، أم مطالع تغيظ حين تسامرهُ فراقدها. تزوج إلى أقربائه، وتزود ما ينفق بضاعته على قرنائه، إذ كأنه حلل، أو عقائل مأواها حلل أرقّ حاشية من ذلاذل النسيم، وأدقّ معنى من تكشف الشمس في اليوم المغيم، هو من بني سعد، وصاهر إليهم وجاهر الجواهر بما فضه لديهم، وظاهر بني عبد الظاهر وفاخر في دولة الناصر، ما لهم في دولة الظاهر، فكان تفاوت السلكين تفاوت ما بين الملكين، أتى السيل فطمّ على القرى، وطلع الصباح فأخفى نور الكوكب الدرّي. بفضائله الغرر، ورسائله التي فاءت على قسمات الطروس كالطّرر، كان بمصر يباري نيلها السائغ الشراب، وقبيلها الأتراك الأتراب، لمحاسن نشرها ديوان الإنشاء حبراً، وصورها في مخاطبات الملوك درراً ثم عقد له بطرابلس على رئاسة هذا الديوان، وقعد على كيوان، ورأيت منه على تجافي الأخوة والأخوان، وتنافي /٢٣٦/ أحوال العوالي والأدوان، وتكافي مال العزّ والهوان. ما حمدت طريقه، وحمدت منه الخليقة. فألقيته لا يسمح بصاحبه، ولا يجمح إلى حفظ معيب عائبه، ولا مغيب عاتبه، يسعى في مآربه، ويرعى منه أكثر من أقاربه.

ومن نثره قوله:

وينهى ورود المثال العالي بما كان حصل للمزاج الشريف من التوعك الزائر، ثم زال أسرع من خطفة طائر، وعادت الصحة إلى المزاج الشريف تماماً على الذي أحسن. وابتهجت القلوب، وقرت الأعين، وأن مولانا أظهر ما يجب من الإعلان بالسرور وملأ بالبشرى الممالك، فابتسمت ثغور الثغور، وزيّنت مدينة جلّق، وكل أمير ومأمور فيها كأنه كوكبٌ مخلّق. وما اقتضته الصدقات العميمة من أعلام المملوك بهذا النبأ الذي أزال البؤس وأبهج النفوس، وسكّن الخواطر بصحة الذات الشريفة والمزاج المحروس، ليأخذ المملوك من مسرّتها حظّه، ويودع قرتها لحظة، ورسم بتجهيز فلان في هذه البشرى، وقد قابلها المملوك بسجوده شكرا، وعطّر بالخلوق كلّ بشرٍ مخلوق، وهذه أعظم نعمة أهداها مولانا إلى المملوك، شرحت الصدور وقدمت بالسرور، وقامت بها دعائم الإسلام في سائر المعمور، وبات الإيمان على طمأنينة في كل الأمور، وشكر المملوك صدقات مولانا التي نبهته على هذه المسرّة، وأطلعت المملوك على هذه التهنئة، وكم له من مبرّة، والمملوك تحت جناحه مقيم، ومن تلقائه يأتي كل خيرٍ عظيم، وحال ورود هذه البشارة تقدم بزينة مدينة طرابلس فأصبحت ذات أفراح، وأمست ذات حلى ووشاح، وطار القلب من فرحِهِ بغير جناح، والحمد لله على هذه المسرّة التي عمّت الأقطار، وامتدّت مع الليل والنهار، إلى ما وراء البحار، ولو بذل

الأنام مهجهم من السرور بهذا الشفاء لقصّروا، ولو شطّروا له البشائر بسواد البصر لاختصروا:

لله يـوم مـسـرّات وقـد وردت فـأسـفـرت عـن مـحـيـا كـلّـه قـمـر
جاءت بصحّة ملك الأرض قاطبةً فـتـمّ لـلـديـن مـنـهـا الـعـزّ والـظـفـر
إن البسيطة أضحت في بشائرها كـأنـهـا الـروض فـيـه أيـنـع الـثـمـرُ

/ ٢٣٧/ ومما كتبه إليّ يستدعي نسخة كتاب «صبابة المشتاق» وهو ديوان نظمته في المدائح الشريفة النبوية[1] زادها الله شرفاً:

والمملوك يسأل الأنعام عليه بنسخة من القصائد الشريفة النبوية من النظم الكريم، يحفظها ويحفظها بنيه، ويذيع فضلها فيما يليه، وما أحد أحوج من المملوك إلى هذه القصائد، لأنه جار عدوّ كائد، فتنشد عند الفزع، فيذهب الله بها اليأس والجزع، وينزل السكينة، ويعز النفس المسكينة، ويعرف الكافر ويحرق السفينة، وكان الرعب تقدم جيشه ﷺ شهراً من المدينة، فمدائحه الشريفة، وذكر معجزاته تدرأ بها الخطوب وتستنزل الغيوث من الغيوب. والله تعالى يهدي بعلومه الشريفة، فإنها إحياء الدين وقوت القلوب.

ومما كتبه إليَّ أيضاً:

وينهي ورود المثال العالي، المبلغ للوطر، المرجو منه ما يرجى من المطر، يتضمّن الخبر الذي لولاه لكان المملوك نسياً منسيّاً، والبيان الذي أصبح قسيّاً. وحين فضّه المملوك، فضَّهُ قائماً، ورآه لأبواب الخير فاتحاً، ولأئمة العلم خاتماً، وكلّه بالقلم الشريف مرقوم، وهذه منةٌ ليس شكر المملوك لها يقوم، والسيد يتنوع في خبر من فوقه، ويوضع العبد ما صنع ما قام لسيده بحقوقه، ومن حين حلّ الركاب الكريم في دمشق امتدّ جاه المملوك، واشتدّ ساعده، وأيقن المملوك أن له بحراً يمده إذا لم تروهِ مواردهُ، فلا عاش شانئه، ولا سعد حاسدهُ.

ومما كتبه إليّ عن الأمير طينال نائب طرابلس:

يقبل الباسطة، لا زالت أوطانها بها معمورة، والقلوب بالإقبال الشريفة عليها مسرورة، ومناقبها في صفحات الأيام مسطورة. وينهى أن المسرّة بما حدده الله لمولانا من الإنعام الشريف قد جلّتْ عن الحصر، وعاقبة الصبر النصر، والحمد لله الذي زخرف الجنّة وشيَّد القصر، وما كان الله ليدرأ الممالك، ممن تحلّى بألفاظه جيدها،

---

(١) ويقع في أربع مجلدات، انظر: الأعلام ١/ ٢٦٩.

ولا يخلّها ممن تفوق كتبه الكاتب وتجنيدها، وأنتم أهل بيت الألطاف إليكم ناظرة، والأقدار إليكم ناصرة، ولكم سلف صالح ترجون بركته في الدنيا والآخرة، وعند المملوك من الابتهاج يقرب مولانا /٢٣٨/ وأنسه ما لا يستوعب العبارة شرحه، لأن إحسان مولانا سابق، ومواقع فضله لا ينسى الله لها تلك الحقائق.

وبتمام ذكره ثم ذكر كتّاب مصر أمواتاً وأحياءً، ممن نكس لهم البدر خجلاً وتنقبت الشمس حياءً، ممن وقع في القسم المغربي حسابه، وهمع في الأفق الغربي سحابه.

وهذا أوان انقضاء جهة الكتاب في القسمين شرقاً وغرباً، بعد أن كاثرت أمدادها اليمين بحراً وسحباً، قد أرتك الجانبين عياناً لنظرك، وأعياناً ماثلة لمحضرك، فأيّ الأفقين الآن فضل، وأي المشرقين نظراً ونضل، على أني أقول، ولا عصبيّة ولا حميّة لقوة غضبية، إن كتاب المشرق أفخم بما نالوا، وأعظم بما فعلوا لا بما قالوا وهم إن لم يرجحوا على كتاب المغرب عدداً، ويطرحوا ملء المهارق لؤلؤاً بدداً. فما هم بدون نظائرهم في الأدب العباب مدداً، ولا أقصر في عمر الزمان مدداً، ولولا كتاب مصر في قبيله، ومآب القوم إلى سبيله لما ازدان ذلك الأفق بأنجمه، ولا تحدّر البيان من أراد أن أممه مع سبق سادات لهم لا سبب أن ينكر به أحدٌ فضلهم كابن خاقان وابن بسام، وكلاهما ضاحك بسّام، وإنّما امتازوا من كلام مصر طرازها المحرر وسكرها المكرر.

* * *

الخطـــابــــــة

[خطبـاء المشـرق]

وأما الخطابة فبالشرق منشؤها، ومنه منشئها، وبه نصبت منابرها، وخطبت أكابرها، لا يعرف لأمة قبل العرب قيل الخطب، إلا أنه كان في بعض الأمم كالفرس والروم متكلم إلاّ أنه لا يقوم ولا ينتصب خطيباً. إذا تكلّم سكت الناس، وإذا صعد نكّس كلّ راس، وإذا سلم هذا فما أشرق عيدان المنابر بالمشرق وأورق، حيث العرب وفارس وجمهور الروم، وحيث الخطب تنشأ والخطباء تقوم. فأما المغرب، فبلاد بربر لا يُعرف فيها خطيب ولا منبر، إلا أن ركزّت رايات الإسلام في مراكزها، ثم تكلمت قالتها باستفادة التعلّم بغرائزها، وقد قدّمنا في أول هذه المفاضلة ما يقرع في سهام المناضلة، وها أنا أذكر من خطباء الجانبين ما يعرف به قدر كلامهم السائر في الوجود، وسهامهم التي / ٢٣٩/ تشق القلوب قبل الجلود، وأبدأ بالمشرق كشأننا فيما تقدم، وأقول الحقّ ولا أتندم.

[الخطباء قبل الإسلام]

فأما من كان قبل الإسلام فهم عدد لا يمكن إحصاؤه، وقد ذكر الجاحظ الخطباء في الجاهلية والإسلام على غير ترتيب، وقال[١]:

ومن قدماء الرؤساء الخطباء الحكماء[٢]: كعب بن لؤي[٣]، قلت: وعليه عمود النسب، وإليه ذاك الحسب المنير المنيف، الضويّ، فاض عليه ذلك النور الساطع واستفاض عنه ما يسرّ المسامع وكفاه شرفاً مرور النسب الصميم على جادته، وإنما النبي الكريم وكعب، قيل إنه أول من خطب يوم عروبة، وهو الجمعة، وجمع الناس، وذكر لهم شأن النبي ﷺ ودنوّ أوان مبعثه، وبشر به، ونحر لهم يوم ذاك الجزر وأطعمهم.

وحكى الزبير بن بكار، قال[٤]: كانت قريش تجتمع إليه فيخطبهم ويقول:

أما بعد، فاعلموا، وتعلّموا، إنما الأرض مهاد، والجبال أوتاد، والسماء بناء، والنجوم علائم، يأمرهم بصلة الرحم، ويبشّرهم بالنبي ﷺ، ويقول: حرمكم يا قوم عظّموه، فسيكون له نبأ عظيم، ويخرج منه نبيّ كريم، ثم يقول في شعر ذكره:

على غفلةٍ يأتي النبيّ محمد[٥] ... فيخبر أخباراً صدوقاً[٦] خبيرها

صروفٌ رأينا تقلّب أهلها ... لها عقد ما يستحيل مديرها[٧]

ثم يقول:

يا ليتني شاهدٌ فحواء دعوته ... حين العشيرةُ تبغي الحق خذلانا[٨]

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٥١.

(٢) في البيان والتبيين: ومن الخطباء القدماء.

(٣) كعب بن لؤي بن غالب، جد جاهلي، من سلسلة النسب النبوي، كان عظيم القدر عند العرب، حتى أرخوا بموته إلى عام الفيل. انظر: تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٠٦، معجم الشعراء للمرزباني ص٢٢٨، أنساب الأشراف ١/ ٤١.

(٤) الخطبة، أنساب الأشراف ١/ ٤١ وصبح الأعشى ١/ ٢١١.

(٥) في انساب الأشراف: يأتي نبيٌّ مهيمن.

(٦) في الأصل: صدوقٌ، وفي أنساب الأشراف: يخبر أخباراً عليماً...

(٧) في معجم المرزباني وصبح الأعشى حروف وأنباء... عقدةٌ ما يستحلّ.

(٨) في الأصل:

يا ليتني شاهد نجوا دعوته ... إذا فراش ببغي الحق خذلانا

وأثبت ما ورد في معجم المرزباني.

[من ذكرهم الجاحظ بالمشرق]

ثم عدّ الجاحظ قوماً، فذكر[1]: عبد الله بن شريّة[2] الجرهمي، من جرهم، وأسقف نجران. وأكيدر[3] صاحب دومة الجندل، وأفيعى نجران[4]، وذرب بن حوط، وعليم[5] بن جناب، وعمرو بن ربيعة، وهو لُحيّ[6] بن حارثة، وجذيمة[7] بن مالك الأبرش.

قلت: وكان رجلاً جباراً، وملكاً لجّ استكباراً، ذا أيدٍ شديد، وكيدٍ مديد، إلى رفدٍ وافر، وجندٍ قلّ إن رجع غير ظافر، وهو خال قصير الذي جدع أنفه فقيل: لأمرٍ ما جدع قصير أنفه. وإنما جدعه لإدراك ثار خاله، وسعى ذلك حتى أدركه، وليس هذا موضع الاستقصاء، قيل: وجذيمة بن مالك أول من أسرج الشمع، وأول من / ٢٤٠/ قاتل بالمجانيق، ثم أخذ الجاحظ في ذكر رجال قدّم منهم وأخّر على غير نظام ولا ترتيب بزمان، ولا بيان. ذكر أكثرهم أسماءً مجرّدة عرية من ذكر شيء من أخبارهم. فأما من نذكره على عادتنا.

فمنهم:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٦٢.

(٢) في الأصل: شبرمة، والتصويب عن البيان والتبيين ١/ ٣٦٢.

(٣) أكيدر بن عبد الملك الكندري، ملك دومة الجندل في الجاهلية، له حصن، بعث إليه النبي ﷺ خالد بن الوليد، فوجده في نفر من أصحابه يطاردون بقر الوحش. وكان مغرماً بالصيد فأسره وأقبل به على الحصن، فافتتحه صلحاً، وأخذ أكيدر إلى النبي، فردّه ﷺ بعد أن أقرّ بدفع الجزية، ثم نقض العهد، فأرسل إليه أبو بكر خالداً فقتله سنة ١٢ هـ.
انظر: معجم البلدان (دومة الجندل).

(٤) أو أفعى نجران، من جرهم، كان منزله نجران، وكان معاصراً لنزار أبي ربيعة ومضر، فيما كانت العرب تقصده في قضاياها فيحكم بينهم. تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢٦ ومجمع الأمثال ١/ ١٠.

(٥) عليم، بهيئة التصغير، بن جناب بن هبل، من كنانة عذرة، من قضاعة، جد جاهلي. اللباب ٢/ ١٤٩.

(٦) في الأصل: وهو جد لحي بن حارثة، وهو تحريف، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٧) جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو بن دوس بن الأزد، ملك الحيرة، والأبرش لقبه، ويقال له أيضاً الوضاح، طمح إلى امتلاك مشارف الشام فغزاها وقتل ملكها عمرو بن العزب، أبا الزباء التي احتالت عليه وقتلته. تاريخ اليعقوبي ١/ ١٦٩ ونهاية الأرب ١٥/ ٣١٦.

[١]

قس بن ساعدة الأيادي(١)

المضروب به المثل في الفصاحة، وهو إمام القوم، وخطاب الخطابة له إلى اليوم، وقد جاء أنه يحشر أمّةً وحده، ووصف الإيمان وحدَّه، وكان في زمان طنب فيه الكفر وسردق، وتراكم فيه سحاب الشرك وأغدق، والظلم قد مدّ ظلامه واشتدَّ على الحقّ، وضامه فأعلن بالتوحيد والشرك قد ملأ آناء الخافقين ونعم إناء الليل والنهار الدافقين، فمهّد للرسالة، وقدم للدلالة، فجلا صدأ الجاهلية الجهلاء، وصدع دُجى تلك الليلة الليلاء.

قال الجاحظ وقد ذكره(٢): ولأيادٍ وتميم خصلة في الخطب ليست لأحد(٣)، لأن رسول الله ﷺ روى عن قس بن ساعدة، وذكر موقفه على جمله بعكاظ(٤)، وقال: رواه للذي عجب من حسنه(٥) وأظهر تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، وإنما وفّق الله ذلك لقس لاحتجاجه للتوحيد والإيمان بالبعث(٦) قال(٧): وكذلك ليس لأحد في ذلك مثل الذي لبني تميم، وسيأتي ذكره في ترجمة عمرو بن الأهتم. فأما خطبة(٨) قس التي قال النبي ﷺ: كأني أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جملٍ أحمر، وهو يقول: يا أيّها الناس اجتمعوا واسمعوا، ثم عُوا من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ [آت].

أما بعدُ: فإن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، نجوم تمور، وبحار تفور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم بالله قسٌ قسماً فما كذب ولا آثم. إن لله

---

(١) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، الأيادي، حكيم العرب، انظر: البيان والتبيين في مواضع متفرقة والأغاني ١٥/ ١٤٦ ومعجم المرزباني ٢٢٢ وخزانة الأدب ٢/ ٨٩ والبداية والنهاية ٢/ ٢٣٠، والإصابة وكتاب العصا (نوادر المخطوطات) ١/ ١٨٦. ولأحمد الربيعي (قس بن ساعدة الأيادي: حياته وخطبه وشعره) النجف ٩٧٤.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٥٢.

(٣) بعدها في البيان والتبيين: من العرب.

(٤) في البيان والتبيين: وهو الذي روى قس... وموقفه بعكاظ وموعظته.

(٥) في البيان والتبيين: وهو الذي عجّب من حسنه.

(٦) في البيان والتبيين: لاحتجاجه للتوحيد، وإظهاره معنى الإخلاص، والإيمان بالبعث.

(٧) البيان والتبيين ١/ ٥٣.

(٨) وردت خطبة قس مغايرة بعض الشيء لما رواه أبو الفرج في الأغاني ١٥/ ٢٤٧ والجاحظ في البيان والتبيين.

ديناً هو أرضى له من دينٍ نحن عليه، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم هم نيام كما زعموا، أم تركوا فناموا، أقسم بالله قسّ قسماً فما كذب ولا أثم، ليطلبنّ من الأمر سخطاً، ولئن كان في بعض الأمر رضى أن في بعض الأمر لسخطا، وما هذا لعب، وإن من وراء هذا لعجب.

قال النبي ﷺ: وسمعته ينشد شعراً لا أحفظه، فقال رجل من بكر بن وائل: يا رسول الله /٢٤١/ ، قد حضرت ذلك، أنشدكه؟ قال: هات، فقال[1]:

في الذاهبين الأوّلين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت[2] ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى مع الباقين غابر[3]
أيقنتُ أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

وقدم وفدٌ من إياد على رسول الله ﷺ فسألهم عن حكم قس فأخبروه وأنشدوه:

يا ناعي الموت، والأموات في جدثٍ ... عليهم من بقايا بزّهم خرقُ[4]
دعهم فإنّ لهم يصاح بهم ... كما ينبه من نوباته الصَّعق
منهم عراةٌ وموتى في ثيابهم ... منها الجديد ومنها الأورق الخلق

وقال حزم بن راشد: أملّ عليّ بخراسان رجلٌ من إياد من مواعظ قسّ:

مطرٌ ونبات، وأحياء وأموات، وذاهبٌ وآت، وآياتٌ في أثر آيات، وأموات بعد أموات، ضوءٌ وظلام، وليل وأيام، فقير وغني، سعيد وشقي، محسن ومسيء، أين الأرباب الفعلة، ليصبحنّ كل عاملٍ عمله، كلاّ بل هو الله، وهو إله واحد ليس بمولودٍ ولا والد. أعاد وأبدى. وإليه الأمر غدا. أما بعد، يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين الذين عمرو الدور، وشيّدوا القصور، أين الحسن الذي لم يشكر، وأين الظلم الذي لم يُنكر.

وقس، أوّل من أيقن بالبعث بغير علم، وأول من كتب من فلان ابن فلان إلى

---

(١) الأبيات والخبر في: الأغاني ١٥/٢٤٧ والبيان والتبيين ١/٣٠٩ وحماسة البحتري ص٩٨ ومعجم المرزباني ٢٢٢. وكتاب العصا (نوادر المخطوطات) ١/١٨٦ وصبح الأعشى ١/٢١٢.

(٢) في معجم المرزباني: للخلق.

(٣) في المرزباني وحماسة البحتري والعصا: لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين.

(٤) معجم المرزباني ٢٢٣.

فلان، وهو أول من قال: أما بعد من العرب، وهو أول من خطب بعصا، وقيل إن أول من فعل ذلك وقاله كعب بن لؤي.

ومنهم:

[٢]

عمرو بن الأهتم[١]

وقد حضر مجلس رسول الله ﷺ وسكت الناس وتكلم وقال فأبلغ، وطال فقلّص ظلالا وأسبغ، وجسر حيث نجم الليوث الكواسر. ونجم بالرخصاء القياصر والأكاسر، وأطلق لسانه بالمدح والذم، وانطلق بيانه فانقص وأتمّ، فكشف أستار الأسرار، وكسا الزبرقان[٢] حلل التمام والسّرار، ولم يدنس بالادعاء وقول الحسناء[٣] /٢٤٢/ والشنعاء. وسأله[٤] رسول الله ﷺ عن الزبرقان بن بدر. فقال: مانع لحوزته، مطاع في أدانيه، شديد العارضة، فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم منّي أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي، فقال عمرو: يا رسول الله، أما لئن قال، فوالله ما علمته إلا ضيّق الصدر زمر[٥] المروءة، ضيّق العطن[٦]، حديث الغنى، أحمق الولد، لئيم الخال، فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر، ورأى الإنكار في عيني رسول الله ﷺ، قال: يا رسول

---

(١) عمرو بن سنان (والأهتم لقبه) بن سميّ التميمي. المنقري، أبو ربعي، أحد السادات، الخطباء الشعراء في الجاهلية والإسلام، من أهل نجد، وفد على رسول الله ﷺ، فأكرمه وأثنى على بيانه. كان يقال في شعره، كأنه في مجالس الملوك حلل منشرة توفي سنة ٥٧هـ. انظر: البيان والتبيين ١/ ٤٥ و٥٢ والإصابة ت٥٧٧٢. والشعر والشعراء ٦٣٦ وسرح العيون ومعجم المرزباني ٢١ والخزانة ٣/ ٢٥٣ و٤/ ١٣٤ وشرح المرزوقي ١٦٥٢ ومن اسمه عمرو من الشعراء ص٨٨، وجمهرة ابن الكلبي ١/ ٢٣٢، وجمهرة ابن حزم ٢١٧ والعقد الفريد ٢/ ٦٤ والموشح ١٠٧ ولباب الأداب ٢/ ٤٣، والمفضليات ٢٣ و١٢٣ ونشر شعره سعود محمد عبد الجبار مع شعر الزبرقان، بيروت ١٩٨٣.

(٢) الزبرقان بن بدر، واسمه الحصين، لقب بالزبرقان لجمال وجهه، من سادات بني تميم في الجاهلية والإسلام وفد على النبي ﷺ، هو وعمرو بن الأهتم ممن نادوا رسول الله من وراء الحجرات حين وفدوا في بني تميم. ثم ولاه النبي صدقات قومه، مات أيام معاوية، انظر: الإصابة تسلسل ٢٧٨٢، المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٨٧ وخزانة البغدادي ١/ ٥٣١.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) انظر الخبر في البيان والتبيين ١/ ٤٣ وزهر الآداب ١/ ٦ وفيها خلاف يسير عما أورده المؤلف.

(٥) زمر المروءة قليلها.

(٦) العطن: مناخ الإبل، وضيق العطن كناية عن البخل.

الله، ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية، ولقد رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وقال ﷺ: إن من البيان لسحراً.

قال الجاحظ[(١)]: ويعرف بالمكحّل، ويقال: كأنّ شعره في مجالس الملوك حُلل منشّرة.

وقيل لعمر بن الخطاب بحضوره[(٢)]، قيل للأوسية، أي منظر أحسن، فقالت: قصور بيض في حدائق خضر، فأنشد عمرو[(٣)] قول عدي بن زيد:

كدمى العاج في المحاريب أو كبيض في الروض زهره مستنيرُ.

وذكر في رجال لقسامة بن زهير فقال: كلام عمرو بن الأهتم أتم[(٤)]، وشعره أحسن.

قال الجاحظ: وقسامة أحد أبيناء العرب[(٥)].

قلت، ومن بنيه عبد الله بن الأهتم[(٦)]، وكان خطيباً ذا مقامات، وكشف غوامض معان، وكرامات وأعيان، خطب خطبة فلم أقف له على ساحل ولا لج. ولا ملأت يدي من سمهريّة بسنان ولا زج.

ومنهم:

[٣]

سعد بن الربيع[(٧)]

وأيّ فصل خطاب تروع زواجره، وتضيء جنح الدجى دياجره، ويضوع منه

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٥.
(٢) بحضوره: ليست في البيان والتبيين.
(٣) في البيان والتبيين: فأنشد عن ذلك عمر بن الخطاب.
(٤) البيان والتبيين: آنق، وواضح أن الأمر اختلط على المؤلف، فقد ظن أن عمرو بن الأهتم كان حاضراً الحوار، فلما سمع قول الأوسية، تمثل ببيت عدي بن زيد، غير أن الذي أورده الجاحظ أن قسامة حين سمع وصف الأوسية للمنظر الحسن، بالقصر الأبيض في الحدائق الخضراء قال أن شعر عمرو أحسن منظراً من هذا الذي وصفت.
(٥) في البيان والتبيين: الآبيناء، وقسامة بن زهير المازني، ممن أدرك عصر النبوة، وشارك في فتح الأبلّة مع عتبة بن غزوان، وكان فيها رأساً، وكان من العباد الزهاد النسّاك، الخطباء الابيناء، من أهل البصرة، مات أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، انظر: طبقات ابن سعد ج٧ ق١ ص١١٠، الإصابة ت٧٢٨.
(٦) عبد الله بن الأهتم المنقري، بعض أخباره في البيان والتبيين ١/ ٣٥٥ و٢/ ٦٥ و١٧٥.
(٧) سعد بن الربيع بن عمرو الأنصاري، الخزرجي، صحابي جليل، من الشجعان، قتل شهيداً يوم أحد. ذكره الجاحظ في الخطباء (البيان والتبيين ١/ ٣٦٠، وانظر: طبقات ابن سعد ٣/ ٢/ ٧٧ و١٤١، الإصابة ت٣١٤٧.

الطيب هواجسه وهواجره، بخاطرٍ تفجر حكماً، وحاضر حلّ منه حرماً، ومذ قدح زناده لم يصلد، ولم يشف إلى الأرض ولم يخلد.

قال الجاحظ: وهو الذي اعترضت[١] ابنته النبي ﷺ فقال لها: من أنت؟ فقالت: ابنه الخطيب النقيب الشهيد، سعد بن الربيع.

ومنهم:

[٤]

ثابت[٢] بن قيس بن شماس الأنصاري

خطيب رسول الله ﷺ وهو بهذا سيّد الخطباء، ومشيّد مباني الفخار على ذي الجدار والخباء، بلغ مبلغاً عظيماً، وبزغ خلى البدر لنوره /٢٤٣/ عديماً، وأي كلم اسمع، وأيّ حكم حازها أجمع. وكلّمه[٣] عامر بما كره، فقال: أما والله لئن تعرضت إلى سبابي، وشبا أنيابي، وسرعة جوابي، لتكرهنّ جنابي، فقال النبي ﷺ: يكفينيك الله وابنا قيلة[٤].

قلت: وقد ذكره الجاحظ[٥]، وذكر أباه قيس بن شماس في الخطباء، ولم يذكر له بنت شفة. ومنهم: سهيل[٦] بن عمرو. والأعلم أبو يزيد[٧]، بارقة سيل، وطارقة ليل، وسارقة نجوم، لا يعرف منها غير سهيل.

قال الجاحظ[٨]: كان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الإسلام، وكان

---

(١) في الأصل: أعرضت، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٢) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي، الأنصاري، صحابي، كان خطيب رسول الله ﷺ قتل شهيداً يوم اليمامة سنة ١٢هـ، ذكره الجاحظ في الخطباء (البيان والتبيين ١/ ٢٠١ و٣٥٨ و٣٥٩) وانظر: الإصابة ٩٠٠، وصفة الصفوة ١/ ٢٥٧.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٥٩: وفيه هو الذي قال لعامر حين قال: أما والله لئن تعرضت لعنّي وفني، وذكاء سنيّ، لتولينّ عنيّ.. وفي الهامش أنه عامر بن عبد القيس، وليس به فهو تابعي.
وقد اتهم الجاحظ راوي هذا الخبر بالوضع، قال: وقد أخذت هذا الحديث من رجل يضع الاخبار، فأنا اتهمه.

(٤) ابنا قيلة: هما الأوس والخزرج، وهي قيلة بنت كاهل.

(٥) البيان والتبيين: ج١/ ٢٠١ و٣٥٨ و٣٥٩. (٦) في الأصل: سهل.

(٧) في الأصل: زيد، وهو سهيل بن عمر، من بني حسل بن عامر بن لؤي خطيب قريش وهو الذي تولى أمر الحديبية نيابة عن قريش، ثم شهد حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه وأسلم بعدها، فكان من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه، وخرج إلى الشام أيام عمر بن الخطاب. انظر: البيان والتبيين ١/ ٣١٧ والمعارف ٢٨٤ والإصابة ٣٥٦٦.

(٨) البيان والتبيين ١/ ٣١٧.

عمر بن الخطاب قد قال: يا رسول الله انزع ثنيتيه السفيلين حتى يدلعُ لسانُه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال[١]: دعه يا عمر، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده، فلما هاج أهل مكة إذْ مات رسول الله ﷺ، قام فيهم خطيباً فقال: أيها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله تبارك وتعالى حيّ لم يمُت، وقد علمتم أني أكثركم قتباً في برّ وجارية في بحر، فأقرّوا أميركم[٢]، وأنا ضامنٌ إن لم يتم الأمر إني أردّهم عليكم، فسكن الناس.

ومنهم:

[٥]

عطاد[٣] بن حاجب بن زرارة

وقام خطيباً عند النبي ﷺ وقال: وأذعن كلّ وسلّم، واستمدّ من ذلك النور فجلا دجى الظلماء، وقام في تلك الحضرة، فأضحى عطارد الأرض فوق عطارد السماء، وفيه يقول الفرزدق:

ومنّا خطيب لا يُعاب وحاملٌ ... أغَرّ إذا التفّت عليه المجامع[٤]

ومنهم:

[٦]

سعيد[٥] بن العاص بن العاصي بن أمية

من أي حسب حميم، ونسبٍ صميم، وفخار موروث ومكتسب، وادخار محسوب ومحتسب، من قريش حيث يترجم مطيّبها على أحلافها، ويتبجح أمويّها في منافها، سوّده سؤدده، وأدّاه إلى عرق الثرى ادده، قال الجاحظ: وكان جواداً أسوداً

---

(١) بعدها في البيان والتبيين: لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبياً.

(٢) في الأصل: أمركم.

(٣) عطاد بن حاجب بن زرارة التميمي، من سراة تميم في الجاهلية، وفد على كسرى ليستردّ قوس أبيه، ثم وفد على النبيّ ﷺ، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، توفي أيام عمر بن الخطاب، انظر: الإصابة ت٥٥٦٨، والبيان والتبيين ١/ ٣٣٨.

(٤) في الأصل: المحافل، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٥) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص. الأموي، القرشي، صحابي من القادة الفاتحين ولاه عثمان الكوفة وفيها قال كلمته المشهورة: إنما السود بستان لقريش، فأثارت معارضة أهل العراق. سكن المدينة. ولما قتل عثمان خرج إلى مكة، حتى إذا ولي معاوية عينه أميراً على المدينة، وبها مات سنة ٥٩هـ.
انظر: الإصابة ت٣٢٦١ وطبقات ابن سعد/ ١٩ وإخباره كثيرة في كتب التاريخ.

نحيفاً، ولم ينزع قميصه قط وقال الحطيئة فيه:

سعيدٌ فلا يغررك قلّة لحمهِ   تخدَّدَ عنه اللحم فهو صليبُ[١]

وولده عمرو[٢] بن سعيد المعروف بالأشدق، ولو بقيت له الشمس لأشرق، وأغضّ ابن مروان /٢٤٤/ وأشرق.

قال الجاحظ[٣]: وكان قد أهوى بيده إلى عبد الله بن معاوية ليضربه، فقال له عبيد الله بن زياد: يدك عنه[٤] يا لطيم الشيطان، ويا عاصي الرحمن، فسمي باللطيم.

وفي تشادقه قيل[٥]:

تشادق حتى مال بالقول شدقُهُ   وكلّ خطيب لا أباً لك أشدق

وقال له[٦] معاوية: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال: أبي أوصى إليّ ولم يوص بي، فقال معاوية: إن ابن سعيد هذا لأشدق.

وابنه: [٧]

سعيد[٧] بن عمرو

وكان ذا بيان وأمر وزمان، وطي منه على أي حجر، وخذلان سكر منه بغير خمر، وكان ناسباً خطيباً، إلى كبرٍ عظيم كان فيه، وقيل[٨] له عند الموت: إن المريض ليستريح إلى الأنين، وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب فقال[٩]:

أجاليد[١٠] من ريب المنون فلا ترى   على هالك عيناً لنا الدهر تدمع

---

(١) البيت في البيان والتبيين ١/ ٣١٥ والديوان ٤٢.

(٢) عمرو بن سعيد بن العاص، أبو أمية، الأموي القرشي، من الخطباء البلغاء، الدهاة، لقب بالأشدق لفصاحته، ولي المدينة ومكة لمعاوية ويزيد، ولما طلب مروان الخلافة عاضده، فجعلها له بعد عبد الملك، فلما ولي عبد الملك أراد خلعه من ولاية العهد، واتفق أن خرج عبد الملك من دمشق لقتال بعض مناوئيه استولى عمرو على دمشق وبايعه أهلها، فعاد عبد الملك، وما زال يتلطف به حتى فتح أبواب المدينة، ثم قتله بعد أن أعطاه الأمان سنة ٧٠هـ.
الإصابة ت٦٨٥٠ وفوات الوفيات ٢/ ١١٨ وأخباره كثير في كتب التاريخ.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣١٥.

(٤) في البيان والتبيين: عنّي.

(٥) البيت في البيان والتبيين ١/ ١٢١.

(٦) البيان والتبيين ١/ ٣١٦.

(٧) ترجمته في طبقات ابن سعد ٦/ ٢٢٨ والبيان والتبيين ١/ ٣١٦.

(٨) البيان والتبيين ١/ ٣١٦.

(٩) البيت في البيان والتبيين ١/ ٣١٦.

(١٠) في الأصل: أخالد، والتصويب عن البيان والتبيين، وأجاليد: جمع للجلد، وهو القويّ النفس والجسد.

ودخل مع خطباء قريش وأشرافهم على عبد الملك، فتكلموا من قيام، وتكلم هو، وهو جالس، وتبسم عبد الملك، وقال: لقد رجوت عثرته، ولقد أحسن حتى[١] خفت عثرته.

ومنهم:

[٨]
سحبان وائل[٢]

وكان يستحق التقديم لسمعة فصاحته، حتى صار يجري ذكره في البلغاء مجرى المثل. وإنما أخّرناه لمكانة من ذكره النبي ﷺ أو كانت له الصحبة، وإلاّ فهو المقدم على كل بليغ تقدّم عصره أو تأخر لبلاغةٍ أثرت أعراقها، واخضرّت أوراقها، إلى سمعةٍ مَسَحَتْ على الخافقين جناحها، وذرّت في الشارقين صباحها، فجابت مطلع الشمس، وجالت في كلّ يوم وأمس، وكان ابنه عجلان خطيب نديّ، وطيب شذا ندي، طالما قام مقاماً، وقال فسقى سقاماً، بخطب تستوقف العجلان، ورقاً لو كلّمت الصخر للان.

ومنهم:

[٩]
يزيد[٣] بن أبي سفيان

لما بعثه أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الشام شيّعه ماشياً، وأتبعه من الوصايا هدايا، ثم أعقبه وصول خالد بن الوليد فتقدم، وكان من أمراء جيشه يزيد، وصعد يوماً ليخطب فارتجّ عليه، وارتد سيلُه عمّا لديه، إلاّ قطرة من نداه، وثقةً من جداه، ولما سمعها عمرو بن العاص أعجب بها وكان يقول: إنها لا تقع كلمة قالتها

---

(١) في الأصل: لما، وهو تحريف، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٢) سحبان بن زفر بن أياس الوائلي، خطيب يضرب به المثل، أسلم زمن النبي ﷺ ولم يجتمع به، وأقام بدمشق أيام معاوية، وبها مات سنة ٥٤هـ. انظر الإصابة، الترجمة ٣٦٥٨، وخزانة الأدب ٤/ ٣٢١١.

(٣) يزيد بن أبي سفيان كان يقال له يزيد الخير، أسلم عام الفتح استعمله أبو بكر على الشام، وأقرهُ عمر، وكان أبو سفيان قاتل تحت رايته يوم اليرموك، ومات بالشام وهو عامل عمر، في طاعون عمواس سنة ١٨هـ، وأوصى أن يلي أمر دمشق بعده معاوية أخوه فأقرّه عمر.
انظر: المعارف ص٣٤٥، تاريخ ابن خياط لأحداث سنة ١٨هـ وطبقات ابن سعد ٧/ ٢/ ١٢٧ والعبر ٥/ ٢٢.

العرب في خطبها[١] وهي[٢]:

يا أهل الشام، عسى الله أن يجعل[٣] بعد عسرٍ يسراً، ومن بعد عيّ بيانا، وأنتم إلى إمامٍ عادل[٤] أحوج منكم إلى إمام قائل.

قال الجاحظ[٥]: /٢٤٥/ وقد كان معاوية رأساً في الخطابة والبيان. ولما أتى أمّه نعي ابنها يزيد[٦] بن أبي سفيان، قال لها بعض المعزّين: إنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف من يزيد[٧]، فقالت: معاوية يكون خلفاً من أحد، فوالله أن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها لخرج من أيّ أقطارها شاء، ونفذ من أيّ أعراضها أراد، قال غيره: ذكر ذلك لمعاوية فقال: والله لو[٨] علمت أنه كان أفصح منّي لساناً، وأثبت منّي جناناً، وأبلغ خطبة، وأرقى هضبة.

ومنهم:

[١٠]

عتبة بن أبي سفيان[٩]

وكان والياً على مصر لمعاوية، وكائداً لما يدرأ به زمرها الغاوية، وكان من أمضى بني أمية بن عبد شمس لسناً، وأرضى سنناً، وأقضى بكلّ ما يجمع سيئاً وحسناً، وأرجف أهل مصر بموت معاوية إرجافاً زلزل شيعته. وزيّل عن الرقاب صنيعته، فأتى الخبر عتبه، فاستطار لروعته، وصار في سوء سمعته، ثم أتاه كتاب معاوية معلماً بعافيته، ومعلناً بخافيته، فصعد عنه المنبر ثم قال[١٠]:

---

(١) في نثر الدرر ٣/ ١٦٦ والكامل ٥٨١: هنَّ مخرجاتي من الشام.

(٢) الكلمة في: نثر الدرر ٣/ ١٦٥ والعقد الفريد ١/ ١٤٧ وعيون الأخبار ٥/ ٢٥٧، والكامل للمبرد ١/ ٥٨.

(٣) في نثر الدرر والكامل: سيجعل الله بعد عسرٍ.

(٤) في نثر الدرر والكامل: إلى أمير فعّال، وفي العقد الفريد: أمير فاعل، وفي عيون الأخبار: أمير عادل.

(٥) البيان والتبيين ١/ ٥٦.

(٦) بن: ساقطه من الأصل.

(٧) في الأصل: معاوية.

(٨) كذا في الأصل: ولعلها: لما، ولم يرد كلامه في البيان والتبيين.

(٩) عتبة بن أبي سفيان، شهد الحبل مع عائشة، ثم ولاه معاوية مصر، وكان يضعَّف إلا أنه رويت له خطب بليغة.
المعارف ٣٤٥.

(١٠) الخطبة في العقد الفريد ٣/ ١٩٤ والعقد الفريد ٢/ ٢٣٩.

يا أهل مصر، قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح، وظباة السيوف حتى صرنا شجى في لهواتكم، ما تُسيغنا حلوقكم، وأقذاءً في عيونكم[١]، فما تطرف عليه جفونكم، أفحين اشتدّت عُرى الحق عقداً، واسترخت عقد الباطل منكم حلًّا. أرجفتم بالخليفة. وأردتم توهين[٢] السلطان، وخضتم الحق إلى الباطل، وأقدم عهدكم به حديث، فارتجوا أنفسكم إذا خسرتم دينكم، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه، والعهد القريب منه، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم، فأصلحوا لنا ما ظهر، نكلكم إلى الله فيما بطن، وأظهروا خيراً وإن أسررتم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون. وعلى الله نتوكل وبه نستعين.

ثم بلغه التواؤهم، واضطغانهم عليه، واجتواؤهم، فجمعهم، ثم صعد المنبر فأسمعهم، قال[٣]:

يا أهل مصر، خفَّ على ألسنتكم مدحُ الحق ولا تفعلونه، وذمُّ الباطل، وأنتم تأتونه[٤] «كالحمار يحمل أسفاراً» أثقله حملها، ولم ينفعه علمها[٥]، وأني والله[٦] لا أداوي داءكم[٧] بالسيف ما كفيت بالسوط[٨]، ولا أبلغُ السوط ما كفتني الدرة، ولا أبطىء عن الأوّل إن لم تصلحوا عليّ الأخرى ناجزاً بناجز[٩]، فدعوا قال ويقول، من قبل أن يقال فعل /٢٤٦/ ويفعل[١٠] فإن في هذا اليوم الذي ليس فيه[١١] عقاب ولا بعده عتاب.

ومنهم:

[١١]
قسامة بن زهير[١٢]

أحد بني زرارة، أحد من توقد شراره، وأحقّ من شمت له عراره، طالما لاعب

(١) في العيون: أعينكم.
(٢) العقد: تهوين.
(٣) الخطبة في عيون الأخبار ٢/ ٢٣٩ والعقد الفريد ٣/ ١٩٦.
(٤) الأصل: ما تأتونه.
(٥) في العقد: ثقلها.
(٦) في العقد: وأيم الله.
(٧) في العقد: لا أداويكم.
(٨) في العقد: ما صلحتم على السوط.
(٩) بعدها في العيون: ومن حذّر كمن بشَّر، وهي في العقد: فالزموا ما أمركم الله به، تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا.
(١٠) بعده في العقد: وكونوا خير قوس سهماً.
(١١) في العقد: قبله.
(١٢) قسامة بن زهير المازني، أدرك النبي ﷺ وشارك عتبة بن غزوان في فتح الابلة، وسكن البصرة فذكر في ثقات التابعين بها، مات بعد الثمانين من الهجرة.
الإصابة تسلسل ٢٧٨٦. وورد ذكره في البيان والتبيين ٣/ ٢١١.

فكره لمم الشيح، وفاوح نشره علويّ الريح، وكان رسول عمر في البحث عن شأن المغيرة[١]، وهو القائل: روّحوا هذه القلوب تعي الذكر، وخطب خطبة، قال فيها: إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر.

ومنهم:

[١٢]
زرعة بن ضمرة[٢]

موفق شذور، وموفي نذور، بكلمات قام بها خطيباً، وقاس بها الغصن رطيباً، وقيل[٣]: (لولا غلق فيه لما كان كلامه إلا الذهب).

وقام[٤] خطيباً عند معاوية بالشام، فقال معاوية: يا أهل الشام هذا خالي فائتوني بخالٍ مثله. قلت: ولعلّها خؤولة بعيدة، وإلاّ فليس هو لهندٍ بأخٍ.

ومن خطبتهِ:

ولقيام في طاعة ببلاءٍ خير من قعود في معصية بعافية، ألا وأن الفتنة قد أظلَّت، والبلية قد أطلّت، وليس يجلي هذه العارضة إلا روق السيوف، ولا ينجيكم إلاّ تلقّي الخوف، فبادروا طائعين، وأتمّوا ما قدّمتم، ولا تضيّعوا ما فعلتم.

ومنهم:

[١٣]
الأحنف بن قيس[٥]

المضروب بحلمه المثل، والمنسوب له نار قرًى على كلّ جبل، المسوّر في عشيرته، المسدّد في سيرته، كان طيف حلمه لا يُستفز، وسيف غضبه لا يهزّ، سنناً أخذ

---

(١) المغيرة بن شعبة الثقفي، كان قد رمي بالزنى وهو أمير على البصرة، فاستدعاه عمر واستدعى الشهود ثم درأ عند الحدّ بالشبهات، انظر تفاصيل الخبر في تاريخ الطبري ٤/ ٦٩ (أحداث لسنة ١٧هـ) ولم يرد في الخبر اسم قسامة.

(٢) زرعة بن ضمرة العامري، ذكره ابن حجر في الصحابة، قال: له ذكر في حديث لايصح، قاله ابن منده، ولم يزد. ذكره الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ٢٥٤ وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٢١٠.

(٣) البيان والتبيين ٢٥٤١.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٥٤.

(٥) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين، السعدي، التميمي، أبو بحر، واسمه الضحاك أو صخر، والأحنف لقبه، لأنه ولد أحنف الرجلين، أدرك النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر، وشهد الفتوح، ثم سكن البصرة، ولم يشهد الجمل. ولكنه شهد مع علي عليه السلام صفين، ومات بالكوفة سنة ٦٧هـ في إمارة مصعب بن الزبير. =

عليه زمناً، وواخذ به قوله سراً وعلناً.

وقال عبد الملك بن عمير[١]: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة، فما رأيت خصلة تذم إلاّ كانت فيه[٢]، ولكنّه إذا تكلّم جلّى عن نفسه.

قلت: وهذا مغاير لقول الناس فيه[٣].

ومن شعره يصف بلاغته قوله[٤]:

أنا أين الزافريّة[٥] أرضعتني بثدي لا أجدَّ ولا وخيم
اتمتني فلم تنقص عظامي ولا صوتي إذا اصطك الخصومُ[٦]

ومن خطبه البليغة التي حفظت، ومنذ عرفت ألفاظها ما لفظت، قوله بعد حمد الله والثناء عليه[٧]:

يا معشر الأزد وربيعة، أنتم والله إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر[٨] وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على /٢٤٧/ العدو، والله لأزد البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرى[٩] شنآنكم، وأبي حسن[١٠] صدوركم، ففي أموالنا، وسعة أحلامنا، سعة لنا ولكم[١١]، وفينا وفيكم وفاء.

ومنهم:

= وكان سيداً مطاعاً، حليماً، من ثقات التابعين.
انظر: مشاهير علماء الأمصار ص٨٧ والإصابة ت٤٢٩، والمعارف ص٤٢٢، وطبقات ابن سعد ٧/ ١/ ٦٦، والبيان والتبيين (انظر الفهرس).

(١) عبد الملك بن عمير بن سعيد، اللخمي، حليف لقريش، القبطي، ولد لثلاث سنين بقيت من خلافة عثمان، وولي القضاء بالكوفة قبل الشعبي وقيل بعده، وتوفي بها سنة ١٣٦هـ.
انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٢٠، والمعارف ٤٧٣، ومشاهير علماء الأنصار ص١١٠ بكلمته في البيان والتبيين ١/ ٥٦.

(٢) بعده في البيان والتبيين: كان صعل الرأس، أحجن الأنف، أغضف الأذن، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، نابىء الوجنة، باحق العين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين.

(٣) لعل المؤلف ظن أن الخصال المذمومة في غير خلقته، وإلا فقد أجمع مترجموه على صفته تلك.

(٤) البيتان في البيان والتبيين ١/ ٥٩.

(٥) لم نعرف لهذا النسب مصدراً. وأم الأحنف: هي حية بنت عمرو بن قرط بن ثعلبة الباهلية كما في مصادر ترجمته.

(٦) في البيت إقواء.

(٧) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥.

(٨) في الأصل: الضمير.

(٩) في الأصل: استشرف. والتصويب عن البيان والتبيين.

(١٠) في البيان والتبيين: حسك.

(١١) ما بعده لم يرد في البيان والتبيين.

[١٤]
زياد بن أبيه[(١)]

وهو الذي ألحقه معاوية بنسبه إلى أبي سفيان، ونسبه إليه، وهو أبعد إليه من الفيل من ولد الأتان[(٢)]، وكان زياد من أصحاب علي عليه السلام. وكان داهية لا يبلغ منه مرام، ولا تحلّ له عقدة اعتزام، فلما مات استلّه معاوية عن الحسن واستنزله عن شآبيب الفتن. فاجتذبه من شيعته، وغلبه من خديعته، وما زال يخلبه بلطفهِ، ويجلبه إلى صفّه حتى صار عنده في الأمر بأبي عمرو. وما زال حتى نسبه إلى صخر، وجلببه جلباب الفخر، ولا يردّ لها على سوءة ثياب، أيام كانت قناتها تنصب بالأسواق، وينتابها الطرّاق، وعاشت ما عاشت من الزمن الكثير لا تعلم أن ابنها يُعد من قريش في الجماهير، ثم كان هو سيف معاوية الذي قطر دماً، وسنانه الذي لا يقرع سنّه (ندما) إلا أنه كان سئوساً لا يعجل سيف العذل ولا يسجل من زواجره النهي بما بذل، يقنع من نصره بمن قعد في مصره، ما لم يمدّ الخوارج، أو يعدّ للوقوف عليه في المعارج، خلا نوبة حجر بن عدي[(٣)] وأصحابه وقتله لهم بسيف ما علق دمهم بذبابه، فإنه ارتكب منهم أمراً عقيماً، واحتقب وزراً عظيماً، واكتسب ذنباً يلق الله به ثم رسول الله ﷺ خصيماً، وكان زياد بن أبيه يحاول أن تنسبه عائشة [فكتب][(٤)] من زياد بن أبي سفيان، فكتبت إليه: من عائشة أم المؤمنين إلى ولدها

---

(١) زياد، من الأمراء الشجعان الدهاة، الفصحاء، الخطباء، اسم أبيه عبيد، وأمه جارية الحارث ابن كلدة الثقفي اسمها سمية، زوجها الحارث غلاماً له رومياً اسمه عبيد، وجاء أبو سفيان الطائف في الجاهلية فوقع على سمية فولدت زياداً على فراش عبيد، وأقر أبو سفيان أنه من نطفته، وأشهد معاوية على ذلك شهوداً حين أدعاه، عمل كاتباً لأبي موسى الأشعري حين ولي الكوفة أيام عمر بن الخطاب ثم للمغيرة، وولاه علي بن أبي طالب عليه السلام، فارس، ثم ادعاه معاوية بعد صلحه مع الحسن عليه السلام فولاه البصرة ثم ضم إليه الكوفة حتى وفاته سنة ٥٣هـ، أخباره كثيرة في كتب التاريخ كالطبري والكامل ومروج الذهب وتاريخ اليعقوبي، وكذلك في كتب الطبقات ومعاجم الرجال.

(٢) يشير إلى قول الشاعر من قصيدة يخاطب بها معاوية

فاشهد أن رحمك من زيادٍ ... كرحم الفيل من ولد الاتان

ونسب إلى عبد الرحمن بن الحكم تارةً وإلى يزيد بن مفرغ أخرى.
انظر: الوافي بالوفيات ١٥/ ١١ وأنساب الأشراف ج٤ق٢ ص٧٩.

(٣) حجر بن عدي الكندي، صحابي جليل، من الشجعان، كان يدعى حجر الخير اتهمه زياد بشق عصا الطاعة ولفق لذلك شهوداً، ثم أرسله مع جماعة على معاوية فعرض عليه البراءة من علي أو القتل، فاختار القتل، انظر: مروج الذهب ٢/ ٣ وتاريخ الطبري ٥/ ٢٥٣.

(٤) ليست في الأصل، وقد اقتضاها سياق الكلام.

زياد، وما تضمّن كتابها إليه سوى هذا الخطاب ولا زاد.

وكان خطيباً لسناً، مصيباً محسناً قريباً منه مردى الكلام لا يترك منه حسناً ولما أتى الكوفة صعد منبرها، سلم خفياً، وسكت ملياً، ثم انحرف انحرافاً بطيئاً. ثم خطب خطبته البتراء، التي لم يستفتحها بتحميد، و(لم) يصحبها بتقديس ولا تمجيد قال فيها[١]:

أما بعد، فقد قال معاوية ما قد علمتم، وشهد الشهود بما قد سمعتم، وإنما كنت امرءاً /٢٤٨/ حفظ الله منه ما ضيع الناس، ووصل ما قطعوا[٢]. ألا وأنا قد ولينا وولينا الوالون، وسسنا وساسنا السائسون، وأنا وجدنا هذا الأمر لا يصلحه إلاّ شدّة في غير عنف. ولين[٣] في غير ضعف، وأيم والله ما من كذبة أكثر شاهداً من كذبة إمام على منبر، فإذا سمعتموها فاغتنموها[٤]. واعلموا أن عندي أمثالها[٥]، فإذا رأيتموني آمر فيكم الأمر فانفذوه. على أذلاله[٦]، وأيم الله أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي. وأيم الله لأخذنّ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر، حتى تستقيم لي قناتكم، وحتى يقول القائل: انجُ سعد فقد قتل سعيد[٧].

ومنه قوله[٨]:

حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً، فإيّاي ودلج

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٦٢، تاريخ الطبري ت/ ٢١٧ وعيون الأخبار ٢/ ٢٤١ والعقد الفريد ٣/ ١٧٥ صبح الأعشى ١/ ٢١٦. ومن الواضح أنه قد دمجت خطبتين الأولى قالها حين فرغ الشهود في شأن إلحاقه بأبي سفيان، والثانية البتراء، وقد وردت هكذا في عيون الأخبار ونوادر القالي. ووردتا منفصلتين في العقد وتاريخ الطبري، وما أورده المؤلف مطابق لما في عيون الأخبار.

(٢) بعدها في النوادر ص١٨٥ : وإن عبيداً لم يألُ أن يكون كافلاً مبروراً وأبا مشكوراً. وما بعدها إلى قوله وسسنا لم ترد في النوادر.

(٣) في الأصل: وإن، وفي النوادر: فلم نجد لهذا الأمر خيراً من لين في غير وهن ولا من شدّة في غير جبريّة.

(٤) في النوادر: فاختبروها، وفيه: ألا وإنها ليست كذبة أكثر عليها شاهدا من الله ومن المسلمين من كذبة أمام على منبر فإذا سمعتموها مني فاختبروها.

(٥) النوادر: واعلموا أن لها عندي أخوات.

(٦) على إذلاله: أي على طرقه ووجوهه، وقد وردت في النوادر بلفظ مغاير.

(٧) في النوادر: يا سعد انج فإن سعيداً قد قتل، وهو مثل أصله: أنه كان لضبة ابن أدد ابنان خرجا يطلبان إبلا لهما، فرجع سعد ولم يرجع سعيد، فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال: اسعد أم سعيد. فصار مثلاً يضرب في الاستخبار عن الأمرين، الخير والشر أيهما وقع.

(٨) عيون الأخبار ٢/ ٢٤٣ وكامل ابن الأثير ٣/ ٣٧٥ والبيان والتبيين ٢/ ٢٩ والعقد الفريد ٣/ ١٧٢، وتاريخ الطبري ٥/ ٢١٨، وقد وردت هذه الخطبة فيما عدا (عيون الأخبار) ضمن الخطبة البتراء.

الليل، وإني لا أوتي بمدلج إلاّ سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية فإني لا أجدُ أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً، وأحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرقته، ومن حرق قوماً أحرقته، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حيّاً، فكفّوا أيديكم وألسنتكم، أكفّ عنكم، وقد كانت بيني وبين أقوام منكم أشياء[١]، قد جعلتها دبر أذني، وتحت قدمي، فمن كان منكم مسيئاً فلينزع، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف[٢] (له) قناعاً ولم أهتك له ستراً. حتى يبدي صفحته لي، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فأعينوا على أنفسكم، واتئنفوا أمركم.

ومنهم:

[١٥]

خالد[٣] بن يزيد بن معاوية

أحد رجالات قريش وسادتها، وقادة الكلم الروائع وقالتها، أصحب معلماً، وأصبح به ذلك الطراز معلماً، وهو من حيث نزع عرقه، ولمع برقه من بني أمية بن شمس بن عبد مناف، وممن عهد النجم معه ثم أناف، استلّ من صميم فهر بن مالك، وأرضع بماء زمزم فنشأ، على ذلك، فكان من قصي بن عبد العزى في قننها الشمّ، وألسنتها المشتقة من صخر، وهي تسمع الصَّمّ، قال الجاحظ[٤]: كان خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، جيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجمت[٥] / ٢٤٩/ له كتب الطب والنجوم والكيمياء، قلت، قد مرّ طرف من ذكره في ترجمة الأستاذ أبي إسماعيل الطغرائي، ومن كلمه السائرة، وقد قيل له: هلا تخرج على مروان؟ إني لا أشتري ملكاً يهلك. وأرى ملك هذا الرجل في مباد لا بدّ أن يبلغها، ولدول الأيام آجال سوف ينتهي إليها:

ومن شعره[٦]:

---

(١) في البيان والتبيين: إحن.

(٢) في الأصل: يكشف، وما بين قوسين ساقط من الأصل.

(٣) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أبو هاشم الأموي، من رجالات قريش علماً وفصاحة، موصوف بالعلم، شاعر ترجمت له كتب الطب والكيمياء، فشغلته توفي سنة ٨٥هـ. انظر: الفهرست ٣٥٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٢٤ ومعجم الأدباء ١١/ ٣٥ وتاريخ الحكماء ٤٤٠ والأغاني ١٧/ ٣٤٣ والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٧٠.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٢٨.

(٥) البيان والتبيين من ترجم.

(٦) البيتان في: وفيات الأعيان ٢٢٤٢ وهي من أبيات في معجم الأدباء ١١/ ٤٤ والأغاني ١٧/ ٣٤٤ والوافي ١٣/ ٢٧٧ والكامل ١/ ٢٠٤.

رأيتُ خلاخيل النساءِ يجلن ولا أرى[1] لرملة[2] خلخالاً يجول ولاقلبا
أحبُّ بني العوام طرّا لحبّها ومن حبّها أحببتُ أخوالها كلبا

ومنهم:

[١٦]
قطري بن الفجاءة[3]

رأس الأزارقة[4]، ونبراس حرب ما كذّبت له بارقة، كان قائد الخوارج إذا تلاقوا، ووارد حياض الموت إذا تساقوا، وكان يكنّى بأبي نعامة (.....) بالزعامة، موقد نار الحرب ومضرمها، وعاقد حبال الصفوف ومبرمها وهو أبل الخطباء والشعراء ريقاً، وأجلّ عُصَب الخوارج مرتقا.

وله في خطبه لهم ومواعظه التي نهجت سبلهم ما رويت به الرواة، ورويت له به الفصاحة لا اسواه. ومن أسهلها نهجاً. وأفضلها نسجاً قوله[5]:

أما بعد فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وزينت[6] بالغرور، لا تدوم عطيتُها[7]، ولا تؤمن فجيعتها[8] غرارة ضرارة[9]، حائلة زائلة، نافذةٌ كابدة[10]، وحريٌّ بها[11] ضمت له

---

(١) في مصادر الأبيات الأخرى:
تجول خلاخيل النساء ولا أرى.

(٢) رملة: هي رملة بنت الزبير بن العوّام وزوجة خالد.

(٣) قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد، المازني، الخارجي، خرج أيام ولاية مصعب بن الزبير على العراق، وبقي يحارب سلطات الأمويين عشرين سنة يخاطب بأمير المؤمنين حتى قتل سنة ٧٨هـ، وكان من الشجعان الخطباء الشعراء، أخباره كثيرة في كتب التاريخ وانظر: وفيات الأعيان ٤/ ٩٣ والكامل للمبرد في مواضع متفرقة والبيان والتبيين ١/ ٣٤١ والشذرات ١/ ٨٦ وشعر الخوارج ص١٠٥.

(٤) الأزارقة، من الخوارج أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي. انظر الكامل ٢/ ١٧٠.

(٥) الخطبة في البيان والتبيين ٢/ ١٢٦ والعقد الفريد ٤/ ١٤١ ونهاية الأرب ٧/ ٢٥٠ وصبح الأعشى ١/ ٢٢٣ وعيون الأخبار ٢/ ٢٥٠.

(٦) في البيان والتبيين: تزينت.

(٧) في البيان والتبيين: حبرتها.

(٨) في البيان: فجعتها.

(٩) بعدها في البيان والتبيين: خوّانه غدّارة.

(١٠) في البيان والتبيين والمصادر الأخرى. بائدة وبعدها: أكّالة غوالة، بدل نقالة، لا تعدو إذا هي تناهي إلى أمنية أهل الرغبة فيها. والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيءٍ مقتدرا﴾ مع أن أمرأً لم يكن منها في حيرة إلا اعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها ظهراً، ولم تُطله غبية رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء.

(١١) في البيان والتبيين: لها إذا.

منتصرة إن تميس له خاذلة متنكّرة[١] كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيال فيها قد خدعته[٢]، سلطانها دول، وعيشها رنقٌ، وعذبها أجاج، حلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام[٣]، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب[٤]، ألستُم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً، وأوضح منكم آثاراً، وأعدَّ عديداً، وأكف[٥] جنوداً، آثروا الدنيا أيَّ إيثار[٦] ورحلوا[٧] عنها بالكره[٨] والصغار[٩]، ضعفتهم النوائب، وعقرتهم المصائب[١٠]، هل زودتهم إلا الشقاء، وأحلّتهم إلا الضنك، أو نوّرت لهم إلاّ الظلمة، وأعقبتهم إلاّ الندامة، أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، يقول الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ /٢٥٠/ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١١]. حملوا إلى القبور[١٢] فلايدعون ركباناً، وأنزلوا فيها فلايدعون ضيفانا، جعل[١٣] لهم من الصريح أكناناً[١٤]، ومن التراب أكفاناً، ومن الرُّفات جيرانا[١٥]، جمعٌ وهم آحاد، جيرةٌ وهم أبعاد،

(١) بعدها في البيان والتبيين والمصادر الأخرى: وإن جانب منها اعذوذب واحلولى. أمرَّ عليه من جانب وأوبي...

(٢) الأصل: صرعته، والتصويب من مصادر الخطبة، وبعدها: وكم من ذي أبهة فيها قد صيرته حقيراً، وذي نخوة قد ردّته ذليلا، ومن ذي تاج قد كبته لليدين والفم.

(٣) الأسباب: الحبال، جمع رمّة، وهي القطعة البالية. وبعدها في مصادر الخطبة: قطافها سلع، حيُّها يعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام.

(٤) بعدها في مصادر الخطبة: مع أن وراء ذلك سكرات الموت. وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل: «ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى».

(٥) في البيان والتبيين: واكتف.

(٦) في البيان والتبيين: تعبدوا الدنيا أي تعيد وآثروها أي إيثار.

(٧) البيان والتبيين: وظعنوا.

(٨) الأصل: الكثرة.

(٩) بعدها في المصادر الأخرى: فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب بل قد أرهقتهم بالفوادح.

(١٠) بعدها في البيان والتبيين: وقد رأيتم تنكرّها لمن دان لها وآثرها. وأخلد إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر السند.

(١١) سورة هود: ١٥، ١٦، وبعدها: فبئست الدار لمن أقام فيها..

(١٢) في البيان والتبيين: قبورهم.

(١٣) في البيان: وجعل... أجنان.

(١٤) في البيان: وجعل... أجنان.

(١٥) البيان: جبران. وبعدها: منهم جبرة لايجيدون داعياً، ولايمنعون ضيما، إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن أقحطوا لم يقنطوا.

حلماء ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقّه. ومنهم:

[١٧]

عمران بن حطان[١]، أبو شهاب، أخو سدوس

وليس القعدة من الصفرية[٢] رجلٌ، فلت الأشراك، وفات الإدراك، وحضر متقلباً في خافيةٍ وباديهُ، وحاضره وبادية ومدَّت له الشباك فتخطّاها، وشُدَّت عليه الربائط فتمطّاها، فوقف على كلّ منهل، ووقع في كل مستصعب ومستسهل، وطلب السلطان يمنعه الاستقرار، ويضعه طوراً في شاهقةٍ وطوراً في قرار، وأتى دمشق، ونزل بروح بن زنباع[٣]، وكان يسامره، فيسامر عبد الملك بحديثه وهو لا يعرفه، فقال له عبد الملك: إن كنت لابن الحكم فإن سميرك ابن حطّان، فأتاه فقال: هلمَّ معي إلى أمير المؤمنين، فقال: على خير، ثم ذهب معه فلما دخل روح باب عبد الملك طلب الرجل فلم يجده، فبث وراءه الرسل، ثم دخل على عبد الملك فقال: إنه لابن حطان، وإنك لا تجده، ولو كان أتاني لأمنته. وذكره الجاحظ وقال[٤]: كان من رؤوس الخوارج معدوداً فيهم في العلماء الشعراء الرؤساء أهل الإفتاء. ومن كلمه:

---

(١) عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي، أبو سماك وأبو شهاب، البصري، التابعي، أحد رؤوس الخوارج من القعدية، ومن علمائهم وزهادهم وشعرائهم، طلبه الحجاج فأخذ يتنقل من بلد إلى آخر ولم يزل متوارياً إلى أن مات قرب الكوفة، سنة ٨٤هـ جمع شعره إحسان عباس في شعر الخوارج ص١٤١، وللمدائني كتاب «عمران بن حطان» وانظر في سيرته وأدبه: الأغاني ١٨/ ١٠٩ البداية والنهاية ١١/ ٥٢ البيان والتبيين (في مواضع متفرقة) شذرات الذهب ١/ ٩٥ الكامل للمبرد (في مواضع متفرقة) ميزان الاعتدال ٣/ ٢٣٥ شرح الشواهد للسيوطي ٩٢٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٥ المؤتلف والمختلف للآمدي ١٢٥ وبروكلمان ١/ ٢٣٣ وسزكين مج٢ ج٣ ص٦٠ والاعلام ٥/ ٧٠ طبقات ابن سعد ٧/ ١١٣.

(٢) القعدة، الخوارج الذين يرون التحكيم حقاً غير أنهم قعدوا عن الخروج بالسيف. والصفرية نسبة إلى ابن صفار، وقيل هم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم (الكامل ٢/ ١٧٠).

(٣) روج بن زنباع بن روح، أبو زرعة الجذامي، اتصل بعبد الملك بن مروان، وكان قد شهد مرج راهط مع مروان، وولى لعبد الملك بعض الأعمال، مات سنة ٨٤هـ انظر: الإصابة رقم ٢٧١٣ والوافي بالوفيات ١٤/ ١٥٠. وفي خبره مع عمران بن حطان انظر: الكامل ٢/ ١٠٨.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٤٧.

أشهد أن السماوات والأرض آيات ودلالات، وشواهد قائمات، كلّ يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبيّة، بعثت محمداً ﷺ بأمانات، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ثم حدث أحداث، أنت بها أعلم، وفيها أحكم، فأعذنا اللهم من ظلالٍ يعدّه قومٌ طاعة، وفرقة يسميها أناس جماعة، وأزل اللهم أئمة الجور، وانصر الحقّ وأنت أقدر القادرين، وأحكم / ٢٥١/ الحاكمين.

ومنهم:

[١٨]

زياد بن ظبيان التيمي العائشي[١]

لسان خطابه، وأفنان ثمرة مستطابة، وابنه عبيد الله[٢] غصن من ذلك الدوح، وشذا من ذلك الروح، قال[٣] زياد لابنه وهو يكيدُ بنفسه: ألا أوصى بك الأمير، قال: لا، قال: ولم؟ قال: إذا لم يكن للحيّ إلاّ وصيّة الميت، فالحيّ هو الميت، فقال: ادن، ادن يا موت، ثم أخذ رأسه فقبل ما بين عينيه، فقال: ربّ إني أدعُهُ إليك، وأودعهُ، إنه لا يضيع ما استحفظت ولا يراح من أحفظت، اللهم، إليك أسلمه، فسلّمهُ ولا تسلمه.

قال الجاحظ[٤]: دخل ابنه عبيد الله على عبد الملك بن مروان، فقال له: ما بال الناس يزعمون أنك لا تشبه أباك، قال: والله لأنا بأبي أشبه من الليل بالليل والغراب بالغراب والماء بالماء، ولكن إن شئت أنبأتك بمن لا يشبه أباه، قال: ومن ذاك؟ قال: من لم يولد لتمام، ولم تنضجه الأرحام، ولم يشبه الأخوال والأعمام، قال: ومن ذاك؟ قال: ابن عمي سويد بن منجوف[٥]، فقال عبد الملك: أو كذلك أنت يا سويد؟ قال: نعم، فلما خرجا. أقبل عليه سويد، فقال: وريت بك زنادي، والله ما يسرّني[٦] إن كنت نقصته حرفاً وأن لي حمر النعم، قال: وأنا والله ما يسرُّني بحلمك عني اليوم سودُ النعم.

ومنهم:

---

(١) زياد بن ظبيان التيمي العائشي، انظر: البيان والتبيين ١/ ٣٢٥.

(٢) عبيد الله بن زياد بن ظبيان، شجاع من الفتاك، اتصل بعبد الملك بن مروان، وهو الذي قتل مصعب بن الزبير وحمل رأسه إلى عبد الملك. انظر: نهاية الأرب ٩/ ٢١٦ وانظر: تاريخ الطبري ٥/ ٦١٦ و٦/ ١٥٣ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٢٥ و٢/ ١١٢.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٢٦.

(٥) سويد بن منجوف بن ثور السدوسي. كان زعيم بكر بن وائل في البصرة الاشتقاق ٣٥٣ والأغاني ٧/ ١٧٤.

(٦) الأصل: يسؤني. والتصويب من البيان والتبيين.

[١٩]

عمران بن عصام العنزي[(١)]

أرى رأي ومشورة، وشهده خلايا فكر مشورة، بخاطر ينير إذا قدح، ويثير سواكن الضمائر إذا صدح.

قال الجاحظ: وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع عبد العزيز أخيه، والبيعة للوليد ابنه في خطبتِهِ المشهورة. وقصيدته المذكورة[(٢)].

قال: ولما قتله الحجاج قال عبد الملك. ولم قتلهُ هلّا وعى له قوله إذ يقول فيه[(٣)]:

وبعثت من ولد الأعزِّ معتبٍ[(٤)] صقراً يلوذُ حمامه بالعرفجِ
فإذا طبخت بنارِهِ أنضجتهُ[(٥)] وإذا طبخت بغيرها لم تنضجِ

ومن خطبه قوله:

وإياكم والتظالم، فإنه يثير الإحن، ويسوق المحن، ولقد عركتني / ٢٥٢/ الأيام عرك الثفال، وقلّبتها تقليب العصا، فلم أر مآلاً نمى بظلم، ولا حريم احتمى ببغى. وأن لكل شيء مالاً، فانظروا لأنفسكم ما تقدمون، وقدّموا ما تجدون واستغفر الله لي ولكم.

قالوا: وكانت تعدّ أبلغ خطبة في إيجاز.

ومنهم:

[٢٠]

الحجاج بن يوسف[(٦)]، أبو محمد الثقفي

جمع المذام، ومنع بهيبته الكلام أن يتسرّب في المسام، كان لا يمسح سيفه من

---

(١) عمران بن عصام، العنزي، شاعر وخطيب، من الشجعان، أوفده الحجاج إلى عبد الملك لينزع ولاية العهد من أخيه عبد العزيز ويجعلها للوليد بن عبد الملك، ثم خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فجيء به بعد مقتل ابن الأشعث، فقتله الحجاج، انظر أخباره في البيان والتبيين ١/ ٤٨، تاريخ الطبري ٦/ ٤١٣، الأغاني ١٦/ ٥٨.

(٢) القصيدة في تاريخ الطبري ٦/ ٤١٣ والأغاني ١٦/ ٥٨ وأولها:

أمير المؤمنين إليك نهدي على النأي التحيّة والسلاما

(٣) البيتان من ثلاثة في البيان والتبيين ١/ ٤٨.

(٤) معتب: أحد أجداد الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٥) في البيان والتبيين: أنضحتها.

(٦) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل، الثقفي، أخباره كثيرة في كتب التاريخ، انظر ترجمته =

دم، ولا يجنح به إلى التقوى مندم، فسكن له في القلوب خوف لا يأمن به بريء، ولا يقدم معه جريء، تجمّد منه الريق. فما يبلّ فما، وتبهت العين فما تبصر من عمى، وتلبسَّ بخلق انتهك منه المحارم، وأنهب أيام عمره في المظالم، وأقدم على الله ورسوله، وقيل كلٌّ عالم، هذا مع دراسة للقرآن ورياسته على أمم من أهل الإيمان، وبحثه عن أمور الأديان، وتحرير كيفية الصلاة والأذان، وكان على إخلاده إلى هواه، وأخلاقه في الغواة، مطبوعاً على شيم الكرماء، كالراح شيب نسيم الماء، تهلل لطفاً فصيحاً، ويتوسع في القول نطاقاً فسيحاً. ولما بعثه عبد الملك على العراق، أتى إليها بمكر أسف طائره، وأرهف باتره، وقصد سيرة زياد فأخطاها[1]، واستقل إمارته واستبطاها. فبدل أناته عجلاً، وسكونه وجلا، ولما صعد المنبر حسر لثامه، وأظهر إبهامه، ثم قال[2]: إن أمير المؤمنين نكث عيدانه[3] بين يده، فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً، فوجهني إليكم، ألا فوالله لأعصبنكم عصب السلمة، ولألحونكم لحو العود، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، حتى تستقيم لي قناتكم، وحتى يقول القائل: انج سعد فقد قتل سعيد، إلا وإيّاي وهذه الشفعاء والزرافات، فإني لا أرى بأحدٍ من الجالسين في زرافةٍ إلاّ ضربت عنقه.

ومنه قوله[4]، وقد أرجف أهل العراق بموته:

إن طائفة من أهل العراق، أهل الشقاق والنفاق[5]، نزغ الشيطان بينهم[6] فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج، فمِهِ، وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت[7] والله ما يسؤني إلا /٢٥٣/ أموت، واف لي الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رضى بالتخليد[8] إلاّ لأهون خلقه عليه إبليس[9]. ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:

= وخطبه في: البيان والتبيين (انظر الفهرس) نهاية الأرب ٧/ ٢٤٤ ومروج الذهب ٢/ ٩٧، العقد الفريد ٣/ ١٧٦ وما بعدها وأمالي القالي (انظر الفهرس) وعيون الأخبار (انظر الفهرس).

(١) إشارة إلى قول الحسن البصري: تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس (البيان والتبيين ٢/ ٦٦).

(٢) الخطب بروايات مختلفة في: العقد الفريد ٤/ ٨١، وتاريخ الطبري ٦/ ٢٠٢ ومروج الذهب ٢/ ٩٩ وصبح الأعشى ١/ ٢١٨.

(٣) في مصادر الخطبة الأخرى: كنانته.

(٤) العقد الفريد ٤/ ١٨٣ برواية مختلفة. ومروج الذهب ٢/ ١١٠. وهي أقرب إلى رواية المؤلف.

(٥) في العقد: يا أهل الشقاق والنفاق. وفي المروج: إن أهل الشقاق والنفاق.

(٦) في العقد: نفخ الشيطان في مناخركم. وفي المروج: نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا.

(٧) في العقد والمروج: ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت. وما بعده لم يرد فيهما.

(٨) في المروج: وما رضى الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا.

(٩) في المروج: وهو إبليس.

«ربّ هب لي[١] ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي» فأعطاه ذلك إلا البقاء، فما عسى أن تكون[٢] أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني والله بكل حيّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نقل في ثياب أكفانه[٣] إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، وأكلت الأرض لحمه، ومصَّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يقتسم الحبيب من ماله[٤]، إن الذين يعقلون فسيعلمون[٥] ما أقول، ثم نزل.

ومنه قوله، حين أراد الحج[٦]:

أيها الناس[٧]، إني أريد الحج، وقد استخلفت عليكم ابني هذا[٨]، وأوصيته بخلاف الوصية[٩] في الأنصار، أوصى فيهم بأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وإني أمرته أن لا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم، إلا وأنكم ستقولون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي، ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة، إلا وإني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة.

ومنه قوله[١٠]:

أما بعد، فإن سيفي نجادُهُ في عنقي، وقائمه بيدي، وذبابهُ قلادةٌ لمن اغترّني.

ومنه قوله:

أيها الناس، احفظوا فروجكم، وخذوا الأنفس بضمائرها، فإنها أسول شيء إذا أعطيت، وأعصى شيء إذا سئلت، وإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.

ومنه قوله[١١]:

---

(١) في العقد: ولقد رأيت العبد الصالح سأل ربه. وفي المروج: والله لقد قال العبد الصالح لسليمان بن داود: رب اغفر لي وهب لي.

(٢) في العقد: ففعل، ثم اضمحلّ كأن لم يكن وما بعده لم يرد فيه. وفي المروج: فكان ذلك ثم اضمحل كأن لم يكن.

(٣) في المروج: ثم نقل كل امرىء بثياب ظهره إلى حفرته، فخدّ له في الأرض ثلاث.

(٤) في المروج: وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما صاحبه، حبيبه من ولده يقتسم من ماله.

(٥) في الأصل: ويعلمون. وفي المروج: أما الذين يعلمون، فسيعلمون.

(٦) مروج الذهب ٢/ ١١٢ والعقد الفريد ٤/ ١٧٨.

(٧) في العقد والمروج: ياأهل العراق.

(٨) ابني محمداً.

(٩) في المروج والعقد: بخلاف وصية رسول الله ﷺ بالأنصار.

(١٠) العقد الفريد ٤/ ١٨٣.

(١١) العقد الفريد ٤/ ١٧٨.

أين[١] امرؤٌ زوّر[٢] عمله؟ أين امرؤ حاسب نفسه؟ أين امرؤ فكّر فيما يقرأه[٣] في صحيفته ويراه في ميزانه؟ أين امرؤ كان عند قلبه زاجراً، وعند همّه آمراً، أين امرؤ أخذ بعنان عمله[٤] كما يأخذ بخطام جهله، فإن قاده إلى طاعه الله[٥] تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفاه.

ومنهم:

[٢١]

يوسف بن عمر الثقفي[٦]

لم يبعد عن مسير الحجاج ولا قاد بها في اللجاج، فكان وسط بيّن، وسقط زناد ولا بالصعب ولا بالهيّن. وكان على اليمن ثم ولي العراق مدة زمن. إلا أنه لم يطش له سيف. ولم يعش للحجاج / ٢٥٤/ به كثير حيف. لأنه كان مقتصداً لا يسرف، ومعتمداً أنه لا ينكف، فعل من يتظلم من جوره، أو يتكلّم أنه متعدٍّ لطوره.

ومن خطبه التي نقلت في الأقطار، ونقدت في البلاد. قوله[٧]:

اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمّل أملاً لا يبلغُه، وجامع مالاً لا يأكله، ومانع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطلٍ جمعه، ومن حقٍّ منعهُ، أصاب حراماً وورّثه عدوّاً[٨]، واحتمل إصرهِ، وباء بوزره، وورد على ربّه أسفاً لهفاً[٩] قد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

ومنهم:

[٢٢]

عتبة[١٠] بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام

خطيب محفل لا يحسّر، وحظي جحفلٍ لا يكسّر، طالما شرق به العابد، ورشق به

---

(١) أين، لم ترد في العقد.
(٢) الأصل: زوّم.
(٣) في العقد: يقرأه غدا.
(٤) العقد: قلبه.
(٥) العقد: إلى حق.
(٦) يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم (وبه يلتقي مع الحجاج) بن أبي عقيل الثقفي، ولاّه هشام بن عبد الملك اليمن، سنة ١٠٦هـ، ثم عزل به خالد القسري عن الكوفة سنة ١٢١هـ فولي وحبس خالداً وعذبه، وفي أيامه كانت ثورة زيد بن علي زين العابدين، انظر: تاريخ الطبري (فهارسه) ومقاتل الطالبين (خبر زيد) والوفيات ٧/ ١٠١ والوافي ٢٩/ ٢٦٥.
(٧) العقد الفريد ٤/ ١٩١.
(٨) في العقد: وأورثه عدوّاً حلالا.
(٩) الأصل: لاهفاً.
(١٠) عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، المخزومي، كان يسكن واسط، وكان منقطعاً =

المعاود، قال الجاحظ[١]: كان من ذوي الرأي والدهاء، وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وكان أبوه خامس خمسةٍ في الشرف والساعي بين الأسد[٢] وتميم في الصلح.

ومن كلمه:

من لم يعرف الشر وقع فيه. ومن لم يعرف الخير لم يحرص عليه. والمروءة مروءتان، ظاهرةٌ وباطنة، فالباطنة تقوى الله عزّ وجلّ، والظاهرة الثياب الطاهرة.

ومنهم:

[٢٣]
شعبة بن القلعم[٣]، من بني حرقوص

لسان جواب، وبيان قصدٍ وصواب، ويصحّ ما ظنّ، ويصيب إذا قال كأنّ.

قال الجاحظ[٤]: ذا عارضةٍ وكان وصّافاً فصيحاً. وكذلك كان بنوه عبد الله وعمر وخالد، وجمع خالد مع اللسان والعلم الحلاوة والظَّرف، وكان الحجاج لا يصبر عنه.

ومن خطبه قوله:

أما بعد، فإن العبد إذا استجار ربّه، واستشار النصحاء من إخوانه فقد قضى ما وجب، ويقضي الله من أمره ما أحبّ.

ومنهم:

[٢٤]
أبو بكر بن الحكم[٥]

خطيب، كان مبلغاً لأسماع، ومسوّغاً لإجماع، طالما أتى بها ارتجالاً، وشأى بحطّها رجالاً.

= إلى الحجاج وكان نساباً من ذوي الرأي والدهاء.
انظر: نسب قريش ٣٠٩ والبيان والتبيين ١/ ٣١٩.

(١) البيان والتبيين ١/ ٣١٩.

(٢) في الأصل: الأزد: وفي نسب قريش أن الذي حمل ديات أسد جدّه عبد الرحمن بن الحارث.

(٣) في الأصل: المقلعم وقد ورد ذكره في البيان والتبيين، كما ذكره الطبري في خبر مع زياد بن أبيه (١٧٩/٥).

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣١٩.

(٥) أبو بكر بن الحكم، الأسيّدي التميمي (البيان والتبيين ١/ ٣١٩).

قال الجاحظ[(١)]: كان ناسباً، راويةً، شاعراً، أحلى الناس لساناً، وأحسنهم منطقاً، وأكثرهم تصرّفاً، وفيه يقول رؤبة:

لقد خشيتُ أن يكون ساحرا
راويةً مرّاً ومرّاً شاعرا

/ ٢٥٥/ ومن كلامه الغرّ:

لا مال لك إلاّ حين تنفقهُ، ولا فرس إلاّ لمن ملك عنانه. وعليكم بصون النساء، فإنهنّ أشدّ نفاراً من الإبل.

ومنهم:

[٢٥]

خالد بن صفوان[(٢)]

لسان جُبِل على الكلام، وبيان خلق للأقلام، لما قدم أميّة بن عبد الله منهزماً، لم ينج إلا أن طار على ظهور السوابق مخبرها، قال الناس: كيف ندعو المنهزم، فتقدم أمامهم كالملتزم، وقال: بارك الله لك أيها الأمير في قدومك، والحمد لله الذي نظر لنا عليك، ولم ينظر لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة جهدك، فعلم الله حاجتنا إليك، فآثرنا بك عليك، ولك عند الله ماتحب.

ومنه قوله[(٣)]:

بت ليلة أتمنّى حتى كبستُ[(٤)] البحر الأخضر بالذهب الأحمر، ثم نظرت فإذا يكفيني من ذلك رغيفان، وكوزان طمران[(٥)].

ومنهم:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣١٩.

(٢) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم، أبو صفوان المنقري التميمي البصري، أحد فصحاء العرب وفد على عمر بن عبد العزيز ووعظه، وعمّر حتى حادث أبا العباس السفاح.
المعارف ص٤٠٣ ومعجم الأدباء ١١/ ٢٤ والبيان والتبيين (انظر الفهرس) والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٥٤ والعقد الفريد (انظر الفهرس) وطبقات ابن المعتز ٦٢، وكامل المبرد ٢/ ٢٠ و٤٢ والشعر والشعراء ٣٨٥. والفهرست ١٥١ و١٦٧ وفيه أن للمدائني كتاباً فيه، وكذلك للجلودي، وعيون الأخبار (انظر الفهرست) ومروج الذهب ٢/ ٢٠٧.

(٣) عيون الأخبار ٢/ ٣٦٧.

(٤) في الأصل: كسيتُ.

(٥) الأصل: طهران.

[٢٦]
الحنتف بن يزيد[١] بن جعّونة

رافعُ علم كل حسب، وجامع فضل خطابه إلى علم نسب، وكان شجى منازع، وشجن خصم وازع.

قال الجاحظ: كان نسابة عالماً بالنسب، وعرض له دغفل بن حنظلة[٢] العلامة بالبصرة فقال له: ناشدتك الله أنحن كنا أكثر لكم غزواً في الجاهلية أم أنتم لنا، قال: بل أنتم فلم تفلحوا ولم تنجحوا، أغزانا فارسكم وسيدكم وابن سيدكم فهزمناه، مرةً، وأسرناهُ مرةً، وقتلناه مرة[٣]، فأخذتم في فدائه خدر أمّه، ثم غزانا أكثركم غزواً وأسهمكم ذكراً، فأعرجناه ثم أرحلناه، فدخل بينهم ابن عامر[٤] حتى كفّا.

ومن خطبه:

إن لكلّ يدٍ يداً، وإن لكل يوم غداً، فلا يقعدنكم يوم عن يوم، ولا يشغلنكم سوء منقلب عن حسن طلب، وهمّوا فإنما الدنيا همم، والأيام دول، والحروب نوب، والحازم من لم يكن إلى العجز ولكل موتور حقّ، ولكل طالب عون، والله مع من كان معه.

ومنهم:

[٢٧]
خالد بن عبد الله[٥] القسري

قسر هواه على الكرم، وقصر مداه على حمل الشّيم، وكان يحب حسن الأحدوثة، وحسب ما ألقى به حديثه، فخلد له من المآثر ما كان أبو جعفر المنصور من

---

(١) في الأصل: زيد، وهو الحنتف بن يزيد بن جعونة، من بني العنبر، من السنابين الخطباء البلغاء كان في البصرة أيام ولاية عبد الله بن عامر. انظر: البيان والتبيين ١/٣١٨.

(٢) دغفل بن حنظلة السدوسي، البكري، النسابة، انظر: البيان والتبيين (الفهرس).

(٣) في البيان والتبيين: وأخذنا في فدائه خدر أمه.

(٤) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، ابن خال عثمان، ولاه البصرة، ثم ولاه معاوية، توفي سنة ٥٩هـ. الإصابة ت٦١٧٥ ـ المعارف ١٤٠.

(٥) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز، البجلي، ثم القسري، أبو يزيد، وأبو الهيثم. أمير من الفصحاء الأجواد، ولي مكة سنة ٨٩هـ، ثم العراقيين لهشام بن عبد الملك. ثم عزله بيوسف بن عمر الثقفي، الذي عذّبه، ثم قتله أيام الوليد سنة ٢٢٦هـ. وأخباره كثيرة في كتب التاريخ انظر: تاريخ الطبري: (الفهرس) ووفيات الأعيان ٢/٢٢٦. والأغاني ٢١/ ٣١٢ وفوات الوفيات ١٣/ ٢٥٧ والمعارف ٣٩٨ والبداية والنهاية ١٠/١٧ وتاريخ خليفه ١/ ٤٠٠ والبيان والتبيين ١/ ١٢٢ ١٩٥٠، ٣٠٩ وكامل المبرد ١/ ٣١ والعقد الفريد في مواضع شتى ونهاية الأرب ٧/ ٢٥٥.

رواته. المقصور على تغطية سوءاته مما كان يتولاه أبناء مروان في إمارتهم، ويتوالاه من غرارتهم. وكان بأمّه، وتعدد بها أسباب ذمّه، يقال إنها نصرانية، وإنه منهلها أشربته. وإنه /٢٥٦/ ابتنى لها بداره كنيسة، يتعهدها ويقام بها أحدها، وأنّه كان يرعى لأجلها كل كنيسة، ويقرّب في كلّ دير وقديسه وقسوسه وشماميسه، وكان على هذه الشيع، وفتح أبواب الكنائس والبيع، من الخطباء الأفراد، والفصحاء في كلّ مراد. وارتجّ عليه مرّةً حتى لم ينطق ببنت شفة ولم يطلق عقال لسانه بكل معرفة، هذا مع كونه المعدود من فرسان المنابر، ولسان ما يحدّث عن القرون[1] الغوابر.

ومن خطبه قوله:

ذكر الله [جل] جلاله، فقال: كنت كذلك ما شئت أن تكون لا يعلم كيف أنت إلا أنت، ثم ارتأيت أن تخلق الخلق (.....) وحيث به من عجائب صنعك، والكبير والصغير من خلقك، والظاهر والباطن من دورك، من صنوف أفواجه وأفرادِهِ وأزواجِهِ. كيف ارتجت قوائم الذرة والبعوضة إلى ما هو أعطن من ذلك من الأشباح التي امتزجت بالأرواح.

وخطب يوماً فسقطت جرادةُ على ثوبه فقال[2]:

سبحان من الجرادةُ من خلقه، أدمج قوائمها، وطوقها جناحاً[3]، ووشى جلدها[4] وسلّطها على ما هو أعظم منها.

ومنه قوله وقد ارتجّ عليه[5]:

إن هذا الكلام يجيء أحياناً ويغرب[6] أحياناً، وربما طلب فأبى، وكوثر فقسا[7]، فالتأني لمجيئه أيسر من التعاطي لأبيّه، وقد يختلجُ من الجريء جنانُه وينقطع من الذرب لسانه، ولا يبطره ذلك ولا يكسره[8] وسأعود إن شاء الله.

ومنهم:

---

(١) في الأصل: الرون.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٠٤.
(٣) في العقد: وطرفها وجناحيها.
(٤) وشي جلدها: ليست في العقد.
(٥) الأخبار الموفقيات ص٢٠٢، محاضرات الراغب ١/ ١٣٧ أمالي القالي ١/ ١١١ والعقد الفريد ٤/ ٢٠٤ وعيون الأخبار ٢/ ٢٥٧.
(٦) في المحاضرات: ويعسر، وفي الأمالي: ويعزب أحياناً فيعز مطلبه.
(٧) في المحاضرات: وكوبر فعتا، وفي الأمالي: كوبر فعصى.
(٨) في الموفقيات والمحاضرات والأمالي: فلا يبطره القول إذا اتسع، ولايكسره النطق إذا امتنع.

[٢٨]

داود[١] بن علي بن عبد الله بن العباس

صاحب النسب القصير، والحسب المنير، عمّ السفاح والمنصور، وبه ثم غالب تلك الأمور، وكان جناحهما المكسور، المهزور، وسماحهما المحفور، وسمامها الذعاف، وشهامهما إذا عدّدت أجيال عبد مناف، وذكره الجاحظ، وقال: كان من أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً. ويقال إنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط.

وخطب بمكة فقال[٢]:

شكراً شكراً، أما والله ما خرجنا لنحفر بكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً. أظنّ عدوّ الله أن لن يظفر به، ويجرّه رسنه إلى سوء منقلبِهِ، أغرّهُ إن أرخى زمن له من زمامِهِ حتى عثر في فضل خطامه[٣]، فالآن عاد الأمر في نصابه وطلعت الشمس من /٢٥٧/ مطلعها، والآن أخذ القوس باريها، وعادت النبل إلى النزعة، ورجع الحقّ إلى مستقره في أهل بيت نبيّكم، بيت الرأفة والرحمة.

قلت[٤]: ولما ارتجّ على السفاح يوم مبايعته بالكوفة، كان معه في تلك الساعة المخوفة، كان معه على المنبر دونه بمرقاة فحمل عنه عبء الخطبة وتلقاه، وما بلع ريقه ولا استقال، حتى خطب فكان مما قال:

أحرز إنسان رأسه، اتعظ امرؤ بغيره، اعتبر عاقلٌ قبل أن يُعتبر به، فأمسك الفضل من قوله، وقدم الفضل من عمله، ثم أخذ بقائم سيفه فقال: إن بكم داء هذا دواؤه، وأنا زعيم لكن بشفائه، وما بعد الوعيد (إلا)[٥] الإيقاع، يا أيها الناس إن أمير المؤمنين كره[٦] أن يتقدم قولُه فعله. ولا يرى المقالة عليكم بأحق من تشقيق المقالة[٧]، وحسبكم بكتاب الله تمثيلاً[٨] فيكم وابن عم رسول الله خليفةً عليكم، والله قسماً براً لا أريدُ إلا

---

(١) داود بن علي بن عبد الله بن العباس، الهاشمي، من رجالات بني هاشم، وفصحائهم وشجعانهم، ولي للسفاح مكة والمدينة، وتوفي سنة ١٣٣هـ.) انظر: المعارف ٣٧٤ والبيان والتبيين ١/ ٣٣٩ والوافي بالوفيات ١٣/ ٤٧٨ وميزان الاعتدال ٢/ ١٣.

(٢) العقد الفريد ٤/ ١٦٣. البيان والتبيين ١/ ٣٣٢ وتاريخ الطبري ٧/ ٤٢٦ وفيه أنه قالها بالكوفة. والإخبار الموفقيات ١٨٨.

(٣) في العقد: إذ مدَّ له في عنانه، حتى عثر في فضل زمانه، وفي البيان والتبيين: أرخي له من زمامه؟

(٤) الخبر والخطبة في عيون الأخبار ٢/ ٢٥٢، وبعضها ورد في العقد الفريد ٤/ ١٦٠ منسوباً إلى المنصور.

(٥) ساقطة في الأصل.

(٦) في العيون: يكره.

(٧) في عيوان الأخبار: ولأثره الفعال عليكم، أجدى من تشقيق المقال.

(٨) في العيوان: ممتثلاً.

الله به، ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله ﷺ أحقُّ به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليظنّ ظانّكم، وليهمس هامسكم.

ومنهم:

[٢٩]

أيوب[١] بن القريّة

حافظ وسع بطانة ما استحفظ. وجمع بيانه ما يلفظ، وبه يضرب المثل الشّرود، ويشرب منه للصدور والورود، فورد ذكره على العرب أمواهها، ووشم غرر الأيام وجباهها.

قال الجاحظ[٢]: لما دخل على الحجاج قال له: ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: ثلاثة صنوف، كأنهنّ ركبٌ وقوف، دنيا وآخرة ومعروف.

ومن كلمه قوله:

جودوا الله بماله، وتقربوا إليه بما فرض عليكم من أعماله، فما زرعتم حصدتم وما أقرضتم أنفذتم.

ومنهم:

[٣٠]

جحدب اليمني[٣]

وابل صابت ديمُهُ الرويّة، ونابل أصابت أسهمه الرميّة، تمت إليه تميم المكارم، وانتمت إليه انتماءها إلى دارم، فطافت من بيته بشاعر، وطالت منه بالخطيب اللسن والفرزدق الشاعر.

---

(١) في الأصل: أبو أيوب، وهو وهم، ولعلّ المؤلف أراد: أبو سليمان، وهي كنيته فسقطت، واسمه أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة، الهلالي، ويعرف بابن القريّة، وهي جدته، واسمها جماعة بنت جشم. كان إعرابياً أمياً، معدوداً في الخطباء البلغاء المشهورين بالفصاحة وسرعة البديهة اتصل بالحجاج فأعجب به وقرّبه، ثم خرج عليه مع عبد الرحمن بن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث أسر وأتي به الحجاج، فقتله بعد حوار ظريف ذكرته كتب الأدب، ويرى أبو الفرج الأصفهاني: أن ثلاثة أشخاص شاعت أخبارهم واشتهرت أسماؤهم ولا حقيقة لهم ولا وجود في الدنيا، وهم مجنون ليلى، وابن القرية، وابن أبي العقب.
(الأغاني ١/ ترجمة مجنون ليلى) وانظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٥٠. الوافي بالوفيات ١٠/ ٣٩.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٢ و٣٥٠.

(٣) ذكره ابن دريد في الاشتقاق ص١٨٦ و١٨٧. قال: ومن شعرائهم التيم: السرندي. وعلقة =

وقال الجاحظ[١]: وكان قد قضى على جرير في بعض مذاهبه، فهجاه ولقيه خالد بن سلمة المخزومي[٢] فقال له: والله ما أنت من حنظلة الأكرمين، ولا سعد الأكثرين، ولا عمرو الأشدّين، وما في تميم خير بعد /٢٥٨/ هؤلاء، فقال له جحدب: والله إنك لمن قريش، وما أنت من بيت نبوتها ولا من شوارها وخلافتها، ولا من أهل سدانتها وسقايتها فانظر من أي فئة أنت.

ومنهم:

[٣١]

معلل بن خالد

أحد بني أنمار، من الهجيم، نسج الخطب المحبّرات ونشر الأدب كالحَبرات، فألهى رحيقه المحلَّل، وأنسى كأس الراح المحرم بجنى ريعه المعلل، قال الجاحظ[٣]: وكان نسابة علاّمة صدوقاً مقلداً، وذكر للمنتجع بن نبهان[٤] فقال: كان لا يُجارى ولا يُمارى، ولا يماشى[٥].

ومن كلمه:

بسط بقدرته الأرض ودحاها، وأثبت النجوم ومحاها، وجعل الأرض مهادا، وقسم البلاد أعواداً وأنجاداً، وخلق الأشياء تؤماً وفرادى، فكيف تكفر نعمه وأنتم فيها مخوّلون، أو يجحد حقّه وأنتم إليه آيلون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

= وجُحدب .كانوا يجتمعون على هجاء جرير. قال جرير:

عضَّ السرندي على تضليل ناجذه ... من أمّ علقة بظراً غمَّهُ الشعر
وعضّ علقةُ لايألو بعرُعرةٍ ... من بظر أم السرندي وهو منتصر

قال: وكان لجحدب بالكوفة قدر.

وذكره الجاحظ (البيان والتبيين ١/ ٣٣٦) في خطباء تميم (وليس التيم) قال: وكان خطيباً راويةً وكان قضى على جرير في بعض مذاهبه، فهجاه جرير.

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٣٦.

(٢) خالد بن سلمة بن هشام بن العاصي بن هشام بن المغيرة المخزومي، كان يسكن العراق، واتصل بابن هبيرة فلما ولي العباسيون قتلوه مع ابن هبيرة، نسب قريش ص٣١٥.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣١١.

(٤) المنتجع بن النبهان، إعرابي، فصيح، أخذ عنه الأصمعي، ذكره الجاحظ في الحيوان ٢/ ٣٤١ والبيان والتبيين ١/ ٣٢٠ و٢/ ١٥٧ و٢٨١.

(٥) ولا يماشى، لم ترد في البيان والتبيين.

ومنهم:

[٣٢]

أبو إياس النصري[١]

رُدف به في الذكاء إياس[٢]، وصُرف إليه النظر منه على قياس بفطنةٍ تبارك زكى من فطرها وأذكى فطرها.

قال الجاحظ[٣]: وهو الذي قال: كانوا يقولون أشعر العرب أبو دوادٍ الإيادي وعدي بن زيد العبادي.

ومن كلمه:

يا قوم اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأصدقوا الله النيّة قبل الفعل، فوالله إنكم لن تخذلوا ما أجمعتم، ولن تنصروا ما افترقتم، وانظروا أيام الناس، وقيسوا الأمر على سهمه، فالأيام واحدة، والناس الناس، وإنما هو أمر مطاع، أو شورة متبعة وأنتم، وما شئتم.

ومنهم:

[٣٣]

عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[٤]

مقسم من سماه ونجاح وينتقل آونة لفساد وآونةً لصلاح، فإن يبعد البون وكان لنعم الخليفة منه نعم العون، فافترّ به بعد الزمان ابتساماً، وثبت في صحائف الأيام ارتساماً.

قال الجاحظ[٥]: وكان راويةً ناسباً شاعراً قائلاً قول المرجئة، ثم رجع عنه واختصّ بعمر بن عبد العزيز، وفيه قول جرير:

يا أيّها الرجلُ المُرخي عمامته ... هذا زمانك أني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيهُ ... أنّي لدى الباب كالمشدود في قرنِ

ومن كلام عون المشهورة: اللهم أنا زرع نعمك، فلا تجعلنا حصائد نقمك.

---

(١) في الأصل: المصري، وهو تصحيف. (٢) اياس المضروب به المثل في الذكاء.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٢٣.

(٤) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعتبة أخو عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل المشهور ومن العلماء الرواة الخطباء، الشعراء، توفي سنة ١١٥هـ أو نحوها. انظر: البيان والتبيين (الفهرس) وحلية الأولياء ٤/ ٢٤٠ وتهذيب التهذيب ٨/ ١٧١.

(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٢٨.

/ ٢٥٩/ ومنهم:

[٣٤]

عبد الله بن شبرمة بن طفيل بن هبيرة بن المنذر(١)

فنن فنون وفتى مثاب وفتون، غلب بطامي بحره، وخلب بمخيل سحره، إذ كان لا يزال يجلو البيان بتصوّره، ويخيل العنان في استحسان صوره، حتى أبرزها كوامل لم تخدج، وصحائح لم تخلج، وحججاً شافية بها يفلج.

قال الجاحظ(٢): وكان فقيهاً، عالماً، قاضياً، شاعراً، راوية، حاضر الجواب مفوّهاً، يشبّه بالشعبي(٣) لاجتماع ذلك فيه، وفيه يقول يحيى بن نوفل(٤):

لـمـا سـألـتُ الـنـاس أيـن الـمـكـرمـة ... والـعـزُّ والـجـرثـومـةُ الـمـقـدَّمـة(٥)
وأيـن فـاروق الأمـور الـمـحـكـمـة ... تـتـابـع الـنـاس عـلـى ابـن شُـبـرمـةْ

وقال له فقيه(٦): من عندنا خرج العلم، قال: نعم ثم لم يرجع إليكم.

ومن خطبه:

لو اتخذتم النصفة بينكم منهاجاً لم تتشعّب بكم الطرق. ولكنكم أمرتم عليكم هواكم المطاع فيتظالم، ووالله لئن لم ينخلع أحدكم في دنياه من كلّ ما يملكه أجدى له من إمساك ذرة يسأل عنها في آخرته، فارجعوا رحمكم الله إلى أحلامكم، ومهّدوا لمواطىء أقدامكم، واعلموا أن الله بمرأى منكم ومسمع.

ومن شعره قوله في ابن أبي ليلى(٧) القاضي:

---

(١) عبد الله بن شبرمه، أبو شبرمة الطيبي، من فقهاء أهل الكوفة، وجلّة مشايخها، ولاه المنصور قضاء السواد. توفي سنة ١٤٤هـ.
انظر: المعارف ص٤٧٠ وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٤٤. ومشاهير علماء الأمصار ١٦٨، والبيان والتبيين ١/ ٣٣٦ وفوات الوفيات ١٧/ ٢٠٧ وتاريخ الموصل للأزدي ١٨١ والعبر للذهبي ١/ ١٩٧ وميزان الاعتدال ٢/ ٤٣٨ وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٥٠ وشذرات الذهب ١/ ٢١٥.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٣٦.

(٣) الشعبي: عامر بن عبد الله الشعبي، الحجيري، من الفقهاء الشعراء، ولي القضاء لعمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١٠٣هـ
انظر: صفة الصفوة ٣/ ٤٠ وتذكرة الحفاظ ١/ ٧٤.

(٤) يحيى بن نوفل: من شعراء الدولة الأموية، ذكره الجاحظ في مواضع متعددة من كتابيه الحيوان والبيان والتبيين والمبرد في مواضع متفرقة من الكامل.

(٥) البيتان في البيان والتبيين ١/ ٣٣٧.

(٦) في البيان والتبيين: أجل من فقهاء المدينة.

(٧) محمد بن عبد الله الرحمن بن أبي ليلى يسار، وقيل داود، بن بلال الأنصاري، فقيه، قاض، من =

وكيف تُرجّى لفضل القضاء ولم تصب الحكم في نفسكا[١]
وتزعم أنك لابن الجُلاح وهيهات دعواك من أصلكا

ومنهم:

[٣٥]

عيسى بن يزيد بن دأب، أبو الوليد[٢]

لبّ الفصاحة وقبلها. وفرط الحصافة وقبلها، كأن زواجر وعظه قارعاً، وزواخر لفظه فارعا، بأفكار أنفذها حبات القلوب وأمهرها، وروى بها حروف المسامع وأنهرها.

قال الجاحظ[٣]: أحد[٤] بني ليث بن بكر، أنه كان ممن يؤلف الكلام الجيّد، ويولّد للشعراء القصائد الشريفة الغريبة[٥]، مع بيان عجيب، ورواية كثيرة وحسن إشارة.

ومن كلمه قوله:

واستغفروا الله بفعلكم قبل ألسنتكم، وتوبوا إليه بنياتكم قبل بنياتكم، ليرسل عليكم السماء مدراراً، ويجعل لكم جنات وأنهاراً، فإن وعده لا يخلف، ووعيده لا يُصرف / ٢٦٠/ وتجنبوا مصارع الأمم، واستعيذوا من مزارع النعم.

ومنهم:

[٣٦]

كلثوم بن عمرو العتابي، أبو عمرو، من ولد عمرو بن كلثوم[٦]

سلاف البلاغة ومعتصرها، وقطاف البراعة ومهتصرها، ومسمع الخطب التي تغسل بالشؤون الذُّنوب. وتفيض الجفون كالذُّنوب. بمواعظ تقع في القلوب قبل

= أهل الكوفة. ولي قضاء الكوفة أيام الأمويين لمدة ٣٣ سنة. مات سنة ١٤٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠١ والوافي بالوفيات ٣/ ٢٢١.

(١) البيتان في البيان والتبيين ١/ ٣٣٧.

(٢) الأصل: ويد، والتصويب من مصادر ترجمته.
وهو من الفصحاء الشعراء والمحدثين والعلماء بالأنساب، من أهل المدينة، اشتهر بأخباره مع المهدب العباسي، وحظي عند الهادي، مات سنة ١٧١هـ.
انظر: الاشتقاق ص١٧١ والبيان والتبيين ١/ ٥١ ومعجم الأدباء ٦/ ١٠٤ والمعارف ٢٣٤..

(٣) البيان والتبيين ١/ ٥١.

(٤) الأصل: حدثني، وهو تحريف، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٥) في البيان والتبيين: ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة.

(٦) كلثوم بن عمرو العتابي، أبو عمرو، شاعر مجيد من الخطباء البلغاء الفصحاء والكتاب المترسلين =

المسامع، وترقع بأبر الأهداب وخيوط المدامع.

قال الجاحظ[1]: وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلّف مثل ذلك من شعراء المولّدين كمنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأشباههما. وكان يحذو حذو بشار في البديع:

[ومن كلمه قوله][2]:

واعلموا أن الدنيا دار غرور وموضع مساءة وسرور، وهي دار جزاء ومكان بلاء شرّها غالب، وضرّها عاجل، وليلها كثير، وحوبها كبير، تباً لمن رغب في متاعها، وراودها بعد امتناعها، فرحم الله من تبصّرها بعين الحقيقة وراعاها بنظر التوفيق. وإلا فالجار سوء عقبى الدار.

ومن شعره:

نهى قلوب الغواني عن مواصلتي	ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري
إنّي امرؤ هدم الإقتار مأثرتي	واجتاح ما بنت الأيام من خطري
أيام عمرو بن كلثوم يسوّده	حيّا ربيعة والأفناء من مُضَرِ
أرومة عطّلتني من مكارمها	كالقوس عطّلها الرامي من الوتر

ومنهم:

[٣٧]

سهل بن هارون بن راهبوني[3]

الكاتب، طلع هلالاً، ونبع زلالاً، وكتب فكبت، ونبت فثبتْ. وخطب في عموم المصالح فخلص من العطب، وشبَّ في الجوانح ما لا يوقده الحطب، بكلم بوازغ وحكم بوالغ، ضمّنها مواعظ، رقل في الإسماع، وتنقل إلى الإجماع، نور نجومها

= من أهل قنسرين وقدم بغداد فاتصل بالرشيد وغيره من الخلفاء العباسيين. وانقطع إلى البرامكة، وألف كتباً منها «فنون الحكم» والآداب والخيل توفي سنة ٢٢٠هـ نشر الدكتور ناصر حلاوي العتابي، حياته وما تبقى من شعره في مجلة المربد عدد (٣ ـ ٤) ١٩٦٥ وانظر: الشعر والشعراء ٨٦٧ والموشح ٤٤٩ والأغاني ١٣/ ١٠٩ وفيات الأعيان ٤/ ١٣٢ وتاريخ بغداد ١٢/ ٤٨٨ وطبقات ابن المعتز ٢٦١ ولباب الآداب ٢/ ٦٦ ومعجم المرزباني ٣٥١ ومعجم الأدباء ١٧/ ٢٦، وبروكلمان ٢/ ٣٦ والأعلام ٦/ ٨٩.

(١) البيان والتبيين ١/ ٥١.

(٢) ساقطة من الأول.

(٣) سهل بن هارون بن راهبوني، فارسي، أصله من دستميسيان كورة بين واسط والكوفة والأهواز، اتصل بالمأمون، وولي بيت الحكمة، وكان شديد العصبية على العرب ألّف للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغّب فيه.
انظر: البيان والتبيين ١/ ٥٢ والفهرست.

وضوّاها، وأحلَّ نجودها أغوار الخواطر وبوّاها، فافترّت لها مياسم راق التثامُها، وجلت كواسم، راع العقود التئامها، إلى سمعةٍ له أسمعت من الصمم، وسعت في الآفاق سعي الهمم، فتوضح نجماً يتّقد، وفهماً يعتقد فيه من يعتقد.

قال الجاحظ[1] وقد ذكره: صاحب كتاب ثعلة وعفرة، في معارضة كتاب كليلة ودمنة إلى تصانيف أخرى، وهو ممن جمع الخطب / ٢٦١/ والشعر والرسائل القصار والطوال، والكتب الحسان المجلّدة، والسير المدونة.

ومن خطبه قوله:

وقد ذلّل لكم المناكب، ونصب لكم عليها أعلام النجوم، وعرّفكم عدد السنين والأيام، بشهورٍ زيّن غررها بالأهلّة، وطوالع جعل عليها كالأدلّة، فأيّ النعم لم يُسبغ عليكم رداءه، وأي الآلاء لم يُضاعف لكم عطاءه، فأقدروا حقّ نعمه، واستعيذوا برضاه من سخطه، ولوذوا بعفوهِ من نقمه، واشكروا له ولا تكفرون.

ومنهم:

[٣٨]

عثمان بن عروة[2]

منشىء خطب، أبدع قيمها منها وفطرها، وغالي قيمها وخطرها، بفصاحةٍ أفصح بها وأبان، ورجاحةٍ فضح بها سحبان، ففتح بها مقفلاً، وفسخ بها زماماً مقبلا، فوصلت إلى القلوب سريعاً، وأقالت من الذنوب صريعاً، بأخبار في إيجازٍ واختصار وإنجاز، وذكر الجاحظ[3]: الشكر وإن قلّ، ثمنٌ لكل نوال وإن جلّ.

ومنهم:

[٣٩]

عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس[4]

عم الخليفتين المذكورين الخارج على المنصور، الوالج عليه غاب الأسد

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٥٢ وقد ذكر من كتبه (كتاب الإخوان، وكتاب المسائل، وكتاب المخزومي والهذلية.

(٢) عثمان بن عروة بن الزبير بن العوام، الأسدي، القرشي، من الخطباء العلماء ووجوه قريش، أمه عمة عبد الملك بن مروان، توفي سنة ١٣٦هـ، المعارف ٢٢٣.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٣٢٧.

(٤) عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. عم المنصور والسفاح، قائد من الشجعان الدهاة، الخطباء الفصحاء. انتدب لحرب مروان آخر خلفاء بني أمية ولاحقه حتى بلغ دمشق =

الهصور، وتقدّم في ترجمة أبي جعفر المنصور طرف من خبرهِ، وطرف من حديث تأييده عليه وتنمره، غير أننا لم نترجم له استقلالاً، ولم ينجم له الرأي العيون ولا الإسماع مقالاً، وكان من أفصح قريش مقولاً، وأنفح لعود المنبر مندلاً.

ومن فصول خطابته، وفصيح قوله على غرابته:

يا أهل الشام، ويا شيعة عباد الأصنام، حاربتم آل بيت نبيكم بقلوب مصونها يعقل عن الله خطابه، ويعرف له حقّه، حتى إذا ذهب الله بطاغوتكم ونكل بمروان وشيعته الفجرة اطمأننتم إلى الغدر، ولذتم بالمكر، تحسبونني لا أعرف عظامكم، ولا أزلزل أقدامكم كلا والله لأبرينكم بري المدى، ولأطحننكم طحن الرحا، وليسلسنْ لي قيادكم وتستقيم أزوراركم، وإياكم والأماني، فإنها خدع غرور وخيال إفك وزور، ولله عاقبة الأمور.

ومنهم:

[٤٠]

عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس(١)

ملك يحكم الضيوف في أمواله، ويحتم على نفسه الجود قبل سؤاله. برا والصوارم تنبو، ووري والضرائم تخبو، جرى / ٢٦٢/ والعزائم تكبو، وكان هاشمياً مغرقاً، وقرشياً معرقاً، وكان شرف ذلك الأوان، وفخر بني العباس ومروان، قيل إن أمّه أتت صالحاً، وعبد الملك حمل مروان بن محمد، وكانت عنده، وعرض له الرشيد يوماً بذلك فقال: لا أبالي لأيّ الفحلين كنت.

قال الجاحظ(٢): سأله الرشيد: كيف رأيت أرض كذا؟ فقال: مسافي ريح

= فحاصرها وافتتحها وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، ثم بقي والياً على الشام حتى وفاة السفاح فطلب الخلافة لنفسه، فحاربه أبو مسلم الخراساني وهزمه، فانصرف إلى البصرة واختبأ عند أخيه حتى ظفر به المنصور فحبسه ثم قتله غيلة سنة ١٤٧هـ. انظر: المعارف ٣٧٥ ومروج الذهب، في مواضع متفرقة من الجزء الثاني وفوات الوفيات ٢/ ١٩٢ والوافي بالوفيات ١٧/ ٣٢١.

(١) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، من رجال بني هاشم وخطبائهم وفصحائهم، ولي الموصل للهادي سنة ١٦٧هـ، وعزله الرشيد سنة ١٧١ ثم ولاه المدينة، ثم طلب إليه أن يطلب الخلافة لنفسه فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ وأطلقه الأمين وولاه الشام سنة ١٩٣هـ وأقام بالرقة حتى وفاته سنة ١٩٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٦/ ٣٠ وتاريخ الطبري (في مواضع متفرقة) البيان والتبيين ١/ ٣٣٤ ومروج الذهب ٢/ ٢٧١.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٣٤ وفيه بعض الخبر.

ومنابت شيح. قال: فأرض كذا؟ قال: هضاب حمر، وتراب عفر، قال: فأرض كذا؟ قال: جبال شامخة، وأودية راسخة، قال: فأرض كذا؟ قال: أرض مراحه، كأنها بطن راحة، وحشها سارح، وطيرها سانح، وحوتها في مائه سابح، ماؤها عذب وفناؤها رحب، وجوّها رطب، تبرز شمسها نقية، وتطلع نجومها دريّة، ولم يزل الرشيد حتى أتى منه على ما أراد، ثم قال: يا عم، أنت شيخنا وخطيبنا، بلسانك ننطق وبنوئك نغدق، فقال له: والله لأنت يأمير المؤمنين بهذا القول أولى مني بما قلت فيّ، فأبقاك الله بقاء تلبس جدّته ويستطيب عمره قال: وأنت يا عم، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، قال: استعن بها في بعض تكاليفك. ومن شعره، وقد رأى ما أحدث أحداث بني العباس:

لبسنا المجد عن إباء صدقٍ أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسبُ الكريم تواكلته ولاة السوء أوشك أن يضيعا

ومنهم:

[٤١]

الفضل بن عيسى الرقاشي[١]

فضل محنه، وأصل فيه فتنة، وعلى هذا كان ذا لسانٍ أسرع من السنان، وبيان أطوع من البنان، إلى تشقيق الكلام، وتحقيق كالكلام.

قال الجاحظ[٢]: كان من أخطب الناس، وكان متكلماً، قاصاً مجيداً، وكان يجلس إليه[٣] عمرو بن عبيد، ويكثر منه هو كثير من الفقهاء، وهو رئيس الفضلية[٤]، وإليه ينسبون. وكان لا يركب إلاّ الحمير.

ونظر مرة إلى حمارٍ فقال:

قعدةُ نبي وبذلة (جبار)[٥] وعليكم بالصبر، فإنه سبب الأجر، وموقف النصر، واعلموا أن النعم لها مثل نفار الإبل، وأنها لا تتألف إلا بأداء حقّ الله فيها، فأدّوا إلى الله حقه، وواسوا بفضول أموالكم خلقه، واذكروا الفقر في الغنى، والضيق في السعة،

---

(١) الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، الواعظ، البصري، من رؤوس المعتزلة. توفي نحو ١٤٠هـ. ذكره الجاحظ في الخطباء الفصحاء.
البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ و٣٠٦ وتهذيب التهذيب ٨/ ٢٨٣ والأعلام ٥/ ١٥١.

(٢) البيان والتبيين ١/٣٠٦. (٣) الأصل: إلى، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٤) الفضلية: طائفة من المعتزلة، تنتسب إلى الفضل الرقاشي، وانظر: مفاتيح العلوم ١٩.

(٥) كلمة جبار ليست في الأصل، وأثبتها عن البيان والتبيين، وما بعده لم يرد فيه.

وإياكم / ٢٦٣/ والغفلة، والاغترار بالمهلة فيأتي الموت والله غير بعيد، والوعد والوعيد.

ومنهم:

[٤٢]

شبيب بن شيبة التميمي[١]

ربّ الفكر الوقاد الحمى. كان يشب توقداً، وينشب بالمندل الرطب موقداً، توالى الدولة الهاشمية في الدولة الهشامية، ووالى بني العباس زمان بني أمية، وقد مضى له في ترجمة المنصور ذكر وأنه في الخطابة كلّ بكر. كان المنصور قد ضمّه (إلى) المهدي، وكان يعظه في الخلو والندي.

ومنه قوله[٢]:

إن الله لم يرض أن يجعلك دون أحدٍ من خلقهِ، فلا ترض أن يكون أحد أخوف لله منك. وإياك واطراء المادحين، فإنه هلاك، أو المهلة فإنها فوات.

ومنهم:

[٤٣]

عمر بن عبد الله بن عبد العزيز القرشي العدوي

وهو ممن ذكرته في كتاب «فواضل السمر» وله فضائل إن نبغ عليه فيها قومه لابتغى القمر. وله في الخطابة لسان ذلق، وبيان طلق، كأنما خلق قدمه لمنبر وقلمه لنسج بردٍ محبر، ومن خطبه التي شاق الطوال قصارها، ونحم بها للرجال أقصارها قوله:

الحمد لله حمداً يبلغ ويدي منه وصلى الله على عبده ونبيه محمد خاتم أنبيائه، وخير أهل أرضه وسمائه. أيها الناس. إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. فخذوا من ممرّكم ومهربكم، لمقركم ومرجعكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، في الدنيا كنتم، ولغيرها خلقتم، أقول قولي هذا والمستغفر الله والمصلّى

---

(١) شبيب بن شيبة بن عبد الله بن الأهتم، التميمي، خطيب، فصيح، من أهل البصرة، قدم بغداد أيام المنصور، فاتصل به وبالمهدي، وكانت بينه وبين خالد بن صفوان منافسة.
انظر: تاريخ بغداد ٩/ ٢٧٤ ووفيات الأعيان ٢/ ٤٥٨ والبيان والتبيين في مواضع مختلفة منه، والعقد الفريد ٤/ ١٩٣.

(٢) الكلمة في المحاسن والمساوىء ٤٣٥ والعقد الفريد والأخبار الموفقيات عن ٣٩٩ برواية مختلفة. والوفيات ٢/ ٤٥٩.

عليه رسول الله ﷺ، والمدعو له الخليفة أعزّه الله والأمير سليمان بن جعفر.

ومنهم:

[٤٤]

واصل بن عطاء، أبو حذيفة الغزّال، المعتزلي[١]

كان لا يؤدي حرف الراء فتجنبه، وعرى منه كلامه وسلبه. كأنها لم تكن في حروف الهجاء معدودة، ولا في لغة العرب موجودة. هذا مع فصاحة تندى أعطافها، وتدنى قطافها، ليس هذا في خطبه التي كان يتصنّعها، وكتبه التي يضعها، بل في جميع مخاطباته وكلامه وكتاباته، تخلق بهذا حتى صار له خلقاً. وألف له شعوباً وطرقاً، وكان لا يبدو عليه التكلّف أثر ولا يبين له خطأ قدر عليه أحد. ولا عسر مع حذفه حرفاً كثيراً ما يدور في الكلام ويأتي في الشهادة والتحميدات الكرام.

مولده سنة ثمانين من الهجرة، واشتغل على الحسن البصري / ٢٦٤/ ثم اعتزل، وخالفه في قوله في أصحاب الكبائر من المسلمين أنهم ليسوا بمؤمنين ولا كافرين بل لهم منزلة بين المنزلتين، فسمّي هو وأصحابه معتزلة. ولم يكن غزالاً إنما كان يواظب سوق الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيعطيهن الصدقة، وتجنّب حرف الراء في كلامه، حتى ذكر ذلك الشعراء، فمنه قول بعضهم في المدح[٢]:

تجنّب لليوم العطاء كما[٣] تجنّب ابن عطاء لثغة الراء

وتوفي واصل سنة إحدى وثلاثين ومائة.

ومن خطبه المطوّلة المسهبة، المفصّلة تفصيل العقود المذهبة، قوله:

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوّه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان، ولا يؤده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأهُ ابتداعاً. وعدّ له اصطناعاً، فأحسن كل شيء خلقه، وتمّم مشيئته. وأوضح حكمته، فدلَّ على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، وذلَّ كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضلهُ، لا يعزب عنه

---

(١) ترجمه في أمالي المرتضى ١/ ١٦٣ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٤٣ والنجوم الزاهرة ١/ ٣١٣ ووفيات الأعيان ٦/ ٧ وشذرات الذهب ١/ ١٨٢ والبيان والتبيين ١/ ٣٢.

(٢) البيت لأبي محمد الخازن من قصيدة مدح بها الصاحب بن عباد (الوفيات ٦/ ٨).

(٣) كذا ورد الشطر في الأصل، وفي الوفيات: نعم تجنّب لا يوم العطاء كما.

مثقال حبةٍ، وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، تقدّست أسماؤه عظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزّه عن شبه كل مصنوع. فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون، واشهد شهادة حقّ وقول صدق، بإخلاص نيّة، وصحة طويّة، أن محمداً بن عبد الله عبده ونبيّه، وخالصته وصفيه. ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق، فبلغ مألكته، ونصح لأمته،وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصده عنه رغم راغم، ماضياً على سنته، موفياً على قصده، حتى أتاه اليقين فصلّى الله على محمد، وعلى آل محمد، أفضل وأزكى، وأتمَّ وأنمى وأجلّ وأعلى، صلاةً صلاّها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك إنه حميد مجيد، أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته وأحظّكم على ما يدنيكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة، في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها، وخدعها، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها /٢٦٥/ فإنها متاع قليل، ومدةٌ إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حبائلها، وأهلكت ممن جنح إليها، واعتمد عليها، أذاقتهم حلواً ومزجت لهم سمّاً، أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكانفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد فنضتهم بمحملها، وطحنتهم بكلكلها، وعضّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناءً، فسكنوا اللحود، وأكلتهم الدود، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا يحسّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبساً، فتزودوا عافاكم الله، فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولي الألباب. إن أحسن قصص المؤمنين وأبلغ مواعظ المتقين كتاب الله، الزكية آياته الواضحة بيناته، فإذا تلي عليكم فاسمعوا له وأنصتوا، أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، إن الله هو السميع العليم قل هو الله أحد، ثم قال: نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحي المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم. وأدخلنا وإياكم جنات النعيم. أقول أن أعظكم وأستغفر الله لي ولكم.

ومنهم:

[٤٥]

خطيب الخطباء، أبو يحيى عبد الرحيم بن إسماعيل ابن نباتة[١] التميمي[٢] الفارقي

تكفيه خطبة المنام، ورتبة الخطاب النبوي دون الأنام، وكان واسع المعرفة باللغة، أيّ قالب شاء أبرز المعنى وأفرغه. ذلّل رقاب البلاغة واقتادها، وسهل صعاب البلاغة واعتادها، وولع بالترصيع، وذهب خطبه بما لا قدر عليه صاحب بديع، وهي اليوم لا يعلو ذرى المنابر أبلغ من خطبها، ولا يعلق القلوب مع ما فيها من لطائف استعارات، وطرائف عبارات، تسمع الرجل الأصم، وتحرّك الجبل الأشم، وكل الخطباء عليه عوله، ولديه لا تجول معه في ميدان جولة، ولولا الاضطرار إلى إثبات بعض خطبه، ولم أجد له سواها ما يقف النظر به، لما أثبتُ شيئاً من ديوانه، لمسيره في الأقطار من شهرته التي هي /٢٦٦/ السبب في عدم الإقصار.

ومنه قوله:

أما آن لأهل الغفلة أن يستيقظوا، أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا، أما أزف لأولي العقول أن يتفكّروا. أما ردف لذوي التجارب أن يعتبروا، لقد صدقكم الموت عن الخبر. وأراكم تصاريف العبر. فما للقلوب لا تنصدع خشوعاً وما للعيون لا تجري بدل الدموع نجيعاً، وكأنكم الساعة وقد رجف زلزالها واشمخر وبالُها، واقمطرّ نكالها.

ومنه قوله:

لقد علت على قلوبكم الطبع فتملّكها، واستحوذ على نفوسكم الطمع فأهلكها، فلا الوعظ يشفي منكم غليلاً، ولا الإنذار يجد إلى قلوبكم سبيلا، فيا عجباً لغفلة مطلوب لا بدّ من إدراكه، وارحمتا لمغتر بالسلامة لا ريب في هلاكه، ألا أذن تسمع، ألا قلب يخشع، ألا عين تدمع، ألا هارب إلى الله يفزع، ألا نادم مقلع ألا مشمر مزمع، أتظنون أنكم للدنيا عمّار، أم تحسبون أنها لكم دار.

---

(١) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نباته، الفارقي، أبو يحيى. ولد في ميافارقين ونسب إليها وسكن حلب فكان خطيبها، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة الحمداني، توفي بحلب سوة ٣٧٤هـ. وله ديوان خطب مطبوع.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٦ والعبر ٢/ ٣٦٧ والشذرات ٣/ ٨٣ وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢١ وبروكلمان ٣/ ١٠٨ والوافي الوفيات ١٨/ ٣٨٨ والأعلام ٣/ ٣٤٧.

(٢) كذا نسبه المؤلف، وفي الوفيات: الحذاقي، وحذاقة بطن من قضاعة.

ومنه قوله:

يا سور الوقائع ويا عرض المصائب، ويا نصيب الوقائع ويا نهب الفجائع. أما ترون صوارم الموت بينكم لامعة، وقوارعه بكم واقعة، وطلائعه عليكم طالعة، وفجائعه لعذركم قاطعة. وسهامه فيكم نافذة، وأحكامه بنواصيكم آخذه، فحتام وإلام وعلام التخلّف والمقام، أتطمعون في بقاء الأبد. كلاّ والواحد الصّمد.

ومنه قوله:

إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون على بلوغ الأمل، وأنتم قرارة سيل المنايا، وإشارة نيل الرزايا، ما ولدتم فللتراب، وما بنيتم فللخراب، وما جمعتم فللذهاب، وما عملتم ففي كتاب مدّخر ليوم الحساب.

ومنه قوله:

ابن[1] آدم علا نسبك في الميتين فأعرق، ونازعت جسمك نوب السنين فأخلق، وأنت على حرصك مصرّ، ومما يقربك من الله تفرّ، تطلب من الدنيا ما لا تدركه، وتثق من الحياة بما لا تملكه، لا أنت بما قسم الله لك من الرزق واثق، ولا لما حذّرك من الدنيا مفارق.

ومنه قوله:

من كان الموت طالبه فكيف يلذُّ قراراً، ومن كان الدهر محاربهُ فكيف يطيق انتصاراً، ومن كان الأمل مظنّته أرداه عثاراً، ومن كان راحلاً إلى الآخرة فكيف يتخذ الدنيا داراً، إن هذا إلا غفلة شاملة، وأمنية باطلة، ومنية عاجلة، وسحبة عادلة، فيا فرائس الأحداث، / ٢٦٧/ ويا عرائس الأجداث، لقد صفّق الموت في دياركم فنعب، وصدقكم صرف الزمان فما كذّب، ووعظكم الدهر ثم ذهب، وأراكم من تقلّبه[2] بكم العجب.

ومنه قوله:

فتأهبوا رحمكم الله لليلة تتمخّض بيوم لا ليلة بعده، ولمحاسبةٍ تناقش على النقير والقطمير، لا ظلم عنده. هنالك تكشف الساعة قناعها، ويحيق الندم بمن أضاعها، ولا تخاف إلى الإقالة من باعها.

وقوله:

وإن أمرءاً تُعدُّ عليه أنفاسُه عدا، ولا يستطيع لأمسه مردا، لأهلٌ ألا يغتر بصفو

(١) في الأصل: ان.

(٢) في الأصل: تقلبكم.

حياةٍ الموت مكدّرها، ولا يستطيل مدَّة بقاء الفوت مقصرها.

ومنه قوله:

إني وأنتم سور النوازل، ووشل الجداول، وحبّ رحى المنون، وبقيّة سالف القرون، كلّ يوم تودِّعون ماضياً إلى الآخرة لا يرجع. وتشيعون عادياً إلى الحافرة لا يربع، وتروعون بفاقرةٍ لا تقلع، وتزعزعون براحة لا تنجع. كلاّ، ليحصدن الزارع ما زرع، وليزهدنّ الجامع فيما جمع، وليجدنّ الصانع غبّ ما صنع، وليطولنَّ ندم النادم إن نفع.

ومنه قوله:

إن امرءاً أمل الثواب بغير عمل، وأمن العقاب بتسويف العلل، لخائض لجة ندامة مرحوم سالكها، ونازل محجة سلامة مذموم تاركها، فأجد أيها الغافل مركبك، فإن البحر عميق. وأعدّ أيها الراجل زادك فإن الطريق سحيق، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير، وبادر المهل فإنّ العمر قصير، يا لها داراً معدوداً معدوما رضاؤها محتوماً بلاؤها، مظلمة مسالكها، مبهمةٌ مهالكها، مخلّداً أسيرها، مؤبّداً سعيرها متناهياً سعيرها عالياً زفيرها، شراب أهلها الحميم، وعذابهم أبداً مقيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، لهم فيها بالويل ضجيج، وللهيبها فيهم أجيج، أمانيهُّم فيها الهلاك، ومالهم من أسرها فكاك، قد شُدَّت أقدامهم إلى النواصي واسودّت وجوههم بذلّة المعاصي.

ومنه قوله:

ما لأفراس الجهاد صافنة لا تركض، وما لآساد الجلاد خادرة لا تنهض، وما لأيدي الكفر قبل امتدادها لا تقبض، وما لأسبابها قبل استخدام مثلها لا تنقض، أحين تألّق شهاب الإيمان فسطع، وتمزّق ضباب البهتان فانقشع، وزهق باطل ذوي الألباب فانقمع. أخلدتم /٢٦٨/ إلى الدعة قبل أوان الإخلاء، وأغمدتم سيوفكم عن مقارعة الأضداد، وسددتم ما فتحه الله لكم من أبواب الجهاد، فراراً زعمتم من تحريض العدو على الاحتشاد، وما أراه إلا اغتراراً بكمون نارهِ تحت الرماد.

ومنه قوله:

طريق معقود بالآخرة آخرهُ، مردودٌ في الحافرة مسافره، فقيد الطلعة راكبه. بعيد الرجعة غائبهُ، قد كنت في جرائد الأمم الخالية، ونسب إلى هوامد الرمم البالية.

ومنه قوله:

أيها الناس، إن الموت باب لا بدّ من دخوله، وضيف لا ريب في نزوله، وهاجم لا مدفع لحلوله، وصارم لا مطمع في كلوله، فرحم الله امرءاً أخذ من صحّته لسقمهِ

ومن شيبته لهرمه، ومن قوّته لألمه، ومن مقامه لرحيله، ومن دنياه لآخرته. وكان في طاعة ربه من المبرزين، فإن ما تُوعدون لآت، وما أنتم بمعجزين.

ومنه قوله:

أيها الناس، من كان الدهر خطيبه كفاه، ومن كان الفكر طبيبه شفاه، وما أنتم إلاّ سبيلٌ الآخرة قراره، وذبال الموت الوحي (....)، وقوف، والآجال بكم سائرة وحلاّل، والأيام بكم مسافرة، ورقود والمنايا في فنائكم ساهرة، تعمرون الدنيا وداركم الدار الآخرة. ومنهم ابنه:

[٤٦]

أبو الطاهر، محمد بن عبد الرحيم

سعى خلف أبيه فما أدركه، وطلب إرثه من البلاغة فلم يظفر بما تركه، خلا زلالة من قول تبرضها، وعلالة من كلمات يتمضمضها. وله في ديوان أبيه خطب كتبت في آخرها، وبينت جداولها مع تلاطم أمواج زواخرها.

ومنها قوله:

أيها الناس، وضح الصواب لمن طلبه فرغب فيه، واتضح الكتاب لمن عمل بأوامره ونواهيه، وأفصح بذكر ما أحلّ لكم وحرّم، وبيان ما أشكل عليكم وأبهم. ولا تعلنوا رحمكم الله الأهواء الموبقة لمن أطاعها عليه، فقد فصّل لكم ما حرُم عليكم إلا ما اضطررتم إليه.

ومنه قوله:

وكان قد خيّم على اللذات هادِمُها. وأقدم على الحركات حازمها، عصفت من المنون سمائها، وعملت في النفوس صوارمها، فأصبحت أيها المغرور صريعاً لمساورة الانتقام، سريعاً في جسمك بعض الإبرام، قد عزّ عليك الكلام فعلاً، وجاش صدرك بالأنين /٢٦٩/ فعلاً، وأمرَّ الموتُ في فمك من الدنيا ما حلا، فنبذت في الضريح الملحد، وأسكنت تحت الصفيح الموصد، منفرداً بأعمالك في المكان الفدفد، مبدلاً من خفض مهادك وساد الجلمد.

ووقفت له على رسالة كتبها إلى بعض إخوانه معزياً بولد كان به باراً، فمات أعظم ما كان له ساراً، صدع بها الفؤاد صدوعاً، وأجرى الصبر دموعاً وهي:

المصاعب ـ أعظم الله أجرك ـ لا يدفعها الحزن، ولا يمنعها الأسف عند نزول المحن، ولا يسلّي عنها إلاّ الصبر لمن ابتلى، والرضى لله بما قضى، وقد ألمَّ بي نبأ ابنك المتوفى، أعظم ما كنت مغتبطاً به، مرتبطاً على حبه، وأكثر ما كان لك نفعاً،

وعن حوزتك دفعاً، وما وجدت به مما يجده الأب بابنه، وبفقده الأصل من غصنه، وقد علمت أن الدنيا غرور، وأن الأقصى من السرور بها زور، ومثلك على علوّ قدرك في الفضل، ومعرفتك بأحوال الأمم الأولى سلفوا قبل، من يصبر عند الصدمة الأولى، والحملة التي لا تملك في مدافعتها قوة ولا تستطيع حولا، وإنما هي عارية استردّها معيرها، وموهبة استرجعها واهبها، حيث تم سرورها فخفّض عليك هذه الأحزان، وهوّن عليك يا فلان. وانزل ولدك منزلة غائب. إن لم يقدم عليك قدمت عليه. ومسافر تقدم أمامك وأنت واصل إليه، ولا توهننَّ هذه الرزيّة جلدك، ولا تنقص من الأجر ما أمضت عليك مددك، وكنت قد عزمت من أوّل ما أتاني خبر هذا النبأ الأليم والخطب العظيم أن أعمل إليك، وأسليك كما يسلى الغير، فرأيتك أكمل فضلاً، وأجمل في البليات حملاً، فحططت رحلي، ولزمتُ أهلي، اكتفاءً بفضلك الذي عُرف، وتسليمك الذي هو فوق ما أصف.

ومنهم:

[٤٧]

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، التيمي، البكري. ابن الجوزي(١)

بحر لا يغيض معينه، ودرّ لا يقوم ثمينه، اتخذ الكلام سبلاً، وسلك طرقه ذُللاً، فخرج منه شراب مختلف ألوانه، مؤتلفٌ جمانه، أكثر به الوعظ على رؤوس الأشهاد، وآثر اللفظ منه حتى في الجماد، وكان مجلسه ربما تهالكت فيه الأمم، وتهتكت الحرم، ولم يسع الفناءُ حضّاره. ولا الفضاء سماعه له ونظّاره، وربما حضر الخليفة / ٢٧٠/ من وراء ستاره، وشدّت إليه الركاب سيارة، وكانت مواعيده مواعيد الدموع أن تُصبّ، وأوقاته أوقات القبول أن تهبّ. وأسلم على يده خلق من الذمّة، وتاب أمم من عصاة الأمّة، وله التصانيف التي جرت مجرى الأمثال، وسرت سري الهلال، ولم يبق متكلّم على منبر حتى أمتار من نضارها ولا متقدم في محضر حتى امتاز باستحضارها.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي التيمي، البكري، ولد ببغداد سنة ٥٠٨ أو ٥١٠هـ. وتوفي بها سنة ٥٩٧هـ. ومؤلفاته كثيرة جداً. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٠ والبداية والنهاية ١٣/ ٢٨ وذيل الروضتين ٢١ ومرآة الزمان ٨/ ٤٨١ لسبطه ابن قراونلي وفيه أنه عبد الرحمن بن محمد بن علي، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥ والتكملة لوفيات النقلة ١/ ٣٩٤ والعسجد المسبوك ص٢٦٨ والأعلام ٣/ ٣١٦ ولعبد الرحمن العلوجي كتاب جمع فيه مؤلفاته.

وحكى: أن الشيخ جمال الدين أبا الفرج كان قد جعل له كل يوم كتابة أربع كراريس قطع ربع البغدادي، وأنه كان له أربع مخدّات على اليمين والشمال وقدّام وخلف، فإذا عيى من الكتابة قاعداً استلقى على ظهرهِ وكتب، وإذا نام على وجهه كتب، وإن نام على أحد شقيه كتب، إلى أن يكمل أربع كراريس.

ومنه قوله:

الحمد لله الذي لم يزل عليماً سميعاً، أوصل إلى الخلق نعمه سريعاً، وعاقب أعداءه عقاباً فظيعاً، أحلَّ المتقين جناناً وسيعاً، وجعل للمتقين في جنانه من المناجاة ربيعاً. فتح باب اللطف لأهل اللطف سريعاً، أنزل كلاماً قديماً، نسخ الكتب جميعاً. أحلّه من القلوب محلاً ربيعاً، هو الذي لا يأخذه نوم ولا سنة، لا يغيّره دهر ولا سنة، يثبت النفوس المحسنة، يتخيّر ما يشاء من الأزمنة، وهو الذي اختار من اختار، وقدّم هذا الشهر على السنة، وجعله مخصوصاً بالمواعظ على كلّ الألسنة ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فهو العليم بلا تعليم، الكامل ولا يحتاج إلى تقويم، الذي جعل أولياءه من جناته في حريم، وجعل ديون تكليفه عليهم، وتسامح الغريم، يُنعم على عباده بالفوز المقيم، جعل النار سوطاً يعذّب به من لا يستقيم، يخوف به عباده، لا ليعذّب المؤمن العذاب الأليم، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

ومنه قوله:

الحمد لله، الهادي إلى / ٢٧١/ دينه، المنعم بيقينه، المقبل على القلب المزعج بتسكينه، ذبح العدوّ المفرط بسكينه، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فهو الخالق ما دبَّ ودرج، وهو الذي يأتي في المضايق بالفرج، ولا يخفى عليه سواد سواد السبج، استخرج بدائع الودائع من بطون اللجج، نوّر العيون وأحسن في تركيبها الدعج، أنشأ الخلائق وأخرج من بعض بعضا، استغنى عن الكل ثم استدعى فرضا.

ومنه قوله: في بعض خطبه يذكر الوزير عون الدين أبا المظفر يحيى[1] بن هبيرة، ويصف في الأيام المقتفويّة تدبيره، وهو الوزير الذي قلّد بني العباس مِنَّة في

---

(١) يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة، الشيباني أبو المظفر عون الدين، الوزير، سمع الحديث وحدّث، وولي بعض المناصب حتى ترقى إلى الوزارة، وكان عالماً فاضلاً مدبراً ذا رأي صائب، مدحه الشعراء، وصنف كتباً. توفي سنة ٥٦٠هـ. انظر: الخريدة (قسم العراق) ١/ ٩٦ والمنتظم ١٠/ ٢١٤ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٣٠ والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥١.

أعناقهم من أطواق الحمائم، وأنبت لحصيد دولتهم من سواكب الغمائم، فلقد استنقذها من الحضيض، ورفع من الأرض طرفها الغضيض، وكفّ أيدي أعدائها، وقد أمسكت بأطواقها، ونفّس كربها، وقد أحدث بمجامع آفاقها. والذي قال:

وأدام الله أيام فلان، الذي ساس الأمور بحسن تدبيره وزم، وعرضت له الدنيا، فلولا حسن التوفيق لهمّ. أخلاقُه معجونة بمسك نسك، كلّما حُرِّك نمّ، الذي يؤثر مجالسة الفقراء على الأغنياء العظما، ويختار الكلمة من الغريب على الرغائب الدمى، ولا يريد الدنيا إلاّ أن يتخذها إلى الآخرة سلّما، الذي الدعاء له مزاحم الوجوب وكفيل المطلوب، وهذا دعاء تجتمع عليه القلوب.

ومنه قوله:

عليك حافظ وضابط، ليس بوان ولا غالط، وأنت في ليل الهوى خابط، يا من قضى عمره كم تخالط، يا كثير الذنوب بكفي الفارط. متى تنته لصلاحك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا تنافس؟ يا من تحدّثه الأماني بزخارف الوساوس، أين الجبابرة الأكاسرة الشجعان الفوارس؟ أين حارس المال؟ أخذ المحروس وقتل الحارس.

ومنه قوله:

رفع السماء في لوح الهواء ما لها عامد، سطح الأرض على زبدٍ جامد، كادت تموج موج المراكب، فثبتها بالجبال الرواكد، فالنجوم تلوح كأنها جنود تطارد، من آياته أنك ترى الأرض هامدةً فمنها مرتفع وهامد، يجللها سحاب بارق راعد، والطير يرجّع سجع الألحان من تقديس الديان غرر القصائد، والكل يرمي بازدواجه أن الموحّد /٢٧٢/ واحد. لا مثيل ولا شبيه ولا زوجة ولا ولد ولا والد.

ومنه قوله:

هو خالق الأرواح بعد خلق الأجسام، وباعثهما جميعاً بعد تفتت اللحود وتقطيع العظام، نسج وشي الربيع في حلل مجلّلة بالأكمام، فالورق على الورق، تشدو بعجيب الكلام، من لا يطّلع على كيفيّة ذاته كيف يطلع على كيفيته، أين الأفهام؟ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

ومنه قوله:

يا من علا في الشرّ وبذخ، وتكبّر عل القرناء وشمخ، أترى يزول هذا الوسخ، أترى يصلح ثوبك الذي اتسخ، لا تغرنك السلامة فثوب البلى عند الخياط. إلا متفكّر

في حاله، إلا متزوّد قبل ارتحاله، إلا من يحك عمله قبل تفتيش أعماله، بين يديك سفرة، أوّلها حفرة، يا من خرق درعه المعصية ونحن نرقع، أنت تقول: أنا تائبٌ وأنا أسمع، عزمت القافلة أن ترحل، أين من يرفع؟

ومنه قوله:

واحسرتي من تضييع صلواتي، ما قدمت ما يصلح لمماتي، من يجمعني بعد شتاتي، من يليّن هذا القلب العاتي، كم حبّة من الحطام كسبتها، كم ضيعت واجبة من الواجبات وما فعلتها، والله لقد بالغنا في الدواء وهذا المريض ما استوى وإذا قعودك، وقد عرض عليك سعودك. أترى قد يبس عودك، ضيّعت من عمرك أربعين سنة، ومضى وقت اليقظة كلّه سنة.

ومنه قوله، وقد قرأ المعري:

بسم الله. كم على القلوب من أشغال، وكم عليها من أثقال. أرحابها يا بلال، إذا قيل بسم الله عند القلوب فكأنه برقٌ شيم فلمع وجرى في المآقي فدمع.

يا من رأى البرق بنجدٍ إذ توارى	سلب النوم وأعطى البر حاءا
فاض فيضاً كجفوني ماؤه	فالتظى وهناً كأنفاسي البطاءا
نام سمّار الدجى عن ساهرٍ	تخذ الهمّ سميراً والبكاءا
أسعدته أدمع تفضحُهُ	فإذا ما أسعد الدمعُ أساءا
ياخليليّ ولم أعلمكما	بالهوى حتى تثبت الإخاءا
علّلا قلبي بذكرى قاتلي	ربّ داءٍ عاد للنفسِ دواءا

هذا مناديهم، وعلى اليمين واديهم، أين حلّ القوم في بيداء النقى، أين قدم السالك منهم /٢٧٣/ صعد وارتقى، أين هممهم بين العذب والنقا، ساروا وخلّفونا، توقفوا وعرّفونا، كانت دموعهم في السحر تجري، كانت قلوبهم تفهم وتدري، يا لعزائمهم تسري، يا لسيوفهم تقدّ وتبري، الدنيا تشرق بكونهم، القناعة تعجب من صونهم، الدمع شرابهم، القلق دابهم، يشتاقهم محرابهم، ألفتهم أوصابهم، مضى أهل السهر وبقي أهل النوم.

ومنه قوله:

أنعم على المخلص ودلّه، وأخذ بيده عمن ذله، سل سيف القهر على الخلق واستلّه، اطلع على المضطر فحمل كله كله، أنعم على المخلص فأعزّه وعلى الغافل فأذلّه، أنزل القرآن فهدى به شخصاً وشخصاً آخراً أضلّه، أخرج الماء من بين أصابع نبيكم من أصغر قلّة، فربى الإيمان في قلوب أصحابه كالأهلّة، قد أخرج لبني إسرائيل

اثنتي عشرة عيناً وما روى غُلّه، وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّه، فالق النوى والحبوب، وهو المطلع على ضمائر القلوب، ردّ يوسف على يعقوب، وكشف الضرّ عن أيّوب، يبعث السحاب فيمتطي الريح امتطاء المركوب، فإذا نزل القطر على الأرض، رأيتها خاشعة تذوب.

ومنه قوله:

يوم تشهد الملائكة بما كتبت، هذه الأمور بعيدة وكأنكم بها قد قربت، أين ديار المعاصي خربت، أين نفس العارف طربت، أين قلوب العاصين خربت، ألا تردّ نفسك عن الخطايا، فقد كفى ما لعبت، يا فراخ البلا، فخاخ الفناء قد نُصبت، والله لو رأت بصيرتك ما بين يديها لعجبت، ولكنها قد حجبت، كأنكم بشمس الحياة قد غربت. كم قيل لها: أيامك فيم ذهبت؟ أين الليالي نهبت؟ أين الأيام ذهبت، العجب والله لنفسٍ تضحك وقد عصت، ولو عرفت ندمت، يا متحرّكاً وأنياب النوائب فيه قد نشبت، أخذت الدنيا وسلبت. ظنّت أنها قد تركت لا قد طلبت.

ومنه قوله:

لفظ أرقّ من نسيم السحر بين الشجر، ومعنى كالسحر يتغلغل إلى السحر، ليس كلّ معدن عرق الذهب، ولا كل غزال يظن غزال المسك لما سرق في بيداء الطلب، للعلم في ضميره سر، فقال: سهر معسر، فلما انتهى برّ الطلب، لاح بحر البحث، فلججتُ في أمواج الفهم أقلبها، فتارةً تغلبني وتارة أغلبها، حتى انجاب الظلام عن صباح. فصاح مؤذن الظفر: حيَّ على الفلاح.

/ ٢٧٤/ ومنه قوله:

فلمح القوم الوجود، ففهموا المقصود، فجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمّروا في سواء السبيل، فالناس في الغفلات، وهم في قطع الفلاة، فما كانت الأيام إلاّ مناماً، حتى عبروا قنطرة الآمال، بأحمال الأعمال، لو رأيت مطايا أجسامهم وقد أذابها السّرى، تحنّ مما تحن، سل عنهم الليل فعنده الخبر، أتدري كيف مرّ عليهم؟ أبلغك ما جرى لهم، أيعلم خال كيف بات المتيم؟ افترشوا بساط قيس، وباتوا بليل النابغة، إن ناحوا فأشجى من متمم، وإن ندبوا فأفصح من خنساء، ما زالت مطايا الأقدام تدّرع بيد الدجى بالقيام، وحادي القوم يقول: يا رجال الليل هبّوا، ربّ صوت لا يُردّ، لا يقوم الليل إلاّ من له عزم وجدّ، فما زالوا كذلك إلى أن نمّ النسيم بالفجر وقام الصبح ينعى الظلام، فلما همّ الليل بالرحيل، تعلّقوا بذيل السحر.

ومنه قوله:

كم دار دارت بنعم النعم دارت عليها دوائر النقم، وفي الغير عبر، فيا من أمكنه الزمان لا تحتر، فما يؤمن من الزمن الزمن، كلاّ إن في الطرافة لآفة، ستعلم أيها الظالم قدر غريمك، إذ يلقى كل ذي دينٍ وماطله. صياد التلف قد بثّ الصقور وأرسل العقبان، ونصب الأشراك، وقطع الجواز، فأين المفرّ؟ تهيّأ لصرعة الموت، وكن على حذرٍ من قلّب القلب، بطل والله عمل النشاب في تلك الحرب. ليت شعري إلى ما يؤول الأمر، فوالله ما أدري أيغلبني الهوى إذا جدّ جدّ البين أم أنا غالبه. فإن أستطع أغلب. وإن تغلّب الهوى فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه. آه من تأوّهٍ حينئذ لا ينفع، ومن عيونٍ صارت كالعيون مما تدمع، ولما جلّى التوديع عما حذرته، ولم تبق إلاّ نظرة تتغنّم، بكيت على الوادي فحرمت ماءه. وكيف يحلّ الماء أكثره دم.

ومنه قوله:

وهن العظم وما شابت لمّةُ الأمل، قرّبت نوق الرحيل وما في المزادة زاد، قدّمت معابر العبور وأنت تلهو على الساحل، أكثر العمر قد مرّ، وأنت تتغلغل في تضييع الباقي، أين عزم أويس، أين معرفة معروف، أين سرّ السريّ، أين جدّ الجنيد، أيا راهبي نجران ما صنعت هند؟ انكسر مغزل رابعة، وبقى قطن الحلاج، ألك في القصعة / ٢٧٥/ حصة؟ اتحدوا ومالك بعير، أتمدّ القوس وما لها وتر، أتتجشأ من غير شبع؟ واعجباً من وحم بلا حبل، إذا اشتبهت دموع في خدود، تبين من بكا ممن تباكى، هل في هذه الدار من أولئك ديّار.

ماساعفتني الليالي بعد عهدهم ... إلا ذكرت ليالينا بذي سلم[(١)]
لاتطلبنّ لي الإبدال بعدهم ... فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

ومنه قوله:

القلب جوهر في معدن البدن، الأفعال تراجم الهمم، ولو قصدت الثغر طلبت الرباط، واعجباً أطلب الشجاعة في جبان، وأسأل عن الهلال ابن أم مكتوم، استملي الفصاحة [من باقل][(٢)] انتظر الوفاء من عرقوب. لقد رجعت إذا بخفّي حنين، قد شغلتك رذائل لذّاتك عن فضائل ذاتك.

ومنه قوله:

هذه أحوال لا يعرفها إلا أهل المعاملة، وطرقٌ لا يسلكها إلاّ أصحاب المواصلة،

---

(١) البيتان للشريف الرضي، ديوانه ٢/ ٧٢٢.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وباقل رجل يضرب به المثل في العجب والفهاهة.

لاحت للمحبين أوصافُ الحبيب في حلية الكمال، فقاموا على أقدام الشوق يسيحون في فلوات الوجد، فلو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولقيت في حبك ما لم يلقه في حبّ ليلى قيسها المجنون، لكنني لم أتبع وحش الفلا كفعال قيس، والجنون فنون.

ومنه قوله:

أما رأيت مرزوقاً لا يتعب، ومتعباً لا يرزق، هذا موسى عليه السلام في تقلقل أذى وما رأى. ومحمد ﷺ يزعج عن منامه وما طلب:

قضاها لغيري وابتلاني بحبّها

يطلب موسى التجلّي ويرزق الجبل.

أراك الحمى قل لي بأيّ وسيلةٍ | توسلتَ حتى قبلتك ثغورها

ومنه قوله:

يا موثقاً بقيود الطرد، مرمياً في مطمورة البعد، خفف من شجنك في ضيق سجنك بالتوسع في البكاء على الحبيب.

لو صارت العين عينا ما وفت | من ناظرٍ لي بين سلعٍ وقبا
.... | كيف أضاء البرقُ أم كيف خبا[1]
نبهني وميضهُ ولم تنم | عيني ولكن ردّ غفلا غربا
قرت له بنات صدري خافقاً | واستبردتهُ أضلعي ملتهبا
سل من يدل الناشدين بالغضا | على الطريد، ويردُّ السلبا

واويلاه. أنا الحرب ـ وأنا أطرب، تتركوني أسير وحدي، أسير وجدي، هلاّ سعت معي رجل رجل، وأعانني ساعد مساعد، أين شرط الرفقة، أو ما الغرماء للكل واحد:

ياعيوناً بالكرى /٢٧٦/ راقدة | حرّم الله عليكنّ الكرى

ومنه قوله:

كنت تقول إذا شبت تُبت، فهذه شهور الصيف عنّا قد انقضت، ويحك قد نفد السليط، فاستدرك ذبالة المصباح. في كل يوم تضع قاعدة إنابة، لكن على شفا جرف، كم تعزم على طاعةٍ وتوبة، يا ليلى الهوى ما يصبر عن توبة، تبيت من العزم في شعار أويس.

ومنه قوله:

(١) لم يرد شطر البيت في الأصل.

ألا تيقظ من الرقاد، ألا توبةٌ من الفساد. يا من كلما عدلناه زاد. يا أسود القلب والفؤاد، أصخر هذا القلب أم جماد، أما سمعت بما عاد على قوم عاد، لو علمت المصاب لبست الحداد، لو علمت ما عليك من الذنب فرشت الرماد، يا من سمع وذهب وما استفاد، جسمك في واد وأنت في واد، إنما أنت بين داعٍ ووداع، فهل لماضٍ من الزمان ارتجاع، الأعمار منهدة والقلوب مسودّة. ابواب الخلاص منسله، أمل ماله آخر، الانتباه، الانتباه، قبل أن (يتكدر)[1] بحر الحياة. كم خطر على قلبك ذكر ذنبك وما بكيت، كم بارزت الحقّ بالقبيح وما استحييت، استترت من الخلق وتواريت، ونسيتني وأنا معك في البيت.

ومنه قوله:

كم من حريص جمع المال جمع الثريا. فرقته الأقدار تفريق بنات نعش، البخيل فقير لا يؤجر على فقره، البخيل يبيع عرضه ولا يشتري المكارم.

جبان عن الإنفاق والمال وافرٌ وربّ سلاح عند من لا يقاتل

ومنه قوله:

المفروض عندك مرفوض. وكلام النصيح صوت الريح. يا نائماً طول الليل، سرت الرفقة، رحل القوم كلّهم وما انتبهت من الرقدة، قد كان لك مع العباد قلبٌ فانقلب أيها المطيع، أي مضيع أغراك أيها البريء أي بحر مدّ فجري بك. لاحت لك العاجلة فهمت كأنك ما فهمت، فلما تبدلت تبلدت.

ومنه قوله:

.....[2] به من ملك مَنْ ملَكْ لا تتبع في ورودك منهل من هلك، يا خزانة الودائع، ويا وعاء البدائع، كلّ الأكوان شجرة وأنت ثمرة، وصورةٌ وأنت المعنى وصدفة وأنت المغنى، ومخضة وأنت الزبد. يا معرضا / ٢٧٧/ عنّا، إنما أبعدنا إبليس لأجلك، يا عجباً منك، كيف صالحته وهجرتنا.

رعى الله من أهوى وإن كان ما رعى حفظنا له الودّ القديم وضيّعا
وواصلت قوماً كنت أنهاك عنهمُ لعمرك ما أبقيت للصلح موضعا

ومنه قوله:

الحرب خصام قائم، وأنت غلام نائم، لابس لأمتك ليس في سلاح المحارب

---

(١) في الأصل: يتدكر.
(٢) كلمة غير مفهومة.

أحدّ من عزم، طر بجناح الجدّ من وكرِ الكسل تابعاً آثار الأحباب تصل، تلمح طريقهم إن كنت رفيقهم:

بلغت حتى لم يبن من بلادهم ... جنابٌ ولانم نارهنّ وقودُ
ولو قال لي الغادون هل أنت منتهٍ ... غداة قطعنا الرمل، قلت أعودُ
لا صبر والوعساء بيني وبينكم ... وأعلام خبتٍ إنني لجليد

رحل القوم يا متخلّف، وسبقت عزائمهم يا مسوّف، وتركوك للكل أسيراً.. فأصبحت من ربحهم فقيراً[1]:

يا قلب جدّد كمدا ... فموعد البين غدا
أرعى الحمول ناظراً ... والزم القلب يدا
مذ أوقدوا بأضلعي ... حرّ الهوى ما بردا[2]
كنتُ أداري كبدي ... لو تركوا لي كبدا[3]

ومنه قوله:

قلب المحبّ تحت فحمة الليل جمرة. كلما هبّ نسيم السحر، التهب، ما يعرف ما وصفت إلاّ من له ذوق، ولا يدري ما يجد المحبُ إلا ذو شوق، قد عرفتم عقابيل قابيل وعلم حسن سرابيل هابيل، يا من له قلبٌ فمات، يا من كان له وقت ففات، أشدّ العمى بعد البصر، أقبح الطرد بعد القرب، قم على قدم القلق، وسر في فيافي الطلب ونادِ في نادي الأسف، أين تذكار أهل الكدر أيام الصفاء.

أجيراننا أيام جمع تعلةً ... سلوا النفر هل ماضٍ به النفر راجع
وهل لليالٍ صالحات على منى ... ولو أن من أثمانها للنفس بائع
أجن بنجدٍ حاجةً لو بلغتها ... ونجدٍ على مرمى العراقين شاسع
/٢٧٨/ عفا الخيف إلاّ أن يرجع سائل ... بعلّة شوقٍ أو يغرّد ساجعُ

بادر بالتوبة من يد فواتك قبل وفاتك، فالمنايا بالنفوس فواتك:

وكم وقفتُ وأصحابي بمنزلةٍ ... يبيتُ يقظانها ولهان وهلانا
فيا جناحين حيانا النسيم بما ... سقاه يوم النقى بالجزع حيّانا
نبكي وتسعدنا يوم المطيّ فهل ... نحنُ المشوقون فيها أمّ مطايانا
ولا ومن فطر الأشياء ما وجدت ... كوجدنا العيس بل رقّت لبلوانا

---

(١) الأبيات للشريف الرضي (ديوانه ١/ ٢٧٣).
(٢) في الديوان: جمر الغضا ما بردا.
(٣) في الديوان: لو غادروا لي كبدا.

فإذا أصبحت أخذت طريق قيس تنقض عرى العزم عروة عروة، وما يخرج حبّ عفراء من قلب عروة، كم دفنت كبيراً من الأعزة وما يرجع كثير عن حبّ عزّة.

حبوتك مجنون ولست بواجدٍ طبيباً يداوي من جنون جنون

يا مقهوراً بغلبة النفس، صل عليها بسوط العزم، فإنها إن عرفت حدّك، استأسرت لك، امنعها ملاوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام، فإذا سمحت بطلب المباح، فأمامنا بعد وأما فداء، الدنيا والشيطان جارحتان خارجان عنك والنفس عدوّ مباطن، ومن أدب الجهاد: قاتلوا الذين يلونكم، ليس من بارز بالمحاربة كمن كمن، ما دامت النفس حيةً تسعى، فهي حيةٌ تسعى، أخل بها في بيت الفكر، وانظر هل هي معك أو عليك. نادها بلسان التذكرة ـ ذهب عرش بلقيس، وبلي جمال شيرين، وتمزق فرش بوران، وبقي نسك رابعة، حاكم نفسك عند حاكم عقلك لا عند قاضي هواك، كان بعض السلف إذا قهر نفسه بترك شهوة أقبل يهتز اهتزاز الرامي إذا قرطس. واشوقاه إلى تلك الأشخاص. واتوقاه إلى أرباب الإخلاص، إني لأذكرهم فأغيب، وإن وقتي لهم يطيب:

إذا هزّنا الشوق اصطبرنا لهزّه على شعث الرحل اضطراب الأراقم
فمن صواب يستقيم بمائلٍ ومن أريحياتٍ تهبُّ بنائم
واستسر فالأعلام حتى يدلّني على طيبها مرّ الرياح النواسم
وما انسم الأرواح إلاّ لأنها تمرُّ على تلك الربى والمعالم

/ ٢٧٩/ ومنه قوله:

إخواني، احذورا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، ذانك يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرّق بين العبد وربّه، سحرت سحرة بابل، وإن أقبلت شغلت، وإن أدبرت قتلت. ويلاه إن نظرت، وإن هي أعرضت، وقع السهام ونزعهن أليم، كم في جرع لذاتها غصص، طالبها معها في نغص، بكى عليها حتى إذا حصلت بكى عليها خوفاً من الغير. علمتني بهجرها الصبر عنها، فهي مشكورةٌ على التقبيح.

ومنه قوله:

تالله، ما تعشق المنازل لذاتها بل لسالف لذاتها، (لك يا منازل في القلوب منازل)[1] المعاهد عهد عند المعاهد، إذا تذكره الصب صبّ الدموع:

وما شرقي بالماء إلا تذكّراً لماءٍ به أهل الحبيب نزول
وما عشتُ من بعد الأحبةِ سلوةً ولكنّني للنائبات حمولُ

---

(١) شطر بيت للمتنبي.

أمـا فـي الـنـجـوم الـسـائـرات وغـيـرهـا   لـعـيـنـي عـلـى ضـوء الـصـبـاح دلـيـلُ

المحبّ إذا تذكّر الربع حنّ، وإن تفكّر في البعد أنّ، وإن جنّ عليه الليل أظهر ما أجن، قطع عليه رضاع الوصل، فلم يتهن.

ومنه قوله:

تلمح أصناف النبات في نبات النبات، قد برزت في عيد الربيع تميس طرباً، اسمع غناء الورق على عيدان العيدان، لعل مقاطع السجوع توجب رجوع المقاطع.

ولـقـد تـشـكـو فـمـا أفـهـمـهـا   ولـقـد أشـكـو فـمـا تـفـهـمـنـي

غـيـر أنـي بـالـجـوى أعـرفـهـا   وهـي أيـضـاً بـالـجـوى تـعـرفـنـي

وواأسفا، ذهب أهل التحقيق، وبقيت بنيات الطريق، خلت البقاع من الأحباب وتبدّلت العمارة بالخراب.

ومنه قوله:

ركبوا سفين العزم، فهبت لهم برياح العون، فقطعوا بالعلم لجج الجهل فوصلوا إلى إقليم أهل الفهم، فأرسوا على ساحل بلد الوصل. ساروا ورجعنا، ووصلوا وانقطعنا، ويحلو ومنعنا، تعالوا ننظر في آثارهم، وندرس درس أخبارهم. نبكي على ما نابنا، ونندب ما أصابنا:

إذا تـذكـرت زمـانـا مـضـى   فـويـح أجـفـانـي مـن أدمـعـي

يـاقـلـب لا تـسـكـن عـلـى بـعـدهـم   وأنـت يـا عـيـنـي فـلا تـهـجـعـي

ما تزال الحرب بيننا وبين إبليس قائمه، يدال علينا وندال عليه، ولا ندخل إن شاء الله / ٢٨٠/ في مهادنة، كلما هزم جيشاً لضعف العزم، خرج عليه كمين من ثنية ندم، بينا هو يقسم سلب عاص قد ظفر به إذا نبلة تائب قد وقعت فيه. أصف لكم حال غيري والتاجر بمال سواه مفلس، أترى وقع في الشبكة شيء. أترى في نبلي مقرطس، جزى الله حرصكم بلوغ الغرض، أعوذ بفضلك إلهي أن تجعل حظي لفظي، واأسفاً أصف واصفي. ويشرب غيري، يا إخواني أحثكم على السير وأنا قاعد، وأناولكم الدواء وأنا مريض:

فـعـنـدي زفـيـر مـا تـرقـى إلـى الـحـشـا   وعـنـدي دمـوع مـا طـلـعـن الـمـآقـيـا

ومنه قوله:

كم واعظٍ أيقظ غيره ونام، وذكر سواه ونسي، وكان كالقوس رفعت السهم ولم تبرح تأثيرات المخالفة على مقاديرها، قويت زلّة آدم فخرج عرياناً، وكانت غلطة

يوسف همّاً فقد القميص، من عصى قرع بعصا، ومن هم عوقب بهم: يا قليل الزاد وسفره بعيد المدى، ما لم يكن لك محرك من قلبك، فالحلق تضرب في حديد بارد.

ومنه قوله:

أيها المحارب، لا تعدد جراحك، فقد يصاب الشجاع، من ثبت قلبه في الحرب لم تزلزل قدمه، أول ما ينهزم من المهزوم قلبه.

ومنه قوله:

كل صافٍ من الدنيا مقرون بكدر، حتى أنه في الغيث غيث المحبوب والمكروه، في قرن النار لا تشرق حتى تحرق، أتريد أن لا ينعكس لك غرض، فما هذا موضعه، الهبات ذاهبات، والليالي ناهبات مناهبات.

ومنه قوله:

إذا فتحت الوردة عينها فرأت الشوك حولها، فلتصبر على مجاورته قليلاً، فوحدها يُجنى. ما للملائكة أنين بين المذنبين ولا حرقة المعين، ولا خلوف الصائمين، إذا رأيتم جواد اللسان يجري في جواد البنان، فاسألوا له السلامة من كبوة هفوة، تسمعون بالدر ولا تدرون كيف صعد، لا تنسوا للغواص مقاساة الغشاوة، سبحان من يوفق غائص الفكر في بحر القلب لاستخراج الدرّ. كم من عرائس علوم في خدور الصدور، تمنعها الغيرة من البروز، فإذا صادفت كفواً، جرت مياه الوصال في عبارات العبّارات، وشمس المعرفة تعقد في معدن قلب العارف جواهر المعاني، فإذا أراد إخراج زكاة الملك، أذاب بعض الجوامد في بوتقة الفكر، ثم أجراه في أنبوب اللسان إلى / ٢٨١/ مسمع مسترشد، فجعل قلب المريد جامكية لجند العزم. كلامي يطلب في رأس نخله جبارة، أفيكم صعّاد، ليس من مملوك يتذلل لمالك ويتعبّد. إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوكه ويتودّد. يا أفراخ التوبة لازمي أفكار العزلة فإن هر الهوى صيود. يا مطايا الإنذار. احفظي أحمال النفوس، عساها تصل سليمة إلى مواسم الأرباح.

ومنه قوله:

إن عطشت فاكتف بغدران القناعة، لا يغمرنك سراب الهوى، فكم هنالك من هنى لك لا يمنعك سابق الزلل من التعرض للكرم، فالكرم للزلل، لا تحقرنّ بضاعتك المزجاة، فمراد العزيز أين يامين الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب، وتكاد الظبى لما عودوها تنتضي نفسها إلى الأعناق. وإذا أشفق الفوارس من وقع القنا، أشفقوا من الإشفاق. من بكى على ذنبه، نسي حافظاه ذلك الذنب، وإن الباكي من خشية الله تهتز له البقاع التي بكى عليها، وتغمره الرحمة ما دام باكياً:

إذا لـم أفـز مـنـكـم بـوعـدٍ ونـظـرةٍ ... إليكـم فمـا نفعـي بسمعـي ونـاظـري
متـى غـنّـت الـورقـاء كـانـت مـدامـتـي ... دمـوعـي وزفـراتـي حـنـيـن مـزامـري

ومن شعر ابن الجوزي:

يـا طـرّة الـريـح لا سـقـاك أدمـعـي ... ولا عـراك فـي الـهـوى تـمـايـلـي
سـكـرك عـن زهـوٍ وسـكـري عـن هـوى ... مـا طـربُ الـمـخـمـور مثـل الـشـاكـلِ

ومنهم:

[٤٨]

محمد بن علي بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان قاضي القضاة، محيي الدين، أبو المعالي، المعروف بابن الزكي[1]، القرشي الأموي من بيت قرشي

ما خلقت أقدامهم إلا للمنابر، ولا أقلامهم إلاّ للمحابر، ولا كان منهم إلاّ سادة أكابر، نهض بهم نسبٌ في حاضر وغابر، ويومض حسبهم فمر بالشعرى العبور وهو عابر، من ولد عثمان بن عفان، وغوث كل لهفان، وأقمار أنديةٍ وأسد خفّان، تداولوا الحكم بالشام نيابة واستقلالاً وتناولوا النجوم ولم يقنعوا بها استغلالاً، ومنهم من نازعته إلى الخلافة نفسه، وأطمعته من / ٢٨٢/ ملك بني أمية بما مضى به أمسه، وما برحوا صدور مجالس وبدور حنادس، وولاة قضاء، وكفاة إمضاء، وكان الملك الناصر الكبير يشير إليه بالتعظيم، ويشير بالتقديم، ولما فتح القدس كان معه لسابق الأنس، فلما هيّأ للصلاة المسجد الأقصى حضر ذلك المشهد من لا يُحصى، وفيهم ذرّ عددٌ ما فيهم إلا من تهيأ للخطابة وبوئ المنبر لو أصابه، وناداه بلسان الوسائط له لو أجابه، فأبى والله والسلطان أن يضرب فيها ذاك القرشي بأعطان، فأعدّ له في المسجد الأقصى مقاماً، وأخر الناس وتقدّم إماماً، وقدم له جواد منبره، وأخلى صدفة محرابه لجوهره،

---

(١) محيي الدين، أبو المعالي، المعروف بابن الزكي، الدمشقي، الفقيه الشافعي، ولد سنة ٥٥٠هـ وشهد فتح بيت المقدس مع صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ وألقي فيه خطبة الجمعة، ثم ولي القضاء وعظمت رتبته عند صلاح الدين، وسار إلى مصر رسولاً من الملك العادل إلى العزيز، كان أديباً، كاتباً مترسلاً شاعراً، حسن النظم، توفي سنة ٥٩٨هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٩ الوافي بالوفيات ٤/ ١٦٩ وعبر الذهبي ٤/ ٢٠٥ والشذرات ٤/ ٣٣٧.

وقام ذلك المقام المشهود، وبلّغ والله وملائكته شهود، وخطب فعلم أن السعيد مجدود وآل السعي مجهود، وأن كل لسان (.....)[١] بحبلٍ من الغيّ مشدود، وكانت قد تقدمت له قصيدة هنأ فيها هذا السلطان بفتوح حلب، وبشّره في صفر بفتوح القدس في رجب[٢]، فما أخطأ الفأل ولا زيّف التفرّس الصحيح وإلاّ قال. وقيل إن هذا كتاب بحساب حسبه في مدة المسير إلى القدس وقاربه وقرّبه، وقيل شيء استخرجه من تفسير ابن برجان[٣] في سورة الروم، باستنباط معلوم غير مخروم، وعلى أي الحالين كان أصدق قيله، وصدع دجى الفراسة قنديله، فجعل السلطان هذا التقديم مما حباه، ثم كان أول من حلّ له هذا المنبر حباه، وسأذكر الخطبة عن آخرها، وأذاكر كل ذي خطابة تفاخرها، بدأ بتحميدات القرآن، واتبعها بخطبة سعيدة القرآن، وسأعطل العقود بجوهرها، وأعطر الوجود بما أذكت قريحته من العود على مجمرها. وهي[٤]:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾[٥] والحمد لله رب العالمين[٦]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[٧] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾[٨] وقل[٩] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ

---

(١) كلمة غير مفهومة.

(٢) يشير إلى قوله من قصيدة يمدحه بمناسبة فتح حلب:

وفتحكُم حلبا بالسيف في صَفَرٍ مُبشّرٌ بفتوح القدس في رَجَبِ

انظر: شفاء القلوب ص١٣٠ والوفيات ٤/ ٢٢٩.

(٣) إشارة إلى ما أورده أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الأندلسي وهو ابن برجان المتوفى سنة ٥٣٦هـ بمراكش، في تفسير أول سورة الروم من إخبار عن فتح بيت المقدس، وأنه ينتزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.
قال ابن كثير: ابن برجان ذكر هذا في تفسيره في حدود سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة. ويقال إن الملك نور الدين أوقف على ذلك فطمع أن يعيش إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، لأن مولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة.
انظر: الروضتين والبداية والنهاية ٢/ ٣٢٦ ووفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦ وفوات الوفيات ٤/ ١٧١.

(٤) الخطبة في الروضتين ٢/ ١١٠ ومفرج الكروب ٢/ ٢١٩. وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٤، وكنز الدرر ٨٧ وشفاء القلوب ١٣٠، وبعضها في البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٥.

(٥) الأنعام: ٤٥.

(٦) لم ترد في المصادر الأخرى.

(٧) الفاتحة: ٢ ـ ٤.

(٨) الأنعام: ١.

(٩) لم ترد في المصادر الأخرى.

تكبيرا﴾[١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ /٢٨٣/ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾[٢] قـل[٣]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ﴾[٤] الله خيرا ما يشركون[٥]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾[٦]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾[٧] .﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٨].

الحمد له معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره، ومصرّف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء[٩] على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدين كلّه، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يُراجع، والحاكم بما يريد فلا يُدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه، وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الواحدالصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربّه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. دافع الشرك، وداحض الإفك، الذي أسرى به[١٠] من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السماوات العُلى إلى سدرة المنتهى، عندها جنّةُ المأوى، ما زاغ البصر وما طغى.

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق، السابق إلى الإيمان، وعلى أمير

---

(١) الإسراء: ١١١.
(٢) الكهف: ١ ـ ٥.
(٣) قل: لم ترد في مصادر الخطبة الأخرى.
(٤) النمل: ٥٩.
(٥) ما بين الآيتين لم يرد في المصادر الأخرى.
(٦) سبأ: ١، وبعدها في المصادر الأخرى: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور.
(٧) ومابعدها لم يرد في المصادر الأخرى.
(٨) فاطر: ١.
(٩) في المصادر الأخرى: أفاض.
(١٠) المصادر الأخرى: بعبده.

المؤمنين عمر بن الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ذي النورين، جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسّر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان.

أيها الناس: ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا لما يسّره الله على أيديكم[١] من استرداد هذه الضّالة من الأمة الضالة، وردّها إلى مقرّها من الإسلام، بعد ابتذالها في يد[٢] / ٢٨٤/ المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طريقه، بعد أن امتدّ عليها[٣] رواقه - واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده[٤] بالتوحيد، فإنه بني عليه[٥]، وأنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، فهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل يتنزّل فيه الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر[٦]، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين. وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين. وهو البلد الذي بعث الله إليه[٧] عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحه عيسى، الذي شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[٨] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٩] وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشّد الرحال بعد المسجدين إلاّ إليه، ولا تعقد[١٠] الخناصر بعد الموطنين إلاّ عليه. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده، لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار. ولا يباريكم في شرفها مبار، وطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية والفتوح[١١] العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبريّة. والهجمات الخالدية، فجازاكم الله عن

(١) المصادر الأخرى: عليكم.
(٢) مصادر الخطبة: أيدي.
(٣) في مصادر الخطبة: عليه.
(٤) مصادر الخطبة: على التوحيد.
(٥) بعدها في الأصل: التقوى.
(٦) بعدها في الأصل: وهو في أرض المحشر.
(٧) مصادر الخطبة: منه.
(٨) النساء: ١٧٣.
(٩) المائدة: ٧٢.
(١٠) الأصل: ولا تعد.
(١١) مصادر الخطبة: الفتوحات.

محمد نبيّه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم من مقارعة الأعداء، وتقبّل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق[١] الدماء، وأثابكم الجنّة، فهي دار السعداء، فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حقّ قدرها، وقوموا[٢] لله بواجب شكرها[٣]، فله النعمة[٤] عليكم تخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم بهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي / ٢٨٥/ فتحت له أبواب السماء. وتبلّجت[٥] بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّت به أعين الأنبياء والمرسلين[٦]، فماذا (له) عليكم[٧] من النعمة، بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدّس في آخر الزمان، والجند الذي يقوم بسيوفهم بعد فترةٍ من الرسل أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون به التهاني بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونصّ عليه في خطابه فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[٨] أليس هو البيت الذي عظّمته الملوك وأثنت عليه الرسل. وتُليت[٩] فيه الكتب الأربعة (المنزلة)[١٠] من إلهكم عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسّر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله[١١] موسى أن يأمر قومه باستنقاذِهِ فلم يجبه إلاّ رجلان، وغضب عليهم من أجلِهِ[١٢]. وألقاهم في التيه، عقوبة العصيان، فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت[١٣] عنه بنو إسرائيل، وقد فضّلهم على العالمين. ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن[١٤] كان قبلكم من الأمم الماضين، وجمع كلمتكم، وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد وعن وسوف عسى وحتى[١٥]، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده، وشكر لكم الملائكة المقربون[١٦] على ما أهديتم إلى هذا البيت: من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد[١٧]، وما أمطتم[١٨] عن طرقهم[١٩] فيه من أذى الشرك والتثليث،

---

(١) الوفيات: هراق.
(٢) الأصل: قدّموا
(٣) في مصادر الخطبة: لله تعالى بواجب ذكرها.
(٤) مصادر الخطبة: المنّة.
(٥) في شفاء القلوب: وسُلخت.
(٦) الأصل: وقرّ به عين الأنبياء والمرسلون.
(٧) الأصل: فماذا عليكم.
(٨) الإسراء: ١٧.
(٩) الأصل: وتكتب.
(١٠) الزيادة من وفيات الأعيان.
(١١) في مصادر الخطبة: الله تعالى.
(١٢) مصادر الخطبة: لأجله.
(١٣) في الروضتين: قعد.
(١٤) في مصادر الخطبة: عنه من كان.
(١٥) مصادر الخطبة: كان وعن وسوف وحتى.
(١٦) مصادر الخطبة: المتزلون.
(١٧) مصادر الخطبة: والتمجيد والتحميد.
(١٨) الأصل: أمطم.
(١٩) شفاء القلوب: طرقه.

والاعتقاد الفاسد[١] الخبيث، فالآن تستغفر لكم أملاك السماوات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات، فاحفظوا ـ يرحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم. واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله[٢] التي من تمسّك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الردى، ورجوع القهقرى، والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصّة، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، وبيعوا ـ عباد الله ـ أنفسكم في رضاه إذ[٣] جعلكم من عباده، وإيّاكم أن يستزلّكم الشيطان / ٢٨٦/ وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيّل إليكم أن هذه النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في موضع[٤] الجلاد، والله ما النصر إلاّ من عند الله، إن الله عزيز حكيم، واحذروا عباد الله ـ بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصّكم[٥] بهذا الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا[٦] كثيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً، أو كالذي[٧] آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهاد الجهاد، فهو أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، واذكروا الله يذكركم، اشكروه يزدكم ويشكركم[٨]، فخذوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير[٩] بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر، واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام يا للثارات الإسلامية، والملّة المحمدية، الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذلّ الله من كفر، واعلموا ـ يرحمكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها سرايا عزمكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون[١٠]، فكيف وقد أضحى وفي قبالة الواحد منهم منكم عشرون[١١]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[١٢] أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره. وأيدنا معشر

---

(١) الروضتين، وفيات الأعيان: الفاجر.
(٢) مصادر الخطبة: الله تعالى.
(٣) مصادر الخطبة: الذي.
(٤) في الروضتين ووفيات الأعيان: مواطن.
(٥) في مصادر الخطبة: وحكم.
(٦) الأصل: تعترفوا.
(٧) الأصل: والذي.
(٨) في مصادر الخطبة: واشكروا الله يشكركم.
(٩) شفاء القلوب: وطهرّوا.
(١٠) في مصادر الخطبة: أو دون.
(١١) في مصادر الخطبة: قبالة الواحد منكم عشرون.
(١٢) الأنفال: ٦٥.

المسلمين بنصرٍ من عنده ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[١].

ثم أتمَّ الخطبة الأولى وجلس، ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين. ثم قال:

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك (المعترف بموهبتك)[٢] سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك، المدافع والذاب عن حرمك[٣] الممانع، السيد الأجل[٤] الملك الناصر[٥] سلطان الإسلام والمسلمين، مطهّر البيت المقدّس[٦] أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عمّر[٧] بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك[٨] براياته محيطة، وأحسن /٢٨٧/ عن الدين الحنيفي جزاه، واشكر عن الملّة المحمدية عزمهُ ومضاه.

اللهم ابق للإسلام والمسلمين مهجته، ووقّ للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم، وكما فتحت به على يديه[٩] البيت المقدس بعد أن ظنّت الظنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يديه دواني الأرض وقواصيها[١٠]، وملّكه[١١] صياصي الكفر ونواصيها، فلا يلقاه منهم[١٢] كتيبة إلاّ مزّقها، ولا جماعة[١٣] إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك[١٤] وأكنافها.

اللهم: ذلل به معاطس الكفار[١٥]، وارغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب

---

(١) آل عمران: ١٦٠.
(٢) لم ترد في مصادر الخطبة الأخرى.
(٣) بعدها في المصادر الأخرى وحرم رسولك.
(٤) بعدها في المصادر الأخرى: والكهف الأظلّ.
(٥) بعدها في المصادر الأخرى: جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان والأوثان، صلاح الدنيا والدين.
(٦) بعدها في المصادر الأخرى: من أيدي المشركين.
(٧) المصادر الأخرى: عُمَّ.
(٨) بعدها في المصادر الأخرى: المقربين.
(٩) المصادر الأخرى: به.
(١٠) المصادر الأخرى: داني الأرض وقاصيها.
(١١) بعدها في المصادر الأخرى: بفضلك.
(١٢) المصادر الأخرى: فلا يلقى.
(١٣) المصادر الأخرى. جماعة بعزّتك.
(١٤) المصادر الأخرى: البلاد.
(١٥) المصادر الأخرى: معاطس آناف الكفار.

ملكه[١] على الأمصار، وأثبت سرايا جنوده في سبل الأقطار.

اللهم أثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك[٢] الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم: وكما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة[٣] التي تبقى على الأيام، وتتخلّد على مرور الشهور والأعوام، وارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين وأجب دعاءه في قوله «ربّ أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»[٤]. ومنهم:

[٤٩]

فخر الدين، أبو عبد الله، محمد بن محمد ابن تيمية، الحراني[٥]، خطيب حرّان

الراقي على أعوادها، الباقي به شرف ميلادها، الساقي بأنواء الدموع ما لم يسقه عهود عهادها، من أهل بيت أعرقوا في بلادها، وعرفوا باستيطان بلادها، حلّ منها محلّ سوادها، وكان رأس زهّادها، وواحد أفرادها، المبصر بمعاهدها، المذكّر بالسفر الطويل بزادها، وله الخطب الجسيم، والخطب الذي ينشر بعظم الرميم، ضاهت (.....)[٦] حسناً لمن فكر، وطيباً فاق ذلك السكر (.....)[٧] المكرر، إلا أنها من ذلك البحر استقت، وفي سفح ذلك الطود ارتقت، ومن نظر في المعاني، ونظر هذه الثمرات من أي المجاني، اعلم أن خطب له هي ما ذكره هذا الخطيب. وأن سقاءه إنما مُلي من ذلك القليب، ورأى هذا الخطب /٢٨٨/ يشف عن تلك المعاني، كما شف الغدير

---

(١) بعدها في المصادر الأخرى: برحمتك. (٢) المصادر الأخرى: الملوك الكرام الميامين.

(٣) المصادر الأخرى: وكما أجريت على يديه بمعونتك هذه الحسنة.

(٤) سورة النحل: ١٩.

(٥) كذا ورد في الأصل، وهو في مصادر ترجمته: محمد بن الخضر (أبي القاسم) بن علي بن عبد الله المعروف بابن تيمية الحراني، ولد بمدينة حران سنة ٥٤٢هـ، وأخذ العلم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل في بغداد وحران، وصنف كتباً في الفقه والتفسير، وكان خطيباً، شاعراً، ولي الخطابة بحران، واستمرت في أهله من بعده، توفي بحران سنة ٦٢١هـ.
انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٦. وطبقات الحنابلة ٢/ ١٥١ وذيل الروضتين ١٤٦ والوافي ٣/ ٣٧ وعبر الذهبي ٥/ ٩٢ وشذرات الذهب ٥/ ١٠٢ وتاريخ اربل ٦٧ والتكملة ٣/ ١٣٨ والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٢ وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٨٨.

(٦) كلمة غير مفهومة. (٧) كلمة غير مفهومة.

الصافي عمّا في قرارته، وتمّ ضوء البدر بما في دارته، على أنه ما أطرح حلل تلك الألفاظ، ولا أبعد عينها عن مواقع الألحاظ، إلا أنه غير هيئة تفصيلها، ونكّر أحوالها في تحويلها، وهي بادية لمن رأى هندامها المغيّر، وأكمامها المعمولة من فضلات ذيولها لما قصّر، هذا مع أنه أجاد في هذا المنحا اللطيف، والرمي إلى هذا الغرض الشريف، رأى بما خلص صوره من ظلمة التكليف بخطب تسربل الدمع، وتستوقف من كان له قلب، أو ألقى السمع.

ومنها قوله:

من ذا سالمها فلم تحاربه، أم من صادقها فلم تكاذبه، أم من ذا أمنها فلم تجبه، أم من أكرمها فلم تهنه، كم عقدت عقداً ثم حلّت، وكم نقلت نفساً بفنائها حلت، كم تعلقمت لمسيغها، وعوقت لمبتغيها، فاعتبروا بصروفها، فكم قد أرتكم عبراً، وتزودوا لبعد الشقة إن أزمعتم سفراً، واتعظوا بمن راقته حلاوتها، فأذاقته مرارتها صبراً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً فكأنكم بها قد تولّت فأدبرت، وبالآخرة قد أدبرت فأسفرت، وبقلائد الأعمار قد وهى سلك نظامها فانتثرت، فلو وقفتم على منازلهم من الأجداث، وناديتم يا سكرى الحمام، ويا مرعى الرغام، أعن يقظةٍ هذا (.....)[1] أم منام، ما هنا المقام بأرجاء الرخام، ما هذا الظن حتى برد السلام، لأجابكم ضمائمهم بلسان الحال، ورجع إليكم القول عن رمم بوال، تالله ما اخترنا فراق الأحباب، ولا آثرنا السكنى تحت التراب، لكن أعجلنا وشك السفر، وأحلنا بطون هذه الحفر، ونحن فرطكم، وأنتم على الأثر، ونحن سلفكم وأنتم الخلف المنتظر.

ومنه قوله:

أيها الناس، خذوا في تحصيل الزاد قبل أن ترحلوا، وأجدّوا الأهبة للمعاد قبل أن تشغلوا، وأعدّوا صواب المعل قبل أن تسألوا، وشدّوا رحال الارتحال. فإنكم لن تهملوا، وارموا بأنصار النصائر والأفكار في أرجاء هذه الدار، هل ترون إلا عفواً أقفر من قاطنه، أو ربعاً خلّي من ساكنه، ذهب والله أبناؤها، وخرّب بناؤها، أولئك سوابق سفرٍ أنتم لواحقه، ورهائن أمر ستبدو لكم حقائقه، وسكارى كأسٍ سينغصكم داهقه.

ومنه قوله:

/ ٢٨٩/ ابن آدم. أملت فطوّلت أملك، وحملت على حظك من الآخرة فما طلب

---

(١) كلمة غير مفهومة.

من حملك، وعدلت على تقصيرك فما أطعت من عدلك، وأشغلت عن ذكر مصيرك فأضعت أجلك، تنظر في الدنيا بعين مقيم برباعها وأنت راحل، وتبصر حال من أغرقته بأطماعها وأنت منها على ساحل. وتركن إليها وهي بالبلاء محفوفة، وتقبل عليها وهي بالفناء معروفة، فيا ايها الغافل والموت قاصده، والآمل لها والموت من خلال الأمل مُراصده، ماذا أراك وهنُ مشيبك بعد قوة شبابك، وأين من ودعت إلى منازل البلى من أترابك وأحبابك، لقد دعاك من دعاهم، ولكن تقدموا وتأخرت، وأزعجك ما أزعجهم من غير أن أسرعت بهم آجالهم وقصرت.

ومنه قوله:

فأصبحت عرى الورع منفصلة، وظهور الإيمان منقصمة، ومحارم الخلّاق مرتكبة، ومكارم الأخلاق مجتنبة، فالنسك سمعةٌ ورياء، والعلم خصومةٌ ومراء، والأديان فجورٌ وكذب، والآيات لهو ولعب، والأمانات خيانة وإنكار والتصرفات ضرر وإضرار، وكلّ تقتحم النار، ما للغفلات قد أطلت. وما للديانات قد اضمحلّت، وما للرغبات في الخيرات قد قلت، وما للنيات قد فسدت، وما للطويات في التقوى قد زهدت؟ حتى كأن الدنيا قد عبدت، أو أنّها لم تصدق فيما أوعدت، أو وعدت؟ فبادروا الإمكان قبل اعتراض المنية، وذهاب طمع الأمنيّة قبل ارتحال الحبيب وإعوال النسيب، قبل اشتغال الودود بالندب والنحيب، واستبدال اللحود عن المنزل الرحيب، قبل صعقة الصيحة لشدّة الوجيب، وهجمة الرجعة بالأمر العجيب.

ومنه قوله:

لقد أنذرك الشيب وأنت على غرّتك، ووعظك وأنت مقيم على مسرتك، أتخال أنك ستجد من عمرك ما أخلقت؟ أو تثرى منه بعدما أملقت؟ وغداً يعتورك الانتقام بأيديها، وتعدو عليك من سكرات الموت عواديها، وينادي للصلاة على جنازتك مناديها، ويراوح جسمك الهوام ويعاديها، وقد عجّل بك الأخوان إلى منزل البلاء والهوان، فرصفوك على الرقاب، ثم نكسوك وأودعوك التراب.

ومنه قوله:

أفلا عازم يردّه إلى سواء السبيل نظره؟ ألا حازم / ٢٩٠/ يصدّه عن العذاب الوبيل حذره؟ ألا قلب بنوره يتذكره؟ ألا طرفٌ ببصره تدبّره؟ ألا أذن واعية؟ ألا قدم في طاعة الله ساعية؟ ألا نفس لحقوق ربها مراعية؟ ألا سامع لقبول الموعظة لديه داعية؟ قبل أن ينبو بكم المقام، ويعطبكم الداء العقام وتُرهقكم الأسقام قبل أن تبدد الأعضاء والمفاصل، وتجرّد الطلى عن الكواهل، وتطول رقدة الحبيب تحت الجنادل.

ومنه قوله:

قد شغلتكم الدنيا بحبها عن الفكر فيها، وألهتكم بلهوها ولعبها عن تدارك أموركم وتلافيها، فليت شعري ما هذا التلوّم وقد حدا بالنفوس حاديها، وماذا التربّص وقد نادى بالتفكّر مناديها، أما رأيتم من سحب أذيال العزّة أنفةً وتيها، واقتضت أموال البلاد يمنعها ويؤتيها. عدت عليهم من نوائب الأحداث عواديها، واستردّت عليه بأيدي الأقدار جميع عواديها، وشيعته العيون بفيض مآقيها، وبغصّة المنون تنبض قواصيها.

ومنه قوله:

أيها الناس أحيلوا القلوب في رياض الاعتبار، وأطيلوا النحيب على انقراض الأعمار، وأسيلوا الغروب على ابيضاض العذار، وأزيلوا العيوب قبل اعتراض الأقدار، واستقيلوا من الذنوب فقد ألقى البياض في الإنذار. ألا وإن طلوع ضوء المشيب في ظلمة ليل الشباب منذرٌ بوهن العظام، وضعف الأعصاب، ومخبر بترادف الأسقام وتولي الأوصاب. يا له فجراً لا ليل بعد ابتسامه، وثغراً سد لايتلامه، فصونوا بهجة بياضه من سواد الآثام، واستيقنوا بإيماضه حسر المنون اللثام، وكونوا مع إيقاظه على قدم الاحتشام، واستحيوا من الله أن تتعرضوا لمواقع اللمام، فإن الله يستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام، واعلموا أنه نور الله في الرؤوس واللمم، ونذيره في النفوس باجتناب الكبائر واللمم، فيا معشر الشيوخ هل للزرع إذا ابيضّ إلاّ حصاد المناجل، ويامعشر الكهول، إن الثمر إذا بدا زهره فالحداد له معاجل ويا معشر الشباب إن الغصون الرطاب كثيرة الغوائل، ويا أيها الإنسان والخطاب للسامع والقائل، فليت شعري متى تستيقظون من هذا المنام؟ / ٢٩١/ متى تتعضون بصروف الأيام؟ متى تسمعون نياح الدنيا على الأنام؟ متى تعون قولها على منابر الإعلام؟ ألا لا كهل ولا غلام. إلاّ والحمام يقريه السلام.

ومنهم:

[٥٠]

محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الأنصاري الخزرجي، المطري الخطيب(١)، أقضى القضاة، جمال الدين أبو عبد الله

لسان خطابة وخطاب، وبستان محاسن تهزّ له أغصان رطاب. من أبناء المدينة،

(١) محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي الأنصاري السعدي المدني، أبو عبد الله جمال الدين المطري، نسبة إلى المطرية بمصر، من العلماء بالحديث والفقه والتاريخ، من أهل المدينة، ولد =

وآخر خطباء تلك البلدة الأمينة، جار سيد ولد عدنان، وجاني ما طاب من تلك الجنان، وراقي ذلك المنبر المشرف، وراعي ذلك المحراب المعرّف، ولد بتلك البقعة، وولي المنبر بها، فارتقى إلى تلك الرفعة، وأسمع بخطبة نزلاء ذلك الحرم، وبذلك ما عنده لضيوف ذلك الكرم، وأحمد لروّاد تلك الروضة المنتجع، ولو راد تلك المناهل المرتجع. فوقف عليه الركائب، وصرفت إليه الرغائب، فقبسوا من وريها وروداً حديث الخصب عن مطريها، وقد تواتر على الألسنة، وتداول بأقوال الحجيج في كل سنة، أنه طالما أبدع من الخطب، ما فطر وأبدى العجب على لسان راع من بني مطر.

ومنه قوله:

الحمد له جاعل الصدور لودائعه مقيلاً، وناظم الأمور بصنائعه إجمالاً وتفصيلاً، وناصب أسباب الحكم على وحدانيته دليلاً، وقاهر الأرباب والأمم جيلاً جيلاً، الذي غمر عباده كرماً جزيلاً، وأسبل على من أطاعه من الرحمة ستراً جميلاً، وفرض حج بيته الحرام على من استطاع إليه سبيلاً. أحمده حمداً يكون للنعم رسيلاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يبوء قائلها ظلا ظليلا، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أنزل عليه الكتاب تنزيلا، أرسله ونادي الإيمان قد عاد ضئيلا، ووادي البهتان قد وجد مسيلا، والأمّة تسترشد من تريد تضليلا، فلم يزل ﷺ مجاهدا في نصرة الحق بكرةً وأصيلاً، وينضى ركائب الجد إيجافاً وذميلا، وينتضي من الإنذار عضباً صقيلا ويعتقل من البيان ذابلا طويلا، حتى عاد ربع الباطل محيلا، ورسم الشرك نحيلا، وغرب الغي كليلا، وأعلنت الألسن بذكر الله تكبيراً وتهليلاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ / ٢٩٢/ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾[1].

أيها الناس، إن الله عز وجل أصدق قائل، وأوثق كفيل يدلكم إلى خير سبيل وذلكم في محكم التنزيل على لسان الحبيب والخليل، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾[2]، فاشكروا نعمة الله عليكم وإحسانه العميم إليكم، وما منحكم به من حج بيته الحرام، وأداء مناسكه العظام، وزيارة نبيه محمد عليه أفضل

= سنة ٦٧١هـ وولي نيابة القضاء بها، وألّف بها تاريخاً سماه (التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة. ط) توفي سنة ٧٤١هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٣١٥ والأعلام ٥/ ٣٢٥.

(١) سورة: الأحزاب: ٢٣. (٢) سورة الحج: ٢٦.

الصلاة والسلام، وأبشروا بغفران الذنوب ومحو السيئات، ووضع الجنوب ورفع الدرجات، فعن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال قولاً يجب على سامعه لله الحمد والمنّة: للعمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة.

وقال عليه السلام مشيراً إلى الكعبة البيت الحرام، قولاً يزول به همّ الحاج وغمُّه: من حجّ هذا البيت لم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه.

ومن رحمته لكم، ورأفته بكم، وضع لكم بيتاً نسبه إلى نفسه وسيجه، ببركات كرمه وقدّسه، وجعله مثابةً للناس وأمناً، وأوسعكم به تطولاً ومنا، بين حجره الأسود وبين الحطيم، ينشر خلع القبول من الرب الرحيم، وينزع عن الوافدين إليه أغلال القلوب، ويطهر الطائفين به من كل دنسٍ وحوب، وينادي منادٍ من قبل البرّ الوهوب، يا معشر من حجّ بيت الله المحرم ممن قضى مناسكه ويمم، استأنفوا العمل فقد غفر لكم ما تقدم، فقابلوا رحمكم الله هذا الحرم بالتبجيل والتعظيم، فقد قال فيه السميع العليم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[1]، وقوموا لله عز وجل بما يجب من الحقوق، واستقيموا على الوفاء ومجانبة العقوق، وإياكم وما يصدّ عن أشهر الحج وما يعوق، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق، فالحسنةُ فيه مضاعفة، والقربة بالقبول مساعفة، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، والصدقة مضمونة الخلف مؤداة، وأهل الحرم جيران الله فحجّوا عباد الله هذا البيت قبل أن لا تحجّوه، وروّجوا الوقت بما تيسّر من العمل ورجوه /٢٩٣/ وارجو ثواب الله، فما خاب من يرجوه، واعملوا ليوم تبيضّ فيه وجوه وتسودّ وجوه، جعلنا الله وإياكم ممّن أمات بذكر الممات أمله، وأحيى بإيحاء الباقيات الصالحات عمله، واستعمل بواقي الأوقات والساعات فيما خُلِق له، إن أحسن ما وعظ به واعظ، وأجمل ما لفظ به لافظ كلام من لا تدركه اللواحظ، والله تعالى يقول على لسان هذا النبي الصادق الرسول، وبقوله عزّ من قائل يهتدي المهتدون: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[2].

الحجّ أشهر معلومات... الآيات.

ومنه قوله:

أيها الناس إنكم قادمون على بلد الله الحرام، وواردون مورد الكرام والأنعام، فيه كعبة الله فطوفوا بها وتمتّعوا، وقبّلوا الحجر الأسود فقد قبّله من به يرجون أن يتشفّعوا، وفيه مقام إبراهيم الخليل، فتعبّدوا فيه وتركّعوا، وفيه حجر إسماعيل وهو من

(١) سورة الحج: ٢٥.
(٢) سورة الأعراف: ٢٠٤.

البيت فارجعوا فيه عن الحوب قبل أن ترجعوا، وفيه ملتزم الذمام، وميزاب لسحب الغمام، فاضرعوا لديهما واخضعوا، وفيه ماء زمزم وهو لما شرب له، فردوا حوضه وأكرعوا، وتنفّسوا فيه ثلاثاً وتضلّعوا، واستفتحوا باب مولاكم الكريم وأقرعوا، وأزمعوا على التوبة قبل يغلق بابها فتمنعوا، وتلقوا النصائح بالقبول، فطالما سمعتم فلم تسمعوا، وسمعتم فلم تعوا، ووعيتم فلم تنتفعوا.

ومنهم:

[٥١]

يوسف بن سلمان بن أبي الحسن إبراهيم الطائي[١]، الخطيب، جمال الدين، أبو محمد النابلسي، الصوفي

صديق علم، حفيظ عليم، وذو فهم، وأنه منه لذو حظّ عظيم، انتج بفضائله كل عقيم، وأبهج بثراء حاصله كلّ عديم، وجاد من عطاء فواضله بكلّ عميم، وكان أبوه صالحاً، وجدّه يأبى إلا أن يرعى ذرى المنابر صادحات، فحفظ القرآن، وتلقنه، وحافظ على البيان فأتقنه، وأخذ عن العلماء حيث تحمل الركائب، وتؤمل الرغائب، وخاض لجّة كلّ بحر، حدث عنه بالعجائب وسلك محجّة كل برّ، لا يقول فيه العائب، ومذ كان ناشئاً، كان قريباً إلى اللذات بائناً، يتوقّد قريحة، ويتوقّل ذرىً غير مريحة، وخاطره يهيم في كل وادٍ، ويقيم في كلّ ناد، قد اصطبح بورد الذكاء واغتبق، وجارى جرد / ٢٩٤/ المذاكي فسبق، فجلا الفوائد وساما، وجاء بغرر القصائد تتسامى، بقوافٍ تسكت الطير في خصامها، وتسكن السماء كأن الثريا علّقت في مصامها، وسلك طريق التصوف ففهم وفهم، ويسيح مسيح ذي النون[٢]، وجرى مجرى ابن أدهم[٣]، وحام على شرع العرفان

---

(١) جمال الدين، الصوفي، الفقيه الأديب، الشاعر، الخطيب، ولد بنابلس سنة ٦٩٣هـ، ونشأ بدمشق، وقرأ بها الأدب والفقه، عينه شهاب الدين العمري، خطيباً في البدرية التي في مقرى، توفي سنة ٧٧٥هـ.
انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢٩/ ٢٠٨ وأعيان العصر ٣/ ٣٤٦ وفوات الوفيات ٤/ ٣٤٣ وطبقات السبكي ١٠/ ٣٩٣ والدرر الكامنة ٥/ ٢٢٩.

(٢) ذو النون، ثوبان بن إبراهيم المصري، الزاهد العابد، المشهور، المتوفى بمصر سنة ٢٤٥هـ، ترجتمع في وفيات الأعيان ١/ ٣١٥.

(٣) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، من أزهاد العباد المشهورين، رحل إلى بغداد والشام والحجاز، ومات مرابطاً في ثغر المصيصة. انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٣٥ وفوات الوفيات ١/ ٣.

فشرب من نهله، وصحب كبار أهله، ثم أعار هذا الشأن يحط مجانبه، وأعرض عنه ونأى بجانبه، وحضر المدارس مستديراً في حلقاتها، مستدرّاً من نفقاتها، فنقل عن أئمة الفقهاء، وتنقّل إلى الانتهاء، واستحق أن يطلق قلمه، ويقيد عنه ما علمه، وتوقّل صهوة الخطابة، فأشرقت نجودها، وأورقت كل الخزامى نبات طل نجودها، فأسمع حكماً، وداوى صمماً وبكماً، وطبع منها زبراً أقرع بها رؤوس الأشهاد، وقطع بها نفوس ذوي الإلحاد، وأبدى منها عرائساً مجلوة، ووصل غرايب مجفوّة. وهو الآن بدمشق فريد خطبائها، ووحيد أدبائها، مع أنه بها من أعلام الفقهاء، وفي أعلى درج الفقراء، أخذ الفقه عن شيخنا ابن القرطاح وابن قاضي شهبة[١]. والنحو عن القحفازي. وعلم البيان عنه وعن شيخنا أبي الثناء الكاتب، والأدب عنه وعن شيخنا الكندي، والتاج اليماني، ولازم دروس الشيخ المصري، وساكنه في العادلية الصغرى، وازداد به انتفاعاً وعلوّاً وارتفاعاً، وله عيون في فنون الأدب نظماً ونثراً وقصائد ومقطّعات. وفوائد مبصرات ومسمعات إلى بقية أفانين النظم والموشحات والرسائل النفحات، مع ما له من سرعة البديهة[٢]، والتندر في الأجوبة والتملح المستعذب إلى خفة روح، ونوادر يجيء بها (.....)[٣] على الفتوح، ولهذا حظي بالقبول، وعُدّ كلامه المرقص المطرب من القبول، وهو ممن صحبناه، وجلابيب الصبى جدد، وطلق الشباب مدد، واللمم ما عممت بالقتير، والهمم ما طال زمانها القصير، وحمدناه بعيداً وقريباً، ووردناه بحراً وقليباً، ولم نعتب عليه شيئاً ولا عتب. وقلت له في هذا التأليف فكتب ما صورته:

هذه خطبة أنشأتها وخطبت بها في الجامع الذي أنشأه وليّ نعمتي ونعمة كل أديب، الضارب في كل علم بسهم مصيب، أوحد الأئمة الأعلام، رئيس البلدتين مصر والشام، الذي سبق الأوائل، وأتعب الأواخر وتحقق بتمامه قول أبي تمام:

(كم ترك الأوّل للآخر) وهو القاضي السعيد / ٢٩٥/ والوزير السديد أبو العباس شهاب الدين أحمد بن القاضي الشهيد محيي الدين يحيى بن فضل العمري العدوي القرشي، كافل الأسرار الشريفة بالممالك الإسلامية، جلّس الله حبّه على القلوب، والبس حزبه لباس النصر المرهوب، فهو الذي أخرجني من دائرة الشعر في هذا الأوان، وأعلاني على منابر الذكر فأغلاني بعد الهوان، وفيه أقول من كلمة امتدحته بها:

---

(١) كمال الدين أبو محمد عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي الشهبي الشافعي، المتوفى بدمشق سنة ٧٢٦هـ. (البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

(٢) في الأصل: البداية.

(٣) كلمة غير مفهومة.

لقد لبست به الأيام حسناً وقد سلبت من الشيم القباح
تسهّل بابه لا القفل كزٌّ ولا البواب ذو وجهٍ وقاح
أرى مدحي سواه كان ذنباً ومدحيه لذاك الذنب ماحي
فكم قد مات لي أملٌ فألقى عليه لقاؤه روح ارتياح
فأولاني يداً رفعت محلّي وأتعبت النواظر في التماحي
على شرف الحياة حصلت منها وأرجو في الوفاة بها فلاحي
من الشعراء أنقذني ووافى بي الخطباء أرباب الصلاح
ودائرة القريض خرجت منها وكان به اغتباقي واصطباحي
فشكراً للذي قد عاض فكري من الأشعار بالخطب الفصاح
ولولا فضلُهُ ما فهتُ يوماً بمدحٍ لا ولا غزلٍ مباح
به قد عاد مدح بني عديّ فهم أندى الأنام بطون راح

الحمد لله الذي سمك السماء وأمسكها، وزيّنها الكواكب، وأعاضها عن بدرها الآفل بشهابها الثاقب، رفع الخضراء، ووضع الغبراء، وبثّ الدهراء، وألّف الغرائب فساق بخفيف الهواء السحائب، وأنار بلطيف الضياء كثيف الغياهب، وأخرج النسمة من بين الصلب والترائب، وجعل من الشجر الأخضر ناراً، فيالها من عجائب نقل الكائنات من العدم إلى الوجود، وأقام المحدثات شاهدة له بالقدم والجود، وجعل خير بقاع الأرض مجالس الجود ومجال السجود، وأمر بتطهيرها للطائفين / ٢٩٦/ والعاكفين والركّع السجود، وخصّ من يعمرها بالمحامد والمفاخر، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾[١] ووعد بانيها على لسان نبيّه ﷺ بأن يكون له يوم الفزع جُنَّة، فقال: من بنى لله مسجداً ولو كفحص قطاة، بنى الله له بيتاً في الجنّة، وقد روى عنه ﷺ، المتهم والمنجد، عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد فكيف لمن وسّع فناءه، ووشّع بناءه، وجدّده بعد الدثور، وأنعشه عند العثور، وأقام مُعينه وأجرى مَعينه، وألبسه ثوب الوقار والسكينة، وزينهُ لخطبة وأقامه لخطبة. لقد فاز هذا بأجرٍ كريم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢] أحمده على ما يسّره من إقامة الشعار، وسهّلهُ من إعلاء المنار، وأسأله الإعانة على جريان ذكره وشكره، والوقوف عند نهيه وأمره، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تفيد قائلها علوّاً وشرفاً، وتبوّئه من الجنة غرفاً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

---

(١) التوبة: ١٨.
(٢) الحديد: ٢١.

الذي فرّق الجموع، وجمع الجمع، وعمّر المساجد وهدم البيع، وأظهر الدين، وطمس البدع، ووضع الأصنام، ولذكر الله رفع، فلم يزل أمره ﷺ يزداد ظهورا، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، فشرّع الآذان والإقامة، وقال: بشر المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة، صلى الله عليه وعلى آله أهل القدوة والإمامة، صلاةً تحلّهم بها دار المقامة.

أيها الناس، إن رياض الأذكار قد أينعت وفاح نشرها، فأين المرتاد؟ وإن وجوه الإقبال قد أسفرت، ولاح نشرها، فأين أهل الوداد؟ وإن نعم الله قد أسبغت، فأين أين العبّاد؟ لقد حضرت الأجساد، وغابت القلوب، وقلّ الخالص وكثر المشوب، واستهلكت صبابة العمل في ذنوب الذنوب. أذن واعية، فتوعظ، ألا فطنة سامية فتحفظ؟ ألا بصيرةٌ ناقدة فتلحظ؟ فقد بان الصباح لذي عينين، وقامت حجة الله من الليل والنهار بعد أين. فيا سعد من عمل فيهما كما يعملان فيه، وراقب الله تعالى فيما يعلنه ويخفيه، وترك كلّ ما يطغيه، وأخذ بعض ما يكفيه. وأنعم النظر فيما يرى / ٢٩٧/ ويشاهد، ففي كل شيء له آية على أنّه واحد، لقد وضح الدليل، وبأن السبيل، إنما يقع الإشكال في وصف من له أشكال. وإنما تضرب الأمثال لمن له أمثال، فأما من لم يزل ولا يزول، فقد اعترفت بوحدانيته العقول، فانتبهوا رحمكم الله من رقدات الأعمار، وانتهبوا لحظات الأعمار، وأسلكوا مناهج الإخلاص، وأعرضوا أعمالكم على محكّ الذهب الخلاص، وإذا نصب لكم شرك الهوى، فأحسنوا منه الخلاص، هذا شهر رجب قد أهلَّ به الهلال، وسمع له في آفاق السماء إهلال، وتقدّم الأشهر الحرم، وتضمّن معناها وكان لنظمها براعة استهلال، وتلقوه كما يتلقى الحبيب القادم بعد الشتات، وأعدوا نزله من الصلاة والصلات فها هو قد تفيأت ظلاله، وحرّك القبول إقباله، وتقدّمه الغيث يسحُّ قطره، حتى أصبحت لقدومه الأرض مخضرّة، فأهلاً بشهر مضر الحمراء، مزيل السنة الشهباء، ومعوض الرخاء من النكباء، شهر الله الأصبّ فيه تصبّ السماء بركاتها، وتخرج الأرض مستودع نباتها، وتتفجّر الأعين عن غير فراتها، وتبتهل القلوب بصدق نيّاتها، إلى عالم خفياتها، وها نحن قد تلقينا بالأهل والترحيب، وجمعنا لتلقيّه بجامع وخطبةٍ وخطيب، فيا سعد من عبد ربه، وعظم قدسه، ويا شقاء من ظلم فيه نفسه، فأطيعوا الله ورسوله أحسن الطاعة، وخذوا حظكم من ملازمة السنّة والجماعة، ولا تطلبوا بأعمالكم غير رضا الله تراثاً، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثاً، وأرغبوا عن طول الأمل. فإن العمر قصير، وأذهبوا غش العمل، فإن الناقد بصير، وإن امرءاً لزم الفتور والتواني، وتمنّى على الله الأماني، لسابح في لجّة غرور، ملوم سابحها سابح في مفازة شرور، مشوم بارحها وسانحها، فاتقوا الله ما استطعتم، وأنفقوا في

سبيله ما جمعتم، وأحفظوا من نفوسكم ما رفعتم، وارفعوا من قلوبكم ما حفظتم، وجذوا بسيف العزم سوف ولعل، وأعدّوا المسير في ميدان المهل، وراقبوا الله تعالى فيما دقّ وجلّ، واعلموا أنه ما بعد حلول الأجل إلا سرابيل القطران أو الحلل، جعلنا الله وإياكم ممن ينتهز الفرصة عند إمكانها، ويزجر نفسه عما تزينه وسوسة شيطانها، إن أوفى الكلام بمداواة الكلوم، وأعلا الأعلام لروايات العلوم كلام الإله / ٢٩٨/ الحي القيوم، ويقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] الآية.

خطبة أخرى، أنشأتها وخطبت بها في الجامع:

الحمد لله الذي سبّح بحمده الرعد، وصرّح برفده الوعد، وتمدّح بارتفاع مجده عن القبل والبعد، أحمده على سوابغ النعم، وأقر له بسوابق القدم، وأنزهه عن لواحق العدم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يشرق سمتها على الوجوه النواضر، وينطق سمتها للعيون النواظر، وتلوح أشعتها بأعلا المناظر، وتبوح أدلّتها للمستدلّ بها والمناظر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي انتهت إلى الشفاعة في أمته أُمنيته وسؤلهُ. وطاب في ظلّ سدرة المنتهى مقيله، وقام بحجة الله على خلقه تنزيله وقيله، وظهر في الملأ الأعلى اختصاصه وتفضيله، ورأى من آيات ربّها الكبرى ما قرّت به عينهُ وأشفى غليله، وصحّ أنه حبيب الله وخليله: فهو الأبلج الذي يُستسقى بوجهه الغمام[٢]، ويستشفى بريقه من الداء العقام صلى الله عليه وعلى آله الكرام، صلاة تحلّهم بها دار السلام.

أيها الناس: إنه قد نشرت علينا رحمة الرحمن، وبنشرها طويت يد الحرمان، فمن شكر فله شكره، ومن كفر فعليه كفره، فذكراً لأيام الله ذكراً، وشكراً لأنعمه شكراً، فإنه بالذكر والشكر تحصل السعادة، إذ بهذا تحصل الحسنى، وبهذا تحصل الزيادة، وأعلموا أنه من شكر الله تعالى العمل بطاعته، وإيثار المرء على نفسه عند فقره وخصاصته، فرحم الله من أعطى من سعة، أو آثر عن فاقة، أو واسى من كفاف، وراض بصره بالغضّ، وبطنه بالقناعة، وفرجه بالعفاف، فإن الصبر ضياء، والصدقة برهان، وإذا ذكر الموت وقد تعسَّر البرهان. فما هي إلاّ أيام قلائل، وقد التحقت الأواخر بالأوائل، وتساوت في الصعيد مضاجع السادات والعبيد، وتفاوتت الأرواح فمنهم قريب وبعيد، ومنهم شقيٌّ وسعيد،

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) تضمين لقول أبي طالب بن عبد المطلب (عليه السلام):

وأبيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فإذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، ونصب الصراط، وعلّق الميزان، وثقلت أو خفت الأوزان، وثبتت أو زلزلت الأقدام ورجحت أو طافت الأحلام، ووقع الحساب على النقير والقطمير وحصل الصغير والكبير، وسمع النغيظ والزفير، وزخفرت الجنّة، واحتدم السعير، هناك يودّ الممسك لو أنه جاد، ويودّ / ٢٩٩/ المنفق لو أنه زاد، ويودّ النادم في المعاد لو أنّه عاد، هنالك رجع المال إلى من إليه المرجع والمآل، ونادى منادٍ يسمعه الشقيّ والتقيّ، هذا ما لنا رجع إلينا، سعد به من سعد وشقي به من شقى، فراقبوا الله تعالى، وامتثلوا أمره واتقوا النار ولو بشقّ تمرة، فرحم الله امرءاً، ما له لنفسه جنّة، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1] وقوله ﷺ: انفق يا بلال ولا تخشى من ذي العرش إقلال. ومن ظنّ أنه يتلف ما له حين يسلفه فلينظر إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[2] جعلنا الله وإياكم ممن عامل الله تعالى واثقاً بضمانه، فأنفق الفضل من ما له، وأمسك الفضل من لسانه، إن أبين ما هدى إلى سبيل الفلاح، وأحسن ما نقل الأنفس من حضيض الشحّ إلى بقاع السماح، كلام من سخّر السحب وأرسل الرياح، ويقرأ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[3] إلى آخر الآية.

خطبة أخرى أنشأتها، وخطبت بها:

الحمد لله الذي بذكره تطمئن نوافر القلوب، وبشكره تغفر كبائر الذنوب وبحمده تكفي غوائل النقم، وبرفدِهِ تؤتى جلائل النعم، أحمده حمد معترفٍ بجلاله، مغترف من بحر جوده وإفضاله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. شهادة سالمة من الريب حاكمة لقائلها بأنه من الذين يؤمنون بالغيب. وأشهد أن محمداً عبده الطاهر الحبيب، ورسوله المبرّأ من الدنس والعيب. أرسله وأرسل الملائكة لنصره وجعل الأعصار كلها دون عصره، وأقسم بحياته وعمره، وفرض على العالمين قبول نهيه وأمره، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وصهره. عدد ما ذكر أحدٌ في سرِّه أو جهرِهِ.

أيها الناس، تأهبوا في العمر القصير للسفر الطويل، وتسببوا للزاد الكبير في المهل القليل، واستعينوا بخفّة (.....)[4] على اليوم الثقيل، واستبقوا سرعة النفاد في العزم الكليل، وأسرحوا في شهود الاعتبار سوام الأحداق، وأجرحوا بسهام الأفكار منام الأغساق، واجنحوا إلى أخلاق الأبدال، فإنها نعم الأخلاق، واسمحوا بإنفاق الأموال

---

(١) التوبة: ١١١.
(٢) سبأ: ٣٩.
(٣) البقرة: ٢٧٢.
(٤) كلمة غير مفهومة.

فإنها تزكو على الإنفاق. الله الله عباد الله. دونكم الفرصة فانتهزوها، وزكّي نفوسكم ولا تلمزوها، هذا شهر رمضان. / ٣٠٠/ قد وقف على شرف للوداع، وهو ثقة على ما يلقى إليه من الإيداع، فاسكبوا العبرات وودّعوه، واكسبوا الخيرات وأودعوه، فإنه ذاهب إلى ربه، وشاهد على كل منكم بما أودعه من كسبه، فيا أيها الصائم، نزّه صومك عن الرفث، ويا أيها القائم طهر صلاتك عن العبث، ويا أيها الذاكر أجمع بين القلب واللسان، ويا أيها الشاكر زيّن شكرك بالإحسان، ويا أيها المنفق كن على نفقةٍ من الخلف ويا أيها المشفق إنْتَهِ يغفر لك ما قد سلف، ويا أيها المتواني أزف الرحيل ويا أيها المتفاني انقطعت عن الدليل، فكيف بك أيها السالك إذا ضاقت عليك المسالك، ورأيت النار ومالك، وشهدت جوارحك بسوء أعمالك، ووجدت أفعالك أقتل من أفعى لك هنالك، تعضّ على يديك ندماً، وتكون من أعمالك كممسك على الهواء، أو قابض على الماء.

وهي طويلة فاختصرتها.

خطبة أخرى أنشأتها وخطبت بها عند وفاة بعض الملوك.

الحمد لله وارث الأمم وليس له وارث، وباعث الرمم سامهم وحامهم ويافث، وباري النسم، ومسلّط عليهم الحوادث، يحكم بالعزّ والهوان، وينقل ملكه من سلطان إلى سلطان، أحمده على ما نزل به القدر المتاح، حمداً يهبّ حيث ينوح الرياح، ويبلغ حيث يبلغ المساء والصباح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أفرج بها خناق الكروب، واجعلها درياقاً لسمام الذنوب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي جمع كلمة الإسلام بعد شتاتها، وقصد به أحياء الأمة وغفر لأمواتها، وأيّده بكماة الحروب وحماتها، صلى الله عليه وعلى آله، ما غابت الشمس في ظلماتها، وطلعت البدور في هلالاتها، أيها الناس ليس الموت بنكرةٍ فيحتاج إلى تعريف، وليس الفوت في مجهلةٍ فيفتقر إلى توقيف، فكأنكم والله بالتلف وقد أسرع إلى هذا التأليف، وقد اشتدّت الكلف عند زوال هذا التكليف. وكأنكم بالصحة وقد نازلها المرض، وبالجوهر وقد زلزله العرض، فخشع القلب واستكان، وعدم الوجد والإمكان، وجاء الموت من كل مكان، فشخص البصر، وضاق النفس وانحصر، وودّ المسرفُ على نفسه لو أنه اقتصر، فما هذه الفعلة والإضاعة عن اغتنام أوقات المهلة والاستطاعة، أتظنون أن / ٣٠١/ الموت يقبل التفنيد، أو يميّز بين السادات والعبيد، أو يأخذ منكم الفدا، أو يؤخر من حضر يومه إلى غدا[1]، كلاّ والله ثم كلاّ، بل جلّ الخطب وجلاّ.

(١) كذا في الأصل.

وعقد الفناء بنواصيكم. وأقسم لا يحلّ بعقده حلّا، حتى يوردكم موارد قومٍ تسوت بهم الأرض وقسمت أموالهم في أهل العصبات والفرض، وبقيت تبعاتها إلى يوم الحساب والعرض، وحلّت بهم المثلات، ونبتت على قبورهم الأثلاث، وجدع البلى أنوفهم الشمّ جدعاً، وصال على أوصالهم فصلا وقطعا، فلو كشفتم عنهم الترب صبحة التلقين، لعلمتم علم حالهم عن يقين، ورأيتم متجهماً ما كان مبتسماً، فما تعرفون الوجوه إلاّ توهّماً، فهذا علم ما انتهت إليه أشباحهم، فسبحان من عنده علم ما انتهت إليه أرواحهم. وأنتم عباد الله بقيةٌ مما ترك آل الرحيل، وشرذمةٌ قليلةٌ تركت لتهتم بالتحويل، ويلتحق الخلف بالسلف عما قليل، فخذوا رحمكم الله في تحصيل الأزواد، واحملوا على نفوسكم، فإنها لسفركم الطويل بمنزلة الأذواد، واقطعوا من الدنيا جميع أسبابكم فإن عسكر الأموات قد عسكر على أبوابكم، وأقسم ألاّ يرحل إلاّ بكم، فيا أبناء الأموات النجاز النجاز، ويا إخوان الشتات الجهاز الجهاز، ولا تطمئنوا إلى الحياة فإنكم منها على أوفاز، ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، جعلنا الله وإياكم ممن زجره الوعظ فانزجر، وتجلّت له العبر فاعتبر، وأخبر عن الموت فعلم أن الخبر فوق الخبر. إن أنفع ما قرع السماع من المواعظ الزاجرة، وأحسن ما صلح عليه أمر الدنيا والآخرة، كلامُ ذي القوة القاهرة والآيات الباهرة.

ومن موعظة خطبة أنشأتها أيضاً:

أيها الناس أما لكم عن طول آمالكم من إقصار؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم عن جادّة الاستبصار، كيف لا تعتبر المقيم منكم بمن رحل؟ أم كيف ييأس من الإقامة من تستفزّه الرحل، أم كيف لا ينشط من عرف عواقب الكسل، أم كيف لا يتيقظ من عرف خيبة الراقد؟ أم كيف لا يتبصّر من رأى ظفر الناقد؟ واعجباً لمطلوب لا يعد المسير في مدّة المهل، ولمحروب سلّط عليه عدوّه وهو لا يعمل الحيل، ولمسلوب قد وجد الفرصة ولا يستدرك الخلل، ولمكروب قد وجد طبيباً وهو لا يحسم مادة العمل. وارحمتاه لعالم لا يجمع بين العلم والعمل، وواأسفاه لغافل خدعته أباطيل /٣٠٢/ الأمل، ألا طعان، ألا فرسان عادية، ألا همةٌ إلى المعالي رائحة غادية، ألا بصيرة إلى سواء السبيل هادية، ألا عزيمة جادة، ألا بصيرةٌ حادّة، ألا فطنةٌ لوذعيّة، ألا فكرةٌ ألمعيّة، ألا خائف من ربه، ألا مقلع عن ذنبه قبل حلول الأجل، قبل تحقق الوجل؟ قبل نزول الضريح قبل السؤال الصريح، قبل الوقوف للعرض على جبار السماوات والأرض، فيا أيها الغافل، عسى أن يكون قد اقترب أجلك، وقد أوهمك بعده أملك حتى سوّد الصحائف عملك، كأنك والله بأجلك قد حلّ، وبأملك قد ودّع فاستقلّ،

وبطبيبك قد استدلّ على موتك ودلّ، فنعاك من خلفك إلى خلك وإلفك، وقال لأهلك وهو مغضي اليوم أو الليلة فلان يقضي، فواجهك صغيرهم بالصراخ، فزجره الكهول والأشياخ. حتى إذا عرق جبينك، وامتد عرنينك، وبرق بصرك، واشتدّ خوفك وحذرك، ويئست من حياةٍ كنت تطمع فيها، ورميت بسهم ممات لم يدع في قوس الحياة منزع، وافقت حيناً بعدما أغمي عليك أحياناً، فرأيت مَلَك الموت عياناً، فهنالك تنقل من سعة قصرك، إلى ضيق قبرك، ومن نخوة إعزازك إلى ذلة إحرازك، ومن عواطف أهلك الرحيمة إلى أهوالٍ عظيمة، قد ودعك معشرك وأودعك، ولو أقاموا عندك لما نفعوا، فتخليت عن الصديق والودود واحتليت بالصديد والدود، ثم لا ملجأ من ضغطة القبر ولا معاذ، ولو نجا منها أحدٌ لنجا سعد بن معاذ[1]، فكيف بك إذا رأيت ملكين أفرقين، تفرق منهما أفئدة الثقلين، فزلزلا منك الأركان، وأجلساك كهيئتك الآن، وسألاك من ربك وما دينك؟ وعملك حينئذ قرينك، ثم بعد تجاوز هذا المنار، ترى سبيلك إما إلى جنة أو إلى نار، فرحم الله امرءاً علم ما بين يديه فانتقل إلى آخرته بأفضل ما لديه.

خطبة أخرى أنشأتها وخطبت بها:

الحمد لله للذي بعبادته تتمّ الصالحات، وبهدايته تقام وحدانيته الأدلّة الواضحات وبرعايته تنقاد إلى طاعته الأنفس الجامحات، وبعنايته تهتدي إلى معرفته البصائر الطامحات، وبمعاملته تحصل المتاجر الرابحات، وبمسامحته تُغفر الذنوب الفادحات، وتستر العيوب القادحات، وبذكره تطمئن القلوب الجانحات، وبشكره تستقدم /٣٠٣/ النعم السارحات، وبحمده تسبّح النجوم السابحات، والطيور السانحات، والوحوش السائحات، والرياح الغاديات الرائحات، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده، وما لكم من نعمةٍ فمن عنده، ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، أحمده على وعيده ووعدهِ، حمداً استمطر به سحائب رفده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يحكم لقائلها بسعد جدّه، ويختم لحاملها بجد سعده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أرسله وجعل الملائكة من جنده، وشرف به

---

(١) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهابي، صحابي جليل، أُصيب يوم الأحزاب بجرح، ثم انتفض جرحه أثناء الوقعة في بني قريظة فمات رحمه الله. وفي الأثر أن النبي ﷺ قال: لو نجا أحدٌ من ضغطة القبر لنجا منها سعد بن معاذ.
انظر: طبقات ابن سعد ٣/ ٢/ ٢ والوافي بالوفيات ١٥/ ١٥٢.

أهل تهامة ونجدة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وولده. ما استلّ سيف من غمده، وأحيل طيف من بعده.

أيها الناس، إن للمنايا فيكم وثبات، وهي كامنة في الحركات والسكنات، وجاثمة على الأنفاس واللحظات، فانتبهوا رحمكم الله، فإلى متى هذه الرقدات، وتفطنوا لما يُراد بكم فقد استحكمت الغفلات، وتنبهوا لاستدراك الهفوات قبل درك الفوات، وتزينوا للعرض على جبار الأرض والسماوات، هذا عباد الله شهر رجب، ضيف كريم يجب إكرامه، وصديق حميم يتعين إجلاله وإعظامه، وهو خازن أمين وشاهد صدق لا يمين، يشهد عند ربه على كل إنسان بما أودعه من كسبه، شهر اشتهرت بركاته وعظمت حرماته، وارتقت ميقاته، وخسفت لأهل الطاعة أوقاته، فيه يقبل الله التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويضاعف أجور الحسنات، فاغتنموا في أيّامه البيض غسل الصحائف السود، وثبوا إلى طاعة الله تعالى وثبات الأسود، واعلموا أن الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت، وأن الساهي عنها عند الله تعالى ممقوت، وهي من خير أعمالكم، فحافظوا عليها، وراقبوا الذي يراكم إذا قمتم إليها، واطردوا بالخضوع وسواسها، وشردوا بالخشوع خناسها، وآرأبوا صدوعها، واحذروا ردّها عليكم ورجوعها، فكم بين من صلّى صلاة تكمل له أجرها وبين من صلى صلاة كتب له نصفها ثلثها ربعها خمسها عشرها، وتأملوا قوله ﷺ، فقد أبان عن ذلك فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك، فسمعاً لمواعظ الله تعالى، سمعاً وردعاً لوسواس الصدور ردعاً، جعلنا الله وإياكم / ٣٠٤/ ممن ذكر اسم ربّه فصلى، وتجلّى نوره لسرّه فتخلّى عما سواه، وبذكره تحلّى.

كتب صفي الدين[1] ابن سرايا الحلي وهو بحماة إلى القاضي شهاب الدين ابن فضل الله العمري فسح الله في مدّته، وهو كافل الأسوار الشريفة بالشام المحروس حينئذ رسالة تشتمل على شعرٍ وترسّل. أما الشعر فأثبته لأنه يعدّ من الأشعار. وأما الترسل فإني تركته لأنه ساقط عن درجة الاعتبار. والشعر هو هذا:

ما كنت أعلم والضمائر تصدق   أن المسامع كالنواظر تعشق

---

(١) صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي، الطائي، شاعر عصره، ولد ونشأ بالحلة، اشتغل بالتجارة فرحل إلى الشام ومصر. وانقطع مدة إلى أصحاب ماردين واتصل بالملوك الأرتقية، توفي سنة ٧٥٠هـ. وله مصنفات وديوان شعر مطبوع.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٦٩ وفوات الوفيات ١/ ٢٧٩ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢٣٨.

حتى سمعت بذكركم فهويتكم ... وكذاك أسباب المحبّة تعلق
أرجو اللقاء تعلّلاً ويسرّني ... أني بأذيال الرجا أتعلّق
شوقاً إلى المجد الذي لثنائهِ ... في كل خافقةٍ لواء يخفقُ
ولقد قنعت من اللقاء بساعةٍ ... إن لم يكن لي الدوام تطرق
قد تنعش الظمآن بلّةُ ريقهِ ... ويغصُّ بالماء الكثير ويشرق
قد كنت قبلُ لأرض مصر عاشقاً ... فاليوم غاية سؤل قلبي جلقُ
فعسى ترى عيناي منك بربعها ... وجهاً يكاد الحسن فيه ينطق
ولقد سررت برتبةٍ عادت لكم ... والشمس تحجب بالظلام وتشرق
فأبشر شهاب الدين فهي طلائع ... لجيوش إقبال بمجدك تحدق
ولا تخش فيها من تطرق ماردٍ ... فالشهب تردي الماردين وتحرق
واعذر محبّاً لم يصادف مهله ... يوفيك أقسام الثناء ويعرق
لم أشك بؤساً غير شغل شاغلٍ ... فالرزق متسعٌ ووقتي ضيّق
أنا في صفاتكم العييّ وإن أفُه ... في غيرها فأنا الفصيح المفلق

ولما ورد هذا الكتاب على حضرته الكريمة كنت بها مع جماعة من العلماء والأدباء فأشار إليّ من بينهم، ورفع رتبتي وقال لي: أجرِ مع هذا الجواد السابق يا سكيت حلبتي، فقلت: سمعاً وطاعة، وبذلت فيما رسم به جهد الاستطاعة، وقابلت البحر بصابه، وقلت: هبني كالذي قيل فيه شيئاً سمعاً فأجابه، فقلت / ٣٠٥/ :

أنفيسُ درّ أم نجوم تشرق ... أم ذاك لفظٌ قد حواه مهرق
فيه العيون تزاحمت بلحاظها ... إن النواظر بالحدائق تحدق
وافى مشرّفك الكريم فخلتهُ ... روضاً يجودُ به سحابٌ مغدِقُ
وكأن أبيض طرسه مع نفسه ... خدٌّ نقيٌّ بالعذار منمقُ
عجباً له أنى وكيف به استوى ... ماء الفصاحة والذكاء المحرق
ومن العجائب أن جوهر لفظه ... فرد وفضل الناس فيه مفرّق
وصِبَاه شغل النواظر مثلما ... فعم الأنوف أريجهُ المستنشق
وتخاطفت منه الغواني لؤلؤاً ... أضحى عليها في المهمّ يُعلّق
يا من حمته حماة عن نظر امرئ ... أعد سمحت له مصر وشحت جُلّقُ
أتحفتني برسالةٍ مطويّةٍ ... من نشرها الدنيا تفوحُ وتعبقُ
شمس الفضائل مسمعي غربٌ لها ... مهما لها من فيك شوق مشرقُ
فعقلتها لما رأيت عقيلةً ... فيها العقولُ تلوم من لا يعشق

ما ينبغي للشمس يجلو معرب — منها ولا ينفكُّ عنها مشرقُ
فأنر بها في كلّ حين منزلي — لعساهُ ينجو من ظلام يطرقُ
شنِّف مسامعنا بلطفك أنه — درٌّ على سلك البلاغة ينسق
واعذر إذا قصر الجواب مطوّلا — فلفيض بحرك خاطري يتملَّقُ
فالعذْر متخذ كما أبديته — فالشغل متسعٌ ووقتي ضيّق

يقبل اليد التي بدأت بالأيادي، وتروحت إلى المكارم، فمتى يلتحق بها الغادي؟ وتنوّعت في أساليب البلاغة، فافتقر إليها الخطيب والشادي، وملأ فضلُها براً وبحراً فسار بذكرها الملاّح والحادي، وينهي ورود مشرّفٍ مسرفٍ في إنفاق كنز البيان، مشرفٍ عليه ضبات الرّند والبان، مشرقٍ كأنّه رسالة بين المشتري وكيوان، فتناوله المملوك كما يتناول العقد الثمين، وتخيّله رايةً رفعت لمجد فتلتقاه باليمين[1] وحين فضّ ختامه، وأماط لثامه، وداوى بكلامه كلامه، وأوصل إلى /٣٠٦/ سويداء القلب تحيته وسلامه، تأمله فوجده بحراً لا تنقضي عجائبه، وفلكاً يبدو شارقه قبل أن يغرب غاربه، فلحظ نجومه، وأخذ يتنزّه ويتأمل، ونظر درره، وشرع يلتقط ويتحمل ما به يفتخر ويتجمّل، وانتهى إلى لطف مولانا وحسن توسله في إبلاغ المملوك منتهى سؤله وغاية أمله من تجديد مودّة هي في الحقيقة قديمة، وهي وإن سارت لم تزل مقيمة، وفي ذلك أقول:

وذي كلَف بالودّ منّي ودّه — لديّ قديم إنّما اغترّ بالبعدِ
غدا عاقداً قلبي بأسرار قلبه — فما عنده لي يقتضي ماله عندي

كيف لا؟ وبيننا نسبةُ أدب هي أخصّ الأنساب، لأنها متصلة العلائق إلى يوم الحساب، لا يقطعها انقراض، ولا يتطرق إلى جوهرها الأعراض، ولا يليق بها الانتقاء والأعراض، وكان المملوك على نيّة الابتداء والافتتاح، وما صدفهُ عن ذلك إلاّ إرصاد لارتياح مولانا إلى فضيلة التقدم. وعلم أنه لا بدّ أن يرتاح، فصبر وانتظر إلى أن سمح بها القدر، وجاءت والله على قدر.

أهلاً بعارفةٍ أسديتها إليّ، وتلك نعمة تمنّها عليّ، هي والله إحدى المواهب وإحدى السحائب، وأعلا المراتب، وأغلا المناصب، وقد امتثل المملوك أمرها المطاع وجاوب بما استطاع، وقابل الصقيل بالصدأ، وجاوَبَ ولكن كما يجاوب الصدى، المملوك الآن يلتمس من الفطن الألمعيّة سرّ هذه الكلمات العربية، لا زالت

---

(١) تضمين لقول الشاعر:
إذا ما رايةٌ رفعت لمجدِ — تلقاها عرابة باليمين

سعادته قاضية وحقوقه مقضية، وعيشته راضية ومودته مرضيّة، إن شاء الله تعالى وكتب صفي الدين المذكور في آخر كلامه بيتين وهما:

لما ختمت الطرس شوّهت لفظهُ وجئت بما شاهدت آخره عمدا
عساك ترى عيباً فتردّ لي جواباً لأنّ العيب قد يوجب الردّا

فأجبته أيضاً ببيتين في المعنى جعلتهما خاتمة وهما:

أمانة أنت لها موضعٌ كلفتني الأثقال من حملها
رددتها إذْ كان من شرعنا ردّ الأمانات إلى أهلها

وقلت أيضاً في الحريق[1] الذي اشتهر أمره وسار ذكره، وظهر به من /٣٠٧/ النصراني مكره، واستطار شراره وشرّه، وهي:

لنا العزّ في الدارين والقهرُ والفخر وما للنصارى فيهما أبداً نصرُ
أعبّاد عيسى إنّ دين محمدٍ ليعلو ولا يعلى وما مسَّهُ ضرُّ
سنفرح يا أهل الصليب بصلبكم ويذهب هذا الحزنُ عنا ونسترُّ
أردتم بنا سُوءاً فدارت عليكم دوائرُهُ والحمد لله والشكر
تكيدون يا أهل الكنائس جامعاً على فضله قد أجمع البدو والحضر
إذا زالت الدنيا فليس بزائلٍ وبعد خراب الأرض يعمرهُ الذكرُ
وما غاله كيدُ الحسود ومكرهُ وحاشاه أن يغتاله الكيدُ والمكر
ولكنّما عين الكمال تطلّعتْ إلى قدره لما له عظم القدرُ
علا وخلا من قادحٍ في صفاته فمن أجل ذاته قدح الدهر
كذا سنّة الأيام في كلّ كاملٍ كما تكسفُ الشمسُ المنيرة والبدر
هدينا لعدوى أُمةٍ ضلّ سعيُها وبان الذي غطّوه وافتضح السرُّ
هم استيقظوا للفتك فينا وظنّهم بانا رقودٌ عنهم، لقد اغترّوا
لنا اليقظات الصادقات على العدى ونحن ليوثُ في الظلام لها زارُ
وليس علينا أن ننام وربُّنا حفيظٌ علينا من حراسته سترُ
وفي الجامع المعمور منا عصابةٌ قيامٌ وهم شعثٌ لربّهم غُبْرُ
هم السادة الأبرار لله أخلصوا فإن سألوا أعْطوا وإن أقسموا برُوا
بهم تعمر الدنيا ويرزق أهلها وتسترفع البلوى ويستنزل القطر
فيا أولياء الأمر أن وليّكم إله واحدٌ أحدٌ وترُ

---

(١) إشارة إلى الحريق الذي وقع في دمشق سنة ٧٤٠هـ. انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٨٦.

عليكم بعبّاد المسيح فإنهم خنازيرُ بودى منهم الناب والظفر
ولا تُخدعوا منهم بظاهر طاعةٍ يلوح عليها الغدر والخدع والختر
فطاعتهم خلفٌ وذلُّهم دهى وشكرهم كفرٌ وسرّهم شرُّ
لقد صحبوا جيش الظلام وجرّدوا سيوف ضرام لا يقوم بها الصخر
/٣٠٨/ وما الليل إلا كافر مثلما حكوا أما ستر الكفّار حتى طغى الكفر
أطالوا لسان النار ليلاً فكبّرت بمأذنة التكبير حتى علا الفجر
وما كبّرت إلا عليهم فإنهم تيوسٌ على أعناقهم وجب النحر
مسعّرةٌ تسطو على فحمةِ الدجى فتحمرّ أحياناً بهم ثم تصفرُّ
أهلَّ هلالُ الأفق منها لربِّه وضمَّ جناحيه لهيبتها النسرُ
وقد سعّرت بين الجوانح مثلها فصار حريق السرّ يشبهه الجهرُ
فهذا تولّى وفده الريح والدجى وهذا تولى وقده الروح والفكر
فكم كبدٍ حرّى يشبُّ لهيبُها وكم مقلة عبرى مدامعها غُزْرُ
إلى الدهشة الغراء طالت ونشَّرتْ جناحاً ليس يطوى له نشرُ
وعهدي بها مثل العروس وقد بدى يروقك منها الحليُ والبزّ والعطر
فقد أصبحت شوهاء بعد جمالها وبعد غناها قد أضرَّ بها الفقرُ
وما ثم إلا مأتم في تجارها يقام إذا أبدى قواعدها الحفرُ
غدا أثر للفقر يظهر فيهمُ وأمسى تراهم في الثرى ماله أثر
وكانوا جبالاً بالزهور تأزّرت فأمسوا خيالاً ما يصابُ له أزْرُ
ولم يبق في سوق الطوائف طرفةٌ فأصبح عند الطرف ينبو ويزورُّ
خطوبٌ أتت لا يقوم بوصفها خطيبٌ ولم ينهض بها النظم والنثر
حكت نار نمرودٍ ولكن أعادها إلى نار إبراهيم ربُّ لنا برُّ
وسلّم للإسلام معبده الذي سلامته من كل كسرٍ لنا جبرُ
أطاف به طوفانُ نار وقودها لها لهبٌ كالموج جاش به البحرُ
وأشبهت التنور فوارةٌ له تفور بنار مدها ماله حزرُ
ولا عاصم من أمرها غير رحمةٍ حمانا بها ربٌّ له الخلق والأمر
من الجانب الشرقي غارت لياليًا وفارت من الغربي فاستحكم الذعرُ
وبين قسيّ السبع أفرط نبعُها وجاءت مجيء السيل والسيل محمرُّ
/٣٠٩/ رمت شرراً مثل السهام قسيُّها وقد أخذت ناراً وأوترها الجمرُ
ظفرنا بأعدانا وقد غدروا بنا وليس لهم عُذْرٌ به يحمد الغدر

فأمسى لها عينان، عينٌ قريرةٌ … وعينٌ بما قد نالنا دمعها حرّ

وجنبان هذا مطمئن ممهَّدٌ … وهذا من التبريح مفرشه وعرُ

وما ذاك من ضرٍّ بنا غير نخوةٍ … لأن مسَّنا من أهل ذمّتنا الشرُّ

ولكنما البؤس تولت وأعقبت … بنعمى فزار العسر واقتبل اليسرُ

فتكنا بهم فتك الضراغم في الثرى … وهم لسعونا مثلما يلسع الذرُّ

وماضرّنا ما قد أتوه بجهلهم … ولكن بهم منّا قد استحكم الضرُّ

فبعد كؤوس الخمر دارت عليهم … كؤوس عذابٍ ما يلذُّ بها السكرُ

وبالشيب لم تضرب لحاهم وإنما … به ضرب الجنبان والظهر والصدر

ومازال ذاك الشيب فيهم منغّصاً … حياتهم حتى انقضى منهم العمر

فياقُبحهم إذ زال رشد رشيدهم … وزلزل تمكين المكين وقد خرّوا

عمائمهم زرق وسودٌ وجوهُهم … وأجنابهم حمرٌ وأكتافهم خضرُ

لقد لعبوا واستعجلوا فأذابهم … على لعبٍ مستعجلات قد انجروا

وأطهرهم المطران جهلاً وأرهبت … رهابينهم أفكاً وخامرهم خمرُ

وقالوا لهم إن الصليب علا بكم … ولا بد أن تعلُوبه ولهم غرّوا

وصحّ الذي قالوا ولكن علوّهم … على خشبِ التسمير كان ولم يدروا

فكلّ صليبي صليبٌ مسمّرٌ … على جمل من مدبرٍ ناله دبرُ

جمال سرت تحكي جهام سحائبٍ … ومن عجب أن الجهام له قطر

ورجّت بهم أركان جلّق فرحةً … وقد ملأت أقطارها منهم القطر

وطارت بهم إبلٌ كأغربةِ النوى … تفرّقهم حتى يضمّهم الحشر

فراحوا بها والسبّ يعمل فيهم … وفي نطقهم عيٌّ وفي سمعهم وقرُ

/٣١٠/ وكانت قسياً تحتهم فرمتهم … إلى صارم كالملح لكنّه مُرُّ

فكم جلد تيسٍ قدّ دلوين منهم … ومن دمه قد سال بينهما نهر

وأصبح سوق الخيل محتفلاً بهم … ينادي عليهم فيه مع أنهم حمرُ

لهم بيتُ لحمٍ من قديمٍ وقد غدا … لهم سوق لحم كاسدٍ ماله سعر

تراموا به في مذبحٍ ونحورهم … بحار دمٍ فوق الثرى ماله نشر

وقد نذروا أن يدفنوا بقمامةٍ … فصح بسعي الريح فيها لهم قبرُ

على الدفّ طاب الدقّ إذ سحروهم … وصحّ عليهم الضرب فارتقص البكر

وطافوا بهم في زفّة حسن عودها … يرنّ على الإيقاع والعود يحتر

وبينهم من عجّل الله روحه … إلى النار واستولى على عصرهِ القبرُ

تردّى ثياب الموت زرقاً فما أتى ... لها الليل إلاّ وهي من لهب حمرٌ
لأن أعدمونا من كثير متاعنا ... قسيّاً وملبوساً فأمرهما نزرُ
فعن ذاك تغنينا دروعٌ مفاضةٌ ... وعن ذاك تُغنينا مهنّدة بترُ
وما للقسيّ الصفر إذا شطّت عليها ... السيوف البيض والأسلُ السمرُ
فيا أُمّة التثليث كيف وترتم ... وفي أُمّة التوحيد لا يذهبُ الوترُ

وهي طويلةٌ فاختصرتها :

جمد فيها ذائب المطر، ورصّع سقيط الثلج أكاليل الشجر. وأصبحت الدنيا وكأنما هي في بلّورة، والأرض كأنها غشيت كافورة، والغُدُر كأنما كُسِرت عليها قارورة، والجبال كأنما تجلببت بالأُزر، وأطرفها مجرورة وساهر البرق قد أيقظ راقد النبات. وجيش الأنواء في الجوّ قد اضطرب ثم أظهر على الأرض الثبات، وفواقع الأمطار على صفات الأنهار لها وثبات، وزمرّد ما بقي ورقه من الشجر يفقأ عيون أراقم الجداول، وباع قوس السحائب الممدود بطول المطاول، ونار النارنج في قطوفه مُضرمة، وعقائص الكباد ترتج على أرداف شجره المنعمة، وبطائح الأترج بالذهب مغلفة، وشذور الليمون مفصل ما من أغصانه / ٣١١/ مشنّفة، وكان الثلج قد توالى أياما، كثر تقوطه لما صفق الغدير ورقص الشجر وسقى البرق مداما، فلما أصبحت آخر تلك الأيام الوضاء، ورأيت حسن ذلك المنظر من شباك لي يطلّ على الفضاء، وكان ذلك في رمضان، وقد حمّ الصيام، وختم على مدة تلك الأيام، فكتبت إليه، عتبت عليه وقلت :

عجّل فإن اليوم يوم سروري ... لو أنه للناس يوم فطورِ
بادر صبيحة ليلةٍ قد أسفرت ... وتبسّمت كالضاحك المسرور
وتنفست أرجاؤها عن عنبرٍ ... ملأ الرّبى بفتيته المذرور
وسرى نوم النوء في أرجائها ... ليهزّ فرع البانة الممطورِ
والأرض أجمعها غدير واحدٌ ... لكنّه الصافي من التكدير
باكر به اللذات قبل فواتها ... فالعيش كلُّ العيش في التبكير
فاليوم طفل ما ترعرع في الضحى ... فعلام عمّمَ رأسهُ بقتير
فلق الصباحُ بضوء قلب الدجى ... وسطت كتائبُهُ على الديجور
والطود فيه طرائق ما لبّست ... بثلوجها كالخام والمقصور
والجوُّ فضيُّ الصحاب كأنما ... شُقّت عليه غلائلٌ من نور
وكأنما كانون أطفى جمرهُ ... وهفا رمادٌ منه مثل ذرورِ
والدوح مبلول الجناح بمائه ... متنفّضٌ في الجوّ كالعصفور

وتضمّنا دار بحمد الله قد شيّدت جوار القصر والميطور
دارٌ تطلُّ على الفضاء كأنّما جمعت دوائر ذيله المجرور
وترى بها في فردِ نظرةِ ناظرٍ مالا تراه العينُ بعد شهور
وجميع غوطة جلّق بستانها أنّى تقاس بمشبهٍ ونظير
بنيت على شرفٍ منيرٍ شاهقٍ ما ارتدَّ عنه النجم غير مسير
في قاسيون سقاه كل ملثّةٍ غراء تهطل في أعزّ مطير
بُنيت كمثل أخي صفاءٍ ساذجٍ مادنّست بالدهن والتصوير
/ ٣١٢/ من فوق بستانٍ لنا متنزّهٍ ويزيد فيه يجولُ كالمذعور
ولقد أطلّ بها نهارٌ طيبٌ وفي يوم ثلج ذرّ كالكافورِ
والثلج ممدودٌ على أوراقهِ كزمرّدٍ غشُّوه بالبلورِ
بادر أخي إليه واسعى عاجلاً لترى عجائب صنعه المقدور
وانظر إلى النارنج فوق سمائهِ كالنار تشعلُ في صفاء غدير
وتهدّل الكباد مثل مليحةٍ جُذِبَتْ بعقصةِ شعرها المظفور
وكأنّما الحمّاض في إترجّها ذهبٌ يفصَّل بينه بشذور
والآس فيه من الوفاء دلائل ماشِين مثل الغير بالتغيير
والنهرُ يجري مثل ذائبِ فضّةٍ في جانبيه مثل بسط حرير
جال الحبابُ به على فيروزج مُتدحرجاً كاللؤلؤ المنثور
وانصتْ إلى الدولاب أن أنينه يحكي أنين العاشق المهجور
بردت مدامعهُ وقد فاضت بكا وكذا تكون مدامع المسرور
لولا الصيام وأنّه خصم المنى ما كنت أقنعَ منك دون حضور
وتديرها كأساً يشبَّ ضرامها ما مثلها شعلاء للمقرورِ
ويديرها خنثُ المعاطف أهيفٌ قد كحلت الحاظه بفتورِ
مثل القضيب وإنما أردافهُ ترتجُّ ملء إزارهِ المزرورِ
أستغفر الله العظيم وإنما هذي ممازحةٌ بغير فجورِ

فأجابه بقوله:

أهلاً بصبح لاح من ديجور عاد الوصال به إلى المهجور
لفظ تجلّى عن بديع كنانهِ كالدرَّ يخرج من ظلام بحور
فقد اجتلى طرفي وقلبي منهما ما شئت من نورٍ وفرط سرور
أمرت به عندي أمورٌ عندما وصلت معاينة إلى تاموري

منها معارضة الخصمِّ بجدولٍ ... قد جَفَّ منه الماء بعد خريرِ
/٣١٣/ مهلاً أبا العباس لا تكُ آمراً ... بقضيّة تسمو عن المأمور
أنا من علمت مقصّر لكنّما ... بالطول منك يغضُّ عن تقصيري
وبغير حبّك لا تكن لي ملزماً ... فبحب أحمد منبتي ونشوري

وقد كنت أتيتُ بأبياتٍ ملغزة في سوسن، وسئلتُ في حلّها، وفتح ما تحت مقفلها، فلم يحسن لديّ نسجُها المهلهل، ولا لان عندي وعرها المسهّل، ومع هذا فحللت منها ما عقد، وأوجدتُ من ذاهبهِ ما فُقِد، وقلت: من ناظمه؟ فقيل: رجل خياط من أهل مصر، فنظمتُ ما يصلح أن يكون جواباً لأبياتهِ، وقذفتُ له في نظمه السمّ المداف. ووصلتُ ليلهُ بأجنحةِ الغُداف، ثم تكشّفت العارضة عن ناظم ذلك اللغز، فإذا هو صاحبنا هذا، جمال الدين، وبلغه الجواب، فعرض به ومرض بما قدح في أدبه، وظنّ أني قصدته بالجواب، فكتب إليّ كالمعزّي في شيخنا أبي حيان، وباطنه العتاب. والذي كتبه:

أضحت حياتك عن أبي حيّان ... خلفاً لنا يا أوحد الأحيان
ملك النحاة مضى وقد أبقى لنا ... ملك العلوم العارف الربّاني
خبرٌ مضى والمبتدأ من بعده ... باقٍ يسدُّ مسدَّ ذاك الفانِ
لابل لك التمييز حال حياتهِ ... عنه بتوكيدٍ وعطف بيانِ
أحسنت صحبته وحسبك أنه ... أثنى عليك بغايةِ الإحسانِ
قد جلَّ خطب الموت حتى أنه ... وقف الأثير به عن الدوران
فتعزَّ عنه يا شهاب الدين إذ لكما ... من العلياء رفيع مكانِ
حيّي أبا حيّان منهلّ الحيا ... مهما تفرق والتقى حيّانِ
عهدي به تاء الخطاب فمالهُ ... أمسى ضمير الغائب المتفاني
إن كان أضمر شخصه فعلومهُ ... كالشمس مشرقةٌ لكل عيانِ
فكأنما هو همزة التي سقطت ... وقد درجوه في الأكفانِ(١)
يا أحمداً ذهب الخليل ومالهُ ... خلف فدمعي أحمر الجريان
وغدا أين يحيى يا ابن يحيى ظاعناً ... فالقلب غير مبرد اللهفان
/٣١٤/ والجفن صار بدمع عيني أخفشاً ... والرأس قد عرفوه بالشيباني
ولساني السكيت لم أطلب سوى ... إصلاح منطقه لذم زماني

---

(١) كذا ورد البيت وهو مختل الوزن، ولعلّه: فكأنما هو همزة الوصل التي.

غفراً فكيف أذمّ من أبقاك لي ... يا من هدى بي للعلى وهداني
قالوا: أتنشي مِدحةً فأجبتهم ... أنشأتها في وصف من أنشاني
المنشي المنسي الذي ألفاظهُ ... سحبت على سحبان ذيل بيانِ
هو سيدٌ حرُّ الكلام رقيقهُ ... فهو الطليق لديه وهو العاني
عبد الحميد كعبد أحمد إنّما ... أنا ذلك العبد الذي ربّاني
يا مالكي كن شافعي من حادثٍ ... يتحدّث القاصي به والداني
يدعوك عبدٌ (قد)[1] غدا كفريسةٍ ... لتذبّ عنه تجرس الذوباني
إن تطرّحه تطرّح من لم يزلْ ... لك مخلصاً في السرّ والإعلان
لم يكفر النعماء طرفة لحظةٍ ... فيخاف منك عقوبة الكفران
ووعدتني من نسج لطفك حلّةً ... بيضاء معلمة تعظّم شاني
قاضي القضاة له أتمّ مسرّةٍ ... بنجاز وعدك وهو قد هنّاني
لك يا شهاب الدين والدنيا هدىً ... وندىً حليفا الحُسنِ والإحسانِ
فإذا رأيتك حار دونك ناظري ... وإذا مدحتك حار فيك لساني
بردّ حشاي ولو بأيسرِ لفظةٍ ... لو قلت: كفّوا عنه قلت: كفاني

فأجبته بقولي:

أنسيت ودك وهو لا ينساني ... إني إذاً للود ما أنساني
هبْ أنني بدّلت عنك بصاحبٍ ... وأطاعني قلبي فأين زماني
هيهات لا عهد الشباب براجعٍ ... كلاّ ولازمني ولا إخواني
أيقال إني قد قطعتك عامداً ... هيهات لا أسخو بقطع بناني
هيهات لا أخني على غرسي سدىً ... بيدي ولا آتي على بنياني
نقِّب على سرّي تجده صافياً ... واسأل سوى قلبي عن السلوان
/٣١٥/ وكذا أبي الماضي وجدي قبله ... وبنو أبيه وعدّ من عدنان
ما كان إلاّ نكتةٌ أدبيّةٌ ... قد قلتها أو فلتة بلساني
إذ ذلك اللّغز الذي وافوا بهِ ... في صنعة الآداب ما أرضاني
لارائق الثمرات من ألفاظهِ ... تحلو ولا فيه بديع معاني
ورأيته وكأن في عيني القذى ... وسمعته كالوقر في آذاني
هذا الذي جلب المزاح وهكذا ... أمر النسيم يميلُ بالأغصانِ

---

(١) ليست في الأصل، واقتضتها استقامة الوزن.

ولقد بذلْتُ الجهد في كتمانها ... لكنّها ظهرت من الشيطان
كلاّ معاذ الله ما هذا الذي ... طبعت عليه سجيّتي وبياني
وأنا الذي ما ملّ صحبة صاحبٍ ... والله يعلم ذاك والملوان
أما الجميل فلستُ أنساهُ ولو ... طال المدى ولغيرهِ نسياني
ولقد يفاجئني العدوّ مجاهراً ... وأردّ عنه وقد قدرت سناني
ولو أنني حاولتُ طوداً ثابتاً ... لأزحته إذ ذاك في إمكاني
ولقد أكون مع الصديق كأنني ... منه وفوق الفرقدين مكاني
ولربّما وافى اليّ مما ذق ... أدرى به ويعمُّه إحساني
ولقد أرى عيب الصديق وإنما ... أخفيه مثل السرِّ في كتماني
حتى أغمض عن قبائح جمةٍ ... عيني ولي ببصيرتي عينانِ
هذا لغيرك لست أعني صاحباً ... ما زال لي في كلٍّ ما عنّاني
اسمع كفيت لديّ فرية كاذبٍ ... لو قالها لم تصغ لي أذنان
وافت قصيدتك التي حبّرتها ... لكن بمثل لواحظ الغزلان
غرّاء تسحبُ من قتامٍ ذيلها ... وتجرُّ فاضلهُ على الكثبانِ
وافت لتعطفني إليك وغالطت ... فأتت تعزّي في أبي حيان
لله من عزّت به ما مثلُهُ ... هو واحدٌ ما إن له من ثاني
ولقد يعزّ على صوت نعيِّهِ ... وصدود مثلك ذا وذا أبكاني
/٣١٦/ يا دهرُ فرّقت الذين أحبُّهم ... ما بين قاصٍ في المدى أو داني
فأخو الممات فقدته بيد الفنا ... وأخو الحياة (فقدته)[1] بتفاني
فدع العتاب يكفّ غرب لسانه ... وذرِ السيوف تقرّ في الأجفانِ
واعلم وقرّ بأنني لك كالذي ... تدري وعلمك وحده يكفاني
واقرأ محاسن كلما أوتيته ... وانظر فلست تراهُ في أقراني
واسكت ولا تنطق بحرفٍ واحدٍ ... واعرف مكانة صاحبي لمكاني

وعرض لي في رجلي طرف من وجع المفاصل، قيّد قدمي وأطال ليلي وألمي، وأقعدني بعد القيام، وأسهرني ليالي موصولة بأيام، فكتبت إليه أعلمهُ كيف ألمّ بي لممه، وضرى عليَّ ضرمه، وأعلمته بما تحملت من ثقله وما برمتُ به من عدم نقلهِ، وأريته في الأخبار ما أجدُ من كربه، وأقاسي من حربه، وكيف ذقت منه الموت الذي

---

(١) بياض في الأصل.

أعيا دواؤه كلّ طبيب، ونسي به المرء وهو حبيب، ونسخةُ ما كتبته:

هل في البريّة بالمروءة معتجر ... أم في البريّة في البليّة مزدجرِ
هيهات قد عرف الأنام جميعهم ... وكفى اختبارهم بعين المختبر
يهوى الفتى طول البقاء وإنما ... يهوى الفتى كبر البلاء إذا كبر
يا للعليل وقد تطاول ليلهُ ... والفجر دمّلةٌ له لم تنفجر
طال الدجى وبناتُ نعشٍ وقفٌ ... لا شك قد مات الصباح وقد قُبِر
والمبتلى وكُفيت سيء حالِهِ ... ووقيته ما مات لكن قد سهر
أنبيك من خبري الذي يبكى له ... إني أقضّي الليل في حال مُمر
ماذُقتُ طعماً للسهاد وللكرى ... ما ذاك إلاّ أنني لا أستقرّ
وكأنني سلسلت في قيدِ الدّجى ... وبقيتُ منتظراً لمن لا ينتظر
وكأنني قد خُضتُ لجّاً مائجاً ... أو دستُ بالقدمين جمراً يستعرِ
وتورّمت قدماي حتى كانتا ... مثل الطبول بطول ضربٍ مستمر
وتغيرت لوناً فكانت كالعدى ... زرقاً ممرّضة الحشا لا تعتذر
/٣١٧/ وكأنما الضربان في شريانها ... ضرب المعاول تحت نقب قد حُفِر
والخرقةُ البيضاء فوق لهيبهِ ... مثل السحابةِ فوق برقٍ مستعر
وجعٌ لعمرك ما ظننتُ بأنّه ... إلاّ من الطاعون سيلٌ منحدر
يا للرجال لمسّ داءٍ مصعب ... لو كنت صخراً كنتُ منه أنفطر
وجع المفاصل ما تبقى مفصلٌ ... إلا ومنه فيّ سقمٌ مستتر
لكنه وعدمته شيءٌ به ... أصبحتُ للموت المعظمّ أحتقر
فأسرع أخيَّ إلى زيارةِ مدنفٍ ... لولاك ثاني طيفه لم يستزر

فأجابني بقوله:

بالعين أفديها وإني مقتصر ... قدماً لوطئتها المعالي تفتقر
قدماً تقاس بها الثريّا في العلى ... فيها ثرى يمشي عليها يفتخر
قدماً مباركة المساعي في الورى ... لم تسعَ إلاّ في ثوابٍ يُدَّخر
لا تذكر الضربان في ضربانها ... وارحم قلوباً أنت فيها مستقر
واكفف عن السريان في شريانها ... لا تُشعر الألباب جمراً يستعر
لا تسمع الشكوى الزمانّ فإنّه ... يستعذب الألفاظ منك فيستمر
شكواك برقُ لهيبها رعدٌ بهِ ... سحبُ المدامع تستهلُّ وتنهمر
ولئن شكوت فكم أزِلت شكايةً ... وحلاوة الأيِام يعقبها الصبر

والدهر يحلو حين يخلو من أذى ... والمرء مشتق الحروف من الممر
يا أيها المولى الذي بجناحهِ ... نكتنّ من صرف الزمان ونستتر
إني لادرى الناس بالخبر الذي ... بدأت به شكواك فاسأل مختبر
بالغت في درج العلى مترفعاً ... وتركت كل الناس خلفك تعتذر
فتعرّضت عين لحاسدِ نعمةٍ ... فوطئتها والغيظ فيها مستقر
أجفانها شوكٌ ورجلك رخصةٌ ... ووطئت في موقيه وطأة محتقر
فتأثرت من ذاك إلاّ أنّه ... أثرٌ أتى من بعد عينٍ فاغتفر

/٣١٨/ ومن شعره أيضاً قوله:

ارفق إذا كنت في أمرٍ تُباشرهُ ... فالرفق يفعل ما لايفعل العنفُ
فالماء مع لينه يجري على حجرٍ ... صلْدٍ فيقطع فيه وهو منصرفُ

وقوله:

عاينته خلف جامات تشفّ به ... فقلتُ بدرٌ عليه الغيم مردودُ
لا يُحمدُ البدرُ خلف الغيم مستتراً ... لكن هنا البدرُ خلف الغيم محمودُ

وقوله:

جاء حبيبُ القلب من سفرةٍ ... ووجههُ الأبيضُ فيه احمرار
فغاب عنّا وهو بدر الدجى ... وجاءنا وهو كشمس النهار

وقوله:

لا تحسبن الشطب الذي في خدِّهِ ... من صارم عبث المسنّ بحدّهِ
لكنّ سيف اللحظ لمّا سلَّهُ ... بغياً عليَّ أصابه في خدهِ

وقوله:

قد قلتُ لما رمدت عينهُ ... والقلبُ من عطفته آيس
الآن أجني الورد من خدِّه ... لأنّه قد غفل الحارس

وقوله:

شبهتُ بالتفاح خدَّ معذّبي ... وعدلتُ عن تشبيهه بالراح
فاحمرت الشامات في وجناتهِ ... ليصحَّ نسبته إلى التفاح

وقوله:

أبعدته إذْ دنا منّي فعاتبني ... فقلت الشوق يخفيني وأبديهِ
أخشى عليك لهيباً شبَّ في كبدي ... فقال: خذ ماء لساني فهو يطفيه

وقوله:

انظر إلى زهر البنفسج محدقاً ... بالنرجس المبيضّ فهو إزاره
وكأنّما هذا وذاك محاسناً ... وجه الحبيب قد استدار عذاره

وقوله:

بوجهه من دقّه كلما ... حركه طل قليل المقام
كأنه بدرٌ وأنوارهُ ... تبدو وتخفى من مرور الغمام

/ ٣١٩/ وقوله:

يا حسن زهر الدوح فتّح بعضه ... والبعضُ مضموم عليه ختام
وكأنما أغصانُهُ أهل الهوى ... ذا كاتمٌ سرّاً وذا نمّام

وقوله:

في الخميس الكبير عبدك أهدى ... بيضةً لونها يشابه خدَّك
بدم القلب صبغها فاحتفظها ... وتيقّن بأن قلبي عندك

وقوله:

ومهفهف يرمي[1] بقوس البندق ... فيصيب في الطير الجليل وينتقي
طار العقاب عليه في برز له ... فأصاب مغرزه وطرف المفرق
في الحال أخلى الجوّ منه فانثنى ... متعفّراً بجناحهِ لا يرتقي
فكأنه والقوس في يده وقد ... رشق العقاب ببندقٍ متفرّق
قمرٌ وفي يدهِ هلال أرسلت ... عنه نجومٌ نحو شيطانٍ شقي

* * *

(١) في الأصل: رمى.

[خطبــاء المغــرب]

وأما حال الخطابة في المغرب، فإنه لم ينطق به في الزمان أول قالتها، ولم تشرق بما فاق المنابر هالتها، حتى كان في الزمن الأخير خطب منهم عددٌ غير كثير. وأجاد منهم قوم نؤهم غير مطير، ونفرٌ لا يعدّ أحد منهم في عيرٍ ولا نفير، هنا لقلّة من عندهم من ذوي الأقدار، وأولي الرتب الكبار، ثم لما أضحت بلاد المغرب مدناً من مدنها، ومنابر لمن رفع قننها وذلك من المائة الرابعة إلى آخر السابعة وما معها، في هذا القرن الثامن بطريق المتابعة لم يخطب أكثر خطبائها إلا بسورة ق، وفيها مقنع كاف، إلا أنهم لم يرددوها، ولم يخلو منها جمعة ولم يعدّوها إلا قصوراً عن تشقيق الخطب وتشبعها، وتنميق برودها القشب، لخطيبها، وإلا فما هذا الجمود، وما هو في هذا المعنى المقصود، إلاّ أن كان هذا لما وردت به السنة من أن النبي ﷺ خطب بسورة ق، وهو لا وجه فيه للخلاف، فإنه يورد عليهم ما حفظ عنه ﷺ من الخطب، وأنه قل في السلف الصالح إلاّ من خطب، وما هذا إلا مما يرمي هممهم بالقصور، وقرائحهم /٣٢٠/ بالقبور. ولقد جهدتُ على أن أقف من العرب على ديوان خطب، ولو كان غير ذي رطب، ورأيت هذا مما لا رأيتُ ولا سموتُ، به على كثير من أخذتُ عنهم ورويت، إلا أن من متأخريهم من له خطب حسان قدحت زنادها وأرثت، وصرحت ببيانهم الواضح وما وريت.

ومنهم:

[١]

أبو عبد الله بن الجنان المرسي(١)

خطيب فصيح، وأديب متجرهُ ربيح، وإذا خطب حلّت خطبةُ في مواقعها من

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد، الأنصاري، أبو عبد الله بن الجنان، من أهل مرسية، فقيه، محدث، من الأدباء الشعراء، خرج من بلده سنة ٦٠٤هـ فاستقر بأريولة، ثم استدعاه بسببته أبو علي بن خلاص فحظي عنده، ثم توجه إلى إفريقيا وأقام ببجاية. وكانت بينه وبين كتاب عهده مراسلات ومطارحات، وله شعر في المدائح النبوية، توفي سنة ٦١٠هـ.
ترجمته في: نفح الطيب ٤٠٦/٧ وعنوان الدراية ص٣٤٩.

القلب الصحيح، وخلت أن سامعه من خفته جريح، بخطب سمعها، ورويت من أحوال الدارين حققها، أملى على الإمام أبي[١] عبد الله بن الصائغ الأموي من خطبة البديعة، ولطائف أدبه الصنيعة. مما قام به خاطباً في عيد الفطر، وجالباً له من العطر. ما اخترت منه، وكلّه مختار، وجميعُهُ لغذاء القلب ممتار. قوله:

سبحان من عمّنا إنعاماً وإحساناً، واستعمل منا للتسبيح بحمده والتقديس لمجده، قلباً ولساناً، فلا تُعدُّ نِعمه ولا تُحصى، سبحان من عجزت الأفهام، وحارت الأوهام عن بلوغ كنهته تأويلاً ونصّاً، سبحان من نأى عن إدراك التحديد، وهو أقرب من حبل الوريد فما أدنى ولا أقصى، سبحان من تراءى للعقول وغاب عن محسوس العيون، فثبت معقولاً، واستحال شخصاً، سبحان من تعالى كماله، فلا يلحقه النقص، ولا يناله، يأبى الله وصفاته نقصاً، سبحان من جلَّ عن الوصف. واستغنى، لا يثنى عليه بما على نفسه أثنى، سيان اختصروا أو استقصى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[٢] والحمد لله الذي هدانا سبيلاً واضحاً ومنهجاً، وفتح لنا بدين الإسلام باباً من الخير ظلّ مرتجا، وأبطل بحجته البالغة من يروي الملحدين حججاً، وأنار بتوحيده قلوباً طالما اعتسفت الشرك ليلا قد سجا، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، والحمد لله الذي حقق أمل راجيه ما أمّل وارتجى. وخوّلنا نعماً قام اللسان بشكرها لهجا، فارتدَّ حصراً ولم يبلغ من أقصى مبالغها درجا، وعرفنا يسراً ويسرى، ورفع عنّا فيه كلفةً وحرجا، وأقبلنا من الأيام طلق الأسرّة مبهجا، وأباح لنا مواسم وأعياداً /٣٢١/ تروق حسناً وتطيب أرجاً. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾[٣] أحمده والحمد من نعمائه، وأشكره ملء أرضهِ وسمائه. وأؤمن به إيماناً يصدع نورُ يقينه ليل الشباب في محلولك ظلمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يرد الإخلاص مسرعاً، وتمتزج بالروح والضلوع روحاً وأضلعاً، وتصعد إلى أرجاء السماء فلا تلقى لها مصيخاً مستمعاً، فيحظى بفضلها، ويسعد بوسيلتها العظمى مراداً ومرتعاً، وتجد برد حلاوتها ورونق طلاوتها يوم تفارق الروح هذا الدار مودّعاً. وأشهد أن محمداً عبده المبشّر به من ربه ما تمنى، ورسوله المقرب من سدرة منتهاه قاب قوسين أو أدنى، حيث وقف جبريل عليه السلام (.....)[٤] مستكناً، ولسان هيبته

---

(١) في الأصل: أبو.
(٢) سورة الإسراء: ١.
(٣) سورة الكهف: ١.
(٤) كلمة غير مفهومة.

يقرر في حضوره وغيبته، حضرت لفظاً وغيبت معنى، وتباعد الحق يعرب بما تيسر وتسنّى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، ورأته من يسر قلبه بمنى أن نحوي أقرت عينا وشرحت صدرا، لقد رأى من آيات ربه الكبرى، ما زاغ البصر ولا كذب إذناً، صلى الله عليه وعلى آله الذين نالوا بإحسانهم الحسنى، وزيدوا فكانت الزيادةُ أعلى مقاماً وأسنى محلا توسعنا يوم الفزع الأكبر أمنا.

أيها الناس، رحمكم الله. إن الله أضفى عليكم من الإحسان مطارفاً وبروداً. وأفاض لكم من شمس الهداية نورا، وأطلع عليكم من صبح العناية عمودا. وخوّلكم بدين الإسلام نعمةً، فأتت النعم طريفاً وتليدا، دخلت لما تحلت على هذا لحبله ظلاً ممدوداً. وابتعث إليكم رسولا شاهداً عليكم لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا، فلم يزل ﷺ يناديهم ويأخذ بحجزهم وأيديهم، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً. إلى أن وضحت معالم الإسلام رسوماً وحدودا، فتبين الصواب، وشرح الكتاب، وجلا ليل المشكلات بنور بيانه فانجاب وبيّن لنا ما نأتيه ونذره من حظر وإباحة وندب واستحباب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(١) صدق الله ورسوله المجيب المجاب، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢) وحبب الامتثال لأوامره / ٣٢٢/ عليه السلام، وتبين الرشد من الغيّ، فلا إشكال ولا استبهام، ووضّح وضوح الشمس، قوله بني الإسلام على خمس، فتعرّفوا قواعد الإسلام، على أن يوحّد الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج، فاحفظوا رتب هذه الأقسام والتزموا على الإكمال أداءها، وشيدوا بالإخلاص بناءها، إحكاماً لهذا النظام، ونظاماً لهذه الأحكام، وتتلاحق بهذه الشعائر عددا، وتتسابق جياده في هذا المدى، وتتأكد فلا تزال خيله على مرّ الأيام محصداً. جهاد من جعل لله صاحبةً وولدا، سبحانه وتعالى أن يكون إبناً أو يكون أبا، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(٣). وعليكم بالطاعة قولاً وعملا، والنصيحة مفصّلا ومجملا، وبرّ الوالدين وإصلاح ذات البين، والتسوية بين الشريف والمشروف من الخصمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾(٤)، وصلة الأرحام بمكان من الله ومقام، لذلك اشتق اسمها من

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.
(٢) سورة الحشر: ٧.
(٣) سورة الكهف: ٥.
(٤) سورة النساء: ١٣٥.

اسمه فوجب الاحترام، وتتنزل هذا التنزيل، وتتميز من هذا القبيل، برّ الرفيق والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل، وتوفية ما يحتوي عليه مكيالكم وميزانكم، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. وإداء أمانة ما ائتمن والصبر عند امتحان الزمن. وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن. واجتناب التجسّس والغيبة، والكثير من الظن، وإياكم وقتل النفس التي حرم الله في القرآن، والخمر التي سمّاها رجساً من عمل الشيطان، ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وأعظم عدوان، ولا مال اليتيم إلا بما هو أقرب إلى العدوان، والإحسان وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الإيمان، ولا تشهدوا الزور ولا تقولوا ببهتان، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾(١)، وإياكم والربا فإنه يعود عليكم بالخسران، أن يمحق الله الربا ويربي الصدقات والصدقة نماءٌ والربا نقصان.

عباد الله، هذا يوم عظيم، التقت على الرحمة والمغفرة طرفاه، شرّفه الله / ٣٢٣/ بذكره وعرّفه، وعرف بركاته وشكره، فحسبه وكفاه، وأتاه من البشر به والتنويه أشرف حظ ووفّاه، واختص أمة نبيّه محمد ﷺ مختصه ومصطفاه، ختم لكم به شهر الصيام، وجعله أول يوم من أيام الحج، وركن من أيام، وجعله عيداً للمسلمين مجتمعاً ومحلا لقبول من ابتهل إليه ودعاه. ومقرّاً لموفور أجور العاملين ومُستودعاً، فمن كرمه الفضفاض، وإحسانه المفاض، أن جعل لرفع درجاتنا ووضع سيئاتنا أعياداً تروق وجمعاً، فله الحمدُ حمداً يعيد الشره رجاء، ويحيل المحيل ممرعاً. واعلموا أن الله فرض عليكم في هذا اليوم زكاة الفطر تزكية لأبدانكم وأموالكم وتطهيراً، وأوجب إخراجها عند خروجكم إلى مصلاّكم أو في بقيّة يومكم، فلا توسعوها أكثر من ذلك تأخيراً، صاعاً، ممّا تأكلونه برّاً كان أو شعيرا، على كل واحدٍ منكم وممّن تلزمكم نفقته حرّاً كان أو عبداً ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً. فإذا انقلبتم من مصلاكم فارجعوا من غير الطريق الذي منه أتيتم انقلاباً إلى منازلكم ومسيراً، فذلكم كان من فعل نبيكم ﷺ معروفاً شهيراً، واستغفروا الله لذنوبكم واسترحموه جهد ألسنتكم وقلوبكم، فلم يزل غفوراً رحيماً. وسلوه لنبيكم صلاةً دائمةً وسلاماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٢).

ومنهم:

---

(١) سورة الحجرات: ٧. (٢) سورة الأحزاب: ٥٦.

[٢]
أبو عبد الله بن برطلة المرسي[١]

بدر ارتفع بسنائه وسناه، ودوح انتفع بطلّه وجناه، وعالِمٌ أفاد بالتعليم، وأفاء على أهل ذلك الإقليم، وفخرت مرسية به، وذخرت لؤلؤ دموعها نثاراً على خطبه واستغنت بتبصيره المساجد عن سُرجها، وعلت المنابر بطلوعه على درجها، وأمسك بجذوعها فتساقطت رطباً جنياً، ولبس شعارها فطلع بدراً جلياً. وأملأ على الإمام (أبي) عبد الله الصائغ الأموي من خطبته التي بلغ بها الإجادة ما أبرزه في النحر قلادة. وقد اخترت منها قوله:

سبحان من نطق كل شيء بتسبيحه، فأفصح وأعرب عن مكين ضميرهِ بتهليلهِ لله وتكبيره لسان أعجميِّه وفصيحه، فما أبين وأوضح وأحذق وأصح، سبحان من وسع /٣٢٤/ العالم جوده، فاستهلّت بالشكر تهامه ونجودُهُ، فلا ربوة ولا أبطح إلا بثنائه قد انتطق وتوشج. سبحان من نقصت المخلوقات بكماله، وخضعت رقاب (الأشراف)[٢] لعزّ جلالهِ، وافتقر كل حيّ لفيض نوالهِ، واستغنى بسعة فضله وإجماله، فما أكرم واسمح، سبحان العليم بما خفي من أسرار الهواجس ولاح، وغدا بنواظر الخواطر مدركاً وراح، سبحان من أرسل السحاب عنوان رحمته فوق أجنحة الرياح، وسخّر الشمس والقمر كل يجري في مدار فلكه ويسبّح، سبحان من اطلع بكمام الأجساد ثمرات الأرواح، وزيّن السماء الدنيا بزينة الكواكب فراقت في أعين التأمل والالتماح. سبحان الله جاعل الليل سكناً وفالق الأصباح. سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون عصبة وأماناً. فمن أمسى في ظلّ الكلاءة وأصبح، والحمد لله الذي أثبت معرفته في عيون القلوب رسماً وحدّا. وسطرت في ألواح الأرواح وطروس النفوس سور وحدانيته إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا، تبارك اسماً وتعالى جدا، وأبدا ما نظرت إليه البصائر والأبصار فهداها، وكم تحت نعمه من أشتات فوائد، لم ترض لعقيلتها إلاّ كفواً لا شكراً وحمداً، وبحمده ونعمه يتفسحه المجال بشكره حمداً لروية ومجهود الارتحال. ونؤمن به إيماناً سرى يقينه بين الجوانح وجال. ونستسلم إليه الاستسلام الواقف بين يديه وقد وقف موقف الأعيان والأعجال. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة للقلب بها ابتهاج. ولعذبة اللسان اعملاق[٣] والتهاج. كلّما مرّت (.....)[٤] الضلوع. زاد عرام ذكرها وهاج، فلها بطريق التحقيق ابتهاج.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين. ودوحة وحيه التي تتفيأ ظلال بركاتها عن

---

(١) كذا في الأصل، وهو عبد الله بن موسى المرسي، أبو محمد. انظر: نفح الطيب ١/ ٦٠٦ و٢/ ٥١٤.

(٢) الأصل: الاشرا.

(٣) كذا في الأصل، ولم أعرف له وجهاً.

(٤) كلمة في الأصل غير مفهومة.

الشمال واليمين، وعصمته التي أنبتت على الأرض لطائف الحفظ والتأمين، نطقت بصدق دعايته الحجج والبراهين، وشهدت بمعجزة هدايته آية الجذع المنقعر والقمر المستبين، هذا بالانشقاق وذلك بالحنين. ابتعثه الله بشارة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ / ٣٢٥/ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1] صلى الله عليه وعلى آله الذين لاحوا غرة في جبين الحق المبين. وقرة العيون المهج، مهج الدنيا والدين. وسلّم كثيراً. الله أكبر، أيها الناس للأيام شرف تتفاوت فيه بحسب المذاهب والمقاصد، ويتحلى بحليته، فيتجلّى في أبهى المطارف والمجاسد. فمواسم وأعياد، وتعود على الأمم بأجمل الفوائد والعوائد. وللأمم على تباين فكرها أحكام تعلن بسيرها، ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. فإلهكم إلهٌ واحد، جعل الله ما اخترع وأوجد، كل بوحدانيته يقرّ ويشهد، فيا بشرى المقرّ وخيبة الجاحد. فاشكروا الله يا ولد إسماعيل على ما خصّكم به من شرف هذا الوالد، وبوّأكم من ذلك ما لمقام الذي يتسابق بمداه جباه الراكع والساجد، جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، فلقد آثركم الله في هذا اليوم وحباكم حين فدي فيه من الذبح أباكم، وقد استسلم لموقع القدر استلام المطاوع المتباعد، واذكروا موقفه وأبوه إبراهيم يقصّ عليه من رؤياه خبراً، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾[2] فيا رحمةً لما ضمّ ذلكم الموقف من وجد ومتواجد، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾[3] وأخذ شفرته باليمين، نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فلا مفقود ولا فاقد، فما أتيته، ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾. كوني برداً وسلاماً على إبراهم، بما تلاقي المحنة والمنّة تماثل الماجد بالماجد، الله أكبر، عباد الله، هذا يوم عيدكم الأكبر، ومثابة ثوابكم المدّخر، ومحل استنزال المعرفة بما عرف تمسه عرفات من مزايا متسعة، واثروا لوفود مني بمنى والسّعي إلى المشعر، حيث قام خطيب الملّة فنهى وأمر، وندب وأوجب وأباح وحظر، وبيّن لنا ما يأتيه من مصالح ديننا ودنيانا ونذر، تباً لمن بدّل أو غيّر، وكذب فلا صدق ولا صلّى ولا حجّ ولا اعتمر، فعليكم بإقامة خمسٍ بُني الإسلام عليها، وأسرعت أنواع الشريعة إليها، وقامت الحجة على من حجد وكفر، شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإيتاء الزكاة / ٣٢٦/ وصوم رمضان والحج صدق المخبر، صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، وصحّ الخبر الله أكبر.

* * *

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.
(٢) سورة الصافات: ١٠٢.
(٣) سورة الصافات: ١٠٣.

[خطبــاء مصــــر]

وأما من بمصــر من الخطباء الفصاح، الأطباء للقلوب المرضى الصحاح، فقد كان في المتأخرين منهم من لم تحط مواعظهم مواضعها، ولا حلّت كلمتهم من الفصاحة جوامعها، بما هو أنفذ في القلوب من الرماح، وأنقى للسنة من الصباح، تتصرف كما لعب النسيم بشمائل السكران، وتلطف كما أمضى الشفيق إلى تنبيه الوسنان، وسأذكر منهم من لم ينم في مرقد الخمول ولا قعد، وقد تقدمت أوائل الحمول، بل تسلم للصلوات زماماً، وتقدم في المحراب إمام، وتكلّم على رؤوس الأشهاد، بما قدر. وإن تكلّموا، أو أمَّ بالناس فصلّو خلفه وسلّموا.

ومنهم:

[١]

تقي الدين أبو الخير صالح[(١)]

خطيب قوص، المصيب فكره فيما يغوص، كانت تشدّ إليه الركائب الخوص، وتعقد به النواظر كأنها الحوص، وتأخذ منه القلوب بحظّ غير منقوص، ونصح عام غير مخصوص، قائل مكثار، وقابل أن يسلم جواده من عثار. كان كما نعت وسمّى، تقياً صالحاً. إذا خطب خلته في أفق المنبر بدراً لائحاً، وخطبه ذات خطب عظيم، وحب لثمرات طلعها هضيم، لا عيب فيها إلاّ أن عصرها لم يتقدم قليلاً، وينسب إلى من تقدم قيلا، سمعت منها ما ملأ أذني، وملء قراعه اليلرني[(٢)]، مما سار سائرها، فطار طائرها، ودارت في الأفلاك المحاريب دوائرها.

ومنه قوله:

فيا سالكاً غير سواء السبيل، وهالكاً وقد وضح شفاء الغليل، تاركاً للتزوّد وهو

---

(١) صالح بن الحسين بن طلحة بن الحسين بن محمد، القاضي، تقي الدين. أبو التقي، الهاشمي الجعفري الوينبي، ولد سنة ٥٨١هـ، وسمع، وحدّث، وولى قضاء قوص، وكان أديباً فقيهاً له خطب ونظم ونثر وتصانيف. توفي سنة ٦٦٨هـ. انظر: الوافي بالوفيات ١٦/٢٥٦، وتاريخ الإسلام للذهبي وذيل مرآة الزمان ٢/٤٣٨.

(٢) كذا في الأصل.

يرحل عن قليل. إلى كم تقاتل الحقوق بالعقوق، وتعامل الخالق بدون معاملة المخلوق؟ أجعلت ربك أهون الناظرين، أظننته أصعب الحاضرين، حاشاه حاشاه. بل من سواه ترجوه وتخشاه، فاتق الله وخف شدّة بطشه، وارهب غضباً لا يحمل عسرةُ حمله حملة عرشه. وعظّم الله تعظيماً بجلاله، وقدّم حقّه تقديماً يقيم بشكر نواله، وكن من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وإذا جنّ عليهم الليل تتجافى جنوبهم، وابذل من الطاعة ما في وسعك من الاستطاعة / ٣٢٧/ وصابر القناعة، فالشجاعة صبر ساعة، واذكر ما ستقدم عليه، وادّخر لآخرتك ما أنت فقير إليه، وكن من ربّك على وجل، وعاجل الأجل، بقطع العلق والعلل. وعاقب الأمل الكاذب بصادق العمل، واسع لنفسك، ودع عسى فسوف ولعلّ، وبادر غروب شمسك، فقد جنحت إلى الطفل، ومهّد لرمسك فكأنك بساكن الجسد وقد رحل، وكأنك بما كان لم يكن وبما نزل لم يزل.

ومنه قوله:

مما اغتباطك بدنيا ذات معائب، قد أشابت الأكباد والذوائب، بكثرة الشوائب، فحطمت الممالك والدول، وطحطحت الأواخر الأول، ونكست الرايات والبنود، وكنست الجموع والجنود، هزمت الخميس والعرمرم، وحرمت الخميس والمعظم، فاستبدلوا بالمهود والهمود، وتعرضوا بالودود الدود، وتصمخ الصنديد بالصديد، وتعفر الصيب البعيد في الصعيد، فصرف الله عن مدافعة المنون يد قصير وكسر كسرى، ولم ينحر وينصر، وأسرت الأساورة، ومن يفك أسيرها بعد أن يؤسر، وتتبعت التبابعة فأتت على البغاث ومن استبشر، أسكنت الإسكندر من الردى داراً. وأدارت دائرة الحمام قبله على دارا[(١)]، وجردت من الممالك يزردجر والأثيم[(٢)]، وجرعت سابور ذا الأكتاف[(٣)] السم الزعاف الأليم، وأطافت طائف الحمام على ملوك الطوائف، وابتزّت من بني الأهرام التليد والطارف، فأي عزّ ما هدمته، وأي حرز ما هدمته، وأي دمع ما رقرقته، وأي جمع ما فرقته، وأي بعل ما فركته، وأي دم ما سفكته، وكأن قد فركتك كفركهم، وتركتك كتركهم. ونظّمتك في سلكهم، وأسلمتك إلى هلكهم، واضجعتك في بعض تلك البطاح متوسعاً أعمالك القباح.

---

(١) يريد به الملك الفارسي دارا بن دار، قتله الإسكندر (انظر سني ملوك الأرض والأنبياء ص٣٨).

(٢) يريد به بزدجرد بن بهرام الاثيم، ويقال له المجرم والفظ أيضاً، انظر سني ملوك الأرض ص٤٩.

(٣) سابور أوشابور: أسماه العرب ذا الأكتاف لأنه لما غزا العرب كان ينقب أكتافهم، (انظر سني ملوك الأرض ص٤٧).

ومنه قوله:

ابن آدم، إلى كم تجلو على الملك قبائح ذنوبك، وتخلو مع ربك بعملك الفاضح وحوبك، ويحلو في صردك ما سيحول بينك وبين مرغوبك، وتضحك ملء فيك. ولو عقلت، لا سكت خامد غروبك، فاستحي من الرقيب العتيد، فهو عليك شهيد، وخف مقامك بين يدي الرب المجيد، فليس عنه محيد. وقدّم الزاد /٣٢٨/ للسفر البعيد، قبل طلوع الوعيد. أو ما رأيت المأخوذ على الاغترار. المنبوذ عن القرار المجذوذ بعد الأعوان والأنصار، المحقق وكان عدل الأسماع والأبصار، بينما هو يخوض في البطالة، ويلعب ويروض نفسه في الجهالة، فيجيء ويذهب، مشغول بالعاجلة، مشغوف مكفول على الآجلة، مكفوف إذا علقته شباة الشتات وقلعته وثبات المنون بعد البيات، وطلّقته الحياة طلاق البتات، وتعذّر استدراكه بالوفاة وفات، فغسل، وأنى يطهر من نجّسته الذنوب، وطيّب ومتى يطيب من أخبثته العيوب، وامتطى مركباً راكبه لا يؤوب، وصاحبه غير مصحوب، يعيله الأعناق الرفاق إلى مجمع الفراق، شؤون المآق إلى مقرّ الإملاق، فرجع أهله وماله، ويضطجع مع أعماله، فيا له مرتمساً في ظلمات أرماسه، منغمساً في ورطات إفلاسه، مختلساً من خاصته وباسه، فريداً لا يراد، وحيداً لا يعاد، رهين الألحاد إلى المعاد، قد باشر ما كان متوقع، وعاشر الهوام في اللحد البلقع، فأين ما مهدت لعرصة صرعتك، أين ما أعددت لجرعة رجعتك إلى ما يسعك بحرقتك عن حفرتك. إلى متى تخدع ربيبك عن ربك، هلا أخذت من رغبتك لغربتك؟ أما يصدعك خوف الحمام؟ أما يرعك صرف الأيام.

ومنهم:

[٢]

قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو العباس، أحمد بن المنير الإسكندري[(١)]

قاضي الإسكندرية وخطيبها، وفقيهها الفاضل وأديبها، المفتق الكلام والمشقق به

---

(١) أحمد بن محمد بن منصور بن القاسم بن مختار، القاضي، ناصر الدين ابن المنيّر الجذامي الجروي الإسكندراني، ولد سنة ٦٢٠هـ، من العلماء المحدثين الفقهاء، الأدباء ولي قضاء الإسكندرية وخطابتها، ودرس بعدة مدارس، وصنف كتباً. وله ديوان خطب و«تفسير حديث الأسراء» على طريقة المتكلمين، توفي سنة ٦٨٣هـ.
انظر: الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٨، وفوات الوفيات ١/ ١٣٢ والديباج ٧١، وشذرات الذهب ٥/ ٣٨١ وعيون التواريخ ٢١/ ٣٤٨ وذيل مرآة الزمان ٤/ ٢٠٦ ودول الإسلام ٢/ ١٤١ ومرآة الجنان ٤/ ١٩٨ ابن الفرات ٨/ ١٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٦١ وبغية الوعاة ١/ ٣٨٤.

ألسنةُ الأقلام. افترَّ ذلك الثغر عن درة النسيب. واغتر من شبهه بثغر الحبيب، جرى هو والبحر في طلق، وسرى هو والسحاب لما انطلق، واكتمل كالبدر واتسق، واشتمل بملاءة الفجر وجاءا في نَسَق، وكان مكثراً مجيداً مؤثراً الآن لا يزال يحلّى مسمعاً وجيدا، بخاطر اجمع للمعاني من المشكاة للأنوار، وأجود بالكلام من الغمامة بالأمطار. وألف كتاب المقتفى، تبع فيه الشفاء للقاضي عياض[١]. كأنما يسرح منه في أرض رياض، نحا فيه منحى غريباً، ووجد برسول الله ﷺ فيه نصراً وفتحاً قريباً، بناه على ذكر المعراج /٣٢٩/ وحيث صعد وعاج، وذكر مناسبات بين حاله وأحوال الأنبياء الذين لقيهم في كل سماء، قارب في جميعها المعنى، وناسب في تنويعها واستدنى، أبدع في هذا الكتاب وأبعد، عرض فكره وأصاب، ولم يخله من عبارات أعارها النحل مجاجها، وأدنت لها البيداء الفسيحة فجاجها، وأطلعت في مشارق الأفهام صباحها، وأترعت في شوارق المدام أقداحها. وأتى في ديوان خطبه بما شهد له بالاقتدار على الإبداع، والابتدار إلى أشرف ما يحل الأسماع، إذن بفضل جم، وعلم جلّ أن يقاس بغمامٍ أو يماثل بيم، ومع هذه الفضائل التي جذبت بضبعه، وجلبت فرائد البدر إلى جمعه. رمي بنكبة[٢] لبس أطمارها، ولسب مقبله منها عقرب لم يكن يتوقع صرارها، وهي منهج الدهر العثور، وصرعة الكرم التي لا تثور، ومن لمح خطبه ولمح أدبه قوله:

الحمد لله، ثم الحمد لله قاطع الأعمار بخناجر الأهلّة، ملْق الليل على النهار لا حسار[٣] لا بالعلّة، مقيم الأدلّة بالأهلّة، عن أن الدنيا مضمحلّة، أكرمك يا ابن آدم فاشكر نعمه الجزلة، فليل ربع الملك مثل المظلّة، لا يطيب مده ولا عمد أهله، رصعه بالكواكب ليعلم عدد السنين والحساب تفصيلاً وجملة، فسبحان من فصل بين الأنام فجعل شهراً وشهراً كالفصلة، شهره الذي عظمه وأجلّه، فحرمتهُ في الجاهلية والإسلام غير مستحلة. أحمده ومحامده من بدائعه مستملّة، وأشكره ونعمه على الشاكرين

---

(١) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، عالم المغرب وإمام الحديث في وقته، ولي قضاء سبتة وغرناطة، له «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وإليه أشار المؤلف، مات سنة ٥٤٤هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣ وقلائد العقيان ٢٢٢.

(٢) وهي هجوم جماعة على داره سنة ٦٨٠هـ ومعهم قناني خمر، ووضعوها في داره. وادعوا أنهم وجدوها عنده، فأخذوا منه أكثر مناصبه، وبعد ذلك توجه إلى القاهرة، وسعى في الذين سعوا به إلى الأمير علم الدين الشجاعي وإلى السلطان الملك المنصور، ونال من بعضهم غرضه، وأعيدت إليه ولاياته.
انظر: عيون التواريخ ٢١/ ٣٤٩.

(٣) كذا في الأصل، ولم أعرف لها وجهاً.

مستهلة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدفع بها كيد الشيطان وحله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ختم رسله. وأوضح به سبله، جمع له بين المحبة والجلة، وبشر به على لسان كل نبي قبله، حتى جاء محمد، خير نبي لخير أمةٍ بخير ملّة، بالدين المتين وبالحنيفيّة السهلة، صلى الله عليه وعلى الصديق الذي لم يخلف بعده مثله. وعلى الفاروق الذي هاب الشيطان ظلّه، وعلى شهيد الدار الذي بذل نفسه بالله وما استخار القتال ولا استحلّه، وعلى الفارس الصبار الذي لم تكن الدنيا شغله، تعرّضت له فما علقها بل طلقها بتة بتلة، وعلى سائر آله وأصحابه السادة القادة العظماء الجلّة، / ٣٣٠/ صلاة يجدها إليه وسيلةً ووصله، عجباً لابن آدم هو الغافل وهو الأبله، فعقل ولكن تغلب على عقله عُقله، يغلق الباب ويسبل الحجاب ويسدل الكلّ، يستخفي عن الناس، ولا يستخفي عن الله، هذا وهو الذي يحصى عليه كله، يقتحم الذنب اليوم ويستخفّ كلّه، وليجدنَّ غداً إذا حملهُ على ظهرهِ ثقله، ليت شعري ما الذي دلّه؟ أدلَّهُ حتى ضيّع ثمره كله أو جلّه، أيحسبُ أنّه إذا سأل الرجعة أوتي سؤاله، كلاّ لا عود إلى الدنيا بعد النقلة، إنما هي أمنية عونه ورأي ضلّه، كم موسم الطاعة حلّ فما أكرم محلّه، لا استقام على طاعة، ولا استقال من زلّة. هذا شهر الله الأحب قد أظلّه. طيفاً كريماً فأين من ينشد عنده قلباً أظلّه، سحقاً لمن فقد قلبه مما وجد بكله ولا أحسن مثله، ولا جادت له عليه مقلة، ولا طلب من الله أن يجمع به شمله، يُحضر شخصه وقلبه في عزلة، قد فتح الدنيا قوله وفعله، فهو منها في شُغلٍ ومن الآخرةِ في عطلة، إن عرضت الطاعة أطال مطله، وإن لاحت الشهوة عصى من أوّل وهلة، المصيبة في الدنيا عليه عظيمة، والمصيبةُ في الدين سهلة، تعلله المواعظ بعلّة، ولعل ما يشفي من علّة ما كان هذا المرض الذي عرض يرجى منه بلّة، إن رجيناه أنكل. وإن مطلناه هلك. لا قوة إلا بالله، فيا موثق نفسه خلّصها من هذه الحبلة، ذكرها بوشيك الرحلة إلى يوم الحجلة، ومقام الذلّة، بين يدي الله، يوم تنظر الخلائق فضله، يوم ينادي الحقّ ما أعظمه وأجلّه، إن جارى ظلم ظالم فإنا الظالم حاشا لله أن يجوز ظلم الظالمين عدله، فكم يومئذٍ من سعيدٍ أكرم نزله. وكم من شقيّ ألزم عنقه غلّه.

ومنه قوله:

عجب لابن آدم، وأيّ شأنه ليس بالعجب، يبصر لا محاله والصواب عنه قد احتجب، ويسهو بطيء الإقامة وقد أدركه الطلب، ويلهو مع الساقة والموت في المقدمة قد أخذ وسلب، أخذ والله فكم غصص أفنى فما أدركه الطلب فما استثنى ولا خصّص. رنق كأس العيش ونغّص. فما رجا منه منجاً ولا مخلص، ما حلّ والعدد وافى إلا نقّص،

وما أظلّ والظلّ وارف إلا قلّص، ولا بعث بجندهِ طليعة إلاّ أشخص، ولا جاء بجدّه إلا جاء / ٣٣١/ الحق وحصحص، لا يدفع بالجحافل، ولا يعبأ بالمحافل، إذا بت الأصل ونبت الوصل، فعمي البصير، وانخذل النصير، وحاز القويّ وحار المشير، وأديل التاج، وأزيل السرير، ألا وأنه من مات فات، ومن بقي فما بقي للخلود ولكن للممات.

ومنه قوله، ويذكر وداع رجب:

أيها الناس، إنه ليس للمرء وراء الله مذهب، ولا للعبد من قضاء الله مهرب، ولا الدنيا تحب، يأسى عليها اللبيب المهذّب، فالسعيد من زود من دنياه لآخرته، وقدّم خيراً يجده في حافرته. فمن قدّم خيراً فله يلقى، ومن يوقّ شحَّ نفسه فيا عظم ما توقى، والناس على المفقود أحصل منهم على الموجود، لأن الذي يذهب هو الذي يبقى، فهل منكم عباد الله منبعثٌ للإجابة، مكترثٌ بالإنابة، وافدٌ على الكريم، فإن الكريم قد فتح بابه. لما أمطرتم بالتوبة رجباً، فقد مضى رجب إلا صابه، فرحم الله امرءاً كانت أواخرهُ خيراً من الأوائل، فاغتنموا من شهره هذه الأيام القلائل يودعها ويودعها خيراً هو إليه آيل. فربما أتاه الأجل قبل أن يأتي رجب القابل.

ومنه قوله، ويذكر شهر شعبان:

وللمعاملة مواسم، وأربحها وأنجحها شهركم هذا شعبان، شهر تتشعب فيه البركات وتتفتق على أفنان، شهرٌ كريم بين شهرين كريمين، الشهر الحرام وشهر رمضان، شهر رسول الله ﷺ، كان منه بمكان، وها هو قد نزل بكم ضيفاً فأكرموه إن عرفتم حقَّ الضيفان، فكأنكم به وقد مضى عن قوم بالسخط كما مضى عن قوم بالرضا، كما مضى غيرهُ من الزمان.

ومنه قوله:

يا عجباً لابن آدم، بكفّيه الأجل وهو آمن، ويحرك له الأمل وهو ساكن، يهمل آخرته كأنه يعيش أبداً، ويكدح لدنياه، كأنه لا يموت غداً، يسيغُ مشرب الدنيا، وكلّه غصص، ويستلذّ عيشاً وجلّه نَغَص، كلّما كبر كثر زللّه وكلّما شاب شبَّ أمله، لو تأمّل تألّم، ولو عدّ كلامه من عمله ما تكلّم، يذنب ويعصي والملك يكتب ويحصي، يؤخذ بحجزته عن النار وهو يقتحمها، ويفتح له أبواب الجنة في هذه الأشهر الشريفة فلا يغتنمها.

ومنه قوله:

/ ٣٣٢/ أيها الناس، قصُر سعي من كانت خُطاه معدودة، وخسر رأي من اتخذ هواه معبوده، وذاك ناصر من كانت الأيام جنوده، وقلّ حاصل من كانت الحطام

موجودة. هي الدنيا، فاستحقروا منها ما كثر، واستصغروا منها ما كبر، وجانبوها فقد عرفتم سوء الصحبة، وأرصدت لكم المنايا، فراقبوها فإنها لكم على أُهبة، فبينا أحدكم يرفل في اغتنام لذّته ويغفل عن الحمام وأخذته، يخطر في سرباله ولا يخطر الموت بباله، إذ نبا بجنبه مضجعه، ودنا إلى ربّه مرجعه، ففتَّ الوجع في أعضاده، (وشتت) الأجل شمل وداده، يطلب النوم فلا يجده، ويندب اليوم ما يسفر عنه غده، قد ألقى إلى التهلكة بيده، واستلقى منتظراً انتزاع روحه من جسده، واضعاً راحته فوق صدره وكبده، ضارعاً لفراقه من أهله وولده، هذا عباد الله آخر الدنيا فاجعلوه أوّلها، وهذه النصيحة المحضة فرحم الله من نقلها.

ومنهم:

[٣]

قاضي القضاة[١] تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن خلف[٢] العلامي[٣]

ذو المنصبين، الوزارة والقضاء، والقلمين التوقيع بالأرزاق والتسجيل بالإمضاء، من بيت مشمخرٌ بناؤهُ، مستمر في الأنباء سناؤه، ومني من ابن السعلوس[٤] وزير الدولة الأشرفية بعدوّ لا تخبو له نار، ولا ينبو لسيفه غرار، نصب له العاثور، وعصب فضله المأثور، وصبّ عليه مصائب آلم من وقع السياط، وألجأه إلى أمور أضيق من سم الخياط. ولزمه من مكابدة بطوق ماله من براح، ووثاق ماله منه سراح، لأمورٍ قدّرها له

---

(١) المعروف بابن بنت الأعزّ. فقيه، إمام، أديب، من الخطباء الشعراء الفصحاء ولي الوزارة مع القضاء، وتوفي كهلاً سنة ٦٩٥هـ.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٨/ ١٧٩ وفوات الوفيات ٢/ ٢٧٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٧٢ والبداية والنهاية ١٣/ ٣٤٦ والسلوك ١/ ٣ ورفع الإصر عن قضاة مصر ١/ ٣٢٧ والنجوم الزاهرة ٨/ ٨٢ وعيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٨) من ٢٠١ والمنهل الصافي ٢/ ٢٩٤ وحسن المحاضرة ١/ ٤١٥ وشذرات الذهب ٥/ ٤٣١، وتاريخ الإسلام وفيات ٦٩٥هـ. ودول الإسلام ٢/ ١٥١ وتتمة المختصر ٢/ ٣٤٥ وتذكرة النبيه ١/ ١٨٦.

(٢) كذلك في سائر المصادر عدا الفوات إذ ورد فيه: خليفة.

(٣) العلامي، نسبة إلى علامة بالفتح والتخفيف، قبيلة من لخم.

(٤) شمس الدين ابن السعلوس محمد بن عثمان بن أبي الرجال وزير الملك الأشرف. أمسكه الشجاعي بعد قتل الملك الأشرف سنة ٦٩٣هـ، فصادره واستصفى أمواله، ولم يزل تحت العقوبة إلى أن مات. انظر: عيون التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٨) ص١٥١ والبداية والنهاية ١٣/ ٣٣٨.

ولبسها، وقرّرها بكذبه عليه ولبسها، وهوّل بها حتى صيّرها عظائم جساما وصورها بتخييله عليه مواثل أجساما، وأعانه على تحمّل وزره قومٌ من شهود الزور، وجحود الحق المبرور، ثم آلت ضائقته التي مني بها إلى الفرج، وآبقته التي رُمي بكذبها إلى ما أثم فيه عليه ولا حرج، وانقطع في تربه بالقرافة لا يسعه مجلس، ولا يدعيه عائد فكره كأنه موسوس، وحجّ تلك السنة، فلما أتى المدينة الشريفة زائراً، ووجد لديه تلك انحنى ثائراً، ووقف تجاه تلك /٣٣٣/ الحجرة الشريفة باكياً، وبفيض المدامع شاكياً، واستعدى حامي ذلك الحمى، وانتسب بالعلم إلى ساكنه وانتمى، وعزت العبرات في ثرى تلك الحجرات، عما لقي من نوب النوائب، وبلي به من المصائب، ولاذ بذلك الجناب الشريف متظلّماً، وبثّ سلواه متألّماً، وقام بقصيدة تضمنت مقاصده، وضمنت ما كان قاصده، فوالله ما عاد حتى بلغ المراد، وما أبدى ولا أعاد، وقتل الوزير ومن وزّره، وبطل ما كان افترى عليه وزوّره، ووصل هذا المستجير إلى وطنه سالماً، وإلى منصب الحكم العزيز ومات حاكماً.

ومن خطبه التي أينعت بها أعواد المنابر وأورقت، وأضاءت في المسامع وأشرقت، قوله:

ابن آدم، أفق لانقضاء مدتك، فما بقي إلا القليل، وأرق عليها دماء مقلتك، فإن الدموع لا تشفي الغليل. وابق ما بقي من يعينك على الأسف فيما سلف والحزن الطويل، وحقّق في نفسك وطويتك إنك في الدنيا كعابر سبيل، واشفق على نفسك من حلول منيتك وما تأهّبت إلا وتزوّدت للرحيل، والصق خدّك بالتراب لأجل خطيئتك كما يفعل الخاضع الذليل، وأخلق بك باكياً على بليتك، ومن أحقّ منك بالبكاء والعويل. وثق بأنك إن صدقت الله في سريرتك أعانك وأغاثك بكرمه الجزيل، فمزّق أثواب لهوك وغفلتك رداء عفوه الجميل، وصدّق بعقوبتك ومثوبتك لتقف مع التحريم والتحليل، وحدّق بعين قلبك وبصيرتك لتعتبر بمن عبر من الأمم جيلاً بعد جيل. أما أدرك الموت من سلف قبلك من القرون؟ أما هلك به المتقدمون وتبعهم المتأخرون؟ أما فتك ونكب وسلب وانتهب كل نفيس مصون؟ وهل ترك، وتبعهم المتأخرون من هلك فسيح البلاد ومنيع الحصون، أما سلك بهم بعد العزّ العظيم سبيل الصغار والهون؟ فكم لكم فيهم من عبرةٍ! ولكن لا تعتبرون، ومن عبره لو أنكم في مصيرهم تتفكرون، ومن حسرةٍ لو أنكم تتأملون وتتدبرون.

ومن قوله:

ابن آدم، ركبت إلى الأمل خؤون يخدع، وسكنت لامتداد الأجل وما أقرب طبه

وأسرع، /٣٣٤/ وفتنت بطول المهل، وإن حبال المهل ستقطع، واستعنت بستر ذيل المنسدل على قبيح ما تصنع، ومكنت نفسك من الزلل وقد كنت عليها أجمع، وأمنت من الحادث الجلل، فما تخاف ولا تتوقع، فلو أيقنت بجزاء العمل لما عدلت عما ينفع، ولو استبنت حقيقة الوجل لكان يزجرك ويردع. لقد وعظك خطيب الأنام فما وجدك تفهم ولا تسمع، وأيقظك منبه الحمام، وكلّما أيقظك تهجع، واستحفظك ربك حقوق الإسلام وها هي تهمل وتضيع، فأنت تغفل وتجهل وتلعب وترتع، وتقدم على ما لا تعلم ولا تتألم ولا تتوجّع، غداً تغلب عن استدراك ما إليه تدفع، وتحجب عن صلاح شأنك وتمنع، غداً تقلّب على فراش الضنى وتقعد وتضجع، وترغب في شفائك وتتحسّر وتتفجّع، وتطلب دوائك لو نفع وأنجع، غداً تسكب دمعك على نفسك وتهجع، وعلى أهلك وولدك وأطفالك اليتامى الرضّع، غداً تندب وتُندب وتودِّع وتودَّع، وتقرب منيتك وينقطع منك كلّ مطمع، غداً يضطرب قلبك الحزين وتتضعضع، وتجذب روحك من بدنك وتخرج وتنزع، غداً يسل كل ما تحوي وتجمع، ويذهب بك إلى بيداء بلقع، ولا تصحب سوى الكفن ولا تتبع، غدا ترهب إذا طلع صبحك وشعشع، وتعجب إذا أبصرت هول ذلك المطلع. غداً يصعب عليك المال والمصرع، ويرعب له قلبك ويتصدّع، ويتلهف بنار الأسف وتحزن وتجزع، إذا عظم خطبك الشنيع وأفضع.

ومنه قوله:

ابن آدم، كيف لا تُبادر إلى رضى ربك وتثابر؟ وتحاذر عقوبة ذنبك العابر؟ أتنكر قدرته على العبيد فأنت تجحد وتكابر؟ أم تصبر على عذابه الشديد ما أنت على التعذيب بصابر، أم يخطر لك أن العمر مديد، ما هي إلاّ سبيل أنت بها عابر، أم تقدّر أن الموت بعيد، كأنك ما ترحل إلى المقابر، أين أرباب الدفاتر والمحابر، أين صوّام الهواجر، أين قوّام الدياجر؟ أين الخائف من الزاجر إذا زاغ الخائف الفاجر، أين من يعامل ربّه ويُتاجر؟ ويواصل لأجله ويهاجر؟ أين الحامد والشاكر؟ أين العابد والذاكر؟ أين العارف والناكر؟ أين الناصر والماكر؟ أين الرابح والمناكر؟ /٣٣٥/ أين الجيوش والعساكر؟ أين بحر العلم الزاخر؟ أين المباهي والمفاخر؟ أين الأول والآخر؟ فتك والله فيهم صرف دهرهم الغادر، وسفك الجمع بسيف حتفه الباتر، وأوردهم موارد أن بعدها مصادر. فأسهدهم مشاهد ما خطرت لهم بخاطر، وأبعد عنهم المقاصد وأعدمهم المعاضد والمناصر، هو الذي يصنع بهم من الفجائع في الحال الظاهر، ويسمعه الآن أذن السامع وينظره الناظر، ومن وراء ذلك اليوم الذي يسمعون فيه صبحه الصابح، ويجمعون من كل

مكان بعيدٍ ونازح، ويرجعون من تحت التراب والصفائح، إلى النوائب والمصائب والفوادح، وتصدعون من الندم على فوات العمل الصالح، ويقطعون من الأمل على ما فعلوا من القبائح، فكم حسرات بين تلك الجوانح، وعبرات على الخدود سوافح، وزفرات على مخالفة الشقيق الناصح، واعجباً كيف تذهل عن الطريق الواضح، واحسرتا كيف تجهل وعلم الهداية لائح، هل هذا مرض عرض للقرائح؟ أم هذا عرضٌ غلب على العقل الواضح؟ لمثل هذا يندب النادب وينوح النائح.

وقوله:

أيها الناس، من بعد من جناب ربّه الكريم فما الذي يرضى به عوضا؟ ومن قعد عن طريقه المستقيم بماذا يلتمس الرضا؟ ومن اعتقد نار الجحيم وجنّة النعيم كيف يكون عنها معرضا؟ ومن جحد ذلك اليوم العظيم سيعرف إذا ذهب العمر وانقضى، ومن عبد هوى نفسه الذميم لم يترك له حظاً ولا عرضا، ومن سوّد كتاب عمله في الزمن القديم لم لا تجعله التوبة منتضى؟ ومن انتقد عمله الزائف السقيم كيف لا يصبح كئيباً حرضا؟ ومن سعد تبع أمر الحكيم العليم فما طلب واقتضى، ومن اجتهد فإن الله غفور رحيم يستر الزلل ويغفر ما مضى، وكيف لا يعجل من لا يثق بالبقاء إلى غده؟ ولماذا يهمل من لا يأمن أن يعجز عن إربه ومقصده؟ فلعله ينزل به ما لايخطر بخاطره ولا يمرّ بخلده، ولا يمهل فيعمل على إصلاح آخرته وتمهيد مرقده، أيجهل أنه يشغل عن نفسه وولده، ويفصل من أمله كما تفصل روحه من جسده، ويسأل فلا يقبل ولا يؤجل عند انقضاء أمده، وينقل فقيراً من حوله / ٣٣٦/ وقوته وصبره وجلده، هنالك يهلك المتحسّر على ما فرّط في حق المولى. ولا يستدرك المقصر ولا يملك قولاً ولا فعلاً، ولا يدرك إلاّ السابق المشمّر لما هو به أولى، فهنالك كم من عبرةٍ ترقرقت لا يُرحم باكيها، وزفرة قد أقلعت لا ينظر لشاكيها، وغمرة قد أحدقت بأقاصي الخليقة وأدانيها، وسكرة قد أطبقت تكابدها النفوس وتعانيها، وحسرة قد تحققت في القيامة على ما فرطنا فيها، وفكرة قد استقرت في أمورٍ لا يمكن تلافيها، وجمرة قد أحرقت من قربٍ أو بعدٍ نواحيها.

وقوله:

يوم يقف بين يدي الله حزناً أسفاً، ويعترف بما كتب له مقترفاً وينصرف فيمن ذلّ وضلّ وهفا، وينحرف إلى نار الجحيم، وساءت منصرفا، فأحجم عما يكون متخوفاً، واعزم على الطاعة لا متردداً ولا متوقفاً، واغتنم إمكان العبادة لا مفرطاً ولا مسوفاً، والتزم صدق الإنابة فكانت له مألفا، ورحمنا أجمعين مفضلاً متعطفاً، ووهبنا كما وهب عباده الصالحين رفعةً وشرفا.

وقوله من أخرى:

ابن آدم، كيف لا تأنف لنفسك أيها اللبيب من مواقف الملام والتثريب؟ وكيف لا تتصرف بأريك المصيب لتخلص من الخطب العصيب؟ وعلام تقترف ما تحرم به وتجنب وتنحرف عن مراقبة العليم الرقيب؟ ولم تنصرف عن الكرامة والتقريب بأسباب الإهانة والتعذيب؟ متى تنصف وتزدجر وتنيب، وتأخذ من الآخرة بحظ ونصيب؟ أما تعرف ذلك اليوم المهيب إذ الوليد يهرم ويشيب؟

ومنهم:

[٤]

القاضي جمال الدين الغزاوي

مصرف حكم وقضاء، ومشرف إيقافٍ وإمضاء، يرقى في درج الفقهاء مصعداً، ودنا من منهج الانتهاء مصعدا. وأهله من غزة مولد الإمام الشافعي الذي به ولد وعذُب منه منهله وورد، وكان قد كتب الحكم ووفّى الشروط، وتدفّق منه بحر ممتد الشطوط، وخطب ببعض الجوامع وخلب كلَّ المسامع، وأعاد العيدان أغصانا، والأعلام خرصانا، ما علق بالقلوب أرسانا، وأعلم أن للمنابر فرسانا، وولي الأوقاف فأصبحت جارية على المنهج القويم، والمبهج القديم، وله فضائل مسح جناحها وأراشها، /٣٣٧/ وسفح ثجاجها ورشاشها، فعذب مصوبة، ربوة فضل ذات قرار ومعين، وليالٍ مثل نهارٍ مبين.

ومن كلامه قوله:

لم يضرب الأمثال إلا لتفكروا، ولم يفسح لكم في الآجال إلاّ لتذكروا. تنفقون الأعمال في اللهو واللعب، وتثقون بالمنى، وأكثرها بل كلّها زور وكذب، لم يبق إلا أن يدهم الأجل، ويأتي وعد الله على عجل، أفتطمعون أن تسالمكم الأيام، أم تأمنون هجوم الحمام، كلا والله إن النفس لمعدود، وإن الأجل لمحدود، وإن أمامكم العقبة الكؤود، ووراءكم اليوم الموعود، هنالك الوجوه بيضٌ وسود، والحاكم الله والملائكة الشهود، والجنة والنار دارا جزاءٍ وخلود، فبادروا قبل أن تصيبكم سهام الأعراض وتنشب فيكم مخالب الأمراض.

وقوله من أخرى:

وأسفاً عليك أيها المسكين، ما أغفلك أتتقاعد عن طاعة الله ما أمهنك وأكسلك، وتُسرع إلى المعاصي ما أعظم جرأتك وما أعجلك! أكفرت بالذي خلقك فسوّاك فعدلك، أم ظننت أن الذي أوجدك أهملك، أم عرفت أنه لا يعرف زللك؟،

كلاوالله، بل له عن يمينك ملك، وعن شمالك ملك، يتلقيان عنك قولك وعملك، وهو تعالى مطلع على قلبك، عالمٌ بما يخطر لك، حاضرٌ معك، أينما كنت، خبيرٌ بما فيه استعملك، فكيف لا تقبل نصح من عدلك. وتقطع من الدنيا أملك، وتسابق بالعمل الصالح أجلك، وترجع إلى الله في بقية المدّة التي إليها أمهلك، ستعلم إذا وقفك بين يديه وسألك، وعدّد عليك نعمه التي بها شملك، وقال: ما أجرأك عليّ وما حملك، وما الذي ألهاك عن ذكري وما شغلك.

وقوله من أخرى وقد ذكر الغرور بالدنيا:

حتى إذا وثقوا وتعلّقوا بحبالها، وضربت الغفلةُ على قلوبهم بأقفالها، فأصبحوا أهليهم دائمة، وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة، وبين أيديهم والله البعث والآيات، والوقوف على الهول العظيم والعقبات الصعاب، والنار ذات الوقود والالتهاب، والعذاب الذي لا يشبهه عذاب، والملائكة يشهدون عليهم والكتاب، والله يحكم لا معقب لحكمه /٣٣٨/ وهو سريع الحساب، أيها الناس تيقظوا من سنة الغفلة قبل أن تكون الحتوف لكم موقظة، واتعظوا بمن سلف من الأموات فإن فيهم عظة، واتقوا الله واخشوه بظهر الغيب فإنّ له عليكم حفظة، واغتنموا صحتكم وفراغكم قبل أن تشغلكم الشواغل، وأعدّوا ما استطعتم قبل أن تدهمكم النوازل. ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟ وكيف تخالفونه وتعصونه جهاراً؟ أظننتم أن ارتكاب الذنوب طاعة، أم أمنتم أن تأتيكم غاشية من عذاب الله أو تأتيكم الساعة، فأنى لكم إذا جاءتكم ذكراكم، وعراكم من بأس الله ما عراكم، ستخلفكم والله الظنون. وينزل بكم ريب المنون، يوم يتحاج الظالمون إذا وقفوا على النار، وقلبوا يد الافتقار، وقالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار، وردّوا على أنفسهم بالتعنيف وقبل اليوم تجزى كل نفسٍ بما كسبت، لا ظلم اليوم، فياويل العصاة والمذنبين هنالك إذا اشتدّ عليهم العذاب، ونادوا يا مالك، فينادون على أنفسهم بالويل والتباب، وأن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب فيا أيها الكادحون في الدنيا بحرص وإكباب، الجامعون المال بالنجس والانتهاب، المانعون الزكاة الواجبة بنص الكتاب، المتمسكون من السنة بأضعف الأسباب. أما علمتم أن المال مصيره للذهاب؟ وأن الرقيب عليكم ربّ الأرباب، وأنه سبحانه على الحلال يدقّق الحساب، وعلى الحرام يضاعف العذاب، فهلاّ تركتم مشبهات الأموال وحاسبتم أنفسكم في جميع الأحوال، وأديتم زكاة أموالكم على الكمال، أما آن لكم أيها المؤمنون أن تتعظوا، أما وجب عليكم أن تمتنعوا من الحرام وتتحفظوا، أعميت الأبصار أم أظلمت البصائر، أم اسودّت القلوب

لارتكاب الكبائر، أما والله إن معالم الحق لزائلة فانية، وأن الساعة لآتية، وأن أهوال القيامة لعظيمة، نسأل الله العافية، وأن زلزلة الصراط على الجحيم لكافية، وأن ملائكة العذاب على العصاة لقاسية، وإنهم ليكبّونهم على وجوههم في الهاوية، ويضرمون عليهم ناراً حامية، وأن أحدهم لينادي إذا سحبتهم الزبانية، وعاقبته عقوبة / ٣٣٩/ متوالية، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عني ما ليه، ولا أجدت عليَّ تلك الأحوال الماضية، يا ليتني كنت تراباً سهيلاً، يا ويلنا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، فتناديه الزبانية، أيها الظالم الأثيم، ذق إنك كنت العزيز الكريم، وهُن فقد كنت تسوم نفسك بالتعظيم، وأقم في الجحيم، في عذاب مقيم، فليس لك ها هنا حميم، فينقلب على وجهه مذعورا، ويدعو هنالك ثبورا، ويلقى في جهنم ملوماً مدحورا، واتبعوا رضوان الله ما دامت الأوقات لكم مطاوعة. والآجال من حكمة الأمهال في يده واسعة، ولا تمسكوا بأسباب الأمل، فإنها واهية القوى، ولا تتبعوا أهواءكم فقد خاب من اتبع الهوى، إلى متى أنتم في غمرتكم ساهون، وحتام أنتم بزينة الدنيا متباهون، تجمعون ما لستم بآكليه، وتمدون أملا لم تكونوا بالغيه، وتعملون ما حرّم الله، وتسارعون فيه، وتأكلون التراث أكلاً لما، وتحبون المال حباً جماً، وإذا زجرتم عن المعاصي تماديتم وأصررتم، وإذا قيل لكم تجافيتم واستكبرتم، أظننتم الدنيا لكم دار إقامة، أم حصلتم يقين السلامة، أم أنتم منكرون للبعث والقيامة، أما وعظكم تقلّب الزمان، أما نبهكم موت الأقران، أما رأيتم مصارع الإخوان، أو ما تُليت عليكم آيات القرآن، فهلاّ جعلتم التقوى لكم وقاية، وكيف لا تخشون الله وقد أراكم من قدرته آيةً بعد آية، فانتبهوا رحمكم الله من سنة الغفلة، فإنها بئست السنة، واعتصموا بالتقوى فإنها بالسلامة مؤذنة، وأنيبوا إلى ربكم، وامحوا أثر السيئة بالحسنة، وإياكم وحصائد الألسنة. فإن الأنفس بها مرتهنة، وما أحوالكم وأفعالكم بالتي تجوز على الله وتخفى، وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم من الله زلفى، ولا والله تصح لكم التوبة وأنتم عن الذنوب لا تقلعون، ولا تقبل منكم المعذرة وأنتم لمشتبهات الأموال تجمعون، ولا ينفعكم نصحي، وإن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون.

ومنهم:

[٥]

بدر الدين الطيبي

طلع في الحنادس بدراً، ووسع من المجالس صدراً، ونشأ لأبٍ معروف، ونسبٍ

غير مشروف، فتلا السلف وجلا السدف، ونابذ / ٣٤٠/ صناعة أبيه، وكان أي صدر، وفلك طلع منه بدر، ولم يزل عيناً للنظر، وزيناً إذا حضر، يُحمد منه الصاحب الجليس، والمصاحب الأنيس، ترتضع من أخلاقه المدام، وتتجافى المسامع منه الملام، وولي أعمالاً، وأوتي مالا، وأسمعته المسرات فطرب، وصفت له الليالي وغدران نجومها فشرب، وترك الرذائل لأنكاسها، والعواذل لجام الثريا وكاسها، ولزم ابنة الدرس فنفح لعنصره طيباً، وصنع بمنبره خطيباً. ولم تقصر به همّة رمت ببصره إلى السماء، ورقت به إلى النجم سلّما فلمع شهاباً ولمع رداء الأيام التهاباً، وأسمع بخطبه فدخل القلوب طواعية، وأخذها انتهاباً، وكتب إلى صاحبنا الشيخ شمس الدين الزمردي النحوي من خطبة ومنها قوله:

أيها الناس، قد رحل شهر الصيام، وهذه الأيام البيض من شهر الحج إلى بيت الله الحرام، أين من زهد في المقام، وعمل على وصلته إلى المقام، أين من زمزم له حادي الشوق فقام في الله حقّ القيام، أين من يحطّم بالحطيم ذنوبه وأوزاره أين من يبرّد بماء سقاية العباس حرّه ويُطفىء ناره؟ أين من يبيض وجههُ بلثم الحجر الأسود ويُجر سحائب الدموع؟ أين من يلتزم الملتزم بذلّ وخضوع؟ أين من يقبل عتبة البيت المرفوع؟ أين من يربي نفسه في الحجر ويردد زفرات أنفاسه؟ أين من يتيمن بالركن اليماني والتماسه؟ أين من يباهي الله به الملائكة عند كشف رأسه؟ أين من يرتفع على الصفا، وينهج بالشعائر، ويعلن؟ أين من هرول إلى المروة وسعى لها سعياً وهو مؤمن؟ أين من عمل على بلوغ المنى بمنى، أين من تعرف إلى الله في عرفات الهنا.

وقوله من أخرى:

تاالله أيها الغافل، قد نصحتُ لك وأوضحت لديك، فالدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، وأيم الله، إن الخطاب للخطيب لأنفع، ولكن لعلّة من قلبه الكسير يصدع، فلربما أبرأ الطبيب السقيم سقيماً، وهدى الأعمى صراطاً مستقيماً.

وقوله:

الحمد لله الخالق فلا يُعاب، ما صنع الرازق، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، العظيم الذي أعلى منازل الإسلام ورفع، الحكيم الذي ألّف أشتات القول على طاعته وجمع، واحتجب عن العيون في سرادق سرّه المصون وامتنع، أحمده حمد / ٣٤١/ من ذلّ لعزّته وخضع، وأنار في قلبه ضياء التوحيد ولمع، وأشكره شكراً إذا ذكره القلب خشع، ومُنى بأمله الطرف همع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له، شهادة أرجو بها الأمن يوم القيامة (من)[١] الفزع، وأنجو بسببها إذا اشتدّ الخطب وعظُم الجزع، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي فرق من الكفر كلّما اجتمع، وأيقظ جفن الدين بعدما هجع، وكشف هلال الشرك عندما طلع، وأقام فينا الخطب والجمع، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين جبل قلوبهم على الدين وطبع، صلاة دائمة ما غاض الماء ونبع، وخرَّ ساجد لله وركع.

أيها الناس، اعتدوا للرحلة فالسفر بعيد، واشتدّوا قبل الدخول في الرحلة فالأمر شديد، واعتبروا فالعبر في كل يوم تزيد، وبادروا بالعمل، وحاذروا مساورة الأجل، فالموت أقرب من حبل الوريد. وانتهزوا الفرصة قبل يوم الوعيد. تذكروا رحمكم الله هل من خلد من كان قبلكم في هذه الدنيا. لا والله، لقد عفت من بعدهم الآثار، ولم تبق إلا روايات وأخبار، إن الحياة الدنيا لعب ولهو، وإن الآخرة هي دار القرار، تأملوا كيف نقلوا من القصور إلى القبور، وحكم عليهم العدلُ الذي لا يجور، جرى القلم على الأمم بما حكم في الكتاب المسطور، أين الأمم الخالية، أين أصحاب الهمم العالية، صاروا والله عظاماً بالية، تغيرت منهم المحاسن وزالت، وذهبت عنهم تلك النظارة ومالت. وذوت تلك الغصون الزاهية ومالت فاتقوا الله واحذروه، وقدّموا بين أيديكم ما تجدوه.

* * *

آخر السفر الثالث عشر من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

ويتلوه إن شاء الله في السفر الرابع عشر

وأما الشعراء فقد تقدم في هذا ما فيه لناظر مستمع ولسامع بلاغ

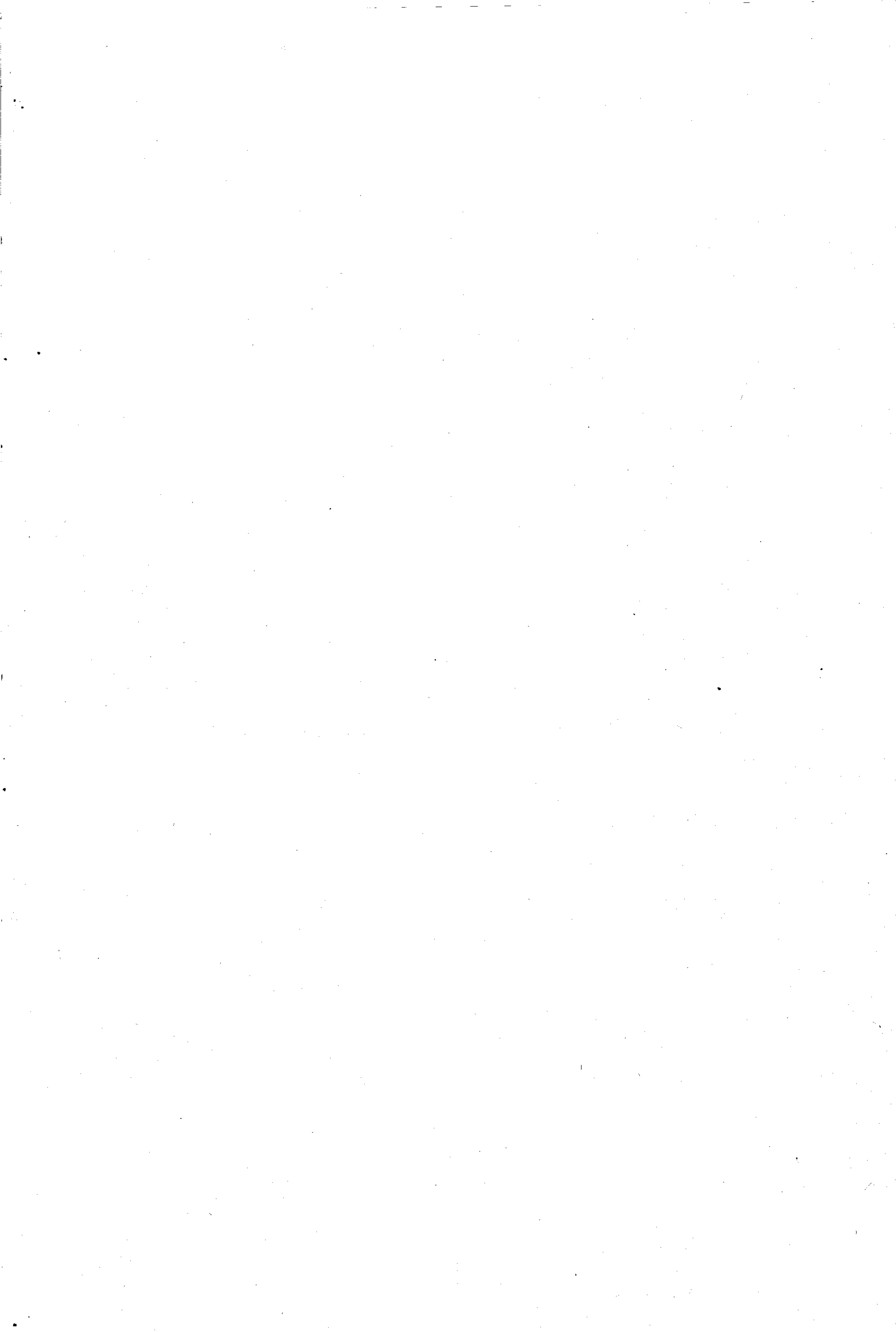
الحمد لله وحده

وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.



مصادر التحقيق

* **الإحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٨.
* **الاشتقاق**، لابن دريد، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط٢، بغداد، ١٩٧٩.
* **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* **الأعلام**، خير الدين الزركلي، ط٤، بيروت ١٩٧٩.
* **الأمثال**، للميداني.
* **أنساب الأشراف**، للبلاذري، تحقيق محمود الفردوس العظم، دمشق، ١٩٩٧.
* **بدائع البدانة**، لابن ظاهر الأزدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٠.
* **البداية والنهاية**، الحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٠.
* **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق إبراهيم شبوح، دمشق، ١٩٦٢.
* **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، لابن عميرة الضبي، مجريط، ١٨٨٤.
* **بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة**، لجلال الدين السيوطي، القاهرة، ١٣٢٦ هـ.
* **البيان والتبيين**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨.
* **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لابن عذارى المراكشي.
* **تاريخ الأدب العربي**، كارول بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر.
* **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، بيروت، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى.
* **تاريخ التراث العربي**، د. فؤاد سزكين.
* **تاريخ ابن خلدون**، بيروت، طبعة مصورة من طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ.
* **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق ضياء الدين العمري، النجف.
* **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، لحمزة ابن الحسن الأصفهاني، بيروت.
* **تاريخ اليعقوبي**، لابن واضح اليعقوبي، ط٣، النجف، ١٩٧٤.
* **التكملة لوفيات النقلة**، لزكي الدين أبي محمد بن عبد العظيم المنذري، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت.
* **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥.
* **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، لأبي عبد الله الحميري، تحقيق محمد ابن تاويت، القاهرة، ١٩٥٢.
* **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، لشهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٩٨٠.
* **حماسة البحتري**، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، دار الكتاب العربي، بيروت.
* **خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم شعراء المغرب والأندلس**، لعماد الأصفهاني، تحقيق أذرتاش أذرنوس، تونس ١٩٦١.
* **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، لعبد

القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة.
* **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،** لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٧.
* **ديوان امرىء القيس،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٨.
* **ديوان أوس بن حجر،** تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر ١٩٦٠.
* **ديوان الحماسة،** لأبي تمام الطائي، تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح، بغداد، ١٩٨٠.
* **ديوان دعبل بن علي الخزاعي،** تحقيق عبد الصاحب الدجيلي، النجف، ١٩٦٣.
* **ديوان الطغرائي،** تحقيق د. علي جواد الطاهر ود. يحيى الجبوري، بغداد ١٩٧٦.
* **ديوان الفرزدق،** طبعة دار صادر، بيروت.
* **ديوان الفضل بن العباس اللهبي،** تحقيق مهدي عبد الحسين النجم، بيروت، ١٩٩٩.
* **ديوان المتنبي،** لأبي الطيب أحمد بن الحسين، طبعة صادر، ١٩٦٤.
* **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،** لابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، تونس ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩.
* **رايات المبرزين وغايات المميزين،** لابن سعيد المغربي، تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضي، القاهرة، ١٩٧٣.
* **الروض المعطار في خبر الأقطار،** محمد بن عبد العظيم الحميري، د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤.
* **الروضتين في أخبار الدولتين،** لأبي شامة، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ١٩٦٢.
* **زهر الآداب وثمر الألباب،** لأبي إسحاق الحصري، تحقيق زكي مبارك، بيروت.
* **سير أعلام النبلاء،** لشمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨.
* **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** لابن العماد الحنبلي، بيروت.
* **شعر الخوارج،** جمع الدكتور إحسان عباس، ط٣، بيروت ١٩٧٤.
* **الشعر والشعراء،** ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٧.
* **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب،** لأحمد ابن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، ١٩٧٨.
* **صفة الصفوة،** لابن الجوزي، حيدر آباد الدكن.
* **صحيح البخاري** ، المطبعة المنبرية، القاهرة، ١٩٢٩.
* **صحيح مسلم.**
* **صبح الأعشى في صناعة الإنشا،** للقلقشندي، القاهرة. ط دار الكتب.
* **الصلة،** لابن بشكوال، تحقيق عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٥.
***طبقات ابن سعد،** لمحمد بن سعد، كتاب التحرير، القاهرة ١٩٦٦.
* **العبر في خبر من عثر،** لشمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.
* **عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري،** دار الكتب المصرية، القاهرة.
* **عيوان التواريخ (٦٨٨ ـ ٦٩٩ هـ)،** لابن شاكر الكتبي، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، بغداد، ١٩٩١.
* **فوات الوفيات،** لابن شاكر الكتبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥١.
* **قلائد العقيان،** الفتح بن خاقان، تحقيق د. حسن يوسف خربوش، عثمان، ١٩٨٩.
* **كتاب العصا،** لأسامة بن منقذ، نقاش المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة.

* **المحمدون من الشعراء**، علي بن يوسف القفطي، تحقيق حسن معمري، بيروت، ١٩٧٠.
* **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، لسبط ابن الجوزي، حيدر آباد الدكن، ١٩٥١.
* **المعارف**، لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٦٠.
* **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي، (القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٥٧).
* **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، طبعة دار صادر، بيروت.
* **معجم الشعراء للمرزباني**، تحقيق عبد السلام أحمد فراج، القاهرة ١٩٦٠.
* **معجم الصدفي**.
* **المغرب في حلي المغرب**، لابن سعيد المغربي، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف ط٢.
* **المفضليات**، للفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف.
* **منامات الوهراني ومقاماته ورسائله**، لركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني. تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، القاهرة ١٩٦٨.
* **من اسمه عمرو من الشعراء**، لمحمد بن داود الجراح، تحقيق د. محسن غياض ود. مصطفى عبد اللطيف حياووك، بغداد ١٩٩٩.
* **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، لابن تغري بردي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، القاهرة ١٩٥٦.
* **المؤتلف والمختلف**، للآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٦١.
* **الموشح**، للمرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٥.
* **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٤.
* **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ ـ ١٩٧٢.
* **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، للشريف الإدريسي، تحقيق راينهارت دوزي وميخائيل دي خوية، امستردام ١٩٦٩.
* **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، للمقري، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨.
* **نهاية الأرب في فنون الأدب**، للنويري، طبعة دار الكتب المصرية.
* **هدية العارفين**، إسماعيل بن محمد أمين البغدادي، استانبول ١٩٥١.
* **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، إصدار جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت.
* **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، ١٩٧٧.
* **يتيمة الدهر**، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة، ١٩٥٦.

فهرس المحتويات